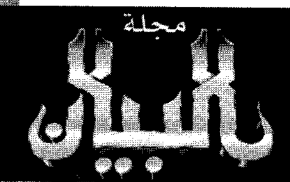
تقرير
ارتيادي
(استراتيجي)
سنوي
يصدر عن

مجلة
البيان

الواقع الدولي ومستقبل الأمة



الإصدار الخامس
١٤٢٩ هـ





واقع الدولي ومستقبل الأمة

هذا التقرير بالتعاون بين مجلة البيان والمركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة

الإصدار الخامس
1429هـ
(ردمد ISSN:1658 - 127X)

مجلة البيان: الرياض ١١٤٩٦ - ص. ب: ٢٦٩٧٠
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ - ٠٠٩٦٦١ - فاكس: ٤٥٣٢١٢١ - ٠٠٩٦٦١
www.albayan-magazine.com

مكتب بريطانيا: لندن - هاتف: ٠٠٤٤٢٠٧-٧٣٦٩٠٦٠ - فاكس: ٠٠٤٤٢٠٧-٧٣٦٤٢٥٥
مكتب قطر: الدوحة - هاتف: ٤٤٤١٠٤٤ - ٠٠٩٧٤ - فاكس: ٤٣٢٧١٦٧ - ٠٠٩٧٤
مكتب السودان: الخرطوم - هاتف وفاكس: ٢١٢١٨٣ - ٠٠٢٤٩١٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم. ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد،

تتسارع أحداث العالم الفكرية والسياسية بوتيرة أسرع من معظم الأزمنة السابقة، وتتطور تلك الأحداث لتتفاعل مع الجهود الإسلامية المتعددة الرامية للحفاظ على الأمة، والدعوة إلى الإسلام، وتطوير المجتمعات المسلمة لتواكب التغيرات الدولية، مع الحفاظ على مصادر قوة الأمة وعزتها، وتعزيز دورها الدولي والإقليمي أيضًا. ولا يخفى على المراقب لأحداث عام مضى أن العالم الإسلامي قد استمر في كونه بؤرة الاهتمام السياسي الدولي في الأعوام الأخيرة، ومحط اهتمام وتنافس الكثير من القوى العالمية أيضًا. وقد انعكست هذه المكانة الخاصة للعالم الإسلامي في ظل مظاهر سيادة العولمة الكونية على طبيعة مشاكل المنطقة، والأزمات التي ظهرت بشكل متلاحق في العديد من أنحاء أوطاننا، وتزايد حجم التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية.

ولا شك أن كل ما سبق يؤكد الحاجة إلى التقارير الارتيادية التي تقدم رؤى عصرية منضبطة، من خلال جهد فكري منظم، ونظرة استراتيجية، تُعين متخذي القرار في تعاملاتهم مع تلك التحديات، وتضع بين أيديهم مجموعة من الخيارات والحلول لتلك المشاكل، وهو ما نحرص عليه في تقرير البيان الارتيادي الذي يصدر في مطلع كل عام. ومع تزايد الاهتمام الدولي بالعالم الإسلامي، فإن قيمة التقارير الارتيادية (الاستراتيجية) تزداد، وتصبح محورية في المساهمة في رصد وتحليل واقع الأمة، وتقديم رؤى مستقبلية تساند صانع القرار في العالم الإسلامي، وتقوِّي من شوكة الأمة وقياداتها.

ويأتي الإصدار الخامس للتقرير الارتيادي (الاستراتيجي) لمجلة البيان في هذا العام ليستكمل الجهد الساعي إلى المساهمة في ترشيد الرؤى، وخدمة صُنّاع القرار الإسلامي، في المجالات السياسية والفكرية، وقضايا العمل الإسلامي. ولقد حرصنا في هذا التقرير على الحفاظ على تقديم رؤية تنطلق من الجذور الثقافية والفكرية للأمة، وأن نعمل على إبراز الأفكار والخطوات العملية السياسية الإسلامية التي تتفاعل مع الواقع الذي تعيشه الأمة، وسط تحديات داخلية وخارجية ضخمة ومنوعة، وألا نكتفي بإلقاء الضوء على المشكلات، وإنما يقترن ذلك بتقديم رؤى ارتيادية (استراتيجية) للتعامل مع التحديات التي تواجه العالم الإسلامي.

اعتمد التقرير في هذا العام أيضًا على تسهيل الاستفادة من الدراسات والبحوث المقدَّمة بصورة كاملة؛ من خلال مجموعة من الخدمات التحريرية التي تساهم في تركيز المعلومات وتوثيقها، وإبراز الجوانب الهامة والأفكار الأساسية في كل دراسة، وحصر أهم العناصر المتناولة في بداية كل بحث، فضلاً عن إبراز الأفكار المهمة في إطار مميز داخل كل دراسة، كما وُضِعَ مختصر في بداية الدراسات يمكن من خلاله الوقوف على الفكرة الأساسية التي يتناولها

المقدمة

البحث، وأهم النتائج التي يتوصل إليها. كما حاولنا - ما أمكن - أن نوثق بعض الأفكار، أو المصطلحات التي وردت في ثنايا البحث بإيجاز، من خلال المعلومات الإضافية التي تُذَيِّل كل دراسة؛ لتوضيح ما قد يصعب على الباحث تضمينه في ثنايا بحثه.

حرصنا أيضًا في هذا العام على إضافة تعريفات بأسماء الباحثين المشاركين في التقرير الارتيادي الخامس في مقدمة التقرير، وتعريف القارئ الكريم باهتمامات هذه النخبة من الباحثين وإنتاجهم، وكيفية التواصل معهم، ونحن على ثقة أن التفاعل والتواصل مع كُتّاب التقرير والباحثين المشاركين فيه سوف يثري مشروع التقرير الارتيادي (الاستراتيجي) لمجلة البيان، ويطوِّر الاستفادة منه. وفي هذا الإطار، فإن المجلة قد أفردت موقعًا إلكترونيًا خاصًا بالتقرير، وهو ما تم الإعلان عنه مؤخرًا، ونأمل أن يساهم الموقع مساهمة فعالة في دوام التواصل بين قراء التقرير، وبين الهيئة الاستشارية والتحريرية له. الموقع الإلكتروني الخاص بالتقرير هو: www.albayan-report.com

وقد جمع هذا التقرير نخبة من الباحثين والمفكرين المشاركين في الدراسات التي تضمنها تقرير هذا العام. وقد حرصت هيئة التحرير على أن تكون هذه النخبة ممثلة للتنوع الفكري والجغرافي لبلدان العالم الإسلامي، إضافة إلى باحثين من خارج العالم الإسلامي أيضًا. ولقد شارك في إعداد دراسات تقرير هذا العام واحد وعشرون باحثًا من مجموعة من دول العالم الإسلامي من بينها مصر والسعودية والسودان، وفلسطين والعراق ولبنان والأردن وبريطانيا، مما نأمل أن يضيف إلى قوة التقرير وتنوع أبحاثه المزيد من التميز في الطرح، والشمولية في تناول قضايا وموضوعات هذا الإصدار.

يلقي التقرير الارتيادي (الاستراتيجي) في إصداره الخامس الضوء على مجموعة من القضايا التي تؤثر في الواقع الدولي وتحدياته، وتمس مستقبل الأمة، محتويًا على خمسة أبواب، تعالج أهم القضايا التي يحتاج إليها صُناع القرار. وقد جاء الباب الأول (النظرية والفكر) مشتملاً على أربع دراسات لصيقة الصلة بواقع الأمة ومستقبلها، بدءًا بـ «الرؤية الغربية للدولة المدنية» التي تناول فيها الباحث ظاهرة الدولة التي تعبر عن واقع سياسي معين نشأ وتطور في أوروبا في القرن التاسع عشر، ما يجعلها غير صالحة بالضرورة للتطبيق لا في واقع أوروبي، خارج هذا النطاق الزمني ولا - بالأحرى - في واقع سياسي آخر مختلف في أوضاعه الحضارية وقيمه الدينية والاجتماعية.

تقدم دراسة «مفهوم الاجتهاد السياسي وضوابطه» في نفس الباب أيضًا محاولة لضبط الاجتهاد السياسي، ودوره في كيفية تطبيق الأصول على الفروع، ومعالجة النوازل التي تحتاج إلى عميق نظر، خاصة في ظل الأحوال والظروف التي تمر بها الأمة، وتحتاج معها لنظر سياسي متميز الاستخدام، وضبط الوسائل والذرائع دون تضييع للشرع أو الخلق. كما عالجت دراسة «قراءة نقدية لمفاهيم الولاء والبراء» أصلاً عظيمًا من أصول الدين، وأحوال الناس مع الولاء والبراء، خاصة في ظل واقع جديد قد يؤثر في طرق التعبير عن الولاء والبراء، كما قد يؤثر أثرًا سيئًا بتقرير مفاهيم جديدة قد تكون معقد ولاء وبراء لا ينبغي أن تكون بمعقد، سواء داخل المجتمع المسلم أو بين المجتمعات المسلمة وغيرها من المجتمعات.. وأخيرًا جاءت دراسة «تصورات غربية للشخصية المسلمة» مبرزة حقيقة النظرة الغربية للشخصية المسلمة، وأهم النقاط في استراتيجية الغرب لتغيير تلك الشخصية، سواء دعواته لما يسمى بتجديد الخطاب الديني، أو المحاولة لإحلال القيم الغربية محل القيم الإسلامية، فضلاً عن المخططات للنيل من مصداقية وأهمية الحديث النبوي الشريف الهادفة إلى تغيير الإسلام والمسلمين، مع بيان أهم آليات تلك الاستراتيجية.

أما الباب الثاني فاحتوى الملف الرئيس للتقرير الذي أتى تحت عنوان (التراجع الأمريكي) مشتملاً على خمس دراسات،

المقدمة

تتناول مظاهر التراجع الأمريكي من زوايا مختلفة لتؤكد في مجموعها على فكرة التراجع الأمريكي وحقيقتها.

جاءت الدراسة الأولى في هذا الباب «المؤشرات الدولية للتراجع الأمريكي» لتلفت النظر إلى التشابه الكبير بين الأوضاع الحالية للولايات المتحدة، وما كان عليه الحال في روما القديمة قبل سقوطها وانهيارها، مستدلاً على ذلك بجوانب الفشل الأمريكي المتعددة داخليًا وخارجيًا، في الوقت الذي تتسابق فيه دول وكيانات أخرى لموضع الصدارة، مؤكدًا على أن التراجع الأمريكي سيصب حتمًا في صالح الأمة الإسلامية حال استفاد المسلمون من تفاعلاته. وفي دراسة تالية تحت عنوان «واقع ومستقبل المشروع الإمبراطوري الأمريكي» يشير الباحث للمنعطف الذي يمر به المشروع الإمبراطوري الأمريكي في ضوء نتائجه الهزيلة، وآفاقه المجهولة، وقصور موارده عن الوفاء باحتياجات ذلك المشروع الإمبراطوري، بما يؤشر في النهاية لقرب انتهائه. ثم ينتقل الملف عبر دراسة «قراءة للواقع الداخلي الأمريكي» إلى الداخل الأمريكي وتفاعلاته، مؤكدًا على أهمية فهم الواقع الاجتماعي الغربي والأمريكي تحديدًا، وأن معرفة النظرة العامة للشعوب تجاه القضايا والأحداث تُعين على فهم السياسات الخارجية التي تنطلق من دول تلك الشعوب، وينتهي البحث بتقديم رؤية حول مستقبل التراجع الأمريكي ومؤشراته. كما يناقش التقرير في دراسة «العراق والتراجع الأمريكي» دور المقاومة العراقية في إفشال المخطط الأمريكي؛ بعدما نجحت في استغلال نقاط الضعف الأمريكية بشكل ممتاز، كما يُبرز البحث معالم الانكسار الأمريكي في العراق، مع تصاعد الاستنزاف العسكري والبشري والاقتصادي. ويختتم ملف التقرير بدراسة «مستقبل الهيمنة الاقتصادية الأمريكية» ليرصد نقاط الضعف في الاقتصاد الأمريكي التي تجعل قضية استمرار الهيمنة الاقتصادية الأمريكية محل نظر، رغم ما للاقتصاد الأمريكي من قوة تأثير على مختلف الاقتصاديات الدولية.

تضمن التقرير في بابه الثالث مجموعة من قضايا العالم الإسلامي، قدَّم الباحثون من خلالها رؤية تحليلية لجوانب تلك القضايا، وتأثيراتها على الأمة، مع حضور واضح للنظرة الاستشرافية أثناء المعالجة. يبدأ الباب الثالث بدراسة «تركيا ومستقبل التدافع الإسلامي -العلماني»؛ ليؤكد الأُفول الذي تواجهه العلمانية على المستوى الفكري والسياسي والأخلاقي في تركيا، كما في العالم كله، ما يجعل مستقبل التدافع الإسلامي - العلماني في تركيا محسومًا لصالح الإسلام والتيار الاجتماعي الذي يمثله. وترصد دراسة تالية «التغيرات الاجتماعية في العراق بعد الغزو الأمريكي» التغيرات التي أصابت المجتمع العراقي جراء الغزو الأمريكي، مؤكدة على أن الاحتلال هو أساس المشاكل في بلاد الرافدين، وأنَّ تصرفاته الهمجية اليومية وراء التراجع الكبير الذي شهدته مفاصل المجتمع العراقي. كما أنها عملت بشكل كبير على تحطيم دعامات المجتمع، وتمزيق نسيجه، مما انعكس بصورة واضحة على مكونات المجتمع الداخلي. أما دراسة «باكستان ومآلات التحالف الأمريكي» فتؤكد أنه في ظل التحالف الذي جمع باكستان والولايات المتحدة، وفي ظل تجاوز النظام للاعتبارات الدينية، فقد أدخل مشرف نفسه في مأزق تجاوز خطره تهديدَ النظام إلى تهديد بنية الدولة ذاتها؛ بسبب تنازلاته التي قدَّمها لأطراف خارجية على حساب قضايا حساسة، تأتي في مقدمة أولويات الأمن القومي الباكستاني. ويُختتَم الباب بدراسة «الاستراتيجية الغربية لاحتواء الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء»، التي تحذر من الأجندة الغربية التي وضعت الوجود العربي في إفريقيا على قمة أولوياتها، وراحت ترسم للقارة على العموم، ولإفريقيا جنوب الصحراء خاصة، مصيرًا يهدف إلى عزل الوجود العربي والإسلامي شمال القارة عن جنوبها.

أما التقرير في بابه الرابع فقد تضمن أربع دراسات تهتم بقضايا (العمل الإسلامي) ومشاكله وتطوير آلياته واستشراف آفاقه.

قدمت دراسة «رؤية لآفاق تطوير العمل الخيري الدعوي»، التي بدأ بها الباب، تصورًا لكيفية الارتقاء بالمؤسسات الخيرية الإسلامية، عن طريق الاهتمام بالتطوير، والتغيير المخطط الذي تحتاجه تلك المؤسسات كعنصر مهم للارتقاء

المقدمة

بأدائها والقائمين عليها، كما تحتاج بالدرجة ذاتها إلى التدريب، ورفع مستوى الكفاءات الإدارية والدعوية. كما يؤكد البحث أن العمل الخيري يحتاج إلى غطاء إعلامي يبرز إنجازاته المشرقة، ويدفع الشبهات والأوهام التي قد يثيرها بشأنه بعض المبطلين. وفي دراسة تالية بعنوان «تجارب معاصرة في القيادة العلمية للأمة» يبين الباحث خطورة افتقاد الأمة لقيادات علمية حقيقية، ويناقش الأسباب التي أدت إلى غياب الرموز العلمية، وانحسار دورها اجتماعيًا وسياسيًا؛ ليقتصر في الغالب على أوساط المتديِّنين. كما يعرض لبعض النماذج العلمية المعاصرة مبينًا جوانب التميز في تكوين شخصياتها، والعوامل التي أدت لنجاح مشاريعها. كما اشتمل الباب الثالث على دراسة هامة تسعى لإبراز أهمية الفتوى في واقعنا المعاصر من خلال بحث «الدور المعاصر للفتوى»، الذي تناول فيه الباحث الوسائط المتعلقة بالفتيا المعاصرة، من حيث هي شديدة النفع، شديدة الخطر في آن واحد، مؤكدًا على جملة ضوابط يحسن للمفتي والمستفتي الأخذ بها؛ حتى تؤتي الفتيا المباشرة والمعاصرة أُكلها. وتناولت دراسة «التيارات السلفية وخيارات المستقبل» أنماط التيار السلفي، وإشكالاته الداخلية ومستقبله، فضلاً عن الرؤية الغربية التي تعمل على تحويل التيارات السلفية إلى عدو يحظى بأولوية المواجهة، خاصة أنه يعتبرها المزود البشري للحركات الجهادية، وهو التصور النابع من افتقاد التحليلات الأمريكية للمعايير الدقيقة التي تمكنها من التفريق بين مختلف التيارات.

أما الباب الخامس للتقرير فقد اشتمل على أربعة أبحاث متنوعة، تضمنت دراسة هامة حول «الوجود الإسلامي في أوروبا وخطر الاندماج»، ومستقبل هذا الوجود، خاصة في ظل غياب الدراسات الإسلامية المتكاملة بشأنها، وسيطرة الخطاب الانهزامي الاستجدائي على الخطاب الإسلامي حول هذه القضية، مما جعل المسلمين في الغرب تحت رحى ثالوث مُدمِّر، يتمثل في خطر الاندماج والذوبان، وخطر الانعزال والانغلاق، وخطر استعداء الغرب، والبدء في الصدام من الداخل، ودون إذن الأمة. وجاءت دراسة «الفوارق الدينية في الغرب والعلاقة مع العالم الاسلامي» لتبرز مدى تأثير الدين على التوجهات السياسية الغربية، وتثير التساؤل حول سبب تراجع النصرانية في أرضها، خاصة في الغرب الكاثوليكي والبروتستانتي، رغم أنها تنتشر في العالم الثالث، فيما تشير المعلومات والتقارير إلى أن الإسلام هو الأسرع انتشارًا في الغرب. ورصدت دراسة «أهداف وسياسات الإعلام الأجنبي باللغة العربية» ظاهرة الإعلام الأجنبي الموجه، والناطق بالعربية كظاهرة مهمة في المنطقة العربية، خلال السنوات الأخيرة، ودورها المؤثر في نشر أفكار الغرب، وترويج سياساته، وأبرز الباحث عددًا من التحديات التي أدت إلى فشل بعض المؤسسات الإعلامية الناطقة بالعربية، وتواضع النتائج التي حققها البعض الآخر. ويرجّح البحث أن تستمر هذه التحديات كتحديات مستقبلية، تحكم مسار تلك المؤسسات، وتحدد مدى نجاحها أو فشلها. وخُتم التقرير بدراسة «تطور العلاقات العربية وتأثير الغرب عليها»، التي استعرضت تطور العلاقات العربية البينية، وتأثير الغرب على تلك العلاقة التي تعرضت لمشاريع غربية عديدة، جعلت العالم العربي حقلاً للتجارب الاستعمارية، مما ولَّد لديه شعورًا بالتوحد مع خاطفيه، وهو المرض الذي سيطر على الجسد العربي لعقود ماضيات.

وتسعى مجلة البيان، بالتعاون مع الهيئة الاستشارية، وهيئة تحرير التقرير الارتيادي (الاستراتيجي) إلى أن يكون تقرير العام القادم - بإذن الله - نقلة نوعية في مسيرة التقرير الارتيادي للمجلة، وأن يجمع هذا التقرير القادم - بعون الله تعالى - العديد من ملامح التطوير على أكثر من صعيد، بما يمكن معه الاقتراب أكثر من الأهداف التي خطها التقرير لنفسه منذ إصداره الأول.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفهرس

الواقع الدولي ومستقبل الأمة

الباحثون المشاركون بالتقرير

د. عبدالعزيز عبدالغني صقر- مصر

Professor, Monterey Institute of International Studies, USA

- شغل عدة مناصب منها مدير الأبحاث ودعم اتخاذ القرار - جامعة القاهرة (١٩٩٠- ٢٠٠٣م)، أستاذ العلوم السياسية بقسم العلوم السياسية، كلية التجارة، جامعة الإسكندرية (١٩٩٠- ١٩٩٧م).

- حاصل على دكتوراة الفلسفة في العلوم السياسية، كلية التجارة، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٠م.

- له العديد من الكتب والدراسات المنشورة منها: القوى السياسية في المجتمع المصري، بحث في: (الأمة في عام)- الفقه الإسلامي والعلاقات الدولية- النقد الغربي للفكرة الديمقراطية - النظرية والتطبيق.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: azizsakr@gmail.com

....

د. علاء الدين الأمين الزاكي مصطفى- السودان

- أستاذ مشارك بجامعة الخرطوم، رئيس قسم الثقافة الإسلامية جامعة الخرطوم.

- عضو المجلس الاستشاري لوزير الإرشاد حاليًا، عضو المجلس الأعلى للدعوة بجمهورية السودان، عضو هيئة علماء السودان، الأمين العام للرابطة الشريعة للعلماء والدعاة بالسودان، عضو دائرة الأديان بالمركز العالمي لأبحاث الإيمان.

- له أكثر من عشرين كتابًا وبحثًا علميًا محكمًا منشورة داخل السودان وخارج السودان.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: alzakiii@yahoo.com.uk

....

أ. إبراهيم عبدالله محمد الأزرق - السودان

- رئيس القسم الفني بإدارة الحاسوب - جامعة أم درمان الإسلامية.

- عضو المجلس الاستشاري بمنظمة المشكاة الخيرية - السودان.

- مستشار تربوي ورئيس لجنة إنتاج المشرف بموقع المسلم، رئيس المكتب العلمي الذي يشرف عليه الأستاذ الدكتور ناصر العمر.

- له العديد من الأعمال المنشورة والمطبوعة منها: دراسة «المنطلقات الأصولية للحملة الأمريكية على العراق»، ودراسة «مفهوم الإرهاب» (مطبوعة من قِبل منظمة المشكاة السودان).

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: ibraheam@gmail.com

أ. بشير عبد الفتاح -مصر

- باحث سياسي وصحفي بمؤسسة الأهرام المصرية، وسكرتير تحرير فصلية «الديمقراطية» .

عمل باحثًا سياسيًا بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم انتقل إلى العمل بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

شارك في العديد من الندوات السياسية والفكرية والمؤتمرات العلمية والبحثية.

له مؤلفات عديدة ما بين الدراسات والأبحاث والكتب، ومن أبرز كتبه «الخصوصية الثقافية والعولمة»، و«إشكالية الهيمنة الأمريكية».

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: beshir_a@hotmail.com

....

د. عبد العزيز كامل - مصر

- عضو هيئة تحرير ومجلس إدارة مجلة البيان.

- محاضر سابق بجامعة الملك سعود بالرياض، حاصل على دكتوراه في أصول الدين.

- مدير مركز أجيال (للبحث العلمي والإعلامي)، والمشرف العام على موقع لواء الشريعة.

- من المهتمين بالقضايا السياسية للعالم الإسلامي

- من إنتاجه (معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية) و(قبل أن يهدم الأقصى)، و(حمى سنة 2000)، بجانب عدد من الدراسات الدعوية والتربوية.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: d.akm@hotmail.com

....

د. مازن عبدالكريم النجار - فلسطين

- أكاديمي عربي مختص في الإدارة ونظم الإنتاج، وكاتب ومترجم في شئون الإدارة والثقافة والعلوم، وباحث مهتم بالاقتصاد والتاريخ والاجتماع الإنساني.

- شغل عدة مناصب أكاديمية منها أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية بأكاديمية فلوريدا الإسلامية (١٩٩٢-٢٠٠١م)، أستاذ اللغة العربية، قسم اللغات واللغويات، بجامعة جنوب فلوريدا (١٩٨٨-١٩٩٤م)، كما شغل منصب الأمين العام لاتحاد علماء الاجتماع المسلمين في أمريكا الشمالية (١٩٩٥-١٩٩٧م).

- مؤسس مشارك ومدير تنفيذي لـ«مركز دراسات الإسلام والعالم»، ومحرر مشارك لمجلة الأبحاث الفصلية المحكمة «قراءات سياسية».

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد drmazin1@yahoo.com

د. باسم خفاجي - مصر

- نائب رئيس تحرير التقرير الاستراتيجي لمجلة البيان.

- مدير وحدة الأبحاث والدراسات بالمركز العربي للدراسات الإنسانية.

_ مهتم بقضايا علاقة الأمة الإسلامية بالغرب.

- له عدد من الكتب والدراسات المنشورة من بينها كتاب «الشخصية الأمريكية»، وكتاب «لماذا يكرهونه».

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد : b.khafagy@e-l-m-e.com

....

أ. علي حسين باكير- الأردن

- كاتب وباحث في العلاقات الدولية، مهتم بالشئون الاستراتيجية ومتابع للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، والقضايا الاستراتيجية ذات الصلة بالنفط والطاقة النووية.

- له العديد من الكتابات والتقارير والترجمات والأبحاث، والدراسات المنشورة في أبرز الصحف والمجلات والدوريات ومراكز الأبحاث العربية، إضافة إلى المواقع الإلكترونية.

- تُرجمت العديد من أعماله إلى العديد من اللغات، ومن ضمنها التقرير الشهير عن حقيقة عدد القتلى الأمريكيين في العراق، وتم نشره في ست لغات، هي اليابانية والتركية والإنكليزية والفرنسية والفارسية إلى جانب العربية.

يمكن التواصل مع الباحث عبر العنوان الإلكتروني: www.maktoobblog.com/alibakeer

....

أ. ممدوح خليل السيد الولي - مصر

- نائب مدير تحرير - للشئون الاقتصادية - بجريدة الأهرام المصرية.

- شغل منصب أمين صندوق نقابة الصحفيين المصريين من عام ١٩٩٩ الى أكتوبر ٢٠٠٧م.

- متخصص في شئون سوق النقد (المصارف والبورصة)، محلل اقتصادى للتطورات الجارية بالاقتصاد العربي والدولي.

- له ثلاثة كتب مطبوعة هي «سكان العشش والعشوائيات - الخريطة الإسكانية للمحافظات» عام ١٩٩٣م. «أداء البنوك المصرية» ١٩٩٨م، «بورصات الأوراق المالية العربية ما بين دفع التنمية وإعاقتها» ٢٠٠٧م.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: mamdouhec@maktoob.com

د.كمال السعيد حبيب - مصر

- متخصص مصري في شئون تركيا والجماعات الإسلامية.

- حاصل على دكتوراه العلوم السياسية من جامعة القاهرة - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

- له العديد من الأبحاث المنشورة والمقدَّمة لمؤتمرات علمية، بجانب عدد من الكتب المنشورة أهمها: تحولات الحركة الإسلامية والاستراتيجية الأمريكية، الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة، الإسلام في آسيا الوسطى.

- يكتب للعديد من الصحف والدوريات عن الجماعات الإسلامية وتركيا.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: Elsaid67@hotmail.com

....

د. حسين الرشيد – العراق

- كاتب وباحث عراقي، عمل في مجال الإعلام، ونشط فيه في فترة ما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، وشارك في تأسيس بعض المراكز الإعلامية والبحثية.

- يهتم بالشئون العراقية ودراستها دراسة تحليلية وموضوعية، وله ما يقرب من عشرة مؤلفات طُبِعَ بعضها.

- حصل على العديد من الجوائز وشهادات التقدير، وله العديد من المشاركات في المؤتمرات القُطْرية والدولية.

- جهوده الإعلامية منشورة في كثير من مواقع الشبكة الدولية (الإنترنت)، وعدد من الصحف والمجلات والدوريات والتقارير.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: alballak@yahoo.com

....

أ. محمد عادل – مصر

- سكرتير تحرير التقرير الاستراتيجي لمجلة البيان.

- باحث بالمركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة.

- له اهتمام خاص بمنطقة روسيا وآسيا الوسطى، وله عدد من الدراسات والأبحاث المتعلقة بتلك المنطقة.

من أهم أعماله المنشورة: مسلمو روسيا ومشاريع الاستقلال (كتاب منشور ضمن سلسلة رؤى معاصرة)

الصحوة في آسيا الوسطى، (دراسة ضمن التقرير الاستراتيجي الثالث لمجلة البيان).

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: Abo_abdo209@hotmail.com

أ. عصام عبد الباسط زيدان- مصر

باحث سياسي له اهتمام بالشئون العربية والإفريقية، ولديه العديد من الإسهامات في هذا المجال منها:

دارفور ملتقى الإرادات ومنتهى الغايات، إفريقيا بحر الثروات وأتون الصراعات، إفريقيا بين الخيالات العربية وصراع الرغبات الغربية.

- حاصل على عدة مؤهلات علمية منها: بكالوريوس علوم سياسية من جامعة الإسكندرية المصرية، ليسانس شريعة من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: Essam_zedan30@hotmail.com

....

أ. أحمد الصويان - السعودية

- رئيس تحرير التقرير الارتيادي (الاستراتيجي) لمجلة البيان.

- رئيس تحرير مجلة البيان.

- رئيس رابطة الصحافة الإسلامية.

- له اهتمامات في مجال الدعوة والعلوم الشرعية.

- له العديد من الدراسات والكتب المنشورة على مدى العقدين الماضيين، منها «أصول وقواعد منهجية.. قراءات في السنة النبوية»، و«في البناء الدعوي»، و«الافتقار إلى الله لبّ العبودية».

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد:

alsowayan@albayan.co.uk

....

د. عبد الحي يوسف - السودان

- أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم ـ نائب رئيس هيئة العلماء ـ عضو مجمع الفقه الإسلامي السوداني.

- حاصل على الماجستير «الدولة في الإسلام» من جامعة الخرطوم ـ قسم الدراسات الإسلامية.

- حاصل على الدكتوراه «الاستبداد السياسي (الأسباب والعلاج)» من جامعة الخرطوم ـ قسم الدراسات الإسلامية.

- من أعماله المنشورة: كتاب «الدولة في الإسلام»، كتاب «الاستبداد السياسي ـ الأسباب والعلاج في منظور الكتاب والسنة»، كتيب «كلمات للمرأة»، مجموعة «فتاوى المشكاة» في ستة أجزاء.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: abo.umer@hotmail.com

د محمد يسري – مصر

- باحث بالمركز القومي للبحوث بالجيزة، مصر، ورئيس مركز البحوث بالجامعة الأمريكية المفتوحة، القاهرة.

- رئيس مركز إدارة فجر للغة العربية بالقاهرة - عضو اللجنة الأكاديمية بجامعة المدينة العالمية بماليزيا.

- عضو الهيئة العالمية للتعريف بالإسلام- رابطة العالم الإسلامي- عضو مجلس إدارة مركز قطر الثقافي الإسلامي، فرع القاهرة.

- له العديد من المؤلفات المطبوعة منها: أوضح العبارات في شرح المحلى مع الورقات، الجامع في شرح الأربعين النووية، الجناية العمد للطبيب على الأعضاء البشرية بالجراحة الطبية.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: Mohamed_yousri@hotmail.com

....

أ. أحمد فهمي – مصر

- باحث سياسي في وحدة الدراسات والأبحاث في مجلة البيان.

- عضو مجلس تحرير التقرير الاستراتيجي السنوي.

- عضو اللجنة العلمية في وحدة الدراسات والأبحاث في مجلة البيان.

- له العديد من المقالات والأبحاث في القضايا السياسية وقضايا العمل الإسلامي، بجانب مجموعة من الدراسات المتخصصة في مجال الإعلام، إضافة إلى الكتب التالية: حماس بين زمنين، حزب الله وسقط القناع، دولة الشيعة في العراق.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد afahmee@hotmail.com

....

د. هيثم الحداد – بريطانيا

- رئيس المؤسسة الإسلامية للبحوث والتطوير (مردف)، مقرها لندن.

- حاصل على بكالوريوس في هندسة الحاسب الآلي من جامعة الملك فهد بالسعودية، وبكالوريوس في الشريعة والقانون من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، ويستعد لمناقشة رسالة الدكتوراه من جامعة ساوس-لندن عن أطروحة بعنوان فقه الأقليات الإسلامية.

- يهتم بالفقه وأصوله والسياسة الشرعية، وله اهتمام خاص بأحوال المسلمين في الغرب، ومستقبل العلاقة بين الطرفين.

- له عدد من المؤلفات والتحقيقات، وعشرات البحوث والمقالات باللغة العربية والإنجليزية، في موضوعات متنوعة، لا سيما الفقه، وأصوله، والسياسة الشرعية.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: Haitham1234@hotmail.com

أ. عامر عبد المنعم - مصر

- مدير تحرير سلسلة رؤى معاصرة.
- باحث بالمركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة، وعضو هيئة تحرير التقرير الارتيادي لمجلة البيان.
- تولى رئاسة تحرير عدة صحف ومواقع إلكترونية منها جريدة الشعب المصرية، جريدة صوت الشعب، وشبكة الأخبار العربية محيط.
- مهتم بدراسة الغرب وعلاقاته مع العالم الإسلامي.
- كتب عددًا من الدراسات في المجالات السياسية والإعلامية، وصدر له مؤخرا كتاب «الغرب أصل الصراع» ضمن سلسلة رؤى معاصرة.
- له خبرة في مجال الإعلام الإلكتروني حيث أسس عددًا من المواقع، وشارك في ورش عمل ودورات حول الموضوع داخل وخارج مصر.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: aamermoneim@alarabnews.com

....

أ. عاطف الجولاني - الأردن

- رئيس تحرير صحيفة «السبيل» الأردنية منذ عام ١٩٩٧ حتى الآن.
- عمل كباحث متخصص في الشئون الفلسطينية والإسرائيلية.
- محاضر في الشئون الإعلامية والسياسية. ومدرب إعلامي وسياسي، أشرف على العديد من الدورات الإعلامية التدريبية، بخاصة في مجال فنون الكتابة الصحفية. كما أشرف على العديد من الدورات التأهيلية السياسية وورش العمل، لا سيما في مجال التحليل السياسي.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: atefjeelani@gmail.com

....

أ. أمير سعيد - مصر

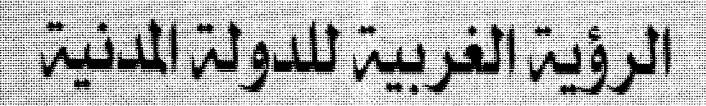
- باحث وكاتب صحفي مصري.
- له اهتمامات واسعة بالشأن السياسي العربي والدولي.
- نشر له المئات من الدراسات والأبحاث والمقالات الاستراتيجية والسياسية في مراكز أبحاث ودراسات متخصصة، بالإضافة إلى العديد من الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية العربية والدولية.

يمكن التواصل مع الباحث عبر بريد: amirsaid@gawab.com



الباب الأول

النظرية والفكر



الرؤية الغربية للدولة المدنية

د. عبدالعزيز صقر

(رئيس جمعية العلم للجميع العربية لنشر العلم ورعاية الموهوبين - القاهرة)

ملخص البحث

ارتبطت عملية استبعاد المنظّمات الدينية من نطاق الحياة السياسية في الإدراك السياسي الغربي بوضع الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى كمصدر للفساد السياسي؛ حيث قاد ذلك الواقع لنشأة ظاهرة الدولة المدنية، المعتمدة على أسس نظامية تتعارض تعارضًا كاملاً مع مقتضيات الدين.

وظاهرة الدولة المدنية هي نتاج تطوّر طبيعي، ووليدة سلسلة طويلة ومترابطة من التطوّرات والأحداث الفكرية والواقعية، التي تفاعلت مع ظروف القارة الأوروبية وأوضاعها في القرن التاسع عشر.

فالدولة المدنية تعبير عن واقع سياسي بعينه، ما يجعلها غير صالحة بالضرورة للتطبيق لا في واقع أوروبي خارج هذا النطاق الزمني، ولا - بالأحرى - في واقع سياسي آخر يختلف في أوضاعه الحضارية وقيمه الدينية وخصائصه الاجتماعية والسياسية.

والواقع السياسي الغربي المعاصر يتعامل مع الدين كأحد متغيّرات العلاقة السياسية، وأثبت تحليل العلاقة بين الدين والحياة السياسية في الدولة المدنية الحديثة وجود ارتباط واضح بين السلوك السياسي والانتخابي من جهة، وقيم واتجاهات الفرد الدينية وخضوعه لمؤثّرات القادة الدينيين من جهة أخرى.

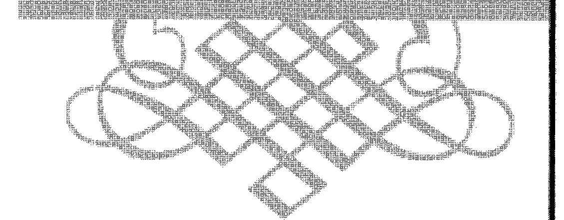
كما تحوّلت الكنائس لمؤسّسات ذات تفويض كامل لكي تلعب دورًا سياسيًّا مشروعًا داخل النظم الغربية، بل إنّها حتى في تلك اللحظات التي تُحرم فيها من الممارسة السياسية؛ فإنّها تكون دائمًا قادرة على أداء وظيفة التوجيه أو التأثير السياسي على رعاياها.

تثبت الدراسات الواقعية لظاهرة الدولة المدنية في التقاليد الغربية المعاصرة ارتباط ظاهرتي الصراع والتكامل السياسيّين بالاختلافات الدينية، وتطابق الدائرة الدينية مع الدائرة القومية في الوعي الجماعي في بعض النماذج الغربية.

لقد رفض الإدراك السياسي «الغربي» ربط الواقع السياسي «الغربي» المعاصر بنظريات «غربية» فرضها وضع استثنائي وظروف معيّنة، وعادت النظم السياسية الغربية لتعترف بالدين كأحد محدّدات الحركة السياسية وكوجود اجتماعي وسياسي لا يمكن تجاهله.

ورغم أنّ واقعنا الإسلامي لا صلة له بالنموذج المدني الأوروبي لا تاريخيًّا ولا حضاريًّا، فلا يزال يسيطر على عقول علماء ورجال السياسة عندنا اعتقاد ثابت في نظرية الدولة المدنية «منتهية الصلاحية» التي أفرزها الفقه الغربي في ظروف طارئة واستثنائية! ولم يعد لها الآن صدًى يُذكر في الواقع الغربي الذي أفرزها.





أفكار ومقتطفات

- يعتقد العقل الغربي الآن أنه لمّا كان اضطهاد الكنيسة وتهذيبها قد خلّصها من أدرانها وأعاد إليها رشدها، فإنّها يجب أن تعود لمباشرة دورها الطبيعي في الممارسة والتوجيه والتأثير.

- قامت الدولة المدنية على أساس استبعاد الدين من عملية بناء القيم السياسية التي تمت على أساسها عملية تفسير ظاهرة السلطة، وتقنين العلاقة السياسية بين المواطن والحكومة في إطار الدولة القومية؛ التي استبعدت الرابطة الدينية -أيضًا- كأساس للتجانس الاجتماعي والتكامل السياسي.

- خلاصة ظاهرة الدولة المدنية التي أوجدتها الثورة الفرنسية هو مبدأ الفصل بين الدولة والكنيسة، بمعنى عدم الاختصاص وعدم التدخل من جانب الدولة في أعمال السلطات الدينية، وعدم الاختصاص وعدم التدخل من جانب الكنيسة في نشاطات السلطات المدنية.

- فكرة هوبز ولوك وروسو عن العقد الاجتماعي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر هيأت المناخ العام في أوروبا لمناهضة الحكم الديني، وأفسحت المجال لمفهوم الدولة المدنية، وذلك بما رسّخته في الأذهان من مبادئ ومفاهيم ساهمت في بناء الأساس الفكري لظاهرة الدولة المدنية، وذلك من قبيل: الأصل الإداري للسلطة، وخلع القداسة عن الحكّام، واستبعاد الدين من العلاقة السياسية، وإقرار حق المحكوم في الخروج على الحاكم الذي يخل بالتزاماته.

- لعب اليهود دورًا في التهيئة لظهور الدولة المدنية ودعم الثورة الفرنسية في جهودها لإقامة مجتمع تذوب فيه كل الفروق العنصرية والدينية... بما من شأنه وقف عمليات الاضطهاد والتنكيل والإبادة التي كان يتعرض لها اليهود في أوروبا بسبب دينهم.

- الدولة المدنية (التي نشأت إبان الثورة الفرنسية) هي وليدة سلسلة طويلة ومترابطة من التطوّرات والنظريات الفكرية؛ التي تفاعلت مع ظروف القارة الأوروبية وأوضاعها في القرن التاسع عشر، وهي بذلك ليست سوى تعبير عن واقع سياسي بعينه، هو الواقع الأوروبي في القرن التاسع عشر، أو هي مرحلة في التطوّر العام للظاهرة السياسية في المجتمعات الأوروبية.

- الملاحظة المحّصة للواقع السياسي الغربي في هذه اللحظة تشير إلى وجود علاقة بين الدين والحياة السياسية في ظل الدولة المدنية، وإلى أنّ الدين هو أحد متغيّرات العلاقة السياسية من جهة، وأحد مقوّمات عملية التجانس والتكتّل الاجتماعي من جهة أخرى في ظل هذا النموذج الذي أُريد له أن يستبعد الدين من عملية التجانس الاجتماعي ومن ديناميات الحياة السياسية.

- في بريطانيا يرتبط التفضيل الحزبي بالانتماء الديني إلى حد كبير؛ فأتباع الكنيسة الإنجليكانية البريطانية يميلون إلى تفضيل حزب المحافظين، بينما يميل أتباع أديان الأقليّات إلى الانحياز إلى حزب الأحرار أو العمال.

- تحوّلت الكنائس بالفعل في الواقع السياسي الغربي المعاصر إلى مؤسّسات ذات تفويض كامل لكي تلعب دورًا سياسيًّا مشروعًا داخل النظم الغربية.

- في فرنسا مارست الكنيسة الكاثوليكية الضغط على نابليون بونابرت لكي يعترف بالكَثْلَكة كدين لأكثرية الفرنسيين، ويلغي جميع العبادات الأخرى التي استحدثها اليعاقبة منعًا للتعدديّة الدينية، وهى الآن تلعب نفس الدور؛ لكي تحول دون إيناع القوى الإسلامية في المجتمع الفرنسي، عن طريق دعمها لحزب الجبهة الوطنية الذي يطالب بطرد المسلمين من فرنسا، ووقف هجرتهم إليها قبل أن تتحوّل فرنسا إلى «جمهورية إسلامية»!

- في الولايات المتحدة، ورغم التقليد العلماني القوي، فإن قضية التعليم والمدارس الدينية هي إحدى القضايا المثيرة للنزاع بين الدولة والجماعات الدينية المختلفة.

- وضعت الكنيسة الغربية من بين الأهداف التي تتوخاها حماية حقّها في الممارسة السياسية وفى التوجيه السياسي والدفاع عنه... وأعلنت كذلك أنّها لا تستطيع أن تنعزل عن المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا تقبل أن يقتصر دورها على أداء الوظيفة الكهنوتية Priestly. ولكنها ترى أن من واجبها أن تتطرّق كذلك لتقييم كل الأفكار والأوضاع والسياسات والنظم والقوانين من منطلق المفاهيم والمبادئ المسيحية.

- تلعب الكنيسة الإنجليكانية في بريطانيا دورها الأساسي كقوّة مساندة للحكومة، وتناضل من أجل الدفاع عن مصالح ومواقف الدولة، وتحوّل منابرها إلى أماكن للدعاية السياسية، كما تتدخّل في بعض القضايا الدولية تحت إشراف الدولة، وكأداة من أدواتها، كما حدث في فلسطين ولبنان وأفغانستان والعراق.

- لعبت كنائس الزنوج الدور الرئيسي في قيادة حركة الحقوق المدنية Civil Rights، وحث الزنوج على المشاركة الفعّالة في الحياة السياسية من أجل الحصول على حقوقهم الأساسية. وتتمتّع الكنيسة الزنجية في الجنوب الأمريكي بنفوذ هائل يجعلها دائمًا عرضة للمؤثّرات السياسية، ويتم استعطافها وخطب ودّها من جانب المرشّحين لمناصب سياسية.

- يقيم التعدّد الديني دائمًا حواجز نفسية بين الفرنسيين، رغم أنّ الكاثوليك يشكّلون وحدهم حوالي ٩٠٪ من السكان. وقد فشل الكاثوليك في كل محاولاتهم لإذابة واستيعاب أتباع الأديان والمذاهب غير الكاثوليكية في المجتمع القومي، ولذا فقد دخلوا في صراعات سياسية عدوانية مع البروتستانت في القرن التاسع عشر، ومع المسلمين ابتداء من الربع الأخير من القرن العشرين.

- وحدة الانتماء الديني عند اليهود الأمريكيين - ورغم تنوع أصولهم العنصرية والقومية- هي التي تفسر كل ما له صلة بنشاطهم السياسي الفعال في الولايات المتحدة.

- على الرغم من أنّ واقعنا الإسلامي لا صلة له بالنموذج المدني الأوروبي لا من حيث الإطار التاريخي، ولا من حيث الطبيعة والخصائص الحضارية، فلا يزال يسيطر على عقول علماء ورجال السياسة عندنا اعتقاد ثابت في نظرية الدولة المدنية «منتهية الصلاحية» التي أفرزها الفقه الغربي في ظروف طارئة واستثنائية!

الرؤية الغربية للدولة المدنية

د. عبدالعزيز صقر : رئيس جمعية العلم للجميع العربية لنشر العلم ورعاية الموهوبين - القاهرة

خلاصة ظاهرة الدولة المدنية أن لكل واقع تاريخي خصائصه وذاتيّته، وأنّه إذا كانت تجاوزات الكنيسة، وانحرافات رجال الدين طوال فترة العصور الوسطى، قد برّرت موقف فلاسفة الحكم المدني من القوى الدينية، فإنّ الواقع الغربي المعاصر يرفض أن يخضع لتصوّر معيّن للعلاقة السياسية فرضته مرحلة تاريخية معيّنة تمثّل خروجًا على تقاليد الحضارة المسيحية، أملته أدران الكنيسة الكاثوليكية. وبعبارة أخرى فإنّ عملية استبعاد المنظّمات الدينية من نطاق الحياة السياسية ارتبطت في الإدراك السياسي الغربي بوضع الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى كمصدر للفساد السياسي. ويعتقد العقل الغربي الآن أنه لمّا كان اضطهاد الكنيسة وتهذيبها قد خلّصها من أدرانها، وأعاد إليها رشدها، فإنّها يجب أن تعود لمباشرة دورها الطبيعي في الممارسة والتوجيه والتأثير، بحكم رسالتها الإنسانية وحقها في الدفاع عن مفاهيمها، وعن مصالح رعاياها، وبصفة خاصة بعد أن أبدت مرونة ومقدرة على تطويع نظامها لكي يتّفق مع طبيعة الإطار المحيط بها، وعلى التعامل مع السلطة بأدوات، ومن خلال قنوات مدنية تعبّر عن طبيعة العصر كالأحزاب وجماعات الضغط والمجالس النيابية، والوسائل الإعلامية وتوجيه الناخبين وغير ذلك.

التأصيل الفكري لمفهوم الدولة المدنية :

قامت الدولة المدنية على أساس استبعاد الدين من عملية بناء القيم السياسية التي تمت على أساسها عملية تفسير ظاهرة السلطة، وتقنين العلاقة السياسية بين المواطن والحكومة؛ في إطار الدولة القومية التي استبعدت الرابطة الدينية -أيضًا- كأساس للتجانس الاجتماعي والتكامل السياسي.

وكرد فعل، فقد كان من الطبيعي أن تقوم الدولة المدنية على أسس نظامية تتعارض تعارضًا كاملاً مع مقتضيات الدين، وألا تعتمد في بناء هيكلها القيمي على العقيدة المسيحية، أو على أي عامل معنوي آخر. لقد قامت الدولة المدنية في الغرب على مجموعة من المبادئ تعبر عن هذا الاتجاه العام الذي ساد أوروبا مع بدايات عصر النهضة، والتي نجحت الثورة الفرنسية في صياغتها، وإيجاد النظم التي تعبر عن استيعابها في هيكل التنظيم السياسي.

هذه المبادئ والنظم يمكن تلخيصها في العناصر التالية [1]:

(١) مبدأ الحرية الدينية: بمعنى حق المواطن في أن يختار انتماءه العقدي، وفي أن يمارس طقوس عقيدته بالأسلوب الذي يريده، وكذا حقّه في رفض الأديان جميعًا، وفي عدم الانتماء لأي عقيدة. والقيد الوحيد

(١) حول التأصيل الفكري لمبدأ الدولة العلمانية، ووضعها في الإطار العام للتصور السياسي الغربي، راجع : د. حامد ربيع: نظرية القيم السياسية، مذكرات كلية الاقتصاد جامعة القاهرة، ٧٨- ١٩٧٩م، ص ٢٠١-٢٤٤.

الذي يرد على هذه الحريّة هو عدم تعارضها مع النظام العام والشرعية القانونية. وما عدا ذلك فإنّ الدولة لا تتدخّل في النواحي العقدية؛ باعتبارها مسألة شخصية تخرج عن نطاق العلاقة السياسية. وفي هذا الشأن تنص المادة العاشرة من إعلان حقوق الإنسان الصادر في فرنسا في ٢٧ أغسطس ١٧٨٩م على أنّه «لا يجوز إقلاق راحة أحد بسبب آرائه، حتى ولو كانت دينية، بشرط ألاّ يكون إبداؤها مخلاً بالأمن العام الذي أقامه القانون» [٢].

(٢) مبدأ المساواة بين المواطنين جميعًا في الأمور السياسية والقانونية والاجتماعية والإدارية وغيرها؛ بغض النظر عن الانتماء الديني من عدمه.

(٣) عدم تقبّل الكهنوتية كاتجاه سياسي؛ لأنّ ذلك لا بد وأن يؤدّي إلى مجتمع معنوي يستخدم السلطات العامة لتأكيد إرادته في السيادة. فوظيفة الدولة الثقافية يجب أن تكون علمانية، أي محايدة إزاء العقائد والأديان والأفكار، وبمعنى أنّ السلطة السياسية يجب ألاّ تسمح لأي سلطة دينية بأن تفرض ثقافتها الدينية على المواطن، كما يجب ألاّ تفرض هي على المواطن أي توجيه ديني معيّن.

(٤) مبدأ الفصل بين العلاقة الدينية والعلاقة السياسية، بمعنى الفصل بين علاقة الإنسان بخالقه أو بالقوى الغيبية التي يؤمن بها، وبين علاقة المواطن بالسلطة، وجعل العلاقة الأولى دينية خاصة ومرتبطة بالضمير الفردي في حين اعتُبرت العلاقة الثانية مدنية وعلنية ومتحرّرة من الغيبيّات.

(٥) تنظيم العلاقة بين الدولة والوجود الديني انطلاقًا من مبدأ الفصل الوظيفي بينهما، بمعنى أنّ الدولة، أو السلطة المدنية، تمثّل حقيقة مستقلة استقلالاً كاملاً وتامًّا عن الكنيسة أو غيرها من المؤسّسات والأيديولوجيات الدينية، ومن ثم رفض تدخّل الكنيسة في السلطة السياسية، ورفض تدخّل السلطة السياسية المدنية في أعمال السلطات الدينية، وإنّما تحتفظ كل سلطة بوظيفة مستقلة تمارسها في نطاق معيّن. فالسلطة الدينية وظيفتها تنظيم العلاقات المختلفة بين الفرد والقوى الغيبية. أمّا السلطة السياسية فتختص بالتنظيم المدني للعلاقات بين المواطن والدولة. وبعبارة أخرى فإنّ الأولى تختص بالعلاقة الدينية في حين تختص الأخرى بالعلاقة السياسية.

وخلاصة ظاهرة الدولة المدنية التي أوجدتها الثورة الفرنسية هو مبدأ الفصل بين الدولة والكنيسة، بمعنى عدم الاختصاص وعدم التدخل من جانب الدولة في أعمال السلطات الدينية، وعدم الاختصاص وعدم التدخل من جانب الكنيسة في نشاطات السلطات المدنية، وهو ما يفرض الاستقلال الكامل والتام بين الكنيسة والدولة، وعدم تدخل إحداهما في دائرة نشاط الأخرى، وعدم تبعية إحداهما للأخرى، مع احتفاظ الدولة بالسلطة العليا على كافة المؤسسات والمنظمات والقوى المختلفة التي تعيش في إطارها ومن ضمنها الكنيسة.

الدولة المدنية كواقع تاريخي:

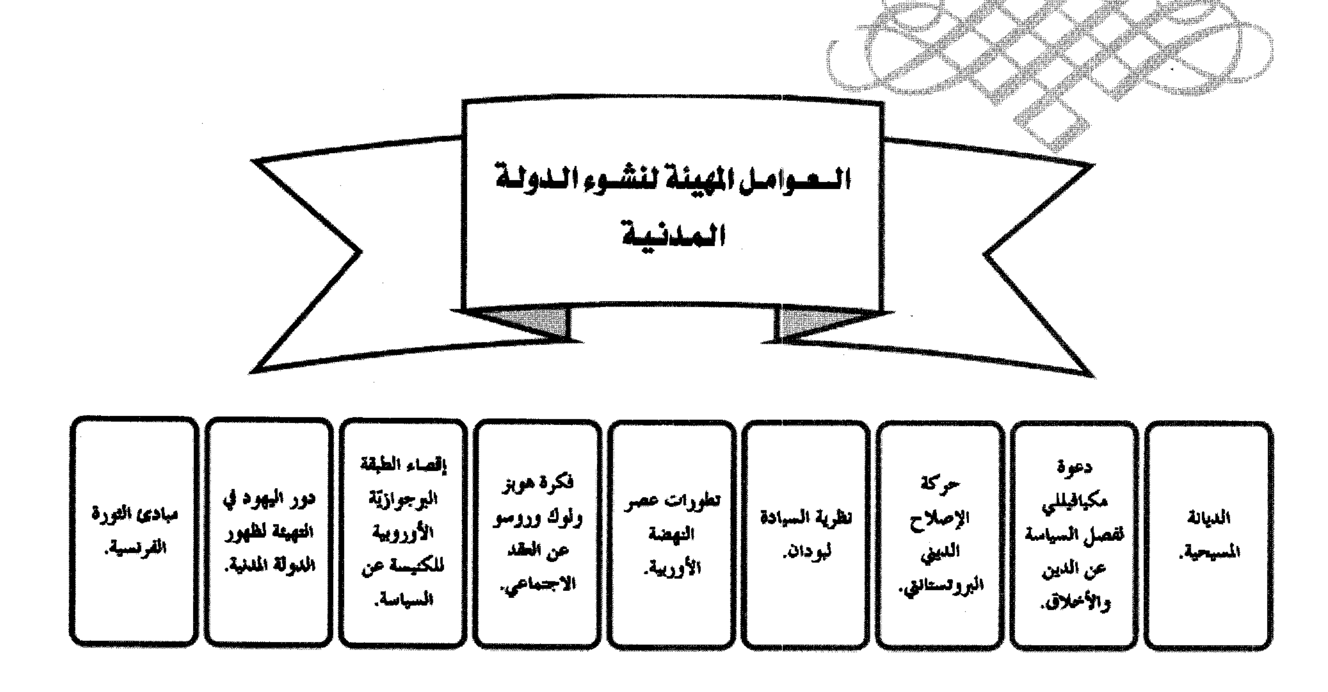
لقد جاءت ظاهرة الدولة المدنية في الحقيقة نتاج تطوّر طبيعي ووليدة سلسلة طويلة ومترابطة من التطوّرات والأحداث الفكرية والواقعية، التي تفاعلت مع ظروف القارة الأوروبية وأوضاعها في القرن التاسع عشر ففرضت عملية استئصال الدين (الكاثوليكي) من الوجود السياسي وإحلال الرابطة القومية محل الرابطة الدينية كأساس للتجانس والاندماج، والحكم المدني محل الحكم الكاثوليكي كأساس للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، فما هي العوامل التي من تفاعلها نشأت ظاهرة الدولة المدنية كواقع تاريخي في أوروبا؟

نستطيع أن نحدّد متغيّرات الإطار التاريخي التي تحكّمت في التطوّر السياسي الأوروبي وخلقت المناخ السياسي الذي انبعثت منه وتشكّلت به وتفاعلت معه ظاهرة الدولة المدنية في عوامل تسعة هي [٣]:

---

(٢) انظر: إيرون ألكسندر: الدستور البريطاني ونظم الحكم في مجموعة الأمم البريطانية، ترجمة محمد الهمشري وآخرين، ١٩٤٠م، ص ١٠٥؛ البير سوبول: تاريخ الثورة الفرنسية، ترجمة جورج كوسي، ١٩٧٠م، ص ٤٦٤ .

(٣) لمزيد من التفاصيل حول العوامل المهيأة لنشوء الدولة القومية/ المدنية في أوروبا، راجع: عبدالعزيز صقر: دور الدين في الحياة السياسية في الدولة القومية، رسالة دكتوراه، ١٩٩٠م، ص ٢١٠-٢٥٦.



١- الديانة المسيحية، التي دعت إلى الفصل بين الدين والسياسة، ابتداء من قول المسيح «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».[٤]

٢- دعوة ميكافيللي إلى فصل السياسة عن الدين والأخلاق (الكاثوليكيين) متأثّرًا بظروف العصر الذي نشأ فيه وطبيعة الديانة والأخلاق الكاثوليكية.

٣- حركة الإصلاح الديني البروتستانتي التي دعت إلى فصل الأمور الدنيوية عن الدينية فصلاً تامًّا، وتمجيد السلطة السياسية ووضعها فوق السلطة الدينية، ونقل ما للكنيسة من سلطة خارجية إلى الدولة، وتمجيد حرية الفرد واستقلاله الذاتي، وتأكيد حقّه في فهم الكتاب المقدّس وممارسة الطقوس الدينية دون وساطة القساوسة.

٤- نظرية بودان (١٥٣٠-١٥٩٦) عن السيادة التي رفعت الحاكم السياسي فوق كافة الفرق والطوائف الدينية، كما حقّقت له الاستقلال عن كل سلطان آخر، حتى لو كان سلطان البابا نفسه، وجعلت الجميع يخضع له بما في ذلك المؤسسات الدينية، تلك النظرية التي جاءت كرد فعل للصراع على السلطة السياسية في فرنسا بين الدولة والكنيسة[٥].

٥- التطورات التي شهدها عصر النهضة الأوروبية، وأهمها المنطق الفردي، وسيادة العقل، وتدهور الإيمان الديني وسلطة الكنيسة، والحرية الفكرية والعقدية، وظهور المذاهب المادية والإلحادية، والعودة إلى التقاليد الفكرية اليونانية الوثنية، والمنطق الوضعي والاتجاه العلمي التجريبي، ثم أخيرًا المساواة في المواطنة[٦].

٦- فكرة هوبز ولوك وروسو عن العقد الاجتماعي، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، التي هيّأت المناخ العام في أوروبا لمناهضة الحكم الديني، وأفسحت المجال لمفهوم الدولة المدنية، وذلك بما رسّخته في الأذهان من مبادئ ومفاهيم ساهمت في بناء الأساس الفكري لظاهرة الدولة المدنية، وذلك من قبيل: الأصل الإداري للسلطة، وخلع القداسة عن الحكّام، واستبعاد الدين من العلاقة السياسية،

(٤) راجع الإنجيل: متى (٢٢ / ١٥ – ٢٢)، مرقس (١٢ / ١٣ – ١٧)، لوقا (٢٠ / ٢٠ – ٢٦).

(٥) راجع: د. محمد طه بدوي: أمهات الأفكار السياسية، ١٩٥٨م، ص ٣٠، ٣٦، ٣٧.

(٦) التفاصيل والمصادر في: عبدالعزيز صقر: دور الدين في الحياة السياسية، مرجع سابق، ص ٢٢٩-٢٣٤.

وإقرار حق المحكوم في الخروج على الحاكم الذي يخل بالتزاماته.

٧- الدور الذي لعبته الطبقة البرجوازيّة في أوروبا في إقصاء الكنيسة ورجالها عن مجال السياسة، وفي ضرورة وضع حد للصراعات الدينية والطائفية التي كانت تهدد الاستقرار اللازم لنهضة الصناعة، فساهمت بذلك في بناء الدولة المدنية التي تستجيب لحاجاتها، وتعكس مصالحها وأفكارها وتعبّر عن طموحاتها.

٨- الدور الذي لعبه اليهود في التهيئة لظهور الدولة المدنية، ودعم الثورة الفرنسية في جهودها لإقامة مجتمع تذوب فيه كل الفروق العنصرية والدينية، ويتمتّع فيه كل مواطن بالحقوق السياسية وحق تولّي الوظائف؛ بلا تمييز بسبب الجنس أو العقيدة، وبما من شأنه وقف عمليات الاضطهاد والتنكيل والإبادة التي كان يتعرض لها اليهود في أوروبا بسبب دينهم.

٩- مبادئ وإجراءات الثورة الفرنسية التي قادت مباشرة إلى نشوء دولة فرنسا المدنية، وطرد القيم والتقاليد والأعراف والمؤسسات الدينية من نطاق العلاقة والحركة السياسية، فكانت بذلك أول تطبيق عملي لنموذج الدولة المدنية.

وخلاصة هذا العرض للعوامل المهيأة لنشوء الدولة المدنية أن هذه الدولة هي وليدة سلسلة طويلة ومترابطة من التطوّرات والنظريات الفكرية التي تفاعلت مع ظروف القارة الأوروبية وأوضاعها في القرن التاسع عشر، وهي بذلك ليست سوى تعبير عن واقع سياسي بعينه، هو الواقع الأوروبي في القرن التاسع عشر، أو هي مرحلة في التطوّر العام للظاهرة السياسية في المجتمعات الأوروبية.

الدولة المدنية بهذا المعنى لا تصلح بالضرورة للتطبيق لا في واقع أوروبي خارج نطاق القرن التاسع عشر، ولا - بالأحرى - في واقع سياسي آخر يختلف في أوضاعه الحضارية وقيمه الدينية وخصائصه الاجتماعية والسياسية عن المجتمع الأوروبي المسيحي في القرن التاسع عشر.

الدولة المدنية في الواقع الغربي:

إن الملاحظة الممحّصة للواقع السياسي الغربي في هذه اللحظة تشير إلى وجود علاقة بين الدين والحياة السياسية في ظل الدولة المدنية، وإلى أنّ الدين هو أحد متغيّرات العلاقة السياسية من جهة، وأحد مقوّمات عملية التجانس والتكتّل الاجتماعي من جهة أخرى، في ظل هذا النموذج الذي أُريد له أن يستبعد الدين من عملية التجانس الاجتماعي ومن ديناميات الحياة السياسية.

أولاً. الدين والسلوك السياسي الفردي:

يثبت تحليل العلاقة بين الدين والحياة السياسية في الدولة المدنية وجود ارتباط واضح بين السلوك السياسي والانتخابي من جهة، وقيم واتجاهات الفرد الدينية وخضوعه لمؤثّرات القادة الدينيين من جهة أخرى. مظاهر هذا الارتباط عديدة:

ففي فرنسا يمكن الاستدلال بانضمام عدد كبير من الأصوليين الكاثوليك لحزب الجبهة الوطنية The National Front الذي تدعمه الكنيسة، والذي يقود الصراع السياسي ضد الأقليات غير الكاثوليكية؛ وحصول هذا الحزب على تأييد قطاعات عريضة من الناخبين الفرنسيين الذين استجابوا لنداء الكنيسة وتوجيهات رجال الدين الكاثوليك، وتجاهلوا تحذيرات القادة السياسيين أو الحزبيين.

وفي بريطانيا يرتبط التفضيل الحزبي بالانتماء الديني إلى حد كبير؛ فأتباع الكنيسة الإنجليكانية يميلون إلى تفضيل حزب المحافظين، بينما يميل أتباع أديان الأقليّات إلى الانحياز إلى حزب الأحرار أو العمال.

وفي إيطاليا فإنّ علاقة الفرد في سلوكه السياسي باتجاهاته الدينية تبدو أكثر وضوحًا: فامتناع معظم الكاثوليك عن التصويت لصالح الحزب الشيوعي (سابقًا) أساسه ارتباط السلوك الانتخابي للناخب الإيطالي بوعيه الديني من جهة، وتوجيهات الكنيسة من جهة أخرى. والدور التوجيهي الذي يلعبه البابا

والقساوسة يكاد يتحكّم في النشاط السياسي للإيطاليين. وتحوّل بعض الكاثوليك إلى تأييد الحزب الشيوعي بعد تغيير استراتيجيته واسمه في الفترة الأخيرة يرتبط أيضًا بتطوّر موقف الحزب الشيوعي من الدين.

وفي أسبانيا يشارك الرهبان والقساوسة في المظاهرات وحركات المعارضة، كما تلعب القضايا الدينية دورًا هامًّا في تحريك الشعب الأسباني نحو المشاركة السياسية لدعم موقف الكنيسة الكاثوليكية، وغالبًا ما يعتمد الناخب الكاثوليكي الأسباني على توجيهات الكنيسة وتحديدها للطريقة التي يجب أن يعبّر من خلالها عن سلوكه الانتخابي.

وفي بلجيكا يرتبط السلوك السياسي والتفضيل الحزبي للبلجيكيين بالقيم المسيحية ومصالح الكنيسة، وهو ما بدا واضحًا في موقف الكنيسة من قضية سباق التسلّح خلال فترة الحرب الباردة، وموقفهم من قانون علمنة التعليم الصادر في عام ١٨٧٩م، وموقفهم من القوى البروتستانتية والإسلامية في الحياة السياسية البلجيكية المعاصرة.

وفي هولندا يرتبط التفضيل الحزبي والسلوك الانتخابي بالانتماء الديني، ويتحكّم تراث العداء بين الكاثوليك والبروتستانت في النشاط السياسي لأتباع المذهبين.

وفي اليونان فإنّ الكنيسة هي المرجع الأساسي لجميع اليونانيين وفي جميع الأحوال، كما أنّ الأرثوذكسية كانت ولا تزال أساس الصراعات السياسية العدوانية مع الأتراك المسلمين.

وفي الولايات المتحدة تشير البحوث التجريبية إلى وجود علاقة ارتباطية تقليدية بين التفضيل الحزبي والانتماء الديني، وبين منصب الرئاسة واعتناق المذهب البروتستانتي، وبين الاختيارات السياسية المختلفة للناخب الأمريكي والانتماء لجماعة دينية معينة. كما تؤكد هذه البحوث أيضًا ارتباط المشاركة السياسية عند الأمريكيين بظاهرة التعدّد الديني. وبعبارة أخرى فإنّه في ظل التعدّد والانفصال الديني في الولايات المتحدة ترتبط المشاركة السياسية والتفضيل الحزبي والسلوك الانتخابي للمواطن الأمريكي بانتمائه الديني إلى حد بعيد، وتصبح اختياراته السياسية مجرّد تعبير سياسي عن القيم والدوافع والمطالب التي يستقيها من عضويّته في جماعة دينية معيّنة.

ثانيًا - النشاط السياسي للكنائس الغربية:

لا تزال الكنائس تدافع عن حقّها في الممارسة السياسية أو على الأقل في التوجيه السياسي. وقد تحوّلت الكنائس بالفعل في الواقع السياسي الغربي المعاصر إلى مؤسّسات ذات تفويض كامل لكي تلعب دورًا سياسيًّا مشروعًا داخل النظم الغربية. وبصفة عامة فإنّه يمكننا تحديد أهم الأهداف التي تمارس الكنائس الغربية نشاطًا سياسيًّا من أجل تحقيقها فيما يلي:

١ - تحقيق التحرّر القومي من السيطرة الأجنبية. فقد قادت الكنائس حركات التحرّر القومي، وأدمجت الدين في الصراع القومي كأداة لإذكاء الصراع ضد السيطرة الأجنبية. فالكنائس البروتستانتية هي التي قادت حركات التمرّد في إنجلترا واسكتلندا ضد السيطرة الأسبانية والفرنسية الكاثوليكية. وتناضل كنيسة اسكتلندا المشيخيّة الآن، وكذا كنيسة ويلز الكالفينية، للانفصال عن إنجلترا وكنيستها الإنجليكانية. وقادت الكنيسة الكاثوليكية حركات التحرّر القومي: في أيرلندا الجنوبية ضد بريطانيا البروتستانتية، وفي بلجيكا ضد تاج هولندا الكالفينية، وفي مجتمعات أمريكا اللاتينية ضد الاستعمار الأوروبي. وتشارك الكنيسة الكاثوليكية في هذه اللحظة في حركة التحرّر القومي في أيرلندا الشمالية ضد السيطرة البريطانية البروتستانتية، وفي الحركات التحرريّة التي تطالب بالانفصال عن أسبانيا في الباسك وقطلونية.

في أسبانيا يشارك الرهبان والقساوسة في المظاهرات وحركات المعارضة، كما تلعب القضايا الدينية دورًا هامًّا في تحريك الشعب الأسباني.

٢ - المحافظة على المركز الخاص للكنيسة والدفاع

عنها ضد أعدائها المحتملين، بمعنى الحيلولة دون إيناع القوى الدينية البديلة، وعدم السماح بالتعدّد الديني المفضي إلى الصراعات السياسية العدوانية. ففي فرنسا مارست الكنيسة الكاثوليكية الضغط على نابليون بونابرت لكي يعترف بالكَثْلَكَة كدين لأكثرية الفرنسيين، ويلغي جميع العبادات الأخرى التي استحدثها اليعاقبة منعًا للتعدديّة الدينية، وهي الآن تلعب نفس الدور لكي تحول دون إيناع القوى الإسلامية في المجتمع الفرنسي؛ عن طريق دعمها لحزب الجبهة الوطنية، الذي يطالب بطرد المسلمين من فرنسا، ووقف هجرتهم إليها قبل أن تتحوّل فرنسا إلى «جمهورية إسلامية»!

وفي بريطانيا لا تسمح الكنيسة الإنجليكانية لأي منظمات دينية غير إنجليكانية بتهديد مركزها؛ باعتبارها الكنيسة الرسمية التي تربطها بالدولة علاقة عضوية. ولذا فهي تضطّهد - عن طريق الدولة - مخالفيها في المذهب، وتحد من حقوقهم المدنية، وتحول بينهم وبين المناصب السياسية الهامة.

وفي إيطاليا تمارس الكنيسة الكاثوليكية نفوذها الروحي الكبير على الشعب الإيطالي؛ للحيلولة دون إيناع القوى الاشتراكية والشيوعية في الحياة السياسية الإيطالية؛ باعتبارها عدوّها الرئيسي والخطر الوحيد الذي يهدّد العقيدة الكاثوليكية في مركزها.

وفي هولندا تمارس الكنيسة البروتستانتية ضغوطها، وتخلق الأدوات التي يمكنها من خلالها معارضة مشاركة الكاثوليك في الحياة السياسية، كالحزب المسيحي التاريخي، والحزب المضاد للمبادئ الثورية الفرنسية.

٣- ضمان حق الكنيسة الثابت في الدفاع عن المبادئ والمثل الأخلاقية المسيحية، ومواجهة كافة النظريات والأفكار الإلحادية أو المخالفة لمفاهيمها، وذلك بالمحافظة على دور ثابت لها في مجال التعليم يسمح لها بأداء هذه الوظيفة. وقد خاضت الكنائس الغربية معارك عنيفة، واستخدمت كل ما تملك من وسائل وأدوات للدفاع عن حقها الثابت في أداء وظيفتها الاتصالية أو الإعلامية المرتبطة بنشر الدعوة الدينية، وتقييم الأوضاع السياسية والاجتماعية، وإبلاغ المبادئ المسيحية من خلال العملية التعليمية في الداخل والحملات التبشيرية في الخارج:

ففي فرنسا انتصرت الكنيسة الكاثوليكية على الائتلاف اليساري - الاشتراكي الشيوعي- الذي كان يحكم فرنسا منذ عام ١٩٨١م عندما نجحت في إسقاط مشروع القانون الذي تقدّم به في شأن علمنة التعليم الخاص الذي يقع تحت إشراف الكنيسة. وقد سحب الرئيس ميتران مشروع القانون أمام إصرار الكنيسة على رفضه، وممارستها للتأثير الهائل على المواطنين الفرنسيين لمعارضة القانون، وسحب دعمهم للحزب الاشتراكي الحاكم.

وفي بريطانيا تهيمن العقيدة الإنجليكانية على العملية التعليمية برمّتها، كما تحتكر دور العبادة الملحقة بالمدارس، وكذا الوظائف الأساسية في مجال البحوث والدراسات الدينية. وقد نجحت الضغوط الكنسية في استصدار قانون التعليم The Education Act عام ١٩٤٤م، والذي أنهى مرحلة طويلة من المواجهة بين الكنائس والحكومات البريطانية. وفي ظل هذا القانون تحول ٢٢٪ من الأطفال البريطانيين إلى المدارس الدينية - الإنجليكانية والكاثوليكية أساسًا - وذلك في بداية الثمانينيات. وفي اسكتلندا اشترطت الكنيسة المشيخية لقيام الاتحاد مع الإنجليز أن يحتفظ الاسكتلنديون بنظمهم التعليمية المنبثقة عن عقيدتهم الدينية الخاصة.

وفي إيطاليا احتفظت الكنيسة الكاثوليكية لنفسها - عند إبرامها اتفاقية لاتيران مع الحكومة الإيطالية - بالحق في تدريس المذهب الكاثوليكي في المدارس الإيطالية الحكومية. وقد استخدمت الكنيسة هذا الحق لكي تمارس الدعاية ضد الشيوعية في المدارس الحكومية، وذلك في إطار الصراع السياسي الذي كان محتدمًا بينها وبين القوى الشيوعية في إيطاليا.

وفي ألمانيا مثّلت قضية التعليم الديني مجال النزاع الأساسي بين الحكومات البروتستانتية والكنيسة

الكاثوليكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي أسبانيا دافعت الكنيسة الكاثوليكية بقوّة عن حقها في حماية التعليم الديني في مدارس الدولة، فضلًا عن إشرافها المستقل على المدارس الخاصة التي تتبعها. وقد نجحت الكنيسة في الحصول على المعونات الحكومية للمدارس الدينية في عام ١٩٨٠م، كما عارضت بإصرار، بل وقادت المظاهرات التي اجتاحت معظم المدن الأسبانية في عام ١٩٨٤م لإسقاط قانون التعليم الذي تقدّمت به الحكومة الاشتراكية لفرض وصاية الدولة على المدارس الدينية، وقصر التعليم الأساسي على المدارس الحكومية.

وفي بلجيكا تحدّت الكنيسة الكاثوليكية قانون علمنة التعليم الصادر في عام ١٨٧٩م، وقامت بإنشاء مدارس كاثوليكية مستقلة وحزب كاثوليكي، استطاع أن يدافع عن الكنيسة في مواجهة الحكومة البلجيكية والأحزاب الليبرالية والاشتراكية المؤيّدة لها، بما ترتّب على ذلك من انقسامات حزبية وصراعات عنصرية شهدتها الحياة السياسية البلجيكية بسبب قضية التعليم الديني.

وفي هولندا خاضت الكنيسة الكالفينية المعارضة من أجل نفس القضية من خلال الأحزاب السياسية التابعة لها. وفي اليونان قادت الكنيسة الأرثوذكسية المظاهرات التي عمّت أنحاء آثينا عام ١٩٨٥م لمنع تدريس كتاب عن نظرية داروين في المدارس الحكومية؛ لأنه «يشجّع على الإلحاد».

وفي الولايات المتحدة، ورغم التقليد العلماني القوي، فإن قضية التعليم والمدارس الدينية هي إحدى القضايا المثيرة للنزاع بين الدولة والجماعات الدينية المختلفة.

٤- وبالإضافة إلى قضية التعليم والإشراف على المدارس فقد أظهرت الكنائس الغربية اهتمامها بمجموعة من القضايا الاجتماعية والأخلاقية التي تتعارض مع مفاهيمها، أو تتصادم مع فلسفتها الاجتماعية، وفي مقدمتها قضايا الإجهاض والطلاق والشذوذ الجنسي والمساواة بين الرجل والمرأة، بمعنى إلغاء الفروق بين الجنسين، فضلًا عن بعض القضايا المرتبطة بمجال الطب مثل تحديد النسل وقتل الرحمة Euthanasia، وغير ذلك من القضايا الاجتماعية والأخلاقية التي ارتبطت باتساع نطاق الحرية الفردية، ونجاح الحركات النسائية في التقاليد الغربية المعاصرة.

ففي بريطانيا قادت الكنيسة الكاثوليكية والمنظمات التابعة لها الحملة المضادة لقانون الإجهاض البريطاني الصادر في عام ١٩٦٧م. وفي جمهورية أيرلندا نجحت الكنيسة في تحريم الإجهاض. وفي إيطاليا عارضت الكنيسة قانون الإجهاض الصادر في عام ١٩٧٨م، وعضّدت الجماعات والحركات المعارضة للقانون. كما نجحت الكنيسة في ألمانيا (الغربية سابقًا) في الحصول على حكم من المحكمة الدستورية الاتحادية في عام ١٩٧٥م يقضي بعدم دستورية قانون الإجهاض الذي أصدرته الحكومة الألمانية الغربية في عام ١٩٧٤م. وفي أسبانيا تحدَّت الكنيسة الكاثوليكية قرار الحكومة بإلغاء العقوبة على عمليات الإجهاض واتّخذت بالمقابل قرارها في عام ١٩٨٥م بطرد الأطباء الذين يجرون هذه العمليات من الكنيسة.

في الولايات المتحدة تشن الكنيسة الكاثوليكية والعديد من الكنائس البروتستانتية حملة قوية ضد الإجهاض

في الولايات المتحدة تشن الكنيسة الكاثوليكية والعديد من الكنائس البروتستانتية حملة قوية ضد الإجهاض، وخاصة بعد قرار المحكمة العليا الصادر في عام ١٩٧٣م، والذي أكّد دستورية عمليات الإجهاض في ظروف معينة. وقد استطاعت الكنائس الأمريكية أن تحوّل هذه القضية إلى هدف سياسي، وأن تتحالف مع القوى السياسية وجماعات الضغط المعارضة لإباحة الإجهاض. وقد استخدمت الكنائس كل ما تملك من أدوات ووسائل لتحقيق هدفها الخاص بإلغاء شرعيّة عمليات الإجهاض. ومن ذلك استخدام لجان العمل السياسي PACS لدعم المرشّحين المعارضين للإجهاض (ريجان ـ بوش) وتنظيم هزيمة المرشّحين المدافعين عن حق المرأة في الإجهاض (مونديل ـ

فيرارو- كيري)، وحثّ الناخبين على ربط سلوكهم الانتخابي بموقف المرشّح من هذه القضية، وإصدار الفتاوى الدينية التي تحرّم الإجهاض وتسوي بينه وبين القتل، ونشر التقارير التي تفضح الإجهاض، وتنظيم المظاهرات، وغير ذلك من الوسائل والأساليب التي نجحت بالفعل في وضع القضية ضمن قائمة الأولويّات السياسية القومية ابتداء من الثمانينيات، وفي ربطها بعملية التصويت في الانتخابات الرئاسية والبرلمانية.

ومن نتائج ذلك أن تبنّى الرئيس الأسبق ريجان مطلب الكنيسة، وطالب بتجريم الإجهاض، ووضع هذه القضية في مكانة بارزة في حملته الانتخابية عامي ١٩٨٠م، ١٩٨٤م. وعلى الرغم من أنّ قرار المحكمة العليا عام ١٩٧٣م لا يزال معمولاً به إلاّ أنّ جهود الكنيسة نجحت في الحد من عمليات الإجهاض. ففي عام ١٩٧٧م أصدرت المحكمة العليا قرارًا يحدّ من استخدام المعونات الفيدرالية في خدمات عمليات الإجهاض. وفي عام ١٩٨٤م قطعت حكومة الرئيس ريجان المعونات عن المنظمات - الأمريكية والدولية - المتورّطة في الإجهاض. ولعل هذا ما دفع بوش مؤخرًا لاختيار أحد المحافظين المعارضين للإجهاض رئيسًا للمحكمة العليا.

وهكذا نجحت الكنيسة - كجماعة ضغط - في التأثير على العملية القرارية المرتبطة بالقضايا الاجتماعية والأخلاقية بإلغاء أو تعديل أو تقييد القوانين التي تتعارض مع فلسفتها الاجتماعية.

٥- الوظيفة السياسية: وضعت الكنيسة الغربية من بين الأهداف التي تتوخّاها حماية حقّها في الممارسة السياسية وفي التوجيه السياسي، والدفاع عنهما. وإذا كانت الكنيسة قد اعترفت بأخطائها الماضية وبعدم رغبتها في العودة إلى تقاليد ما قبل الثورة الفرنسية، فإنّها قد أعلنت كذلك أنّها لا تستطيع أن تنعزل عن المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا تقبل أن يقتصر دورها على أداء الوظيفة الكهنوتية Priestly، ولكنها ترى أن من واجبها أن تتطرّق كذلك لتقييم كل الأفكار والأوضاع والسياسات والنظم والقوانين من منطلق المفاهيم والمبادئ المسيحية، على الأقل بالقدر الذي يحقّق مصالح رعاياها ويصون المبادئ والمُثل المسيحية، ويحول دون إيناع الأفكار والمذاهب الإلحادية أو المعادية لعقيدة الكنيسة.

وفي المنشور البابوي الصادر في الثامن من ديسمبر عام ١٨٦٤م بعنوان Syllabus of Errors أعلن البابا بيوس التاسع Pius IX صراحة أنه من الخطأ الاعتقاد في ذلك الوضع الذي يجب أن تنفصل فيه الكنيسة عن الدولة أو الدولة عن الكنيسة.

الشواهد والوقائع تبرهن على استمرار الكنيسة في أداء وظيفتها السياسية في ظل الدولة المدنية، وعلى أنّه حتى في تلك اللحظات التي تُحرم فيها من الممارسة السياسية فإنّها تكون - دائمًا - قادرة على أداء وظيفة التوجيه أو التأثير السياسي على رعاياها: ففي فرنسا دفعت الكنيسة أتباعها لمعارضة مشروع قانون علمنة التعليم الخاص عام ١٩٨٤م، ولتنظيم المظاهرات الضخمة في باريس وفرساي من أجل ذلك، ووجّهت نداءها للناخب الفرنسي لكي يعطي صوته لمرشحي الحزب اليميني (الجبهة الوطنية) في كافة الانتخابات البرلمانية الفرنسية والبرلمانية الأوروبية.

وفي بريطانيا تلعب الكنيسة الإنجليكانية دورها الأساسي كقوّة مساندة للحكومة، وتناضل من أجل الدفاع عن مصالح ومواقف الدولة، وتحوّل منابرها إلى أماكن للدعاية السياسية، كما تتدخّل في بعض القضايا الدولية تحت إشراف الدولة، وكأداة من أدواتها كما حدث في فلسطين ولبنان وأفغانستان والعراق.

ومن جانب آخر تسعى الكنيسة الإنجليكانية دائمًا للتأثير في الآراء السياسية لأتباعها، وحثّهم على دعم حزب المحافظين الذي تسانده الكنيسة، والتصدّي لمطالب الكاثوليك الانفصالية في أيرلندا الشمالية، وممارسة أعمال العنف ضدهم. أمّا الكنيسة الكاثوليكية فتأتي في مقدّمة جماعات الضغط البريطانية التي تعارض السياسات الحكومية التي تتعارض مع مفاهيمها ومطالبها في المجالات السياسية (المسألة الأيرلندية) والاجتماعية (الإجهاض والزواج المختلط) فضلاً عن قضية التعليم.

وفي إيطاليا تهيمن الكنيسة الكاثوليكية على الحياة السياسية، وتشارك في النشاط السياسي من خلال الممارسة والتوجيه. فهي تتدخّل بشكل مباشر في الحياة السياسية للحيلولة دون إيناع القوى الشيوعية من جديد ووصولها إلى الحكم، ولفرض سيطرة الحزب والقوى الموالية لها على السلطة. وهي تمارس دورها في التأثير على الرأي العام والمؤسسات السياسية والناخب الإيطالي بكل الطرق لنفس الغرض، حتى أضحى النشاط السياسي في إيطاليا - بمختلف مظاهره - يرتبط بتوجيهات الكنيسة إلى حد بعيد.

وفي ألمانيا تمارس الكنيسة دورها السياسي كجماعة ضغط إزاء السياسات التي تتعارض مع مصالحها أو عقائدها كما يحدث عادة بخصوص قضية التعليم الديني.

وفي أسبانيا مارست الكنيسة نشاطها السياسي المعارض للحكومات، ومن ذلك دعمها للحركات الانفصالية في الباسك وقطلونية، ومعارضتها لقانون التعليم الصادر في عام ١٩٨٤م، وقانون إباحة الإجهاض في عام ١٩٨٥م، كما تلعب دورها التوجيهي لأصوات أتباعها في الانتخابات العامة في الاتجاه الذي يحقّق مصالحها.

> النشاط السياسي في إيطاليا - بمختلف مظاهره - يرتبط بتوجيهات الكنيسة إلى حد بعيد.

وفي بلجيكا لعبت الكنيسة الكاثوليكية دورًا كبيرًا في معارضة قانون علمنة التعليم الصادر في عام ١٨٧٩م، وأنشأت الحزب الكاثوليكي البلجيكي لمواجهة محاولات الحكومة لعلمنة التعليم، عت أتباعها للتكتّل خلف الأحزاب الدينية وضد الأحزاب الليبرالية والاشتراكية المعادية للكنيسة. ومنذ نهاية السبعينيات من القرن العشرين قادت الكنيسة حركة معارضة سباق التسلّح، ومارست الضغوط على الحكومة للتخلّص من الصواريخ النووية الأمريكية، وعدم الاحتفاظ بها في أراضي بلجيكا، كما نجحت في خلق رأي عام بلجيكي مؤيّد للسلام، ونزع السلاح من منطلق المفاهيم الدينية.

وفي اليونان ومالطة قادت الكنائس الحركات المعارضة لسياسات الحكومات في شأن قضايا التعليم.

وفي البرتغال والسويد نجحت المشاركة السياسية للكنيسة في تحجيم القوى الشيوعية عن طريق دعم أحزاب اليمين، وحث الناخبين للتصويت للأحزاب التي تدعمها وعدم التصويت لصالح الشيوعيين. وقد حالت قوى الكنيسة دون إيناع القوى الشيوعية في هاتين الدولتين.

وفي الولايات المتحدة تعدّدت مظاهر الدور التأثيري الذي مارسته الكنائس على أتباعها. فقد حثّت الكنائس الإنجيلية أتباعها، الذين عزفوا في الماضي عن المشاركة السياسية، للانغماس في الحياة السياسية ومواجهة الانهيار الأخلاقي والتيار الإلحادي. كما دعتهم إلى ربط سلوكهم الانتخابي بموقف المرشّحين من القضايا الاجتماعية والأخلاقية كالإجهاض والمساواة بين الجنسين والتعليم وغيرها. وتمارس الكنائس البروتستانتية نفوذها على أتباعها للحيلولة دون وصول مرشّح كاثوليكي إلى البيت الأبيض. وقد لعبت كنائس الزنوج الدور الرئيسي في قيادة حركة الحقوق المدنية Civil Rights ، وحثّ الزنوج على المشاركة الفعّالة في الحياة السياسية من أجل الحصول على حقوقهم الأساسية. وتتمتّع الكنيسة الزنجية في الجنوب الأمريكي بنفوذ هائل يجعلها دائمًا عرضة للمؤثّرات السياسية، ويتم استعطافها وخطب ودّها من جانب المرشّحين لمناصب سياسية.

أما الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية فهي تلعب أدوارًا نشطة للحصول على التأثير السياسي اللازم لمساندة أو معارضة سياسة أو قضيّة ما. ومن ذلك موقفها المؤيّد للمرشّح الكاثوليكي الذي فاز بمنصب الرئاسة في انتخابات عام ١٩٦٠م جون كينيدي J. Kennedy ، وموقفها من قضايا التعليم والإجهاض والشذوذ الجنسي، وقتل الشفقة وغيرها من القضايا الاجتماعية والأخلاقية، فضلًا عن موقفها من بعض القضايا الدولية مثل سباق التسلح والحرب النووية، والصراع العربي الإسرائيلي، والسياسة الأمريكية

في أمريكا الوسطى ودول الكاريبي، وموقفها من النظام العنصري السابق في جنوب إفريقيا وغير ذلك.

ثالثًا - الدين والتكامل السياسي:

لقد أثبتت الدراسات الواقعية لظاهرة الدولة المدنية في التقاليد الغربية المعاصرة ارتباط ظاهرتي الصراع والتكامل السياسيّين بالاختلافات الدينية، وتطابق الدائرة الدينية مع الدائرة القومية في الوعي الجماعي في بعض النماذج الغربية، وتأثّر المشاركة السياسية والتفضيلات الحزبية بهذا التعدّد الديني:

ففي فرنسا يقيم التعدّد الديني دائمًا حواجز نفسية بين الفرنسيين، رغم أنّ الكاثوليك يشكّلون وحدهم حوالي ٩٠٪ من السكان. وقد فشل الكاثوليك في كل محاولاتهم لإذابة واستيعاب أتباع الأديان والمذاهب غير الكاثوليكية في المجتمع القومي، ولذا فقد دخلوا في صراعات سياسية عدوانية مع البروتستانت في القرن التاسع عشر، ومع المسلمين ابتداء من الربع الأخير من القرن العشرين.

وفي بريطانيا فشل الإنجليز في إدماج الأيرلنديين الكاثوليك الذين يُضمِرُون أشد ضروب العداء للأمة الإنجليزية ودينها البروتستانتي. وأدّى هذا العداء الديني إلى إذكاء الصراع القومي بين الإنجليز والأيرلنديين، والذي انتهى بانفصال أيرلندا الجنوبية واستقلالها عن بريطانيا عام ١٩٢١م، وصراعات دموية بين الأيرلنديين الشماليين والإنجليز تفتّت الجسد السياسي، وتحول دون تحقيق وحدته القومية وتكامله الحقيقي حتى هذه اللحظة.

وفي أيرلندا الشمالية يرتبط النشاط السياسي كليّة بهذا الوعي الديني والتعصّب الطائفي الذي يحكم العلاقة بين الكاثوليك، الراغبين في الانفصال عن بريطانيا والبروتستانت الراغبين في استمرار الاتحاد مع بريطانيا ، بشكل يؤكّد أهمية الرابطة الدينية لعملية الوفاق الاجتماعي والوحدة السياسية، وسمو العاطفة الدينية على مجرّد العاطفة القومية في بريطانيا.

وفي ألمانيا ظل الصراع القديم الذي أعاق الوحدة القومية بين الكاثوليك والبروتستانت يفرض نفسه على الحياة السياسية، وبصفة خاصة عندما تتّخذ الحكومات البروتستانتية موقفًا يتعارض مع مفاهيم الكنيسة الكاثوليكية بخصوص بعض القضايا مثل قضيّة التعليم الديني. وتعكس الانقسامات الحزبية عادة الاختلافات الدينية بين الألمان.

وفي بلجيكا أشعلت الاختلافات الدينية، وما يرتبط بها أحيانًا من انقسام حزبي، العداء العنصري القديم بين جماعتي الـ Flemish والـ Walloon. ولا يزال الوعي الديني لدى الأقليات الدينية - وبصفة خاصة الأقليات البروتستانتية والأقلية الإسلامية - يحول دون اندماجها في المجتمع القومي، ويحرّك مشاعر العداء في العلاقة بين الأغلبية الكاثوليكية والجماعات الدينية المختلفة. وفي هولندا يرتبط الانقسام الحزبي والصراع السياسي كذلك بالاختلاف المذهبي ومشاعر العداء بين الكاثوليك والبروتستانت.

وفي اليونان - وقبرص - يحول الانقسام الديني دون التجانس القومي الكامل، ويتحكّم الشعور الديني في السلوك السياسي لليونانيين. والقبارصة - ويتأثّر السلوك الانتخابي في النهاية بانتماء الناخب إلى إحدى الجماعتين الأرثوذكسية أو الإسلامية. وفي النرويج وسويسرا - حيث الأغلبية البروتستانتية والأقلية الكاثوليكية. ترتبط الانقسامات الحزبية والاختيارات السياسية بهذا الانقسام الديني.

وفي الولايات المتحدة يترك التعدّد الديني آثاره البارزة على عملية المشاركة السياسية، ويتفوّق في ذلك على الآثار التي يحدثها التعدّد العنصري، ويزداد الأمر خطورة عندما يرتبط التعدّد الديني بالانفصال العنصري، ويختلف الاختيار السياسي لنفس المنتمين إلى أصل عنصري واحد (كالأمريكيين الألمان أو العرب) عندما تختلف مذاهبهم (ألماني بروتستانتي - ألماني كاثوليكي) أو دياناتهم (عرب مسيحيون - عرب مسلمون). وعلى العكس فإنّ وحدة الانتماء الديني عند اليهود الأمريكيين - ورغم تنوع أصولهم العنصرية والقومية - هي التي تفسر كل ما له صلة بنشاطهم السياسي الفعّال في الولايات المتحدة.

حقيقة الإدراك الغربي لمفهوم الدولة المدنية:

نستطيع القول إذن أن هذا الدور الواقعي أو الفعلي الذي يمارسه الدين في الحياة السياسية الغربية، وهذا

الارتباط الثابت بين النشاط السياسي والنشاط الديني، يمثّل في الواقع عصب الإدراك السياسي الغربي، والمنطلق الحقيقي لفهم النموذج المدني للحكم كنموذج واقعي. إنّ موقف الجماعة السياسية الغربية المدافع عن حق القوى الدينية في المشاركة السياسية، واستجابة النظم السياسية لرغبة هذه القوى في التعبير السياسي عن ذاتها، واعترافها بها كقوة سياسية واجتماعية وكأحد محدّدات الحركة السياسية والاجتماعية في المجتمعات الغربية يعني في الواقع أمرين:

الأول: أنّ الانفصال بين الدين والحياة السياسية في التقاليد الغربية هو انفصال نظري، صاغه الفقه الغربي في محاولته لإيجاد حل للمشكلة السياسية التي كانت تعاني منها أوروبا نتيجة لمبالغات الكنيسة الكاثوليكية، وعبّر به الفلاسفة عن تصوّرهم لنموذج مثالي لا يخضع لتحكّم الإكليروس في شكل نموذج نظري للدولة، يستبعد كليّة كل ما له صلة بالمؤثّرات الدينية من نطاق الحركة السياسية.

والأمر الثاني: أنّ الواقع يثبت أنّ هذا الاستقلال الوظيفي بين الدين والدولة لم يتطرّق إلى الإدراك السياسي الغربي، ولم تتقبّله المرجعية الأصلية لثقافة المجتمعات الغربية؛ لتعارضه مع ذلك الإدراك الذي يتحكّم في كل ما له صلة بالتصوّر الغربي للعلاقة السياسية - والذي تشكّل القيم المسيحية أحد أهم عناصره الأساسية - من جهة، ولتجاهله لواقع الحركة السياسية والاجتماعية الغربية، والتي يلعب الدين بالفعل دورًا مؤثّرًا في تشكيلها وتوجيهها من جهة أخرى.

خاتمة: نحن والغرب و«جُحْر الضب»:

تبدو الآن أهمية هذا البحث كأحد مسالك تقييم عملية الاتصال بالنظم الفكرية الأجنبية وبخاصة الغربية، وكأحد الدلائل على الخطأ الأكاديمي التي ارتبط بعملية الدعوة إلى نقل خبرة الدولة المدنية الأوروبية، وتطبيقها في الواقع الإسلامي، وتجاهل تراثنا الإسلامي وخبرتنا التاريخية التي كان يتعيّن الانطلاق منها في عملية بناء الدولة، ورسم سياستها العامة، وتخطيط حركتها السياسية وعلاقاتها الخارجية.

لقد رفض الإدراك السياسي «الغربي» ربط الواقع السياسي «الغربي» المعاصر بنظريات «غربية» فرضها وضع استثنائي وظروف معيّنة خاصة بالواقع «الأوروبي» في الفترة السابقة على الثورة الفرنسية، وعادت النظم السياسية الغربية لتعترف بالدين كأحد محدّدات الحركة السياسية، وكوجود اجتماعي وسياسي لا يمكن تجاهله، أو حرمانه من التعبير عن مصالحه، والمشاركة في صنع القرار السياسي بلغة وأساليب جديدة؛ تعبّر عن طبيعة العصر وواقع التطور السياسي الغربي، فأين نحن من هذا الوعي الجماعي الغربي، ومن هذه المرونة والواقعية والفعالية في التعبير عن حقيقة الحركة السياسية والاجتماعية، وفي استيعاب القوى الدينية في هذه الحركة دون عنف ودون اختلال في التوازن!

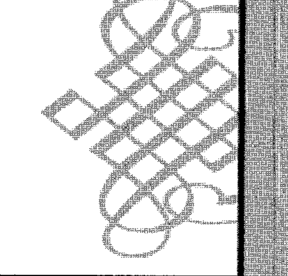
على الرغم من أنّ واقعنا الإسلامي لا صلة له بالنموذج المدني الأوروبي لا من حيث الإطار التاريخي، ولا من حيث الطبيعة والخصائص الحضارية [(٧)]، فلا يزال يسيطر على عقول علماء ورجال السياسة عندنا اعتقاد ثابت في نظرية الدولة المدنية «منتهية الصلاحية» التي أفرزها الفقه الغربي في ظروف طارئة واستثنائية!

ولا يزال واقعنا السياسي يُجبر على الخضوع لتلك النظرية «الغربية» التقليدية التي يرفض الواقع السياسي «الغربي» المعاصر ذاته أن يخضع لها! ولا يزال منطق ظاهرة الدولة المدنية - وبصفة خاصة تلك الجزئية المرتبطة بإقصاء القوى الدينية عن كل ما له صلة بالعلاقة والحركة السياسية - يجد صداه في واقعنا السياسي في الوقت الذي لم يعد له صدًى يُذكر في الواقع الغربي الذي أفرزه.

لقد رأينا الأوروبيين يدخلون جُحْر الضب فدخلناه خلفهم، ثم إنهم خرجوا منه يبحثون عن مكان آمن وبقينا نحن فيه! وصدقت نبوءة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

(٧) راجع العوامل التسعة التي هيأت لنشوء الدولة المدنية في أوروبا، ثم انظر هل عرفت مجتمعاتنا الإسلامية أي من هذه العوامل في أي لحظة من تاريخها !!!





معلومات إضافية

١- «جان بودان» ونظرية السيادة:

«جـان بودان» (Jean Bodin): مفكـر فرنسـي ولد عـام ١٥٣٠م، وتوفي عام ١٥٩٦م، عاش خلال فترة حافلة بالحروب الدينية في أوروبا، لاسيّما بين الكنيسـتين الكاثوليكية والبروتستانتية، وبلغ الصراع ذروته بمذبحة «سان بارتلمي» سنة ١٥٧٢م التي نفذها الكاثوليك ضد البروتستانت.

أدى تأثر «بودان» بالحقبة والأحداث التي عاصرها إلى رفض السـلطة الكنسـية المطلقة، فكان أحد أوائـل المفكريـن الذين عزلـوا فكرة سـيادة الدولة؛ حيث اعتبر في مؤلفه الشـهير الكتب السـتة عن الجمهورية، الصادر عام ١٥٧٧م أنها الصفة الأساسية التي تميزها عن المؤسسات السياسية الأخرى.

وعرّف بودان السـيادة بأنها السـلطة المطلقة الدائمة في الدولة، وهي السمة الرئيسية التي تظهر الدولة على غيرها من التجمعات والتنظيمات البشرية الأخرى.

وقد جنّد بودان نفسـه للدفاع عن فكرة السـيادة الملكية، فقد كان يؤمن بأن فرنسا أضحت مهددة بالتمـزق والتفتـت؛ جراء الخلافات الدينية، وبسـبب توزيع السـلطات بين أقاليمها، لذا رأى في السـيادة علاجًـا فعـالاً لحال فرنسـا، فمن شـأنها أن تحقـق الوحدة، وتكفل القوة لفرنسـا عـن طريق تركيز السلطات في الدولة.

المصادر:

د.جمال سلامة علي، السياسة بين الأمم النظرية السياسية وقضايا الفكر السياسي، دار النهضة العربية.

د. عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، دار الشروق، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٢- نظرية العقد الاجتماعي عند هوبز ولوك وروسو:

مهّـد المفكـر الإنجليـزي «توماس هوبـز» (١٥٨٨ - ١٦٨٩م) لنظريـة العقد الاجتماعي. التي انتشـرت واسـتقرت في أوروبـا. مـن خلال نظريته عن السـيادة المطلقة التي جاءت في كتابـه The Matter Form And Authority Of Government، والتي دعا فيها إلى الحكم المطلق استنادًا إلى السيادة المطلقة.

ورأى هوبـز أن القوانـين الطبيعية ليسـت أسمى من القوانين الوضعيـة، وأن الأولى لا تعتبر المثل الأعلى للثانية، وأن الأمير صاحب السـيادة ليس مكلفًا بالامتثال للقوانين الطبيعية؛ إذ ليس ثمة قانون فعلي إلا ذلك الذي يصدر عن إرادة صاحب السيادة.

بعد هوبز جاء المفكر الإنجليزي «جون لوك» (١٦٣٢ - ١٧٠٤م)، والذي تزعم نظرية العقد الاجتماعي في إنجلترا، واتفق «لوك» مع «هوبز» في وجود عقد اجتماعي بين الدولة والأفراد، لكنه خالفه في كون سلطة الحكومة المشرفة على تنفيذ العقد مطلقة.



وأخـيرًا اكتملت الفكرة على يد الكاتب والفيلسـوف الفرنسـي جان جاك روسـو (١٧١٢-١٧٧٨م) مع فارق أساسـي بينه وبين هوبز، ذلك أن روسـو يرى أن الحالة الطبيعية للإنسان هي الفترة الذهبية من تاريخه، ولكن الإنسـان بفعل الأطماع وبتأثير (الأديـان!) تجرد من النقاء الطبيعي، وانتقل إلى حالة من الفوضوية اقتضت وجود عقد اجتماعي لتنظيم حياة الناس، ومحاولة العودة بهم إلى الحالة الطبيعية.

والملاحـظ على النظرية بشـكل عام هو إغفالها لدور الدين، سـواء فيما هو كائـن أو فيما ينبغي أن يكون إلى درجة أن روسـو لا يكتفي بإهمال الأثر الديني في توجيه المجتمع، بل يعد الدين الإلهي عاملاً من العوامل التي تعوق الرجوع إلى الحالة الطبيعية السوية.

وحين يطالب روسـو بفصل السياسـة عن الدين، فإنه يتهم الأديان بأنها هي التي سـببت هذا الفصل، ونظـرًا لتهجم روسـو علـى الدين ومطالبته بعزلـه عن واقع الحيـاة؛ وصَفَه بعض الباحثـين الغربيين بأن مؤلفاته كانت إعلانًا صارخًا لحرب ضد المجتمع وضد الله (على حسب قولهم).

ومـن العوامل المشـجعة الـتي دفعت هذه النظرية إلى الأمام قيام الثورة الفرنسـية على وحي من مبادئها وآراء فلاسـفتها -لا سـيما روسـو - إذ يوصـف كتابـه الذي يحمل اسـم «النظرية» بأنـه (إنجيل الثورة الفرنسية).

المصادر:

د.جمال سلامة علي، السياسة بين الأمم النظرية السياسية وقضايا الفكر السياسي، دار النهضة العربية.

الشيخ الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة.

انظر: http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&contentID=243

٣- دور اليهود في التهيئة لظهور الدولة المدنية:

لعـب اليهود دورًا بارزًا في تحويل الثورة الفرنسـية من ثـورة على مظالم رجال الدين إلى ثورة على الدين نفسه، وجعلوا لفظة الدين عند الشعوب الأوروبية مرادفة للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد.

وكان اليهود في ظل فرنسا الكاثوليكية أقلية محتقرة (٤٠ ألف يهودي) لا تحسب في عداد المواطنين، وليس لها «حق المواطنة»، وكانوا يعيشون في مجتمع منعزل «الجيتو»، وكان أقصى ما يفعله اليهود هو جمع المال، وإقراضه بالربا الفاحش للمحتاجين، وإيقاع أمراء الإقطاع في الدَّيْن؛ ليستولوا في النهاية على ثرواتهم، لكن تأثيرهم في مجموع الناس كان معدومًا أو ضئيلاً إلى أقصى حد.

ورأى اليهود أن أنجح الوسـائل لتحقيق مخططهم في اسـتعباد البشرية، هي نزع عقائد الأممين وإفساد أخلاقهـم، ولـذا جاء في بروتوكولات حكماء صهيـون: «يجب علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول غير اليهود، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورات مادية».

فلما نزلت الضائقة الاقتصادية، واندلعت الثورة على الكنيسة، وجدها اليهود فرصة ذهبية لا بد من استغلالها.

واستطاع اليهود أن يتغلغلوا في منظمات الثورة المختلفة، كالجمعية التأسيسية، ونادي اليعاقبة وبلدية باريس، وأن ينفثوا تلك الشعارات التي رددتها الجماهير- لاسيما - شعار الثورة البارز «الحرية والإخاء والمساواة».

وكان هذا الشعار الذي قامت عليه الثورة وحققته، كان له عند اليهود تفسير آخر: فهم يقصدون بالحرية تحطيم القيود الأخلاقية والتقاليد الموروثة، التي تحول بينهم وبين إفساد الأمم وتدميرها، ويقصدون بالإخاء والمساواة كسر الحواجز النفسية والاجتماعية التي تحول بينهم وبين الانسلال إلى أجهزة الدولة وتنظيماتها، وإذابة الفوارق الدينية بينهم وبين غيرهم؛ كي تزول عنهم وصمة الاحتقار والمهانة.

كما سعى اليهود بجمعياتهم الماسونية المنبثة في أنحاء فرنسا، وبخطبائهم وكُتّابهم إلى توجيه غضب الجماهير نحو الدين ذاته، لا نحو رجاله فحسب، وكان أن أعلنت الثورة في فرنسا أول حكومة لا دينية في العالم المسيحي، لا تجعل الدين أساسًا لأي شيء في حياة الناس.

المصادر:

د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة.

http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&contentID=240

موقع «مفكرة الإسلام»، كيف استغل اليهود الثورة الفرنسية.

http://www.islammemo.cc/article١.aspx?id=٢٢٨٠٦

٤- دور الدين في السياسة الأمريكية:

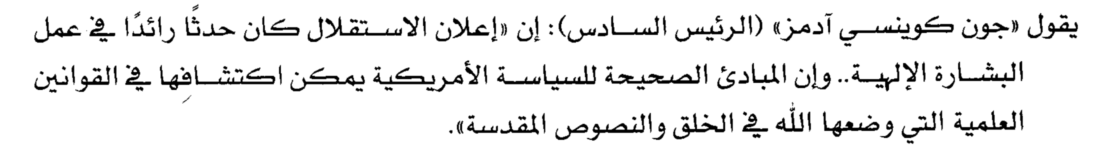
اختلط العالَمان السياسي والديني إلى حد هائل في تاريخ الولايات المتحدة، وحتى قبل أن يبدأ هذا التاريخ فإن الدين والسياسة قد نُسجا مع بعضهما داخل المستعمرات، بل وقبل ذلك أيضًا فقد اتحدا اتحادًا لا انفصام له في تلك الدول التي جاء منها المستوطنون إلى ما أصبح فيما بعد يعرف بالولايات المتحدة.

إذا كان مسموحًا في الولايات المتحدة أن يصبح أي ملحد رئيسًا للجمهورية، فلم يتحقق هذا الأمر على مدار أكثر من قرنين هما عمر الولايات المتحدة، جاء فيهما ثلاثة وأربعون رئيسًا - أي بمعدل خمس سنوات لكل رئيس - كلهم بالتمام والكمال مسيحيون، بل كلهم - عدا واحد - بروتستانت، فلم يأت سوى جون كيندي في الستينيات رئيسًا كاثوليكيًا (والذي لعبت الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية دورًا نشطًا لدعمه في هذه الانتخابات).

وكان الدين عند معظم هؤلاء الرؤساء مرتبطًا بتفكيرهم السياسي ومؤثرًا فيه، ويتضح ذلك في الأمثلة التالية:

كان «جون أدامز» (الرئيس الثاني للولايات المتحدة) يعتقد أن الكتاب المقدس قدّم «النظام الوحيد الذي عمل دائمًا وسيحفظ دائمًا الجمهورية في العالم».





يقول «جون كوينسي آدمز» (الرئيس السادس): إن «إعلان الاستقلال كان حدثًا رائدًا في عمل البشارة الإلهية.. وإن المبادئ الصحيحة للسياسة الأمريكية يمكن اكتشافها في القوانين العلمية التي وضعها الله في الخلق والنصوص المقدسة».

قال الرئيس «وودرو ويلسون» (الرئيس الثامن والعشرون) في خطابه عام ١٩١١م عن «الكتاب المقدس والتقدم»: «لا تدع أحدًا يفترض أنه يمكن فصل التقدم عن الدين.. والإنسان الذي يتجذر إيمانه في الكتاب المقدس يعرف أن الإصلاح لا يمكن أن يتوقف».

منذ بداية الثمانينيات كان الحزب الجمهوري قد أفسح الطريق داخل صفوفه لليمين المسيحي (متحالفًا مع اليمين السياسي)، وعقد المرشح الجمهوري للرئاسة (١٩٨٠م) «رونالد ريجان» تحالفات مع القس المنصر «بيلي جراهام» زعيم منظمة «شبان المسيح»، والقس المتطرف «جيري فالويل» زعيم منظمة «الأغلبية الأخلاقية»، بل إن ريجان خلال حملته الانتخابية كان يردد شعار «الإنجيل هو الحل»، وكان اليمين المسيحي قوة مؤثرة في فوز ريجان وجورج بوش الأب.

عيّن ريجان عددًا من شخصيات اليمين المسيحي في مناصب سياسية مهمة، وفي عام ١٩٨٣م أيد ريجان في خطابه أمام «الاتحاد الوطني للإذاعيين الدينيين» قضايا أجندة اليمين المسيحي.

كشفت حملات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٠م عن الدور المؤثر لليمين المسيحي، وعن دور الدين في السياسة الأمريكية، فخلال حملته للترشيحات الأولية في الحزب الجمهوري في ديسمبر ١٩٩٩م، قال المرشح جورج بوش الابن (الرئيس الحالي): إن «يسوع المسيح هو الفيلسوف المفضل لي». وعندما سأله تيم روسرت المذيع الشهير في شبكة «إن. بي. سي» التلفزيونية لتوضيح ذلك، قال بوش: «إن المسيح هو الأساس الذي أعيش به حياتي شاء من شاء وأبى من أبى».

كما دعا بوش إلى المؤتمر القومي للحزب ابن القس «بيلي جراهام» أحد مؤسسي اليمين المسيحي لصلاة البركة؛ حيث بارك كل الحضور باسم يسوع المسيح.

يقول بوش في مذكراته (مهمة للأداء «لأحقق إرادة خالقي») - التي صدرت قبيل الحملة الانتخابية للرئاسة عام ٢٠٠٠م -: «لم أكن أستطيع أن أصبح حاكمًا ما لم أؤمن بخطة إلهية تنسخ كل الخطط البشرية».

من ناحية أخرى، لا توجد مؤسسات دينية في العالم مثل ما يوجد في أمريكا، من مدارس لجامعات لمحطات إذاعة وشبكات تليفزيون، لجرائد ومجلات وكتب، وأفلام وأغانٍ.

كما أن عددًا كبيرًا من القساوسة من أمثال القس المتطرف «بات روبرتسون»، والقس الراحل «جيري فالويل» - أحد رموز التشدد الديني المسيحي في الولايات المتحدة، والذي تجرأ وتطاول على الرسول الكريم سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم - في أحد برامجه وغيرهم، لكل منهم مشاهدون ومريدون بعشرات الملايين، ولهم ميزانيات بمئات الملايين من الدولارات؛ ويمكن لأي منهم أن يصرح علنًا، مرارًا وتكرارًا، على الملايين من المشاهدين بكل ما يراه، وفي أي مجال حتى لو كان على العكس تمامًا مما يقوله الرئيس وحكومته.

برامج الكنائس التلفزيونية في الولايات المتحدة الأمريكية

البرنامج	مقدمه	عدد المشاهدين شهريًّا بالمليون
ساعة من إنجيل زمان	جيري فالويل	٥,٦
جيري فالويل لايف	جيري فالويل	٣٤
نادي السبعمائة	بات روبرتسون	١٦,٣
توقع معجزة	أورال روبرتس	٦,٠
مجِّدوا الرب	جيم بيكر	٥,٨
الحملة الصليبية الأسبوعية	جيمي سواجرت	٩,٠
دراسة في كلمة	جيمي سواجرت	٤,٥
ساعة من القوة	روبرت شيللر	٧,٦
كينيث كوبلاند	كينيث كوبلاند	٤,٩

المصادر:

مايكل كوربت وجوليا ميتشل كوربت، الدين والسياسة في الولايات المتحدة، الجزء الثاني، ترجمة زين نجاتي ونشأت جعفر، مكتبة الشروق الدولية.

عادل المعلم، الإمبراطورية الأمريكية، الجزء الثالث، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

والترأ. مكدوجال، أرض الميعاد والدولة الصليبية، ترجمة رضا هلال، دار الشروق ٢٠٠١م.

د. محمد عارف، صعود البروتستانتية الإيفانجليكية في أمريكا، وتأثيره على العالم الإسلامي، ترجمة رانية خلاف، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

رضا هلال، المسيح اليهودي ونهاية العالم، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١م.

عادل المعلم، «مقدمة في الأصولية المسيحية في أمريكا والرئيس الذي استدعاه الله وانتخبه الشعب مرتين»، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥م.

مفهوم الاجتهاد السياسي وضوابطه



د. علاء الدين الزاكي

(أستاذ مشارك ورئيس قسم الثقافة الإسلامية، جامعة الخرطوم)

ملخص البحث

إن الخلل الذي حدث في فكر بعض المجتهدين السياسيين، والخطأ الذي حدث في أحكام مَن حاول الدخول إلى السياسة من غير أبوابها الصحيحة -إفراطًا وتفريطًا- ليستدعي أهمية ضبط الاجتهاد السياسي.

وتتعاظم ضرورة الاجتهاد السياسي في هذا الوقت لعدة أمور: من أهمها أن أغلب النصوص في باب السياسة عبارة عن قواعد عامة، تحتاج إلى اجتهاد في كيفية تطبيقها على الفروع، بالإضافة إلى بعض النوازل التي تحتاج إلى نظر واجتهاد؛ لإصدار أحكام فيها، كما أن الظروف والأحوال التي تمر بالأمة من ضعف وقوة، وشدة ورخاء، تحتاج إلى نظر سياسي متميز.

ونظرًا لأهمية الوسائل في باب الاجتهاد السياسي، فقد توسعت الشريعة في باب الوسائل حتي جعلت الأصل فيها الإباحة.

وإذا تقرر التوسع في الوسيلة، فلا بد وأن نعلم بأننا نريد اجتهادًا صحيحًا موافقًا لشرعنا، لا يتعارض مع ديننا، وهذا يدفعنا إلى اختيار الوسيلة المشروعة؛ فالمسلم له حدود لا يجوز له أن يتعداها.

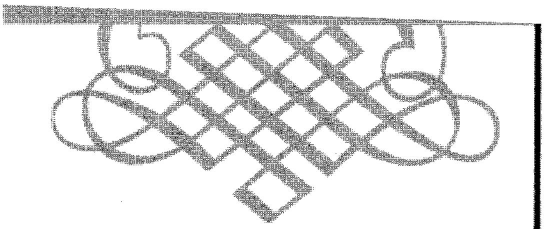
وهناك بعض الوسائل طريق إلى مفاسد: إما محققَة، أو غالبة، وهي المسماة بالذرائع، وما دام أنها تؤدي إلى مفاسد فقد دعت الشريعة إلى سد أبوابها؛ لأن الشريعة مبناها على جلب المصالح، ودفع المفاسد.

كما أن الشارع الحكيم قد راعى أحوال المكلفين التي تتقلب، ولا تثبت على حالة واحدة، فقد تمر بهم بعض الأحوال تضطرهم إلى استخدام الحرام، وهي ما يسمى بحالة الضرورة.

فاستخدام الوسائل والذرائع في حالة الضرورة والحاجة يحتاج إلى دقة في النظر؛ لاستغلال هذه الحالة للبحث عن حلول للقضايا الطارئة دون تضييع للشرع أو الخلق.

ومن خلال الحاجة المُلِحّة لضبط الاجتهاد السياسي يتبين ضرورة اهتمام مراكز الدراسات بإعداد الكوادر المؤهلة في باب الاجتهاد السياسي، من خلال كتابة البحوث وعقد الدورات التأهيلية، فضلاً عن إخضاع الأفكار المعاصرة في باب السياسة لدراسة متأنية لمعرفة ما لها وعليها.





أفكار و مقتطفات

- السياسة هي النظر في مصالح الأمة؛ لتقديم أحسن البدائل، سواء كانت هذه البدائل في السياسة الداخلية أو الخارجية، وممارستها عبر الوسائل المشروعة والفعالة، وهو المسلك الوسط الحق، ويعرف بالسياسة الشرعية.

- يكون الاجتهاد السياسي في غير المنصوص عليه، أو في المنصوص إذا كان محتملاً للنظر؛ لأن القطعيات لا تحتاج إلى اجتهاد؛ فهي من العلم الضروري الذي لا يحتاج إلى نظر، والقطعي في باب السياسة قليل ونادر.

- من ضوابط الاجتهاد في باب السياسة وجود آلات الاجتهاد، بحيث لا يدخل الإنسان باب الاجتهاد في السياسة إلاّ إذا ملكها، فلو فُتِحَ الباب على مصراعيه لرأينا أعداد المجتهدين تفوق أعداد العامة، ولترتب على ذلك ضياع مصالح الأمة، مثله مثل الاجتهاد في الشريعة.

- قد تجد من الناس من يحسن الشرع، ولا يحسن التعامل مع الواقع، فلا شك أن هذا لا يستطيع تقديم حلول نافعة لمشاكل المسلمين، ولا يمكنه قراءة الحال، واستنباط الوسائل المشروعة والفعّالة لتقديم أحسن الحلول.

- أغلب النصوص في باب السياسة عبارة عن قواعد عامة تحتاج إلى اجتهاد في كيفية تطبيقها على الفروع.

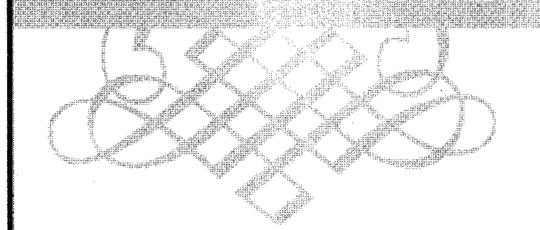
- من ضرورات الاجتهاد السياسي ما يتعلق بالمصلحة؛ من حيث تحققها وتقديرها، وتعارض المصالح والمفاسد، وتعارض المصالح فيما بينها كالعامة مع الخاصة مثلاً، وتعارض المصالح مع بعض النصوص العامة، وغير ذلك.

- هناك عدة قواعد تحكم مسألة استخدام الوسائل في الاجتهاد السياسي؛ لئلا يحصل التفريط أو التجاوز الشرعي، فتخرج السياسة عن الإطار الشرعي إلى العلماني.

- لم يتوقف السلف في الوسائل في الاجتهاد السياسي، إلا إذا ورد الدليل بمنعها، فمن ذلك جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وسيلة لحفظ القرآن بعد استشهاد الحَفَظَة في اليمامة.

- إذا قررنا التوسع في الوسيلة، فلا بد أن نعلم بأننا نريد اجتهادًا صحيحًا موافقًا لشرعنا، لا يتعارض مع ديننا، وهذا يدفعنا إلى اختيار الوسيلة المشروعة، فالمسلم له حدود لا يجوز له أن يتعداها.

- إذا أفضت الوسيلة إلى مصالح مختلطة بالمفاسد، فإن هذا من أصعب الأبواب في الشريعة؛ لأنها تحتاج إلى مجتهد يُحسِن تقدير المصالح والمفاسد؛ لئلا يوقع الناس في الحرج الشرعي أو الدنيوي.



- «إن الشـريعة مبناها على تحصيل المصالح بحسـب الإمكان، وألا يفوت منها شيء، فإن أمكن تحصيلها كلها حُصِّلت، وإن تزاحمت ولم يمكن تحصيل بعضها إلا بتفويت البعض قُدِّم أكملها وأهمها وأشدّها طلبًا للشارع»

- إذا تسـاوت المصلحة والمفسدة كان درء المفاسد مقدمًا على جلب المصالح، ومنع وسائلها مقدمًا على إباحته، وقد أنكر ابن القيم وجود مثل هذا.

- هناك بعض الوسائل طريق إلى مفاسد: إما محققَة أو غالبة، وهي المسماة بالذرائع، وما دام أنها تؤدي إلى مفاسد فقد دعت الشريعة إلى سد أبوابها؛ لأن الشريعة مبناها على جلب المصالح ودفع المفاسد.

- إننـا لا نبحث عـن الضرورات لنبيح بها المحرمات، وإنما هي حالة اسـتثنائية تطرأ على المكلف تُلجِئه إلى استخدام المحظور، ولو أننا سلكنا مسلك البحث عن الضرورات لربما أشرقت الشمس علينا يومًا ونحن نتعبد بالضرورة بعيدًا عن الشرع.

- اسـتخدام الوسـائل والذرائع في حالة الضرورة والحاجة يحتاج إلى دقة في النظر؛ لاسـتغلال هذه الحالة للبحث عن حلول للقضايا الطارئة دون تضييع للشرع أو الخلق.

مفهوم الاجتهاد السياسي وضوابطه

د. علاء الدين الزاكي : أستاذ مشارك ورئيس قسم الثقافة الإسلامية، جامعة الخرطوم

مقدمة:

فإن حال المسلمين يحتاج إلى وقفات صادقة في كثير من جوانبه؛ بغية تصحيح المسار وتقويم الاعوجاج، ومن هذه الجوانب السياسة، فالمسلمون منهم مَن حجَّر واسعًا، ومنهم مَن توسَّع توسعًا تجاوز فيه حدود الشرع، فظهرت الانحرافات الفكرية والواقعية، فدفعت بكثير من المجتمعات إلى حافَّة الهاوية.

وإني في هذا البحث المتواضع أحاول تشخيص الداء، مع شيء من الدواء، في باب السياسة خاصة جانب الاجتهاد فيها.

وقد دفعني للكتابة في هذا الباب ما يلي:

أولاً: كثرة المجتهدين السياسيين في هذا العصر، بل وكثرة المفكرين، ودعاة التجديد.

ثانيًا: الضرورات الملحة لوجود هذا الاجتهاد، وقيام الأسباب والدوافع التي تحتّم وجوده.

ثالثًا: الخلل الذي حدث في فكر بعض المجتهدين السياسيين والخطأ الذي حدث في أحكام من حاول الدخول إلى السياسة من غير أبوابها الصحيحة إفراطًا وتفريطًا.

رابعًا: وضع إطار نظري للاجتهاد السياسي يكون قاعدة في هذا الباب.

المبحث الأول: مفهوم الاجتهاد السياسي

عند تعريف الاجتهاد السياسي، لا بد من تعريفه بطريقين؛ باعتباره مركبًا من جزأين: (اجتهاد، وسياسة)، فنعرّف كلمة الاجتهاد، ثم كلمة السياسة، وكذلك باعتباره لقبًا على مجال معين، وذلك كلّه في المطالب التالية:

المطلب الأول: تعريف الاجتهاد:

الاجتهاد: لغة من مادة (جهد)، وهي بذل الجهد قال ابن منظور: «(جهد) الجَهْدُ والجُهْدُ الطاقة تقول: اجْهَد جَهْدَك، وقيل: الجَهْد المشقة والجُهْد الطاقة»[1].

(١) لسان العرب ٣/١٣٣، مادة (جهد).

وأما في الاصطلاح، فالاجتهاد هو: «استفراغ الوُسْع في تحصيل العلم أو الظن بالحكم»[٢]، وقال الرازي: «هو استفراغ الوسع في النظر فيما لا يلحقه فيه لَوْم مع استفراغ الوسع فيه»[٣]. وقد ذكر غير ذلك من التعريفات.[٤]

فالاجتهاد عند العلماء يشمل القيود الآتية :

(أ) بذل الجهد واستفراغ كل ما في الوسع.

(ب) وجود آلة الاجتهاد وعُدّته، بمعنى أن يكون الشخص من أهل الاجتهاد.

(ج) بذل الجهد يكون في المسائل الظنّية لا القطعية.

(د) أن يكون ذلك في إصدار الأحكام.

المطلب الثاني: تعريف السياسة:

لغة: من مادة «سوس»، وهي إذا جاءت في اللغة تُحمل على عدة معانٍ منها، قال ابن منظور: «السَّوْسُ الرِّياسَةُ، يقال: ساسوهم سَوْسًا، وإذا رَأَّسُوه قيل: سَوَّسُوه، وأساسوه وسَاس الأَمرَ سِياسةً قام به، ورجل ساسٌ من قوم ساسة وسُوَّاس، والسِّياسةُ القيامُ على الشيء بما يُصْلِحه، والسياسةُ فعل السائس يقال: هو يَسُوسُ الدوابَّ إِذا قام عليها وراضَها، والوالي يَسُوسُ رَعِيَّتَه».[٥]

أما في اصطلاح العاملين، فهناك اتجاهات في مفهوم السياسة:

الاتجاه الأول : الاعتدال والتوسط ، قال ابن عقيل: «السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا نزل به وحي»، وقد قيّده بقوله : «ما لم يخالف ما نطق به الوحي»[٦]، وقال ابن نجيم: «إِنَّهَا الْقَانُونُ الْمَوْضُوعُ لِرِعَايَةِ الْآدَابِ، وَالْمَصَالِحِ وَانْتِظَامِ الْأَمْوَالِ»[٧]. وهذا الاتجاه يجعل من السياسة كل أمر يحقق المصلحة، لكن بشرط عدم مخالفة النصوص الشرعية؛ لأنها مصدر المصلحة المعتبرة.

والاتجاه الثاني: وهو اتجاه يضيِّق مجال السياسة، ويقول: لا سياسة إلا ما وافق الشرع، بمعنى لا يجوز الخوض إلا بنص من الشريعة.

وقد ذكر ابن القيم المناظرة التي وقعت بين ابن عقيل وبعض الفقهاء فقال: «وجرت في ذلك مناظرة بين أبي الوفاء ابن عقيل وبين بعض الفقهاء؛ فقال ابن عقيل: العمل بالسياسة هو الحزم ولا يخلو منه إمام، وقال الآخر: لا سياسة إلا ما وافق الشرع، فقال ابن عقيل: السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا نزل به وحي؛ فإن أردت بقولك لا سياسة إلا ما وافق الشرع، أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجحده عالم بالسير، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأيًا اعتمدوا فيه على مصلحة، وكذلك تحريق عليّ -كرم الله وجهه- الزنادقة في الأخاديد، ونفي عمر نصر بن حجاج».[٨]

الاتجاه الثالث: اتجاه التفريط الذي ركب كل هوى، وغاص في كل لجة من غير حدود ولا ضوابط، حتى وقع في مخالفة الشرع باسم السياسة، وهذه لا تسمى سياسة بل إباحية.

وقد ذكر ابن فرحون الاتجاهات الثلاثة بقوله: «سَلَكَتْ فِيهِ طَائِفَةٌ مَسْلَكَ التَّفْرِيطِ الْمَذْمُومِ، فَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنْ هَذَا الْبَابِ، إلَّا فِيمَا قَلَّ؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ تَعَاطِيَ ذَلِكَ مُنَافٍ لِلْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ، فَسَدُّوا مِنْ طُرُقِ الْحَقِّ سَبِيلاً وَاضِحَةً، وَعَدَلُوا إلَى طَرِيقٍ لِلْعِنَادِ فَاضِحَةٍ؛ لِأَنَّ فِي إنْكَارِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالنُّصُوصِ الشَّرِيفَةِ تَغْلِيطًا لِلْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ.

وَطَائِفَةٌ سَلَكَتْ فِي هَذَا الْبَابِ مَسْلَكَ الْإِفْرَاطِ، فَتَعَدَّوْا حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَرَجُوا عَنْ قَانُونِ الشَّرْعِ

(٢) الموافقات للشاطبي ١١٣/٤.

(٣) المحصول للرازي ٧/٦.

(٤) راجع الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٦٥٣/٥، المنخول للغزالي ص٥٧١، اللمع للشيرازي ص٣٥٧.

(٥) لسان العرب ١٠٧/٦، مادة (سوس).

(٦) إعلام الموقعين، لابن القيم، ٣٧٢/٤.

(٧) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٧٦/٥.

(٨) إعلام الموقعين ٣٧٣/٤.

إلى أَنْواعٍ مِنَ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالسِّيَاسَةِ، وَتَوَهَّمُوا أَنَّ السِّيَاسَةَ الشَّرْعِيَّةَ قَاصِرَةٌ عَنْ سِيَاسَةِ الْخَلْقِ وَمَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ جَهْلٌ وَغَلَطٌ فَاحِشٌ.

وَطَائِفَةٌ تَوَسَّطَتْ وَسَلَكَتْ فِيهِ مَسْلَكَ الْحَقِّ، وَجَمَعُوا بَيْنَ السِّيَاسَةِ وَالشَّرْعِ، فَقَمَعُوا الْبَاطِلَ وَدَحَضُوهُ، وَنَصَبُوا الشَّرْعَ وَنَصَرُوهُ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[٩].

والذي يظهر لي -والله أعلم- أن السياسة هي النظر في مصالح الأمة؛ لتقديم أحسن البدائل، سواء كانت هذه البدائل في السياسة الداخلية أو الخارجية، وممارستها عبر الوسائل المشروعة والفعالة، وهو المسلك الوسط الحق، ويعرف بالسياسة الشرعية.

المطلب الثالث: مفهوم الاجتهاد السياسي:

بعد تعريف الاجتهاد، والسياسة، اتضح معنى الاجتهاد السياسي؛ باعتباره لقبًا، وهو بذل الجهد الفكري في المعطيات بغرض تحقيق مصالح العباد، فأمور العامة مع حصول الصراع تحتاج إلى من يحسن تدبيرها بالنظر إلى الشرع والواقع، وعلى هذا فإن عمل المجتهد السياسي في هذه الخطوة من بناء القاعدة أو القرار، يتعلق بالاجتهاد في الكشف عن المصالح التي رعاها الشارع.

فهو اجتهاد بشروطه وضوابطه في جانب السياسة بغرض إيجاد الحلول للمعضلات.

المبحث الثاني : ضوابط الاجتهاد السياسي:

وحتى يحقق الاجتهاد في السياسة الشرعية فوائده لا بد له من ضابطين:

الأول: أن يكون الاجتهاد السياسي في غير المنصوص عليه، أو في المنصوص إذا كان محتملاً للنظر؛ لأن القطعيات لا تحتاج إلى اجتهاد؛ فهي من العلم الضروري الذي لا يحتاج إلى نظر، والقطعي في باب السياسة قليل ونادر.

يقول البرهاني: «وقد اختلفت مناهج المجتهدين، في بيان حكم الله -تعالى- فيما لم يرد فيه نص بخصوصه، تبعًا لناحيتين:

الأولى: طبيعة الواقعة المسكوت عنها، والوسيلة التي يعتمد عليها في بيان حكمها.

الثانية: تقدير الواقعة ومكانها بين المصالح والمفاسد.

فالمجتهد إزاء الأولى يستفرغ وسعه ليجعل المسكوت عنه داخلاً في إطار المنطوق بالإلحاق تارة، وبتطبيق الأصول العامة، والقواعد الكلية تارة أخرى، ولكلٍّ منها شروط ووسائل تختلف باختلاف الأنظار.

وإزاء الثانية يستفرغ وسعه ليصل إلى الحكم الذي يحقق المصلحة التي هي غاية الشرع فـ«حيثما وُجِدَت المصلحة فثَمّ شرع الله»[١٠] والاجتهاد السياسي من هذا الباب؛ لأن أغلب مسائله تحتاج إلى بذل للوصول إلى المصلحة المعتبرة شرعًا.

والثاني: من ضوابط الاجتهاد في باب السياسة وجود آلات الاجتهاد، بحيث لا يدخل الإنسان باب الاجتهاد في السياسة إلاّ إذا ملكها، فلو فُتح الباب على مصراعيه لرأينا أعداد المجتهدين تفوق أعداد العامة، ولترتب على ذلك ضياع مصالح الأمة، مثله مثل الاجتهاد في الشريعة. وقد حدد ابن القيم -رحمه الله- آلات هذا الاجتهاد في كتابه الطرق الحكمية بقوله: «معرفة الشريعة ومعرفة الواقع، وتنزيل أحدهما على الآخر»[١١]. فهي ثلاث آلات رئيسة :

الأولى: معرفة الشريعة، ويعني هذا معرفة نصوص وحيها: القرآن والسنة، ومعرفة كيفية الاستدلال بهما، ومعرفة قواعدها، ومقاصدها وكل ما يتعلق بها. قال السبكي: «واعلم أن كمال رتبة الاجتهاد تتوقف على ثلاثة أشياء:

أحدها: معرفة العلوم التي يتهذب بها الذهن كالعربية وأصول الفقه، وما يحتاج إليه من العلوم العقلية في صيانة الذهن عن الخطأ بحيث تصير هذه العلوم مَلَكة الشخص؛ فإذ ذاك يثق بفهمه لدلالات الألفاظ من حيث هي.

الثاني: الإحاطة بمعظم قواعد الشريعة، حتى

(٩) تبصرة الحكام لابن فرحون ٢/ ١٠٤.

(١٠) سد الذرائع في الشريعة ص١٣٠.

(١١) الطرق الحكمية في مباحث السياسة الشرعية ص ١٧.

يعرف أن الدليل الذي ينظر فيه مخالف لها أو موافق.

الثالث: أن يكون له مهنة الممارسة، والتتبع لمقاصد الشريعة، ما يكسبه قوة يفهم منها مراد الشرع من ذلك»[١٢]. فهذه هي معرفة الشريعة. فإذا لم يمتلك هذه الآلة لربما أفسد أكثر مما أصلح. ويظهر ذلك جليًّا في الفكر التجديدي الذي يبيح كلّ شيء باسم التجديد الذي أخذ مفهوم التغيير لا الإحياء.

الثانية: معرفة الواقع، والمقصود به واقع الأحداث، ومجريات الأمور، وأساليب الأعداء، ووسائل المخالفين إلى غير ذلك؛ لأن فهم الواقع يمكّن الإنسان من إصدار أحكام صائبة في باب السياسة؛ فالحكم على الشيء فرْعٌ عن تصوُّره.

الثالثة: معرفة كيفية تنزيل ما فهمه من الشرع على واقع المسائل، وكيفية إلحاق الواقع بالشرع. وهذه لا يتقنها إلا القليل، فهي تحتاج إلى مَلَكَات وقدرات فائقة.

فقد تجد من الناس من يحسن الشرع ولا يحسن التعامل مع الواقع، فلا شك أن هذا لا يستطيع تقديم حلول نافعة لمشاكل المسلمين، ولا يمكنه قراءة الحال، واستنباط الوسائل المشروعة والفعّالة لتقديم أحسن الحلول. وقد تجد من يحسن قراءة الواقع، ولكن بعيدًا عن الشرع، فهذا فساده أكبر من صلاحه، وقد تجد من يحسن الأمرين، ولكن لا يحسن كيفية تنزيل أحدهما على الآخر، فلا شك أن هذا لا يمكنه الاستفادة من الاثنين لعجزه عن إصدار الأحكام، وإيجاد الحلول.

وتكمن خطورة الاجتهاد في هذا الباب بعيدًا عن ضوابطه، في أنه يمسّ قضايا الأمة الإسلامية الأساسية إما في علاقتها بربها، أو في مصالحها وعلاقتها بالناس.

المبحث الثالث: ضرورة الاجتهاد السياسي:

يعتبر الاجتهاد السياسي في هذا الوقت من أعظم الأمور وأهمها، وقد أكد على هذا من قبل ابن القيم -رحمه الله- فقال:

قيود الاجتهاد عند العلماء

وجود آلة الاجتهاد وعدته.

بذل الجهد في المسائل الظنية لا القطعية.

أن يكون ذلك في إصدار الأحكام

بذل الجهد واستفراغ كل ما في الوسع

«هذا موضع مزلة أقدام ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك في معترك صعب، فرَّط فيه طائفة فعطَّلوا الحدود وضيَّعوا الحقوق، وجرَّأوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدّوا على أنفسهم طرقًا صحيحة من الطرق يعرف بها المحق من المبطل، وعطَّلوها مع علمهم وعلم الناس بها أنها أدلة حق؛ ظنًّا منهم منافاتها لقواعد الشرع، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها؛ فلما رأى ولاة الأمر ذلك، وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة، فأحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم، فتولّد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء ما أحدثوه من أوضاع سياستهم شرّ طويل، وفساد عريض، وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه، وأفرط فيه طائفة أخرى فسوغت منه ما يناقض حكم الله ورسوله، وكلا الطائفتين أُتيت من قِبل تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله»[١٣].

فهي دعوة منه لولوج باب الاجتهاد السياسي؛ لئلا نُسبَق إليه فيحصل الفساد.

وتتعاظم ضرورة الاجتهاد السياسي في هذا الوقت لعدة أمور:

(١٢) الإبهاج شرح المنهاج للتاج ١/ ٨.

(١٣) إعلام الموقعين ٤/ ٣٧٣.

أولاً: إن أغلب النصوص في باب السياسة عبارة عن قواعد عامة تحتاج إلى اجتهاد في كيفية تطبيقها على الفروع. مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾[14]. فمتى يكون العدل وما هي مجالاته؟ وكيف ينزل إلى واقع المسائل؟ فهذا يحتاج إلى اجتهاد صحيح.

وبعض النصوص محتملة الدلالة تحتاج إلى نظر صحيح واجتهاد مبني على قواعد صحيحة، مثل قوله تعالى -على لسان يوسف عليه السلام-: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾[15]. فهل يجوز من هذا الشخص أن يترشح لمنصب، أم تكون هذه من شرع من قبلنا ولا يُحْتَجّ بها خاصة مع حديث: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»[16].

ثانيًا: وكذلك من ضرورات الاجتهاد السياسي ما يتعلق بالمصلحة من حيث تحققها وتقديرها، وتعارض المصالح والمفاسد، وتعارض المصالح فيما بينها كالعامة مع الخاصة مثلاً، وتعارض المصالح مع بعض النصوص العامة، وغير ذلك. مثلاً كما يحدث في الحرب الجرثومية من ضرب بعض الاقتصاديات الإسلامية بتطوير بعض الفيروسات في الثروات كالحيوانية أو الزراعية. فهل يجوز لهذه الدول إنكار وجود المرض مضحية ببعض الإصابات البشرية كمصلحة خاصة لمصلحة الحفاظ على اقتصاد البلد كمصلحة عامة؟

ثالثًا: بالإضافة إلى بعض النوازل التي تحتاج إلى نظر واجتهاد لإصدار أحكام فيها. كاستخدام القصة في شكل صورة لإيصال بعض القيم.

رابعًا: حصول بعض المشكلات التي تحتاج إلى أنجع الحلول، كالمشاكل الاقتصادية، والاجتماعية والتربوية، وغير ذلك.

(١٤) سورة النساء آية ٥٨.

(١٥) سورة يوسف آية ٥٥.

(١٦) أخرجه البخاري برقم٧١٤٦، باب من لم يسأل الإمارة.

خامسًا: الظروف والأحوال التي تمر بالأمة من ضعف وقوة وشدة ورخاء تحتاج إلى نظر سياسي متميز.

لكل ذلك يصبح الاجتهاد في باب السياسة في الوقت المعاصر من الضروريات الملحة التي لا بد منها.

المبحث الرابع: وسائل الاجتهاد السياسي

المطلب الأول: تعريف الوسائل

الوسائل لغة: جمع «وسيلة» قال ابن منظور: «الوَسِيلةُ المَنْزلة عند المَلِك، والوَسِيلة الدَّرَجة، والوَسِيلة القُرْبة ووَسَّل فلانٌ إِلى الله وسِيلةً إِذا عَمِل عملاً تقرَّب به إِليه، والواسِل: الراغِبُ إِلى الله، وهي في الأَصل ما يُتَوَصَّل به إِلى الشيء ويُتَقَرَّب به»[17]. فكل ما يتوصل به إلى شيءٍ ما، فهو وسيلة.

أما في الاصطلاح: فمن العلماء مَن عرَّفها بمعناها العام، ومن العلماء مَن عرَّفها بمعناها الخاص.
أما التعريف العام: فقد قال القرافي: «وموارد الأحكام على قسمين: مقاصد، وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في أنفسها، ووسائل، وهي: الطرق المفضية إليها»[18]. ويتضح من كلامه رحمه الله أن أي حكم في الشريعة مورده أمران:

أولاً: المقاصد و(هي المصالح والمفاسد) بمعني إما أنه مصلحة في ذاته أو مفسدة.

ثانيًا: أن هذه المقاصد لها وسائل تقود إليها.

والذي يظهر من تعريفه لها أنه يقصد المعنى العام للوسائل، بمعنى سواء كانت مفضية إلى مصلحة أو مفسدة.

ويلاحظ في هذا التعريف:

١- اتفاق الاصطلاح العام للوسائل مع المعنى اللغوي.
٢- أن الاصطلاح العام للوسائل يطلق في مقابلة المقاصد.
٣- يدخل في الوسائل في الاصطلاح العام أمران،

(١٧) لسان العرب ٧٢٤/١١ دار صادر، طبعة أولى.

(١٨) شرح تنقيح الفصول ص٤٤٩.

الأول: الطرق المؤدية إلى المصالح، كالأسباب والشروط الشرعية.

والثاني: الطرق المؤدية إلى المفاسد، كالحيل الباطلة، والذرائع المفضية إلى الحرام.

وأما تعريفها بالمعنى الخاص: فقد عرَّفها بعضهم بالطرق المفضية إلى تحقيق مصلحة شرعية فقط[١٩]، فبمعناها الخاص لا تتناول إلا ما أفضى إلى مصلحة شرعية.

فيتفق التعريفان في أن كليهما شيء مفضٍ إلى أمرٍ ما. ويختلفان في الإفضاء، ففي العام سواءً أفضى إلى مصلحة أو مفسدة فهو وسيلة، أما في الخاص فلا يصح إطلاق لفظ الوسيلة إلاّ على ما أفضى إلى مصلحة.

وهنا نسلك سبيل المعنى العام لنتناول في الاجتهاد السياسي ما أفضى إلى مصلحة أو مفسدة، فالأول -أي ما أفضى إلى مصلحة- هي الوسائل بالمعنى الخاص، والثاني ما أفضى إلى مفسدة، وهي الذرائع وما يحوم حولها.

المبحث الخامس: قواعد في وسائل الاجتهاد السياسي:

هناك عدة قواعد تحكم مسألة استخدام الوسائل في الاجتهاد السياسي؛ لئلا يحصل التفريط أو التجاوز الشرعي، فتخرج السياسة عن الإطار الشرعي إلى العلماني، وقد وقع في ذلك عدد لا بأس به في الواقع المعاصر، فإليك هذه القواعد في مطالب.

المطلب الأول: الأصل في الوسائل الإباحة

حتى يرد دليل يمنعها، فالمجتهد يجد سعة في حركة فكره للبحث عن الوسائل لطرح البدائل.

والذي يدل على أن الأصل في الوسائل الإباحة ما يلي:

قاعدة «الأصل في الأشياء الإباحة»[٢٠]، والمقصود بالأشياء المعاملات لا مطلق الأشياء، والوسائل من المعاملات، قال ابن تيمية: «باستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع، وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يُحْظَر منه إلا ما حظره الله -سبحانه وتعالى- وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله»[٢١]. ومعناه أن الوسائل ليست من العبادات بالمعنى الاصطلاحي؛ ليكون الأصل فيها التوقف حتى يرد النص بحِلّها.

قال بعض العلماء: «إن انتفاعنا بها -أي المباحات- لا يعود علينا بالضرر، ولا على غيرنا، وبأن الله -عز وجل- إنما خلق هذه الأشياء لحكمة لا محالة، ولا يجوز أن يكون ذلك لنفع يعود إليه سبحانه، فثبت أنها لنفعنا فيكون مباحًا لنا»[٢٢]. وقال البيانوني: «والمختار هو أن الشيء إذا خلا عن الضرر للنفس وللغير، فالأصل فيه الإباحة؛ لما جاء في تأييده من الآيات والأحاديث»[٢٣]. والوسائل من جملة ذلك.

وقد وردت أدلة كثيرة تدل على هذا المعنى فمن ذلك:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢٤] قال الحموي: (أَخْبَرَ بِأَنَّهُ خَلَقَهُ لَنَا عَلَى وَجْهِ الْمِنَّةِ عَلَيْنَا، وَأَبْلَغُ وُجُوهِ الْمِنَّةِ إطْلَاقُ الِانْتِفَاعِ فَتَثْبُتُ الْإِبَاحَةُ)[٢٥].

ثانيًا: قوله -صلى الله عليه وسلم-: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله العافية، فإن الله لم يكن نسيًّا، ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[٢٦].

ثالثًا: لم يتوقف السلف في الوسائل في الاجتهاد السياسي إلا إذا ورد الدليل بمنعها، فمن ذلك جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وسيلة لحفظ القرآن بعد استشهاد الحَفَظَة في اليمامة[٢٧].

---

(١٩) مقاصد الشريعة ابن عاشور ص١٤٨.

(٢٠) الأشباه والنظائر ص٦٠.

(٢١) مجموع الفتاوى ١٦/٢٩.

(٢٢) روضة الناظر ص٢٢، الأشباه والنظائر ٩٧/١.

(٢٣) الحكم التكليفي في الشريعة ص٢٤٢.

(٢٤) سورة البقرة آية ٢٩.

(٢٥) غمز عيون البصائر ٢٢٤/١.

(٢٦) الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي ٣٤٧/٢، برقم ٣٢٣٦.

(٢٧) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله (لقد جاءكم ...) برقم ٤٦٧٩.

وجمعه في عهد عثمان -رضي الله عنه- خشية الفُرقة بين المسلمين[٢٨].

فأكرم بها من سعة مكّنت أهل الاجتهاد من التوسع في هذا الباب. وابتكار الوسائل المؤثرة في الاجتهاد السياسي؛ لتكون الثمرة أقرب إلى الصلاح.

وقد نظر الفقهاء في الوسائل بتسامح واسع وتغافر كبير فخرّجوا على أصلها المباح جملة من القواعد، فمن ذلك: «أن الوسائل أخفض رتبة من المقاصد»[٢٩].

وقولهم: «مراعاة المقاصد مقدمة على رعاية الوسائل أبدًا»[٣٠].

ولما كانت مرتبة الوسائل أدنى من مرتبة المقاصد حصل التساهل في حكم الوسائل، فمن ذلك قولهم: «يُغْتَفـر في الوسائل ما لا يُغْتَفـر في المقاصد»[٣١]، ومعنى القاعدة أن الشرع يتسامح في باب الوسائل، فيجيز بعض الأفعال التي لا يتسامح بمثلها في باب المقاصد، وبابها أوسع من المقاصد.

وبإمكان المفكر والمجدد أن يبحث عن الوسائل للاستفادة منها في الاجتهاد السياسي.

المطلب الثاني: صحة الوسيلة لضمان سلامة الاجتهاد السياسي:

فإذا قررنا التوسع في الوسيلة، فلا بد أن نعلم بأننا نريد اجتهادًا صحيحًا موافقًا لشرعنا لا يتعارض مع ديننا، وهذا يدفعنا إلى اختيار الوسيلة المشروعة، فالمسلم له حدود لا يجوز له أن يتعداها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣٢]؛ فلذلك ولضمان سلامة الاجتهاد اشترط العلماء عدم مصادمة الوسيلة لنص شرعي، فإذا حصل ذلك فلا اعتبار لها إلا في حالات معينة، وإن توهم البعض حصول المصلحة بها. ولو أن فيها مصلحة لم يمنعها الشارع الحكيم، فالغاية في الشرع لا تبيح الوسيلة. قال ابن القيم: «مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم وفساد القصد»، ويقول: «إن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا»[٣٣].

وقال كذلك: «وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[٣٤].

وابن القيم كأنه يشير إلى قاعدة العلمانيين (الغاية تبرر الوسيلة)، وهي التي قررها ونادى بها نيكولا ميكافيللي المولود في فرنسا عام ١٤٦٩م في كتابه المسمى (الأمير)، وتلقفها اليهود، وجعلوها أساس المصيدة التي أوقعوا فيها بعض المسلمين فأصبحت أساس الاجتهاد السياسي في باب الوسائل.

وقد رد على هذه الفكرة الإباحية بعض الغربيين كهكسلي، فقال عن دعاتها: «إنهم يعبّدون الطريق إلى جهنم، وقال: إن الأغراض الطيبة لا يمكن تحقيقها إلا بالوسائل الطيبة وحدها، ولا يمكن تحقيقها بالوسائل الخبيثة: إن الغاية لا تبرر الوسيلة»[٣٥].

> إذا قررنا التوسع في الوسيلة، فلا بد أن نعلم بأننا نريد اجتهادًا صحيحًا موافقًا لشرعنا لا يتعارض مع ديننا

وأما علماء الشريعة فقد بيّنوا ذلك من قبل، فقال العزّ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ قُرْبَةً وَلَا وَسِيلَةً؛ إذْ لَا يُتَقَرَّبُ إلَى اللَّهِ إلَّا بِأَنْوَاعِ الْمَصَالِحِ وَالْخُيُورِ، وَلَا يُتَقَرَّبُ إلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَفَاسِدِ وَالشُّرُورِ، بِخِلَافِ ظَلَمَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يُتَقَرَّبُ إلَيْهِمْ بِالشُّرُورِ، كَغَصْبِ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ النُّفُوسِ، وَظُلْمِهِمُ الْعِبَادَ، وَإِفْشَاءِ الْفَسَادِ وَإِظْهَارِ الْعِنَادِ، وَتَخْرِيبِ الْبِلَادِ»[٣٦]، وقال العنزي: «ذهب فريق إلى استنفار جميع ما يمكن من وسائل وأساليب في سبيل الوصول إلى الغاية، بغض النظر عن حِلّ الوسيلة أو عدم

(٢٨) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب جمع القرآن برقم ٤٩٨٧.
(٢٩) شرح تنقيح الفصول ص٤٤٩.
(٣٠) القواعد للمقري ١/٢٣٠.
(٣١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص١٥٨.
(٣٢) البقرة آية ٢٢٩.
(٣٣) مدارج السالكين ١/٦٣.
(٣٤) المرجع السابق.
(٣٥) الوسائل والغايات هكسلي ص٧٠٦.
(٣٦) قواعد الأحكام ١/١١٢.

جوازها، وهم يسيرون على قاعدة الغاية تبرر الوسيلة، سواء قالوها بألسنتهم أو ترجمتها أفعالهم، ولذلك تجد هذا الصنف، كثير التخبط والتقلب والترحل في أمور الدنيا والدين، ويغلب على من سلك هذا السبيل الطيش، والعجلة، والتهور، والمغامرة»(٣٧).

فإذا حرّمت الشريعة وسيلة جزمنا بأن المصلحة في تركها والمفسدة في فعلها، وإن توهم البعض حصول المصلحة.

وقد ركب أقوام هذا الهوى، وأحدثوا الخلل في الفكر الاجتهادي في هذا الباب، حتى ضلوا وأضلوا، قال ابن تيمية: «وهذه الطرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل والمقاصد، أما المقاصد فإن حاصلها بعد التعب الكثير والسلامة خير قليل، فهي لحم جمل غثّ على رأس جبل وَعْر، لا سهل فيُرتَقى ولا سمين فيُنْتَقى، ثم إنه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط هنا، وأما الوسائل فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات ينقطع السالكون فيها كثيرًا قبل الوصول، ومقدماتها في الغالب إما مشتبهة يقع النزاع فيها، وإما خفية لا يدركها إلا الأذكياء، ولهذا لا يتفق منهم اثنان رئيسان على جميع مقدمات دليل إلا نادرًا»(٣٨). فهذا حال المنظِّرين اليوم في باب السياسة، حتى أصبحت السياسة في غاية التعقيد رغم سهولتها.

وتكون الوسيلة ممنوعة في عدة حالات منها:

أولاً: إذا ورد النص بتحريمها، كالوقوع في الظلم لترتيب أوضاع الدولة؛ لأن الظلم ورد في تحريمه أدلة كثيرة. وقد يتخذ بعض الناس الغِنَاء وسيلة لشغل الشعوب عن الفتن بينهم، أو يتخذ الربا وسيلة لرفع الفقر مع وجود الوسائل المباحة، أو غير ذلك؛ فإذا بُنِيَ الاجتهاد السياسي على محرم فهو على شفا جرف هارٍ.

ثانيًا: أن تكون الوسيلة في ذاتها مَفْسَدة، وإن لم يَرِد فيها نصّ شرعي بحُرمتها، ولكن عُرف من واقع الحال أنها مفسدة. مثل شرب الدخان الذي أجمع الأطباء على ضرره، فلا يمكن أن يُتَّخذ وسيلة للدخل القومي.

ثالثًا: أن تكون الوسيلة صحيحة، ولكنها مُفضِية إلى مفسدة على وجه القطع، أو الظن الغالب، وبهذا قد أصبحت ذريعة كالمظاهرات المصاحبة للتخريب أو المحدثة للفوضى الجالبة للضرر، قال القرافي: «الذَّرَائِعُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى سَدِّهِ وَمَنْعِهِ وَحَسْمِهِ، كَحَفْرِ الْآبَارِ فِي طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ وَسِيلَةٌ إلَى إهْلَاكِهِمْ، وَكَذَلِكَ سَبُّ الْأَصْنَامِ عِنْدَ مَنْ يُعْلَمُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَسُبُّ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ سَبِّهَا»(٣٩). وذلك لأن مفسدته واضحة وليس لعاقل دعك من مجتهد سلوك هذه الوسيلة. فليس لحاكم أن يتحرش بالكفار وهو يعلم أن عاقبة ذلك وخيمة من إهلاك الناس وغيره.

أما إذا أفضت الوسيلة إلى مصالح مختلطة بالمفاسد، فإن هذا من أصعب الأبواب في الشريعة؛ لأنها تحتاج إلى مجتهد يحسن تقدير المصالح والمفاسد؛ لئلا يوقع الناس في الحرج الشرعي أو الدنيوي، والعلماء -رحمهم الله تعالى- بيَّنوا كيفية التعامل مع هذا الواقع بسلوك طرق عديدة فمن ذلك:

أولاً: إذا أفضت الوسيلة إلى مصالح ومفاسد، وكانت المصلحة أرجح من المفسدة، أخذنا بالمصلحة، ولا نبالي بارتكاب بعض المفاسد، قال ابن تيمية: «ليس كل سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعًا، بل ولا مباحًا، وإنما يكون مشروعًا إذا غلبت مصلحته على مفسدته»(٤٠)، وقال ابن القيم: «إن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح بحسب الإمكان، وألا يفوت منها شيء، فإن أمكن تحصيلها كلها حصَّلت وإن تزاحمت، ولم يمكن تحصيل بعضها إلا بتفويت البعض قُدِّمَ أكملها وأهمها وأشدها طلبًا للشارع»(٤١)، وقال العز: «إذَا اجْتَمَعَتْ مَصَالِحُ وَمَفَاسِدُ فَإِنْ أَمْكَنَ تَحْصِيلُ الْمَصَالِحِ وَدَرْءُ الْمَفَاسِدِ فَعَلْنَا ذَلِكَ؛ امْتِثَالاً لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، وَإِنْ كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ أَعْظَمَ مِنْ الْمَفْسَدَةِ

(٣٧) البصيرة في الدعوة ص٥٥.

(٣٨) مجموع الفتاوى٢/٢٢.

(٣٩) أنوار البروق٢/٥٩.

(٤٠) مجموع الفتاوى٢٧/١٧٧.

(٤١) مفتاح دار السعادة ٢/٤٠٤.

حَصَّلْنَا الْمَصْلَحَةَ مَعَ الْتِزَامِ الْمَفْسَدَةِ»[٤٢]، ولا نبالي بوجود المفسدة؛ لأنها نادرة، قال الشاطبي: «أما ما يكون أداؤه إلى المفسدة نادرًا فهو على أصله من الإذن؛ لأن المصلحة إذا كانت غالبة فلا اعتبار بالنُّدور في انخرامها؛ إذ لا توجد في العادة مصلحة عَريَّة عن المفسدة جملة»[٤٣]. فتكون بذلك وسيلة معتبرة شرعًا، رغم وجود هذه المفسدة. كالتعامل بالبيع والشراء مع الأعداء، ففيه مصلحة للأمة من ناحية الدخل ومفسدة بحصول النفع للعدو.

ثانيًا: إذا رجحت المفسدة كان دَرْؤها مقدمًا، ولا نبالي بفوات المصلحة ولا بوسيلتها ما دام أنها تُفْضي إلى مفسدة راجحة، واعتبرناها ذريعة وسددناها، قال ابن تيمية: «أما إذا غلبت مفسدته فإنه لا يكون مشروعًا، بل محظورًا، وإن حصل به بعض الفائدة، ومن هذا الباب تحريم السحر مع ما له من التأثير وقضاء بعض الحاجات، وما يدخل في ذلك من عبادة الكواكب، ودعائها، واستحضار الجن، وكذلك الكهانة، والاستقسام بالأزلام، وأنواع الأمور المحرمة في الشريعة مع تضمنها أحيانًا نوع كشف أو نوع تأثير»[٤٤].

ليس كل سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعًا، بل ولا مباحًا وإنما يكون مشروعًا إذا غلبت مصلحته على مفسدته

وقال العز: «وَإِنْ تَعَذَّرَ الدَّرْءُ وَالتَّحْصِيلُ فَإِنْ كَانَتْ الْمَفْسَدَةُ أَعْظَمَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ دَرَأْنَا الْمَفْسَدَةَ، وَلَا نُبَالِي بِفَوَاتِ الْمَصْلَحَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾؛ حَرَّمَهُمَا لِأَنَّ مَفْسَدَتَهُمَا أَكْبَرُ مِنْ مَنْفَعَتِهِمَا. أَمَّا مَنْفَعَةُ الْخَمْرِ فَبِالتِّجَارَةِ وَنَحْوِهَا، وَأَمَّا مَنْفَعَةُ الْمَيْسِرِ فَبِمَا يَأْخُذُهُ الْقَامِرُ مِنَ الْمَقْمُورِ. وَأَمَّا مَفْسَدَةُ الْخَمْرِ فَبِإِزَالَتِهَا الْعُقُولَ، وَمَا تُحْدِثُهُ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالصَّدِّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ. وَأَمَّا مَفْسَدَةُ الْقِمَارِ فَبِإِيقَاعِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالصَّدِّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ، وَهَذِهِ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ لَا نِسْبَةَ إلَى الْمَنَافِعِ الْمَذْكُورَةِ إلَيْهَا»[٤٥].

(٤٢) قواعد الأحكام ١/١٥٦.

(٤٣) الموافقات ٢/٣٥٨.

(٤٤) مجموع الفتاوى ٢٧/١٧٧.

(٤٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/١٥٦.

ثالثًا: إذا تساوت المصلحة والمفسدة كان دَرْءُ المفاسد مقدمًا على جلب المصالح، ومنعُ وسائلها مقدمًا على إباحته، وقد أنكر ابن القيم وجود مثل هذا[٤٦]، وقال الشاطبي: «فإن تساوتا فلا حكم من جهة المكلف بأحد الطرفين دون الآخر؛ إذا ظهر التساوي بمقتضى الأدلة، ولعل هذا غير واقع في الشريعة»[٤٧].

رابعًا: إذا كانت الوسيلة تفضي إلى مفسدة خاصة ومصلحة عامة، كتسليم شخص إلى الأعداء؛ حماية لعامة الناس، فهذه على أنواع:

(أ) إذا كانت المفسدة العامة نادرة الحدوث والخاصة متحققة، فلا يجوز اتخاذ هذه الوسيلة.

(ب) إذا كانت المفسدة العامة متحققة، وكذا الخاصة، فتعتبر هذه حالة ضرورة؛ وذلك لقيام الدليل، وهو قوله -صلى الله عليه وسلم-: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٤٨]. والتعامل مع هذه الحالة بالرجوع إلى ضوابط الضرورة.

خامسًا: إذا تعارضت مفسدتان بمعنى ليس هناك خيار إلاّ بالوقوع في أحدهما فتدفع أعظم المفسدتين، قال السيوطي: «قَاعِدَةٌ رَابِعَةٌ: هِيَ «إذَا تَعَارَضَ مَفْسَدَتَانِ رُوعِيَ أَعْظَمُهُمَا ضَرَرًا بِارْتِكَابِ أَخَفِّهِمَا»[٤٩]. فتراعى المفسدة العامة بارتكاب المفسدة الخاصة. وإذا اضطرت إحدى الدول لإخراج ثرواتها، ولا يكون ذلك إلاّ عن طريق الكافرين لامتلاكهم القدرة والخبرة والمادة، يُتَعامل مع أخفّ الكافرين عداوة للمسلمين. قال ابن تيمية: «وذلك أن مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين: أحدهما أن يكون مُكْرهًا عليها. والثاني أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة، أو

(٤٦) مفتاح دار السعادة ٢/٤٠٠.

(٤٧) الموافقات ٢/٣٠.

(٤٨) البخاري مع الفتح برقم ٢٣١٠، ٥/٩٧، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ.

(٤٩) الأشباه والنظائر ص٨٧.

أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه، فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة»(٥٠).

وهذا الباب من أبرز أسباب الخلاف بين أهل الاجتهاد السياسي في هذا الزمان؛ وذلك لاختلافهم في تحديد المصلحة، والمفسدة، وأيهما أرجح عند الإفضاء، واختلافهم في الوسيلة المؤدية إليها، هل هي طريق إلى المصلحة أم المفسدة، كالمشاركة في وسائل الإعلام الهابطة ببعض البرامج الهادفة، ودخول المجالس النيابية الجامعة للمسلمين وغيرهم، والمشاركة في الانتخابات وغير ذلك.

فيتعين على مَن نصَّب نفسه مجتهدًا سياسيًّا أن يتعرف على وسائل تقدير المصالح والمفاسد، مع العلم أن ذلك يختلف زمانًا ومكانًا، والله المستعان.

المطلب الثالث: قاعدة سد الذرائع في الاجتهاد السياسي:

هناك بعض الوسائل طريق إلى مفاسد: إما محققَة، أو غالبة، وهي المسماة بالذرائع، ومادام أنها تؤدي إلى مفاسد فقد دعت الشريعة إلى سد أبوابها؛ لأن الشريعة مبناها على جلب المصالح ودفع المفاسد.

وتظهر أهمية سد الذرائع في الاجتهاد السياسي فيما يلي:

(أ) أن الذرائع نفسها مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية قد دلت النصوص الكثيرة على اعتباره(٥١). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٥٢). فسبّ آلهة المشركين ذريعة إلى سب الله -تعالى- فمنعته الشريعة مع أنه مباح في الأصل.

(ب) أن في سد هذه الذرائع حمايةً لمقاصد الشريعة، وتوثيقًا للأصل العام الذي قامت عليه الشريعة من جلب المصالح ودرء المفاسد.

قال ابن القيم: «إذا حرَّم الرب -تعالى- شيئًا وله طرق ووسائل تفضي إليه؛ فإنه يحرمها ويمنع منها، تحقيقًا لتحريمه وتثبيتًا له، ومنعًا أن يقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم وإغراءً للنفوس به. وحكمته -تعالى- وعلمه يأبى ذلك كل الإباء، بل سياسة ملوك الدنيا تأبى ذلك؛ فإن أحدهم إذا منع جنده أو رعيته أو أهل بيته من شيء، ثم أباح له الطرق والأسباب والذرائع الموصلة إليه لعُدَّ متناقضًا، ولحصل من رعيته وجنده ضد مقصوده، وكذلك الأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه، وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه، فما الظن بهذه الشريعة الكاملة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال، ومن تأمل مصادرها ومواردها علم أن الله -تعالى- ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرمها ونهى عنها»(٥٣).

(ج) أن سدّ هذه الذرائع يرجع إلى اعتبار المآل، واعتبار مآل الأفعال من المقاصد المهمة في الشريعة الإسلامية.

قال الشاطبي: «النظر في مآلات الأفعال معتبر ومقصود شرعًا، سواء إن كانت الأفعال موافقة أو مخالفة؛ وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام، إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل؛ مشروعًا لمصلحة فيه تُستجلب أو لمفسدة تُدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب

(٥٠) مجموع الفتاوى ٣٢٤/١٥.

(٥١) انظر الفتاوي الكبرى٢٥٦/٣.

(٥٢) الأنعام آية ١٠٨.

(٥٣) إعلام الموقعين ١٣٥/٣.

المورد إلا أنه عذب المذاق، محمود الغب، جارٍ على مقاصد الشريعة»[٥٤].

كقوله -صلى الله عليه وسلم- لعائشة -رضي الله عنها-: «يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ»[٥٥]، فواضح من هذا الحديث ارتباط الذرائع بهذا المقصد.

المبحث السادس: قاعدة الضرورة والاجتهاد السياسي:

إن الشارع الحكيم قد راعى أحوال المكلفين التي تتقلب، ولا تثبت على حالة واحدة، فقد تمر بهم بعض الأحوال تضطرهم إلى استخدام الحرام، وتسمى هذه بحالة الضرورة، والمراد بها كما قال الزركشي: «الضَّرُورَةُ: بُلُوغُهُ حَدًّا إنْ لَمْ يَتَنَاوَل الْمَمْنُوعَ هَلَكَ، أَوْ قَارَبَ كَالْمُضْطَرِّ لِلأَكْلِ وَاللُّبْسِ؛ بِحَيْثُ لَوْ بَقِيَ جَائِعًا أَوْ عُرْيَانًا لَمَاتَ أَوْ تَلِفَ مِنْهُ عُضْوٌ»[٥٦]. فإذا وقع الإنسان في حالة تتعارض مع الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال -جاز له استخدام المحظور[٥٧].

والأدلة على ذلك كثيرة منها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ﴾[٥٨].

ثانيًا: قوله -صلى الله عليه وسلم-: (لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا[٥٩].

ثالثًا: قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات»[٦٠]، وما تلا هذه القاعدة، وما تفرع عنها يقتضي إباحة المحرم واستخدام المحظور.

(٥٤) الموافقات ٤/١٩٤.
(٥٥) البخاري مع الفتح برقم ١٥٠٩، باب فضل مكة.
(٥٦) المنثور في القواعد ٢/٣٨٣.
(٥٧) المرجع السابق.
(٥٨) الأنعام ١١٩.
(٥٩) مسلم مع شرح النووي برقم ٦٧٩٩، ١٦/١٥٧، باب تحريم الكذب.
(٦٠) المنثور في القواعد٢/٣٨٢، الأشباه والنظائر٢/٨٨.

وقد أباحت الشريعة الكذب في الحرب، وفي الصلح بين الناس، وعلى المرأة، كما قالت أم كلثوم بنت عقبة: (وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ: الْحَرْبُ، وَالإِصْلاَحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا»[٦١]، فالكذب وسيلة محرمة، ولكن أبيحت للضرورة.

ولكن لا بد هنا من التنبيه على عدة أمور:

الأول: أننا لا نبحث عن الضرورات لنبيح بها المحرمات، وإنما هي حالة استثنائية تطرأ على المكلف تُلْجِئُهُ إلى استخدام المحظور، ولو أننا سلكنا مسلك البحث عن الضرورات لربما أشرقت الشمس علينا يومًا ونحن نتعبد بالضرورة بعيدًا عن الشرع.

الثاني: أن هذا لا يقدح في قاعدة الالتزام بالمشروعية في وسائل الاجتهاد السياسي؛ لأنها حالة خاصة، وجزئية مستثناة، قال الشاطبي: «فالكلية في الاستقرائيات صحيحة، وإن تخلف عن مقتضاها بعض الجزئيات، وأيضًا فالجزئيات المتخلفة قد يكون تخلفها لحكم خارج عن مقتضى الكلي، فلا تكون داخلة تحته أصلاً، أو تكون داخلة لكن لم يظهر لنا دخولها أو داخلة عندنا، لكن عارضها على الخصوص ما هي به أولى»[٦٢]. وهنا خرجت الضرورة لدليل خاص، ولا يُقاس عليها. وليس في ذلك تصحيح لمذهب: الغاية تبرر الوسيلة.

الثالث: أن جواز هذه الضرورة؛ لتحقيق مصلحة شرعية معتبرة غير متوهمة، قال العز: «وَقَدْ تَجُوزُ الْمُعَاوَنَةُ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ لا مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَعْصِيَةً، بَلْ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ وَسِيلَةً إلَى مَصْلَحَةٍ، وَلَهُ أَمْثِلَةٌ: مِنْهَا مَا يُبْذَلُ فِي افْتِكَاكِ الأُسَارَى، فَإِنَّهُ حَرَامٌ عَلَى آخِذِيهِ مُبَاحٌ لِبَاذِلِيهِ، وَمِنْهَا أَنْ يُرِيدَ الظَّالِمُ قَتْلَ إنْسَانٍ مُصَادَرَةً عَلَى مَالِهِ، وَيَغْلِبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُ يَقْتُلُهُ إنْ لَمْ يَدْفَعْ إلَيْهِ مَالَهُ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ بَذْلُ مَالِهِ فِكَاكًا لِنَفْسِهِ»[٦٣]، وفي هذا الباب لا بد من معرفة ضوابط المصلحة الشرعية بضوابطها

(٦١) مسلم مع النووي ١٦/١٥٧.
(٦٢) الموافقات٢/٥٣.
(٦٣) قواعد الأحكام١/١٠٩.

كما هو مذكور عند العلماء»[٦٤].

الرابع: أن أهل الاجتهاد السياسي حتى يكون اجتهادهم في باب الضرورة صحيحًا لابد أن يكون وفق ضوابطها الشرعية وهي:

(أ) أن تكون الحالة فعلاً حالة ضرورة، وتقدير أن هذه حالة ضرورة يرجع إلى أهل المعرفة بالضرورات الخمس وما يتعلق بها.

(ب) ألا يجد الإنسان بديلاً للمحرم، أي أنه استنفد كل الوسائل المشروعة ما بقي إلا الحرام. فلا يجوز للشخص الكذب المحض إذا أمكنه استخدام التورية والتعريض عند الإدلاء ببعض التصريحات.

فبعض أهل الاجتهاد المفتوح يبيحون للدول الاقتراض بالربا للضرورة، مع أن هذه الدول تنفق أضعاف ما تقترضه في الاحتفالات العامة والمباحات وكرة القدم وغيرها.

(ج) أن تُقدَّر هذه الضرورة بقَدْرها، من حيث الزمان والمكان والكمّ والكيف، فلا بد من تحديد المقدار الذي يدفع الضرر ويحقق المصلحة؛ إذ تجويز الأخذ بالضرورة مقصور على هذا المقدار، وما زاد على ذلك يبقى في حيّز التحريم، فلا يأكل المضطر من الميتة إلا بالقدر الذي يسد رمقه، وما زاد فهو حرام[٦٥].

(د) ألا يؤدي الأخذ بهذه الوسيلة إلى ضرر أكبر؛ لذلك قال الفقهاء: «يُتَحَمَّل الضرر الأخف لدفع الضرر الأشد»[٦٦].

(هـ) ألا يبقى الإنسان طول حياته في الضرورة، بل لا بد من البحث عن الوسائل المشروعة والبدائل المباحة.

ويلحق بحالة الضرورة حالة الحاجة بضوابطها لقاعدة: «الْحَاجَةُ تُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الضَّرُورَةِ عَامَّةً كَانَتْ أَو خَاصَّةً»[٦٧]. وقد توسع ابن تيمية وابن القيم في استخدام هذه القاعدة، قال ابن تيمية: «والشريعة جميعها مبنية على أن المفسدة المقتضية للتحريم إذا عارضتها حاجة راجحة أبيح المحرم، فكيف إذا كانت المفسدة منفية»[٦٨].

وقال ابن القيم: «وما حرم سَدًّا للذريعة أُبيح للمصلحة الراجحة، كما أُبيحت العرايا من ربا الفضل، وكما أُبيحت ذوات الأسباب من الصلاة بعد الفجر والعصر، وكما أبيح النظر للخاطب والشاهد والطبيب والمُعَامِل من جملة النظر المحرم، وكذلك تحريم الذهب والحرير على الرجال حُرِّمَ لسد ذريعة التشبيه بالنساء الملعون فاعله، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة»[٦٩]. لذلك أباح بعض العلماء كالصنعاني[٧٠] دفع الرشوة إذا وقع الإنسان في حرج.

ولكن يباح للمجتهد استخدام الوسيلة الممنوعة عند الحاجة بشروط -ليس مطلقًا- ومن هذه الشروط ما يلي:

أولاً: كل ما قيل في ضابط الضرورة ينطبق عليها؛ لأنها لو انطبقت على الضرورة، فمن باب أولى أن تنطبق على الحاجة؛ لأنها أقل منها مراعاةً.

ثانيًا: ألا تكون الوسيلة في ذاتها مفسدة، وذلك لتعارض هذه المفسدة مع الحاجة، ولا شك أنها مقدمة عليها، فلا يباح الزنا من أجل تحريك عجلة التجارة.

فاستخدام الوسائل والذرائع في حالة الضرورة والحاجة يحتاج إلى دقة في النظر لاستغلال هذه الحالة للبحث عن حلول للقضايا الطارئة دون تضييع للشرع أو الخلق.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فبعد الفراغ من مباحث هذا البحث المتواضع

(٦٤) راجع في هذا الباب الاعتصام للشاطبي ١٢٤/٢، ومصادر التشريع لخلاف ص٩٩، وضوابط المصلحة للبوطي ص١١٩، ومقاصد الشريعة لليوبي ص٣٩٦.
(٦٥) الأشباه والنظائر ص٧٦، ولابن نجيم ص٩٥.
(٦٦) الأشباه والنظائر للسيوطي ص٨٧.
(٦٧) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص١٠٠ وغيره.
(٦٨) مجموع الفتاوى ٤٩/٢٩.
(٦٩) إعلام الموقعين ١٦١/٢.
(٧٠) انظر سبل السلام ٢٣٩/٤.

أخلص إلى تدوين أهم النتائج التي توصلت إليها والتوصيات التي أرى أهميتها، وهي كالآتي:

أولاً: النتائج:

(أ) ضرورة الاجتهاد السياسي في الوقت الحاضر؛ لمجابهة كثير من الأمور المهمة.

(ب) إن الاجتهاد الصحيح لا بد له من ضوابط ليكون صحيحًا ومؤثرًا.

(ج) أهمية الوسائل في باب الاجتهاد السياسي؛ لكي تعين المجتهد في هذا الباب.

(د) ونظرًا للأهمية هذه توسعت الشريعة في باب الوسائل، حتى جعلت الأصل فيها الإباحة.

(و) إذا نص الشرع على حرمة وسيلة لا يجوز استخدامها، وإن المصلحة في تركها، لا كما يتوهم بعض الناس وجود المصلحة فيها.

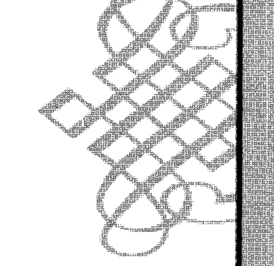
ثانيًا: التوصيات:

ضرورة اهتمام مراكز الدراسات بإعداد الكوادر المؤهلة في باب الاجتهاد السياسي، من خلال كتابة البحوث وعقد الدورات التأهيلية.

إخضاع الأفكار المعاصرة في باب السياسة لدراسة متأنية؛ لمعرفة ما لها وما عليها.

وفي الختام أسأل الله -تعالى- أن ينفع بهذه الكلمات، وأن يجعلها في موازين الحسنات. والحمد لله رب العالمين





معلومات إضافية

بعض جهود العلماء في بيان الوسائل والذرائع

أولاً: بعض جهود العلماء في بيان الوسائل والذرائع في القرنين السابع والثامن:

كانت قواعد الوسائل وأحكامها مبثوثة في نصوص الشريعة وأحكامها، وفي فتاوى السلف الصالح، ولكنها لم تظهر على هيئة قواعد علمية محددة، إلا بشكل تدريجي عبر العصور.

ويعد القرنان السابع والثامن من أهم القرون التي خُدمت فيها قضية الوسائل، وتبلورت فيها قواعدها بصورتها الأخيرة، على يد العز بن عبد السلام والقرافي والمقري والشاطبي وابن تيمية وابن القيم.

وفيما يلي عرضٌ لبعض أبرز هذه الجهود:

أ- في القرن السابع:

١- الإمام المجدد العز بن عبد السلام: يُعدّ فارس هذا الميدان، والحائز على قصب السبق في ذكر الوسائل، فقد صنَّف الإمام العز كتابه «قواعد الأحكام» وأبدع فيه، وفتح آفاق التجديد في الأصول والقواعد، وكان مقصوده من وضع الكتاب المذكور بيان مقاصد الأفعال بنوعيها، وقد تعرض أثناء ذلك للحديث عن الوسائل وجملة من أصولها وأحكامها، فكان أول من عبَّر عن حكم الوسائل بقوله: «للوسائل أحكام المقاصد».

٢- الفقيه الأصولي أبو العباس القرافي: بذل جهودًا مميزة في ميدان الوسائل وقواعدها، فتحدث عنها في كتابيه «الفروق» و«شرح تنقيح الفصول».

ب- في القرن الثامن:

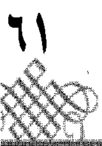
١- الإمام ابن تيمية: كان صاحب جهود واضحة في هذا القرن، فألف -رحمه الله- كتابًا مفردًا عن إبطال الحيل وسد الذرائع، وهي من القواعد ذات الصلة القوية بالوسائل.

يتسم منهج الإمام ابن تيمية في باب الوسائل بالاعتدال، ويتصف بأمرين: الأول: السعة والشمولية، والثاني: الانضباط بالضوابط الشرعية.

٢- الإمام ابن القيم: يعد الإمام ابن القيم من علماء هذا القرن الذين بذلوا جهودهم في خدمة «فقه الوسائل وقواعدها»، وتتجلى جهوده في كتابيه «إعلام الموقعين»، و«إغاثة اللهفان».

٣- أبو عبد الله المقري: وضع كتاب «القواعد» الذي يُصنَّف من الكتب النفيسة في هذا القرن، وقد تضمن هذا الكتاب بعض المباحث المهمة المتعلقة بالوسائل، منها تقسيم موارد الأحكام إلى مقاصد ووسائل، وتعريف كل منهما، وذكر بعض القواعد المقيدة لها.

٤- الإمام أبو إسحاق الشاطبي: يُعد نظير الإمام العز بن عبد السلام في الإبداع والتأصيل، والتجديد والابتكار، وقد ألف الشاطبي كتابين عظيمين، الأول: «الموافقات»، وكان مقصوده الأصلي بيان مقاصد الشريعة، وذكر تبعًا -في ثنايا كلامه- الوسائل، وبعض قواعدها، والكتاب الثاني: «الاعتصام»، وكان مقصوده منه بيان أحكام البدع، وما يتعلق بها من المسائل أصولاً وفروعًا.





بعض جهود العلماء المتأخرين في بيان الوسائل، وتقرير مباحثها، وتأصيل قواعدها:

١- كتب الشيخ السعدي -رحمه الله- كتاب «القواعد والأصول الجامعة»، وجعل القاعدة الثانية في كتابه هي قاعدة «الوسائل لها أحكام ومقاصد».

وذكر أنها قاعدة كبرى تتضمن قواعد متعددة، وذكر منها مقدمة الواجب، وسد الذرائع وفتحها، والحيل، واستعجال الشيء قبل أوانه.

كما أنه ألحق بذلك «التوابع»، وجعل لها حكم المقاصد في رسالة القواعد.

٢- وكتب أيضًا الشيخ ابن عاشور -رحمه الله- كتابه القيم «مقاصد الشريعة الإسلامية»، وأفرد الكلام على المقاصد والوسائل، وذكر أن تمييز المقاصد من الوسائل مبحث مهم لم يَفِ المتقدمون بما يستحقه من التفصيل والتدقيق، وأنهم اقتصروا منه على ما يرادف المسألة الملقبة بسد الذرائع.

ثم شرع في التقسيم والتعريف والإشارة إلى أفضلية المقاصد على الوسائل، وتطرق إلى الترجيح بين الوسائل عند التعدد، وضابط ذلك.

والحقيقة أن الشيخ ابن عاشور يُعَدّ من أحسن من تكلم في موضوع الوسائل من المتأخرين، رغم الإيجاز الذي اتسم به كلامه عنها.

٣- وممن كانت له مشاركة في توضيح الوسائل، وتأصيل بعض قواعدها، الأستاذ محمد هشام البرهاني في كتابه «سد الذرائع في الشريعة الإسلامية»، فإن كتابه وإن كان خاصًا بسد الذرائع -كما يظهر من العنوان- إلا أن مؤلفه تحدث تبعًا عن الذرائع بالمعنى العام، وعن فتح الذرائع، ولكن عنايته كانت متوجهة أصلاً نحو «سد الذرائع»، ولذا لم يتعرض لجملة من قواعد الوسائل وأحكامها.

٤- وكتب الدكتور وهبة الزحيلي بحثًا بعنوان «الذرائع في السياسة الشرعية والفقه الإسلامي»، وخلاصته مذكورة في كتابه «أصول الفقه الإسلامي».

بالإضافة إلى هذه الجهود هناك جهود محدودة تتمثل في كتابات يسيرة منثورة في كتب المتأخرين الأصولية، مثل كتاب «أصول الفقه» للبرديسي، وكتاب «أصول الفقه الإسلامي» للأستاذ محمد شلبي.

المصدر:

د. مصطفى بن كرامة الله مخدوم، قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية، دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

أقسام الوسائل

تنقسم مطلق الوسائل إلى عدة أقسام باعتبارين:

الاعتبار الأول: بالنظر إلى شهادة الشرع لها بالاعتبار أو بالإلغاء، فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وسائل معتبرة شرعًا، وهي: كل ما أُمر به في الكتاب أو السنة، أمر وجوب أو استحباب.

القسم الثاني: وسائل ملغاة شرعًا، وهي: كل ما نهي عنه في الكتاب أو السنة نهي تحريم أو كراهة، وهذه الوسائل كلها مفاسد أو أسباب للمفاسد لا للمصالح.

قال الشاطبي في الموافقات في بيان هذين القسمين: «فإذن: لا سبب مشروعًا إلا وفيه مصلحة لأجله شُرع، فإن رأيته وقد انبنى عليه مفسدة: فاعلم أنها ليست ناشئة عن السبب المشروع. وأيضًا: فلا سبب ممنوعًا إلا وفيه مفسدة لأجلها مُنع، فإن رأيته وقد انبنى عليه مصلحة فيما يظهر: فاعلم أنها ليست بناشئة عن السبب الممنوع، وإنما ينشأ عن كل واحد منها: ما وُضع له في الشرع إن كان مشروعًا، وما منع منه إن كان ممنوعًا. وبيان ذلك: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثلاً لم يقصد به الشارع إتلاف نفس ولا مال، وإنما هو أمر يتبع السبب المشروع لرفع الحق وإخماد الباطل؛ كالجهاد، ليس مقصوده إتلاف النفوس، بل إعلاء الكلمة؛ لكن يتبعه في الطريق الإتلاف: من جهة نصب الإنسان نفسه في محل يقتضي تنازع الفريقين، وشهر السلاح وتناول القتال).

القسم الثالث: وسائل مسكوت عنها، وهي: الوسائل المرسلة، وضابطها: كل ما سكت عنه الشارع.
الاعتبار الثاني: بالنظر إلى درجة إفضائها إلى المقصود، تنقسم الوسائل إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وسائل مفضية قطعًا إلى المقصود وهو (المصلحة).
عبر عنها أهل المقاصد بقولهم: (للوسائل حكم المقاصد)، كالإنكار ما هو إلاَّ وسيلةٌ شرعيَّةٌ، فإذا عُلِمَ هذا كان له حُكمُ المقاصِدِ.

القسم الثاني: وسائل تفضي إلى المقصود غالبًا، وقد وقع خلاف بين الفقهاء في هذا القسم، فمن الناس من توسع فيها فأباح كل وسيلة حتى أوقعوا الناس في الحرام، ومن الناس مَن ضيَّق ومنع كل وسيلة؛ باعتبار أنها تفضي إلى الممنوع أحيانًا، فسدوا على المسلمين بابًا من المباحات ما كان ينبغي أن يُسَدّ.

القسم الثالث: وسائل تفضي إلى المقصود نادرًا، فهذه لا حكم لها، للقاعدة (العبرة بالكثير الشائع لا القليل النادر)، فالنادر لا حكم له، ولا يجوز لإنسان أن يتوسع حتى يبيح كل شيء، قال الشوكاني في إرشاد الفحول: «والحمل على الأعم الأغلب دون القليل النادر متعين»، وقال القرافي في أنوار البروق: «إِذَا دَارَ الْحُكْمُ بَيْنَ النَّادِرِ وَالْغَالِبِ فَحَمْلُهُ عَلَى الْغَالِبِ أَوْلَى، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ هُوَ سَاكِنٌ فِي دَارٍ وَيَدُهُ عَلَيْهَا يُقْضَى لَهُ بِالْمِلْكِ بِنَاءً عَلَى الْغَالِبِ».



قراءة نقدية لمفاهيم الولاء والبراء المعاصرة

أ. إبراهيم الأزرق

(عضو المجلس الاستشاري لمنظمة المشكاة الخيرية. السودان)

ملخص البحث

البراء من الكافرين، والولاء لعباد الله المؤمنين أصل عظيم من أصول الدين، بل هو أوثق عُرَى الإيمان، فعلينا تعظيمه بما لا يُعارَض بترَخُّصٍ جَافٍ، ولا بتشديد غالٍ.

الناس في افتراقهم في الولاء والبراء يمكن تقسيمهم بين «المقصر الجافي»، و«المتجاوز الغالي»، ومنهم من أخذ طرفي النقيض فجمع غلوًّا مع جفاء، ومنهم من توسط واعتدل.

وقد قسم العلماء مظاهر الولاء المحرم لمن أمر الله بالبراءة منه إلى: موالاة كفرية، وموالاة غير كفرية، وقد يجتمع لأصحاب الولاء المحرم مع هذا الذنب ذنبٌ آخر، وهو التقصير في موالاة من أمر الله بتوليهم من المؤمنين.

ومن المقرر عند أهل العلم أن البراء يشمل التبرؤ من الكافرين ومما يعبدونه، والكفر بهم، وإظهار العداوة وإعلانها أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده. ولتغير الواقع أثره على الولاء والبراء، ولكن غياب مظاهر الولاء ولوازمه، أو البراء ولوازمه، لا يكون إلاّ لقيام مانع معتبر.

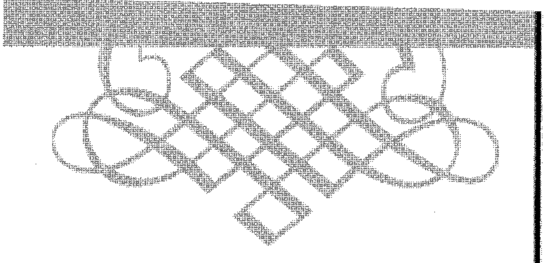
وقد أسقط الله فرض إبداء العداوة على من تعذر عليه إبداؤها لخوفٍ مانع، فواقع أهل الإسلام قد يؤثر على بعض مظاهر الولاء والبراء ولوازمهما، فتخبو بعض المظاهر حال ضعفهم، أما أصل الولاء والبراء الذي هو عمل القلب تجاه المؤمن والكافر فلا مدخل لتأثير تغير واقع المسلمين قوة وضعفًا على بقائه.

وقد يكون للواقع أثر في تنمية الولاء أو البراء تجاه شخص أو جهة ما، وقد يؤثر الواقع في طرق التعبير عن الولاء والبراء، كما قد يؤثر الواقع ومستجداته أثرًا سيئًا بتقرير مفاهيم جديدة تكون معقد ولاء وبراء لا ينبغي أن تكون بمعقد.

وثمة بواعث معاصرة للولاء أو البراء تحتاج إلى نظر ومراجعة؛ إذ ليس لأحد أن يُنيط عقد الولاء والبراء على غير ما أناطه الله به، ومن ذلك ألا يعلق ما يستحقه أخوه المسلم من مظاهر الولاء ومقتضياته بانتماء لجماعة أو شخص أو رأي.

ولأن الولاء والبراء الشرعي أصل يجب أن يُستصحَب في جميع العلاقات الإنسانية، فإن العلاقات الدولية، والإقليمية، والقومية، والوطنية، كلها يجب أن تعرض على ما أمر الله به من ولاء أو براء.

العلاقات مع الأمم الكافرة المعاهدة غير الحربية الأصل فيها البراءة منهم، لا تجوز موالاتهم، وهذا لا يمنع التعامل معهم وفق ما تقتضيه المصلحة، وأما الدول الحربية فالبراءة منها واجبة، أما التعامل معها فسائغ عند الحاجة ما لم يتعد حد القسط، وأما العلاقات مع البلدان المسلمة فالأصل فيها أن يكون الولاء لأهل الإيمان والسنة، أعظم من الولاء لمن هم دونهم ديانة.



أفكار ومقتطفات

- البراء من الكافرين، والولاء لعباد الله المؤمنين أصل عظيم من أصول الدين، بل هو أوثق عرى الإيمان، فحريّ بنا أن نعظم شأنه، و«حقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يُعارَضا بترَخُّصٍ جَافٍ، ولا يُعرَّضا لتشديد غالٍ».

- الذي يقصر في البراءة مِن الكافرين أو مَنْ أمر الله بالبراءة منهم من وجه، كفساق المسلمين، يغلو ولا بد في موالاتهم، وقد يجمع إلى ذلك البراءة ممن أمر الله بتوليهم، من العلماء، والدعاة، والمجاهدين، كما أن الذي يغلو في البراءة مِن الكافرين أو مَنْ أمر الله بالبراءة منهم من وجه كعصاة الموحدين، يُفَرِّط ولا بد في موالاة من يجب ولاؤه من وجه، وقد يجمع إلى ذلك تقصيرًا في موالاة من يجب له الولاء من أهل الإيمان؛ علماء، ودعاة، ومجاهدين.

- قال شيخ الإسلام: «وهذا البغض والعداوة والبراءة مما يُعبد من دون الله، ومن عابديه، هي أمور موجودة في القلب، وعلى اللسان، والجوارح، كما أن حب الله وموالاته وموالاة أوليائه أمور موجودة في القلب وعلى اللسان والجوارح».

- «ما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبُه ومُقتَضاه على الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبِه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه، ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه» .

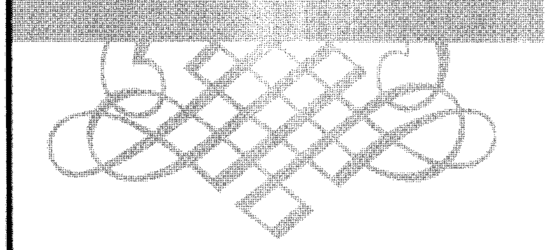
- غياب مظاهر الولاء ولوازمه، أو البراء ولوازمه، لا يكون إلاّ لقيام مانع معتبر، وإلاّ فهو دليل على انتفاء أصل الولاء والبراء، ومن نقص ضعف بقدر ما نقص، ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فإذا عرفت هذه عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام، ولو وحَّد الله وترك الشرك، إلاّ بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض».

- واقع أهل الإسلام قد يكون له أثره على بعض مظاهر الولاء والبراء ولوازمهما، فتخبو في حال ضعف أهل الإسلام بعض المظاهر، وقد تمنع موانع من حصول بعض اللوازم.

- لا تسوغ نوازل الواقع تغييرًا لأصل الولاء والبراء الذي في القلب، فإذا منع تأثير الواقع بعض لوازم الولاء والبراء، أو حجب بعض مظاهره، وصح عمل القلب لزم ظهور مقتضاه فور زوال المانع، وتوفر القدرة.

- «الواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته تابعًا لأمر الله ورسوله، فيحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي من يوالي الله ورسوله، ويعادي من يعادي الله ورسوله، ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات، وما يعادى عليه من سيئات، عُومِل بموجب ذلك كفساق أهل الملة؛ إذ هم مستحقون للثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والحب والبغض، بحسب ما فيهم من البر والفجور».

- تأمل واقع المسلمين اليوم تجد بعضهم قد أناط عروة الولاء بأشخاص غير معصومة، وآراء قصاراها أن تكون اجتهادية لا ينبغي أن يُعَادَى ويُوَالَى عليها، وهذا الداء موجود في آحاد المسلمين غير المنتسبين، وفي المنتمين إلى جماعات إسلامية، أو مؤسسات دعوية، فكم من مُنْتَمٍ جعل جماعته



أو حزبه أو حركته أصلاً يوالي عليه ويعادي، والواجب أن يكون معقد الولاء والبراء شرع الله، وأن تضبط الولاءات المختلفة به.

- الـولاء والـبراء الشـرعي أصل يجب أن يُسـتصحَب في جميع العلاقات الإنسـانية الـتي تقوم بين المسلمين بعضهم مع بعض أو بين المسلمين وغيرهم، بل مع غير الإنسان، فهذا أُحُد جبل قال فيه النـبي صلـى الله عليه وسـلم: «يحبنا ونحبه» وتلـك مكة أحب البقـاع إلى الله فهي أحب البقاع إلينا، وهكذا نحب كل ما جاء الشرع بحبه.

- العلاقـات مـع الأمم الكافرة المعاهدة غير الحربية الأصـل فيها البراءة منهم، لا تجوز موالاتهم، وهذا لا يمنع التعامل معهم وفق ما تقتضيه المصلحة، بيعًا وشراءً، بل صدقة وإغاثة، من غير مال الزكاة، بل ومن الزكاة إن كانت لتأليف القلوب على الإسلام.

- العلاقات مع البلدان المسـلمة الأصل فيها أن يكون الولاء لأهل الإيمان والسـنة، أعظم من الولاء لـمن هـم دونهم ديانة، ولو كانـت المصالح الاقتصاديـة أو القومية أو غيرهما مـع هؤلاء أكبر، فالواجب أن يُوَالَى ويُقرَّب من كان لشرع الله أقرب، ويُقصى ويُبعد من كان عنه أبعد.

- بعض أهل العلم أشكل عليه محل العهد بين دولة الإسلام وبعض دول الكفر المعتدية، فظن أنه يمنع نصرة المسـتضعفين من المسـلمين المعتدَى عليهم، وليس كذلك، والأدلة التي يذكرونها لا دلالة فيها ولا إشكال.

قراءة نقدية لمفاهيم الولاء والبراء المعاصرة

أ. إبراهيم الأزرق : عضو المجلس الاستشاري لمنظمة المشكاة الخيرية . السودان

قسمة الناس في الولاء والبراء:

إن البراء من الكافرين، والولاء لعباد الله المؤمنين، أصل عظيم من أصول الدين، بل هو أوثق عرى الإيمان[1]، فحريّ بنا أن نعظِّم شأنه، و«حقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يُعَارَضَا بتَرَخُّصٍ جَافٍ، ولا يُعرَّضَا لتشديد غالٍ»[2]، «قال بعض السلف: ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر. وقد اقتُطِع أكثر الناس إلاّ أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جدًّا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه»[3]، والمجاوزة والتقصير «آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلاّ من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به، لا مَن ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم، وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم، ولهذا حذّر السلف منهما أشدَّ التحذير، وخوّفوا من بُلِي بأحدهما بالهلاك، وقد يجتمعان في الشخص الواحد، كما هو حال أكثر الخلق، يكون مقصرًا مُفَرِّطًا في بعض دينه، غاليًا متجاوزًا في بعضه، والمَهْدِيُّ من هداه الله»[4].

وليس افتراق الناس في الولاء والبراء قديمًا وحديثًا في مَعْزِلٍ عن هذا التقسيم. فمنهم المقصر وهم دركات: أسفلها الممالئون لأعداء الشريعة، المسارعون فيهم، ومنهم الغالي وهم درجات: في أعلاها المعادون لأولياء الله، المحاربون لعموم الأمة، ومنهم من أخذ من طرفي النقيض فجمع غلوًّا مع جفاء، ومنهم من توسط واعتدل، وهؤلاء مراتب، وهم في الجملة أهل الحق الذين لا يخلو منهم عصر، فهذه أربعة أقسام، لا يتمحض الحق فيها إلاّ لجملة أهل الحق، وأما الباطل فلا يكاد يتمحض لقسم، ولهذا وقع الاشتباه.

ثم إن الذي يقصر في البراءة مِن الكافرين أو مَنْ أمر الله بالبراءة منهم من وجه كفُسّاق المسلمين، يغلو ولا بد في موالاتهم، وقد يجمع إلى ذلك البراءة ممن أمر الله بتوليهم، من العلماء، والدعاة، والمجاهدين، كما أن الذي يغلو في البراءة مِن الكافرين أو مَنْ أمر الله بالبراءة منهم من وجه كعصاة الموحدين، يُفَرِّط

(١) روي هذا المعنى مرفوعًا عن جماعة من الصحابة منهم ابن عباس، وابن مسعود، والبراء بن عازب، رضي الله عنهم، وقد حسنه الألباني، يُنظر تخريجه في السلسلة الصحيحة (٢/٦٩٨-٧٠٠) برقم (٩٩٨)، (٤/٣٠٦-٣٠٧) برقم (١٧٢٨).

(٢) الوابل الصيب لابن القيم ص٢٤.

(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/١١٦).

(٤) الروح لابن القيم ص٢٥٧.

ولا بد في موالاة من يجب ولاؤه من وجه، وقد يجمع إلى ذلك تقصيرًا في موالاة من يجب له الولاء من أهل الإيمان؛ علماء، ودعاة، ومجاهدين.

وحسبنا وقفتان مع الأولين منهما فمن بينهما تخرج القسمة الرباعية، وهما:

- المقصر الجافي. - والمتجاوز الغالي.

حال المقصر الجافي:

فأما المقصر الجافي عن القيام بواجب البراء الموالي لمن حقه البغض والإقصاء:

فمنهم مقارف الموالاة الكفرية، ومنهم الدائر حول حمأتها يوشك أن يقع فيها، ومنهم دون ذلك، ومن جملتهم طائفة دأبت على الدعوة إلى أمورٍ مجملة، لا تناسب الدعوة إليها واقع الأمة، كالدعوة إلى التعايش، واحترام الحضارات، ونبذ العنف، ومحاربة الإرهاب -هكذا بإجمال-، مع ما يرونه من خنوع كثير من المسلمين، ومسارعتهم في أعداء الله من الكافرين، بالإضافة إلى تنمر أعداء الدين، واستطالتهم على المسلمين، وطعنهم في أعز ما عندهم، وليت شعري أيُّ معنًى في دعوة المطلوب الذي يُراد قتله إلى التعايش مع القتلة؟ وأي معنًى لخطاب من رضي بالتبعية والخنوع بأهمية التعايش، وهو قد استمرأ حياة الذلة؟

وفوق هذا كله خطر آخر لتلك الخطابات الضبابية العُمِّيَّة، ألا وهو خدمة أعداء الأمة، الذين تمكنوا -بفعل الآلة الإعلامية- من تجيير تلك المصطلحات المجملة التي ينادي بها هؤلاء إلى معانٍ غير مقبولة شرعًا، بل ولا عقلاً.

من مظاهر الولاء المحرم:

عدَّد بعض الباحثين مظاهر للولاء المحرم[٥]، فذكر من مظاهر الموالاة الكفرية:

١ - الإقامة ببلاد الكفار اختيارًا لصحبتهم مع الرضا بما هم عليه من الدين، أو مع القيام بمدح دينهم، وإرضائهم بعيب المسلمين.

٢ - أن يتجنس المسلم بجنسية دولة كافرة تحارب المسلمين، ويلتزم بقوانينها وأنظمتها بما في ذلك التجنيد الإجباري، ومحاربة المسلمين ونحو ذلك.

٣ - التشبه المطلق بالكفار، بأن يتشبه بهم في أعمالهم، فيلبس لباسهم، ويقلدهم في هيئة الشعر وغير ذلك، ويسكن معهم، ويتردد معهم على كنائسهم، ويحضر أعيادهم.

٤ - أن يتشبه بهم في أمر يوجب الخروج من دين الإسلام، كأن يلبس الصليب تبركًا به مع علمه بأنه شعار للنصارى، وأنهم يشيرون بلبسه إلى عقيدتهم الباطلة في عيسى عليه السلام.

٥ - أن يزور كنائسهم معتقدًا أن زيارتها قربة إلى الله تعالى.

٦ - الدعوة إلى وحدة الأديان، أو التقريب بينها.

٧ - موالاة الكفار بإعانتهم على المسلمين؛ محبة لهم ورغبة في ظهورهم على المسلمين.

وعد من الموالاة المحرمة غير الكفرية:

١- إعانة الكفار على المسلمين لمصلحة شخصية، أو خوفًا، أو لعداوة دنيوية بينه وبين مَن يقاتله الكفار من المسلمين.

٢- محبة الكفار واتخاذهم أصدقاء.

٣- الاستيطان الدائم في بلاد الكفار.

٤- السفر إلى بلاد الكفر لغير حاجة.

٥- مشاركة الكفار في أعيادهم الدينية، كعيد رأس السنة الميلادية.

٦- التشبه بهم فيما هو خاص بهم مما يتميز به الكفار عن المسلمين.

٧- تركهم يظهرون شعائر دينهم من عبادات وأعياد ونحوهما بين المسلمين، أو تركهم يبنون كنائس أو معابد لهم في بلاد المسلمين، أو تركهم يظهرون المعاصي بين المسلمين.

٨- اتخاذهم بطانة.

٩- السكن مع الكافر.

وهذه المظاهر لعل بعضها فيه نزاع: فمن أهل العلم من عَدَّ بعض ما نُقل هنا من أقسام الموالاة الكفرية كموالاة الكفار بإعانتهم على المسلمين لمصلحة شخصية، أو خوفًا، أو لعداوة دنيوية بينه وبين مَنْ

---

(٥) ينظر بحث الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، بمجلة البحوث الإسلامية، العدد ٧٩، رجب إلى شوال ١٤٢٧، وعنوانه: الولاء والبراء وأحكام التعامل مع الكفار والمبتدعة والفساق، ص١٨٧-٢١٣.

يقاتله الكفار، وهذا القول لا يبعد، وللخلاف فيه اعتبار، وهو ظاهر إطلاق كثير من أهل العلم[6]، وتركهم التقييد يقضي بشمول الحكم صورتيه، وأيًّا ما كان فالنزاع في دلالة الأدلة عليه مشهور، والواجب التحذير منه؛ إذ الاتفاق حاصل على تحريمه وعدم تهوين شأنه، فخطره يدور بين الكفر والكبيرة.

ثم إن هؤلاء الذين يوالون من أمر الله بالبراءة منه قد يجتمع لهم مع هذا الذنب ذنبٌ آخر، وهو التقصير في موالاة من أمر الله بتوليهم من المؤمنين.

ومن مظاهر هذا التقصير:

- التقصير في محبة المؤمنين في جميع البلدان والأزمان، والتفضيل بينهم لاعتبارات أخرى غير معتبرة في الشريعة.
- التقصير في نصرة المظلومين والمستضعفين منهم، إذا ظُلموا أو اعتُدي عليهم.
- التقصير في مساعدة محتاجهم، وإغاثة ملهوفهم، وحمل كَلِّهم، وإكساب معدومهم.
- التقصير في التألم لمصابهم، والتداعي لهم، وكأنهم ليسوا قطعة من جسد الأمة الواحد.

وقد عدَّد بعض أهل العلم بعض مظاهر الولاء الثابتة في الكتاب والسنة، وجميعها لو تأملتها وجدتَ تقصير أهل التقصير في البراءة منها، فمنها[7]:

- الهجرة إلى بلاد المسلمين وهجر بلاد الكافرين.
- مناصرة المسلمين ومعاونتهم بالنفس والمال واللسان فيما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم.
- التألم لألمهم، والسرور بسرورهم.
- النصح لهم، ومحبة الخير لهم، وعدم غشهم وخديعتهم.
- احترامهم وتوقيرهم واجتناب تنقصهم وعيبهم.
- أن يكون معهم في حال العسر واليسر والشدة والرخاء.
- زيارتهم، ومحبة الالتقاء بهم، والاجتماع معهم.
- احترام حقوقهم، فلا يبيع على بيعهم، ولا يسوم على سَوْمهم، ولا يخطب على خِطبتهم، ولا يتعرض لما سبقوا إليه من المباحات.
- الرفق بضعفائهم.
- الدعاء والاستغفار لهم.

وهذه المذكورة بعض المظاهر، ولعل جملة الحقوق العامة التي أوجبتها الشريعة إزاء المسلمين أو ندبت إليها مردّها إلى الولاء، وفعلُها من مقتضياته، والتقصير في كل ذلك دركات.

الهجرة لبلاد المسلمين، وهجر بلاد الكافرين.

مناصرة المسلمين ومعاونتهم.

التألم لألم المسلمين، والسرور بسرورهم.

النصح ومحبة الخير للمسلمين ومحبة الالتقاء بهم.

احترام المسلمين وتوقيرهم واحترام حقوقهم.

الرفق بضعفاء المسلمين.

الدعاء والاستغفار للمسلمين.

من مظاهر الولاء الثابتة في الكتاب والسنة

وأما الغلاة المفْرِطون في البراءة من الكافرين، المقصرون في ولاء المؤمنين أو بعضهم:

فمنهم من خرج به الحد إلى تكفير الأمة، ومعاداة أوليائها من سادات العلماء، ومن الغلاة من سفك الدماء المحرمة، وأزهق الأنفس المعصومة، ومنهم من لم يعتبر للمعاهدين ذمة، ولا للمستأمنين أَمَنَة، ولا للموادَعين عصمة، ولا لدماء الرسل قيمة، بل ربما رأى بعضهم الدنيا دار حرب، كما قال القاضي شريك عن الخوارج[8]، فلا تراه يرى فارقًا بين الإقامة في بلاد الكافرين، وبين الهجرة إلى ديار الإسلام التي تَنَكَّرَ لها، وكل ذلك

(٦) انظر على سبيل المثال: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣٢٦/٨)، ومجموعة الرسائل والمسائل (٥٣/٣)، ومجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ عبد العزيز بن باز (٢٦٨/١)، وفتوى اللجنة الدائمة برقم ٦٩٠١ (٧٢/٢).

(٧) ملخصة من بحث بعنوان الولاء والبراء في الإسلام للشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، نشر في مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢٥، إصدار رجب إلى شوال لعام ١٤٠٩، من ص١٢١-١٢٥، وقد بسط الكلام فيها بالأدلة فليراجع.

(٨) ينظر المغني (١٦٨/١٠).

بشبهات واهيات ربما لم يكن بعضها أكثر اشتباهًا من شبهات بعض المقصرين في البراءة من الكافرين، وإن كان هؤلاء يُلبسونها لباس الشرع أكثر من أولئك؛ لأن عامّتهم محبّ للدين، له به من العناية ما ليس للأول، ولأن الطريق الوعر يحتاج إلى كثير من الإقناع والتسويغ لأجل ركوبه.

ومن الناس من يجمع بين السيئتين؛ فيقصر في البراءة من بعض أعداء الله، ويتجاوز في البراءة من بعضهم، أو من بعض من لهم حق الولاية.

فلا يبالي في إقامته بديار الكافرين مثلاً، وكذلك لا يبالي في الاستعانة بهم، أو تأليبهم على من ثبت له اسم الإسلام، أو لا يبالي في التحريض على قتل المستأمنين والمعاهدين منهم.

وبعض هؤلاء قد يكون مضطرًا في إقامته بين ظهراني المشركين، معذورًا فيها، لكنه غير معذور في تأليبه على المسلمين، بل هو بذلك على خطر عظيم.

تغير الواقع وأثره على الولاء والبراء:

من المقرر عند أهل العلم أن البراء يشمل ثلاثة أمور، منصوصة في قول الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

فالأول: التبرؤ من الكافرين ومما يعبدونه؛ اعتقادًا، وقولاً وعملاً.

والثاني: الكفر بهم؛ اعتقادًا وقولاً وعملاً.

والثالث: إظهار العداوة وإعلانها أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده[٩].

والنهي عن موالاة الكفار «يدل على وجوب البراءة من الكفار، والعداوة لهم؛ لأن الولاية ضد العداوة»[١٠].

قال شيخ الإسلام: «وهذا البغض والعداوة والبراءة مما يُعبد من دون الله، ومن عابديه، هي أمور موجودة في القلب، وعلى اللسان، والجوارح، كما أن حب الله وموالاته وموالاة أوليائه أمور موجودة في القلب وعلى اللسان والجوارح»[١١].

وهذا كله لا ينفي أن أصل الولاء والبراء الباعث له عملُ القلب، غير أن عمل القلب مستلزم لعمل الجوارح، وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، إلاّ مع عدم القدرة أو قيام عذر مقتضٍ للترك.وكذلك متى وجد ما يناقض الملزوم دل ذلك على انتفاء الملزوم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «عدم الفعل تارة يكون لعدم مقتضيه من المحبة والإرادة ولوازمهما، وقد يكون لوجود مانعه من البغض والكراهة وغيرهما»[١٢].

و«ما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبُه ومُقتَضاه على الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبِه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه[١٣]، ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه»[١٤].

«ولهذا ينفي الله الإيمان عمن انتفت عنه لوازمه، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: ٨١]، وقوله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ونحوها فالظاهر والباطن متلازمان، لا يكون الظاهر مستقيمًا إلا مع استقامة الباطن، وإذا استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب[١٥]) »[١٦]، وقولهم: لا يكون الظاهر مستقيمًا إلاّ مع استقامة الباطن، مرادهم به الصلاح الحقيقي في الخلوات والحضرات لا الصلاح الصوري، أما الصلاح الصوري الذي يشهده المرء فيثبت به حكم

---

(٩) ينظر في هذا المعنى أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، تفسير الآية (٩٣/٨)، والكلام للشيخ عطية -رحمه الله- ضمن تتمته المرفقة بالأضواء.

(١٠) أحكام القرآن للجصاص (٩٩/٤).

(١١) ينظر مجموع ابن قاسم (٢٨٠/١٤).

(١٢) قاعدة في المحبة ص٧.

(١٣) المراد أن عدم الكل لعدم الموجب، والنقص للنقص.

(١٤) مجموع الفتاوى (٦٤٤/٧).

(١٥) حديث النعمان بن بشير، متفق عليه، البخاري (٢٨/١) رقم (٥٢)، ومسلم (١٢١٩/٣) رقم (١٥٩٩).

(١٦) مجموع الفتاوى (٢٧٢/١٨).

الصورة في الظاهر فقط.

وإذا تقرر هذا فإن «من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبًّا جازمًا، وهو قادر على مواصلته، ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك»[١٧]، ومن المستحيل أن يبغض غيره بغضًا جازمًا، وهو قادر على إبداء ذلك ولو بمفارقته، ثم لا يحصل منه شيء من ذلك، «ولا يلتفت إلى جدليّ لا حظَّ له من أعمال القلوب، بل قلبه كالحجر أو أقسى يقول: وما المانع! وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذلك واقعًا لم يلزم منه محال لذاته. فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله»[١٨].

ومن هنا يُعلم أن غياب مظاهر الولاء ولوازمه، أو البراء ولوازمه، لا يكون إلاّ لقيام مانع معتبر، وإلاّ فهو دليل على انتفاء أصل الولاء والبراء، ومن نقص ضعف بقدر ما نقص، ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فإذا عرفت هذه عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام، ولو وحَّد الله وترك الشرك، إلاّ بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض»[١٩]، ولا يقتضي هذا التقطيبَ لكل مشرك حيثما رآه، بل ولا يقتضي تركَ البر والقسط مع غير الحربي، ولكن الغرض أن تكون العداوة الدينية معروفة، غير مستورة، وهذا يجوز اجتماعه مع العدل والإحسان[٢٠].

وقد أسقط الله فرض إبداء العداوة على من تعذر عليه إبداؤها لخوفٍ مانع، قال ابن جرير رحمه الله، في قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]: «إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتُظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتُضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل»[٢١]، وهذا يبين أن واقع أهل الإسلام قد يكون له أثره على بعض مظاهر الولاء والبراء ولوازمهما، فتخبو في حال ضعف أهل الإسلام بعض المظاهر، وقد تمنع موانع من حصول بعض اللوازم.

وليس هذا بجديد فالناظر في تاريخ الإسلام يجد أن بعض بلاده قد أتى عليها حين من الدهر استُضعف أهلها فاضطروا لكتم بعض مقتضيات البراءة من الكافرين، قال الذهبي في تاريخ الإسلام أثناء أحداث سنة سبع عشرة وثلاثمائة: «وأما نواحي مملكة الروم فكان بها من الخوف والوجل ما لا مزيد عليه، وجنح أهل الثغور إلى ملاطفة النصارى، وبذل الإتاوة لهم، وركنوا إلى تسليم بلد سميساط وغيرها. فلله الأمر»[٢٢].

وقد قرر شيخ الإسلام أن قول الله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، إنما هي في من آمن من أهل الكتب وكتم إيمانه لمقتضٍ اضطره كشأن النجاشي، ونحوه من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ولم تمكنه الهجرة، ولا العمل ببعض شرائع الإسلام، فيعمل بما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه، وفي سياقها ذكر نظائر للنجاشي في الأمم الخالية فلتنظر[٢٣]، وهذا يدل على اعتبار القوة والعجز في حصول الإثم أو العذر.

أما أصل الولاء والبراء الذي هو عمل القلب تجاه المؤمن والكافر فلا مدخل لتأثير تغير واقع المسلمين قوة وضعفًا على بقائه.

فلا تسوغ نوازل الواقع تغييرًا لأصل الولاء والبراء الذي في القلب، فإذا منع تأثيرُ الواقع بعضَ لوازم الولاء والبراء، أو حجب بعضَ مظاهره، وصح عملُ القلب لزم ظهورُ مقتضاه فور زوال المانع، وتوفر القدرة.

وقد يكون للواقع أثر في تنمية الولاء أو البراء تجاه شخص أو جهة ما، فيزيد الولاء لمن يقوم بأمر الدين، كنصر السنة والذب عنها، وكذا البراء ممن يحارب المؤمنين، ويعادي عباد الله الصالحين. وقد مضى ذكر بعض مظاهر الولاء التي قصَّر المقصرون فيها،

(١٧) مجموع الفتاوى (٧/٥٥٣).

(١٨) مدارج السالكين (١/٣٢٦-٣٢٧).

(١٩) الموضوع الثاني من شرح ستة مواضع من السيرة، تُنظر مجموعة التوحيد، ص١٩.

(٢٠) ينظر هذا المعنى مبسوطًا في مبحث بعنوان: «الولاء والبراء بين الغلو والجفاء»، لكاتب هذه الأسطر، نشر في مجلة البيان، العدد (٢٣٣)، بتاريخ محرم-١٤٢٨هـ- يناير-٢٠٠٧م، ص١٤-١٩.

(٢١) ينظر تفسير آية آل عمران (٣/٢٢٧).

(٢٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٢٣/٣٨٦).

(٢٣) ينظر المعنى بتمامه في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/٢٠١) وما بعدها.

وبعض مظاهر الموالاة المحرمة، وأثر الواقع عليها جليّ لمن تأملها.

وقد يؤثر الواقع كذلك في طرق التعبير عن الولاء والبراء، فتُستحدث له وسائل جديدة، يمكن عن طريقها إبداء بعض الولاء تجاه المؤمنين، والبراءة من الكافرين، كالتصويت والإبراق، والإعلام والإعلان عبر وسائل الإعلام المستحدثة المختلفة ببرامجها المتنوعة، والواجب الاستفادة من مستجدات العصر في تقرير الولاء والبراء، والتعبير عنه وتطبيقه في واقع الناس.

وقد يؤثر الواقع ومستجداته أثرًا سيئًا بتقرير مفاهيم جديدة تكون معقد ولاء وبراء لا ينبغي أن تكون بمعقد.

فهذه أربع قضايا ينبغي أن تُراعى في تغير الواقع وما يتبعه في شأن الولاء والبراء:

أصله وهو ما في القلب تجاه المسلم والكافر، فلا مدخل لحال الاستضعاف في زواله أو إضعافه.

بل قد يكون لتغير الواقع أثر في زيادة الولاء أو البراء قولاً واعتقادًا وعملاً تجاه جهة أو شخص.

وقد يؤثر تغير الواقع في استحداث طرق جديدة للتعبير عن الولاء والبراء.

وأخيرًا قد يؤثر تغير الواقع أثرًا سيئًا بإحداث مفاهيم جديدة يُناط بها الولاء والبراء، وهي تنقض عروته في الحقيقة.

من أثر الواقع المعاصر في إحداث بواعث جديدة للولاء أو البراء:

قبل الشروع في ذكر بعض المفاهيم المعاصرة التي أصبح يُناط الولاء والبراء بها يحسن التذكير بما يجب أن يناط به عقد الولاء والبراء.

مناط الولاء والبراء:

«حقيقة التوحيد أن لا يُحَبَّ إلا الله، ويُحَبَّ ما يحبه الله لله، فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله»[٢٤]، و«تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، وإنك لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تسأل إلا الله، وهذا[٢٥] ملة إبراهيم، وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين»[٢٦]، وفرع عن هذا حب أوليائه، وبغض أعدائه.

من عادى أولياء الله، وأحب أعداء الله لم يكن صادقًا في حبه لرب العالمين، ولا في إيمانه بالله العظيم.

قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

فمن عادى أولياء الله، وأحب أعداء الله لم يكن صادقًا في حبه لرب العالمين، ولا في إيمانه بالله العظيم، ولو ادعى المحبة والتعظيم، قال ابن القيم رحمه الله:

لَو كَانَ حُبُّهُم لأجلِ اللهِ مَا
عَادَوا أحِبَّتَهُ عَلَى الإيمَانِ
فَإذا ادَّعَيتَ لَهُ المَحَبَّةَ مَع خِلاَ
فِكَ مَا يُحِبُّ فَأنتَ ذُو بُهتَانِ
أتُحِبُّ أعداءَ الحَبِيبِ وَتَدَّعِي
حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إمكَانِ
وَكَذَا تُعَادِي جَاهِدًا أحبَابَهُ!
أينَ المَحَبَّةُ يَا أخَا الشَّيطَانِ؟!

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ

---

(٢٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٤٦٥).

(٢٥) كذا في المطبوع، ولعل المراد هذا المذكور.

(٢٦) مجموع فتاوى ابن قاسم (٨/٣٣٧).

خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

وفي مقابل النهي عن موالاة أعداء الله توارد الأمر بموالاة عباد الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦]، وقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

والآيات والأخبار في المعنيين كثيرة، تقضي بأن «الواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته تابعًا لأمر الله ورسوله، فيحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي من يوالي الله ورسوله، ويعادي من يعادي الله ورسوله، ومن كان فيه ما يُوالَى عليه من حسنات، وما يُعادَى عليه من سيئات، عُومل بموجب ذلك كفُسّاق أهل الملة؛ إذ هم مستحقون للثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والحب والبغض، بحسب ما فيهم من البر والفجور»[٢٧].

وهذا الأصل يجب أن يُستصحب في جميع العلاقات الإنسانية التي تقوم بين المسلمين بعضهم مع بعض، أو بين المسلمين وغيرهم.

إذا تقرر هذا فإن ثمة بواعث معاصرة للولاء أو البراء تحتاج إلى نظر ومراجعة؛ إذ ليس لأحد أن يُنيط عقد الولاء والبراء على غير ما أناطه الله به، ومن ذلك ألا يعلق ما يستحقه أخوه المسلم من مظاهر الولاء ومقتضياته بانتماء إلى جماعة أو شخص أو رأي، إذ «ليس لأحد أن ينصب للأمة شخصًا يدعو إلى طريقته، ويوالي عليها ويعادي غير النبي صلى الله عليه وسلم، وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصًا أو كلامًا يفرقون به بين الأمة، يوالون على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون»[٢٨].

وكذلك لا يجوز أن يوالي المرءُ على أقوال لم يظهر أن الله تعالى يحبها ويرضاها، ومع ذلك «تجد قومًا كثيرين يحبون قومًا ويبغضون قومًا لأجل أهواء لا يعرفون معناها ولا دليلها، بل يوالون على إطلاقها أو يعادون من غير أن تكون منقولة نقلاً صحيحًا عن النبي صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة، ومن غير أن يكونوا هم يعقلون معناها، ولا يعرفون لازمها ومقتضاها، وسَبَبُ هذا إطلاقُ أقوالٍ ليست منصوصة، وجعْلُها مذاهب يُدعى إليها ويُوالَى ويُعادَى عليها»[٢٩].

وتأمل واقع المسلمين اليوم تجد بعضهم قد أناط عروة الولاء بأشخاص غير معصومة، وآراء قصاراها أن تكون اجتهادية لا ينبغي أن يُعادَى ويُوالَى عليها، وهذا الداء موجود في آحاد المسلمين غير المنتسبين وفي المنتمين إلى جماعات إسلامية، أو مؤسسات دعوية، فكم من منتم جعل جماعته أو حزبه أو حركته أصلاً يوالي عليه ويعادي، والواجب أن يكون معقد الولاء والبراء شرعَ الله، وأن تُضبط الولاءات المختلفة به. فما يسمى بالولاء الحركي -على سبيل المثال- يجب أن يُقيد ويُضبَط بالولاء والبراء الشرعي، وإلاّ كان ولاءً جاهليًّا مرفوضًا، فالواجب ألا يقدم ولاء حركي على ولاء شرعي، أو يسقط لأجل الولاء الحركي براء فرضه الله تعالى، فلا يسوغ أبدًا أن يوالي كافرًا لكونه منضويًا تحت لواء الحركة، ويقصي مؤمنًا تقيًّا لكونه غير منتم لها، بل لا يسوغ أن يقدم مؤمنًا فاضلاً من حزبه، على غيره من المؤمنين -إذا كان أكمل طاعة لله ورسوله- فيما يجب من الولاء، فلا يقدم على العالم الورع التقي -فيما ينبغي له من مقتضيات الولاء ومظاهره- أحدًا من آحاد جماعته لمجرد انتماء هذا وبُعْد ذاك، لمصالح متوهمة ربما ألبسها بعضهم لباس الشريعة فزعم أن هذا هو مقتضى المصلحة الشرعية، وأن الولاء الشرعي لا يتعارض مع صنيعه.

قال شيخ الإسلام: «فمحبة ما يحبه الله لله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله، وهو الحب في الله ولله، وإن كان كثير من الناس يغلط في معرفة كثير من ذلك أو وجوده، فيظن في أنواع من المحبة أنها محبة لله، ولا تكون لله، ويظن وجود المحبة لله في أمور، ولا تكون المحبة لله موجودة، بل قد يُعتقد

(٢٧) الفتاوى المصرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٣/٤٦٨).
(٢٨) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام (١/١٤٩).
(٢٩) السابق.

وجود المحبة لله وتكون معدومة، وقد يعتقد في بعض الحب أنه لله ولا يكون لله»[٣٠].

ولعل التجرد في هذا الشأن شاق عزيز، لا يطيقه إلاّ مؤمن كامل الإيمان، ولهذا كان أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله[٣١]، وكان من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان[٣٢]. فـ «العبد مجبول على حب ما يلائمه، وبغض ما ينافيه، فإن لم يشهد ما يتصف به الرب سبحانه من الحب والبغض والرضا والسخط، فيحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه، ويرضى ما يرضاه، ويسخط ما يسخطه الله، وإلا فرق باعتبار نفسه، فيحب ويبغض لمجرد ذوقه ووجده وحبه وبغضه، لا بحب الله وبغضه وأمره ونهيه، فإن هذه الحقيقة تخالف الشريعة»[٣٣].

من البواعث العصرية للولاء والبراء على الصعيد الدولي:

سبق أن الولاء والبراء الشرعي أصل يجب أن يُستصحب في جميع العلاقات الإنسانية التي تقوم بين المسلمين بعضهم مع بعض، أو بين المسلمين وغيرهم، بل مع غير الإنسان، فهذا أحدٌ جبلٌ قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «يحبنا ونحبه»[٣٤]، وتلك مكة أحب البقاع إلى الله[٣٥] فهي أحب البقاع إلينا، وهكذا نحب كل ما جاء الشرع بحبه.

فالعلاقات الدولية، والإقليمية، والقومية، والوطنية، كلها يجب أن تُعرض على ما أمر الله به من ولاء أو براء.

وهي ثلاثة أقسام: قسم من تلك العلاقات مبعثه الطبع والجبِلّة، وقسم مبعثه المصلحة الدنيوية، وقسم مبعثه ولاء وبراء.

أما ما كان ناشئًا عن حب جِبِلّي طبعي فكمحبة الإنسان وطنه، وهذه المحبة ينبغي أن تخضع للمصلحة فيقدم ما تمليه المصلحة عليها، والمصلحة ينبغي أن تخضع للشرع فيحكم فيها.

أما القسم الثاني الذي مرده إلى المصلحة فينبغي أن يكون التصرف فيه بالأصلح لعموم أهل البلد.

وأما القسم الثالث العلاقات التي مردها إلى ولاء وبراء، فالواجب أن يُوالى المؤمن ويُقرَّب على قدر إيمانه، ويُعادى الكافر ويُبعَّد بحسب كفره، وتظهر مقتضيات الولاء ومظاهره مع المؤمنين بحسب إيمانهم، ومقتضيات البراء ومظاهره مع الكافرين بحسب حالهم؛ فالحربي له أحكامه، والموادَع له أحكامه.

فالعلاقات مع الأمم الكافرة المعاهدة غير الحربية الأصل فيها البراءة منهم، لا تجوز موالاتهم، وهذا لا يمنع التعامل معهم وفق ما تقتضيه المصلحة، بيعًا وشراءً، بل صدقة وإغاثة، من غير مال الزكاة، بل ومن الزكاة إن كانت لتأليف القلوب على الإسلام. فلا يمنع كفرُ غير الحربيين بِرَّهم والقسط معهم، والبر والقسط يكون مع كل دولة بحسبها كما هو الشأن في الأشخاص، فكلما كانت الدولة أقرب لنصر قضايا المسلمين استحقت من البر والمكافأة ما لا يستحقه غيرها، وكل هذا على ما مر لا يمنع من أن تكون العداوة الدينية بادية معروفة، يقدم مقتضاها إذا تعارض مع مصلحة دنيوية.

وأما الدول الحربية فالبراءة منها واجبة، أما التعامل معها فسائغ عند الحاجة ما لم يتعد حد القسط، فلا برّ لهم، ولا إحسان متوجه إليهم، ولا يمنع ذلك من تبادل بعض المنافع، ومن ذلك: الإذن لبعض تجارهم في الاتجار بالأعشار، ولا يمنع كون الدولة محاربة إبرام اتفاقيات معها تتعلق بالأسرى، أو غيرهم وفق ما تقتضيه مصلحة المسلمين.

وبالجملة فالعلاقات مع الدول الكافرة تعتبر فيها الحاجة وتحقق المصالح، دون أن يكون للعلاقات المبنية على أساس الولاء مدخل.

---

(٣٠) قاعدة في المحبة لشيخ الإسلام ص٧٠.

(٣١) أثر مشهور سبق تخريجه.

(٣٢) روي هذا المعنى مرفوعًا من حديث أبي أمامة كما في سنن أبي داود (٦٣٢/٢) رقم (٤٦٨١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث معاذ بن أنس الجهني (١٧٨/٢) رقم (٢٦٩٤)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣٣) الرد على البكري لشيخ الإسلام (٧٦٤/٢).

(٣٤) خرجاه في الصحيحين من حديث أنس وأبي حميد الساعدي، ينظر البخاري (١٠٥٩/٣) رقم (٢٧٦٣)، ومسلم (١٠١١/٢)، وكذلك البخاري (٥٣٩/٢) رقم (١٤١١)، ومسلم (١٧٨٤/٤) رقم (١٣٩٢).

(٣٥) ثبت هذا في حديث عبد الله بن عدي بن حمراء رواه الترمذي في جامعه ٧٢٢/٥ (٣٩٢٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وأما العلاقات مع البلدان المسلمة فالأصل فيها أن يكون الولاء لأهل الإيمان والسنة أعظم من الولاء لمن هم دونهم ديانة، ولو كانت المصالح الاقتصادية أو القومية أو غيرهما مع هؤلاء أكبر، فالواجب أن يوالى ويقرب من كان لشرع الله أقرب، ويُقصى ويُبعد من كان عنه أبعد.

فليس التعويل فيما يجب للدولة من مظاهر الولاء على المصلحة الدنيوية مجردة، بل لا بد من اعتبار الدين، بل لا بد من إلغاء اعتبار الروابط الأخرى غير الشرعية كالروابط الإقليمية أو القومية ونحوهما إذا اقتضت تقريب من بعَّده الله أو تبعيد من قرَّبه الله، أما إن كانت الروابط الإقليمية روابط مبناها على تبادل المصالح الدنيوية، وكانت المصلحة تقتضيها حقًّا، فلا بأس بها ما لم يعقد الولاء والبراء عليها، وأيضًا قد تسوغ بعض مظاهر الولاء وتتوجه في بعض العلاقات الإقليمية إذا كان مردها إلى اجتهاد سائغ في تقدير حقوق شرعية كحق الجوار مثلاً، على أن لا يُحَمَّل ما لا يحتمل.

وكذلك الشأن في الدولة الواحدة، فلا ينبغي أن ينبني مفهوم الولاء والبراء فيها وما يقتضيانه على المواطنة، بل يقرب المؤمن التقي، ويبَعَّدُ الأبعد.

والنظر في هذه القضايا بعين الإنصاف مع التجرد عن هوى التقصير أو التجاوز عزيز، ولاسيما مع تعقيدات الواقع، وما يكتنفه من متغيرات، بالإضافة إلى أثر واقع الأمة قوة وضعفًا، ولاسيما في العلاقات الدولية والإقليمية.

مثال لأثر حال الأمة قوة وضعفًا على بعض مظاهر الولاء والبراء:

تبين مما سبق أن محبة المسلمين وموالاتهم مفروضة كيف كانت حال المسلمين، والبراءة من الكافرين ومعاداتهم واجبة كيف كانت حال المسلمين.

غير أن بعض مقتضيات الولاء للمؤمنين قد تخبو حال الاستضعاف، وبعض مقتضيات البراء من الكافرين قد تخفى حال الضعف والقلة.

وبحث هذا على سبيل التفصيل يطول، وقد مضى ذكر عدد من مظاهر الولاء والبراء لعل التأمل فيها جدير بأن يبدي ما كان للاستضعاف في تقليله أو إلغائه مدخل أو لا.

ولعل من المناسب التمثيل بأحدها، ولاسيما في هذه الآونة، ألا وهو نصرة المسلمين، فقد مر أن من مظاهر الموالاة المترددة بين الكفر والكبيرة إعانة الكفار على المسلمين، وأن من الموالاة الواجبة مناصرة المسلمين، ومعاونتهم بالنفس والمال واللسان فيما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم.

ويتأكد هذا الواجب إذا نزلت بالمسلمين نازلة تتهدد ضرورياتهم كما لو دهمهم عدو كافر، فتجب نصرة المسلمين لعموم الأدلة الآمرة بنصرة المسلم أخاه المسلم، ولقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١]، «فمن ترك دفاع كافر عن مؤمن تثاقلاً من غير عذر يسقط به عنه القيام، فقد ترك المعاونة على البر والتقوى، وجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين، وقد نفى الله تعالى أن يكون ذلك من الشرع، ففعل ذلك معصية وتعدّ لحدود الله تعالى، خرّج أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»[(٣٦)]، وذلك مما لا يعرف فيه خلاف، ... ومعنى «وهم يد على من سواهم»، أن عليهم التعاون على دفع العدو إذا نزل على أحد منهم، فواجب عليهم أن يكونوا يدًا واحدة في ذلك على الكفار»[(٣٧)].

وديار المسلمين المتفرقة بمثابة البلدة الواحدة، قال شيخ الإسلام: «إذا دخل العدو بلاد الإسلام فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب؛ إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة، وأنه يجب النفير إليه بلا

(٣٦) السنن (٨٩/٢) رقم (٢٧٥١)، (٥٨٨/٢) رقم (٤٥٣٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٣٧) الإنجاد في أبواب الجهاد لابن المناصف باختصار يسير ص١٠٦.

إذن والد ولا غريم»[٣٨]، وإذا كان الأمر كذلك فقد قال ابن حزم: «اتفقوا أنه إن أمَّنَهم على أن يحاربوا المسلمين، ولا يحاربهم المسلمون أن ذلك باطل لا ينفذ»[٣٩]، وقد قرر الفقهاء أن كل صلح يُبطل فرض الجهاد العيني لا يسوغ إلاّ من ضرورة ككثرة العدو وقلة المسلمين[٤٠].

جواب شبهة عارضة:

وبعض أهل العلم أشكل عليه محل العهد بين دولة الإسلام وبعض دول الكفر المعتدية، فظن أنه يمنع نصرة المستضعفين من المسلمين المعتدَى عليهم، وليس كذلك، والأدلة التي يذكرونها لا دلالة فيها ولا إشكال، أما آية الأنفال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٤١] [الأنفال: ٧٢]، ففي حق من شرعت له الهجرة ثم لم يهاجر كما هو نصها، سواء في ذلك من كانت الهجرة واجبة عليه أو مندوبة في حقه كشأن أعراب المسلمين ونحوهم[٤٢]، ولا تتناول الآية من لا تشرع له الهجرة ممن أقام في دار إسلام، ومثلها دلالة خبر أبي جندل وأبي بصير[٤٣]، لكن الأولى والحال هذه أن ينبذ المسلمون عهد الكافرين؛ حتى لا تكون لهم شبهة، أو يُؤذنوهم بالحرب إن كانت لهم بها طاقة.

شبهة من جنس آخر:

وبعضهم ظن أن مقتضى مثل هذا سقوط أمان المستأمنين من الكافرين، وحِلّ دمائهم وأموالهم، وهذا غلط، فرعايا دولة الكفر المحاربة لغيرنا من المسلمين في أرضنا، لهم عهد وأمان خاص، بموجب الإذن لهم في دخول البلاد لأغراض مباحة بكفالة بعض المؤسسات أو الأفراد، فإن للمسلمين أن يؤمّنوا بعض أهل الحرب للمصلحة، وعقد هؤلاء محترم كعقد أهل الذمة لا يضره نقض غيرهم.

بل لو لم يكن أمان المؤمن معتبرًا لكان في ظنهم التأمين شبهة تدفع عنهم القتل، كما تُدرء الحدود بالشبهات[٤٤].

أثر الاستضعاف على هذا الحكم المقرر:

استنبط أهل العلم لوجوب النصرة بالنفس -والحال كما ذكر- شروطًا بمقتضى الأدلة، تظهر فيها مراعاة حال الاستضعاف والقوة، واعتبار ذلك في الأفراد والدولة الناصرة، فإن لم تتوافر تلك الشروط فلا نصرة واجبة بالنفس، ويتأكد وجوب غيرها كالنصرة بالمال والرأي أو غيرهما.

ولعل من أظهر تلك الشروط التي يذكرها الفقهاء لتعين الجهاد على من دهم العدو دار إسلام مقاربة لدارهم ما يلي:

أولاً: أن يكون المجاوِر مكلفًا بالجهاد، فقد ثبت في حديث ابن عمر المتفق عليه أنه قال: «عُرِضْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يُجِزْني»[٤٥]، والجهاد في أُحُد كان جهاد دفع للعدو القاصد للمدينة، كما ذكر غير واحد من أهل العلم[٤٦]، ومع ذلك لم يأذن النبي صلى الله عليه وسلم للصبيان في تلقيه، وكذا غيرهم من غير أهل القتال، فاعتُبر في هذا ضعف الخِلْقة.

ثانيًا: ألا يكون من أهل الأعذار؛ لعموم قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩١]، وقد كان ذلك في تبوك والقتال متعين عليهم لاستنفار الإمام، ولذا ثُرِّب على الثلاثة الذين خلفوا، في سياق الآيات بعدها. وهذا نص في اعتبار العذر بالضعف، وإن كان الجهاد واجبًا بالجملة.

ثالثًا: أن لا تقتضي المصلحة بقاءه، ويتأكد هذا

(٣٨) الفتاوى الكبرى (٥٣٩/٥).
(٣٩) مراتب الإجماع ص١٢٢.
(٤٠) ينظر في هذا المعنى المعيار المعرب للونشريسي (٢٠٧/٢-٢٠٩).
(٤١) ذهب بعض أهل العلم إلى أنها منسوخة بآية التوبة (٧٠)، وفي هذا نظر.
(٤٢) كما في حديث بريدة بن الحصيب عند مسلم (١٣٥٦/٣) رقم (١٧٣١)، وانظر كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، باب فرض العطاء لأهل الحاضر وتفضيلهم على أهل البادية ص٢٩٠-٢٩١.
(٤٣) يُنظر صحيح البخاري ٩٧٤/٢ (٢٥٨١).
(٤٤) ينظر في هذا المعنى الصارم المسلول لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧٣/١).
(٤٥) البخاري (٩٤٨/٢) رقم (٢٥٢١)، ومسلم (١٤٩٠/٢) رقم (١٨٦٨).
(٤٦) انظر الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية الفتاوى (٥٣٩/٥).

بأمر ولي الأمر[47]، وأما من اقتضت المصلحة بقاءه فعليه البقاء، ومن هذا القبيل أمر النبي صلى الله عليه وسلم عليًا بالبقاء في غزوة تبوك[48]، أو غيره في سائر مغازيه صلى الله عليه وسلم، مع أن النفير قد يكون عامًا.

رابعًا: أن لا يخشوا من غزو العدو لبلادهم جراء إعانتهم إخوانهم وإلاّ فلا يلزمهم[49]، وهذا كذلك يتصور في حال الاستضعاف أو قريبًا منها.

خامسًا: أن تكون الكفاية غير حاصلة بغيرهم، أما إذا حصلت الكفاية ففي الوجوب خلاف[50]، والأظهر عدمه لعود الحكم إلى أصله، فلو قدر أن بلدًا من بلدان المسلمين دهمه العدو، فأخبر المجاهدون ذوو الديانة والخبرة بأن كفايتهم العددية حاصلة، وأنهم لا يحتاجون إلى رجال، فالقول بتعين القتال على غيرهم محل نظر، وهذا الشرط يرجع إلى اعتبار نصرة القادر للمستضعف، إذا كان استضعافه لقلة.

سادسًا: أن يملك ما يتموَّل به من نحو زاد لا بد له منه أو يُكفل له، وقد نقل بعض أهل العلم الإجماع على هذا[51]، قال الله تعالى في عذر بعض المتخلفين يوم حنين: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢].

فإذا توافرت هذه الشروط وجبت النصرة وتعين الجهاد بحسب الإمكان.

ومن ألغى هذه الشروط ولم يعتبرها بإطلاق فما أصاب، وكلام الأئمة لا يدل عليه، وإنما أسقطوا اعتبارها في حال واحدة من حالات جهاد الدفع، وهي حال دفع العدو الصائل الداهم للبلاد، فكل أهلها يدافع بما يحقق مصلحة الدفع، وهذا من قبيل دفع العدو الصائل على الأنفس، فهذا الذي نص الأئمة بأنه لا يشترط له شرط فوق القدرة أو الإمكان[52].

أما غيرها من صور جهاد الدفع كالسفر لنصر المسلمين المستضعفين فقد نص شيخ الإسلام وغيره فيها على بعض ما ذُكر، ونقلوا الإجماع على بعضه، وأدلته ظاهرة كما ترى.

وهذا كله إذا لم يكن ثم مانع من واجب النصرة يتهدد الناس، وإلاّ فلا يكلف الله نفسًا إلاّ وسعها، ومن قام به المانع فهو معذور، وحاله كحال مظلوم منعه الحبس من شهود الجماعة، أو العدو من قصد البيت الحرام لأداء ركن الإسلام، وقد منع العدو المحارب في تاريخ الإسلام، منذ عهد النبوة وإلى عهود متأخرة، جماعات فيهم كبار العلماء من قصد البيت الحرام، ولم يُثَرِّب عليهم بذلك أحد، ولاسيما في البلاد الأندلسية والمغربية، ولعل من أشهرهم القاضي عياض.

رعايا دولة الكفر المحاربة لغيرنا من المسلمين في أرضنا، لهم عهد وأمان خاص، بموجب الإذن لهم في دخول البلاد لأغراض مباحة.

وحاصل ما مضى اعتبار حال الضعف والقوة، في إيجاب النصرة، واعتبارها كذلك في العذر بعد الإيجاب.

وكذا الشأن في كثير من مظاهر الولاء والبراء، بل الدين أجمع، غير أن عمل القلب إذا هو بقي اقتضى مباشرة مقتضاه، وظهور لازمه فور زوال موانعه، وحصول القدرة.

هذا والله أسأل أن ينصر دينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(٤٧) ينظر الإنصاف للمرداوي (٤/١١٨).

(٤٨) ينظر صحيح البخاري (٤/١٦٠٢) رقم (٤١٥٤)، ومسلم (٤/١٨٧٠) رقم (٢٤٠٤).

(٤٩) انظر في هذا المعنى: الموسوعة الفقهية (١٦/١٣١)، وكذلك حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٢/١٧٥)، والصاوي على الشرح الصغير (٢/٢٧٤).

(٥٠) انظر الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٥/٥٣٩).

(٥١) ينظر الإنجاد في أبواب الجهاد لابن المناصف ص١٠٧.

(٥٢) وهذه صورة من صور جهاد الدفع، وهي التي يتوجه فيها كلام شيخ الإسلام بعدم شرطٍ شرطٍ، وانظر الفتاوى الكبرى (٥/٥٣٨).



معلومات إضافية

تعريف الولاء والبراء وأهميته في الكتاب والسنة

تعريف الولاء في اللغة:

جاء في لسان العرب: الموالاة - كما قال ابن الأعرابي -: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوًى فيواليه أو يحابيه. ووالى فلان فلانًا: إذا أحبه.

والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو: الرب، والمالك، والسيد، والمنعِم، والمعتِق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتَق، والمنعَم عليه. ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة.

والوَلاية - بالفتح - في النسب والنصرة والعتق.

والموالاة - بالضم - من والى القوم. قال الشافعي في قوله صلى الله عليه وسلم (من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه) يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١].

والموالاة ضد المعاداة، والولي ضد العدو، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٥].

قال ثعلب: كل مَن عبَد شيئًا من دون الله فقد اتخذه وليًّا. وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وليّهم في نصرهم على عدوهم، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم، وقيل: وليهم أي: يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم.

والولي: القرب والدنو. والموالاة: المتابعة.

والتولي: يكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتباع. قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨]. أي: إن تعرضوا عن الإسلام.



وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]. معناه من يتبعهم وينصرهم.

وقال صاحب (المصباح المنير): الولي فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويكون الولي: بمعنى مفعول، في حق المطيع، فيقال: المؤمن ولي الله. ووالاه موالاة وولاء: من باب (قاتل) أي تابعه.



تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي:

الولايــة هي النصــرة والمحبة والإكرام والاحــترام والكون مع المحبوبين ظاهــرًا. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا.

تعريف البراء في اللغة:

قــال ابــن الأعرابي: برئ إذا تخلص، وبرئ، إذا تنزه وتباعد، وبرئ: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾[التوبة: ١]. أي إعذار وإنذار.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر: إن يوسف قد سأل العمل، فقال أبو هريرة: إن يوســف مني بريء، وأنا منه براء. أي بريء عن مســاواته في الحكم، وأن أُقاس به، ولم يُرِد براءة الولاية والمحبة؛ لأنه مأمور بالإيمان به، انتهى من النهاية.

والبراء والبريء سواء.

وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر.

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي:

هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

شرح تعريف الولاء والبراء:

قال شــيخ الإســلام ابن تيمية: الولاية: ضد العداوة: (البغض والبعد).. والولي: القريب، يقال: هذا يلي هــذا: أي يقرب منه، ومنه قوله صلى الله عليه وســلم «ألحقوا الفرائــض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» أي لأقرب رجل إلى الميت.

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويســخطه ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معاديًا له. كما قال تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[الممتحنة: ١].

فمــن عــادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه، ولهذا جــاء في الحديث «ومن عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة».

ومســمى الموالاة (لأعداء الله): يقع على شــعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإســلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات. ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين، ونهــى عــن موالاة الكافرين كلهم من يهــود ونصارى وملحدين ومشــركين وغيرهم كان من الأصول المتفق عليها بين المســلمين: أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشــرعية تجب محبته وموالاته ونصرتــه، وكل مــن كان بخلاف ذلك وجــب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته، وجهاده باللســان واليد بحسب القدرة والإمكان.

وحيث إن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض، فإن أصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله.

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا».

وإذا كان حبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس في زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا، وأن ذلك لا يجدي على أهله شيئًا، وهذا في القرن الذي هو خير القرون: فجدير بالمؤمن أن يعيي ويعرف من يحب ومن يبغض، ومن يوالي ومن يعادي، ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أَوَاقفٌ هو في صف الشيطان وحزبه، أم في صف عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون؟ وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة!

وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا - كما قال الصحابي الجليل عبد الله بن عباس- فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العَرَض الزائل، وحينئذ لا يكون للأمة شوكة ومَنَعة أمام أعدائها.

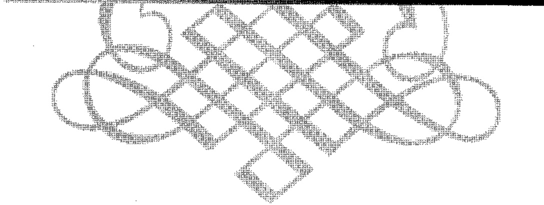
وفي عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس في الأغلب على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا. ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله، والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه، والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

المصدر

- الشيخ محمد بن سعيد القحطاني، الولاء والبراء، (من صفحة ٨٩ حتى ٩٤).







تصورات غربية للشخصية المسلمة

أ. بشير عبد الفتاح

(باحث سياسي وصحفي بجريدة الأهرام)

ملخص البحث

أفضى فشل الغرب الذريع في التخلص مما اعتبره تهديدًا أو خطرًا إسلاميًا على مدى قرون مضت إلى ابتكار استراتيجيات وآليات جديدة للحرب ضد الإسلام والمسلمين فسعى لتشويه الدين الإسلامي ذاته، والنَّيْل من ثبات المسلمين على عقيدتهم عبر حرب فكرية ضروس مدعومة بآلة إعلامية جبارة ترتكز على أسس صلبة من الدعم العسكري والاقتصادي غير المحدود.

وكان لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، دور بارز في إعادة تشكيل ملامح وأدوات الحرب الغربية ضد الإسلام، الذي يشكل ممانعة حضارية تُصَعِّب عملية احتواء الأمة الإسلامية ضمن مخطط الهيمنة الغربي.

ومن أجل تنفيذ استراتيجيته الرامية إلى تغيير الإسلام والمسلمين تبنى الغرب آليات عديدة، ومن أبرزها العمل على إحلال القيم الغربية محل القيم الإسلامية، والاعتماد على عناصر مسلمة تقيم في الغرب للترويج لقيمه وأفكاره، أو تجنيد عناصر مسلمة موجودة في البلاد العربية والإسلامية، إضافة إلى دعم التوجهات والمنظمات الإلحادية.

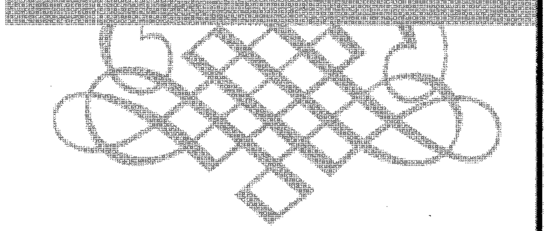
كما انطلقت الدعوة الغربية لتجديد الخطاب الديني الإسلامي بجانب تحرك غربي جارف لفرض ما أُسمي بالإصلاح أو التطوير الديني على المسلمين والإسلام كوسيلة مزعومة لعلاج التطرف والإرهاب، ولأهمية المؤسسات الدينية الإسلامية كرافد من روافد تعليم الأمة وتوجيهها دينيًا فقد سعى الغرب إلى النيْل منها.

كما عمل الغرب على وضع مخطط للنيل من مصداقية وأهمية الحديث النبوي الشريف، وتخويف العالم من الإسلام؛ حتى يصبح المسلمون محاصرين بضغوط فكرية ونفسية هائلة.

بيد أن الطريق ليس ممهدًا أمام هذه المخططات التي تعاني من نقاط ضعف عديدة، وقد ظهرت بالفعل دلائل عدة على فشل الحرب الأمريكية الغربية ضد الإسلام والمسلمين.

ولا يعني تعثر أو فشل الحرب الفكرية الغربية ضد الإسلام والمسلمين أن يقف العالم الإسلامي مكتوف الأيدي، وإنما يتعين على المسلمين عدم التقاعس عن الصمود والمواجهة، وثمة وسائل عديدة يمكن من خلالها التصدي للمخطط الغربي الرامي لتغيير الإسلام من خلال حرب الأفكار، يتجلى أبرزها في تبني استراتيجية ثلاثية الأبعاد، يضطلع خلالها الفرد المسلم، والحكومات المسلمة، والمسلمون في بلاد الغرب كلٌّ بدوره.





أفكار ومقتطفات

- أفضى فشل الغرب الذريع في التخلص مما اعتبره تهديدًا أو خطرًا إسلاميًّا على مدى قرون مضت، برغم ما لديه من أسباب القوة المادية، الصلبة منها والناعمة، إلى أن تبتكر العقول الموجهة لحرب الغرب ضد الإسلام والمسلمين استراتيجيات وآليات جديدة في تلك الحرب؛ عساها تنجح في تحقيق ما عجزت عن تحقيقه صور القوة التقليدية.

- بقدر لا بأس به من الثقة يمكن القول: إن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في الولايات المتحدة الأمريكية، كان لها دور بارز في إعادة تشكيل ملامح وأدوات حرب الغرب بقيادة الولايات المتحدة ضد الإسلام والمسلمين، بحيث أعادت إلى صدارتها مجددًا، الآليات الحضارية والفكرية فيما يمكن أن يسمى بـ «حرب الأفكار»، توخيًّا لتغييرهم وتطويعهم بما يتماشى ومصالح الغرب وتوجهاته.

- يبرر المعسكر الغربي حربه الفكرية ضد الإسلام والمسلمين بذريعة معلنة مؤداها أن مبادئ الإسلام باتت بيئة مواتية لتخريج الإرهابيين والمتطرفين الذين يشكلون خطرًا على أمن العالم، ويهددون استمرار الحضارة الإنسانية، التي يسهم فيها الغرب بقسط وافر.

- عكفت المراكز الفكرية الغربية المهتمة بشئون الإسلام والمسلمين على تقديم الدراسات والتوصيات لحكومات أوروبا والإدارة الأمريكية بغرض توجيه المعركة الفكرية مع العالم الإسلامي.

- أسفر شعور الغرب بالتميز والاستعلاء على باقي البشر عن اعتقاد بأن قيمه هي الأقدر على تحقيق تقدم البشرية واستقرارها، وحماية العالم من الإرهاب وقوى الشر، الأمر الذي عزز فكرة المركزية الأوروبية، ودفع الولايات المتحدة وأوروبا إلى إضفاء مسحة من الكونية والإلزام الدولي على قيمهم عن طريق العولمة والاتفاقيات الدولية الملزمة.

- وضعت الإدارة الأمريكية منهاجًا وخططًا للإسلام العادي أو التقليدي، وذهب البعض إلى تسميته «الإسلام الروحي»، وألحقت هذه الخطط بجملة من النصوص والوثائق والبرامج العملية المتنوعة فيها حذف لكثير من الأحكام الإسلامية الخاصة بالجهاد وأحكام القتال، وما يتعلق بالكراهية ضد المشركين واليهود وأحكام أهل الذمة.

- يُظهر دعم الغرب للملحدين والمرتدين من المسلمين تناقضًا فجًّا في التعاطي الغربي مع الإسلام والمسلمين، ففي الوقت الذي يضطهدهم ويقيد حرياتهم ولا يعترف بهم لا لشيء سوى أنهم مسلمون، تجده يقدم الدعم والمساندة والحماية للمرتدين من المسلمين أو من يهاجمون الإسلام والمسلمين، ويستخدمهم كحراب يقاتل بها الإسلام والمسلمين، وذلك بذريعة حرية العقيدة وحرية التعبير، وبزعم تحديث الإسلام وعصرنته.

- انطلقت الدعوة الغربية لتجديد الخطاب الديني الإسلامي لتكون الذراع الداخلي للتحرك الخارجي ضد الإسلام والمسلمين، ومن هنا جاء غموضها وإبهامها وعدم وضوحها المتعمد.

- تأتـي الهجمـة على نظام التعليم الديني الإسـلامي بمناهجه ومحتواه وأهدافه ضمن اسـتراتيجية الغرب لتغيير عقل المسـلمين، وبنية الإسـلام نفسـه باعتبار ذلك النظام الوسيلة التي يتواصل بها الديـن، وينتقـل عبر الأجيال، والأداة التي توجِّه الدعوة الإسـلامية، وترسِّـخ لهـذا الدين في بنية المجتمعات الثقافية والفكرية والشعورية.

- يجـري الآن في عـدد من الدول الإسـلامية تدريب الأئمـة والخطباء ورجال الديـن على الاعتدال والتسامح حيال الغرب ضمن مشروع غربي أُعِدَّ لهذا الغرض.

- لما كانت محاولات تشويه القرآن الكريم وتحريفه والطعن فيه لا تلقى استجابة لدى غالبية المسلمين؛ بسـبب الإيمـان القاطع لدى كل مسـلم بأن مُنَزِّل الكتاب قد تكفَّـل بحفظه، فقد عمد المخطط الغربي إلى التركيز على المناوشـة حول تفسـير بعض الآيات؛ ولما لم يجد ذلك محقِّقًا لأهدافه فقد عـرج إلى وضع مخطـط للنيل من مصداقية وأهمية الحديث النبوي الشـريف، معتمدًا في ذلك على الأميَّة المتفشية في أوساط المسلمين وعدم وعي الكثير من المسلمين بقضايا الحديث النبوي.

- انتشـرت «فوبيا» الإسـلام أو جنـون الخطر الأخضر، أو إرهاب الإسـلام أو الفزع من المسـلمين وكرههـم في الولايـات المتحدة وأوروبـا منذ عقدين من الزمان؛ حيث أسـهمت وسـائل الإعلام الغربية عن قصد في تأجيج مشـاعر التوجس عند الغربيين بأن الإسـلام السـني لا يسـتطيع أن يتعايـش مع غيره من الأديـان والثقافات، وركزت آلة الدعاية الغربية على تصوير الإسـلام بأنه دين متحجر ويتسم بالوحشية والقسوة.

- هناك دوائر غربية رسمية ودينية تفتعل «الإسلاموفوبيا» وتغذيها بغية استثمارها سياسيًّا. فالخوف المرضي من الإسلام لم يعد مجرّد خوف تلقائي لأسباب تاريخية وثقافية، بل أصبح يُصنع صنعًا، ليُستخدم في تحقيق أغراض محددة.

- بالرغم من التدبير المحكم والدقيق والمكلف، الذي يحيط باستراتيجيات حرب الأفكار الغربية ضد الإسلام والمسلمين، إلا أنها تعاني من نقاط ضعف عديدة ربما تُقَلِّص من فرص نجاحها.

- يجـدر بالدول الإسـلامية مجتمعـة العمل من أجل حماية أطـراف الأمة الإسـلامية ودعمها دينيًّا واقتصاديًّا بالتزامن مع حماية مركزها، لاسـيما أن الأطراف سـتكون الهدف المقبل للمخطط الغربي، كما أن حماية الأطراف هي حماية للمركز.

- إن حرب الأفكار الغربية ضد الإسـلام والمسـلمين قد أحيت الغيرة والحمية لدى الأمة، وأصبح عامـة المسـلمين يتطلعـون إلى الذود عن دينهم، غير أن أي تحرك إسـلامي على هذا الدرب يجب أن يبنى على «فقه النصرة»؛ حتى لا تصبح نصرة الإسـلام مجرد شـعار عاطفي، أو دثار خارجي لا تأثير له في الواقع، أو ردة فعل متهورة تضر بالإسـلام والمسـلمين، وهنا يبرز دور العلماء وروّاد الصحوة وصناع التغيير في الأمة لترشيد الرؤى وتنوير الطريق.

تصورات غربية للشخصية المسلمة

أ. بشير عبد الفتاح : باحث سياسي وصحفي بجريدة الأهرام

أفضى فشل الغرب الذريع في التخلص مما اعتبره تهديدًا أو خطرًا إسلاميًّا على مدى قرون مضت، برغم ما لديه من أسباب القوة المادية، الصلبة منها والناعمة، إلى أن تبتكر العقول الموجّهة لحرب الغرب ضد الإسلام والمسلمين استراتيجيات وآليات جديدة في تلك الحرب؛ عساها تنجح في تحقيق ما عجزت عن تحقيقه صور القوة التقليدية، فكان الجنوح باتجاه تشويه الدين الإسلامي ذاته، والنَّيْل من ثبات المسلمين على عقيدتهم، وتمسكهم بوحدتهم؛ من خلال تغيير الإسلام والمسلمين في آنٍ، عبر حرب فكرية ضروس مدعومة بآلة إعلامية جبارة ترتكز على أسس صلبة من الدعم العسكري والاقتصادي غير المحدود.

أولاً: حرب الأفكار:

بقدر لا بأس به من الثقة يمكن القول: إن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في الولايات المتحدة الأمريكية، كان لها دور بارز في إعادة تشكيل ملامح وأدوات حرب الغرب بقيادة الولايات المتحدة ضد الإسلام والمسلمين، بحيث أعادت إلى صدارتها مجددًا، الآليات الحضارية والفكرية فيما يمكن أن يسمى بـ «حرب الأفكار»، توخيًا لتغييرهم وتطويعهم بما يتماشى ومصالح الغرب وتوجهاته. فإذا كان الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون قد أكد في سبعينيات القرن المنصرم «أنّ مفتاح نجاح السياسة الأمريكية حيال العالم الإسلامي يكمن في التعاون الاستراتيجي مع المسلمين التقدّميين فقط»، فقد أعلن الرئيس بوش قبل خمس سنوات «أن بلاده تحارب في جبهات مختلفة: عسكرية واقتصادية، وسياسية وفكرية»، وبدوره وضع دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع السابق، أسس الحرب ضد الإرهاب، واعترف بأن «الحرب الفكرية» جزء منها، مُعْلِنًا أن بلاده تخوض حربًا فكرية مثلما تخوض حربًا عسكرية، وتؤمن إيمانًا قويًّا بأن فكرها لا منافس له».

ويبرر المعسكر الغربي حربه الفكرية ضد الإسلام والمسلمين بذريعة معلنة، مؤداها أن مبادئ الإسلام باتت بيئة مواتية لتخريج الإرهابيين والمتطرفين، الذين يشكلون خطرًا على أمن العالم، ويهددون استمرار الحضارة الإنسانية، التي يسهم فيها الغرب بقسط وافر. أما الدافع غير المعلن لتلك الحرب فيكمن في أن الإسلام يشكل ممانعة حضارية تصعِّب عملية احتواء الأمة الإسلامية ضمن مخطط الهيمنة الغربي، وفي القلب منها مشاريع الأمركة.[1]

من هنا يسعى الغرب إلى اختراق الإسلام، وبثّ الفُرْقة بين المسلمين؛ بغية تقويض الإسلام «المتشدد»،

(١) جريدة الشرق الأوسط، ١/٤/٢٠٠٧م.

الـذي يـرون أنه يغذي مشـاعر العداء للغـرب، ويعزز الممانعة الإسـلامية لتغريب المسـلمين، ويفرز الإرهاب والتطرف، ويحارب الحداثة والمدنية، ودعم الإسـلام المعتدل الليبرالي، على أن يحتفظ الغرب بحق احتكار تصنيـف المسـلمين مـا بـين متطرفـين أو معتدلـين، وتحديد الأسـس التي يتم بناء عليهـا هذا التصنيف؛ كيما يتسـنى لـه التوصل إلى صيغ مختلفة لإسـلام مقبـول من قِبَلـه، ومتوافق مع مصالحه كالإسـلام «الحداثـي أو الليبرالـي»، أو«العلمانيـة المؤمنـة» أو «الإسـلام العلماني»، أو «الإسلام المعتدل»، أو كما حاول بعض الكُتّاب في الأوسـاط الإسـلامية وصفه مستعيرين تعبير سيد قطب «الإسلام الأمريكي».[٢]

وتوخيًـا منها لبلوغ ذلـك المقصد، عكفت المراكز الفكرية الغربية، المهتمة بشـئون الإسلام والمسلمين، على تقديم الدراسـات والتوصيات لحكومات أوروبا والإدارة الأمريكيـة بغرض توجيه المعركة الفكرية مـع العـالم الإسـلامي، حتـى انصبـت مخرجاتها في اتجاهـين فكريين يؤكدان على المواجهة، ولكنهما يختلفـان حول طريقـة إدارة هذه المواجهـة؛ حيث يرى الاتجـاه الأول أنه يمكن إشـراك بعض الإسـلاميين مـن المعتدلين ضمن آليات الحكـم والتأثير في العالم العربي والإسـلامي؛ بشـرط موافقتهـم الكاملة على اللعبة الديمقراطية واشـتراكهم بها، والتأكيد على التسليم بقواعد تلك اللعبة ونتائجها.

ومن المراكز الفكرية الهامة التي تتبنى هذا الاتجاه مركز كارنيجي، ومركز بروكينجز.

أمـا الاتجاه الثانـي، فيرى ضـرورة مواجهة الخطر الإسلامي من خلال تحجيم مؤسسات العمل الإسلامي، ووصمهـا بالإرهاب والتطـرف وإقصائها -ما أمكن- عـن الحياة العامة وقنوات التأثير الفكري والإعلامي، ومن أهم المراكز الفكرية التي تتبنى هذا التصور، مؤسسـة «راند»، وهي أحد أهم المؤسسـات الفكرية المؤثرة على صناعة القرار في الولايات المتحدة، خاصة فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط.[٣]

وقد أعدت ونشرت مؤسسـة «راند» خلال السنوات القليلة الماضية عددًا من التقارير تتضمن استراتيجيات مختلفـة لإدارة الصـراع مع العالم الإسـلامي، كان آخرهـا في العـام ٢٠٠٦م حـول «بنـاء شـبكات مـن المسـلمين المعتدلين». حيث تنطلق الدراسة من فرضية أساسـية مفادها: أن الصراع مع العالم الإسـلامي هو بالأسـاس «صراع أفكار»، ما يفـرض على الولايات المتحـدة توفـير المسـاندة للإسـلاميين المعتدلين، من خـلال بناء شـبكات واسـعة، وتقديم الدعـم المادي والمعنـوي لهم؛ لبناء حائط صد في مواجهة الشـبكات الأصولية.

وتضـع الدراسـة «خارطـة طريق» يمكـن للولايات المتحـدة السـير عليهـا مـن أجـل خلـق أجيـال مـن الإسـلاميين المعتدلـين، يمكـن من خلالهـم مواجهة التيـارات الأصوليـة. وتوصـي بإمكانيـة الاسـتفادة في بنـاء هـذه الشـبكات من تجربـة الحـرب الباردة مع الاتحاد السـوفييتي السـابق طيلـة النصف الأخير مـن القـرن الماضي، حينمـا حاربت الولايـات المتحدة الاتحاد السـوفييتي السـابق من خلال بناء شـبكات من المتحالفين والشـركاء داخل البلدان الاشتراكية والشـيوعية، عبر اسـتخدام كافة الوسـائل بما فيها الأنشـطة الخفيـة لوكالـة الاسـتخبارات المركزيـة الأمريكية.

وتشـير الدراسـة إلى أن نقطة البدء الرئيسة في بناء شبكات من الإسـلاميين المعتدلين تكمن في تعريف وتحديد هوية هؤلاء الإسـلاميين، اسـتنادًا إلى معايير محددة تتمثل في:

القبول بالديمقراطية الغربية، ورفض فكرة الدولة الإسـلامية التي يتحكـم فيها رجال الديـن. والقبول بالمصـادر غـير المتعصبة في تشـريع القوانين، واحترام حقوق النساء والأقليات الدينية، ونبذ الإرهاب والعنف غير المشروع.

كما تقترح ثلاثة قطاعات مهمة في العالم الإسلامي قـد تمثـل نواة جيدة لبناء شـبكات من الإسـلاميين المعتدلين من أجل مواجهة المتطرفين الإسـلاميين هي: العلمانيـون، والإسـلاميون الليبراليـون، والمعتدلـون

(٢) تم تداول تعبير «الإسلام المعتدل» و«الإسلام الليبرالي» في مصادر غربية عدة، وورد في خطابات لبول وولفويتز. كما تحدث تشارلز كورزمن عن «الإسلام الليبرالي».

(٣) د. باسم خفاجي، «استراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام.. قراءة في تقرير راند ٢٠٠٧»، المركز العربي للدراسات الإنسانية، ٢٠٠٧م.

التقليديون، بما فيهم المتصوفة. وتدعو الدراسة إلى التركيز على الأطراف في الصراع مع العالم الإسلامي، والبعد عن المركز لصعوبة تحقيق انتصارات حقيقية في هذه المرحلة في دول المركز، ويعني به العالم العربي، وأن يتم عكس مسار الأفكار الحالي الذي يتحرك من المركز نحو الأطراف، بحيث ينطلق من الأطراف نحو المركز.[٤]

ثانيًا: أسلحة الغرب في حرب الأفكار:

تبنى الغرب آليات عديدة من أجل تنفيذ استراتيجيته الرامية إلى تغيير الإسلام والمسلمين ومن أبرزها:

إحلال القيم الغربية محل القيم الإسلامية:

أسفر شعور الغرب بالتميز والاستعلاء على باقي البشر عن اعتقاد بأن قيمه هي الأقدر على تحقيق تقدم البشرية واستقرارها، وحماية العالم من الإرهاب وقوى الشر، الأمر الذي عزَّز فكرة المركزية الأوروبية ودفع الولايات المتحدة وأوروبا إلى إضفاء مسحة من الكونية والإلزام الدولي على قيمهم عن طريق العولمة والاتفاقيات الدولية الملزمة كتلك التي تتمخض عن توصيات فعاليات دولية تناقش أموراً اجتماعية وثقافية وسياسية مثل مؤتمرات: السكان بالقاهرة، المرأة ببكين، والتنمية وحقوق الإنسان بكوبنهاجن وغيرها؛ لتعميم وفرض قِيَمه وأفكاره الخاصة بالمرأة والأسرة والعلاقات الثقافية والإنسانية على شعوب العالم، متجاهلاً الفوارق الحضارية والخصوصيات الثقافية لكل جماعة بشرية، خصوصًا العالم الإسلامي، الذي يرتأون أن دوله لا تزال في دائرة التخلف والرجعية حتى باتت مصدر قلق للحداثة والمدنية. وقد أكدت وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس على هذا الدور الغربي وما ينشره من قيم غربية غير قابلة للتفاوض حولها كالخطاب الحر، والعدالة المتساوية، واحترام المرأة، والتسامح الديني، ومحدودية سلطة الدولة، مُلَمِّحة إلى أنه لا يحق للعالم الإسلامي المساهمة في وضعها أو تحديد أي قيم مشتركة مع الغرب في إطار بناء العولمة على أسس التعايش السلمي والتعاون الإيجابي مع إيجاد اتفاقيات دولية ترسخ قِيَمًا إنسانية من منطلق الحضارات المتنوعة والديانات المختلفة؛ حيث إن الولايات المتحدة ترى من منظورها الحضاري والعقدي أن لها الحق وحدها في إدارة العالم، وأن تفرض على الشعوب قيمها وتصوراتها السياسية والحضارية.

أسلحة الغرب في حرب الأفكار

- إحلال القيم الغربية محل القيم الإسلامية.
- الاعتماد على عناصر مسلمة.
- مزاعم تجديد الخطاب الديني.
- ادعاء تطوير المؤسسات الدينية الإسلامية.
- الحرب على الحديث الشريف.
- تخويف العالم من الإسلام.
- التمويه على الحرب الفكرية بمبادرات إيجابية.

ويرى الغرب أن أزمة الإسلام الحالية تتشكل من مكونين أساسيين: فشل في الازدهار والنجاح، وفشل في التواصل مع الاتجاه العالمي السائد. فقد قبع العالم الإسلامي على امتداد فترات طويلة تحت ظلال التخلف والضعف، وبالرغم من خوضه تجارب كثيرة وعديدة -من القومية إلى العروبة إلى الاشتراكية إلى الثورة الإسلامية- فإنها صبَّت جميعًا في خانة الفشل الذريع؛ وهو ما أسفر عن نشوء حالات الإحباط والغضب التي وقفت سدًّا منيعًا ضد الازدهار والنجاح. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل كان سقوط العالم الإسلامي من خريطة الثقافة العالمية الراهنة هو الفشل الثاني، ومن ثم أصبح هذا العالم معقلاً لتنامي الإرهاب والأفكار الرجعية والهدامة التي تهدد الحضارة الإنسانية ومنجزات الغرب. ومن ثم، فإن الشعوب المسلمة محرومة من الحريات السياسية، وتحتاج إلى من يمنحها تلك الحريات، ولهذا تضطلع

(٤) للمزيد: انظر تقارير مؤسسة راند الأمريكية الأخيرة.

الولايات المتحدة بهذا الدور، ولو اقتضى ذلك استعمال الغزو والحملات العسكرية، على غرار ما جرى في أفغانستان والعراق والسودان والصومال باسم السلام العالمي والديمقراطية والحداثة.(٥)

وقد وضعت الإدارة الأمريكية منهاجًا وخططًا للإسلام العادي أو التقليدي، وذهب البعض إلى تسميته «الإسلام الروحي»، وألحقت هذه الخطط بجملة من النصوص والوثائق والبرامج العملية المتنوعة فيها حذف لكثير من الأحكام الإسلامية الخاصة بالجهاد وأحكام القتال، وما يتعلق بكراهية المشركين واليهود، وأحكام أهل الذمة، وذهبت هذه التوصيات أو التعليمات إلى منع تحفيظ القرآن للأطفال الصغار؛ لأن ذلك يوجّه أفكارهم، ويغسل أدمغتهم في سن مبكرة لا يقدرون، حسب زعمهم، على التمييز، وتوجيه المؤسسات التعليمية والتربوية إلى إخلاء دور الرعاية والحضانة والمراحل التدريسية الأولى للأطفال من الصفة الدينية وإضفاء طابع الحياة المدنية عليها، أو إدماج التعليم الديني في إطار ما يسمى «التربية المدنية»، حتى يتم إعادة تقديم الإسلام للمسلمين بعد تنحية الشريعة الإسلامية، وإلغاء مظاهر الوجود الإسلامي، ووضع العلماء التقليديين والمؤسسات الدينية في مواجهة الحركات الإسلامية، ومنح العلمانيين والحداثيين منابرَ إعلاميةً واسعةً، وإعطاء المناصب الدينية لأصحاب التوجهات الصوفية، ويتوازى مع ذلك موجة إباحية يتم توجيهها إلى الشباب والفتيات، هذا مع تقديم الأحاديث النبوية بقراءة جديدة، يتم من خلالها إلغاء الاعتماد على صحة ما رواه البخاري ومسلم.

الاعتماد على عناصر مسلمة:

حتى تحظى مساعي الغرب لتغيير الإسلام والمسلمين بشيء من المصداقية والتأثير لدى المسلمين، كان عليه الاستعانة بعناصر من جلدة المسلمين أنفسهم لكنهم معتدلون ومتغربون. ولما كان الغرب يعتقد في أن المسلمين الليبراليين والمعتدلين لا يملكون شبكات فعّالة كالتي أنشأها المتطرفون، فقد عمد إلى إنشاء شبكة عالمية للمسلمين المعتدلين بغية نشر الرسائل المعتدلة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولتوفير الحماية للجماعات المعتدلة. وفي هذا السياق، تبنت واشنطن والعواصم الأوروبية عناصر مسلمة تقيم في الولايات المتحدة وأوروبا وتطلق دعوات غريبة من عِنْدِيّات الغرب، كإصلاح الدين وتحرير المرأة وحرية الاعتقاد والمواريث والزواج والعلاقات الجنسية وغيرها، وبدأت بالفعل عناصر من هؤلاء تفد إلى البلاد الإسلامية أو ترسل بكتاباتها وأفكارها إلى المنابر الإعلامية والثقافية وحتى الدينية في تلك البلاد لكي تَجري محاكاة وتبني هذه الأفكار والتصورات؛ باعتبارها النموذج الأسمى للاجتهاد الإسلامي العصري، رغم أنها تلغي الإسلام بطابعها المفرط في العلمنة والتغريب.

وفي تطور موازٍ أخذ الإعلام الغربي يسلط الضوء داخل وخارج البلدان الإسلامية على مفكرين وكُتَّاب يراهم أصحاب باعٍ في إصلاح وتحديث الإسلام، كما طالب الحكومات الغربية بدعمهم ماديًّا وسياسيًّا، حتى يمكن فرض أفكارهم على الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية في البلاد الإسلامية.

ومن أبرز العناصر التي يفسح لها الغرب المجال للقيام بتشويه الإسلام باسم التحديث والاجتهاد والتنوير:

- **آمنة ودود:** وهي أمريكية مسلمة بهائية ذات أصول إفريقية، تعمل أستاذة للدراسات الإسلامية بجامعة الكومنولث في فيرجينيا، وتدعو إلى مساواة المرأة للرجل في كل شيء حتى إمامة الرجال في الصلاة، وهي تحظى بدعم وتقدير السلطات الأمريكية. وقد أقدمت على إمامة تجمع نسائي ورجالي في صلاة الجمعة يوم ١٨ مارس ٢٠٠٦م بمبنى مجاور لكاتدرائية سان جون بمنهاتن، بدعم وحماية من السلطات الأمريكية، التي وفرت لها قاعة للصلاة داخل الكنيسة -بعد أن رفضت المساجد السماح لها بهذه البدعة- وأعانتها بالحماية والتغطية الإعلامية.

ولم يكن هذا الدعم الأمريكي لفكر آمنة ودود بالغ العلمانية والتطرف- الذي سعت إلى ترويجه عبر

(٥) استعملت «بي بي سي» تصنيفين للإسلام: الليبرالي، والتقليدي. ودعا السفير الأمريكي بإندونيسيا «رالف بويس» إلى دعم «الإسلام الليبرالي»؛ عبر إرسال الطلبة المسلمين إلى الجامعات الأمريكية «لتحييد الإسلام الراديكالي» بتخريج طلبة «إسلاميين ليبراليين».

كتبها ومحاضراتها - وليد اليوم، وإنما يعود لسنوات ماضية مثلما يأتي ضمن استراتيجية أمريكية محددة لدعم وتنشيط التيارات الإسلامية الجديدة في أمريكا والمناوئة للمنظمات الإسلامية المحافظة على جوهر الدين الإسلامي الحنيف بشرائعه وتعاليمه الغراء، التي تنأى عن التحريف والشطط وتسمو عن كل زيف أو بدع، حيث عمدت السلطات الأمريكية منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م إلى "محاصرة الإسلام الأمريكي المحافظ" من خلال دعم تأسيس المنظمات الإسلامية الموغلة في العلمانية والتطرف، والتي تتبنى أفكارًا دخيلة على الشريعة مثل إباحة الإجهاض، وزواج المثليين جنسيًا، والعلاقات الجنسية غير المشروعة، ومساواة الرجل بالمرأة في كل شيء، بما في ذلك الإمامة في الصلاة للرجال والنساء. ومن أبرز تلك المنظمات والحركات منظمة «صحوة الإسلام» و«جولة حرية المرأة»، و «اتحاد المسلمين التقدميين بأمريكا الشمالية»، وهي منظمات منحتها السلطات الأمريكية تراخيص التأسيس وتصاريح مزاولة النشاط مقدمًا فيما درجت على التفنن في عرقلة نشاط المنظمات والجمعيات الإسلامية المحافظة، وتشديد الرقابة والقيود عليها، خصوصًا في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

> عمدت السلطات الأمريكية منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م إلى محاصرة "الإسلام الأمريكي المحافظ"، من خلال دعم تأسيس المنظمات الإسلامية الموغلة في العلمانية والتطرف.

- **وفاء سلطان**: وهي طبيبة نفسية أمريكية مسلمة من أصل سوري، تؤمن إيمانًا مطلقًا بأن الواقع المأساوي الذي وصل إليه المسلمون يتطلب إعادة تأهيل الإنسان المسلم عقليًا وفكريًا وتربويًا وأخلاقيًا، بعد أن ارتأت أن الإسلام دين يفرز الإرهاب واضطهاد المرأة. وتجد وفاء سلطان دعمًا من الإدارة الأمريكية حتى إن مجلة «تايم» الأمريكية اختارتها من بين أكثر مائة شخصية هي الأكثر تأثيرًا في العالم جنبًا إلى جنب مع نوني درويش، وعمرو خالد.

- **نوني درويش**: وهي أمريكية من أصل مصري، والدها «مصطفى حافظ» كان أحد قيادات الفدائيين المصريين، وقتلته قوات الغزو الإسرائيلي في حرب ١٩٥٦م، غير أنها تسامحت في دم والدها، وأعلنت تأييدها لليهود والإسرائيليين، وأسست جمعية «عرب من أجل إسرائيل»؛ ردًا على فكرة «إسرائيليون من أجل فلسطين»، كما ألفت كتاب «الآن يدعونني بالكافرة: لماذا رفضت الجهاد لأمريكا وإسرائيل والحرب على الإرهاب». وهي تدافع عن إسرائيل واليهود في مواجهة ما تعتبره إرهابًا من قِبَل العرب والمسلمين، وتجد نوني دعمًا من قبل السلطات الأمريكية واللوبي الصهيوني في أمريكا.[٦]

وإضافة إلى تلك الأسماء، هناك أسماء أخرى عديدة من بينها كمال نعواش وهو أمريكي مسلم من أصول فلسطينية أسس «ائتلاف المسلمين الأحرار ضد الإرهاب» في واشنطن من أجل مقاومة الإرهاب، ومساندة الجهود التي تبذلها الإدارة الأمريكية على ذلك الصعيد. وهو يرى أن ٥٠٪ من المسلمين متطرفون وفاشيون، واتهم المنظمات الإسلامية المعروفة في أمريكا بالتحيز للإسلام الراديكالي. كذلك هناك زهدي جاسر، الذي أسس «المنبر الأمريكي الإسلامي للدفاع عن الديمقراطية».

وكذلك، يدعم الغرب التوجهات والمنظمات الإلحادية كالاتحاد الدولي للادينيين، والذي يضم ٨٥ منظمة لا دينية فرعية في ٣٥ دولة حول العالم يهدفون إلى مناهضة سطوة الأديان على الليبرالية والحريات الفردية وينادون بالعودة إلى الفلسفة الإنسانية، وقد دخل فيه مسلمون مرتدون من أصول إيرانية وعربية، ويدَّعُون أنهم ينادون إلى تحرير الإسلام من إسار السياسة ودعم الحريات الفردية بما فيها حق الاعتقاد. وفي ألمانيا أنشأت مجموعة من المرتدين عن الإسلام من أصول عربية وإيرانية ما يسمى «المجلس الأعلى للمسلمين السابقين في ألمانيا»، والذي تترأسه الإيرانية مينا عهدي الناشطة في مجال حقوق الإنسان وحقوق المرأة، ويهدف إلى التصدي للهيئات الإسلامية. وفي ذات السياق، كشف باحث أمريكي اسمه جيم

---

(٦) طلعت رميح، الليبراليون العرب الجدد.. أداة الاستراتيجية الأمريكية لعودة الاحتلال، سلسلة استراتيجيات، عدد أكتوبر ٢٠٠٥م.

لوب الستار عن إنشاء الكاتب الأمريكي المتطرف دانيال بايبس، المعروف بعدائه للإسلام ومساندته لإسرائيل، معهدًا إسلاميًّا تقدميًّا يمثل أصوات المسلمين الليبراليين في الولايات المتحدة باسم «مركز التعددية الإسلامية» بغرض تشجيع الإسلام المعتدل في الولايات المتحدة والعالم، ومحاربة نفوذ الإسلام المسلح والوهابي المتطرف من خلال وسائل الإعلام، وبالتعاون مع المنظمات الحكومية الأمريكية. ويسعى بايبس لإنشاء مؤسسة أخرى مهمتها مناهضة أنشطة الإسلاميين في الولايات المتحدة. وهدفها الحقيقي هو محاربة الجهود التي تبذلها المنظمات الإسلامية الأمريكية التي يعتبرها تمثل الإسلام الراديكالي.[٧]

ويُظهر دعم الغرب للملحدين والمرتدين من المسلمين تناقضًا فجًّا في التعاطي الغربي مع الإسلام والمسلمين، ففي الوقت الذي يضطهدهم ويقيد حرياتهم ولا يعترف بهم لا لشيء سوى أنهم مسلمون، تجده يقدم الدعم والمساندة والحماية للمرتدين من المسلمين، أو من يهاجمون الإسلام والمسلمين، ويستخدمهم كحراب يقاتل بها الإسلام والمسلمين، وذلك بذريعة حرية العقيدة وحرية التعبير، وبزعم تحديث الإسلام وعصرنته.[٨]

ولم تقتصر مساعي الغرب لتغيير الإسلام والمسلمين على استخدام مسلمين في الغرب فقط، وإنما امتدت لتجنيد عناصر مسلمة موجودة في البلاد العربية والمسلمة على المستويين الرسمي وغير الرسمي، حيث اعتمد الغرب على نماذج مسلمة علمانية متغربة داخل النخب السياسية والفكرية، كما تميل أيضًا إلى تجنيد عناصر مسلمة تدعي الاعتدال والتسامح مع المسلمين، والتعايش مع غير المسلمين، كبعض الدعاة الجدد مثل عمرو خالد، الذي أكد في مناسبات عديدة أن الخطاب الديني الإسلامي يعاني مشكلات كثيرة، ويحتاج للتطوير والتجديد؛ لأنه خطاب غير مناسب للعصر ولا للشباب المسلم هذه الأيام، وكمكافأة له، وضعته مجلة «تايم» الأمريكية ضمن قائمة أكثر مائة شخصية تأثيرًا حول العالم، وبدوره أعلن أنه لا يمانع مصافحة وزير خارجية إسرائيل خلال حفل التكريم المُعدّ لهذا الغرض.[٩]

وكان الهدف الأكبر -وما يزال- من وراء هذه التحركات المحمومة والمتنوعة والواسعة النطاق هو إحداث تغيير جذري حاسم في البنية الفكرية العامة للإسلام عقيدة وشريعة وممارسة بما يوقعه في براثن ثنائية العلمنة والتغريب؛[١٠] ما يساعد بعد ذلك على تأسيس مذهب إسلامي تقدمي جديد على الطريقة الغربية؛ يتضمن قيمًا ومبادئ أقرب ما تكون للمذهب البروتستانتي المسيحي المغْرِق في العلمانية والمادية عبر حركة إصلاح ديني داخل الإسلام؛ بغية جعله أكثر مادية وأميل إلى الإلحاد منه إلى الإيمان والتوحيد. ولا مانع من إشعال الفتنة بين المسلمين لتنزلق الأمة الإسلامية إلى أتون مشتعل من الحروب الدينية على غرار تلك التي أطبقت على المسيحيين في أوروبا في العصور الوسطى.[١١]

مزاعم تجديد الخطاب الديني:

انطلقت الدعوة الغربية لتجديد الخطاب الديني الإسلامي لتكون الذراع الداخلي للتحرك الخارجي ضد الإسلام والمسلمين، ومن هنا جاء غموضها وإبهامها وعدم وضوحها المتعمد. فقد خرجت هذه الدعوة معيبة بسبب المناخ الذي أُطلقت فيه ومصدر وأسلوب طرحها. والأدهى من ذلك أن عملية كتلك أُوكلت للعلمانيين وغير الثقات ممن ينتسبون بشكل واهٍ للعلم الديني، مما يكمل دائرة الشر في مرمى وسياق هذه الدعوة ويفقدها التأييد والمصداقية.

وقد تواكب صدور هذه الدعوة مع تحرك غربي جارف لفرض ما أُسمي بالإصلاح أو التطوير الديني على المسلمين والإسلام؛ كوسيلة مزعومة لعلاج التطرف والإرهاب، اللذين نجح الغرب في وصم المسلمين بهما، إثر مناهج التعليم الديني الخاطئة ومفاهيم الدعوة والفكر المعوجة. لذا شرع الغرب في إصدار التوجيهات

(٧) تحقيق بمجلة الأهرام العربي، ٢٤مارس ٢٠٠٧م.
(٨) انظر مقالة بايبس بصحيفة ذي نيويورك صن، ٢٠٠٤/١١/٢٤م.

(٩) محمد إبراهيم مبروك، عمرو خالد وصناعة نموذج الإسلام الأمريكاني، وكالة الأخبار الإسلامية، ٢٠٠٧/١١/٢٥م.
(١٠) معتز الخطيب، المشروع الأمريكي لتحديث الإسلام، موقع إسلام أون لاين، ٢٠٠٤/٢/٢٣م.
(١١) بشير عبد الفتاح، العالم الإسلامي ..عوامل النهضة وآفاق البناء، تقرير البيان الاستراتيجي الارتيادي السنوي، ٢٠٠٧م، ص٥١٦-٥١٨.

الصارمة لأنظمة إسلامية بتقويض التعليم الديني، أو ضمه إلى نظام التعليم غير الديني، أو فرض مناهج هذا الأخير بدلاً من المناهج الدينية. وتأتي الهجمة على نظام التعليم الديني الإسلامي بمناهجه ومحتواه وأهدافه ضمن استراتيجية الغرب لتغيير عقل المسلمين وبنية الإسلام نفسه، باعتبار ذلك النظام الوسيلة التي يتواصل بها الدين، وينتقل عبر الأجيال، والأداة التي توجه الدعوة الإسلامية وترسخ لهذا الدين في بنية المجتمعات الثقافية والفكرية والشعورية.

وترافق مع تلك الهجمة طرح غربي آخر يدعو إلى فرض نماذج «للإسلام الإصلاحي» على البلدان الإسلامية، اقتداء بالتجربة التركية الأتاتوركية التي ابتدعت «الإسلام العصري العلماني»، الذي يراه الغرب النموذج الوحيد الصالح الآن لإعماله في البلاد الإسلامية؛ بغرض نقلها من التخلف إلى الحداثة، وإدماجها في العولمة، وإنقاذها بالطبع من التطرف والإرهاب. كما طرحت التجربة التونسية العلمانية ممثلة ليس فقط في ممارسات الحكومات التونسية ضد أوضاع الإسلام التعليمية والاجتماعية على مدى العقود الماضية، وإنما كذلك بكتابات بعض الكتاب التونسيين المتفرنسين التي أصبحت في السنوات الأخيرة توصف بالإسلام التقدمي، وتُرَوَّج على اعتبار أنها الوسيلة المضمونة لعلمنة وتغريب الإسلام تحت مسمى إصلاحه وعصرنته.[١٢]

ادعاء تطوير المؤسسات الدينية الإسلامية:

لما كانت المؤسسات الدينية والمعاهد الشرعية والزوايا الصوفية العلمية والمدارس القرآنية في العالم الإسلامي تكتسب أهمية خاصة كرافد من روافد تعليم الأمة وتوجيهها دينيًّا، فقد أولى الغرب أهمية بالغة للنيل منها؛ لأنه يرى فيها بؤرًا لإعداد الإرهابيين والرافضين للغرب، لذا عمد إلى أن يكون لهذه المؤسسات النصيب الأوفى من عملية التغيير. وقد بدأ الاهتمام بتغيير المدارس الشرعية بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م فظهرت حملة قوية لغلق أو تحويل المدارس الإسلامية، ولقد تم في اليمن وحدها غلق أزيد من ٤٠٠ معهد ديني، وفي باكستان تلقت الدولة مساعدة مالية تقدر بـ١٠٠ مليون دولار لإغلاق أكبر عدد من المدارس الدينية، وإطلاق برنامج رقابة على كل المعاهد الشرعية، التي يقدر عددها بسبعة آلاف، تُتَّهم بأنها أخرجت الطالبان، وتم إشراك وزارتي الداخلية والشئون الدينية في متابعة البرنامج والعمل على إدراج وإدماج مواد دراسية أخرى تحمل ثقافة غربية، ويسعى البرنامج في المدى الطويل إلى إدماج المدارس الشرعية في المدارس المدنية.

ويتوقع الخبراء أن ينتقل هذا النهج الغربي إلى الأزهر الشريف، ولن يستهدف التغيير مواقفه فقط، بل سيتعداها إلى إحداث تعديلات على بنيته وسياساته والمنهجية الفكرية التي يتبعها عبر تقطيع جذور هذه المؤسسة الدينية العريقة وإدخال تعديلات على المضامين الدراسية بها ليعاد تكييفها مع التعليم المدني، وبعدها يدرج الجامع الأزهر في إطار التعليم العام، ويبقى الأزهر جامعًا للصلاة فقط. وسيطال الأمر باقي المساجد أيضًا، حيث يتم إعطاء توجيهات إلى المشرفين عليها بتقويم الخطب داخلها، وإزالة كل ما يحرض المسلمين على عداوة الغرب ويغرس فيهم الكراهية، وتقييد الخطاب المسجدي بالخطاب الرسمي للدولة، وإيقاف كل من يتجرأ على إثارة المعارضة للدول الأجنبية خاصة أمريكا. وفي هذا السياق، قام معهد بحوث إعلام الشرق الأوسط، وهو معهد أنشئ عام ١٩٩٨م بهدف تنمية الحوار حول السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، بتحليل خطب المساجد في كل من السعودية والكويت وقطر واليمن، فتراءى له أنها تغذي الإرهاب واللاسامية دونما رقابة رسمية، فأوصى بضرورة وضع برنامج للتغيير في هذه المساجد يقصر وظيفتها على الجانب الروحي التعبدي فقط، وسحبها من ساحة الفعل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وهي الخطة المسماة «تجفيف البويضة»، أي الحرب على الفكر والأسس العقدية لكسر ممانعة العالم الإسلامي للتغيير القادم من الغرب. ويجري الآن في عدد من الدول الإسلامية تدريب الأئمة والخطباء ورجال الدين على الاعتدال والتسامح حيال الغرب ضمن مشروع

---

(١٢) معتز الخطيب، تجديد الخطاب الديني في الزمن الأمريكي، موقع إسلام أون لاين، ٢٠٠٤/٢/٢٣م.

غربي أعد لهذا الغرض.[١٣]

الحرب على الحديث الشريف:

لما كانت محاولات تشويه القرآن الكريم وتحريفه والطعن فيه لا تلقى استجابة لدى غالبية المسلمين؛ بسبب الإيمان القاطع لدى كل مسلم بأن مُنَزِّل الكتاب قد تكفَّل بحفظه، فقد عمد المخطط الغربي إلى التركيز على المناوشة حول تفسير بعض الآيات؛ ولما لم يجد ذلك محقِّقًا لأهدافه فقد عرج إلى وضع مخطط للنيل من مصداقية وأهمية الحديث النبوي الشريف، معتمدًا في ذلك على الأميَّة المتفشية في أوساط المسلمين وعدم وعي الكثير من المسلمين بقضايا الحديث النبوي.

ومن ذلك على سبيل المثال، المساعي الممقوتة لضرب مصداقية الإمام البخاري فيما جمعه من أحاديث؛ حيث تشير المزاعم الغربية إلى «أنه جمع ٦٠٠,٠٠٠ حديث، واستبعدها كلها ما عدا ٧٦٠٠ حديث، وألقى بعضها للتكرار ليبقى منها حوالى ٤٠٠٠ حديث»، ومن ثَم يشكك المتربصون بالحديث النبوي في صدق روايات الإمام البخاري مستندين إلى زعم مؤداه «إذا سمحنا بساعة واحدة لمعالجة كل حديث فإن العمل في هذه الأحاديث يستغرق حوالي ٧٠ عامًا دون توقف، وكل حديث يمكن أن يكون قد تم تتبعه منذ عهد النبي من خلال سلسلة تتكوَّن من ٦ أو ٧ أفراد من أجيال متعاقبة، فكيف يقال: إن البخاري أكمل هذا العمل في ١٦ عامًا؟

وهناك أيضًا تشكيك في روايات الصحابي أبي هريرة وغيره، وتشكيك في صدق أحاديث عديدة، مما لا يتسع المقام للتفصيل فيه؛ بغرض تقويض روافد الإسلام وأصوله.[١٤]

تخويف العالم من الإسلام:

كان من بين آليات حرب الأفكار الغربية ضد الإسلام والمسلمين، تخويف العالم منهما عبر الافتراء عليهما، ونعتهما بأسوأ الصفات حتى يصبح المسلمون محاصرين بضغوط فكرية ونفسية هائلة تجعلهم دومًا في موقف دفاع عن النفس، ومن ثم يقعون فريسة سهلة لتأثير الأفكار والمبادئ الغربية الهادفة لاحتوائهم والنيل من الإسلام. ولقد انتشرت «فوبيا» الإسلام أو جنون الخطر الأخضر، أو إرهاب الإسلام، أو الفزع من المسلمين وكرههم في الولايات المتحدة وأوروبا منذ عقدين من الزمان؛ حيث أسهمت وسائل الإعلام الغربية عن قصد في تأجيج مشاعر التوجس عند الغربيين بأن الإسلام السني لا يستطيع أن يتعايش مع غيره من الأديان والثقافات، وركزت آلة الدعاية الغربية على تصوير الإسلام بأنه دين متحجر، ويتسم بالوحشية والقسوة.

> من بين آليات حرب الأفكار الغربية ضد الإسلام والمسلمين: تخويف العالم منهما؛ عبر الافتراء عليهما، ونعتهما بأسوأ الصفات.

وبعد أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، كان من الطبيعي أن تنشأ وتزدهر ظاهرة «الإسلاموفوبيا» أو «الخوف من الإسلام»، وأن تتحول إلى صناعة رائجة لإنتاج وإعادة إنتاج التمييز ضد الإسلام والمسلمين في كل بلاد الغرب ليصبح التمييز ضدهم واحدة من سمات العصر؛ إذ أكد أحد تقارير منظمة هيومان رايتس ووتش أن حوادث الاعتداء على المسلمين، بل وعلى من يشتبه أنهم مسلمون، زادت بعد أحداث سبتمبر بنسبة ١٧٠٠٪. وفي التقرير الصادر عن اللجنة الرسمية، التي شكلت في بريطانيا من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات ورجال الدين البريطانيين لدراسة الموقف من الإسلام والمسلمين عقب تفجيرات لندن الأخيرة، ورد أن الشائع في الثقافة الغربية أن الإسلام مصدر تهديد للدول والشعوب والحضارة الغربية والسلام العالمي، وأنه يماثل تهديد النازية والفاشية والشيوعية. ويؤكد التقرير أن الفكرة السائدة لدى الغرب هي أن الصراع ضد الإسلام قائم وحتمي، وأن العداء للإسلام وإنكار إسهامه في الحضارة الإنسانية حقيقة

---

(١٣) معتز الخطيب، المشروع الأمريكي لتحديث الإسلام، مرجع سبق ذكره.

(١٤) كمال حبيب، مناهج التعليم الديني في العالم الإسلامي تحت القصف الأمريكي، موقع ندوة البيان الإلكتروني، بدون تاريخ.

في الثقافة الغربية المعاصرة، لا يمكن إنكارها أو تجاهلها.[15]

ويعتمد مروجو «الإسلاموفوبيا» في الغرب على تخويف شعوبه من عواقب انتشار الإسلام هناك، حيث تناقلت وسائل الإعلام يومي ٢٦ و٢٠٠٧/٧/٢٧م ما صدر عن جورج جينزفاين، السكرتير الشخصي لبابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر، من تصريحات حذَّر خلالها من العواقب الوخيمة لانتشار الإسلام في الغرب. وهناك دوائر غربية رسمية ودينية تفتعل «الإسلاموفوبيا» وتغذيها بغية استثمارها سياسيًا. فالخوف المرضي من الإسلام لم يعد مجرّد خوف تلقائي لأسباب تاريخية وثقافية، بل أصبح يُصنع صنعًا، ليُستخدم في تحقيق أغراض محددة أبرزَها المفكر السياسي الفرنسي «فانسون جيسير»، الذي كان من الأوائل الذين استعملوا مصطلح «الإسلاموفوبيا» في فرنسا، حينما أكد أن مرض الخوف من الإسلام في الغرب قد تحول إلى سلاح انتخابي لا يستخدم من قبل اليمين المتطرف فحسب؛ بل من الأحزاب اليمينية عامة، وهذا الخوف يعود من وجهة نظره إلى أن الإسلام أصبح أكثر حضورًا في الحياة العامة بكل بلاد الغرب، وهو ما يُحدِث قلقًا متناميًا في أوساط المتمسكين بهوية أوروبا علمانية كانت أم مسيحية.

ففي الانتخابات التي شهدتها دول أوروبية عديدة مؤخرًا كفرنسا وألمانيا والدانمارك، تنافس المسؤولون والمرشحون البرلمانيون خلال حملاتهم الانتخابية في التحذير من مخاطر «إرهاب إسلامي»، بل والمطالبة بتعبئة «مسيحية» أوروبية في مواجهة ذلك «الخطر». وقد انتقل هذا التكتيك الانتخابي إلى الولايات المتحدة بعد أن أطلق مرشح الرئاسة الأمريكية الجمهوري توم تانكريدو -الذي كان قد هدد سابقًا بضرب مكة والمدينة- إعلانات تلفزيونية وإذاعية في إطار حملته الرئاسية للانتخابات المقررة في نوفمبر ٢٠٠٨م تحذر من أن سياسة بلاده الخاصة بالهجرة تجاه المسلمين يمكن أن تسبب هجمات على الأراضي الأمريكية، وذلك من خلال عرض شخص مسلم يقوم بتفجير مركز تجاري في الولايات المتحدة[16]

التمويه على الحرب الفكرية بمبادرات إيجابية:

وحرصًا منه على أن تؤتي مساعيه لتغيير الإسلام والمسلمين أُكلها بما يخدم مصالحه، يحاول الغرب أن يواري تلك المساعي خلف ستار من المبادرات الإيجابية الشكلية، التي لا طائل من ورائها سوى تخدير المسلمين وتقويض عزائمهم عن التصدي لما يحاك ضدهم، فضلاً عن تحسين صورة الغرب عالميًا، وتعزيز فكرة احترامه لخصوصيات الآخرين، وتمسكه بالدفاع عن قيم الديمقراطية، وحقوق الإنسان وقبول الآخر.

من تلك المبادرات على سبيل المثال: منح بعض الدول الغربية بعض التسهيلات للمسلمين المقيمين فيها فيما يخص الاحتفال بالأعياد الدينية وممارسة بعض الشعائر، وكذا القرار الذي أصدره مجلس النواب الأمريكي، إبّان مأدبة إفطار رمضاني أقامها الرئيس الأمريكي في البيت الأبيض خلال شهر رمضان الماضي، والذي يعتبر الإسلام من أعظم الأديان السماوية التي عرفتها البشرية، ويؤكد على ضرورة دعم الصداقة مع المسلمين واحترامهم، ورفض كافة أشكال الكراهية والتعصب والعنف الموجهة ضدهم في أمريكا والعالم أجمع.[17]

كذلك، استضافت مدينة قرطبة الأسبانية في شهر أكتوبر الماضي ٢٠٠٧م وللمرة الأولى مؤتمرًا لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا حول ظاهرة «الإسلاموفوبيا» وما تستتبعه من عدم تسامح وتمييز ضد المسلمين، وقد أوضح وزير الخارجية الأسباني أن المؤتمر يرمي إلى الاعتراف بحجم المشكلة، وتحليل جذورها وأشكالها، ووضع وسائل لمكافحتها[18]. ثم إقدام بعض رجال الدين المسيحي في أوروبا خلال شهر نوفمبر الماضي ٢٠٠٧م على دعوة رجال دين مسلمين إلى الحوار، واعتذارهم

(١٥) د. محمد يحيى، الفزَّاعة الإسلامية، وكالة الأخبار الإسلامية، ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٧م.

(١٦) د.سعيد اللاوندي، الإسلاموفوبيا .. لماذا يخاف الغرب من الإسلام؟، دار نهضة مصر، ٢٠٠٧م.

(١٧) قرار الكونجرس حول عظمة الإسلام، موقع الخارجية الأمريكية، أكتوبر ٢٠٠٧م.

(١٨) تقرير خبري عن مؤتمر الإسلاموفوبيا بقرطبة، موقع إسلام أون لاين، ٢٠٠٧/١٠/٨م.

أيضًا ولكن بشكل غير رسمي أو موثق للمسلمين عن الحروب الصليبية ضدهم.(١٩)

هذا في حين تشير التقارير الرسمية وغير الرسمية الأوروبية أن أسبانيا هي أقل الدول الغربية تسامحًا حيال الإسلام والمسلمين. وفي مايو ٢٠٠٧م عبَّرت لجنة مكافحة العنصرية وعدم التسامح في مجلس أوروبا عن قلقها من تفشي العنصرية ضد المسلمين في أوروبا، مؤكدة تنامي الأجواء العدائية ضد المسلمين في هذه البلدان، حيث يواجهون تمييزًا صارخًا في التعليم والوظائف والإسكان وغيرها، كما حذَّر تقرير صادر عن مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة من تنامي ظاهرة «الإسلاموفوبيا» والتمييز ضد المسلمين في الولايات المتحدة منذ أحداث ٢٠٠١/٩/١١م.(٢٠)

ثالثًا: تحديات أمام المخطط الغربي:

بالرغم من التدبير المحكم والدقيق والمكلف، الذي يحيط باستراتيجيات حرب الأفكار الغربية ضد الإسلام والمسلمين، إلا أنها تعاني من نقاط ضعف عديدة، ربما تقلص من فرص نجاحها، وتتمثل أبرز نقاط الضعف هذه في أن الغرب قد استلهم في حربه الفكرية ضد الإسلام والمسلمين تجربته السابقة والناجحة في الصراع الأيديولوجي مع ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي، واستحضر نفس الآليات والوسائل، متناسيًا أن المعركة هذه المرة تخص الدين والمعتقد لدى المسلمين، وهو أمر يتجاوز في أهميته ومركزيته لدى المسلمين قيمة ومكانة الأيديولوجية لدى السوفييت، وهو الأمر الذي يفسر الممانعة الهائلة والصلبة من جانب المسلمين للغزو الثقافي الأمريكي والغربي بعكس الاستجابة السريعة من قبل الشباب السوفييتي للأفكار الأمريكية التي تغلغلت في جنبات الكيان السوفييتي حتى أسقطته بغير مواجهات عسكرية مباشرة.

علاوة على ذلك، تعتمد استراتيجيات الغرب على نماذج عربية ومسلمة لا تحظى بثقة أو تقدير ملائمين في الأوساط العربية والإسلامية؛ ما يجعل فرص نجاحها في مهمتها وحشد تأييد الكثيرين لها ضئيلة جدًا، ذلك أن أولئك المتغربين أو العلمانيين، أو حتى من يدَّعون أنهم مسلمون معتدلون مستنيرون، وكذا بعض المسئولين ورجال الدين المتعاطفين مع المشروع الغربي، يفتقدون لثقة غالبية العرب والمسلمين. وهو ما أشار إليه توماس فريدمان، حينما أكد استحالة انتصار الغرب في حربه الفكرية ضد الإسلام والمسلمين؛ بسبب تغييبه لأصوات قوى الاعتدال والوسطية، وعدم القدرة على فهم واستمالة الهوامش البسيطة في المجتمعات العربية المسلمة، وهي الشرائح أو الفئات التي يتوجب إشراكها في أي مشروع تواصلي لتذويب معاداتها كل ما هو أمريكي، وإنهاء عدم ثقتها في النماذج العربية والإسلامية التي تعتمد عليها الاستراتيجية الغربية.

وثمة دلائل عديدة على فشل الحرب الأمريكية الغربية ضد الإسلام والمسلمين برغم ما تتبناه من أساليب شيطانية، وما تتكبده من أموال طائلة وموارد وإمكانات هائلة، يتصدر تلك الدلائل: الانتشار المذهل للإسلام في الغرب منذ أحداث أيلول الأسود الأمريكي في العام ٢٠٠١م وحتى الآن، وما صاحبه من إقبال غربي على فهم الإسلام والقرآن. كذلك اعترف دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع الأمريكي السابق في تصريح له يوم ١٦ فبراير ٢٠٠٦م، بأن أمريكا تخسر حربها الدعائية والفكرية ضد العالم الإسلامي، وطالب بإيجاد وسائل بديلة. كما أكد تقرير أعدَّته هيئة استشارية تابعة لوزارة الدفاع الأمريكية في نوفمبر ٢٠٠٤م، أن أمريكا عجزت عن إقناع العالم الإسلامي باستراتيجيتها الدبلوماسية والعسكرية، وهو ما اعتبره التقرير خسارة لحرب الأفكار حيث رفعت تدخلات أمريكا في العديد من بقاع العالم الإسلامي أسهم القوى المناوئة لواشنطن.

وقد صرح مارك جنزبيرج السفير الأمريكي السابق في المغرب، وأحد الخبراء الأمريكيين المتخصصين في شئون الشرق الأوسط، بأن أمريكا تواجه هزيمة في حرب الأفكار؛ رغم ضخامة الإمكانات التي رصدتها لتلك الحرب، وأرجع تلك الهزيمة لسببين: الأول: أن الغرب ترك الساحة للمتشددين الإسلاميين ليزاحموه. والثاني: أن الغرب لم يساعد حلفاءه بالقدر الكافي في مواجهة هؤلاء المتشددين. ومؤخرًا، صدر

(١٩) تقرير إخباري في جريدة الخليج الإماراتية، ٢٠٠٧/١١/٢٨م.
(٢٠) تقرير إخباري عن التمييز ضد المسلمين في أوروبا، جريدة الشرق الأوسط، ٢٠٠٥/٣/٨م.

للبنتاجون تقرير اهتم بوضع تصور عن كيفية كسب حرب الأفكار ضد ما أسماه «الجماعات المعادية لأمريكا»، نصت خلاصته على ضرورة العمل على إحداث تحول في الاتصالات الاستراتيجية للولايات المتحدة، بعد أن بدأت تخسر معركة الأفكار، مؤكدًا على أن أساليب إدارة بوش كانت فاشلة في إدارة تلك الحرب بشِقَّيْها العسكري والفكري. (٢١)

رابعًا: المسلمون ومواجهة المخطط الغربي

لا يعني تعثر أو فشل الحرب الفكرية الغربية ضد الإسلام والمسلمين أن يقف العالم الإسلامي مكتوف الأيدي معتمدًا فقط على نصر الله لدينه وإتمامه لنوره ولو كره الكافرون، وإنما يتعين عليهم أن يتخذوا من ذلك حافزًا لعدم التقاعس عن الصمود والمواجهة، خصوصًا بعد أن تبين لهم أن كيد الشيطان كان ضعيفًا، مهما اجتمعت له من صور القوة المادية، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾.

وثمة وسائل عديدة يمكن من خلالها التصدي للمخطط الغربي الرامي لتغيير الإسلام من خلال حرب الأفكار، يتجلى أبرزها في تبني استراتيجية ثلاثية الأبعاد، يضطلع خلالها الفرد المسلم، والحكومات المسلمة، والمسلمون في بلاد الغرب كلٌّ بدوره.

فعلى الأفراد، التمسك بأصل الدين ووسطيته، وعدم الانسياق وراء الدعوات والأفكار الدخيلة على صحيح الإسلام، وتلقي الدين من المصادر الصحيحة من أهل العلم والفقه، فضلاً عن الوعي بحقيقة المخطط الغربي ضدهم. وعلى حكومات البلدان الإسلامية، أن تعمل على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في حياة الأمة، ودعم الأخوة الإسلامية لتوحيد صفوفهم وتوعية عامة المسلمين وخاصتهم بحقيقة المخططات الغربية للنيل من الإسلام والمسلمين كيما يتوخوا الحذر والحيطة، ذلك أن مثل هذه التوعية سيكون لها مردود إيجابي في شحذ همم الأمة من أجل التصدي لتلك المخططات وإجهاضها. ويظل حريًا بالدول المسلمة إقامة المشروع الحضاري الإسلامي، الذي تستعيد في ظله الأمة الإسلامية وحدتها وقوتها ونهضتها، وإسهامها البارز في الحضارة الإنسانية، وتقديم هذا المشروع إلى العالم كأداة لتحرير كل المستضعفين من السيطرة والاستغلال الغربي.

كذلك، يجدر بالدول الإسلامية مجتمعة العمل من أجل حماية أطراف الأمة الإسلامية ودعمها دينيًا واقتصاديًا بالتزامن مع حماية مركزها، لاسيما أن الأطراف ستكون الهدف المقبل للمخطط الغربي، كما أن حماية الأطراف هي حماية للمركز؛ فإذا صمدت الأطراف صمد بنيان الأمة، على الأنظمة الحاكمة أن تهرع نحو تصفية خلافاتها مع التيارات والحركات الإسلامية، بغرض توحيد صفوف الأمة في مواجهة حرب الأفكار الغربية، وسد الثغرات التي يمكن أن يخترق الغرب من خلالها أمة الإسلام، ذلك أن عدوان الغرب الفكري لن يكون فقط ضد التيار الإسلامي، وإنما سيشمل الدول التي تتعاطف بأي درجة مع الإسلام أو تتحرج من معاداته فعليًا. (٢٢)

ولما كان البعد الفكري قد غدا هو الموجه لصراع الغرب وحربه ضد الإسلام والمسلمين، فستتعاظم أهمية الأداة الإعلامية في هذا الصراع، ومن ثَم أحسب أن الاضطلاع بالمهام الآنفة على الوجه المطلوب يحتاج إلى استراتيجية إعلامية إسلامية تساعد على بلورة خطاب إعلامي إسلامي موضوعي ومتوازن، يخدم مصالح المسلمين، وينبههم إلى ما يحيط بهم من تهديدات، ويتصدى للخطاب العدائي الغربي ويعيد للإنسان المسلم الثقة في ذاته، والاعتزاز بحضارته وثقافته، وينمي ولاءه للأمة وانتماءه لها، وذلك من خلال دعوته لما يلي: (٢٣)

- التحذير مما يقوم به الغرب من محاولات لاختراق المجتمعات الإسلامية بحجج ومزاعم مختلفة، والوقوف بحزم أمام هذه المحاولات، وحث الحكومات المسلمة على التوسع في التعليم الديني وتنشئة الأجيال المسلمة على الكتاب والسنّة، وأن يكون أي تطوير للمناهج التعليمية مرتكزًا على مصلحة الإسلام والمسلمين، وبمبادرة إسلامية مستقلة عن أي تأثير خارجي.

- إقامة صناعة إسلامية للإعلام والمعلومات؛ بما

(٢١) د.عبد العزيز كامل، حرب الأفكار بين بأس الأمريكيين ويأسهم، مجلة البيان، ٢٠٠٧/٧/١٧م.

(٢٢) د. باسم خفاجي، مرجع سبق ذكره.

(٢٣) د. سليمان صالح، كيف نواجه تحيز وسائل الإعلام الغربية ضد الإسلام؟، مفكرة الإسلام، بدون تاريخ.

يساعد على كسر السيطرة الغربية على تدفق الأنباء في العالم، من خلال إنشاء مراكز للبحوث والدراسات لرصد ما ينشر عن الإسلام والمسلمين، وإنشاء قنوات فضائية تخاطب الغرب والشرق بلغاتهم؛ من أجل إرساء قواعد للتفاهم المتبادل بين المسلمين وغيرهم، والرد على الحملات العدائية. فضلاً عن استثمار مثل هذه الأدوات الإعلامية الإسلامية في الدعوة ونشر الإسلام عالميًّا؛ لأن انتشار الإسلام في الغرب يشكل إجهاضًا لحرب الأفكار التي تشنها حكوماته ضد الإسلام والمسلمين، كما يفند مزاعم الغرب ضدهم.(٢٤)

- الدفع باتجاه انتشال الجمهور المسلم من مستنقع اليأس والإحباط والظن بانسداد آفاق المستقبل، وذلك بإشاعة التفاؤل الموضوعي بتسليط الأضواء على نقاط القوة في الواقع العربي والإسلامي كغنى موروث الأمة الحضاري، وقدرتها الفذة على الصمود، واستعصاء إرادتها على الاستلاب، واستعدادها غير المحدود للعطاء وتحمل أعباء المقاومة مهما كانت ثقيلة. وكذا استلهام العبرة من تاريخ الأمة الحافل على مدى قرون بالانتصارات والإنجازات.

أما المسلمون في بلاد الغرب، فحري بهم أن يتمسكوا بمبادئ الدين الحنيف ووسطيته، وأن ينسقوا فيما بينهم، ولا ينجرفوا وراء الدعاوى المغرضة ويحرصوا على الاندماج في المجتمعات الغربية؛ شريطة عدم الذوبان فيها، والحفاظ على هويتهم الإسلامية. وحري بهم أيضًا مد جسور التواصل مع ذويهم في أوطانهم الأم، وتنسيق الجهود معهم من أجل توسيع دائرة الإسلام والمسلمين حول العالم والتصدي لحملات العداء ضدهم.

وأخيرًا، يمكن القول: إن حرب الأفكار الغربية ضد الإسلام والمسلمين قد أحيت الغيرة والحمية لدى الأمة، وأصبح عامة المسلمين يتطلعون إلى الذود عن دينهم، غير أن أي تحرك إسلامي على هذا الدرب يجب أن ينبني على «فقه النصرة»؛ حتى لا تصبح نصرة الإسلام مجرد شعار عاطفي، أو دثار خارجي، لا تأثير له في الواقع، أو ردة فعل متهورة تضر بالإسلام والمسلمين، وهنا يبرز دور العلماء وروّاد الصحوة وصناع التغيير في الأمة؛ لترشيد الرؤى وتنوير الطريق.(٢٥)

(٢٤) عبد الهادي الزيدي، هل يرفع الإعلام الإسلامي الإثم عن الأمة، الرابطة الإسلامية للإعلام، ٢٠٠٧/٩/١٥م.

(٢٥) من كلمة الشيخ أحمد الصويان بمؤتمر «تعظيم حرمات الإسلام»، الكويت، ٢٠٠٧/١/١٢م، موقع الإسلام اليوم، ٢٠٠٧/١/١٣م.

معلومات إضافية

مؤسسة راند:

هي أكبر مركز فكري في العالم، مقرها الرئيسي في ولاية كاليفورنيا الأمريكية، تقوم مؤسسة راند -التي اشتق اسمها من اختصار كلمتي «الأبحاث والتطوير» أي (Development and Research)- بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، ومن ثم تحليلها وإعداد التقارير والأبحاث التي تركز على قضايا الأمن القومي الأمريكي في الداخل والخارج. يعمل في المؤسسة ما يقارب ١٦٠٠ باحث وموظف يحمل غالبيتهم شهادات أكاديمية عالية، وميزانيتها السنوية تتراوح بين ١٠٠ - ١٥٠ مليون دولار أمريكي.

تعتبر مؤسسة راند إحدى المؤسسات الفكرية المؤثرة بشكل كبير على المؤسسة الحاكمة في أمريكا، وهي تدعم توجهات التيار المتشدد في وزارة الدفاع، وتتولى الوزارة دعم كثير من مشروعاتها وتمويلها، كما ترتبط بعلاقات ومشروعات بحثية مع وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي، وتصب كثير من الدراسات والبحوث الصادرة عن هذه المؤسسة في خانة أنصار مواجهة الإسلام والمسلمين.

ساهمت مؤسسة راند في رسم خطة الحرب الأخيرة على الإرهاب، وتقدمت بدراسة لوزارة الدفاع تقترح فيها ضرب المملكة العربية السعودية واعتبارها العدو الأول في العالم، كما أن فرع المؤسسة في قطر تعمل فيه الباحثة شيريل بيرنارد زوجة مهندس الحرب على أفغانستان «زلماي خليل زاده»، وهي التي قامت بكتابة مشروع الإسلام الديمقراطي، وهو ما عُرف لاحقًا باسم «تقرير راند»، ويعتبر فرع راند في المنطقة العربية بقطر مركزًا مهمًا للمساهمة في إعادة تشكيل المنطقة وفق الرؤية التي تطرحها الإدارة الأمريكية.

تقرير راند ٢٠٠٧م :

أصدرت مؤسسة راند تقريرًا في نهاية شهر مارس من عام ٢٠٠٧م بعنوان «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، وهو تقرير متمم لسلسلة التقارير التي بدأ هذا المركز الفكري في إصدارها لتحديد الأطر الفكرية للمواجهة مع العالم الإسلامي في الفترة التي أعقبت أحداث سبتمبر.

يقدم التقرير توصيات محددة وعملية للحكومة الأمريكية بأن تعتمد على الخبرات التي اكتُسبت أثناء الحرب الباردة في مواجهة المد الفكري الشيوعي، وأن تستفيد من تلك الخبرات في مواجهة التيار الإسلامي المعاصر عن طريق دعم قيام شبكات وجماعات تمثل التيار العلماني والليبرالي والعصراني في العالم الإسلامي، لكي تتصدى تلك الشبكات والجماعات لأفكار وأطروحات التيارات الإسلامية التي يصنفها التقرير بالمجمل على أنها تيارات متطرفة. كما يؤكد التقرير على الحاجة لأن يكون مفهوم الاعتدال ومواصفاته مفهومًا أمريكيًا غربيًا، وليس مفهومًا إسلاميًا.

تركز تقارير مؤسسة راند، وخاصة تقريرها الأخير في عام ٢٠٠٧م، على فكرة المواجهة مع التيار الإسلامي بالعموم من أجل تهميش دوره واحتواء تأثيره، وأحيانًا تميل هذه التقارير إلى الإشارة إلى القضاء



على بعض عناصر هذا التيار ومكوناته، وخاصة تلك العناصر التي تستخدم الخيارات العسكرية في التعامل مع الاعتداءات الأمريكية والغربية على العالم الإسلامي، كما أن تقارير مؤسسة راند ترسخ باستمرار فكرة الفوائد التي يمكن أن تجنيها الاستراتيجية الأمريكية من إشعال الصراعات داخل العالم الإسلامي وتقسيمه، وكذلك فوائد تقسيم شعوب المنطقة إلى: معتدلين في مواجهة متطرفين، وتقليديين في مواجهة عصرانيين أو أنصار الحداثة، وشيعة في مواجهة سُنة، وعلمانيين في مواجهة مسلمين، وعرب في مواجهة غير العرب، وغير ذلك من التقسيمات التي تسعى إلى شق وحدة الأمة في مواجهة الهيمنة الأمريكية والتدخل في شئون دول المنطقة من قبل بعض دول الغرب.

أعد تقرير راند مارس ٢٠٠٧م مجموعة من الخبراء الأمريكيين العاملين بالمركز، ومن أبرزهم أنجل راباسا وهو باحث أكاديمي عمل سابقًا في عدد من المناصب المهمة في كل من وزارة الخارجية الأمريكية ووزارة الدفاع، وهو حاصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد الأمريكية، كما شاركت في إعداد التقرير الباحثة الأمريكية شيريل بينارد -التي ذُكرت سابقًا- والتي عرفت من خلال تقرير راند لعام ٢٠٠٥م حول الإسلام الديمقراطي المدني، وهي تعمل ضمن فريق مؤسسة راند في العالم العربي «دولة قطر»، ولها مواقف وآراء سلبية تجاه الإسلام.

قيمة التقرير من الناحية الاستراتيجية

يكشف تقرير راند عن تحولات ملموسة ومتصاعدة في الحدة فيما يتعلق بالرؤية الفكرية الأمريكية حول التعامل مع الإسلام، وكذلك مع العالم المسلم، ورغم أن التقرير يقدم مقترحات، ولا يُملي أو يقرر سياسات بعينها لصانع القرار الأمريكي؛ إلا أن هناك العديد من العوامل التي تجعل لهذا التقرير قيمة مهمة مثل الجهد العلمي والبحثي المبذول في هذا التقرير الذي استغرق ثلاثة أعوام للانتهاء منه، وقوة أفكار التقرير وسهولة تحويلها إلى برامج عملية، كما أنه من المعروف أن هناك مساندة فكرية قوية لأفكار مؤسسة راند داخل مؤسسة السياسة الأمريكية بصفة عامة، والإدارة الأمريكية على وجه الخصوص.

المصدر:

د. باسم خفاجي، استراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام، قراءة في تقرير مؤسسة راند ٢٠٠٧م،

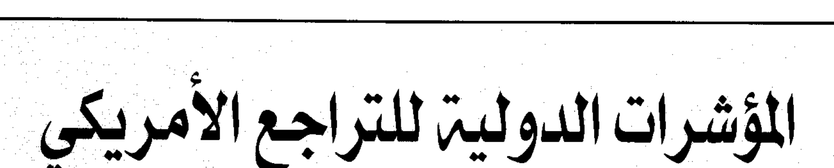
العدد الرابع من سلسلة «رؤى معاصرة»، الصادرة عن المركز العربي للدراسات الإنسانية، مايو ٢٠٠٧م.

الباب الثاني

ملف التقرير «التراجع الأمريكي»

المؤشرات الدولية للتراجع الأمريكي	د. عبد العزيز كامل
واقع ومستقبل المشروع الإمبراطوري الأمريكي	د. مازن النجار
قراءة للواقع الداخلي الأمريكي	د. باسم خفاجي
العراق والتراجع الأمريكي	أ. علي باكير
مستقبل الهيمنة الاقتصادية الأمريكية	أ. ممدوح الولي





المؤشرات الدولية للتراجع الأمريكي

د. عبد العزيز كامل

(عضو هيئة تحرير ومجلس إدارة مجلة البيان)

ملخص البحث

إن الأوضاع الحالية في الولايات المتحدة تشبه إلى حد كبير ما كان عليه الحال في روما القديمة قبل سقوطها وانهيارها، فهناك جوانب فشل داخلية وخارجية لأمريكا، وإخفاق في مجالات التعليم والبيئة والهجرة، بالإضافة إلى الفشل في العراق، فضلاً عن تراجع القيم الأخلاقية والمبالغة في الغرور، والإسراف في الاهتمام بقضايا السيطرة الخارجية، مع شدة الضغط على الناس بالارتفاع الصارخ في الضرائب، وارتفاع تكاليف الرعاية الصحية والديون الداخلية، حتى إن المواطن الأمريكي أصبح يعيش قلقًا متزايدًا على مستقبله ومستقبل أسرته، بخلاف ما كان عليه الأمر قبل عقودٍ قليلةٍ.

ومع أن أمريكا تعاني من موات روحي، فإنها ما زالت مصممة على تصدير قيمها الزائفة إلى العالم بفوهة البندقية، مع أنها مجرد جمهورية انقلبت إلى إمبراطورية.

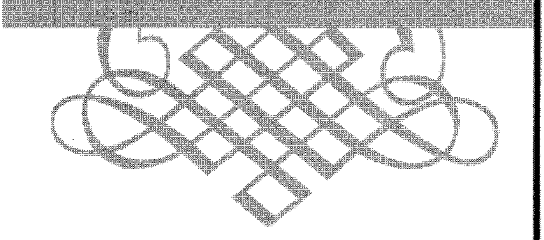
لقد بنت إدارات الولايات المتحدة الأمريكية في السنوات الأخيرة استراتيجيات كثيرة على الكذب والخداع والإيهام، ليس على العالم الخارجي فقط، بل على شعبها نفسه، ولم يكن هذا خطأ رئيس بعينه، أو إدارة بذاتها، بل تكرر ذلك عبر عقود، في سلسلة من الكذب المتواصل، الهادف إلى تحقيق مصالح آنية، لا علاقة لها بالقيم الإنسانية التي يتشدق بها الأمريكيون.

وفي الوقت الذي تتراجع فيه الولايات المتحدة أخلاقيًا وسياسيًا وعسكريًا؛ فإن دولاً وكيانات أخرى تتسابق إلى مزاحمتها إلى موضع الصدارة، أو مشاركتها، والقوى المُرَشَّحَة لمزاحمة أمريكا في زعامة العالم تتمثل في كتلتين هما: الكتلة الأوروبية ممثلة في الاتحاد الأوروبي، والكتلة الآسيوية ممثلة في الصين وروسيا والهند واليابان.

لكن هناك ما يشبه قطبًا دوليًا آخر، يتوقع بعض المراقبين أن يكون له تأثير في مجريات الأحداث وتوازنات القوى في العالم، يجيء الاعتراف به من أطراف غربية وأمريكية، وليس فقط من أطراف إسلامية أو عربية، وهذا القطب هو ما سماه (مايكل وينستين): «حركات الإسلام السياسي والجهادي».

إن التراجع الأمريكي سيصب حتمًا في صالح الأمة الإسلامية، وذلك عندما يستفيد المسلمون من تفاعلاته في المستقبل المنظور، ويمكن للعالم الإسلامي أن يتخطى مرحلة الابتزاز الأمريكي، كما تجاوز مرحلة الهمجية الروسية أيام الاتحاد السوفييتي.





أفكار ومقتطفات

- لا تـزال آثار اسـتمرار الصعـود الأمريكي المتفرد، تدفع أثمانه أمتنا الإسـلامية قبـل غيرها، اجتراء على حرمتها، واختراقًا لحدودها، وانتهاكًا لاسـتقلالها واسـتنزافًا لثرواتها، وإذلالاً وحصارًا وإفقارًا لشعوبها، وحربًا عالمية شاملة تصادر وتطارد شبابها ورجالها، وأصحاب العلم والفكر والدعوة فيها.

- مشـاريع الهيمنـة الخارجية التي مَنَّى الساسـةُ في أمريكا شـعبهم بأن يجـني ثمراتها وحده، قد انقلب شؤمها على ذلك الشعب وحده، حتى وجد نفسه مجنيًّا عليه بدل أن يكون هو الجاني لهذه الثمرات!..

- وصـف (موريس بيرمـان) أمريكا بأنها أرض قاحلـة ثقافيًّا، وأنها تعاني من مـوات روحي، ومع ذلك فإنها مصممة على تصدير قيمها الزائفة إلى العالم بفوهة البندقية، مع أنها مجرد جمهورية انقلبت إلى إمبراطورية..!

- بنت إدارات الولايات المتحدة الأمريكية في السـنوات الأخيرة اسـتراتيجيات كثيرة -وليس فقط تكتيـكات- على الكذب والخداع والإيهام، ليس على العالم الخارجي فقط، بل على شـعبها نفسـه، ولم يكن هذا خطأ رئيس بعينه، أو إدارة بذاتها، بل تكرر ذلك عبر عقود، في سلسـلة من الكذب المتواصل، الهادف إلى تحقيق مصالح آنية، لا علاقة لها بالقيم الإنسانية التي يتشدق بها الأمريكيون.

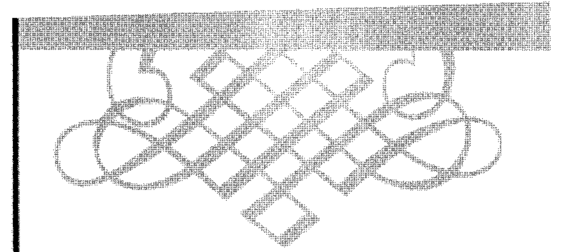
- قفـزت ديـون الدول النامية (المنهوبة الثروات) مـن ٦٢ مليار دولار عام ١٩٧٠م إلى ٤٨٠ مليار دولار عام ١٩٨٠م، ثم زادت عام ١٩٩٦م ٣٢ ضعفًا حتى وصلت ٢٠٠٠ مليار دولار! ثم بدأت الدول الغنية في إسقاط ديون تلك الدول مقابل امتيازات ابتزازية.

- تسـببت ضخامة الديون وفوائدها الربوية، في دفع الاقتصـاد الأمريكي إلى الاندفاع المنتظم إلى حافة الإفلاس، فالديون تزداد حوالي ٤٠٠ مليار دولار سنويًّا فيما يخص الموازنة الداخلية، وتزداد حوالي ٦٠٠ مليار دولار سنويًّا فيما يخص التجارة الخارجية، هذا عدا ما يسمى بـ (خدمة الديون) أي: فوائدها الربوية.

- كان غزو العراق وحروب الخليج قبلها دخولاً في مرحلة (عسـكرة الاقتصاد)؛ حيث كانت تلك الحرب جزءًا من مشـروع اقتصاديٍّ عسـكريٍّ أمريكيٍّ، وبالرغم من أن تلك الحروب كانت لها أوجه أخرى سياسية وحضارية ودينية، إلا أن استشعار أمريكا للخطر الداهم الداخلي عليها من البوابة الاقتصادية؛ جعلها تسارع إلى خوض تلك المغامرات العسكرية.

- يظل قرار غزو العراق عامل استنزاف اقتصاديٍّ وعسكريٍّ للولايات المتحدة، يُسَرِّع عَجَلة تراجعها في هذين المجالين، إضافة إلى الاستنزاف البشريِّ الذي لا يحتمله الشعب الأمريكي.

- إن انتصـارات أمريـكا المزعومة في العقود الأخيرة، لم تكـن إلا انتصارات إعلامية تليفزيونية، ولهذا لم يسـتمر الخداع بها طويلاً، وهو ما تسـبب وسيتسـبب في المزيد من الإحباط المعنويِّ لدى عساكر الشطرنج الأمريكية.



- الوجود العسكري الأمريكي المُكَثَّف في أنحاء العالم فرض على الولايات المتحدة تكاليفَ اقتصادية تَنُوء بأحمالٍ لا تُحْتَمَل، ولا يمكن تحمُّلها إلا بمزيد من المغامرات العسكرية للسيطرة على اقتصاديات أخرى لشعوب العالم، ولهذا فقد دخلت أمريكا في حلقة مُفْرَغَة قد تجعل حروبها للاقتصاد، واقتصادها للحروب!

- ساهمت مبالغة الولايات المتحدة في تضخيم خطر ما وصفته بـ (الإرهاب) في إرهاب العالم من سياساتها؛ حيث لم يَعُدْ أحد في مأمن من غدرها به تحت مسمى «محاربة الإرهاب»، فخصوصيات الشعوب تُنْتَهك، وسيادة الدول تُصَادَر، بل وحدودها الجغرافية في البر أو البحر أو الجو صارت مشاعًا مستباحًا لحملات المداهمة العسكرية أو الأمنية، بحُجَج المحافظة على الأمن والسلم الدوليين!

- كل الكتل السياسية المؤثرة في العالم لم تعد تتحمل الأثمان الفادحة لمجاملة أمريكا في أخطائها، بل صارت تتسقط لها تلك الأخطاء، لعلها تعجل بسقوطها المُنْتَظَر، على الأقل من مكان التفرد على قمة العالم.

- إن الرؤية التي تتوقع تراجع أمريكا عن التفرد بزعامة العالم، صارت شبه متواترة في أنظار الكثير من المحللين غربًا وشرقًا، لكن هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك، وهو احتمال أن يتعرض الاتحاد الأمريكي نفسه لهزات تؤدي إلى تفككه وتفتيته على غرار تفكك الاتحاد السوفييتي.

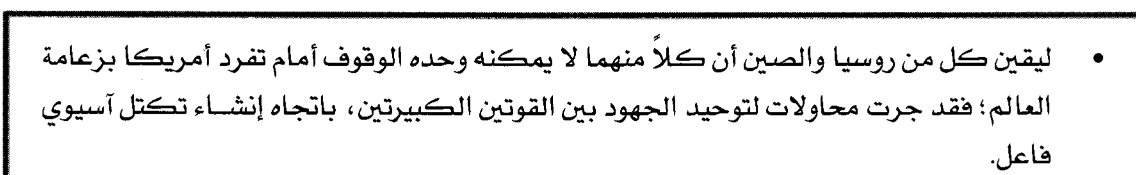
- صار الاتحاد الأوروبي أكبر مانح للمساعدات التي تُقَدَّم للدول الفقيرة؛ حيث تفوق مساعداته ضعف مساعدات الولايات المتحدة، وهي ما يوظفه الاتحاد الأوروبي سياسيًّا واقتصاديًّا لمصلحته.

- مما يعزز احتمالات احتدام المنافسة بين الأوروبيين والأمريكيين -بالرغم من انتمائهم الظاهر إلى ثقافة وحضارة وديانة واحدة- ذلك الاختلاف الجوهري بين الطرفين من الناحية المذهبية، فأمريكا ذات الأغلبية البروتستانتية، لا تنسجم ثقافيًّا مع أوروبا ذات الأغلبية الكاثوليكية، وبخاصة في شِقِّهَا الفاعل، وهو الشق الغربي.

- بدأت بكين في مطاردة النفوذ الأمريكي في بحر الصين الجنوبي ومضيق تايوان، وجعلت من ذلك إحدى استراتيجياتها في المواجهة السياسية والاقتصادية المقبلة مع أمريكا.

- تسعى روسيا إلى إعادة بناء نفسها بناء ذاتيًّا من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، مصرة على استعادة هَيْبَتِهَا المفقودة بسبب خسارتها للحرب الباردة مع الولايات المتحدة، كشرطٍ لا بد منه لاستعادة النفوذ -ولو بشكل تدريجي- في بلدان آسيا الوسطى والقوقاز، ففي تلك المناطق يطاردها نفوذٌ أمريكيٌّ متزايد، يحاول خَلْعَهَا من هناك، كما جرى خلعها من بلدان أوروبا الشرقية.

- العسكرية الروسية لا تزال مهيضة الجناح بعد هزيمتها السابقة في أفغانستان، وتعثراتها اللاحقة في الشيشان، ومثلما تعاني أوروبا اليوم من «الشيخوخة» في الطبيعة السكانية لشعبها؛ فإن روسيا كذلك تشتكي من انخفاض معدلات عدد المواليد، ومن ثَمَّ قلة شريحة الشباب مقارنة بالشيوخ.



- ليقين كل من روسيا والصين أن كلاً منهما لا يمكنه وحده الوقوف أمام تفرد أمريكا بزعامة العالم؛ فقد جرت محاولات لتوحيد الجهود بين القوتين الكبيرتين، باتجاه إنشاء تكتل آسيوي فاعل.

- إذا تلاقت مصالح الصعود الهندي مع نظيريه في الصين وروسيا؛ فإن الهنود قد يجدون أنفسهم أكثر انسجامًا مع عالمهم الشرقي المتطلع إلى وراثة الهيمنة الغربية المسيطرة على العالم منذ عدة قرون.

- بسبب المظالم الواقعة على العالم الإسلامي، وبخاصة فلسطين، وقع زلزال الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، الذي امتدت توابعه من أفغانستان إلى العراق، ليكون التورط الأمريكي هناك هو بداية التراجع الحادّ للولايات المتحدة، ومن ثَمَّ بداية ظهور علامات لنشأة نظام عالمي آخر، ينتقل من نظام القطبية الواحد، إلى نظام القطبيات المتعددة.

- التراجع الأمريكي سيصب حتمًا في صالح الأمة الإسلامية، وذلك عندما يستفيد المسلمون من تفاعلاته في المستقبل المنظور، ويمكن للعالم الإسلامي أن يتخطى مرحلة الابتزاز الأمريكي، كما تجاوز مرحلة الهمجية الروسية أيام الاتحاد السوفييتي، الذي كان كيانه الضخم يعتمد على أجزاء كبيرة من البلدان الإسلامية في آسيا الوسطى.

- الأقطاب المُرَشَّحة للصعود إلى مسرح السياسة الدولية كقوى عظمى، ليست مبرأة من الأطماع فينا أو التآمر علينا، وأحوال المسلمين في أكثر تلك البلدان تدل على ذلك، ومع اضطرار المسلمين لمعاملتهم، فالواجب من الآن إحكام التصورات في طرائق التعاملات معهم.

- العالم الإسلامي سيظل محط أطماع القوى الكبرى، وسيبقى أعداؤه أكثر من أصدقائه، هذه قراءة التاريخ وحقيقة الواقع، ولهذا سيظل هاجس كل قوة متحدة فيما بينها، أن تُبقي على اتحاد المسلمين كإحدى ذكريات التاريخ، ولذلك فإن أعين الأجيال الإسلامية، لا ينبغي أن تغفل عن وضع قضية الوحدة، في مقدمة مشاريعها الاستراتيجية المستقبلية.

المؤشرات الدولية للتراجع الأمريكي

د. عبد العزيز كامل : عضو هيئة تحرير ومجلس إدارة مجلة البيان

أصبحت ظاهرة (التراجع الأمريكي) موضع أبحاث ودراسات عديدة ظهرت في السنوات الأخيرة، وبخاصة بعد الورطات التاريخية التي انزلقت إليها الولايات المتحدة في فترة صعود اليمين الإنجيلي المتحالف مع يهود أمريكا من المحافظين الجدد في عهد جورج دبليو بوش. وفي حين اتسمت بعض هذه الدراسات بالمبالغة في تقدير عمق الأزمة التي تتعرض لها أمريكا إلى الدرجة التي رسمت فيها سيناريوهات للسقوط العاجل القريب؛ فقد ارتسمت على دراسات أخرى علامات المبالغة في تهوين خطر التراجع، اعتمادًا على أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال وستظل هي القوة الأعظم في العالم، ولن تتمكن أيَّة قوة عظمى أخرى من زحزحتها عن كرسيِّ القطبية الواحدة والزعامة المتفردة لعقود طويلة قادمة !

هنا.. تصبح الوقائع المجردة والمعطيات الموثقة والمرصودة على أرض الواقع هي المرجِّح بين الاحتمالات، والموجِّه للاتجاهات. خاصة تلك الوقائع والمعطيات التي رصدها الخبراء والمفكرون والمختصون من داخل الولايات المتحدة نفسها؛ حيث لا يمكن اتهام هؤلاء بترويج إشاعات كاذبة، أو تسويق أماني حالمة، أو أراجيف مغرضة .

سأحاول في هذه الدراسة المختصرة إلقاء الضوء على جوانب تلك الظاهرة: ظاهرة التراجع الأمريكي من زواياه المختلفة، مستشهدًا بكتابات وتصريحات ومقالات كُتَّاب غربيين أمريكيين كُثُر، أظهرت تحليلاتهم أن هناك شبحًا أصبح يخيم على رءوس كثير من النخب الأمريكية، يخوِّف من مستقبل قلق، ويستشرف قادمًا مجهولاً، في ظل سلسلة من التراجعات المتتابعة، التي لم تعد تهدد فقط أحلام ساسة ومفكري أمريكا بـ (قرن أمريكي جديد)، أو بـ (إمبراطورية القرن الحادي والعشرين)، بل أصبحت تشكك في إمكانية بقاء الاتحاد الأمريكي نفسه كيانًا قويًّا ومتماسكًا لزمن طويل قادم .

من حق الأمريكيين أن يهتموا بتتبع تلك الظاهرة، وأن يقلقوا على مستقبل إمبراطوريتهم المتفردة بزعامة العالم؛ التي لم تكمل عقدها الثاني إلا وهي تُهدد بانفراط أطرافها وانفضاض حلفائها، قبل أن تحقق إنجازات حقيقية من أحلامها الألفية.

ومن حق العالم الحالم بجنة العولمة الأمريكية، وفردوسها الديموقراطي، أن يقلق على مستقبله بعد أن ربطه بعجلات تلك الإمبراطورية، التي تقوده إلى مصائر غير معلومة، سواء في بقائها الطويل، أو في انهيارها العاجل .

لكـن الحـق الأكبر والمسـوّغ الأعظـم للاهتمام بأحـوال أمريكا صعـودًا أو هبوطًا ؛ يأتي من عالمنا الإسـلامي، الـذي بنـت الإمبراطوريـة الأمريكيـة فـرص بقائهـا، واسـتمرار ثرائها، وتعدد مراكز قوتها، على اسـتمرار ضعف شـعوبه وفرقتـه، وعلـى ارتهـان حكوماته وتبعيتها ؛ حيث لا تـزال آثـار اسـتمرار الصعود الأمريكـي المتفـرد، تدفـع أثمانـه أمتنـا الإسـلامية قبل غيرها، اجتراءً على حرمتها، واختراقًا لحدودها، وانتهاكًا لاستقلالها واستنزافًا لثرواتها، وإذلالاً وحصـارًا وإفقـارًا لشـعوبها، وحربًا عالمية شاملة تصـادر وتطـارد شـبابها ورجالهـا، وأصحـاب العلـم والفكـر والدعوة فيها.

لـو طلب منا - نحـن الإسـلاميين - أن نكتب عن تحليلاتنـا وتوقعاتنـا لمسـتقبل هـذه الإمبراطوريـة الطاغيـة؛ لقلنـا الكثير ممـا نعرفـه مـن حقائـق شـرعنا وأخبـار ديننا، وخلاصـة تجاربنا عن مصير المسـتكبرين وعاقبة الظالمين، لكن هذه الدراسة، تفضل الوصول إلى نتائج يسـلِّم بهـا الآخرون، تأتي مجـردة علـى ألسـنة مفكريـن ومحللـين وكُتَّاب ومؤرخـين أمريكيين، ممن هالتهم قراءة مسـتقبل إمبراطوريتهم في ظل تداعيات السنوات الأخيرة، التي مثلـت في أنظار الكثيرين منهم مفترق طرق، تغيرت بعده مسارات الصعود الأمريكي إلى وجهتها، وذلك على أصعدة متعددة : منها الحضاري والثقافي، ومنها الاقتصادي، ومنها السياسي. لكني سأبدأ بالجانب الحضاري؛ لأن التراجع فيه يقود ما عداه إلى الوراء.

احتضار حضاري:

سـقوط الإمبراطورية الرومانيـة في القرن الخامس الميلادي، صار شبحًا يطارد أفكار كثيرمن المراقبين للشأن الأمريكي، بعد أن تقمصت إمبراطورية الروم

المعاصرة دورها في التوسع الاستعماري والعلو الكبير، ولأن التوسع الاستعماري الاستكباري يكون دائمًا على أنقـاض مصالح وهويات وخصوصيات شـعوب أخـرى؛ فـإن ذلـك يعـد مؤشرًا على فقدان الطابع الحضـاري لأي مشـروع إمبراطـوري، وهـو مـا يعجِّـل بانزوائه وتراجعه. وقد صدر لأشهر المؤرخين الأمريكيـين المعاصرين (بـول كينـدي) كتاب عـام ١٩٨٨م -أي: قبـل تفرد أمريـكا بالزعامة إثـر انتهـاء الحـرب البـاردة- سمـاه (صعـود وسقوط القوى العظمى)، توقـع فيه مرور الولايات المتحدة بمرحلة انحسار متواصـل، بعد توسـعات تبلـغ ذروتها عـام ٢٠١٠م، وعلل هذا التوافق بأن الولايات المتحدة تتوسع توسعًا استعماريًّا غير حضاري، سيشتت قواها العسكرية والاقتصاديـة كما حـدث مـع كل الإمبراطوريات العظمى السـابقة في التاريـخ. وقد بلغت مبيعات ذلك الكتاب مليوني نسـخة، وترجم إلى ٣٣ لغة من بينها اللغة العربية.

أوجه التشابه بين الإمبراطورية الأمريكية والإمبراطورية الرومانية، بحسب المؤرخ (موريس بيرمان):



بعـد دخـول الولايـات المتحـدة بالفعـل في عـدة مغامـرات عسـكرية اسـتعمارية جديـدة، وبعـد أكثر من عشـر سنوات على صدور ذلك الكتاب، سـئل (بول كيندي) عن مدى استشـعاره لاستمرار خطر انحسار الإمبراطورية الأمريكية بعد عمليات التوسـع الأخيرة فأجاب - في حـوار أجرته صحيفة الأهـرام المصريـة في (٢٠٠٧/٥/١٣م) - : «منـذ صـدور كتابـي (صعود وسـقوط القـوى العظمى) في الثمانينيات، والكثيرون منشـغلون بإثبات خطأ مـا انتهيـت إليه عن تراجـع قوة الولايـات المتحدة، مستندين في ذلك إلى الأداء الاقتصادي غير المسبوق لأمريـكا في فـترة التسـعينيات. ولـو كان هؤلاء

يقرءون جيدًا لأدركوا أني كنت أعني خطورة التوسع الاستعماري على الأمة الأمريكية، ووصوله للذروة عام ٢٠١٠م، ولو استمعوا لجنرالات الجيش الأمريكي، لعرفوا أننا في عملية دخول فعليٍّ في ذلك التوسع المحذور. فالتوسع العسكري – كما حدث في العراق – واكبه تمدد ماليٌّ في الإنفاق غير المحسوب في ظل عجز الموازنة وعجز الميزانية التجاري، ونظريتي تقول: إن القوة الاقتصادية تسير يدًا بيد مع القوة العسكرية، فإذا أصبح الاقتصاد أقل تنافسية فإن ذلك يعني في المدى البعيد عدم القدرة على الحفاظ على الوضع العسكري المتميز عالميًّا، ولو استمرت أمريكا في الاحتفاظ بقوات كثيرة في العراق وأخرى في أفغانستان وآسيا الوسطى وكوريا ومناطق أخرى؛ فإننا سوف نشهد عاقبة هذا التمدد الكبير على الاقتصاد، وأعتقد أننا نعيش هذا اليوم».

إن ما ينتهي إليه المفكرون والمؤرخون بخبراتهم، ينتهي إليه الساسة والمسئولون بمعاينتهم ومعايشتهم للواقع من حولهم، وقد نشرت صحيفة الفايناشال تايمز البريطانية مقالاً لمراسلها (جيرمي غرانت) في ٩ سبتمبر من عام ٢٠٠٧م، استعرض فيه تقريرًا لمسئولين أمريكيين، حذروا خلاله من انهيار أمريكا على الطريقة التي حدثت للإمبراطورية الرومانية، ونقل الكاتب عنهم أن هناك أوجه تشابه كبيرة بين الحضارتين في مرحلة الانحناء. وبعد أن استعرض الإخفاقات الاقتصادية والسياسية؛ ركز على ما وصفه بـ (انحدار مستوى القِيَم الأخلاقية) وقال: علينا أن نسارع إلى اتخاذ الخطوات التي تجعلنا أولَّ أمةٍ تتصدى لاختبارات الزمن»!

إن «فقدان المصداقية» أصبح حديث الأمم عن الحالة التي وصلت لها أمريكا، وهذا الفقدان أصبح له وجهان في السياسة الأمريكية: وجه داخلي، ووجه خارجي، فأما الوجه الداخلي فإن المواطن الأمريكي أصبح يعيش قلقًا متزايدًا على مستقبله ومستقبل أسرته، بخلاف ما كان عليه الأمر قبل عقودٍ قليلةٍ. وأما الوجه الخارجي لفقدان المصداقية؛ فإن مشاريع الهيمنة الخارجية التي مَنَّى الساسةُ في أمريكا شعبهم بأن يجني ثمراتها وحده، قد انقلب شؤمها على ذلك الشعب وحده، حتى وجد نفسه مجنيًّا عليه بدل أن يكون هو الجاني لهذه الثمرات!..
وقد اختصر (ديفيد وولكر) مراقب النفقات العامة في الحكومة الأمريكية، ومحقق الكونجرس في قضايا المال العام، هذه الظاهرة في تصريح له في (١٤ / ٨ / ٢٠٠٧م) قال فيه: «إن الأوضاع الحالية في الولايات المتحدة تشبه إلى حد كبير ما كان عليه الحال في روما القديمة قبل سقوطها وانهيارها، فهناك جوانب فشل داخلية وخارجية لأمريكا، وإخفاق في مجالات التعليم والبيئة والهجرة، بالإضافة إلى الفشل في العراق»، وذكر (وولكر) أن هناك عوامل تفسُّخ داخل المجتمع الأمريكي، أبرز مظاهرها: تراجع القيم الأخلاقية والمبالغة في الغرور، والإسراف في الاهتمام بقضايا السيطرة الخارجية، مع شدة الضغط على الناس بالارتفاع الصارخ في الضرائب، وارتفاع تكاليف الرعاية الصحية والديون الداخلية، وحالة السَّفَه التي تتسم بها طرق الإنفاق الحكومي للأموال».

قد يقال بأن تلك المشكلات تشتكي منها كل الشعوب، وتغرق فيها أكثرُ الحكومات! ولكن يُرد بأن هؤلاء وأولئك لا يريدون ما تريده أمريكا، من الاحتفاظ بزعامة العالم وقيادته وريادته بمفردها طوال قرن قادم على الأقل.

المؤرخ الأمريكي (موريس بيرمان) توقع في كتاب له بعنوان (أمريكا العصور المظلمة...الطور الأخير للإمبراطورية)، مستقبلاً غير سارٍّ لأمريكا، ودلل على ذلك بأن تسلسل الأحداث إلى الأسوأ لا بد أن يقود إلى الانهيار، وبعد أن ذكر الورطات الكبرى التي وقعت فيها السياسة الأمريكية خلال السنوات الأخيرة، والتي صارت معروفة للجميع؛ شرع في ذلك الكتاب الذي كان من أكثر الكتب مبيعًا في أمريكا عام ٢٠٠٦م، في الرد على حجة من يقول: إن آليات الديمقراطية كفيلة بإصلاح العيوب وتصحيح المسار، فقال: «إن هذه الآليات نفسها قد دُمِّرت، ولا

تعمل حاليًا بصورة فعالة، وأخشى أن يتسبب تدميرها في سقوط أمريكا على ركبتيها أمام العالم»، وشبه ذلك المؤرخ الإمبراطورية الأمريكية كذلك بالإمبراطورية الرومانية، وركز على أربعة أشياء في التشابه، وهي: انتصار التصورات الدينية الأسطورية على الحقائق العلمية... فقدان الهيبة العسكرية والاقتصادية على المستوى الدولي...انهيار التربية وغياب نقد الذات...إضفاء القداسة على الإجرام!

وفي كتاب آخر لذلك المؤرخ بعنوان (غروب الثقافة الأمريكية).. وصف (موريس بيرمان) أمريكا بأنها أرض قاحلة ثقافيًا، وأنها تعاني من موات روحي، ومع ذلك فإنها مصممة على تصدير قيمها الزائفة إلى العالم بفوهة البندقية، مع أنها مجرد جمهورية انقلبت إلى إمبراطورية..! وقال موريس في كتابه ذلك : «إن موارد أمريكا الثقافية مجهدة أو مستهلكة، وما انتعاش الحمية الثقافية في أعقاب أحداث سبتمبر إلا شهقة النَّفَس الأخير، شهقة مجتمع مستنفد يتشظى تشظيًّا متسارعًا »، ويرى موريس في كتابه ذلك أن احتضار أمريكا مرتبط بتوسع الرأسمالية، وما يرافقه من انعدام المساواة؛ حيث تسود طبقة تكنوقراطية عليا غير متمدنة، فوق طبقة دنيا محرومة من الأمان، لهذا فإن الأفكار والأنماط السياسية للحضارة الغربية في وجهها الأمريكي آخذة في التآكل.

والعجيب أن(موريس بيرمان) يرى أن الانهيار المؤلم لأمريكا لن يتأخر عن عام ٢٠٤٠م بحال من الأحوال!!. ومن تأمل كلامه يرى أنه تحديث لما ذهب إليه المفكر الغربي (أسوالد سبنجلر) الذي توقع في كتابه (تدهور الحضارة الغربية) أُفُولَ الحضارة الغربية عمومًا والأمريكية خصوصًا لإفلاسها في عالم القيم، وعدم قدرتها على تقديم قيم تملك بها احترام العالم.

استراتيجيات الكذب:

بنت إدارات الولايات المتحدة الأمريكية في السنوات الأخيرة استراتيجيات كثيرة -وليس فقط تكتيكات- على الكذب والخداع والإيهام، ليس على العالم الخارجي فقط، بل على شعبها نفسه، ولم يكن هذا خطأ رئيس بعينه، أو إدارة بذاتها، بل تكرر ذلك عبر عقود، في سلسلة من الكذب المتواصل، الهادف إلى تحقيق مصالح آنية، لا علاقة لها بالقيم الإنسانية التي يتشدق بها الأمريكيون.

يضرب المفكر الأمريكي الشهير (نعوم تشومسكي) مثالاً صارخًا وخطيرًا على ذلك المنحى الغريب من إمبراطورية تزعم أنها تريد فرض العدالة وقيم الديموقراطية وحقوق الإنسان في العالم أجمع؛ حيث يذهب في كتابه (إعاقة الديمقراطية) إلى أن رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية استغلوا الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي السابق أبشع استغلال، وفي غير مصلحة الشعب الأمريكي نفسه فضلاً من غيره، حيث (حافظ) هؤلاء على الاتحاد السوفييتي، كعدو «خطير جدًّا»، مع علمهم بهشاشته وضعفه، حتى يستمر شد أعصاب الشعب تجاه ما توجِّه به الإدارات، من التركيز على زيادة الإنفاق العسكري والتصنيع الحربي، وهذا في رأيه كان كذبًا تاريخيًّا على الشعب الأمريكي. يقول: «خدمت الحرب الباردة أغراضًا مهمة لإدارات الدولة، فحين كانت الحاجة تدعو إلى محفز حكومي لتحريك اقتصاد متزعزع، أو لرعاية تقنيات جديدة وباهظة، كان مدراء الدولة يختلقون صورًا لأرتال روسية في حالة زحف، وذلك لاستمالة الجمهور إلى التوسع في الدعم المالي للصناعة العسكرية المتقدمة عن طريق البنتاجون، كما أن التدخل بالقوة وأعمال التخريب لمنع القوميات عن الاستقلال في العالم الثالث؛ كان يمكن تبريرها بالكيفية ذاتها، للإبقاء على النفوذ على الحلفاء. وبصورة عامة، فقد جرى زج (إمبراطورية الشر) روسيا -كما كانت تسمى- للاستمرار في الحرب الباردة، لدواع اقتصادية محلية ودواع سياسية عالمية، لاستمرار السيطرة على المنظومة العالمية»..! ويخلص تشومسكي إلى أن الإدارات الأمريكية المتتابعة كانت في حاجة إلى هذا العدو، واستطرد يقول في كتابه الذي مضى

عليه نحو عقدين من الزمن: «إن العثور على بديل إمبراطورية الشر، لن يكون أمرًا سهلاً»[1].

لكن بعد عشر سنوات من صخب الأمريكيين على العراق، وعلى أفغانستان بحثا عن عدو بديل.. قُطع الصخب الكاذب، بكذب أصخب، صَاحَبَ أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، حيث لم تردع أهوال تلك الأحداث مدراء الإدارات الأمريكية عن استخدام تلك الأحداث المأساوية في سلسلة جديدة من الكذب، كان منها: أن صدام حسين تحالف مع القاعدة لضرب أمريكا في عقر دارها.. وأنه كان يعد العُدّة لاجتياح الدول المجاورة له مرة أخرى بعد أن استعاد قوته، وأن هذا وذاك يحتمان غزو العراق لتأمين سلامة المنطقة والعالم، تمامًا كما احتاج الأمر إلى غزو أفغانستان لدفع شرها عن العالم..!! ، وإلى شد أعصاب العالم كله للتحذير مما سماه بوش الابن (محور الشر) الجامع بين العراق وإيران وكوريا الشمالية!

اكتشف العالم بعد ذلك أن أفغانستان كان مقررًا لها أن تُحتل قبل أحدث سبتمبر بمدة طويلة، وأن العراق كان داخل دائرة الاستهداف الأمريكي هدمًا وتقسيمًا، منذ ما لا يقل عن ربع قرن! لكن أحداث سبتمبر جاءت لتخلط الأوراق بين الجد والهزل، فأمريكا التي ظلت تبحث عن عدو هزلي وكرتوني، كي تشكل على شبحه معالم مصالحها الأنانية في العالم، فوجئت بعدو جادٍّ وحادٍّ، يضربها في الأعماق على حين غرة وبدون سابق إنذار، فارتبك الأمريكيون بين شعور بالصدمة وتلهف على اقتناص الفرصة.

التراجع الاقتصادي لأمريكا.. خطوات على طريق الانحطاط:

لا ينكر أحد أن للولايات المتحدة الأمريكية اقتصاديات جبارة مقارنة بغيرها من القوى العالمية، لكن هذا الجبروت الاقتصادي الأمريكي مثله مثل جبروتها العسكري، يشبه الديناصورات في ضخامة أجسامها وضآلة عقولها.

الاقتصاد الأمريكي الرأسمالي، تقوده الرأسمالية الجشعة إلى حتفه، فإذا كان الربا في القليل يمحق الكثير، فكيف إذا كان الربا هو أصل هذا الاقتصاد الظالم؟

من أكبر دلائل الظلم في هذا الاقتصاد وعلائم انحداره؛ أن ١٪ من أصحاب الأموال في الولايات المتحدة يمتلكون ما نسبته ٥٠٪ من مجموع ثروة شعوب الولايات الخمسين كلها، في حين أن ٨٠٪ من السكان لا يملكون إلا أقل من ٨٪ من مجموع الثروة! إنه اقتصاد يمثل جشع أقلية أمريكية تمارس الظلم على بقية الأمريكيين، في حين أن مجموع الأمريكيين يمارسون طغيانًا على بقية العالَمين، وبخاصة الفقراء والمستضعفين، من خلال تسلط حكوماتهم «المنتخبة» على موارد الأمم، فأنَّى لهذا النعمة أن تبقى وترقى؟!

هذه بعض الأمثلة التي تظهر الظلم الاقتصادي الرأسمالي، وفقدان العدالة الاجتماعية في العالم تحت زعامة أمريكا:

- قفزت ديون الدول النامية (المنهوبة الثروات) من ٦٢ مليار دولار عام ١٩٧٠م إلى ٤٨٠ مليار دولار عام ١٩٨٠م، ثم زادت عام ١٩٩٦م ٣٢ ضعفًا حتى وصلت ٢٠٠٠ مليار دولار! ثم بدأت الدول الغنية في إسقاط ديون تلك الدول مقابل امتيازات ابتزازية، وقد ارتفع عدد الدول الفقيرة من ٢٥ دولة عام ١٩٧١م إلى ٤٨ عام ١٩٩٩م، ليصل اليوم إلى ٨٦ دولة، وأصبح نصف عداد سكان الأرض البالغ ستة مليارات نسمة، يعيش الفرد منهم على أقل من دولار أمريكي في اليوم.
- سُخر البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية لإجبار تلك الدول النامية على إعادة رسم سياساتها الاقتصادية، بحيث تكون الأولوية فيها لتسديد تلك الديون، على حساب التنمية ومحاربة البطالة!، مع أن ضخامة الديون، أصبح من المستحيل سدادها إلا من كرامة الشعوب واستقلالها.

---

(١) إعاقة الديمقراطية (الولايات المتحدة والديمقراطية) تأليف نعوم تشومسكي، ص ١٠٩، مركز دراسات الوحدة العربية.

- تصل خدمة الديون (الفوائد الربوية) التي تدفعها الدول النامية إلى ١١ دولار مقابل كل دولار تحصل عليه كقرض أو مساعدات! وتذكر الإحصاءات أن كل طفل إفريقي يولد اليوم وهو مدين بحوالي ٣٥٠ دولارًا للدول الغربية.
- في أمريكا نفسها حتى أوائل التسعينيات، كان أكثر من الثلث (غير البيض) من سكان الولايات المتحدة، تزيد ديونهم على ممتلكاتهم!! أما خارجها فتحت شعار (التجارة الحرة)، وفي أحد أمثلتها فإن مجموع ما تقاضاه (٣٠) ألف عامل إندونيسي يعملون في مصانع (NIKE) للأحذية الرياضية في سنة ١٩٩٧م، كان أقل مما تقاضاه لاعب كرة السلة الأمريكي (مايكل جوردان) مقابل ظهوره في مشهد دعاية تليفزيونية لذلك المنتج في ذلك العام!

إن الولايات المتحدة التي تقود اليوم هذا العالم بآفاته وعلّاته، تشرف على سقوط اقتصادي مدوٍّ، ستتفرع عنه أنواع أخرى من السقوط؛ ولأن السمكة تفسد من رأسها أولاً؛ فإن نظام المظالم الاقتصادية العولمية -برعاية أمريكا- يتجه بانتظام نحو التعفن والتحلل.. والبداية بداهة ستكون من أمريكا، بحسب ما سنذكره الآن من شواهد.

أعراض المرض:

كتب المفكر والروائي الأمريكي (جيمس هوارد كونستلير) مقالاً مطولاً نشرته صحيفة (الجارديان). في (٣١ /١٠/ ٢٠٠٥م) بعنوان (الطوارئ الطويلة... انهيار أمريكا يبدأ بانتهاء عصر الرفاهية)، ذكر في ذلك المقال معلومات مذهلة، من واقع المعايشة والمراقبة لمسار التضعضع والتقوقع التدريجي للعملاق الاقتصادي الأمريكي، وقد بيَّن في هذا الصدد -بعد أن فصَّل بالأرقام والإحصاءات الموثقة انطباعاته عن واقع ومستقبل الاقتصاد الأمريكي في مفتتح الألفية الثالثة- أنه توصل إلى كمّ مفجع من النتائج المتوقعة للتراجع الاقتصادي الأمريكي الذي لا حدود لتبعاته، وأنا أنقل هنا مقتطفات من تلك النتائج والانطباعات والتوقعات باختصار شديد:

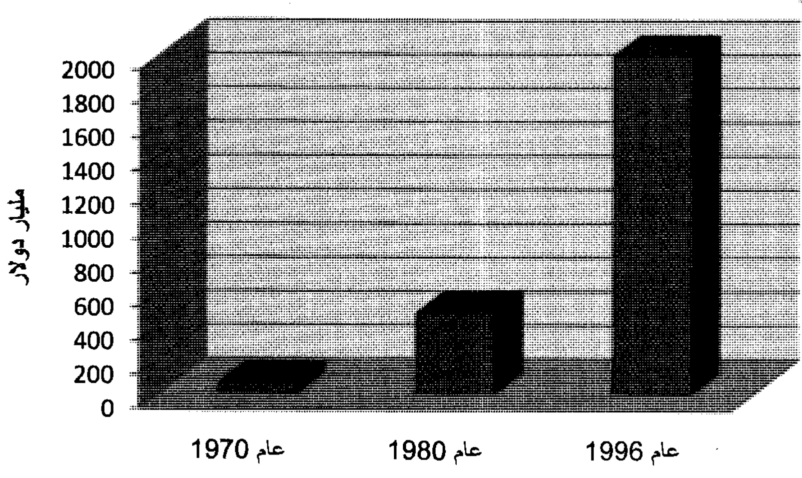
- بعد هجمات سبتمبر، فإن أمريكا ما زالت تسير إلى المستقبل وهي نائمة.
- أسمي الزمن القادم: زمن الطوارئ طويلة المدى.
- نواجه نهاية عصر الوقود الرخيص[٢] بشكل متسارع.
- ليس شرطًا أن ينفد النفط حتى تبدأ مجابهة المشكلات الحادة في حضارتنا الصناعية، ولكن يكفي أن ننحدر إلى مرحلة (ذروة الإنتاج العالمي)[٣] حتى نبدأ في منحدر الانزلاق نحو النضوب.
- العالم استهلك النصف الأسهل من المخزون النفطي في الأرض، والنصف الباقي هو الأصعب والأكثر تكلفة والأردأ نوعًا، ويقع في أراضي بلاد فيها شعوب تكره أمريكا.
- سندخل في طوارئ طويلة المدى، تتطلب منا ترتيبات أخرى لطريقة حياة غير التي تعودنا عليها.
- سوف تكون حياتنا «محلية» بشكل أساسي، وستكون الحياة اليومية أقل حركة، وسوف يتضاءل كل ما أسسته الحكومات للبقاء الأطول، مثل الشركات العملاقة والمشاريع الكبرى التي تعتمد على الطاقة الرخيصة.
- حتى إنتاج الطعام، سيكون مشكلة كبرى في فترة الطوارئ الطويلة؛ لأن الزراعة المعتمدة على الصناعة سوف تضعف، لندرة النفط والغاز.
- الاقتصاد الأمريكي قد يتركز في منتصف القرن الحادي والعشرين على الزراعة، وليس التقنية والمعلومات أو الخدمات أو السياحة.
- اقتطاع الأراضي الزراعية في أواخر القرن العشرين بدون هوادة سَبَّب مشكلة كبيرة، هي: تخريب الرقعة الزراعية في مناطق كثيرة، وهو ما سيجعلنا في حاجة إلى تحويل طبقة كبيرة من الأمريكيين إلى مزارعين.

---

(٢) أوردت صحيفة الإنبدندت البريطانية في ٤ / ١ / ٢٠٠٨ تحليل بعنوان (عصر النفط الرخيص انتهى بلا رجعة) أكدت فيه أن تجاوز سعر البرميل ١٠٠ دولار، للمرة الأولى، يعتبر الإشارة الأوضح على أن عصر النفط الرخيص انتهى، وتوقع التقرير أن يصل سعر برميل النفط في غضون ثلاث سنوات إلى ١٥٠ دولار للبرميل الواحد

(٣) (ذروة الإنتاج العالمي) للنفط، مصطلح اقتصادي معناه: حدوث نقطة تحول عكسي عندما ينتج العالم في سنة واحدة، كمية من النفط أكبر مما أنتجه من قبل، بعدها يبدأ في الهبوط، وهذه المرحلة - بحسب رأي الخبراء- سوف يصل إليها العالم في الفترة ما بين سنة (٢٠٠٥م) إلى سنة (٢٠١٠م).

ديون الدول النامية



زادت ديون الدول النامية (منهوبة الثروات) أكثر من 32 مرة بين عامي 1970م و1996م

- ستندر أو تختفي عشرات الألوف من الصناعات الكمالية التي نتمتع بها اليوم، بما فيها أنواع الأدوية والأصباغ وأدوات التجميل؛ لأن صناعتها تعتمد على النفط الرخيص، وستكون السيارات أقل وجودًا في حياتنا مع ندرة البنزين، وسيؤثر هذا أيضًا على نظام العقارات ومستوى الخدمات فيها.
- نطاق السكة الحديد اليوم في أمريكا، يخجل منه البلغار، وإذا لم نهتم به في فترة الطوارئ الطويلة القادمة، فلن تكون لدينا بعد عدة عقود إمكانية السفر لمسافات طويلة للأفراد أو البضائع، أما الطيران التجاري فهو مفلس من اليوم، ومن المحتمل أن يتلاشى غدًا.
- المباني العملاقة -كالتي في نيويورك وشيكاغو- ستواجه مشاكل غير عادية؛ لأنها صُمِّمَت لظروف غير ظروف تدهور إمدادات الطاقة.
- إنتاج الغاز الطبيعي الأمريكي مستمر بالانهيار بمعدل ٥٪ سنويًا؛ وذلك لأن الولايات المتحدة جعلت من الغاز اختيارها الأول لتوليد الطاقة الكهربية بعد أزمة الطاقة في السبعينيات، وكوارث المفاعلات النووية في (تشرنوبيل) الروسية، و(مايل إيلاند) الأمريكية، وكان نتيجة ذلك أن كل محطة توليد كهرباء في أمريكا بعد عام ١٩٨٠م تدار بالغاز، ونصف بيوت أمريكا تدفأ بالغاز، وهو سلعة ليست سهلة الاستيراد.
- ستتواكب مشاكل الطاقة مع انتشار مشاكل التغيير المناخي المسبب للأمراض الوبائية، ويجب أن نهيئ أنفسنا لظروف مختلفة بشكل جذري، فلن تسمح لنا أزمة الوقود بأن نعيش الحياة التي اعتدناها، أو حتى جزءًا منها في ظل تخدير عصر النفط الرخيص.
- ما يتحدثون عنه من بدائل (الاقتصاد الهيدروجيني) و(الطاقة الشمسية) هو خدعة قاسية؛ لأن مكوناتها تتطلب كميات كبيرة من الطاقة النفطية لإنتاجها، وعدم وجود دعم اقتصادي ونفط رخيص قد لا يمكن من إنتاجها أصلاً، وحتى في حالة نجاح هذه البدائل لفترة ما في المستقبل؛ فسيكون ذلك في نطاق محليٍّ محدودٍ.
- الأفكار المُقتَرَحَة بتحويل القمامة والمخلفات إلى نفط باستخدام التحلل الحراري هي الأخرى تعتمد على وجود كميات هائلة من المخلفات، لا يمكن توافرها إلا في ظل اقتصاد يعتمد على نفط وغاز رخيصين.
- الفحم ليس بديلاً؛ لأنه ليس متعدد الاستعمالات مثل النفط والغاز، وهو أقل وفرة منهما، وتشوب إنتاجه عراقيل بيئية كثيرة، وتحويله إلى نفط مركب لم

يجرب إلا مرة واحدة، عندما استخدمه النازيون تحت ظروف الحرب. ومع ذلك فإن إنتاجه بهذه الطريقة يحتاج إلى أعداد هائلة من العبيد في أعمال السخرة.

- إذا رغبنا في الحفاظ على أمريكا مضيئة بعد عام ٢٠٢٠م، فعلينا اللجوء إلى إنتاج جيل جديد من المفاعلات النووية، لكن ثمن ذلك قد يكون فوق احتمالنا، ويلزمنا لأجل ذلك -وفي ظل ظروفٍ قُصوى- مدة لا تقل عن عشر سنوات.
- ستكون فترة الطوارئ الطويلة ذات مشكلات جَمة، وإن مائتي عام من المدنية الأمريكية، سوف تركع على ركبتها، بسبب نقص الطاقة!!

لا شك أن ما تَحَدَّث عنه الكاتب يشير إلى واقع مرير، ومتوقع أَمَرّ، ومثل هذا الكاتب لا يمكن أن يُتَّهم -من واقع المعلومات المنطقية والموثقة التي أوردها- بأنه ممن (يكره أمريكا).. أو من المصابين بداء نظرية المؤامرة، أو عقدة انتظار الانهيار السهل للظالمين.. أو نحو ذلك من الأوصاف، غير أن ما ذكره من توقعات منتظرة، تسنده وقائع شاخصة، شهدتها السنوات القلائل الماضية، وشهد عليها الخبراء والمراقبون، ومن ذلك:

١- بالرغم من أن سياسة الرئيس الأمريكي السابق (بيل كلينتون) ساهمت في خفض عجز الموازنة المالية للولايات المتحدة، وتوفير فائض ماليٍّ فيها بلغ ٢٣٦ مليار دولار في عام ٢٠٠٠م، بعد ما كان العجز عند تسلمه السلطة عن بوش الأب عام ١٩٩٢م (٢٩٠) مليار دولار.. بالرغم من ذلك ؛ فإن سياسة بوش الابن أعادت الموازنة إلى الانتكاس مرة أخرى منذ عام ٢٠٠١م، فقد تحول الفائض المالي الهائل إلى عجز قياسي، بلغ ٤١٢ مليار دولار في العام ٢٠٠٤م، وقد بلغ عجز الحكومة الاتحادية حتى نوفمبر (٢٠٠٧م) إلى ٩٨,٢٣ مليار دولار، وتوقعت وزارة الخزانة أن يكون عجز الميزانية عام (٢٠٠٨م) ٢٥٨ مليار دولار.

٢- بلغ الدين الإجمالي لأمريكا نحو ٦٥ تريليون دولار (أي ألف مليار) لعام، ومنذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، وحتى سبتمبر ٢٠٠٥م، ازداد الدين الفيدرالي لأمريكا حوالي ٢,٣ تريليون دولار، وهو ما يساوي ٢٩٪ من حجم الدين العام.

٣- إذا قسمت نسبة الديون على عدد سكان الولايات المتحدة البالغ ٢٩٨ مليون نسمة، فإن حصة كل واحد منهم من الدين تبلغ ٢٧,٥ ألف دولار أمريكي، وهذا الدين يمثل بالمقارنة للناتج المحلي الإجمالي لأمريكا حتى العام ٢٠٠٤م ما نسبته ٦٢,٥٪، بفائدة (ربا) تصل ٤١ مليون دولار في الساعة!

٤- مجموع الفوائد الربوية المستحقة على الاقتصاد الأمريكي خلال الخمسة عشر عامًا الماضية، تفوق الخمسة تريليون دولار، وهي تساوي ٧١٪ من مجموع الدين العام الفيدرالي البالغ ٧ تريليون دولار.

يرى الاقتصاديون أن خطرًا جديدًا على الاقتصاد الأمريكي بدا يتمثل في مأزق الديون الضخمة المستحقة لمستثمرين في بلدان أخرى لسنوات طويلة، ومع تباطؤه المتزايد، وانخفاض قيمة الأوراق النقدية، بدأ المستثمرون يقرون بأنهم أقل أمانًا، وقد ظهر ذلك في زيادة معدلات الديون الأمريكية، حتى بلغت ١٦٪ من الناتج المحلي عام ٢٠٠٠م، ثم ارتفعت إلى ٢٢,٦٪ عام ٢٠٠١م، ثم إلى ٦٤,٧٪ عام ٢٠٠٥م، ووصلت ٤١٤ عام ٢٠٠٦م.

ومع هذا التراجع الآخذ في التتابع، اضطرت الولايات المتحدة إلى تخفيض قيمة الدولار، بعد أن فقد ٣٥٪ من قيمته أمام العملة الأوروبية (اليورو) منذ عام ٢٠٠٢م، وبعد فقده ١٧٪ مقابل مجموعة العملات الأخرى المرتفعة وعلى رأسها (اليوان) الصيني. وتخفيض قيمة الدولار جاء على أمل تخفيض الركود الاقتصادي وتحريك عمليات التصدير وتشجيع الاستثمار بالدولار، ولكن السياسة التي اتبعتها الإدارة الأمريكية -برأي الخبراء- هي سياسة مغامرة، قد تقود إلى انهيار قيمة الدولار بالمرة، وبالتالي انفلات الزمام من أيدي الاقتصاديين الأمريكيين، وبخاصة في ظل منافسات الاقتصادات الأخرى في أوروبا والصين واليابان. فهذه كلها ليس لديها الاستعداد للتضحية من أجل إنقاذ الدولار الأمريكي، كما حدث في الأزمات الاقتصادية العالمية في الستينات والسبعينيات.

وقد تسببت ضخامة الديون وفوائدها الربوية، في دفع الاقتصاد الأمريكي إلى الاندفاع المنتظم إلى حافة الإفلاس، فالديون تزداد حوالي ٤٠٠ مليار دولار سنويًّا فيما يخص الموازنة الداخلية، وتزداد حوالي ٦٠٠ مليار دولار سنويًّا فيما يخص التجارة الخارجية، هذا عدا عما يسمى بـ (خدمة الديون) أي: فوائدها الربوية.

إن الاقتصاد الأمريكي الآخذ في تصعيد سياسة الاستدانة في السنوات الأخيرة داخليًّا وخارجيًّا، لا يوجه هذه الاستدانة نحو الإنفاق الخادم للإنتاج بقدر ما يوجهها للاستهلاك؛ ولذلك فإن تلك السياسة لا تسفر عن علاج المشكلات أو زيادة الفائض، فالنمو الاقتصادي هنا ليس إيجابيًّا، وبالتالي لن يكون حاسمًا في تسديد الديون، فنسبة الـ (٤٪) التي تمثل معدل النمو منذ عشر سنوات، يذهب ما قيمته ٧٠٪ منها إلى الإنفاق الاستهلاكي.

ولا يقال هنا: إن الدولار لا يزال في موضع الصدارة بين العملات العالمية منذ ستة عقود؛ لأنه بالرغم من ذلك فإن مركز قوته آخذ في التراجع بسبب سياسة طبع الدولار الورقي، الذي لا يعرف له غطاء من الذهب منذ العام ١٩٧١م، وهو ما جعل أمريكا مضطرة إلى إبقاء سعره ضعيفًا، مما يدفع اقتصادات الدول بالتالي إلى التخلص منه؛ خوفًا من سقوطه وسقوطها معه.

لقد أصبح الاستيراد سمةَ الاقتصاد الأمريكي على حساب الإنتاج والتصدير، مع الاستمرار في بيع المصانع المنتجة والثروات غير القابلة للاستبدال، والأصول المالية، لتسديد قيمة الاستيراد وخدمات الديون.

الموكب الجنائزي للتراجع العسكري:

أعدت مؤسسة إندبندت استراتيجي -التي تُعَدّ مركز أبحاث يعمل لحساب المؤسسات الاستثمارية الكبرى- دراسةً جرى تداولها في البنوك الاستثمارية العالمية في السنوات القليلة الماضية، تُظهر حقيقة أن هناك مؤشرات كثيرة تدل على أن الولايات المتحدة كدولة إمبراطورية بدأت في العد العكسي للتراجع بعد أن بلغت ذروة ارتفاعها، فليس أمامها بعد التفرد في القمة إلا النزول منها، وهذا التراجع -كما تذكر الدراسة- لن يكون بطيئًا، بسبب النزعة الفردية التي تتصرف بها أمريكا على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وهو ما سيؤدي إلى زيادة أعدائها، وانتشار القوى المناوئة له ممثلة في (الإرهاب) العالمي -على حد تعبير الدراسة-.

وقد مثلت الحرب الأمريكية على العراق -كما تذكر الدراسة- ذروة النزعة الانفرادية للإدارة الأمريكية، عندما أصرت إدارتها على خوض تلك الحرب، رغم معارضة الغالبية من شعبها وشعوب العالم والمجتمع الدولي مُمَثَّلاً في الأمم المتحدة.

كان غزو العراق وحروب الخليج قبلها دخولاً في مرحلة (عسكرة الاقتصاد)؛ حيث كانت تلك الحرب جزءًا من مشروع اقتصاديٍّ عسكريٍّ أمريكيٍّ، وبالرغم من أن تلك الحروب كانت لها أوجه أخرى سياسية وحضارية ودينية، إلا أن استشعار أمريكا للخطر الداهم الداخلي عليها من البوابة الاقتصادية؛ جعلها تسارع إلى خوض تلك المغامرات العسكرية.

> كل إخفاقات وهزائم أمريكا العسكرية من بداية الألفية الثالثة وصاعدًا، سوف تترجم إلى كوارث اقتصادية تزيد الاقتصاد الأمريكي عبئًا إلى عبء، وضعفًا على ضعف.

وبما أن بلاد الشرق الأوسط تحتوي على ثلثي إمدادات النفط المتبقي في العالم، فقد حاولت أمريكا يائسة أن تبسط هيمنتها على تلك المنطقة، لعلها توقف مسيرة التراجع الاقتصادي الهاجم عليها، فكان أن أقامت مركزَ شرطة كبير في العراق بعد غزوه، ليس لوضع اليد على نفطه فحسب، ولكن للتحكم في سلوك الدول المجاورة وإرهابها عسكريًّا، لابتزازها اقتصاديًّا. لكن النتيجة كانت أكثر من سلبية، بل جاءت كارثية اقتصاديًّا وعسكريًّا على أمريكا وحلفائها؛ إذ كلفت الحرب على العراق

الاقتصاد الأمريكي -حتى سبتمبر ٢٠٠٥م ما يصل إلى ٧٠٠ مليار دولار، ثم قفزت في سبتمبر إلى ١١٠٠ مليار دولار، وهذا معناه أن إخفاقات تلك الحرب -التي لم تنته بعد -كلفت الحكومة الأمريكية في نحو ثلاث سنوات فقط أكثر مما تكلفته حرب فيتنام في ١٨ عامًا؛ حيث بلغت تكلفتها الإجمالية في كل تلك السنوات نحو ٦٠٠ مليار دولار.

وهكذا نرى أن كل إخفاقات وهزائم أمريكا العسكرية من بداية الألفية الثالثة وصاعدًا، سوف تترجم إلى كوارث اقتصادية تزيد الاقتصاد الأمريكي عبئًا إلى عبء، وضعفًا على ضعف، ولما كانت بلدان العالم الإسلامي، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط، هي منطقة انطلاق أو إخفاق المشروع الأمريكي؛ فإن فشلها في تلك البلدان، سينعكس فشلاً في ذلك المشروع بِرُمَّتِهِ. وقد اعتبر (ريتشارد هاس) كبير مخططي وزارة الخارجية الأمريكية السابق، في مقال له بعنوان (الشرق الأوسط الجديد) نشرته في (٢٦ /١٢/٢٠٠٦م) مجلة الشئون الخارجية التي تصدر عن وزارة الخارجية الأمريكية.. أن العالم يشهد نهاية المرحلة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، وقسم الأسباب التي أوصلت لتلك المرحلة إلى عاملين: عامل ذاتي: يتعلق بالولايات المتحدة نفسها، وعامل خارجي: يتعلق بهيكلية تلك المنطقة، وبعد أن عدَّد المشكلات الداخلية الذاتية التي أدت إلى ضعف أداء أمريكا في المنطقة، اعتبر المسئول الأمريكي السابق أن قرار غزو العراق عام ٢٠٠٣م، والذي استمرت الحرب بعده، كان أكثر القرارات تأثيرًا في نهاية الحِقبة الأمريكية في المنطقة. وقد علق على ذلك قائلاً: «إنه لمن المفارقات الساخرة والمحزنة أن حرب العراق الأولى كانت لضرورتها، آنذاك، رسمًا لبداية الحقبة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، في حين أن حرب العراق الثانية -وهي حرب مزاجية اختيارية- كانت المحدد لنهاية الحقبة نفسها»، وعدَّد (هاس) أسبابًا أخرى أدت إلى الدخول في مرحلة نهاية الحقبة الأمريكية في الشرق الأوسط، منها: فشل أمريكا في معالجة القضية الفلسطينية، وفشل الأنظمة التقليدية الموالية لها في القضاء على ما سماه (الانبعاث الأصولي الإسلامي). وذكر أن العولمة الأمريكية أفادت الإسلاميين بآلياتها، وسهلت لهم اكتساب الخبرات والأفكار، بل وطرق الحصول على الأسلحة وسبل الاستفادة من الخدمات اللوجستية، وأشار (هاس) إلى أن الولايات المتحدة ساهمت في عسكرة المنطقة، وأن هذه العسكرة سوف تخرج من يدها بسرعات قياسية، فهناك (جيوش خاصة) في العراق ولبنان وفلسطين، أصبحت قوًى متنامية لها قدرات مادية وأدوات إعلامية، تُنَازل الإعلام الأمريكي، وتكشف فضائح السياسة الأمريكية، وهو ما أفقد الولايات المتحدة المصداقية التي كانت تتمتع بها بين شعوب الشرق الأوسط، وأصبح من الصعب على الحكومات في المنطقة أن تتعامل مع أمريكا بشكلٍ مفتوح كما كان الأمر سابقًا.

ويظل قرار غزو العراق عامل استنزاف اقتصاديٍّ وعسكريٍّ للولايات المتحدة، يُسَرِّع عَجَلة تراجعها في هذين المجالين، إضافة إلى الاستنزاف البشريِّ الذي لا يحتمله الشعب الأمريكي. وهذا ما يؤكده (دينيس أندروسون) رئيس تحرير صحيفة (انتيلوب فالي برس)، والذي عمل ملحقًا سابقًا بالعراق: في مقالة له بعنوان (الحرب تصل إلى الوطن) نشرت في (٢٢ /٦/٢٠٠٧م): حيث وصف الأهوال التي يكابدها الجيش الأمريكي في العراق، ثم ذكر أنه ليس بمقدور الشعب الأمريكي تحمُّل تَبِعَاتها وتضحياتها المادية والبشرية، وقال: «في مقدورنا أن نستمر في هذه الحرب لعامها الخامس، إذا استطعنا أن نوفر لها ميزانية لا تقل عن ١٠٠ مليار دولار، لكن ليس من الصعوبة بمكان أن نقول: إننا ليست لدينا الأموال الكافية للوفاء بهذا الشرط»!

إن انتصارات أمريكا المزعومة في العقود الأخيرة، لم تكن إلا انتصارات إعلامية تليفزيونية، ولهذا لم يستمر الخداع بها طويلاً، وهو ما تسبب وسيتسبب في المزيد من الإحباط المعنويِّ لدى عساكر الشطرنج الأمريكية. يقول (مارك تران) في مقال له في صحيفة الجارديان البريطانية بعد غزو العراق: «من المؤكد أن ما حققته الولايات المتحدة من مجدٍ خلال غزوها للعراق كان زهيدًا جدًّا، بالنظر إلى

أنها كانت تقاتل جيشًا هزيلاً جدًا، هدته سنوات الحصار، وبالرغم من أن أمريكا حاولت بذلك النصر ترسيخ مكانتها كقوة عسكرية عالمية، إلا أن هذا لا يعني أنها ما زالت قادرة على الوقوف شامخة على قدميها.. نحن في الحقيقة نحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة كي نعترف بأن أمريكا التي لا زالت صاحبة أكبر اقتصاد وأقوى قوة عسكرية في العالم في طريقها إلى الانهيار...»!

إن الوجود العسكري الأمريكي المُكَثَّف في أنحاء العالم فرض على الولايات المتحدة تكاليفَ اقتصادية تَنُوء بأحمالٍ لا تُحْتَمَل، ولا يمكن تحمُّلها إلا بمزيد من المغامرات العسكرية للسيطرة على اقتصاديات أخرى لشعوب العالم، ولهذا فقد دخلت أمريكا في حلقة مُفْرَغَة قد تجعل حروبها للاقتصاد، واقتصادها للحروب! فالبرغم من تخفيض الإنفاق العسكري ما بين عامي ١٩٩٠م و١٩٩٥م، إثر احتجاج الشعب الأمريكي على زيادته، إلا أن ذلك الإنفاق عاد إلى مستوياتٍ أعلى مما كان عليه بعد ذلك، ومع كل ذلك فإن خلاصة ما انتهى إليه الجيش الأمريكي في العراق هو الهزيمة، أو بتعبير الكاتب الأمريكي (تومس ريك) «نكسة»، وذلك في كتابه (النكسة ...حقائق عن المغامرة الأمريكية في العراق).

لقد ولَّدت تلك النكسة نكسات عديدة، مثل: انهيار الدولار، وسُعار الأسعار، وسقوط الهمة الاقتصادية، والهيبة العسكرية، والرسالة الأخلاقية، وكلها مُنْزلقات كثيرة موزعة على طريق ذلك الاتحاد الأمريكي، وقد تكون مُقنِعة للكثيرين بأن يسلكوا طرقًا أخرى للحياة غير طريق هذا الاتحاد المتداعي.

التراجع السياسي... مقدمة أم نتيجة..؟

فقدان أمريكا لمبادئها وشعاراتها التي رفعتها منذ تأسيسها -وعلى رأسها الحرية التي أقامت لها تمثالاً تُفَاخِر به العالم- انعكس إفلاسًا في سياساتها الدولية، وحتى تدخلاتها التي زعمت أنها من أجل إرساء قيم العدل والديموقراطية -كما حدث في البوسنة والهرسك وكوسوفا والصومال وأفغانستان والعراق وغيرها- سرعان ما انكشف عوارها وبان زورها؛ حيث ازدادت أحوال تلك البلدان سوءًا بسياسات «التحرر» الأمريكي، وهو ما أصبحت شهرته لا تحتاج إلى مزيد بيان هنا.

أما الداخل الأمريكي نفسه، فقد أصابته ظواهر ومظاهر جديدة من القلق على المستقبل السياسي، فطابع الاستبداد آخِذٌ في التغلب على نواحي الحياة السياسية؛ منذ أن جاء جورج بوش بسياساته الخارجية المثيرة للجدل، بل الخجل، والتي أوجدت انقسامًا سياسيًّا غير مسبوق في الداخل الأمريكي لدرجة أن البروفسور الأمريكي (ريتشارد لاخمان) قال في حديث لجريدة (فريميا نوفوشيه) الروسية في (١٨/١/٢٠٠٧م): «إن الولايات المتحدة لم تعد دولة ديموقراطية، لأن الشركات الكبرى التي يسيطر عليها الساسة، والتي تسيطر بدورها على الاقتصاد الأمريكي، لا تحتاج إلى مؤسسات المجتمع الديمقراطي، ولا تحتاج لدعم الرأي العام، وحَذَّرَ الروس من الاحتفاظ بالأوراق النقدية الأمريكية الذاهبة إلى الانهيار، وزاد الطين بِلَّة التوجه نحو مصادرة الحريات العامة في أحيان كثيرة، بحجة المحافظة على الأمن القومي، وتحت ذرائع تشبه الأحوال في حكومات العالم الثالث. وقد أصبحت توجهات أمريكا في سياساتها الخارجية العالمية مثيرة لقلق أكثر بلدان العالم، سواء المتحالفة معها أو المخالفة لها.

ولقد ساهمت مبالغة الولايات المتحدة في تضخيم خطر ما وصفته بـ (الإرهاب) في إرهاب العالم من سياساتها؛ حيث لم يَعُدْ أحد في مأمن من غدرها به تحت مسمى «محاربة الإرهاب»، فخصوصيات الشعوب تُنْتَهك، وسيادة الدول تُصَادَر، بل وحدودها الجغرافية في البر أو البحر أو الجو صارت مشاعًا مستباحًا لحملات المداهمة العسكرية أو الأمنية، بحُجَج المحافظة على الأمن والسلم الدوليين!

وفي الوقت الذي تتراجع فيه الولايات المتحدة أخلاقيًّا وسياسيًّا وعسكريًّا؛ فإن دولاً وكيانات أخرى تتسابق إلى مزاحمتها إلى موضع الصدارة أو مشاركتها فيه، إن لم يكن على المستويات العالمية؛

فعلى المستويات الإقليمية. ويأتي في مقدمة تلك الكيانات: الاتحاد الأوروبي، والاتحاد الروسي، والصين واليابان.. وحتى إيران، تحاول أن تجد لها موطئًا في مسار التأثير الدولي والإقليمي، مستفيدة من تَخَبُّطَات السياسة الأمريكية المتراجعة!

إن كل الكتل السياسية المؤثرة في العالم لم تعد تتحمل الأثمان الفادحة لمجاملة أمريكا في أخطائها، بل صارت تتسقط لها تلك الأخطاء، لعلها تعجل بسقوطها المُنْتَظَر، على الأقل من مكان التفرد على قمة العالم. وبينما تسارع أمريكا إلى وُلُوج مَفَاوِز العزلة والانزواء حضاريًا وسياسيًا؛ بسبب كراهية الشعوب المتزايدة لها، تبادر دول أخرى إلى احتلال أماكنها والاستفادة من عزلتها.

المأزق الأمريكي: لا تراجع عن التراجع

منذ بداية الألفية الثالثة، وتحديدًا بعد الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م وما تلاها من تداعيات خطيرة، كان على رأسها غزو أفغانستان، ثم غزو العراق؛ وقعت الولايات المتحدة في مأزق حرج بعد فقدان هيبتها العسكرية في الحربين الممتدتين للآن، وقد تسببت هذه الورطة الكبرى في مأزق أكبر، جعل الولايات المتحدة بين خيارين أسهلهما وعر، الأول: أن تزيد في نفقاتها العسكرية لاستعادة تلك الهيبة المفقودة، وهو ما لا تسمح به ميزانياتها، ولا إرادة شعبها، ولا معنويات جنودها، ولا تردد حلفائها المتعاونين معها. والأمر الثاني: هو أن تنسحب من ساحات المواجهة العالمية، وتعود للانكفاء على ذاتها داخل حدودها، وهو ما سيفتح الباب على مصراعيه أمام قُوى أخرى متربِّصَة ومنافسة لها على منصة القطبية الدولية.

لقد كان التصدي الشجاع للغزو الأمريكي للعراق وأفغانستان نقطة تحوُّل في معادلات القوة في العالم، وبخاصة فيما يتعلق بتفرُّد القيادة أو تعدُّدها.

يقول الخبير الأمريكي (مايكل دينستين) في مقالة بعنوان: (نظام عالمي متعدد الأقطاب قيد التشكيل) نشرت ترجمته صحيفة الجزيرة السعودية في (٢٠٠٤/٦/٢٩م): «بدا قبل اندلاع الحرب في العراق أن دولاً مثل فرنسا وروسيا والصين، تفضِّل نظامًا متعدد الأقطاب، لا يفسح مجالاً للقيادة الأمريكية الواحدة للعالم، بل يستبدل هذه القيادة بتوافقات وتفاهمات بين مراكز القوى الإقليمية، إن النتائج التي تمخَّضَت عن حرب العراق؛ ربما تكون قد رَجَّحَت بالفعل كِفَّة التوجه نحو هذا النظام.. إن حكومات هذه الدول تسعى إلى ضمان السيطرة بأقصى قدر ممكن على المناطق والأقاليم التي تقع تحت أيديها، وذلك حتى يتسنى لها أن تقف في وجه أيّ محاولة أمريكية للتدخل في هذه البقاع، طالما تستأثر أمريكا بمصالحها فقط». ويرى ذلك الكاتب الأكاديمي أن دخول العالم في نظام متعدد الأقطاب ليس بعيدًا، بل سيكون خلال العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين؛ حيث سيتحرك العالم شيئًا فشيئًا نحو ظهوره، خاصة وأنه بات من العسير على أمريكا أن تتمكن من استعادة وصفها السابق كقوةٍ عظمى وحيدةٍ.

إن الرؤية التي تتوقع تراجع أمريكا عن التفرد بزعامة العالم، صارت شبه متواترة في أنظار الكثير من المحللين غربًا وشرقًا، لكن هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك، وهو احتمال أن يتعرض الاتحاد الأمريكي نفسه لهزات تؤدي إلى تفككه وتفتيته على غرار تفكك الاتحاد السوفييتي، والقائلون بذلك ليسوا أشخاصًا هامشيين أو حالمين، بل يأتي في مقدمتهم عميد المؤرخين الأمريكيين (إيمايل تود) الذي أصدر كتابًا عام ١٩٩٤م - أي قبل أزمات ومآزق أمريكا الحالية- بعنوان (تفكيك أمريكا) ذهب فيه إلى أن خطر تفكك الاتحاد الأمريكي هو خطر حقيقي، تزداد معدلاته بسبب تعدد الأزمات، والاختلاف الحادّ في تنوع أعراق السكان وتناقض توجهاتهم، وتصاعد النعرات القومية بينهم، وهو ما يُفْقِد اتحاد الولايات الأمريكية ركنًا من أهم أركان الاستمرار التاريخي في التوحد، وهو: وحدة الهوِيَّة.

ومع هشاشة هذه الهوية المُصَنَّعة بالقهر والاغتصاب في القارة الأمريكية الشمالية على أشلاء سكان القارة الأصلية، يأتي التحدي من عدة قوى أخرى،

لها بالفعل هوياتها الجامعة وشخصياتها التاريخية، ويأتي في مقدمة هذه القوى المتوقع صعودها -أو بالأحرى- الجاري صعودها: الاتحاد الأوروبي، الصين، روسيا، الهند، اليابان، وغيرها من القوى التي يمكن أن ترتبط بها أو تتحالف معها، كإيران وماليزيا وتركيا.

لكنني سأجمع القوى المُرَشَّحَة لمزاحمة أمريكا في زعامة العالم في كتلتين هما: الكتلة الأوروبية ممثلة في الاتحاد الأوروبي، والكتلة الآسيوية ممثلة في الصين وروسيا والهند واليابان.

أولاً: الكتلة الأوروبية:

كان الزعيم البريطاني (ونستون تشرشل) (١٨٧٤م-١٩٦٥م) يحلم باليوم الذي تتكون فيه (الولايات المتحدة الأوروبية) لتكون نـدًّا للولايات المتحدة الأمريكية(٤).

بعد قيام الاتحاد الأوروبي رسميًّا عام (١٩٩٢م)، برزت عوامل كثيرة من عوامل القوة التي تؤهل ذلك الاتحاد لمنافسة الاتحاد الأمريكي، ومن ذلك:

- أن زيادة انضمام الدول الأوروبية إلى هذا الاتحاد زاد من عدد سكانه؛ حيث أصبح الاتحاد الأوروبي أكثر سكانًا من الاتحاد الأمريكي، فبينما يصل عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية إلى (٣٠١ مليون نسمة) بحسب إحصاءات عام (٢٠٠٧م)؛ فإن عدد سكان الاتحاد الأوروبي وصل إلى ما يقرب من نصف مليار نسمة بعد انضمام بولندا والتشيك والمجر ورومانيا وبلغاريا إليه.
- تتسبب زيادة عدد دول الاتحاد الأوروبي في زيادة النفوذ السياسي الدولي لهذا الاتحاد، فقد زاد عدد الأصوات الأوروبية في كل المنظمات الدولية، وعلى رأسها مجلس الأمن، بعد أن أصبح عدد بلدانه ٢٧ بلدًا.
- للاتحاد الأوروبي مواقف أكثر قبولاً في المجتمع الدولي؛ لأن آليات القرار فيه أكثر مرونة من مثيلتها في الولايات المتحدة، وقد ظهر هذا حيال عدد من القضايا العالمية المهمة، مثل: قضايا البيئة والقانون الدولي، وقضايا التنمية والعدالة الاجتماعية.
- تتوجه أوروبا نحو دمج شعوبها في هوية متقاربة، وذلك بإصدار جوازات سفر أوروبية موحدة بلغات متعددة، وتتجه إلى سن دستور موحد للقارة.
- أصبحت العملة الأوروبية (اليورو) هي العملة الأكثر استقرارًا في الحاضر والمستقبل، مقارنة -بعملة الولايات المتحدة (الدولار)، ولذلك تتطلع كثير من دول العالم -وعلى رأسها الدول النفطية- للاعتماد على (اليورو)، معززة بذلك نفوذ أوروبا في الأسواق النفطية.
- أصبح الاتحاد الأوروبي مصدرًا لما يزيد عن نصف الاستثمارات الخارجية المباشرة بعد توسيعه ليشمل ٢٧ بلدًا؛ وأصبح دخل الفرد في الاتحاد الأوربي (٣٣,٩٠٠ دولار)، أعلى منه في الولايات المتحدة.
- صار الاتحاد الأوروبي أكبر مانح للمساعدات التي تُقَدَّم للدول الفقيرة؛ حيث تفوق مساعداته ضعف مساعدات الولايات المتحدة، وهي ما يوظفه الاتحاد الأوروبي سياسيًّا واقتصاديًّا لمصلحته.
- بدأت أوروبا في منافسات اقتصادية جَدِّيَّة مع أمريكا، وذلك في مجالات مهمة مثل: النقل الجوي والتكنولوجيا والمعلومات .
- في المجال العسكري يتجه الاتحاد الأوروبي للخروج من أَسْر الزعامة الأمريكية لحِلْف الناتو، وذلك بإنشاء قوات انتشار سريع خاصة بأوروبا، وقد تأسست هذه القوات عام (٢٠٠٦م)، بناء على قرار اُتخذ بإنشائها عام ٢٠٠٣م، بحيث يبلغ تعدادها ٨٠ ألف جندي.

ومما يعزز احتمالات احتدام المنافسة بين الأوروبيين والأمريكيين -بالرغم من انتمائهم الظاهر إلى ثقافة وحضارة وديانة واحدة- ذلك الاختلاف الجوهري بين الطرفين من الناحية المذهبية، فأمريكا ذات الأغلبية البروتستانتية، لا تنسجم ثقافيًّا مع أوروبا

(٤) هناك فرق بين الأحلام التي تخدمها الأفكار والمخططات والترتيبات عبر العقود المتوالية، وبين الأحلام التي يستيقظ أصحابها فجأة ليبشروا - ليس بقرب وقوعها - بل بحدوثها بالفعل بين ليلة وضحاها، وهذا هو الفارق بين فكرة (الولاية المتحدة الأوروبية) التي حلم بها (تشرشل) وبين فكرة (الولايات المتحدة الأفريقية) التي استيقظ عليها الزعيم الليبي (معمر القذافي)!

ذات الأغلبية الكاثوليكية، وبخاصة في شِقِّهَا الفاعل، وهو الشق الغربي. فباستثناء بريطانيا البروتستانتية، فإن جُلّ دول أوروبا الغنية والصناعية هي كاثوليكية المذهب، ولها مرجعية دينية تختلف عن البروتستانت الذين لا يؤمنون بمرجعية الفاتيكان ولا غيره. وقد ظهرت آثار ذلك الاختلاف داخل الاتحاد الأوروبي نفسه، الذي لا تزال بريطانيا (البروتستانتية) مترددة في الاندماج الكامل فيه، بدليل تأخُّرها للآن في اعتماد (اليورو) كعُملة رسمية.

لكن... على الرغم من المستقبل الواعد للاتحاد الأوروبي، في ضوء الوقائع والتوقعات التي تجعل أوروبا جامعة لذلك الحشد من مؤهلات الصعود القطبي، إلا أن هناك مشكلات تُؤَرِّق أحلام المستقبل الأوروبي في وراثة الزعامة الأمريكية، وهي الطبيعة السكانية المعاصرة لأوروبا؛ حيث ساهمت الثقافة الأوروبية الليبرالية المتفلتة من القيود، في نشوء ظواهر نتج عنها نقص المعدل الطبيعي في عدد الشباب، مقارنة بزيادة المعدل الطبيعي في أعداد كبار السن، ويبدو أن هذا ما قصده وزير الدفاع الأمريكي السابق (دونالد رامسفيلد) عندما وصف أوروبا بأنها (القارة العجوز)!

ويضاف إلى هذا وجود تناقضات ومحاور داخل الاتحاد الأوروبي عبر عنها التكتل (الفرنسي الألماني)، وكذلك افتقاد ذلك الاتحاد إلى قوى عسكرية مستقلة.

ثانيًا: الكتلة الآسيوية:

وتمثلها اليوم: الصين وروسيا والهند، فهي ثلاث قوى آسيوية تتجه نحو تكوين قوة استقطاب دولية واحدة. وهناك مؤشرات إلى توجهها -بالإضافة إلى إيران- نحو تحالف مشترك يبرزها ككتلة عالمية منافسة للقطب الأمريكي، وربما تنضم دولٌ أخرى إلى ذلك التكتل المرتقب، كبعض دول جنوب شرق آسيا التي كانت تسمى بـ (النمور الآسيوية) وعلى رأسها ماليزيا.

ونستعرض -باختصار- أهمّ القوى المكونة لهذه الكتلة الآسيوية الصاعدة:

١ - الصين: شكَّلت في السنوات الأخيرة ظاهرة اقتصادية خاصة في مشروعات التنمية الشاملة التي تأخذ طريقًا مستقلاً عن طريق المؤسسات الرأسمالية التي يرعاها الغرب، وقد ساعدها على ذلك استقرار سياسي، وانسجام قومي، اختلف عن محاولة الاتحاد السوفييتي الأخيرة للنهوض في عصر (جورباتشوف) عن طريق (البروستوريكا) التي أدت إلى تمزيق الاتحاد السوفيتي سياسيًّا وانهياره اقتصاديًّا.

ويسند هذا الانطلاق الاقتصادي استقرار سياسي في الصين، وتدعمه الثقافة الكونفوشية التي تعتمد مبدأ الطاعة المطلقة للسلطة، دون صخب في المعارضة باسم الديموقراطية، وقد ساعد هذا في إرساء استقرار سياسي، ساهم في البناء الاقتصادي، الذي أوصل الصين إلى نسبة نمو بلغت ١٠٪ ، وتشير التوقعات إلى أن الناتج القومي لها سيتجاوز في عام ٢٠٢٠م مجموع الناتج القومي لدول الغرب مجتمعة باستثناء أمريكا؛ ولهذا يتوقع الخبراء أن تتكافأ القوة الاقتصادية للصين مع القوة الأمريكية في مدة لا تزيد عن عام ٢٠٢٥م.

وقد قال المؤرخ الأمريكي (بول كيندي) في حوار مع قناة الجزيرة: إن الصين والهند سيشكلان قوى موازيةً لأمريكا قبل عام ٢٠٤٠م.

ويترافق مع التنافس الاقتصادي تنازع سياسي، قد يؤهل الصين للعب أدوار أكبر على الساحة السياسية في العالم، وتتنقل من الآن مواطن الصراع بين أمريكا والصين؛ حيث بدأت بكين في مطاردة النفوذ الأمريكي في بحر الصين الجنوبي ومضيق تايوان، وجعلت من ذلك إحدى استراتيجياتها في المواجهة السياسية والاقتصادية المقبلة مع أمريكا. والتنافس التاريخي المعاصر بين البلدين على كوريا الشمالية؛ سيتضح مع الوقت أنه يميل إلى صالح الصين، لعوامل عديدة ستجعل الخيار الصيني أمام تايوان وهونج كونج هو الأفضل. وقد تجد

اليابان نفسها -في حال ضعفت أمريكا- في حاجة إلى التقارب أكثر مع الصين الأقرب لها مكانيًّا وثقافيًّا، وقد تدفعها عوامل الرغبة أو الرهبة إلى الخروج من عزلتها العسكرية التي فرضتها عليها أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، متحررةً من الارتهان الكامل لأمريكا.

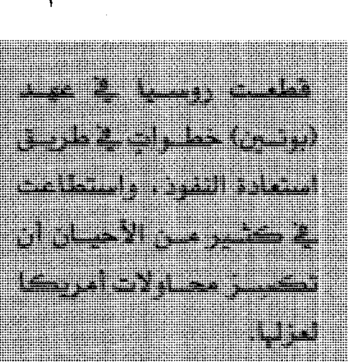
لكن لأننا نتحدث عن تراجع أمريكا، وليس عن غيابها، أو سقوطها فإن الصين بالرغم مما لها من إمكانات التصدر لمنافسة أمريكا على الزعامة في عالم متعدد القطبيات، إلا أن مؤهلاتها الهائلة للصعود -وفي مقدمتها القدرات الاقتصادية- لا تزال تفتقر إلى تغييرات أعمق وأشمل في السياسات الداخلية والخارجية لكي تعطي أَثَرَهَا دوليًّا، ولهذا فإن تلك القوة العظمى لن تكون بديلاً عن أمريكا في زعامة العالم، ولكنها ستكون -بحسب التقديرات الواقعية- إحدى القوى المنافسة والمزاحمة بالاشتراك مع القوى العظمى الأخرى.

٢ - روسيا:

يتنافس الاتحاد الروسي مع الصين لاحتلال أبرز مقاعد الزعامة في عالم ما بعد القطبية الواحدة، فقد عادت روسيا في عهد (فلاديمير بوتين) إلى انتهاج استراتيجيتها التقليدية في احتواء محاولات عزلها وحصارها من قِبَلِ الغرب، والعمل في الوقت نفسه على تعويض ما خسرته من مناطق نفوذ كانت تحت يدها أيام الاتحاد السوفييتي، وتسعى روسيا إلى إعادة بناء نفسها بناء ذاتيًّا من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، مصرة على استعادة هَيْبَتِهَا المفقودة؛ بسبب خسارتها للحرب الباردة مع الولايات المتحدة، كشرطٍ لا بد منه لاستعادة النفوذ -ولو بشكل تدريجي- في بلدان آسيا الوسطى والقوقاز، ففي تلك المناطق يطاردها نفوذٌ أمريكيٌّ متزايد، يحاول خَلْعَهَا من هناك، كما جرى خلعها من بلدان أوروبا الشرقية.

لقد قطعت روسيا في عهد (بوتين) خطواتٍ في طريق استعادة النفوذ، واستطاعت في كثير من الأحيان أن تكسِرَ محاولات أمريكا لعزلها، وقد شكلت تطلعاتها لمنافسة النفوذ الأمريكي في مناطق متفرقة من العالم عبئًا إضافيًّا على الولايات المتحدة، وهو ما جعل أمريكا مشتتة القوى في محاولة الاحتفاظ بفردانية السيطرة.

إلا أن روسيا مع ذلك ليست أيضًا مطلقة اليدين في محاولاتها استعادة الهيبة الدولية، فاقتصادها لا يزال متداعيًا، ولا يزال معتمدًا على تصدير ثروة النفط والغاز التي يحتاج إليها الداخل أكثر من الخارج، كما أن العسكرية الروسية لا تزال مهيضة الجناح بعد هزيمتها السابقة في أفغانستان، وتعثراتها اللاحقة في الشيشان، ومثلما تعاني أوروبا اليوم من «الشيخوخة» في الطبيعة السكانية لشعبها؛ فإن روسيا كذلك تشتكي من انخفاض معدلات عدد المواليد، ومن ثَمَّ قلة شريحة الشباب مقارنة بالشيوخ، وتزيد على أوروبا في ذلك بوجود مشكلة سوء الرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية، ولولا احتفاظ الروس بقوتهم النووية بعد ضعف قواهم الاقتصادية والعسكرية لأصبحوا من ضمن دول العالم الثالث، ومن الصعوبة بمكان أن يعود ما أنجزه الاتحاد السوفييتي السابق في سبعين عامًا، على يد الاتحاد الروسي بعد سبعة عشر عامًا ليكون منافسًا حقيقيًّا للقوة الأمريكية .



لذلك فلا يتوقع أن يكون لروسيا بمفردها دور عظيم مستقل في زعامة العالم، إلا من خلال التحالف مع قوى أخرى، تشاركها التطلع لمناكفة الأمريكيين في تفردهم بالزعامة العالمية.

وليقين كل من روسيا والصين أن كلاً منهما لا يمكنه وحده الوقوف أمام تفرد أمريكا بزعامة العالم؛ فقد جرت محاولات لتوحيد الجهود بين القوتين الكبيرتين، باتجاه إنشاء تكتل آسيوي فاعل، ولذلك تأسس (تجمع شنغهاي) عام ١٩٩٦م بين

روسيا والصين، بالإضافة إلى عدد من الجمهوريات الإسلامية التي كانت ضمن الاتحاد السوفييتي السابق، لتكوّن تلك الدول تكتلاً يغطي منطقة من أكثر مناطق آسيا اتساعًا في المساحة، وثراء في الإمكانات، وبخاصة ثروات النفط والغاز، إضافة إلى حيازة دول ذلك التجمع -وفي مقدمتها الصين وروسيا- لترسانات نووية ضاربة، تمثل قوة ردع حقيقية في مواجهة أطماع الولايات المتحدة وتهديداتها. كذلك فإن بلدان ذلك التجمع تشكل أراضيها نصف مساحة المعمورة تقريبًا وأكثرها صلاحية للزراعة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا التجمع يقترب من استقطاب كلٍّ من إيران والهند وماليزيا ومنغوليا، وربما تركيا، فإننا نجد أنفسنا أمام عالم شرقي جديد صاعد مرة أخرى في صياغة جديدة، في مواجهة العالم الغربي الذي يتجاهل للآن ذلك التجمع، وكأنه لا يريد لفت نظر العالَمَيْن العربي والإسلامي إليه، حتى لا تكتمل الصورة لـ (إمبراطورية الشر) أو (الشرق) التي ظل الغربيون يخوِّفون بها شعوبهم على امتداد أجيال!

٣ - الهند: هذه البلاد مرشحة أيضًا للقيام بدور فاعل في عالم ما بعد أمريكا، أو ما بعد تفرد أمريكا، والهند الآخذة في الصعود؛ تستغل انشغال أمريكا بورطاتها الاقتصادية والعسكرية، لكي تمكن لنفسها في بقية القارة الهندية، وهي لا تنسى استغلال ظروف غريمتها التقليدية (باكستان) لكي ترسخ قوتها العسكرية في ظل حالة استقرار سياسي وانطلاق اقتصادي، يميزها عن باكستان بكل أسف، بعد أن ألقت الزعامة الباكستانية الحالية بالبلاد في أحضان الرهان الأمريكي الخاسر، إذا تلاقت مصالح الصعود الهندي مع نظيريه في الصين وروسيا؛ فإن الهنود قد يجدون أنفسهم أكثر انسجامًا مع عالمهم الشرقي المتطلع إلى وراثة الهيمنة الغربية المسيطرة على العالم منذ عدة قرون.

٤ - اليابان: ويمثل ذلك العملاق الاقتصادي قوةَ ضغط كبيرة على أحلام أمريكا في إبقاء زعامتها للعالم اقتصاديًا، فاليابان هي إحدى أكبر دول العالم تقدمًا من الناحية الاقتصادية والتقنية، ويحتل ناتجها القومي المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية، ومنتجاتها المفضلة لدى أكثر شعوب العالم، تطارد بمواصفات جودتها كل الماركات العالمية في الأسواق الدولية.

لكن ما يعكر على توقعات احتلال اليابان لمساحة أكبر على ساحة التأثير القوي في المعادلات الدولية، أنها مع تحولها لعملاق اقتصادي، فإنها لا تزال قزمًا سياسيًا؛ بسبب استمرار حرمانها من بناء قوة عسكرية، كأحد استحقاقات انتصار أمريكا عليها في الحرب العالمية الثانية، وقد انعكس هذا الضعف العسكري على الأداء السياسي، وهو ما لا يؤهل اليابان للقيام بدور مستقل في مستقبل عالم متعدد القطبيات.

ثالثًا: قطب جديد غير منظور:

إن هناك ما يشبه قطبًا دوليًا آخر، يتوقع بعض المراقبين أن يكون له تأثير في مجريات الأحداث وتوازنات القوى في العالم، يجيء الاعتراف به من أطراف غربية وأمريكية، وليس فقط من أطراف إسلامية أو عربية، وهذا القطب هو ما سماه (مايكل وينستين): «حركات الإسلام السياسي والجهادي»، وذلك في مقاله المذكور سابقًا بعنوان (عالم متعدد الأقطاب قيد التشكيل)؛ حيث يرى (دينستين) في استعراضه لملامح النظام العالمي المتعدد الأقطاب والمتوقع حصوله قريبًا؛ أن تلك الحركات العابرة للحدود أو المستقرة في بلادها، لم تستطع أمريكا بكل جبروتها الذاتي وتحالفاتها الخارجية، أن تحتوي خطرها أو تحد من قدراتها، بل إن الأحداث تؤكد -كما يقول- أن تلك الحركات وإن لم تتأهل للبروز كقوة مستقلة ذات وجود على خارطة العالم، إلا أنها تملك القدرة على تقويض الاستقرار الذي تحتاجه أمريكا لاستكمال أكثر مشاريعها في ذلك العالم، ويقول هذا الكاتب صراحة: «إن الولايات المتحدة سيكون عليها خلال العقود القادمة مواصلة تكريس مواردها العسكرية والاقتصادية ونفوذها الدبلوماسي لاحتواء المد الأصولي، وستظل الأوضاع في الشرق الأوسط تشغل بال أمريكا، في

الوقت الذي ستسعى فيه باقي القوى الإقليمية والعالمية لاغتنام الفرص لتحقيق أهدافها الاستراتيجية على حسابها»!

أما نحن فنستطيع أن نعد هذا القطب غير المنظور، الجنين المنتظر للمخاض العسير والطويل للأمة الإسلامية.

لا شك أن تحفز كل القوى المذكورة سابقًا (الكتلة الأوربية – الكتلة الآسيوية – الانبعاث الإسلامي) لمنازلة الإمبراطورية الأمريكية في جميع المجالات، سينشئ تناوبًا في جولات (صراع الإرادات) مع الولايات المتحدة الأمريكية، وعندها لن يستطيع (الأسد) الأمريكي المتشرد والمعتدي أن يظل سيد الغابة، إذا ثارت عليه كل هذه الغابة بما فيها من أقوياء وضعفاء. لا بد أن يتنحى لآخرين ويترك الصدارة للآخرين.. فهذه دلالات الواقع ودروس تاريخ.

العرب والمسلمون، وعالم القطبية المتعددة:

هناك الكثير مما يمكن قوله عن مآلات العالم الإسلامي في مرحلة ما بعد التفرد الأمريكي من حيث احتمالات نهضته، وتحرر إرادته، وأيضًا من حيث تبعات ما بعد العصر الأمريكي من تحديات قد تجد أو تشتد، وسأختصر الرؤية في ذلك في النقاط الآتية:

من بلدان العالم الإسلامي -وبخاصة أفغانستان ثم العراق ومنطقة الخليج- أُسدل الستار على عصر القطبية الثنائية بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، وذلك عندما أعلن جورج بوش الأب بعد حرب الخليج الثانية عن قيام نظام عالمي جديد، يقوم على قطبية واحدة للولايات المتحدة الأمريكية، وحيث كان ذلك متزامنًا مع هزيمة الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، ودخول المجاهدين إلى العاصمة كابل، فإن ذلك يؤكد على أن الصراع على العالم الإسلامي كان نقطة تحول جوهرية في موازين القوى الدولية.

بسبب المظالم الواقعة على العالم الإسلامي، وبخاصة فلسطين، وقع زلزال الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، الذي امتدت توابعه من أفغانستان إلى العراق، ليكون التورط الأمريكي هناك هو بداية التراجع الحادّ للولايات المتحدة، ومن ثَمَّ بداية ظهور علامات لنشأة نظام عالمي آخر، ينتقل من نظام القطبية الواحد، إلى نظام القطبيات المتعددة.

تؤكد هذه التحولات العظام، أن الأمة الإسلامية -خير أمة أخرجت للناس- ليست هامشية في مراحل التاريخ المعاصر، كما أنها لم تكن يومًا هامشية في المراحل الماضية، حيث شاء الله أن يكسر بسببها وبجهاد أبنائها هيبة أعظم قوتين طاغيتين في العصر الأخير، وهي الاتحاد السوفيتي، ثم الاتحاد الأمريكي، وهو ما يدل على أن تلك الأمة قد هيأها الله شرعًا وقدرًا لأن تظل حتى نهاية التاريخ خير أمة أخرجت للناس، حتى وإن تفرقت أو ضعفت.

كان هناك دور رئيس لـ ((الاتحاد الإسلامي العالمي)) قبل الاتحاد السوفييتي والاتحاد الأمريكي والاتحاد الأوروبي، ومبدأ الاتحاد الإسلامي المعبر عنه تاريخيًّا وشرعيًّا بـ (الخلافة الإسلامية) كان وسيظل هو التجسيد الواقعي للتهيئة الإلهية -القدرية والشرعية- للدور الإصلاحي لهذه الأمة بين سائر الأمم، وكان شغور الزمان من هذا الاتحاد خلال العقود الماضية هو السبب الأكبر في تضاعف المحن على الأمة، واستفراد الأعداء بشعوبها، وقابلية هذا الاتحاد للعودة غير مستحيلة من الناحية الواقعية، إضافة إلى فرضيته من الناحية الدينية.

التراجع الأمريكي سيصب حتمًا في صالح الأمة الإسلامية، وذلك عندما يستفيد المسلمون من تفاعلاته في المستقبل المنظور، ويمكن للعالم الإسلامي أن يتخطى مرحلة الابتزاز الأمريكي، كما تجاوز مرحلة الهمجية الروسية أيام الاتحاد السوفييتي، الذي كان كيانه الضخم يعتمد على أجزاء كبيرة من البلدان الإسلامية في آسيا الوسطى.

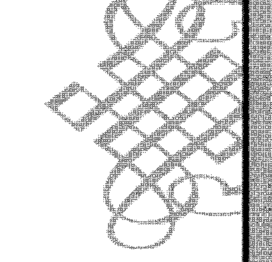
يظل تفرُّق وتمزُّق الأنظمة السياسية -في العالمين

العربي والإسلامي- العقبة الكؤود أمام نهضة الأمة من كبواتها؛ حيث أصبحت تلك الأنظمة بتشتتها وتهافتها على مصالحها الخاصة، جزءًا من المشكلة وليست جزءًا من الحل لمشكلات الأمة المستعصية، حيث لا تكتفي بعدم القيام بدورها في التحدي والتصدي لمشاريع الهيمنة على الأمة، بل تمنع -في أكثر الأحيان- الشعوب من القيام بدورها الواجب والمصيريّ، كما هو حادث تجاه حصار فلسطين، وتقسيم العراق، واجتياح الصومال، والضغط على السودان، والتحرش بباكستان، والتآمر على بقية البلدان.

العالم مُقبِل على أزمنة أزمات.. هذه خلاصة عشرات التحليلات والدراسات، ولكن أخطر الأزمات زمانة، هي أزمات أمريكا الواقعة والمتوقعة، حيث ربطت العديد من دول العالم مصالحها بها، ورهنت مصيرها بمصيرها، ولهذا فمن واجب عقلاء الأمة أن يبادروا للتنادي بالنأي عن ذلك الجدار الذي سينهار، مع من يرتكن إليه، وذلك في كل المجالات، وبخاصة الاقتصادية والعسكرية.

الأقطاب المُرَشَّحَة للصعود إلى مسرح السياسة الدولية كقوى عظمى، ليست مبرأة من الأطماع فينا أو التآمر علينا، وأحوال المسلمين في أكثر تلك البلدان تدل على ذلك، ومع اضطرار المسلمين لمعاملتهم، فالواجب من الآن إحكام التصورات في طرائق التعاملات معهم، من حيث الحذر في مواطن الحذر، والتعاون فيما يصح فيه التعاون، والمهادنة -دون مداهنة- لتقليل العداءات المحتملة، والخصومات المفتعلة التي ستحرص عليها حتمًا أيّ قوى جديدة عظمى جديدة.

العالم الإسلامي سيظل محط أطماع القوى الكبرى، وسيبقى أعداؤه أكثر من أصدقائه، هذه قراءة التاريخ وحقيقة الواقع، ولهذا سيظل هاجس كل قوة متحدة فيما بينها، أن تُبقي على اتحاد المسلمين كإحدى ذكريات التاريخ، ولذلك فإن أعين الأجيال الإسلامية، لا ينبغي أن تغفل عن وضع قضية الوحدة، في مقدمة مشاريعها الاستراتيجية المستقبلية، وإذا كان عصرنا هذا هو عصر الشعوب، وإذا كان الإسلاميون اليوم هم القادة الحقيقيون لهذه الشعوب؛ فإن من واجبهم الذي لن يعذروا فيه، أن يبحثوا من الآن في كل الوسائل والسبل التي من شأنها تحقيق فريضة الاعتصام بحبل الله، ورَصّ الصفوف على منهج الله، واجب الإسلاميين أيضًا، وقد جعل الله طبقة النخبة الفاعلة والمثقفة في الأمة منهم فيهم؛ أن يسابقوا إلى حجز المقاعد الأولى في قطار الانطلاق بهذه الأمة إلى عصر الصعود الإسلامي، بُعيد عصر التراجع الأمريكي، الذي يظن البعض أنه أمنية حالمة، في حين أن آخرين يرونه حتمية لازمة.



معلومات إضافية

الإنفاق العسكري للولايات المتحدة الأمريكية والصين(*) وروسيا خلال الأعوام الأربعة الماضية (من ٢٠٠٤ حتى ٢٠٠٧)

	عام ٢٠٠٤م	عام ٢٠٠٥م	عام ٢٠٠٦م	عام ٢٠٠٧م	المجموع
الولايات المتحدة الأمريكية	٥٣٤(**)	٥٥٤	٥٧١,٦	٦٢٦,١	٢٢٨٥,٧
الصين	٢٥,٠	٢٩,٩	٣٥,٠	٤٥,٠	١٣٤,٩
روسيا	١٤	١٨,٧	٢٤,٩	٣١	٨٨,٦

(*) بحسب الأرقام الرسمية التي أعلنتها الحكومة الصينية، وقد يحدث اختلاف طفيف بين إحصائية وأخرى، فيما يلاحظ فارق شاسع إذا قورنت بالإحصائيات الصادرة عن مصادر الأمريكية؛ حيث تقول الولايات المتحدة: إن الصين تتعمد إخفاء الأرقام الحقيقية لإنفاقها العسكري

(**) الأرقام الواردة بالمليار دولار أمريكي.

المصادر:

http://www.globalissues.org

http://www.globalsecurity.org

منظمة شنغهاي للتعاون (SCO)

نشأة المنظمة ونشاطاتها

تم إعلان إنشاء منظمة شنغهاي للتعاون (SCO) في ١٥ يونيو عام ٢٠٠١م بعضوية كل من روسيا والصين وكازاخستان وأوزبكستان وقيرغيزستان وطاجيكستان، ومُنحت منغوليا وضع المراقب ضمن المنظمة في عام ٢٠٠٤م، فيما أصبحت كل من الهند وباكستان وإيران من الدول التي تتمتع بوضع المراقب فيها في العام التالي ٢٠٠٥م.

تعود البداية الفعلية للمنظمة إلى عام ١٩٩٦م حين أخذت الصين زمام المبادرة بالدعوة لإنشاء مجموعة شنغهاي للدول الخمس، أو خماسي شنغهاي (TheShanghai Five) التي ضمت روسيا والصين وكازاخستان وطاجيكستان وقيرغيزستان.

تم توقيع قيام مجموعة شنغهاي للدول الخمس ، في إطار الزيارة التاريخية للرئيس الروسي بوريس يلتسن إلى الصين في أبريل عام ١٩٩٦م، وقد نصت اتفاقية إنشاء مجموعة شنغهاي على إقامة منطقة منزوعة السلاح على طول الحدود بين الصين والدول الأربع الأعضاء. والتي تبلغ حوالي ٨ آلاف كيلومتر. بالإضافة إلى التعهد بعدم قيام أي جيش من جيوش الدول الخمس بمهاجمة جيش دولة أخرى من



الدول الأعضاء، كما حظرت الاتفاقية إجراء أية مناورات عسـكرية تستهدف أيًّا من الدول الأخرى، وضرورة إبلاغ تلك الدول بحجم أي مناورات تنوي القيام بها.

وتم الاتفاق على دورية انعقاد القمة سنويًّا بالتناوب في أقاليم الدول الأعضاء، حيث استضافت موسكو القمة الثانية في ٢٧ أبريل عام ١٩٩٧م، واستضافت «آلما آتي» العاصمة (القديمة) لكازاخستان اجتماع القمة الثالثة في عام ١٩٩٨م، وشهدت القمة الرابعة، التي عقدت في أغسطس ١٩٩٩م في العاصمة القيرغيزية «بشكيك» جهودًا نحو توسيع نطاق المنظمة من مجرد الاقتصار على التنسيق لحل قضايا الحدود إلى توسيع نطاق التعاون في المجالات الأمنية الأخرى (خاصة مع صعود الحركات الإسلامية المسلحة في آسيا الوسطى نهاية التسعينيات).

وفي العاصمة الطاجيكية «دو شانبيه» عقدت القمة الخامسة للمجموعة في ٥ يونيو عام ٢٠٠٠م، وحضرها الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف كمراقب؛ حيث لم تنضم أوزبكستان كعضو كامل العضوية إلا عام ٢٠٠١م.

وفي القمة المنعقدة في مدينة شنغهاي في الفترة من ١٤ إلى ١٥ يونيو عام ٢٠٠١م، تم توقيع إعلان إنشاء منظمة شنغهاي للتعاون بدلاً من مجموعة شنغهاي للدول الخمس، وذلك بعد الإعلان عن انضمام أوزبكستان إليها كعضو كامل العضوية، وتم توقيع معاهدة للدفاع المشترك ضد «الإرهاب الدولي والتطرف الديني والحركات الانفصالية»، كما تم الاتفاق على إنشاء مركز إقليمي لمكافحة الإرهاب، على أن يكون مقره «بشكيك» عاصمة قيرغيزيا، وقد سيطرت على أعمال تلك القمة القضايا الأمنية.

وتوالت بعد ذلك دورية الانعقاد حتى قمة السادس والعشرين من أكتوبر ٢٠٠٥م التي عقدت في الكرملين بموسكو، بعد ثلاثة أشهر فقط من انعقاد القمة الخامسة (منذ التأسيس الجديد للمنظمة) في ٥ يوليو ٢٠٠٥م في كازاخستان.

وتزامن عقد اللقاء في موسكو مع ظهور تقارير لخبراء روس تحدثت عن مشروع المنظمة في إنشاء تحالف عسكري، وأن هذا التحرك لإقامة هذا الحلف بدأ عمليًّا، وأنه سيعتمد في البداية على جهود روسيا والصين قبل التحاق بقية أعضاء المنظمة به، مرجحين أن يتبلور في شكل كامل في غضون ما بين خمسة وعشرة أعوام.

كما تزامن هذا الإعلان والتحرك مع حالة عدم الرضا تجاه الوجود العسكري الأمريكي في منطقة آسيا الوسطى عند غالبية الدول الأعضاء في منظمة شنغهاي، التي اعتبرت أن الوجود الأمريكي أصبح عنصر توتر إقليمي بالنسبة للمنظمة... وقد رجح الخبراء أن الحلف العسكري الذي بدأ نواته بالتشكيل لن يخوض في مواجهة مباشرة مع حلف الأطلسي، ولكن يعتقد أن دوره سيقتصر على تقليص نفوذ واشنطن والحلف الغربي في المنطقة.

وفي ١٥ يونيو ٢٠٠٦م، عقدت بمدينة شنغهاي الصينية القمة السابعة للمنظمة بمشاركة الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد في أعمالها، واعتبر محللون سياسيون أن هذه القمة بعثت برسالة هامة مضمونها الرئيسي أن «القوة العظمى الأمريكية لم تعد وحدها تنفرد بالهيمنة على عالمنا المعاصر مثلما



كانت تفعل من قبل»، حيث «أضحت أمام منافسة كبيرة من قبل مجموعة من الدول التي شقت عصا الطاعة، وشرعت تجاهر بأن العالم لم يعد تحكمه الأحادية القطبية، وأن عصر التعددية القطبية قد أزف».

وقال المحلل السياسي البريطاني «باتريك سيل»: إن «منظمة شنغهاي للتعاون» ـ التي يزداد دورها ونفوذها باطراد ـ أصبحت «تحديًا كبيرًا للهيمنة الأمريكية، خاصة وأن هذا التحدي يأتي لواشنطن من منطقة المحيط الهادئ الآسيوية».

وفي أغسطس ٢٠٠٧م استضافت العاصمة القيرغيزية بشكيك القمة الثامنة والأخيرة للمنظمة التي شهدت دعوة صريحة من الرئيس الصيني هو جينتاو للمنظمة بالعمل على إنشاء نظام عالمي متعدد الأقطاب.

ورافق انعقاد القمة إجراء المناورات العسكرية المشتركة (مهمة السلام ٢٠٠٧م) بين روسيا والصين ودول المنظمة الأربع الأخرى، ما زاد من آمال عودة التوازن الدولي، وتشكيل نظام عالمي جديد متعدد الأقطاب، لاسيما مع تزايد التسلح الروسي نتيجة الوفرة الهائلة في عائدات النفط، والتنسيق العسكري الروسي الصيني، وإعادة موسكو طلعاتها الجوية الاستراتيجية بأسلحة نووية قادرة على محو العواصم الأوروبية من الوجود.

الثقل الإقليمي لدول المنظمة:

يبلغ إجمالي مساحة دول المنظمة حوالي ٤٠ مليون كيلومتر مربع، فمساحات خمس دول فقط هي (روسيا والصين والهند وباكستان وإيران) حوالي ٣٢ مليون كيلومتر مربع، أي أكبر أربع مرات تقريبًا من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية (٩,٣ مليون كم٢).

ترتبط هذه الدول بحدود برية مشتركة مما يساعد على تشكيل تجمع فاعل، ويقدر عدد سكانها بحوالي ٣ مليارات نسمة، أي حوالي ٥٠٪ من سكان العالم، حيث يضم دولتين هما الصين والهند اللتان يتجاوز عدد سكان كل منهما مليار نسمة، كما تضم دولتن يزيد عدد سكان كل منهما على ١٥٠ مليون نسمة.

الإنفاق العسكري:

بلغ الإنفاق العسكري للصين وروسيا في عام ٢٠٠٥م حوالي ٤٨,٦ مليار دولار (٢٩,٩ مليار دولار للصين، و١٨,٧ مليار دولار لروسيا)، بحسب الأرقام الرسمية، فيما وصل إجمالي الإنفاق الدفاعي لدول المنظمة في العام نفسه إلى حوالي ١٢٠ مليار دولار.

وفي عام ٢٠٠٦م ارتفع الإنفاق العسكري للصين وروسيا إلى ٦٠ مليار دولار (الصين ٣٥,١ وروسيا ٢٤,٩)، وواصل ارتفاعه في عام ٢٠٠٧ ليصل إلى ٧٦ مليار دولار (الصين ٤٥ مليار دولار، وروسيا ٣١ مليار دولار).

(مع ملاحظة أن بعض التقارير الغربية تشكك في الأرقام الرسمية للإنفاق الدفاعي الصيني، وتعتبر أن إجمالي نفقات الصين الدفاعية الحقيقية «تبلغ مِثلَيْ أو ثلاثة أمثال» الميزانية العسكرية التي تعلنها حكومة بكين).

ويقدر إجمالي القوات المسلحة لدول المنظمة بنحو ٦ ملايين مقاتل.

تضم المنظمة أربع دول نووية، منها اثنتان من الخمس النووية الكبرى في العالم، هما روسيا والصين، كما انضمت كل من الهند (تمتلك أكثر من ٦٠ سلاحًا نوويًا) وباكستان (من ١٥ إلى ٢٥ سلاحًا نوويًا) إلى النادي النووي، هذا بخلاف موقف إيران الغامض حتى الآن، وما يتردد عن احتمال امتلاكها أسلحة نووية، طبقًا للاتهامات الأمريكية والأوروبية الغربية.

وهناك مصالح متبادلة بين روسيا، أحد أكبر مصدري السلاح في العالم وبقية دول المنظمة، خاصة الصين التي يتزايد إنفاقها العسكري بينما تواصل أوروبا والولايات المتحدة فرض حظر البيع لها.

منظمة شنغهاي والتناقضات الصينية ـ الأمريكية

خلال السنوات الأخيرة تحولت أجندة عمل منظمة شنغهاي لتتضمن قضايا وأبعادًا أمنية، نتيجة التحولات المهمة التي شهدتها البيئة الدولية خلال هذه السنوات، خاصة مشروع الدرع الصاروخي الأمريكي، وأحداث ١١ سبتمبر، ونجاح الولايات المتحدة في تطوير علاقاتها الدفاعية والعسكرية مع عدد من دول آسيا الوسطى على خلفية الحرب في أفغانستان، واستقرار الهيمنة الأمريكية على النظام الدولي والتفاعلات الدولية، وتبنيها منهجًا أحاديًا في إدارة الأزمات الدولية.

وقد انعكست على بيانات المنظمة بشكل واضح التناقضات الأمريكية ـ الصينية بشأن عدد من المبادئ ذات الصلة بجوهر العلاقات الدولية الراهنة، خاصة مبادئ الدولة ذات السيادة، وعدم التدخل في الشئون الداخلية للدول؛ إضافة إلى تناقضات تتصل بأدوات إدارة العلاقات والصراعات الدولية.

وأكدت مختلف البيانات الصادرة عن المنظمة، على ضمان حق كل شعب في اختيار طريق تطوره السياسي بصورة حرة (في إشارة إلى نقد التدخل الأمريكي في عمليات الإصلاح السياسي والتحول الديمقراطي)، وإقامة نظام عالمي متعدد الأقطاب، ورفض الهيمنة الأمريكية على العلاقات الدولية، والاستناد إلى قواعد القانون الدولي والأمم المتحدة، وضرورة مراعاة واحترام التقاليد التاريخية والمميزات القومية لكل شعب فيما يتعلق بحقوق الإنسان.

المصادر:

- لواء د. جمال مظلوم، التعاون الصيني - الروسي في إطار منظمة شنغهاي، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٦٤ أبريل ٢٠٠٦م. (بتصرف).

- باتريك سيل، منظمة شنغهاي.. خطوة إيجابية لكسر الأحادية الأمريكية، الموقع الإلكتروني للمركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب http://www.icaws.org

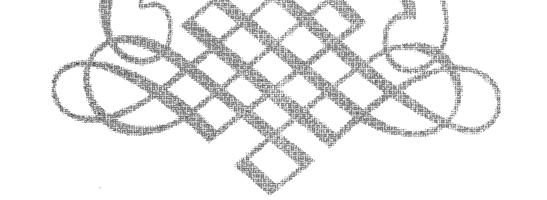
- عاطف عبد الحميد، شنغهاي.. إفاقة متأخرة وقسمة عادلة، الجزيرة نت، ٢٨ أغسطس ٢٠٠٧م.

- موقع جلوبال سيكوريتي http://www.globalsecurity.org

(*) - لواء د. جمال مظلوم، التعاون الصيني - الروسي في إطار منظمة شنغهاي، مرجع سابق.

- محمد فايز فرحات، هل تتحول منظمة شنغهاي إلى حلف شرق آسيوي؟، ملف الأهرام الاستراتيجي ـ العدد ١٤٠ أغسطس ٢٠٠٦م (بتصرف).





واقع ومستقبل المشروع الإمبراطوري الأمريكي

د. مازن النجار

(باحث وأكاديمي عربي)

ملخص البحث

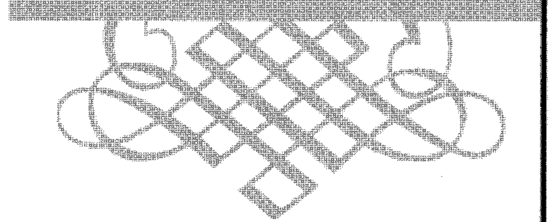
تمر الولايات المتحدة الأمريكية اليوم بمنعطف فريد في تاريخها. فلم يعرف البيت الأبيض في تاريخه الطويل رئيسًا أيديولوجيًّا كما هو جورج دبليو بوش، أو إدارة إمبريالية التوجّه كإدارته التي سيطر عليها منذ البداية «المحافظون الجدد»، واستغلوا توجهات الرئيس «الإنجيلية» النبوءاتية، واختياراته «المثالية» البسيطة لفرض أيديولوجيتهم وفكرهم على القطب الأوحد في العالم.

احتل المشروع الإمبراطوري للرئيس جورج بوش معظم سنوات ولايتيه الرئاستين، ومعظم حراك إدارته. وفي ضوء تكاليفه الباهظة ونتائجه الهزيلة وآفاقه المجهولة، يوشك هذا المشروع أن يصل منتهاه مع انطلاق الحملة الانتخابية الرئاسية التي بدأت انتخاباتها الحزبية التمهيدية لاختيار مرشحي الحزبين المتنافسين ببداية العام الجديد.

وخلال السنوات السبع العجاف الماضية طرأت تغيرات وتبدلات عديدة على التجربة الأمريكية يمكن من خلالها رؤية ملامح، أو آفاق السنوات القادمة في هذه التجربة، فقد ولّدت «الحرب على الإرهاب» ثقافة الخوف في الولايات المتحدة، وأحدثت تأثيرًا مدمرًا على الديمقراطية الأمريكية والنفسية الأمريكية، ومكانة الولايات المتحدة في العالم، وأدت السياسات الاقتصادية التي انتهجتها إدارة بوش لاضطرابات سياسية واجتماعية، فيما شكلت الفوضى التي صنعتها سنوات بوش في الشرق الأوسط تهديدًا أساسيًّا للاقتصاد العالمي.

ولم يعد ممكنًا تجاهل الفجوة المتزايدة بين أهداف أمريكا الكونية المعلنة وبين قدراتها العسكرية على تحقيق هذه الأهداف، خاصة مع تزايد تكاليف الحروب الأمريكية وتفاقم أعباء جيشها، ووقوعها في مأزق الأحادية العسكرية، وقصور مواردها عن الوفاء باحتياجات المشروع الإمبراطوري، ما يقود لنهاية حقبة تفرد الهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط «الجديد».

إن التحولات الجوهرية الخطيرة في الأولويات الاستراتيجية الأمريكية، من احتواء روسيا والصين إلى إخضاع الشرق الأوسط لا يفسرها إلا تسخير المحافظين الجدد للاستراتيجية الأمريكية لخدمة المشروع الإسرائيلي، والتمكين له في منطقة يجب أن يُعاد صوغها لتصبح خاضعة له، وعاجزة أمامه. ويمكن اعتبار مؤتمر أنابولس هو تدشين تحول جديد لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وقضية فلسطين. بعدما قدمها على أنها ساحة أخرى للحرب على الإرهاب والتطرف الأصولي، وليست قضية احتلال وطن وشعب يطالب بالاستقلال وعودة الديار.



أفكار ومقتطفات

- لم يعرف البيت الأبيض في تاريخه الطويل رئيسًا أيديولوجيًّا كما هو جورج دبليو بوش، أو إدارة إمبريالية التوجّه كإدارته التي سيطر عليها منذ البداية «المحافظون الجدد» وأشباههم وبرنامج اهتماماتهم وأولوياتهم.

- صنعت «الحرب على الإرهاب» ثقافة الخوف في الولايات المتحدة. فقيام إدارة بوش بتحويل هذه الكلمات الثلاث إلى شعار وطني، منذ أحداث ١١ سبتمبر/أيلول، كان له تأثير مدمر على الديمقراطية الأمريكية والنفسية الأمريكية ومكانة الولايات المتحدة في العالم.

- الدعم الذي تلقاه الرئيس بوش في انتخابات ٢٠٠٤م الرئاسية يعود جزئيًّا إلى فكرة أن «أمة في حالة حرب» لا تغير القائد الأعلى لقواتها المسلحة في منتصف المعركة. فالإحساس بالخطر، وإن لم يكن محددًا أو دقيقًا، قد تم توجيهه نحو اتجاه سياسي نفعي من قبل النداء التعبوي؛ لكون البلاد في «حالة الحرب».

- العبارة الشائعة في أروقة الإدارة الأمريكية هي أننا نحارب في العراق؛ لأن هذا البلد هو «الجبهة المركزية في الحرب على الإرهاب»، بينما الحقيقة هي العكس تمامًا. فنحن متورطون فعلاً بحرب عبثية لا يمكن كسبها ضد الإرهاب، وكان مطلوبًا اختراعها ذريعة لغزو العراق، هكذا يخلص إيان لاستك، أستاذ العلوم السياسية بجامعة بنسلفانيا.

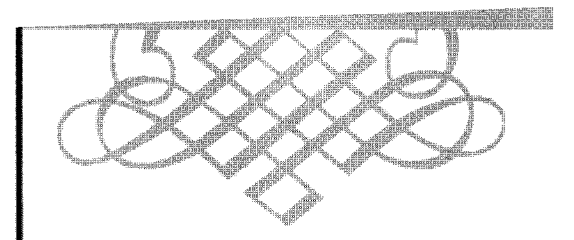
- الفوضى التي ولدتها سنوات بوش في الشرق الأوسط تشكل أيضًا تهديدًا أساسيًّا للاقتصاد العالمي. فمنذ بدء حرب العراق في ٢٠٠٣م لم يرتفع إنتاج نفط الشرق الأوسط، الأقل كلفة في العالم، كما كان متوقعًا ليلبي الطلب العالمي. وتجاوز سعر برميل النفط المائة دولار، رغم اعتدال نمو الطلب، نظرًا لتباطؤ الاقتصاد الأمريكي، مما يمثل مخاطر عالمية.

- تعود جذور مشكلة الاقتصاد الأمريكي لإجراءات اتُّخِذَت في بداية ولاية بوش الأولى؛ خاصة تخفيضات ضريبية أخفقت في تحفيز الاقتصاد؛ لأنها صُمِّمَت لصالح دافعي الضرائب الأكثر ثراء.

- في حملة الانتخابات التشريعية الأمريكية الماضية (٢٠٠٦م)، لمس مراقبون توجهًا لدى الناخبين نحو «الوطنية الاقتصادية» المتمثلة بدعم وحماية الإنتاج الوطني، وحماية فرص عمل الأمريكيين من تهديد العمالة الوافدة، أو نقل مراكز الإنتاج إلى دول العمالة الرخيصة، وخفض العجز في الميزان التجاري، وتقليص النزعة التدخلية وأعبائها التي تفاقم عجز الموازنة والاستدانة.

- قدرات أمريكا العسكرية، ليست الغواصات أو حاملات طائرات أو قاذفات بي- ٢ العملاقة، وإنما قوات الجيش الموجودة على الأرض، والمنتشرة بخطوط طويلة تفوق قدراتها، ووحدات مشاة البحرية بالعراق وأفغانستان. لا حاجة لعبقرية عسكرية لإدراك أن هذه القوات وصلت آخر حدود قدرتها على الاحتمال، بل غدت أقل كثيرًا بالنسبة للتوقعات والمهام المطلوب منها بأرجاء العالم.

- في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٦م، أعلن الجنرال جون أبي زيد، أعلى قائد عسكري مكلف بالعراق، أن الجيش غير قادر على زيادة قواته بالعراق، كأول اعتراف يصدر عن مسئول عسكري رفيع بأن القوات البرية الأمريكية وصلت حدود طاقتها في العمل العسكري.



- يلاحظ فوكوياما أن العقيدة العسكرية الأمريكية تعتمد استخدام القوة المفرطة وبشكل مفاجئ وحاسم لدحر العدو. لكن القوة المفرطة، في ظل غموض هوية الميليشيات والمسلحين، ستولد آثارًا عكسية؛ وستعزل الذين يحاولون دحر المسلحين ومنعهم من الحراك. فنوعية الحملة المطلوبة لدحر «الميليشيات» و«الإرهابيين» المؤقتين، تقتضي تقديم الأهداف السياسية على العسكرية، وتؤكد على كسب القلوب والعقول لا ترويعها.

- ساهمت الولايات المتحدة بزيادة قوة إيران إقليميًا باحتلالها للعراق وإسقاط نظام البعث، وإيصال أحزاب شيعية مؤيدة لإيران للسلطة في العراق.

- بنهاية ولاية بوش، يُرجح أن يتحول مركز الاهتمام الأمريكي إلى المحيط الهادي. وستتبنى الإدارة القادمة سياسة خارجية أقرب لسياسات الرؤساء الديمقراطيين أو الجمهوريين المعتدلين. وستصبح إدارة المخاطر حاكمة بدون مغامرات على نمط غزو العراق. كما أن دور باكوم في حوض الهادي لن يكون مقيدًا بالسياسة الداخلية في واشنطن، أو ما يشابه اللوبي الإسرائيلي.

- المرجح أن الصين سوف تواجه مخططات الاحتواء والردع بعدة طرق. فهي دولة ذات عقلية دفاعية، بتطوير أساليب وتقنيات تواجه التفوق العسكري الأمريكي، وجيشها شديد الاجتهاد والتوق للتعلم والتكيف. ودفعت حروب كوسوفو والعراق مخططي الجيش الصيني للتركيز على مواجهة هيمنة التكنولوجيا الأمريكية في أرض المعركة.

- التحول الخطير في أولويات الاستراتيجية الأمريكية من احتواء روسيا والصين إلى إخضاع الشرق الأوسط، لا يفسره إلا تسخير المحافظين الجدد للاستراتيجية الأمريكية لخدمة المشروع الإسرائيلي، والتمكين له، في منطقة يجب أن يعاد صوغها لتصبح خاضعة له، وعاجزة أمامه.

- يلاحظ الجنرال وليم أودوم أن «تقديرات الاستخبارات الوطنية حول العراق» الصادرة بداية ٢٠٠٧م، تحدد أبعاد الفجوة بين أوهام الرئيس وواقع الحرب. فإن كان الانتصار، كما يراه الرئيس، يشترط ديمقراطية ليبرالية مستقرة بالعراق وموالية لأمريكا، فتقديرات الاستخبارات الوطنية تصف حريًا لا حظ لها في تحقيق تلك النتيجة. فهذه التقديرات، التي تعكس رأي وكالات الاستخبارات الأمريكية، تمثل إعلان هزيمة. فلم تكن هناك أبدًا طريقة صائبة لغزو العراق وتحويله نحو الديمقراطية، ويعلم معظم الأمريكيين ذلك يقينًا.

- شهد مؤتمر أنابولس أواخر نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧م تدشين تحول جديد لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وقضية فلسطين، على جدول الأعمال الأمريكي الإسرائيلي، وربما «الفلسطيني والعربي الرسمي» أيضًا. فالقضية الفلسطينية لم تعد قضية احتلال وطن وشعب يطالب بالاستقلال وعودة الديار، بل هي ساحة أخرى للحرب على الإرهاب والتطرف الأصولي.

- بدا مؤخرًا أن موضع الخلاف الأكبر بين واشنطن وطهران هو دور الأخيرة وطموحاتها الخطرة في العراق، وهو خلاف جيوسياسي بالغ الأهمية، قد يفوق في أولويته وأهميته الراهنة لإدارة بوش الخلاف حول الملف النووي.

واقع ومستقبل المشروع الإمبراطوري الأمريكي

د. مازن النجار : باحث وأكاديمي عربي

تمر الولايات المتحدة الأمريكية اليوم بمُنعطَف فريد في تاريخها. فالإدارة الجمهورية الراهنة أكملت عامها السابع، وعلى وشك أن تصبح بَطَّة عرجاء مع انطلاق الحملة الانتخابية الرئاسية خلال الشهور القليلة القادمة، وهي فترة لا تسمح عادة للحزب الحاكم بالدخول في أعمال، أو تحركات كبرى، يُخشى من تأثيرها السلبي على حظوظ مرشحه للرئاسة في السنوات الأربع القادمة، أو تلزم الرئيس القادم بما لا ينبغي له، كما أن الجو العام في البلاد لا يُنْبئ بتفويضٍ كافٍ لإدارة تعيش شهورها الأخيرة، خاصة إذا ما كانت تحركاتها معرّضة للإخفاق، أو الانتكاس، أو تتسم بالطيش، أو المغامرة التي وسمت برنامجها وحراكها، بل إن قطاعًا كبيرًا من المواطنين يترقبون بفارغ الصبر لحظة رحيل الرئيس وإدارته.

لم يعرف البيت الأبيض في تاريخه الطويل رئيسًا أيديولوجيًّا كما هو جورج دبليو بوش، أو إدارة إمبريالية التوجّه كإدارته التي سيطر عليها منذ البداية «المحافظون الجدد» وأشباههم، وبرنامج اهتماماتهم وأولوياتهم. بكلمات أخرى، أدى ذلك إلى صياغة إدارة «قناعات» وليست إدارة «مصالح». استغل هؤلاء المستوى العقلي والفكري المتواضع للرئيس وتوجهاته «الإنجيلية» النبوءاتية، واختياراته السياسية «المثالية» البسيطة لفرض أيديولوجيتهم وفكرهم على القوة العظمى والقطب الأوحد في العالم الآن. وبتعبير كُتّاب ومُفَكّرين أمريكيين، محافظين وليبراليين، اختطفت هذه الزمرة من المحافظين أقوى دولة عرفها تاريخ الدول، باتجاه أوهام إمبراطورية، ومصالح أنانية، وغايات باطنية، وطموحات خَطِرة على بلادهم والعالم.

أدت رؤى وسياسات هذه الإدارة في السنوات السبع الماضية، خاصة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م، وإعلان حرب عالمية ضد الإرهاب، إلى تكاليف معنوية ومادية باهظة تركت آثارًا غائرة على وجه التجربة والحضارة الأمريكية، بحيث يمكن القول بأن عهد هذه الإدارة قد بدّل الثقافة العفوية وحياة الاسترخاء والحلم الأمريكي إلى الأبد، وأنها لن تعود إلى سيرتها أو سيرورتها الأولى إطلاقًا. في هذا السياق، لا بد من استعراض تلك التغيُّرات والتبدلات التي طرأت على التجربة الأمريكية في السنوات السبع العجاف الماضية؛ لكي يمكن رؤية ملامح أو آفاق السنوات القادمة في هذه التجربة التي استولت بشكل أو بآخر على مخيلة وتطلعات شعوب وأمم كثيرة.

ثقافة الخوف وتقويض الأمن

لقد صنعت «الحرب على الإرهاب» ثقافة الخوف في الولايات المتحدة. فقيام إدارة بوش بتحويل هذه الكلمات الثلاث إلى شعار وطني، منذ أحداث ١١ سبتمبر/أيلول، كان له تأثير مدمر على الديمقراطية

الأمريكية والنفسية الأمريكية، ومكانة الولايات المتحدة في العالم. بل إن استخدام عبارة «الحرب على الإرهاب» قد قَوَّض قدرة أمريكا على مواجهة التحديات الحقيقية التي تواجهها من قِبَل «متطرفين» قد يستخدمون الإرهاب ضدها، هكذا يخلص الدكتور زبيغنيو بريجنسكي، المفكر الاستراتيجي الأمريكي، وسكرتير الأمن القومي في إدارة الرئيس الأسبق جيمي كارتر.(١)

أوقعت هذه الكلمات الثلاث من الإيذاء الذاتي لأمريكا ما هو أعظم مما قد يفكر به المتورطون بهجمات سبتمبر / أيلول . بل إن عبارة «الحرب على الإرهاب» ذاتها لا معنى لها؛ فهي لا تقدم تعريفًا لسياق جغرافي محدد، كما لا تحدد الأعداء المفترضين. فـ«الإرهاب» ليس عدوًّا بذاته، وإنما هو أسلوب (تكنيك) في الحرب والصراع. لكن غموض العبارة كان مقصودًا على نحو متعمد أو غريزي من قِبَل أصحابها. فالإشارات إلى «الحرب على الإرهاب»، والتنويهات المتواصلة بها أنجزت هدفها الأساس: استحثاث ثقافة الخوف، فالخوف يطمس العقل، ويكثف العواطف والانفعالات، ويسهل على السياسيين الغوغائيين تعبئة الرأي العام لصالح السياسات التي يسعون إليها.

فالحرب التي اختارت الإدارة خوضها في العراق لم تكن لتنال دعم الكونغرس بدون الارتباط النفسي بين صَدْمة ١١ سبتمبر / أيلول، والوجود المزعوم لأسلحة الدمار الشامل العراقية. كذلك، كان الدعم الذي تلقاه الرئيس بوش في انتخابات ٢٠٠٤م الرئاسية يعود جزئيًّا إلى فكرة أن «أمة في حالة حرب» لا تغير القائد الأعلى لقواتها المسلحة في منتصف المعركة. فالإحساس بالخطر، وإن لم يكن محددًا أو دقيقًا، قد تم توجيهه نحو اتجاه سياسي نفعي من قِبَل النداء التعبوي؛ لكون البلاد في «حالة الحرب».(٢)

لتبرير «الحرب على الإرهاب»، صاغت الإدارة سردية تاريخية زائفة، قد تصبح نبوءة ذاتية التحقق. وبادعاء أن حربها الراهنة مشابهة لكفاح الولايات المتحدة مبكرًا ضد النازية والستالينية (بينما تجاهل أن كلاًّ من ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية كانتا قوتين عسكريتين عتيدتين من الطراز الأول، وهي حالة لا تمتلكها «القاعدة» ولا تستطيع إنجازها، قد تكون الإدارة بصدد إعداد حرب على إيران. مثل هذه الحرب يمكن أن تغرق أمريكا في صراع مُطوّل يمتد من العراق إلى إيران وأفغانستان، وربما باكستان أيضًا.

تشبه ثقافة الخوف جِنِّيًّا أُخْرِج من قمقمه، وتستحوذ على زمنها ودورة حياتها الخاصة بها، ويمكن أن يكون لها وقع مدمر للمعنويات. فأمريكا اليوم ليست هي تلك الأمة ذات العزم والتصميم والواثقة بنفسها عندما استجابت لهجوم اليابان على قاعدة «بيرل هاربر» البحرية؛ وهي ليست أمريكا التي قال رئيسها فردريك روزفِلت في لحظة أزمة أخرى: «إن الشيء الذي ينبغي الخوف منه هو الخوف ذاته»، وليست أمريكا الهادئة التي شنت حربًا باردة بمثابرة وإصرار هادئ، رغم علمها بأن حربًا حقيقية يمكن أن تنشب فجأةً خلال دقائق، وتؤدي إلى هلاك نحو ١٠٠ مليون أمريكي خلال ساعات.(٣)

من يزرع التعذيب يحصد العداء

وكان اثنان من أبرز القادة العسكريين الأمريكيين، تشارلز كرولك القائد السابق لقوات المارينز، وجوزيف هور القائد العام السابق للقيادة المركزية، قد كتبا أن الخوف وممارسة التعذيب هما مزرعة الأعداء الجدد. وحذر القائدان من أن الخوف قد يكون حافزًا كبيرًا للفعل، فهو الذي دفع الرئيس الأسبق «فرانكلن روزفلت» لاعتقال عشرات الآلاف من المواطنين الأمريكيين الأبرياء خلال الحرب العالمية الثانية، وهو الذي أدى أيضًا لحملة «المكارثية» الشرسة التي دمرت بدورها في الخمسينيات الماضية حياة مئات الأمريكيين. وهو الخوف الذي أدى بأعلى دوائر صُنع القرار في أمريكا إلى التصريح بممارسة التعذيب ضد السجناء.(٤)

---

(١) زبغنيو بريجنسكي، الترهيب بالحرب على الإرهاب: كيف قوضت ثلاث كلمات أمريكا، واشنطن بوست، ٢٥ مارس/آذار ٢٠٠٧م.

(٢) زبغنيو بريجنسكي، المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تشارلز كرولك وجوزيف هور، التعذيب والأمن الزائف، خدمة لوس أنجلوس تايمز وواشنطن بوست خاص بـ(الوطن)، مايو/أيار ٢٠٠٧م.

يلفت القائدان إلى أن الخوف هو التبرير السلوكي الذي وفره للإدارة الحالية جورج تينيت، المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وقد روّج لذلك في كتابه الجديد «في عين العاصفة». تجاهل تينيت في هذا الكتاب، أساليب التعذيب التي استُخدمت بحق معتقلي الحرب على الإرهاب، في إطار البرنامج السري لوكالته والخاص بإجراءات التحقيق. وقد شملت تلك الأساليب والتقنيات «الغمر بالمياه»، و«الحرمان الحسي»، و«الحرمان من النوم»، و«أوضاع القلق والتوتر». وفي دفاعه عن هذه الانتهاكات، قال تينيت: «لقد تناسى الجميع حقيقة جوهرية في النظر إلى سياق الأحداث التي عايشناها خلال الفترة الماضية، ألا وهي الخوف الذي ألمّ بنا نتيجة للشعور بغياب كثير من الحقائق عنا».(٥)

وبحكم عملهما السابق في ميادين القتال والحروب، قال القائدان: إنهما يدركان جيدًا حقيقة الخوف، وما يمكن أن يؤدي إليه من فوضى عارمة، في حالة عدم السيطرة عليه وكَبْح جِمَاحه. ومما نعلمه أيضًا أن الخوف يولد القلق، وأنه قد يدفع الأمم والشعوب إلى التصرف على نحوٍ لا ينسجم مع قِيَمها وطبيعتها.

سباق تبديد الموارد

العبارة الشائعة في أروقة الإدارة الأمريكية هي أننا نحارب في العراق؛ لأن هذا البلد هو «الجبهة المركزية في الحرب على الإرهاب»، بينما الحقيقة هي العكس تمامًا. فنحن متورطون فعلاً بحرب عبثية لا يمكن كسبها ضد الإرهاب، وكان مطلوبًا اختراعها ذريعة لغزو العراق، هكذا يخلص إيان لاستك، أستاذ العلوم السياسية بجامعة بنسلفانيا(٦)

لكن بعد خمسة أعوام تقريبًا على غزو العراق، نجد أن أوهام «المحافظين الجدد» بشأن إمكانية تحقيق انتصارات رخيصة وسريعة، تبددت تمامًا. ورغم ذلك لا تزال الحرب على الإرهاب التي أعلنت مبررًا لهذا الغزو، مستمرة على نحو أعنف من السابق. بَيْدَ أن السؤال الذي يرد للأذهان هنا: كيف يمكن للحرب ضد الإرهاب أن تمنح لنفسها حياة جديدة، بتوريط الطبقة السياسية ومعظم الأمريكيين، ودفعهم للاعتقاد بأن هناك ضرورة لخوض حرب ضد الإرهاب على الساحة العالمية، حتى ولو لم يقم دليل على وجود مثل هذا العدو في بلادهم؟

وطالما أن الأمر كذلك، فماذا يبرر إنفاق نحو ٧٠٠ مليار دولار التي تم إنفاقها على تلك الحرب؟ وماذا يبرر هستيريا لا أساس لها حول «الخلايا النائمة»؟ وماذا يبرر الإجراءات الكارثية التي يتم اتخاذها؟ وماذا يبرر حالات الإدانة الاستباقية التي لم تشهد البلاد مثيلاً لها منذ الخمسينيات الماضية؟

ينبغي النظر إلى طريقة استجابة الكونغرس للحرب ضد الإرهاب. ففي صيف عام ٢٠٠٣م تم تحديد ١٦٠ هدفًا محتملاً أو معرضًا لهجمات الإرهابيين، مما دفع نواب كل ولاية أو دائرة انتخابية لمحاولة البحث عن أيّ هدف يحتمل تعرضه لهجمات إرهابية؛ ليتمكنوا من تحصيل على مخصصات مالية إضافية يقررها الكونغرس. فما نتيجة ذلك؟ لقد أدى إلى اتساع نطاق تعريف الأهداف المعرضة للإرهاب، وبالتالي إلى زيادة هائلة في عدد الأصول والموجودات الواجب حمايتها؛ حيث ارتفع رقمها من ١٨٤٩ أواخر عام ٢٠٠٣م إلى أكثر من ٢٨ ألفًا أواخر ٢٠٠٤م، ثم إلى ٧٧ ألفًا أواخر ٢٠٠٥م، ويتوقع أن يكون الرقم قد بلغ ٣٠٠ ألف بنهاية ٢٠٠٦م.(٧)

اليوم نجد مجموعات الضغط وجماعات المصالح في كل ولاية، تعيد صياغة أهدافها التقليدية واحتياجاتها التمويلية، بحيث تبدو أهم مما كانت عليه سابقًا بحجة حتميات ومتطلبات الحرب على الإرهاب.

انعطاف اقتصادي نحو الركود

منذ أكثر من عام، وهناك تقييمات غير سارة لما يجري في الاقتصاد الأمريكي، وهذا يحدث عادة عندما يكون الاقتصاد في مرحلة انعطاف، وعندما

(٥) تشارلز كرولك وجوزيف هور، التعذيب والأمن الزائف، المرجع السابق.

(٦) إيان لاستك، أمريكا ومحاربة الإرهاب.. سباق داخلي على المخصصات، خدمة «لوس أنجلوس تايمز وواشنطن بوست»، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٧م.

(٧) إيان لاستك، أمريكا ومحاربة الإرهاب.. سباق داخلي على المخصصات، المرجع السابق.

يكون التوسع الاقتصادي على وشك الدخول في حالة ركود (أو العكس). فلدى الانعطاف، تشير المؤشرات المختلفة، التي تخبرنا عادة باتجاهات هبوب الرياح الاقتصادية. وآخر مرة كانت فيها الأمور تتسم بمثل هذه الحالة من التشوش هي أوائل عام ٢٠٠١م، عندما أخفق معظم الاقتصاديين في إدراك أن الولايات المتحدة تنحدر نحو الركود.[٨]

فبين أواسط عام ٢٠٠٣م وأواسط عام ٢٠٠٦م، كان النمو الاقتصادي في الولايات المتحدة يتغذى بصورة رئيسة على ازدهار هائل بقطاع الإسكان، الذي يولد وظائف بصورة مباشرة، وأتاح للمستهلكين الإنفاق بالاقتراض مقابل قيمة بيوتهم المرتفعة. يعاني قطاع الإسكان الآن انهيارًا ماليًّا؛ رغم الاختلاف حول مدى التردي الاقتصادي عمومًا الناجم عن انهيار قطاع الإسكان.

منذ صيف ٢٠٠٦م، هبطت أسعار الفائدة على سندات الخزانة طويلة الأجل بصورة حادة، ومردودها الآن دون السندات قصيرة الأجل. لكن استعداد المستثمرين لشراء طويلة الأجل، يعني توقعهم لانخفاض أسعار الفائدة. وذلك يحدث فقط عندما يكون الاقتصاد ضعيفًا، ليجد مجلس الاحتياطي الفيدرالي (البنك المركزي) نفسه مضطرًا لخفض أسعار الفائدة. من يشترون السندات يراهنون على هبوط اقتصادي مستقبلي.[٩]

اقتربت كلفة الحرب والاحتلال في العراق وأفغانستان من تريليون (١٠٠٠ مليار) دولار، ويتوقع لها أن تتجاوز ذلك. وتزداد ضغوط عجز الموازنة (٦٠٠ مليار لسنة ٢٠٠٦م)، والعجز التجاري (٥٥٠ مليارًا) على قيمة الدولار؛ مما يفسر تراجعه مقابل عملات أخرى.

وكان الكونغرس في مارس / آذار ٢٠٠٦م قد رفع سقف استدانة الحكومة للمرة الثالثة في عهد جورج بوش. وأثارت الخطوة أسئلة وقلقًا حول وضع البلاد على مسار اقتراض مستدام، وتجاوز الدين القومي ٨ تريليون دولار، نصيب الفرد منه ٢٧ ألف دولار. يؤكد بيتر بيترسون، وزير التجارة الأسبق، أن السياسات المالية غير المسئولة ستقود البلاد إلى عواقب وخيمة؛ عندما تجتمع أسعار فائدة متصاعدة مع معدلات تضخم متصاعدة؛ مما سيخسف قوة الدولار الشرائية في وقت ترتفع فيه تكاليف كل شيء.[١٠]

> اقتربت كلفة الحرب والاحتلال في العراق وأفغانستان من تريليون (١٠٠٠ مليار) دولار، ويتوقع لها أن تتجاوز ذلك

إحدى صيحات التحذير من «انهيار السد»، جاءت في ٢٠٠٧م من جوزيف ستغلتز، الاقتصادي ذائع الصيت الحائز على جائزة نوبل، والأستاذ بجامعة كولومبيا، والمسئول السابق بإدارة كلِنتون والبنك الدولي. لاحظ ستغلتز أن العالم قد عبر ٢٠٠٦م دون كارثة اقتصادية كبرى، رغم ارتفاع أسعار النفط، وإفلات زمام الشرق الأوسط، لكن ٢٠٠٦م أسفر عن دروس مستفادة بالنسبة للاقتصاد العالمي، علاوة على إشارات تحذير عديدة حول أدائه في المستقبل.[١١]

فالفوضى التي ولدتها سنوات بوش في الشرق الأوسط تشكل أيضًا تهديدًا أساسيًّا للاقتصاد العالمي. فمنذ بدء حرب العراق في ٢٠٠٣م لم يرتفع إنتاج نفط الشرق الأوسط، الأقل كلفة في العالم، كما كان متوقعًا ليلبي الطلب العالمي، وتجاوز سعر برميل النفط المائة دولار، رغم اعتدال نمو الطلب، نظرًا لتباطؤ الاقتصاد الأمريكي، مما يمثل مخاطر عالمية.

تعود جذور مشكلة الاقتصاد الأمريكي لإجراءات اتُّخِذت في بداية ولاية بوش الأولى؛ خاصة تخفيضات ضريبية أخفقت في تحفيز الاقتصاد؛ لأنها صُمِّمَت

(٨) بول كروغمان، اقتصاد أمريكا: ٢٠٠٧م عام صعب آخر، خدمة «نيويورك تايمز»، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٧م.

(٩) بول كروغمان، اقتصاد أمريكا: ٢٠٠٧م عام صعب آخر، المرجع السابق.

(١٠) مازن النجار، تحولات النظام النقدي العالمي ومخاطره على الفوائض العربية، المجلة، العدد ١٣٧٤، ١٧ يونيو/حزيران ٢٠٠٦م.

(١١) جوزف ستغلتز، هل ينهار السد في ٢٠٠٧م؟، بروجكت سينديكت Project Syndicate، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٧م.

لصالح دافعي الضرائب الأكثر ثراء، وأُلقي عبء تحفيز الاقتصاد على مجلس الاحتياط الفيدرالي، الذي خفَّض أسعار الفائدة لمستويات غير مسبوقة، وبينما كان أثر القروض الرخيصة على الاستثمارات طفيفًا، فقد أحدثت فقاعة بسوق العقارات، لم تلبث أن انفجرت مهددة أُسَرًا، اقترضت بضمان قيمة منازلها المرتفعة، لاستدامة الاستهلاك. أي: أن ارتفاع أسعار الفائدة وانخفاض أسعار المساكن لا يبشر بخير، وطبقًا لبعض التقديرات، فإن ٨٠٪ تقريبًا من الوظائف المستجدة، ونحو ثلثي نمو الناتج المحلي الإجمالي في السنوات الأخيرة، تتأتى مباشرة أو غير مباشرة من اقتصاد العقارات.

وزاد الأمور سوءًا الإنفاق الحكومي غير المنضبط ما أدى لتعويم الاقتصاد أكثر خلال سنوات بوش؛ حيث حقق العجز المالي ارتفاعات جديدة، مما يصعّب على الحكومة الآن التقدم لدعم النمو الاقتصادي، بينما تقلص الأسر استهلاكها، بل إن بعض الديمقراطيين خاضوا حملاتهم الانتخابية على وعد بالعودة إلى سياسة مالية عقلانية، أي: أنهم سيطالبون بتخفيض عجز الموازنة، الأمر الذي سيثبط النمو أكثر.[١٢]

تحول السياسات الاقتصادية

سادت سياسات تحرير الاقتصاد والأسواق، وإعادة الهيكلة، والخصخصة، والدولرة، وتفكيك برامج الرفاه الاجتماعي، ورفع الدعم عن السلع والخدمات المقدمة لمحدودي الدخل، وإسقاط السياسات الحمائية (للإنتاج الوطني)، وخفض ضرائب الشركات والأفراد، معظم مساحات الاقتصاد العالمي. وبناء عليها، تم صياغة برنامج عمل المؤسسات المالية والاقتصادية الدولية التي فرضته على الدول. أدى تطبيق هذه السياسات لاضطرابات سياسية واجتماعية، وتدهور عيش الفقراء الذين ازدادوا فقرًا وازداد الأغنياء غنًى.

لا تنحصر معارضة هذه السياسات باليسار، بل واليمين، خاصة المحافظين القدامى الذين يرون أنها ستؤدي لتدهور القوة الأمريكية، بسبب تدهور الإنتاجية والنوعية، ومستويات المعيشة والتعليم والمهارات الإدارية والقيادية، والتفوق التكنولوجي، وتدني الإنفاق على البحث والتطوير، وارتفاع المديونية الحكومية، والعجز المزمن في التجارة والموازنة.

في حملة الانتخابات التشريعية الأمريكية الماضية (٢٠٠٦م)، لمس مراقبون توجهًا لدى الناخبين نحو «الوطنية الاقتصادية»، المتمثلة بدعم وحماية الإنتاج الوطني، وحماية فرص عمل الأمريكيين من تهديد العمالة الوافدة، أو نقل مراكز الإنتاج إلى دول العمالة الرخيصة، وخفض العجز في الميزان التجاري، وتقليص النزعة التدخلية وأعبائها التي تفاقم عجز الموازنة والاستدانة، ويتبنى هذا الخط أهم مرشح ديمقراطي رئاسي الآن السناتور جون إدواردز.

خلال الحملة الانتخابية، لوحظ أن مرشحين جمهوريين خاضوا حملات انتخابية عسيرة، لا يتبنون خط الرئيس بوش في اتفاقيات التجارة الحرة في أمريكا الشمالية (نافتا) أو أمريكا الوسطى (كافتا)، أو جعل الصين دولة أولى بالرعاية (تجاريًا) أو العولمة. وكان الهجوم على اتفاقات التجارة الحرة عنصرًا هامًّا في استراتيجية بعض الديمقراطيين أيضًا.[١٣]

قصور القدرات عن الأهداف الإمبراطورية

للولايات المتحدة سياسة خارجية معلنة وواضحة هي: «الدفاع عن مصالحها القومية بهزيمة الإرهاب في كل مكان بالعالم، واسترداد السلام في أفغانستان والعراق، وردع كوريا الشمالية وإيران، والحيلولة دون تطويرهما أو امتلاكهما لقدرات نووية، والمحافظة على استقرار شرق آسيا، وتعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان في أيّ مكان تستدعي فيه الحاجة ذلك».

---

(١٢) جوزف ستغلتز، هل ينهار السد في ٢٠٠٧م؟، المرجع السابق.

(١٣) باتريك بيوكنن، عودة الوطنية الاقتصادية، تاون هول دوت كوم Townhall.com، ٢٠ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٦م. يذكر أن باتريك بيوكنن سياسي ومؤلف وصحافي أمريكي كاثوليكي من المحافظين القدامى، عمل مستشارًا رفيعًا وكاتبًا لخطابات ثلاثة رؤساء أمريكيين: نيكسون، وفورد وريغان. سعى إلى تزكية الحزب الجمهوري له مرشحًا في الانتخابات الرئاسية سنتي ١٩٩٢م و١٩٩٦م.

لا حاجـة للقول، برأي المؤرخ بـول كنيدي[١٤]، أن هـذه الأهـداف مبالغـة في الطموح، وأن أول سـؤال ينبغـي أن يخطـر بالبـال: «هـل تتوافـر الإمكانات الكافيـة لتحقيـق مثل هـذه الأهـداف الطموحة»؟ وللإجابة على السـؤال في ضوء المـأزق الذي تواجهه أمريكا في العراق، وتفاقم الأوضاع في أفغانستان، وتعثـر التعامـل مع ملفـي كوريا الشـمالية وإيران؛ ستكون الإجابة «لا» بأعلى صوت. فلا بد من أمرين لا ثالـث لهما: تقليص الالتزامـات الخارجية أو زيادة القـدرات الذاتيـة. أمـا إذا لم يُتخـذ هـذا ولا ذاك، فستتعرض الولايات المتحدة حتمًا لـ «كوارث ومهانة وتشويه سمعة الوطن».

فقـدرات أمريكا العسـكرية، ليسـت الغواصات أو حامـلات طائـرات أو قاذفـات بـي- ٢ العملاقة، وإنما قوات الجيش الموجودة على الأرض، والمنتشـرة بخطـوط طويلـة تفـوق قدراتهـا، ووحـدات مشـاة البحريـة بالعـراق وأفغانسـتان. لا حاجـة لعبقريـة عسـكرية لإدراك أن هذه القوات وصلت آخر حدود قدرتها على الاحتمال، بل غدت أقل كثيرًا بالنسـبة للتوقعات والمهام المطلوبة منها بأرجاء العالم.

يقـال: «ليس هنـاك أكثر خطورة في السياسـة من التعلـق بأطلال اسـتراتيجيات فاشـلة»، لكن حتى لو انسـحبت القـوات الأمريكية بنهايـة المطاف من العراق، فالمشـكلة الأساسية المتعلقة بالاستراتيجية الأمريكيـة الكبرى، وتحتاج لمعالجـة هي: كيف يمكـن لأحد تجاهل الفجـوة المتزايـدة بين أهداف أمريكا الكونية المعلنة، وبين قدراتها العسـكرية على تحقيق هذه الأهداف؟[١٥]

(١٤) في عام ١٩٨٨م، أصدر بول كنيدي، المؤرخ البريطاني البارز والأستاذ بجامعة ييل الأمريكية العريقة، كتابه الشهير «ظهور وسقوط القوى العظمى». استعرض كنيدي تجارب امبراطوريات العالم وقواه العظمى منذ القرن السادس عشر حتى التاريخ المعاصر، والتقط الخيط المشترك بينها لعوامل الصعود والأفول. كان أبرز نتائجه أن القوى العظمى تدخل في دور التراجع والأفول عندما تتجاوز تكاليف المشروعات الإمبراطورية قدرات الإمبراطوريات العسكرية والاقتصادية أي: عندما تفوق تكاليف الإمبريالية عوائدها. من هذه الخلفية يستدعي كنيدي، بمقال نشر قبل عام، خبرة لورد سالزبري، رئيس وزراء الإمبراطورية البريطانية في العصر الفكتوري.

(١٥) بول كنيدي، أمريكا وتنامي الفجوة بين الأهـداف الكونية والقوة العسكرية، خدمة «تريبيون ميديا سيرفيس»، ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦م.

مأزق الأحادية العسكرية الأمريكية

يلاحـظ كثير من المؤرخين والمحللين المتابعين (لاستراتيجيات القوى الكبرى ذات الماضي الإمبريالي في التاريـخ الحديـث) تحولات جذريـة بقدرتها على الاحتفاظ بإمكانات عسـكرية ضخمة، ففي ضوء عجـز التحالـف الأطلسـي بأفغانسـتان، والتحالف متعدد الجنسيات بالعراق عن تأمين القوات اللازمة لإحكام السـيطرة والتصدي للمقاومة فيهما، يقدم المحلل الأمريكي ماكس بوت رؤيته لمأزق الأحادية العسـكرية الأمريكية، في ضوء انكماش الإنفاق الدفاعي، وتراجع القدرات العسـكرية لقوى حليفة لها.

فقد عجـزت بريطانيـا فعليًا عن إبقاء سـبعة آلاف جنـدي في العـراق، إلى جانـب نشـر قـوة مماثلة في أفغانستان. فتلك قوة عسـكرية كبيرة وغير متوافرة لـدى دولـة لا يزيد تعداد سـكانها علـى ٦٠ مليون نسمة، واقتصادها هو الخامس عالميًا. فقد انكمش جيشـها من ٣٥٠ ألف جندي في ١٩٩٠م إلى ١٩٥ ألفًا اليوم، أي الجيش الثامن والعشـرين عالميًا، واختفت تشـكيلات لها تاريـخ، ككتائب «بـلاك ووتش» و«رويـال سـكوتس». وتراجعت «البحريـة الملكية» العريقة لأصغر حجم لها منذ القرن السـادس عشـر. ويُتوقـع اسـتبعاد ما بين ١٣ و١٩ سـفينة من الخدمة الفعليـة، مـن إجمالـي سـفن الأسـطول البالغة ٤٤ سفينة.[١٦]

ويمكـن اسـتقصاء اتجاه مماثل لـدى جميع حلفاء أمريـكا تقريبًـا، باسـتثناء اليابـان، وتعتبر كندا المثـال الأبـرز. فقد كان لهـا بنهاية الحـرب العالمية الثانيـة، فوق المليون جنـدي في الخدمة، بينما كان أسطولها البحري الثالث عالميًا، فكانت قوته أكثر من ٤٠٠ سفينة. واليوم يبلغ عدد المجندين الكنديين ٦٢ ألفًـا فقط، وعدد السـفن الكندية الحربية ١٩ سفينة فحسب، إضافة إلى ٢٣ سفينة إسناد أخرى.

(١٦) ماكس بوت، تناقضات القوة الأمريكية، خدمة «نيويورك تايمز»، مارس/آذار ٢٠٠٧م.

هـذا النقـص الحـادّ في عـدد القـوات البريطانيـة والكنديـة، تطـال آثاره السـلبية الولايـات المتحدة نفسـها، فمع نشـر ١٦٥ ألـف جنـدي أمريكي في العراق وأفغانسـتان، وإرسـال المزيد للعراق، فذلك يعني اسـتنزاف القدرة العسـكرية البشرية للجيش الأمريكي. وأضحت أمريـكا بأمسِّ الحاجة لدعم عسكري من حلفائها، بينما لم يبقَ لهؤلاء ما يذكر من دعم وعون يمكنهم تقديمه لها في الواقع.

العامـل الرئيـس وراء ذلـك هـو انخفاض مسـتوى الإنفـاق الدفاعي في الدول الحليفـة؛ فقد انخفضت نسـبة ميزانيـات الدفاع مـن إجمالي الناتـج القومي لأعضاء بحلف شمال الأطلسـي، باسـتثناء أمريكا، مـن ٢,٤٩٪ في ١٩٩٣م إلى ١,٨٪ في ٢٠٠٥م، وبـدون تصحيـح هـذا الاختـلال، ليس من سـبيل لتصحيح الأحادية العسـكرية الأمريكية.[١٧]

جيش إمبراطوري منكسر

في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٦م، أعلن الجنرال جون أبي زيد، أعلى قائد عسـكري مكلف بالعراق، أن الجيـش غير قادر علـى زيادة قواته بالعـراق، كأول اعتراف يصدر عن مسئول عسكري رفيع بأن القوات البريـة الأمريكيـة وصلـت حـدود طاقتهـا في العمل العسكري. وبعدها بيومين، قال أبي زيد: إن الجيش الأمريكـي لم يُعَدّ لخوض حـروب طويلة، وإنما أُعِدّ لتحقيق النصر بسـرعة ودقة، لأنـه جيش متمرِّس في الحروب القصيرة، لا خوض حروب طويلة.

وبعد أسـبوع، حذر رئيس هيئة الأركان، الجنرال بيـتر شـوميكر، مـن أن الجيـش الأمريكـي «سـينكسـر» بـدون قـوات إضافيـة. وأقـر كولـن بـاول، رئيس هيئـة الأركان الأسـبق، بأن الجيش «على وشـك الانكسار»، ويعتقد أن أمريكا تخسر الحـرب بالعـراق، ويعـارض زيـادة القـوات، فليس «هناك قوات إضافية، وما يمكن فعله هو الاحتفاظ بالقوات الموجودة هناك لفترة أطول، وتسـريع وصول قوات أخرى».

يلاحظ كيفن ريـان، الجنرال المتقاعد، أن الألوية المقاتلة السبعة والثلاثين من قوة الجيش العاملة كلها تقريبًا مُجْهَدَة بسـبب حربي العراق وأفغانستان. وفي ظل انتشار جميع الوحدات أو عودتها من الانتشار، أو استعدادها للانتشار، لا توجد وحدات أخرى لمواجهة حـالات طارئة أخـرى. كما لا تتوفـر الألوية المقاتلة سوى ١٤ شهرًا داخل الوطن قبل أن يعاد استدعاؤها لنشـرها فترة ١٢ شـهرًا أخرى. أما الحرس الوطني، فلا يمكنه تعبئة سـوى لوايـن أو ثلاثة من ١٥ لواء مدربًا، بسـبب نقـص العتاد. في هذا السـياق، يرى الجنـرال شـوميكر أن أمريـكا على شـفا مسـار خطـر يفـرض ضـرورة زيـادة عمقها الاسـتراتيجي واستعدادها، وتقليل الخطر الميداني.[١٨]

بدوره، يتسـاءل الكاتب والمرشـح الرئاسي السابق بـات بيوكانـن: ما هـذه القوة العظمـى الوحيدة في العالم التي يمكن أن ينكسـر جيشـها تحت وطأة تَمَرُّدَيْنِ؟ وكيف يمكننا أن نقترح حماية جمهوريات البلطيق، أو (كما يشتهي بوش والمحافظين الجدد) أن نحمـي أوكرانيا وجورجيا من روسـيا التي تريد الانتقام منهما؟ وكيف يمكن خوض حرب كورية ثانية بعد خوض الأولى بثلث مليون جندي؟

ويستأنف: إذا كان جيشنا «على وشك الانكسار»، فهل فقد قائده الأعلـى عقله عندما يصدر تهديدات بالحـرب لإيـران؟ وإذا كان جيشـنا لم يُعدّ لخوض حروب طويلة، فهل جُن هؤلاء الذين يتحدثون بجموح عن خوض الحرب العالمية الرابعة؟[١٩]

نهاية حقبة الهيمنة على الشرق الأوسط

يـرى رئيـس مجلـس العلاقـات الخارجيـة ومديـر التخطيط السـابق بوزارة الخارجية، ومسؤول سابق بمجلـس الأمـن القومـي بثـلاث إدارات جمهوريـة

---

(١٧) ماكس بوت، تناقضات القوة الأمريكية، المرجع السابق.

(١٨) كيفين ريان، الجيش الأمريكي وافتقاد القدرة على خوض الحروب الطويلة، خدمة «نيويورك تايمز»، ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦م. جنرال أمريكي متقاعد وزميل «مركز بلفر للعلوم والشئون الدولية» بجامعة «هارفارد».

(١٩) باتريك بيوكنن، جيش منكسر إمبراطورية منكسرة، خدمة كرياتورز Creators Service، ٢٠ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦م.

وديمقراطية، ريتشارد هاس،[٢٠] أن حقبة الهيمنة الأمريكية المتفردة على الشرق الأوسط انتهت بغزو العراق واحتلاله في ٢٠٠٣م، وابتدأت حقبة جديدة من التاريخ الحديث لهذا الإقليم. وستتشكل هذه الحقبة بواسطة لاعبين جدد وقوى جديدة تتنافس على النفوذ؛ ولكي تبرز واشنطن في هذه المرحلة الجديدة، عليها الاعتماد أكثر على الدبلوماسية وليس القوة العسكرية.

عوامل نهاية الحقبة الأمريكية في المنطقة

قرار إدارة بوش بغزو العراق وأسلوب إدارته بعد احتلاله، واللجوء غير المبرر لعسكرة علاقاتها بدول وشعوب المنطقة؛ إخفاق عملية السلام في الشرق الأوسط؛ فشل الأنظمة العربية في مواجهة شعبية المد الإسلامي الأصولي؛ دور العولمة في تسهيل مهمة المتشددين في حشد التأييد الجماهيري والدعم المالي، ودور الفضائيات في جعل العالم العربي قرية إقليمية مُسَيَّسة.

يتوقع د. هاس شرقًا أوسط جديدًا يتراجع فيه النفوذ الأمريكي، كما يتوقع أن إيران وإسرائيل ستكونان فاعلين مؤثرين في الإقليم، وأن أطرافًا ليست دولاً -كحزب الله وحماس- ستتمتع بنفوذ ملموس. وستطغى على المرحلة قوى الإسلام السياسي. فهو شرق أوسط جديد مختلف لا يرحب به هاس، وهو إقليم غير مستقر فيه إمكانية اندلاع الصراعات، ويكون وطنًا -على نحو ما- للإرهاب، وربما يسوء الوضع أكثر؛ نظرًا لما يجري في العراق. فهناك حقبة صعبة قادمة لا يُدْرَى مداها، الأمر الذي يؤكد الحاجة لإدراك أن الشرق الأوسط قد دخل بالفعل مرحلة جديدة، ومن الضروري أن يتكيف التفكير والسياسات الأمريكية مع هذا الوضع الجديد.

تتلخص ملامح حقبة ما بعد الهيمنة الأمريكية المتفردة، كما يراها هاس، في استمرار غلبة النفوذ الأمريكي في المنطقة دون تفرد؛ ازدياد منافسة قوى خارجية أخرى على النفوذ؛ بروز إيران كإحدى أقوى دولتين في المنطقة استراتيجيًا واقتصاديًا، إضافة إلى إسرائيل، رغم أن حرب لبنان بصيف ٢٠٠٦م قد أضعفت إسرائيل؛ وتراجع فرص إحياء عملية السلام في المستقبل المنظور.

وسيستمر الاضطراب في العراق لسنوات؛ وارتفاع أسعار النفط مع ازدياد الطلب عليه؛ وسباق التسلح بالمنطقة؛ و«الإرهاب» سائدًا في المنطقة؛ وتصاعد دور الإسلام السياسي في ملء الفراغ بالعالم العربي؛ واستبداد نظم الحكم العربية؛ وضعف المؤسسات الإقليمية العربية، خاصة الجامعة العربية، وسيستمر كون الولايات المتحدة قوة ذات نفوذ هناك؛ لكنها لن تسيطر وحدها على هذا الإقليم، وعليها أن تشاطر قوى داخلية وخارجية أخرى النفوذ هناك؛ وهو الوضع السائد قبل عقدين. والنتيجة شرق أوسط أقل استقرارًا.[٢١]

كوارث المحافظين الجدد

يسمي فرانسيس فوكوياما، أحد المحافظين الجدد سابقًا، إخفاقاتهم الكبيرة بكوارث السنوات الخمس التي لم يتعلموا دروسها. يتساءل فوكوياما لماذا لم تنجح قوة ذات ميزانية دفاعية تعادل الإنفاق الدفاعي للعالم كله، في تحقيق استقرار بلد صغير لا يتجاوز أربعة وعشرين مليونًا، أو قيادته باتجاه حكم ديمقراطي ناجح، رغم أنها حاولت لسنوات وفقدت آلافًا من جنودها وأنفقت مئات المليارات؟[٢٢]

يعتقد فوكوياما أن طبيعة السياسة الدولية في العقد الأول من هذا القرن تغيرت في نواحٍ هامة. فالعالم اليوم، خاصة شمال إفريقيا والشرق الأوسط، وجنوب الصحراء الإفريقية ووسط آسيا؛ حيث تعم

(٢٠) الدكتور ريتشارد هاس رئيس مجلس العلاقات الخارجية ومدير مركز التخطيط السابق بوزارة الخارجية الأمريكية، والمسئول السابق بمجلس الأمن القومي الأمريكي في ثلاث إدارات جمهورية وديمقراطية، كتب الدكتور ريتشارد هاس، مقالاً لافتًا بعنوان «الشرق الأوسط الجديد»؛ يقوّم فيه الدور الأمريكي الراهن في الشرق الأوسط، ويستشرف مستقبله.

(٢١) ريتشارد هاس، الشرق الأوسط الجديد، دورية فورين أفيرز، نوفمبر/ديسمبر ٢٠٠٦م.

(٢٢) فرانسيس فوكوياما، المحافظون الجدد لم يتعلموا من كوارث السنوات الخمس الماضية، الغارديان، فبراير/شباط ٢٠٠٧م. يذكر أن الدكتور فرانسيس فوكوياما، الأستاذ بجامعة جونز هوبكنز، قد أصدر مؤخرًا كتابًا بعنوان: «ما بعد المحافظين الجدد: الولايات المتحدة على مفترق الطرق».

• عوامل نهاية الحقبة الأميركية في المنطقة وفقًا لريتشارد هاس:

قرار إدارة بوش بغزو العراق وأسلوب إدارته بعد احتلاله

إخفاق عملية السلام في الشرق الأوسط

دور العولمة في تسهيل مهمة المتشددين في حشد التأييد الجماهيري الدعم المالي

فشل الأنظمة العربية في مواجهة شعبية المد الإسلامي الأصولي

القلاقل، يتسم بوجود دول ضعيفة أو منهارة ولاعبين مؤقتين قادرين على الحراك عبر الحدود، بمساعدة القدرات التقنية ذاتها التي ولَّدت العولمة، وحازت القوة والتأثير جماعات كالقاعدة، أو أحزاب سياسية ذات ميليشيات كحزب الله في لبنان، أو جماعات عِرقية طائفية أخرى.

يلاحظ فوكوياما أن العقيدة العسكرية الأمريكية تعتمد استخدام القوة المفرطة وبشكل مفاجئ وحاسم لدحر العدو، لكن القوة المفرطة، في ظل غموض هوية الميليشيات والمسلحين، ستولد آثارًا عكسية؛ وستعزل الذين يحاولون دحر المسلحين ومنعهم من الحراك. فنوعية الحملة المطلوبة لدحر «الميليشيات»، و«الإرهابيين» المؤقتين، تقتضي تقديم الأهداف السياسية على العسكرية، وتؤكد على كسب القلوب والعقول لا ترويعها.

من دروس السنوات الماضية أن مبدأ بوش في استخدام الحروب الاستباقية لا تصلح وسيلة دائمة لحظر انتشار أسلحة الدمار الشامل، ووفقًا لفرانسيس فوكوياما، كانت خسائر الولايات المتحدة كبيرة جدًّا؛ بحيث إن الحرب على العراق جاءت بنتائج عكسية، وضعف تأثير قوة الردع العسكرية الأمريكية التقليدية، وتضاءل معه احتمال شن حرب رادعة، إذا امتلكت دولة ما أسلحة نووية. الدرس الآخر من حرب العراق أن إدارة بوش أظهرت ضعفًا كبيرًا في أدائها. ومن مظاهره البارزة: قدرتها المتدنية على مواصلة تحقيق أهداف وضعتها لنفسها، وتحركت الإدارة في العراق كمريض يعاني من ضعف التركيز؛ فقد أخفقت في تدريب القوات العراقية وتعيين السفراء وضبط العقود، وأخفقت بالمقام الأول في محاسبة المسئولين عن الإخفاقات. كان يمكن علاج ضعف الأداء الميداني نظريًّا بمرور الزمن، لكنه أدى لنتائج هامة على المدى القصير بالنسبة للاستراتيجية الأمريكية الكبرى.

ساهمت الولايات المتحدة بزيادة قوة إيران إقليميًّا باحتلالها للعراق وإسقاط نظام البعث، وإيصال أحزاب شيعية مؤيدة لإيران للسلطة في العراق. يتضح الفشل في استيعاب دروس حرب العراق في طريقة مناقشة المحافظين الجدد لتنامي قوة إيران الإقليمية وبرنامجها النووي. تمثل إيران تحديًّا كبيرًا للولايات المتحدة وأصدقائها في الشرق الأوسط. وبخلاف تنظيم القاعدة، إيران دولة لها تاريخ طويل، وبعكس العراق استفادت إيران كثيرًا من ارتفاع أسعار النفط.[٢٣]

(٢٣) فرانسيس فوكوياما، المحافظون الجدد لم يتعلموا من كوارث السنوات الخمس الماضية، المرجع السابق.

احتواء الصين

لم يُخفِ جورج بوش وفريق سياسته الخارجية، منذ حملة الانتخابات الرئاسية الأولى قناعتهم بضرورة احتواء الصين، وكان أول تفكير منهجي لذلك قد صدر عن كونداليزا رايس وزيرة الخارجية، بمقال ذائع بمجلة «الشئون الخارجية» رأت رايس أن الصين، كقوة صاعدة وطموحة، ستتحدى المصالح الحيوية الأمريكية، من جهة أنها قوة عظمى ذات مصالح حيوية مشتبكة، خاصة فيما يتعلق بتايوان، وأنها تمقت الدور الأمريكي في الحوض الآسيوي للمحيط الهادي.

فالصين - بالنسبة لرايس- ليست قوة تقبل بالوضع القائم، بل تريد تبديل توازن القوى لصالحها؛ وهذا يجعلها منافسًا، ورأت رايس ضرورة اتخاذ استراتيجية تمنع صعود الصين كقوة إقليمية؛ ولذا من المهم تكثيف التعاون الاستراتيجي مع اليابان وكوريا الجنوبية، والحفاظ على وجود عسكري متين في الإقليم، والاهتمام بدور الهند في ميزان القوى الإقليمي، وتشجيعها لدخول منظومة تحالف ضد الصين[٢٤]

ينتظم الوجود العسكري للولايات المتحدة في آسيا تحت قيادة المحيط الهادي «باكوم»، وهي باستمرار أكبر قيادات المناطق الأمريكية وأكثرها قوة ومهابة، وتضم أساطيل بحرية وجوية ومشاة بحرية وقواعد وجيوشًا تفوق ما لدى غيرها. في السنوات الأخيرة، أقام الأمريكيون تحالفات متنوعة عبر التفاوض على اتفاقيات أمنية مع دول: كفيتنام وسنغافورة وتايلند وكمبوديا والفيليبين، بمقر قيادة باكوم في هونولولو.

يرى المحلل الأمريكي روبرت كابلن أن المصالح التجارية والعسكرية الأمريكية تتجه صوب سياسة ردع متحفظة للصين دون استفزازها بلا داع، وهو ما يزيد من أهمية ودور باكوم. هذا الموقف تجاه الصين والمحيط الهادي يؤكد بدوره فكرة الحرب الباردة الجديدة التي قد تدوم طويلاً جدًا، وستلعب باكوم في هذه الحرب دور الناتو في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي السابق.[٢٥]

بنهاية ولاية بوش، يُرجح أن يتحول مركز الاهتمام الأمريكي إلى المحيط الهادي، وستتبنى الإدارة القادمة سياسة خارجية أقرب لسياسات الرؤساء الديمقراطيين أو الجمهوريين المعتدلين، وستصبح إدارة المخاطر حاكمة بدون مغامرات على نمط غزو العراق، كما أن دور باكوم في حوض الهادي لن يكون مقيدًا بالسياسة الداخلية في واشنطن، أو ما يشابه اللوبي الإسرائيلي. كذلك، يبدي ضباط باكوم قلقهم من أن تعلن تايوان استقلالها، وهي خطوة قد تقود الولايات المتحدة لحرب مع الصين، في غير المصلحة القومية الأمريكية.

يقول مايكل فيكرز ضابط الاستخبارات السابق: إن الدخول في حرب مع الصين سهل، فهناك سيناريوهات غير تايوان؛ خاصة مع قيام الصين ببناء قدرات غواصات وصواريخ في أنحاء المحيط الهادي. ولكن المعضلة هي كيفية إنهاء الحرب مع الصين؛ فقد يعني ذلك تغيير النظام؛ لأننا لا نريد أن نترك في المكان نظامًا مجروحًا وغاضبًا، ولإنهاء الحرب، قد يضطر الأمريكيون إلى تقليص القدرة العسكرية الصينية لحد كبير، مما يهدد إمدادات الطاقة، وقبضة الحزب الشيوعي على السلطة. ولن يكون العالم هو ذاته بعد الحرب؛ إنه طريق من الخطورة الكبيرة السير فيه، وفقًا لمحلل من البنتاغون.[٢٦]

يبقى خيار باكوم الأفضل لردع الصين بناء محور عزل يمتد من مقر باكوم بجزر هاواي إلى كبار الحلفاء: اليابان وكوريا الجنوبية وتايلند وسنغافورة وأستراليا ونيوزلندا والهند. هدف هذا الترتيب إعاقة الصين ببراعة على نحو تحييد الناتو للاتحاد السوفييتي، بَيْدَ أن تحول الأولويات على

(٢٤) مازن النجار، التجارة والقوة الناعمة طريق الحلم الصيني رغم مخاطر الاحتواء، المجلة، أغسطس/آب ٢٠٠٦م.

(٢٥) روبرت كابلن، سيناريوهات الحرب الباردة الثانية..هكذا ستحارب أمريكا الصين، دورية وجهات نظر، العدد ٧٧، يونية/حزيران ٢٠٠٥م، ص ٤٤-٤٩.

(٢٦) روبرت كابلن، سيناريوهات الحرب الباردة الثانية..هكذا ستحارب أمريكا الصين، المرجع السابق.

يد المحافظين الجدد عقب هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، واحتلال أفغانستان والعراق شغلت إدارة بوش ومواردها، ولم تدع مجالاً للفعل ضد الصين.

المرجح أن الصين سوف تواجه مخططات الاحتواء والردع بعدة طرق. فهي دولة ذات عقلية دفاعية، بتطوير أساليب وتقنيات تواجه التفوق العسكري الأمريكي،(٢٧) وجيشها شديد الاجتهاد والتوق للتعلم والتكيف. ودفعت حروب كوسوفو والعراق مخططي الجيش الصيني للتركيز على مواجهة هيمنة التكنولوجيا الأمريكية في أرض المعركة(٢٨)

معالم استراتيجية إدارة بوش

بعد سقوط دعاوى أسلحة الدمار الشامل لتبرير الحرب على العراق واحتلاله، ودعاوى إقامة النموذج الديمقراطي في العراق، رجّح أكثر المتابعين أن الهدف هو السيطرة على ثروة النفط، وعزز ذلك علاقة إدارة بوش بشركات النفط، والحديث النظري عن أهمية السيطرة على النفط لتحقيق الهيمنة الأمريكية على العالم، والضغط على المنافسين كالصين وأوروبا.

وسوغت أُطروحة المحافظين الجدد تحوّل أولوية الاستراتيجية الأمريكية لإقامة نظام شرق أوسطي، بدلا من احتواء روسيا والصين، بأن السيطرة على الشرق الأوسط تهدف إلى تطويق الصين وروسيا لاحقًا. جاء هذا التسويغ مدعاة للسخرية؛ لأنه أدى فعلاً إلى مهادنة روسيا والصين، لإنجاح أولويات الحروب التي شُنت على بلاد عربية وإسلامية.

وأتاح تغيير الأولويات الأمريكية للرئيس الروسي فلاديمير بوتين ست سنوات ذهبية لبناء دولة قوية متماسكة؛ فروسيا تقف الآن على قدميها، بينما غرقت الإدارة الأمريكية في مشروعها شرق الأوسطي، كما أتاح ذلك للصين غزو أسواق العالم بتجارتها واستثماراتها النفطية طويلة الأمد خارجيًا، فضلاً عن مستوى القوة العسكرية والتكنولوجيا العالية داخليًا.

التحول الخطير في أولويات الاستراتيجية الأمريكية من احتواء روسيا والصين إلى إخضاع الشرق الأوسط، لا يفسره إلا تسخير المحافظين الجدد للاستراتيجية الأمريكية لخدمة المشروع الإسرائيلي، والتمكين له، في منطقة يجب أن يعاد صوغها لتصبح خاضعة له، وعاجزة أمامه. وهذا ما يُرجح من خلال تتبع السياسات الأمريكية خلال السنوات الماضية، تحديدًا بعد أن قدمت أحداث ١١ سبتمبر/أيلول الذريعة لصهاينة أمريكا في إدارة بوش وخارجها لتغطية الانقلاب في أولويات الاستراتيجية الأمريكية.

لم يعد دور المجموعة الصهيونية الأمريكية في صوغ أولويات الاستراتيجية الأمريكية، وتوجيه سياساتها التنفيذية موضوعًا قابلاً للشك، كما أن ولاءهم للمشروع الإسرائيلي وخدمته يفوق أيَّ ولاء آخر؛ ولهذا شهدت السياسات الأمريكية والإسرائيلية تماهيًا لا سابق له في تاريخ العلاقات الأمريكية الإسرائيلية.

وذلك لأن هدف السياسات الأمريكية الحقيقي خلال السنوات الماضية هو المشروع الإسرائيلي بالمنطقة أي: تجزئتها بما ينسجم مع نظرية أنها فسيفساء طائفية وعرقية وجهوية ودينية، وتسقط عنها هويتها العربية والإسلامية؛ ولهذا سُمي المشروع «الشرق الأوسط الكبير»؛ لأن هدفه إقامة شرق أوسط مؤلف من دويلات متعادية ومشلولة وعاجزة، بما يسمح لإسرائيل بإخضاعها لهيمنتها. فالهدف من حرب العراق إسرائيلي بالدرجة الأولى، وليس النفط أو حتى تحقيق سيطرة أمريكية تقليدية.(٢٩)

خيارات إدارة بوش في العراق

في فبراير/شباط ٢٠٠٧م، توصل نخبة ضباط وخبراء مكافحة التمرد ومستشارين لقيادة القوات الأمريكية بالعراق، لقناعة بأنه لم يعد أمام أمريكا سوى ستة أشهر للانتصار في حرب العراق، أو مواجهة

(٢٧) منذ عقود دأبت المؤسسة العسكرية الصينية على دراسة منظومات الأسلحة الأمريكية، وتصميم تقنيات ومنظومات تسليح تستهدف إحباط فاعلية المنظومات الأمريكية وتطوير وسائل مواجهتها، وكانت جامعة الدفاع الوطني الأمريكية قد ترجمت عددًا من الدراسات والكتيبات التي يتداولها الجيش الصيني.

(٢٨) روبرت كابلن، المرجع السابق.

(٢٩) منير شفيق، في فهم الاستراتيجية الأمريكية لإدارة بوش، موقع الجزيرة نت، وجهات نظر، ٣٠ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٧م.

انهيار على طريقة فيتنام؛ سيكون أولاً في التأييد الشعبي والسياسي، وقد يضطر الجيش لسحب قواته بصورة متعجلة. توقع الضباط سماع المزيد بواشنطن حول الخطة (بي) أي: خطة الانسحاب بحلول الخريف، وهو ما لم يحدث بعد، بل سمعوا معجزات عن نجاحات مجالس الصحوة؛ مما يعني أن لا فرصة لتراجع الرئيس وإدارته عن المسار الراهن.(٣٠)

يلاحظ الجنرال وليم أودوم أن «تقديرات الاستخبارات الوطنية حول العراق» الصادرة بداية ٢٠٠٧م، تحدد أبعاد الفجوة بين أوهام الرئيس وواقع الحرب، فإن كان الانتصار، كما يراه الرئيس، يشترط ديمقراطية ليبرالية مستقرة بالعراق وموالية لأمريكا، فتقديرات الاستخبارات الوطنية تصف حربًا لا حظ لها في تحقيق تلك النتيجة. فهذه التقديرات، التي تعكس رأي وكالات الاستخبارات الأمريكية، تمثل إعلان هزيمة. فلم تكن هناك أبدًا طريقة صائبة لغزو العراق وتحويله نحو الديمقراطية، ويعلم معظم الأمريكيين ذلك يقينًا.(٣١)

بَيدَ أن هناك حقيقتين أساسيتين لا بد من توضيحهما:

الأولى: فكرة أن الولايات المتحدة تستطيع خلق ديمقراطية دستورية ليبرالية في العراق، تتحدى كل ما يعرفه الخبراء والمختصون. فمن بين الديمقراطيات الأربعين التي قامت منذ الحرب العالمية الثانية، هناك أقل من ١٠ ديمقراطيات يمكن اعتبارها حقًّا «دستورية» أي: نظامها الداخلي محمي بسيادة القانون، ويمكنه الاستمرار لجيل على الأقل، ولا يوجد بلد عربي أو إسلامي بين هذه الديمقراطيات، وهذا لا يعني عجز العرب عن التحول ديمقراطيًّا، بل يعني أن البلاد العربية، وأغلبية دول العالم ترى أن إقامة ديمقراطية دستورية مستقرة أمر يتجاوز إمكاناتها.

الثانية: أن تتوقع زعيمًا عراقيًّا يحافظ على تماسك بلاده ويكون مواليًا للولايات المتحدة، يناقض العقل والمنطق، فقد احتاجت الولايات المتحدة أكثر من قرن لتتجاوز عداءها للاحتلال البريطاني، وبمرور كل شهر من الاحتلال الأمريكي للعراق تسجل استطلاعات الرأي تصاعد عداء العراقيين للولايات المتحدة، فحتى أنصار الوجود العسكري الأمريكي يقولون: إنه مقبول مؤقتًا، ولأجل تجنب انتصار إحدى الفصائل المتصارعة في العراق.

ولكن، لماذا لم يتحرك الكونجرس بعد أكثر من عام على خسارة الجمهوريين لأغلبية مجلسيه لتغيير هذا الواقع؟ كثير من أعضائه يصدقون أساطير تروج لأهداف استراتيجية الرئيس الجديدة، وأكثرها أهمية وتكرارًا:

١- «ينبغي مواصلة الحرب لمنع حدوث مرحلة ما بعد الحرب التي قد تقع إذا انسحبت قواتنا بسرعة». لنتأمل مغالطات ومفارقات هذا الادعاء؛ فالواقع أننا نخوض اليوم حربًا لأجل تفادي ما جعله غزوُنا أمرًا محتمًا! وبالتالي، لا شك أننا سنترك وراءنا فوضى تسببنا فيها، وتتفاقم مع كل عام نمكثه هناك. النواب الأمريكيون يعبرون عن معارضتهم للحرب، ولكنهم أيضًا يعبرون عن خشيتهم من أن يؤدي التخلي عن الحرب إلى حَمَّام دم، أو حرب أهلية، أو مأوى للإرهاب، أو «دولة فاشلة»، أو غير ذلك من الأمور المفزعة. غير أن «مرحلة ما بعد الحرب» واقعة لا محالة. وبالتالي، فإن احتلالاً أمريكيًّا مطولاً لا يمكن منعه أمر واقع بالضرورة.

٢- «ينبغي مواصلة الحرب لمنع إيران من توسيع نفوذها في العراق». وهي فكرة أخرى لا تقل غرابة، فأحد أهداف الرئيس الأولى من الحرب، أي إقامة ديمقراطية في العراق، هو الذي أتاح تزايد النفوذ الإيراني في العراق والمنطقة. فمن شأن الديمقراطية الانتخابية أن توصل المجموعات الشيعية للسلطة. ثم لماذا يتبنى الكثير من أعضاء الكونجرس الرأي الذي يرى

(٣٠) تقرير بصحيفة الفارديان، ١ مارس/آذار ٢٠٠٧م.

(٣١) وليم أودوم «الانتصار».. خيار بوش الأسطوري، خدمة «لوس أنجلوس تايمز وواشنطن بوست»، فبراير/شباط ٢٠٠٧م. الجنرال المتقاعد وليم أودوم، رئيس الاستخبارات العسكرية، ومدير وكالة الأمن القومي الأسبق، وزميل معهد «هدسون» حاليًا.

أن تمديد الحرب من شأنه منع ما تسببت فيه الحرب أصلاً؟ الواقع أن الخوف من أن يواجه الكونجرس هذا التناقض يفسّر مناداة بعض أعضاء الإدارة الأمريكية والمحافظين الجدد بتوسيع الحرب لتشمل إيران.

٣- «ينبغي منع ظهور ملاذ جديد للقاعدة في العراق»، والحقيقة أن الغزو الأمريكي هو الذي فتح أبواب العراق للقاعدة، وكلما طال وجود القوات الأمريكية هناك، كلما أصبحت «القاعدة» أكثر قوة. أما إن كانت العناصر الأجنبية ستبقى وتزدهر في العراق بعد نهاية الحرب الأهلية فهو موضع تساؤل، وخلال ذلك لن تُخرج مواصلة الحرب «القاعدة» من العراق، بل العكس صحيح، فالوجود الأمريكي يمثل صمغًا يحافظ على «القاعدة» هناك اليوم.

والحقيقة أن إعادة تنظيم قدراتنا الدبلوماسية والعسكرية لتحقيق النظام في العراق، ستقلل أعداءنا وتُكسبنا حلفاء جددًا؛ لكن هذا غير ممكن قبل بدء انسحاب قواتنا من العراق، ثم لماذا على إيران أن تتفاوض من أجل تخفيف آلامنا طالما نقوم بزيادة نفوذها في العراق وغيره؟

خاتمة

احتل المشروع الإمبراطوري للرئيس جورج بوش معظم سنوات ولايتيه الرئاستين، ومعظم حراك إدارته، تم إخراج هذا المشروع على خلفية أحداث ١١ سبتمبر/أيلول، بعنوان «الحرب على الإرهاب». لم يكن تخطيط هذا المشروع، وطريقة إخراجه وتسويقه من اختياره، بل يعود للمحيطين به من المحافظين الجدد، الذين قاموا في عهد إدارة ريغان بتسويق أكاذيب هائلة حول الاتحاد السوفييتي السابق لتصعيد الحرب الباردة وسباق التسلح.

في ضوء تكاليفه الباهظة ونتائجه الهزيلة وآفاقه المجهولة، يقف مشروع بوش الإمبراطوري على مفترق طرق، بل يوشك أن يصل منتهاه بتصاعد الحملة الانتخابية الرئاسية التي بدأت في الأسبوع الأول من هذا العام انتخاباتها الحزبية التمهيدية لاختيار مرشحي الحزبين المتنافسين. وأمام بوش بضعة أشهر لإطلاق آخر ما في جعبته من نيران لشن حرب أخرى، يمكن إشعالها دون التنبؤ بنهاية لها.

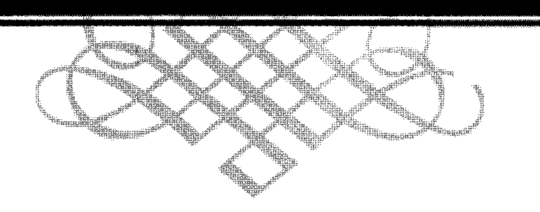
خلقت «الحرب على الإرهاب» ثقافة الخوف في الولايات المتحدة، فقيام إدارة بوش بتحويل هذه الكلمات الثلاث إلى شعار وطني منذ أحداث ١١ سبتمبر/أيلول كان له تأثير مدمر على الديمقراطية الأمريكية والنفسية الأمريكية، ومكانة الولايات المتحدة في العالم، بل إن استخدام عبارة «الحرب على الإرهاب» قد قوض قدرة أمريكا على مواجهة التحديات الحقيقية التي تواجهها.

وكما يحدث في كل دولة سمحت بممارسة التعذيب، انتشرت الانتهاكات انتشار النار في الهشيم، ويتحول كل أسير وسجين يتعرض للتعذيب لفتيل انفجار قنبلة موقوتة؛ ولذلك يواجه الجنود الأمريكيون بالعراق، قنابل موقوتة فعلية تُزرع يوميًّا بجوانب الطرق. فالتساهل في التعذيب يجعل هذا السلوك سائدًا في الهرم القيادي من قمته إلى قاعدته هناك؛ حيث حلت الاستثناءات (النادرة) محل القاعدة الراسخة.

تناول هذا العمل مختلف مناحي التجربة والموقف الأمريكي في سنوات إدارة بوش السبع الماضية، خاصة الحرب على الإرهاب، وما ترتب عليها من تحولات جوهرية في الأولويات الاستراتيجية للولايات المتحدة، والأوضاع والسياسات الاقتصادية، وتكاليف الحرب وسباق تبديد الموارد الناجم عن سعار وأوهام الخوف، ومعالم الاستراتيجية لإدارة بوش، والجهد الأمريكي لاحتواء وردع الصين، وخيارات إدارة بوش في العراق، وتناقضات القوة الأمريكية، وتفاقم أعباء الجيش الأمريكي، ومأزق الأحادية العسكرية الأمريكية، وقصور الموارد عن الوفاء باحتياجات المشروع الإمبراطوري، ونهاية حِقبة تفرد الهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط الجديد.

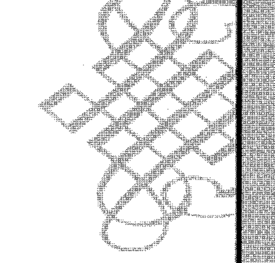
وأخيرًا معالم مؤتمر أنابولِس:

شهد مؤتمر أنابولِس أواخر نوفمبر/تشرين الثاني



٢٠٠٧م تدشين تحول جديد لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وقضية فلسطين، على جدول الأعمال الأمريكي الإسرائيلي، وربما «الفلسطيني والعربي الرسمي» أيضًا. فالقضية الفلسطينية لم تعد قضية احتلال وطن وشعب يطالب بالاستقلال وعودة الديار، بل هي ساحة أخرى للحرب على الإرهاب والتطرف الأصولي. فخطابا الرئيس الأمريكي جورج بوش، ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت، لم يذكرا شيئًا عن «احتلال»، أو«إنهاء الاحتلال»، أو «انسحاب» أو «إنهاء الاستيطان»، أو «إعادة مستوطنات»، أو «إزالة حواجز الإذلال»، أو وقف اغتصاب أراضي القدس وتهويدها، أو «وقف بناء الجدار العازل» الذي يلتهم أراضي الضفة الغربية، ويفصل منازل التلاميذ الفلسطينيين عن مدارسهم، ويغلق الأزقة المؤدية لأبواب منازل أهل القدس العتيقة.

بدامؤخرًاأن موضع الخلاف الأكبر بين واشنطن وطهران هو دور الأخيرة وطموحاتها الخطرة في العراق، وهو خلاف جيوسياسي بالغ الأهمية، قد يفوق في أولويته، وأهميته الراهنة لإدارة بوش، الخلاف حول الملف النووي، فالبرنامج النووي الإيراني سيبقى شغلاً شاغلاً للإدارة الأمريكية القادمة والاتحاد الأوروبي؛ لأنه يتعلق بجزء هام من مكونات منظومة السيطرة الغربية على العالم، «نظام أو معاهدة منع الانتشار» النووي (NPT)، لكن إدارة بوش حاليًا مَعْنِيَّة أكثر بالفشل والمصاعب في العراق، وذلك ما تستطيع إيران دائمًا أن تفاقمه، ويبدو أحيانًا أن التصعيد الأمريكي للعقوبات ضد إيران (بذريعة البرنامج النووي) هو في الحقيقة انعكاس لمصاعب يسببها فيلق «قدس» التابع للحرس الثوري الإيراني في العراق، وهذا ما يفسر العقوبات الأمريكية ضد الحرس الثوري وإعلانه «منظمة إرهابية»، لكن احتمالات الحرب ستستمر متراوحة بين الزيادة والنقصان حتى نهاية ربيع ٢٠٠٨م، حين يكون مزاج الرأي العام غير مهيأ لحرب أخرى، وتهدد بدورها فرصة المرشح الجمهوري للرئاسة. والله أعلم.



معلومات إضافية

المحافظون الجدد:

يطلق هذا المصطلح في الولايات المتحدة الأمريكية على اتجاه سياسي برز منذ الستينيات من القرن العشرين يضم بين صفوفه عددًا كبيرًا من المفكرين اليهود، وظهر تأثيره واضحًا على إدارة كل من الرئيسين الأمريكيين: رونالد ريجان وجورج دبليو بوش، ويتصف بميله إلى اليمين المسيحي المتطرف، وإيمانه بقوة أمريكا، وضرورة هيمنتها على العالم، ودعمه القوي لإسرائيل.

التأسيس:

كان منشأ هذا الاتجاه مع خروج مجموعة كبيرة من المفكرين اليهود واليمينيين من الحزب «الديمقراطي» إبان ولاية «جيمي كارتر»، وتحولهم إلى الحزب «الجمهوري»، متبنين سياسة متشددة تدعو إلى تعزيز القوة العسكرية، ومواجهة السوفييت، وزادت هيمنتهم على السياسة الخارجية الأمريكية في عهد رونالد ريجان، الذي آمن بفكرة التصعيد، ورفض نقد اليسار اللاذع للثقافة الأمريكية.

خَفَتَ تأثير هذا التيار مع أواخر فترة حكم ريجان في نهاية ثمانينيات القرن العشرين، ولكنه عاد بقوة بعد تولي جورج بوش الابن رئاسة الولايات المتحدة مطلع القرن الحالي، وازداد نفوذه وتأثيره بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م؛ حيث وجد المحافظون الجدد فرصتهم المواتية للأخذ بناصية القرار السياسي، في عهد وإدارة بوش الابن، الذي أوكل إلى أفراد مؤثرين منهم مناصب في مواقع سيادية مثل وزارات الدفاع والعدل والبيت الأبيض، وفي مواقع أخرى لها تأثيرها المباشر بالسياسات الخارجية والدفاعية والاجتماعية في الولايات المتحدة.

أهم أفكار المحافظين الجدد:

المحافظون الجدد ليسوا ساسة فقط؛ حيث تكمن خطورتهم في أنهم كُتّاب ومفكرون ومثقفون، أصحاب فكر متجدد، وقدرة لا تنتهي على الجدل، وركّز المحافظون الجدد منذ وصول بوش إلى البيت الأبيض على جزئية صناعة السياسات، والتحكم في المناصب الحيوية، وتحديدًا منصب نائب الرئيس، وخلال السنوات الأخيرة ساند المحافظون الجدد بقوة عددًا من الأفكار التي اكتسبت رواجًا واسعًا في واشنطن.

على رأس الأفكار التي يساندها المحافظون الجدد: الإيمان بأن أمام أمريكا فرصة غير مسبوقة لإعادة صياغة النظام العالمي، نابعة من حالة الفراغ التي يعشيها النظام العالمي الراهن بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، كما ارتبط المحافظون الجدد ببعض المفاهيم الاستراتيجية التي طبقتها إدارة بوش مثل مفاهيم الحرب الوقائية، وتغيير النظم، وهيمنة أمريكا (الخَيِّرة) على العالم.

يؤمن المحافظون الجدد بأن الخطر الأساسي الذي يهدد أمريكا حاليًا هو خطر ما يسمى «الإرهاب»، الذي تقوم به -على حد قولهم- جماعات مسلمة في الأساس يختلف المحافظون الجدد على تسميتها، ولكنهم يتفقون على أن العالم الإسلامي عمومًا، والشرق الأوسط خصوصًا، هما نقطة انطلاق أمريكا في سياستها لإعادة بناء النظام العالمي الراهن.



ويُكِـنّ المحافظون الجدد قدرًا كبيرًا من الرفض لدور المنظمات الدولية، والقانون، وجهود الحدّ من التسلح، وبشكل خاص يناصبون «الأمم المتحدة» العداء؛ حيث يرون أن القوة العسكرية يجب أن تبقى أساسًا رئيسًا للسياسة الخارجية.

تعد السـمة المميزة التي ظلت تجمع المحافظين الجدد هي حبهم ودعمهم وولاؤهم لإسـرائيل، واتهامهم مـن يخالـف مواقفهم في تأييد الدولـة العبرية بتهمة «العداء للسـامية». فالمحافظون الجـدد يعتبرون أن المصالح الأمريكية والإسرائيلية يجب أن تكون متماثلة.

للمحافظين الجدد تحالف وثيق مع الصهيونيين المسيحيين، وجاء في دراسة للبروفيسور القس دونالد واغنر -من جامعة نورث بارك في شيكاغو- عن الصهيونية المسيحية أن دعمها للمحافظين الجدد ولإسرائيل هو دعم تحركه المشاعر المعادية للإسلام، والتعصب الديني أكثر من المشاعر الدينية المسيحية.

ويرى واغنر أن التحالف بين المحافظين والصهيونيين المسيحيين استطاع، بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، توسيع ما يسمى الحرب على الإرهاب ليشمل حرب إسرائيل على الفلسطينيين.

بعض أبرز رموز المحافظين الجدد:

- **ليو ستراوس Leo Strauss**: يعتبر ستراوس اليهودي الأمريكي من أصل ألماني، وأستاذ الفلسفة السياسية الراحل بجامعة شيكاغو الأمريكية، هو الأب الفكري للمحافظين الجدد؛ حيث أثرت أفكاره في العديد من المثقفين الذين أصبحوا من رموز المحافظين الجدد، مثل بول وولفويتز، ووليام كريستول، وغيرهم، وكان ستراوس يدعو إلى بناء أمريكا كقوة كبرى تحارب الشر في العالم.

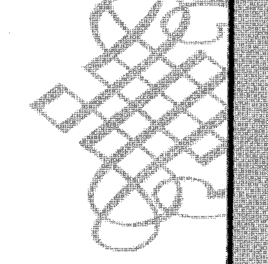
- **إرفنج كريستول Irving Kristol**: يُعد المفكر اليهودي الأمريكي «إرفنج كريستول» من أهم مفكري المحافظين الجدد، وإليه ينسب تأسيس هذا الاتجاه، وقد عمل كريستول خبيرًا أو مستشارًا في كثير من المؤسسات البحثية ومؤسسات الخبرة، القريبة من مؤسسات صنع القرار في الولايات المتحدة، وهو أحد مؤسسي مجلة كومنتري، الصادرة عن «اللجنة اليهودية الأمريكية»، والناطقة باسم المحافظين الجدد، ويدعوها البعض «إنجيل المحافظين الجدد».

- **بول وولفويتز**: نائب وزير الدفاع الأمريكي السابق، ورئيس البنك الدولي السابق، يصفه البعض بأنه «دماغ المحافظين الجدد»، وكان المحافظون الجدد يفخرون به؛ باعتباره منظِّرًا من الطراز الأول للسياسة الخارجية الأمريكية، كما يعد من أبرز مهندسي احتلال العراق، وأكثر المتحمسين للغزو.

- **ريتشارد بيرل**: يعتبر اليهودي «بيرل» الملقب بـ«أمير الظلام» -والذي كان يشغل منصب رئيس مجلس سياسة الدفاع الأمريكي- هو مُنَظِّر احتلال العراق، وصاحب الأثر الرئيس في قرار الغزو، وهو أيضًا صاحب نظرية استخدام القوة الأمريكية لتدمير أعداء إسرائيل.

- **دوجلاس فيث**: شغل منصب وكيل وزارة الدفاع الأمريكية للشئون السياسية، واستقال لتورطه في سلسلة فضائح استخباراتية، ويعتبر «فيث» من أكثر مؤيدي اليمين الصهيوني حماسةً، وكان من أنصار تزويد إسرائيل بالنفط العراقي عبر إعادة خط أنابيب حيفا، ودعا منذ عام ١٩٩٦م للإطاحة بصدام حسين كـ«خطوة أولى لإعادة تشكيل المحيط الاستراتيجي» لإسرائيل.

- **جون بولتون**: ينتمي السفير الأمريكي السابق في الأمم المتحدة «جون بولتون» إلى صقور المحافظين،



ويعتبر من أبرز رموز المحافظين الجدد، وكان عضوًا في إدارة المجلس الاستشاري لـ«المعهد اليهودي لشئون الأمن القومي»، وقد عُرف عنه احتقاره للقوانين الدولية.

المصادر:

- عماد مكي، تحالف الصهيونية المسيحية مع المحافظين الجدد، الجزيرة نت، ٢٠٠٦/١٢/٢٧.

- علاء بيومي، المحافظون الجدد وصقور واشنطن باقون، الجزيرة نت، ٢٠٠٦/١١/٢٨.

- عزت إبراهيم، كيف صعد المحافظون الجدد في إدارة جورج بوش... العالم أبيض أم أسود عند المحافظين الجدد، تقرير واشنطن، العدد الثامن عشر، ٦/٨/ ٢٠٠٥.

- علي عبد العال، المحافظون الجدد.. حلف الشيطان، شبكة الأخبار العربية «محيط»، ٢٠٠٧/٩/٢٧.





قراءة للواقع الداخلي الأمريكي

مؤشرات ودلائل الانتقال الحضاري

د. باسم خفاجي

(نائب رئيس تحرير التقرير الاستراتيجي.)

ملخص البحث

لا يزال اهتمام الأمة العربية والإسلامية بفهم الغرب، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، أو أوروبا الغربية، أو غيرها من دول الغرب محدودًا وقاصرًا، ولا يتواكب مع تطور العلاقة وأثرها على مستقبل الشعوب العربية والإسلامية، ليس على المستوى السياسي والعسكري والأمني فقط، وإنما على المستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية والتقنية أيضًا.

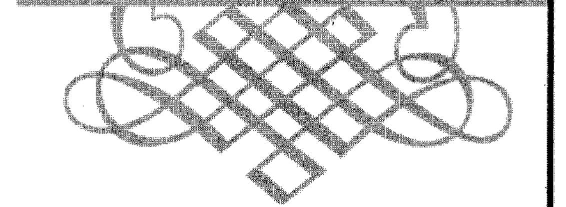
تهدف هذه الدراسة إلى المساهمة في تغطية النقص المتعلق بمعرفة وفهم الواقع الداخلي للولايات المتحدة الأمريكية، في مطلع القرن الحادي والعشرين، من خلال دراسة أهم المؤشرات الاجتماعية التي تؤكد أن أمريكا تتجه نحو التراجع من ساحات التأثير الدولي، وأن مشروع الهيمنة على العالم لا تواجهه فقط عقبات وصعوبات خارجية ودولية، وإنما قد تتسبب العوامل الداخلية أيضًا في عرقلة الطموحات السياسية والرأسمالية لتلك التيارات الفكرية الأمريكية التي تحلم بالسيطرة على البشرية وسيادة العالم.

يؤكد البحث في بدايته على أهمية فهم الواقع الاجتماعي الغربي، والأمريكي تحديدًا، وأن معرفة النظرة العامة للشعوب تجاه القضايا والأحداث تُعين على فهم السياسات الخارجية التي تنطلق من دول تلك الشعوب، وأن أهمية معرفة واقع الشعوب من الداخل من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، لا تتنافى أو تتعارض مع إدراك الدور الذي تقوم به النخب السياسية الحاكمة أيضًا في توجيه السياسات الداخلية والخارجية للدول.

ثم ينتقل البحث إلى دراسة فكرة التراجع الأمريكي، ومتى بدأ، والعوامل التي تساهم في تسارعه، وارتباط ذلك بالتاريخ الأمريكي. ويقدم الباحث مراجعة مختصرة لأهم المؤشرات الاجتماعية التي تدل على هذا التراجع في مجالات الفقر، والجريمة، والانحلال الخلقي، وتناقص المواليد وازدياد الهجرة، وتنامي الظواهر العنصرية داخل المجتمع، وكذلك تهميش الدين، أو محاولة استخدامه للأغراض السياسية.

ثم يقدم البحث رؤية حول تأثير العوامل الداخلية على السياسة الخارجية الأمريكية، وضرورة فهم تلك العلاقة المتشابكة. وينتهي البحث بتقديم رؤية حول مستقبل التراجع الأمريكي، ومؤشراته.





أفكار ومقتطفات

- أصبح الحديث عن الإسلام حديثًا شائعًا بين المثقفين في الغرب، وأظهرت استطلاعات الرأي أن فهم العالم العربي، ومظاهره الإعلامية والثقافية، قد ظهر بقوة ضمن اهتمامات المواطن الغربي بالعموم.

- العلاقة مع الغرب، وخصوصًا مع أو في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة تساهم بشكل رئيس في تشكيل مستقبل المنطقة العربية، وتؤثر على صياغة العقل العربي على المستوى الثقافي والاجتماعي من خلال الإعلام، والضغط السياسي والفكري والاقتصادي أيضًا.

- عدم معرفة، أو فهم واقع الغرب الداخلي بوضوح ودقة قد أصبح مرضًا يعصف بمجموع العالم الإسلامي، ولم ينجُ منه الكثير من مثقفي ومفكري الأمة، سواء من تيار الوسط الذي يمثل أغلبيتها، أو بين أصحاب التيارات الانعزالية، أو حتى أصحاب تيار التقليد والاقتداء بالغرب في كل مناحي الحياة.

- بدون فهم صحيح ومتجدد لواقع الغرب، لن نُجيد التعامل معه، ولن نُحسن فهم أسباب تراجعه الوشيكة، أو كيف يمكن الاستفادة من ذلك التراجع. إننا في عالم تحاول أمريكا بأشكال متعددة إفساده من ناحية، وتأخير إدراكه لتراجعها من ناحية أخرى.

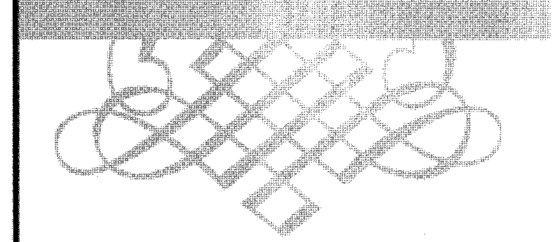
- هناك من يرى أن الولايات المتحدة قد انقسمت فعليًا إلى أمريكيتين: الأولى هي بلد العالم الأول الذي يرفل في ثوب الرفاهية، أما البلد الثانية فإنها تلك التي تنتمي إلى العالم الثالث؛ حيث المعاناة من شظف العيش والأوضاع المُزْرِية التي تتوارى عن أعين وأقلام الصحفيين.

- اكتشف الكثير من المفكرين في الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة، وعقب الكثير من الحوادث والكوارث الطبيعية مدى هشاشة وضعف البنية الاجتماعية الأمريكية، وهو ما يعيق بقوة أيّ مشروع حضاري حقيقي تدَّعِي الولايات المتحدة زعامته.

- تنبأ العديد من المفكرين الغربيين بزوال الحضارة الغربية، وأرجعوا ذلك في المقام الأول لأمور مرتبطة بالواقع الداخلي الأمريكي والغربي، وليس لقوى خارجية أو هزائم عسكرية، رغم وجود هذه العوامل أيضًا.

- يميل المفكرون الأمريكيون إلى أن المهاجر يجب أن «يذوب في هوية المجتمع الأمريكي»، وأن الولايات المتحدة هي بوتقة كبيرة تندمج فيها أفكار المهاجرين، وتذوب في النهاية ضمن فعاليات المجتمع. وقد يكون لهذه الهوية تأثير محدود على هذا المجتمع، ولكن المهاجر عليه أن يتخلى في النهاية عن هويته الأصلية؛ لكي يعتنق الهوية الأمريكية.

- في إحصائية جمعها كتاب المؤلف الأمريكي جايمس باترسون، «يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة»، يذكر المؤلف أن ٧٤٪ من الأمريكيين لا يمانعون من السرقة، إن كانت الفرصة سانحة، وأن ٦٤٪ منهم لا يرون في الكذب مشكلة ما دام مناسبًا، ولا يُعرِّض حياة الغير للخطر، وأن ٥٣٪ من الرجال والنساء يمكن أن يخونوا أزواجهم، إن سنحت لهم الفرصة.



- نسبة الأميين البيض، بين إجمالي عدد الأميين في الولايات المتحدة، أكبر من نسبتها بين السود، وهو ما يخالف الصورة الذهنية الشائعة، والتي ترى أن البيض أكثر تعلمًا وذكاءً من السود في أمريكا، وهي نتاج العنصرية الأمريكية، التي يتم تصديرها إعلاميًّا وفكريًّا بأشكال مختلفة إلى كل أنحاء الأرض.

- رغم أنه لأول مرة في تاريخ أمريكا يتقدم أمريكي أسود، كمنافس قوي لرئاسة البيت الأبيض، وهو باراك أوباما، لكن هذا التطور في وضع الأمريكان من ذوي الأصول الإفريقية قابله تشاؤم في نظرة المواطن الأمريكي- الإفريقي حول تحسن وضعه الاقتصادي والاجتماعي.

- أظهرت أحداث سبتمبر أن الديمقراطية يمكن التضحية بها من أجل ما سُمِّي بالأمن القومي، ومحاربة الإرهاب، فقد قامت الولايات المتحدة لأول مرة في تاريخها عقب تلك الأحداث بإنشاء وزارة داخلية على نمط وزارات داخلية دول العالم الثالث، وبدأت في إجراءات أمنية متشددة، وقامت بتغيير القوانين؛ لكي تسمح بالكثير من الإجراءات الأمنية، التي كان يُنظَر لها في السابق على أنها من علامات الدكتاتوريات في الشرق، وفي الكيان الشيوعي قبل سقوطه، وإذا بها جميعًا تُطبَّق، وبسرعة، عندما تعرضت أمريكا للخطر.

- إن أحد المشكلات الرئيسة التي تواجه دول العالم عندما تتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية، هو تلك القناعة المتجذرة في العقل الجمعي الأمريكي أن الولايات المتحدة «استثناء» تاريخي، وأن العالم لا غنى له عنها. وقد ترسخت هذه العقلية بشكل داخلي أولاً، ولكن يجري تصديرها على ألسنة الساسة والمفكرين والإعلام، رغم أن الواقع الحالي يشير إلى التراجع أكثر بكثير مما يشير إلى النهضة أو التقدم.

- لا بد للعالم أن يتكاتف من أجل إسقاط أكذوبة «الإمبراطورية الخيِّرة»، التي حاولت الولايات المتحدة أن تفرضها على مخيلة شعوب العالم؛ كي تُبرِّر بها مشروعات النهب والسيطرة والعدوان على الغير.

قراءة للواقع الداخلي الأمريكي

مؤشرات ودلائل الانتقال الحضاري

د. باسم خفاجي : نائب رئيس تحرير التقرير الاستراتيجي

مقدمة

تشابكت العلاقة بين العالم العربي والإسلامي، وبين الغرب بالعموم والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص ومتزايد مع مطلع القرن الحادي والعشرين، وأصبحت تلك العلاقة هي المحرك الرئيس والأساسي في سياسات العالم أجمع، وليس السياسات المتعلقة بالمنطقتين فحسب. وقد ارتبط ذلك التشابك في العلاقة باهتمام غير مسبوق من الغرب بمعرفة العالم العربي والإسلامي، ليس فقط على المستوى السياسي والفكري، وإنما أيضًا من قِبل المثقفين والمفكرين والعامة في المجتمعات الغربية.

لقد أصبح الحديث عن الإسلام حديثًا شائعًا بين المثقفين في الغرب، وأظهرت استطلاعات الرأي أن فهم العالم العربي، ومظاهره الإعلامية والثقافية، قد ظهر بقوة ضمن اهتمامات المواطن الغربي بالعموم. فلا حاجة اليوم لتعريف المواطن الأمريكي بقناة الجزيرة مثلاً، أو أين تقع العراق أو أفغانستان على خريطة العالم، أو ما هو الحجاب، أو لماذا يصلي المسلمون أو يَحُجُّون. وفي المقابل شابَ ذلك الاهتمام شيوع الصور النمطية التي يقدمها الإعلام الغربي عن الأمة العربية والإسلامية، وهي ليست صورًا إيجابية في المجمل، وصاحَبَها أيضًا تقصير من الإعلام العربي والإسلامي في التعريف الصحيح بالأمة ومواقفها.

ومن ناحية أخرى ظل اهتمام الأمة العربية والإسلامية بفهم الغرب، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، أو أوروبا الغربية أو غيرها من دول الغرب محدودًا وقاصرًا، ولا يتواكب مع تطور العلاقة وأثرها على مستقبل الشعوب العربية والإسلامية، ليس على المستوى السياسي والعسكري والأمني فقط، وإنما على المستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية والتقنية أيضًا.

تهدف هذه الدراسة إلى المساهمة في تغطية النقص المتعلق بمعرفة وفهم الواقع الداخلي للولايات المتحدة الأمريكية، في مطلع القرن الحادي والعشرين، ودراسة أهم المؤشرات الاجتماعية التي تؤكد أن أمريكا تتجه نحو التراجع من ساحات التأثير الدولي، وأن مشروع الهيمنة على العالم لا تواجهه فقط عقبات وصعوبات خارجية ودولية، وإنما قد تتسبب العوامل الداخلية أيضًا في عرقلة الطموحات السياسية والرأسمالية لتلك التيارات الفكرية الأمريكية التي تحلم بالسيطرة على البشرية وسيادة العالم.

أهمية فهم واقع الولايات المتحدة الأمريكية:

إن العلاقة مع الغـرب، وخصوصًا مع أو في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة تساهم بشكل رئيس في تشكيل مستقبل المنطقة العربية، وتؤثر على صياغة العقل العربي على المستوى الثقافي والاجتماعي، من خلال الإعلام والضغط السياسـي والفكري والاقتصادي أيضًا. لذلك فإن دراسة وفهم واقـع الغرب ليس ترفًـا فكريًّا، وإنما ضرورة ملحة تزداد الحاجة إليها يومًا بعد يوم، إضافة إلى أنها تمثل تطـورًا طبيعيًّا للتواصل بين الشـعوب في ظل التقنيات الحديثة، ووسـائل الإعلام الإلكترونية، وقنـوات التلفاز الفضائية الـتي أصبحت عابرة للحـدود والقوميات والثقافات والقارات أيضًا.

وقـد اهتم المسـلمون منذ بدايـة الدعوة بمعرفة الغـرب، وأحوالـه وصفات أهله وواقعهـم، فهذه كتب السُّـنَّة تروي عن المستورد القرشي -رضي الله عنه-، عن عمـرو بن العاص -رضي الله تعـالى عنه-، أنه قال: «سمعت رسـول الله -صلـى الله عليه وسـلم- يقول: «تقوم السـاعة والروم أكثر الناس»، فقال له عمرو: أَبْصِر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسـول الله، صلـى الله عليه وسـلم. فقـال عمرو: لئـن قلتَ ذلك؛ إن فيهم لخصالاً أربـع: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسـرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كَرَّة بعد فَـرَّة، وخيرهم لمسـكين ويتيم وضعيف، وخامسـةٌ حسنةٌ جميلةٌ وأَمْنَعُهُم من ظلم الملوك». أخرجه الإمام مسـلم. ويتضح من كلام الصحابي الكريم حرصه علـى معرفة أحـوال الروم، وسـبب وجـود دولتهم، وعوامل اسـتقرارها الاجتماعـي، وهو ما نحتاج إليه في هـذا الزمـان؛ اقتداء بفعل خير القـرون، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

إن اسـتمرار الجهـل بالواقـع الداخلي لهـذه الثقافة الأمريكيـة، الـتي تسـعى إلى تصديـر منتجاتهـا الفكرية والإعلامية المؤثرة لكل العالم، والانعزال عـن فهـم خلفياتهـا الفكريـة والعقدية، قد سـبَّبا تخبطًا عمليًّا في عالمنا العربي والإسـلامي في أسلوب التعامل مع المجتمع الأمريكـي، والانتقال الحادّ بين موقفين كلاهما غـير نافع للأمة، وهما إما الدعوة إلى الانعزال غير الواقعـي، والرفض الكامل لكل مـا جاء بـه الغـرب، أو الانكفاء التام في مسـتنقع التبعيـة والتقليـد وفقـدان الثقة في الـذات، وتصوُّر أن الطريـق الوحيد لنجـاة الأمة هو في فقدان هويتها مقابل قبـول كل ما جاء به الغرب من فكر وثقافة وأسلوب حياة.

> دراسـة وفهـم واقـع الغرب ليـس ترفًـا فكريًّـا، وإنما ضرورة ملحة تـزداد الحاجة لها يومًا عن يوم.

ومـن اللافـت للنظر أن عـدم معرفة أو فهـم واقع الغـرب الداخلي بوضوح ودقـة، قـد أصبـح مرضًـا يعصـف بمجمـوع العالم الإسـلامي، ولم ينجُ منـه الكثير مـن مثقفـي ومفكري الأمة، سـواء مـن تيار الوسـط الذي يمثـل أغلبيتهـا، أو بـين أصحـاب التيارات الانعزالية، أو حتى أصحاب تيـار التقليـد والاقتـداء بالغـرب في كل مناحـي الحياة. إن تجاوز الأزمة الحالية في فهم الغرب يستلزم العديد من الدراسات، التي تهدف إلى التعريف بالواقع الداخلي لهذا الغرب، ومحاولة فهمه فهمًا صحيحًا قبل تحديد آليات ووسائل التعامل معه فكريًّا وحضاريًّا ودعويًّا أيضًا.

إن معرفـة النظـرة العامـة للشـعوب تجـاه القضايا والأحـداث تُعـين علـى فهـم السياسـات الخارجيـة الـتي تنطلـق مـن دول تلـك الشـعوب، وقـد ذكر الباحث الأمريكـي روبرت كيجان في كتابه «عن الفردوس والقوة» ما يؤكد ذلك عندما قال: «يفضل الأمريكيـون عمومًـا اعتماد سياسـات القسـر بدلاً من الإقناع، مُغَلِّبـين العقوبات الزاجرة على أشكال الإغواء بسلوك أفضل، ومرجحين كفة العصا الغليظة على كفة الجزرة. يميل الأمريكيون إلى توخي الحسم النهائي في الشئون الدولية: يريدون رؤية المشـكلات محلولـة، ومنابـع التهديد مجففة. وبالطبـع فإن الأمريكيين يتسـارع تحولهم نحو تبني النزعـة الأحادية في الشـئون الدولية. إنهـم أقل ميلاً

إلى العمل عبر المؤسسات الدولية الشبيهة بالأمم المتحدة، وأقل استعدادًا للعمل بالتعاون مع الدول الأخرى لتحقيق أهداف مشتركة، وأكثر ارتيابًا من القانون الدولي، وأكثر استعدادًا للتحرك خارج شباك هذا القانون، عندما يجدون ذلك ضروريًّا، أو حتى مفيدًا وحسب».(١)

ورغم أهمية معرفة واقع الشعوب من الداخل، من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، فلا ينفي هذا أو يتعارض مع أهمية إدراك الدور الذي تقوم به النُّخَب السياسية الحاكمة، أيضًا، في توجيه السياسات الداخلية والخارجية للدول. ويذكر أحد المفكرين العرب ما يؤكد هذا المعنى قائلاً: «إن الشعوب ليست هي التي تتخذ القرارات، ولكنها النخب السياسية الحاكمة. وهذه النخب، بحكم مصادر القوة المتعددة التي تمتلكها، تسمح لها باتخاذ قرارات في السلم والحرب، مضادّة تمامًا لمصالح شعوبها؛ تحقيقًا لمصالحها الطبقية، أو للمصلحة الاستراتيجية للدولة كما تتبلور في إدراك هذه النخبة في لحظة تاريخيةٍ ما، وقد يكون هذا سوء إدراك، وليس إدراكًا موضوعيًّا لتوازن القوى في لحظةٍ ما... ولو نظرنا مليًّا إلى حالة الولايات المتحدة الأمريكية لوجدنا الإدارات الأمريكية المختلفة، جمهورية كانت أو ديمقراطية، في مجال السياسة الداخلية تخضع لتأثير جماعات الضغط وجماعات المصالح، وتُصدر تشريعات لمصلحة الأقلية من كبار رجال الأعمال، الذين يمثلون الشركات العملاقة، مما من شأنه أن يضر ضررًا بليغًا بمصالح الجماهير العريضة.. ولو ولينا وجهنا إلى القرارات في مجال الحرب لوجدنا أن الإدارة الأمريكية سبق أن اتخذت قرارًا خطيرًا أدى إلى تورط الولايات المتحدة في حرب فيتنام، بزعم مكافحة الشيوعية والحدّ من توسعها، مما أدى في النهاية إلى ثورة الجماهير الأمريكية ضد الحرب، بعد ما تساقط الآلاف من الجنود الأمريكيين، وظهرت الهزيمة الأمريكية الساحقة في الحرب للعيان... أين كانت الجماهير المتعلمة الأمريكية حين اتُّخِذَ قرار الحرب؟»(٢)

يؤكد كل ما سبق حاجتنا الماسّة إلى دراسة الغرب، والولايات المتحدة تحديدًا؛ بهدف فهم جميع القوى المؤثرة على قراراتها السياسية المتعلقة بأمتنا، وأفكارها ومدّها الثقافي، الذي يحاول التأثير على مجتمعاتنا وهويتنا، وكذلك اقتصادها الذي يسعى للسيطرة والنهب، واستغلال موارد العالم أجمع. وبدون فهم صحيح ومتجدد لواقع الغرب، لن نُجيد التعامل معه، ولن نُحسن فهم أسباب تراجعه الوشيكة، أو كيف يمكن الاستفادة من ذلك التراجع. إننا في عالم تحاول أمريكا بأشكال متعددة إفسادَه من ناحية، وتأخير إدراكه لتراجعها من ناحية أخرى.

ولنتتبع تسلسل المنطق لهذه الخطة، كما عبَّر عنه المفكر فيجاي براشاد، لنرى مدى عمق تورط الولايات المتحدة في إفساد العالم، ومدى تدخُّل العوامل الداخلية الاجتماعية والاقتصادية بالقرارات الدولية الخارجية، التي تحاول أمريكا فرضها على العالم. يقول فيجاي براشاد: «يمول دافعو الضرائب الأمريكيون الجيش، ثم يفوِّض البنتاجون مقاولين لبيع أسلحة للعراق في الثمانينيات، وبعد ذلك توحي سفيرة بوش، بمساندة من البنتاجون، إلى صدام أن لديه ضوءًا أخضر لغزو الكويت، ثم يهاجم بوش العراق، وتوجد حالة حرب مستمرة. وبعد ذلك يموِّل دافعُ الضرائب المسكين، مرة أخرى، حرب الخليج، ونشر القوات الهائل الذي ما فتئ يخلق اختناقًا في الجزيرة العربية ومحيطها. وتضطر الكويت للاستجابة لهذا بأن تمنح جائزة الطاقة، ليس لدافع الضرائب الأمريكي، بل للشركات الخاصة غير القومية. وبعدها يتحمل دافعو الضرائب نفقات الحرب، وتجني الشركات الخاصة الأرباح»(٣)

وسياسة الإفساد الدولي هذه ليست جديدة، وإنما كانت دائمًا جزءًا مكوِّنًا ورئيسًا من السياسات

(١) «عن الفردوس والقوة»، «أمريكا وأوروبا في النظام العالمي الجديد»، روبرت كيجان، الحوار الثقافي، ٢٠٠٤م، ص٩.

(٢) الإمبراطورية الأمريكية، الصراع ضد الهيمنة الأمريكية، السيد يسين، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص٧١.

(٣) القطط السمان والكلاب اللاهثة، فيجاي براشاد، ترجمة: د. فاطمة نصر، سطور، ٢٠٠٣م، ص٨٧.

الأمريكية نحو العالم. فقبيل حرب كوريا في عام ١٩٥٠م، أبرز التقرير الذي حدَّد الخط السياسي للولايات المتحدة الأمريكية هذه النية في الإفساد، من خلال المذكرة السياسية لمجلس الأمن القومي (NSC ٦٨)، المحرَّر من قِبل بول نيتز، والذي خلف أحد أهم الشخصيات السياسية في الحياة الأمريكية وهو جورج كينان الذي ترأس إدارة الدولة لفريق التخطيط. وقد استُبعد جورج كينان هذا؛ لأنه عُدَّ شغوفًا أكثر مما يجب بالسلطة، ولأنه قد كتب في عام ١٩٤٨م: «نحن نملك حوالي ٥٠٪ من ثروة العالم، غير أننا نمثل ٦,٣٪ من سكانه فقط.. وفي مثل هذا الوضع، لا يمكن تجنب أن نكون هدفًا للضغينة والغيرة. فمهمتنا الحقيقية، في الفترة القادمة، هي تطوير نظام للعلاقات يسمح لنا بالحفاظ على هذه المكانة، دون تعريض أمننا القومي للخطر. ولتحقيق هذا؛ علينا أن نتخلص من أيّ عاطفة، وأن نَكُفّ عن الحلم، وأن نبقى متيقظين. ويتعين أن يكون كل تركيزنا مُنْصَبًّا على أهدافنا القومية المباشرة والفورية، وألا يصيبنا الغرور. ولا يمكن أن نسمح لأنفسنا اليوم باتباع رفاهية حب الغير والخير على الصعيد العالمي. وينبغي أن نتوقف عن الحديث عن أهداف كبيرة غير محددة، فيما يخص الشرق الأقصى، فهو غير قابل للتنفيذ، وكذلك حقوق الإنسان، ورفع مستوى المعيشة، وإرساء الديمقراطية. ولن يكون بعيدًا اليوم الذي سيكون علينا فيه استخدام القوة».(٤)

ومع كل ما سبق، فإن محاولات الإفساد والتدخل في شئون العالم، والسعي إلى نهبه، والسيطرة عليه، لم تؤدِّ في مجموعها إلا إلى انتقال تدريجي بطيء نحو تراجع القدرة على السيطرة خارجيًّا، وبروز معالم الانهيار الاجتماعي الداخلي تدريجيًّا أيضًا، ثم ظهور ضعف الآلة العسكرية الهائلة عن تحقيق انتصارات استراتيجية، رغم التفوق العسكري، وأخيرًا تحول الاقتصاد الأمريكي من اقتصاد مستقل قوي يقود العالم إلى اقتصاد استهلاكي تابع يستغل العالم من أجل الموارد، ويحتاجه أيضًا من أجل أن يبيع له ما ينتجه، وقد اجتمعت كل هذه الدلائل والمؤشرات معًا؛ لتشير إلى حالة من التراجع الدائم للقوة الأمريكية في عالم الغد.

متى بدأ التراجع الأمريكي؟

بدأت مظاهر التراجع الأمريكي في الظهور على المستوى الاجتماعي والأخلاقي والفكري مبكرًا، وقبل ظهور التراجع الاقتصادي والعسكري بفترات طويلة. لقد بدأ التردي الأخلاقي والاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكية منذ عقود طويلة، ولذلك فمن المهم أن نتفهم أثر ذلك التردي على السياسات الخارجية الأمريكية، وعلاقة ذلك بالعالم العربي والإسلامي. لقد ذكر داعية حقوق الإنسان الأمريكي الشهير مارتن لوثر كينج العبارة التالية، التي تلخص واقع الولايات المتحدة الأمريكية، الذي بدأ في التدهور الأخلاقي منذ عقود طويلة، عندما تحدث عن «أخلاقيات منتصف الليل»، كما أسماها في عام ١٩٦٣م قائلاً: «إن منتصف الليل هي الساعة التي يسعى فيها رجال أمريكا بهمة إلى العمل بالوصية الحادية عشرة .. وهي «لن تُضْبَط متلبسًا». إن الخطيئة الكبرى -وفق أخلاقيات منتصف الليل- هي أن تُضبط متلبسًا، وفي المقابل فإن الفضيلة العظمى هي الإفلات. الكذب مستباح، إلا أن عليك أن تكذب بلباقة وحرفية.. لقد حلت فلسفة البقاء للأكثر دهاء محل مفهوم داروين عن البقاء للأصلح. وقد عملت هذه العقلية على انهيار المعايير الأخلاقية، وازدياد عمق الانحلال الأخلاقي».

إن الأحداث التي مرت بها أمريكا خلال السنوات الماضية أظهرت الخلل الكبير والكارثي الذي يمر به المجتمع الأمريكي. ويعبِّر عن ذلك أحد الكتاب الأمريكيين قائلاً: «هناك جميع أنواع المساومات التي يتباحث حولها الأغنياء، أو ذوو النفوذ في أي مجتمع مع الفقراء.. من خلال الخبز أو السيرك أو الصدقة، أو الوعد بأن الجميع سينجون. الصفقة هي: لا تسبِّبوا لنا أية مشاكل، وسنعتني بكم. ولكن تنهار الإمبراطوريات عندما يصبح العرض خاويًا، وكأنه يقول: لن نعتني بكم، أو: لا نستطيع

(٤) «دراسات سياسة التخطيط : P.P.S لـ٢٣ فبراير ١٩٤٨م».

أن نعتني بكم.. أو: نحن لم نعد بحاجة لكم، ولم نعُدْ نخشاكم. وقد بلغنا هذه النقطة هنا».[٥]

هناك من يرى أن الولايات المتحدة قد انقسمت فعليًا إلى أمريكيتين: الأولى هي بلد العالم الأول الذي يرفل في ثوب الرفاهية، أما البلد الثانية فإنها تلك التي تنتمي إلى العالم الثالث؛ حيث المعاناة من شظف العيش والأوضاع المُزْرِية التي تتوارى عن أعين وأقلام الصحفيين. وتبقى الحقيقة أن غضّ الطرف عن الواقع لا يعني مطلقًا أنه غير موجود، وإهمال المشكلة ليس مرادفًا لحلها.[٦]

لقد اكتشف كثير من المفكرين في الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة، وعقب الكثير من الحوادث والكوارث الطبيعية، مدى هشاشة وضعف البنية الاجتماعية الأمريكية، وهو ما يعيق بقوة أيّ مشروع حضاري حقيقي تدّعي الولايات المتحدة زعامته. يعبر فيليب كينيكوت -وهو ناقد ثقافي في الواشنطن بوست- عن حقيقة تلك المأساة قائلاً: «إن الكوارث لا تعلمنا أبدًا أيّ شيء جديد، بل هي مجرد دروس قديمة يتم تقليبها. إننا ضعفاء.. وعالمنا هو اتفاق أو تسوية مبرمة مع قوة يمكنها أن تمزقه من وقت لآخر. تكشف الكارثة عن الطبيعة البشرية. ولذلك فإنها غالبًا ما تُظْهر الصالح والطالح في الطبيعة البشرية التي تكون مستورة».[٧]

وتنبأ العديد من المفكرين الغربيين بزوال الحضارة الغربية، وأرجعوا ذلك في المقام الأول لأمور مرتبطة بالواقع الداخلي الأمريكي والغربي، وليس لقوًى خارجية أو هزائم عسكرية، رغم وجود هذه العوامل أيضًا. ومن بين هؤلاء المفكر الأمريكي الجمهوري المحافظ «بات بيوكانن»، والذي كتب كتابًا أسماه «موت الغرب»، ذكر فيه مؤشرات هامة لبداية النهاية في الولايات المتحدة الأمريكية والغرب بشكل عام، وأرجعها إلى انخفاض معدلات المواليد، وذوبان العائلة، واندثارها كوحدة اجتماعية، وعزوف النساء عن الحياة الطبيعية التقليدية؛ مثل: الزواج، وإنجاب الأطفال ورعايتهم، وعزوف الشباب عن مؤسسة الزواج، وشيوع الجنس، والشذوذ، والحماية القانونية لهذه النَّزَعَات غير السوية.

وهناك أيضًا من ينتمي إلى مدرسة الديمقراطيين الليبراليين، ولكنه يرى نفس المستقبل من ناحية التراجع الأمريكي، ومثال ذلك المفكر الأمريكي «بول كنيدي» الذي قدَّم في كتابه، صعود وهبوط الدول الكبرى، تحليلاً علميًّا تاريخيًّا لتكوُّن الإمبراطورية، وتنبأ بانهيار الإمبريالية الأمريكية بفعل الامتداد الجغرافي المفرط بمناطق سيطرتها، وعجز الموارد الاقتصادية الأمريكية عن سدّ متطلبات حماية هذه الإمبراطورية.[٨]

أما مانويل فارلشتاين، الباحث في جامعة ييل الأمريكية، ومؤلف كتاب «نهاية العالم كما نعرفه: السلام الأمريكي انتهى»، فيقول في مقال له: «إن توجهات الصقور المحافظين الأمريكيين الراهنة؛ لفرض الهيمنة الأمريكية بالقوة، ستفشل لأسباب عسكرية واقتصادية وأيديولوجية، فأمريكا لن تستطيع تحمل الخسائر البشرية والمادية الباهظة لأدوارها العسكرية»، ويضيف: «السؤال الآن هو: هل تخبو الولايات المتحدة

(٥) من «ميتش» إلى «كاترينا» الكسندر كوكبيرن، «قراءات غربية»، نشرة عدد ١٤٢٦/٨/٨هـ، الولايات المتحدة الأمريكية.

(٦) كارثة كاترينا تعيد الفقراء الأمريكيين للأضواء، روزا بروكس، «قراءات غربية» نشرة عدد ١٤٢٦/٦/٨هـ، الولايات المتحدة الأمريكية.

(٧) ملاذنا الآمن تحطم كما يتحطم الزجاج، فيليب كينيكوت، ناقد ثقافي في الواشنطن بوست. خدمة (لوس أنجلوس تايمز- واشنطن بوست) ١٤٢٦/٧/٣٠هـ.

(٨) «ما بعد الإمبراطورية»، «دراسة في تفكك النظام الأمريكي»، إيمانويل تود، دار الساقي، ٢٠٠٣م، ص١٣.

بهدوء، أم سيقاوم المحافظون الأمريكيون ذلك، ويحوِّلون الانحدار التدريجي إلى سقوط خطر وسريع؟»[٩].

كما يعتقد المفكر موريس بيرمان في كتابه «غروب الثقافة الأمريكية» أن موارد أمريكا الثقافية مُجْهَدَة، أو تم استهلاكها، وما هذا الازدهار للوحدة الثقافية في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر إلا شهقة النفس الأخيرة، ربما شهقة مجتمع مستنفَد يتشظى تشظيًّا متسارعًا، على حد قوله.

المعالم الداخلية للتراجع الأمريكي:

المواليد والهجرة:

يرى المفكر الأمريكي «بات بيوكانن» أن أكبر خطرين يهددان الغرب عمومًا يتلخصان في نقطتين: انخفاض معدلات المواليد، وموجات الهجرة. ويؤكد -كما ينقل عنه الدكتور عبدالله النفيسي في قراءة مفصلة لكتابه «موت الغرب»- أنه يُرجِع انخفاض معدلات المواليد في الغرب إلى رؤية اجتماعية شائعة هناك؛ بأن هدف الحياة هو (اللذة Pleasure) بكل أشكالها، وأن مؤسسة الزواج والعائلة باتت عبئًا لا داعي له طالما أن الشيوعية الجنسية هناك تلبي حاجة اللذة. لذلك يقول بوكانان سنلاحظ أن معدلات المواليد في انخفاض مستمر، وأن الوعاء السكاني الغربي في انكماش مستمر. كما أصبحت المرأة الغربية -كما يؤكد بوكانان- مركز هذه الموجة وإكسيرها؛ بحيث أصبحت تعزِّز هذا الاتجاه في المجتمعات الغربية من خلال صورة (المرأة العاملة Career woman) غير المعنِيَّة بشئون البيت والزوج والأطفال.

ومن جهة أخرى -يقول بوكانان- هناك موجات من الهجرة الضخمة mass immigration القادمة من العالم الثالث، وخاصة العربي والإسلامي للاستقرار في ديار الغرب، حاملة معها أنساق نموها العددي، وارتفاع نسبة المواليد لديها، وكينونتها الثقافية المنفصلة سيكولوجيًّا عن الغرب. ويذكر إحصائية هامة، وهي أنه في سنة ١٩٦٠م كان العنصر الأبيض في العالم يشكِّل ربع سكان العالم، وفي سنة ٢٠٠٠م أصبحوا سدس العالم، وأما في سنة ٢٠٥٠م فلن يتعدوا عُشر سكان العالم، وأن هذا الأمر برُمَّته يشير إلى ما أسماه «انتحار الغرب»، أو الموت البطيء له.

وقد أظهر استطلاع أجرته مؤسسة (بيو) للأبحاث في نهاية عام ٢٠٠٧م ضعفًا للترابط بين الزواج والرغبة في إنجاب الأطفال؛ إذ أكد ٤١٪ فقط من المشاركين في الاستطلاع على أهمية الأطفال بالنسبة للحياة الزوجية، مقارنة بتلك النسبة التي كانت ٦٥٪ في عام ١٩٩٠م، كما أن وجود الأطفال كسبب للحياة الزوجية الناجحة قد تراجع إلى المرتبة الثامنة بين قائمة أسباب الزيجة الناجحة، حسب نفس الاستطلاع. إنه انتحار حقيقي وبطيء للمجتمع الأمريكي.

هناك من ينظر إلى نفس الأمر من زاوية مختلفة ترى أن الولايات المتحدة لا تعاني من الشيخوخة، وإن كان هناك تراجع في معدلات المواليد، ولكنه لا ينذر بالخطر؛ وفقًا للتقارير الأمريكية السكانية. فقد أصدر المركز القومي الأمريكي لإحصاءات الصحة تقريرًا يبين انخفاض عدد حالات الحمل عام ١٩٩٩م، بنسبة ٧٪ عن ذُرْوَته عام ١٩٩٠م. كما انخفض معدل المواليد ٩٪ خلال تلك الفترة في الولايات المتحدة. وأن الهجرة إلى أمريكا تنبع، في الغالب، من دول أمريكا الجنوبية وأمريكا اللاتينية، وليس من الشرق الأوسط، وهذه الهجرات تأتي من مجتمعات تدين بنفس الدين السائد في القارة، وهو المسيحية. فقد وصل عدد المهاجرين إلى أمريكا في العام إلى قرابة ١,٢ مليون مهاجر، معظمهم من أمريكا اللاتينية، مقابل أقل من ٢٠٠ ألف مهاجر سنة ١٩٧٠م.

ويميل المفكرون الأمريكيون إلى أن المهاجر يجب أن «يذوب في هوية المجتمع الأمريكي»،

(٩) مجلة فورن بوليسي، Foreign Policy، عدد يوليو - أغسطس ٢٠٠٢م.



وأن الولايات المتحدة هي بوتقة كبيرة تندمج فيها أفكار المهاجرين، وتذوب في النهاية ضمن فعاليات المجتمع. وقد يكون لهذه الهوية تأثير محدود على هذا المجتمع، ولكن المهاجر عليه أن يتخلى في النهاية عن هويته الأصلية؛ لكي يعتنق الهوية الأمريكية. ولذلك فمن المتوقع من المهاجر أن يقبل بالذوبان ضمن الهوية القومية للدولة. وقد تنامت حدة هذه المطالبة من الجالية المسلمة تحديدًا بعد أحداث سبتمبر.

وقد أجرت الأكاديمية المعروفة إيفون حداد Yvonne Haddad دراسة عن مواقف المهاجرين المسلمين في أمريكا من مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة خارج إطار الزوجية Dating، فوجدت أن الجيل الأول من المهاجرين يرفضها تمامًا، بينما يعترض عليها الجيل الثاني اعتراضًا فكريًا ودينيًا، ولكنه يتفهمها واقعيًا. أما الجيل الثالث من المهاجرين فيغلب عليه ممارسة هذا الأمر، رغم مخالفته لتقاليد ودين الأقلية المسلمة. استخلصت الباحثة من ذلك أن تذويب المسلمين في المجتمع الأمريكي يحتاج إلى ثلاثة أجيال، ولكنه يتم في نهاية الأمر.

تأثير الهجرة على الديمقراطية الأمريكية:

لا تزيد نسبة من وُلدوا خارج أمريكا من بين مواطنيها اليوم عن ١٠٪. كما أن تيار الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية قد انخفض بشكل ملحوظ بعد أحداث سبتمبر. فقد أعلنت إدارة مراقبة الحدود الأمريكية أنها كانت تنفذ ما يقارب من مليوني ساعة عمل في العام في مراقبة الحدود الأمريكية، وارتفع هذا الرقم مؤخرًا ليصبح خمسة ملايين ساعة سنويًا. وساهم ذلك بدرجةٍ ما في تقليل عدد المتسللين عبر الحدود، ومن ثَم تقليل نسبة الهجرة غير القانونية إلى الولايات المتحدة. والطريف في مشكلة التعامل مع المهاجرين بِبُعْدَيْهَا: الفكري، والعملي، أنها تُعيد صياغة تجربة الديمقراطية في الغرب. فقد استقر الفكر الغربي في السابق على أن الديمقراطية هي «حكم الأغلبية بين مواطنين متساوين في الحقوق»، وهو التعريف الشائع للديمقراطية الليبرالية، الذي يعتبر المواطنة شرطًا ضروريًا للمشاركة السياسية.

أما أنصار المدرسة الفكرية الجديدة؛ فإن التجربة الديمقراطية تميل في تعريفهم إلى أنها «المشاركة في السلطة بين مجموعات عِرْقية تتكون من مواطنين ومهاجرين». فرغم أن المهاجر لا يملك بالضرورة حق التصويت واختيار المرشحين؛ لأنه ليس مواطنًا في الدولة، إلا أن قوة الأقليات المكونة من مهاجرين ومواطنين قد أصبحت أحد المحاور الهامة التي تشكّل العملية الانتخابية، وتتحكم في توجهات المرشحين وأفكارهم. وبالتالي فهي تؤثر على التجربة الديمقراطية بصورة مباشرة تتجاوز صناديق الاقتراع إلى فكر المرشحين وبرامجهم العملية.

وأصبح كثير من المرشحين يُبْدُون اهتمامًا ملحوظًا في برامجهم الانتخابية بالتقرب إلى المهاجرين، من خلال بعض البرامج الاجتماعية، التي تهدف إلى تصحيح أوضاعهم القانونية، ومساعدتهم على الحفاظ على حقوقهم المدنية. ولذلك فقد كتب أحد المفكرين الأمريكيين البارزين، وهو جايمس بلانكس James Blanks في عام ١٩٩٤م عن هذا التحول قائلاً: «لكي ننجح في إقامة تجربة ديمقراطية حقيقية؛ ذات سلطة أخلاقية، وقبول قانوني، فإن الأعراق المختلفة لا بد أن تتبادل وتتقاسم السلطة».

وهذه الرؤية ستؤدي، في الغالب، إلى المزيد من التراجع الأمريكي الدولي؛ لأن اهتمامات المهاجرين في أغلبها محلية، وترتبط بالواقع الداخلي، كما أن معظم المهاجرين ليسوا من أنصار مشروع الهيمنة الأمريكي.

الفقر:

وصل عدد الذين يسكنون الشوارع بلا مأوى (Homeless People) في الولايات المتحدة الأمريكية ما يقرب من عشرين مليونًا من أفراد الشعب. هذا في الوقت الذي لا تزال الولايات المتحدة تستقبل أعدادًا ضخمة من المهاجرين سنويًّا من مختلف أنحاء العالم.

في ١١ أغسطس عام ١٩٢٨م، تنبأ الرئيس الأمريكي هربرت هوفر أن «البطالة كمحنة في سبيلها للتلاشي على نطاق واسع. ومضى قائلاً: إننا اليوم في أمريكا قد اقتربنا من الانتصار النهائي على الفقر، أكثر من أي وقت مضى في التاريخ، وفي أي بلد آخر. يتلاشى وجود ملاجئ الفقراء بيننا. لم نصل إلى الهدف بعدُ، إلا أنه مع إتاحة الفرصة للمضي قُدمًا في سياسات السنوات الثماني الأخيرة، سرعان ما سنصبح على مرأى من اليوم الذي يختفي فيه الفقر من هذا البلد، بعون الله». فعلاً، كان هوفر محقًّا، فقد اختفى الفقر، فهم الآن يعيشون بمنأى عن الأنظار في السجون، أو في أكواخ أشبه بالزرائب في المساكن الشعبية المكدسة. تقوم الولايات المتحدة بوضع أعداد كبيرة من سكانها خلف القضبان، وتنفق المزيد من الأموال على قوات الشرطة، ومكتب المباحث الفيدرالية، ولديها قوات مسلحة أكبر من أية دولة أخرى على الكوكب[١٠].
وفي عام ١٩٩٤م، قال الكاتب ليبرو ديلا بيانو: «يتحرك مجتمعنا باتجاه الوصول إلى مرحلة لا يوجد بها سوى طبقتين اجتماعيتين: السجناء والشرطة». وكان موريس ثيجن، مدير المعهد القومي لإصلاح المنحرفين أكثر تفاؤلاً بهذا الشأن؛ إذ قال: «يتندر الناس بالقول: إننا في سبيلنا إلى اليوم الذي يصبح فيه جميع الأفراد إما سجناء، أو يقومون على إصلاح المنحرفين».

إن الفقر الذي نتحدث عنه في واقع أمريكا اليوم ليس بسبب نقص الموارد، أو فقر الدولة، وإنما هو بسبب سياسات اقتصادية تهدف إلى تهميش قطاع كبير من المجتمع بشكل بشع ومستمر. وكما يذكر أحد الباحثين الأمريكيين في هذا الشأن؛ فإن «الأمر لم يكن هو فشل من بيدهم الحكم في إدراك ما يُنزلونه بالبقية في الولايات المتحدة، وبالعالم. ففي ٢٠ يونيو عام ١٩٩٧م، لخَّص ستيفن روتش، من شركة مورجان ستانلي، الأمر بمهارة أمام منتدى مجموعة السبعة (أصبحت الآن مجموعة الثمانية)، الذي عُقد في دنفر بالولايات المتحدة، في سياق زيادة الثروة، بيَّن روتش: «أن العامل الأمريكي دفع فاتورة هذه النجاحات في شكل المصاغرة (الإنتاج بحجم أصغر)، وضغط الأجور الفعلية،

---

(١٠) القطط السمان والكلاب اللاهثة، فيجاي براشاد، ترجمة: د. فاطمة نصر، سطور، ٢٠٠٣م، ص٢٧٨.

وتصاعد عدم مساواة توزيع الدخل، والإحساس العميق بعدم الأمان الاقتصادي.

في نفس ذلك العام قدم «صندوق الدفاع عن الأطفال» تقريرًا؛ يتردد فيه أصداء تفاعلات وتغيرات وضع الثراء في الولايات المتحدة، جاء فيه «احتمال فقر الأطفال في أمريكا هو ضِعْفه في بريطانيا، وثلاثة أمثاله في فرنسا أو ألمانيا، وستة أضعاف احتمال فقر الأطفال في بلجيكا، أو الدانمارك أو سويسرا». هذا بالإضافة إلى «أن راتب الآباء الشبان المتزوجين انخفض بمعدل ٣٠٪ فيما بين عامي ١٩٧٣م و١٩٩٤م. وأخفى تنامي دخول الأمهات المتزوجات منذ عام ١٩٩٤م هذه الخسائر جزئيًّا في إحصائيات دخل الأسرة. تعوِّض عائلات كثيرة بعض ما تفقده من دخلها بالعمل ساعات أطول. وعلى حين كان معدل الأُسَر الشابة التي تعاني الفقر عام ١٩٧٣م هو ٦٪، أصبح ما يقرب من ١٦٪ منها يعانون الفقر الآن».[١١]

لقد ازدادت في الولايات المتحدة نسبة الذين يعتقدون باتساع الفجوة في المجتمع بين الأغنياء والفقراء؛ حيث يعتقد نحو ٧٣٪ ممن شاركوا في استطلاع لمركز (بيو) أجري في نهاية عام ٢٠٠٧م، ولأول مرة منذ ١٥ عامًا، أن الغنيّ يزداد غنًى، بينما يزداد الفقير فقرًا.

الجريمة:

اعترفت شركة إس. إن. هتون بارتكابها ٢٠٠٠ جريمة في عام ١٩٨٥م، وهو رقم ربما لا يستطيعه سوى القلة من المجرمين المنفردين، حُكم على الشركة بغرامة قيمتها مليوني دولار فقط. وأيضًا اعترفت شركة برودينشيال سيكوريتز أنها ارتكبت تدليسًا في بيعها استثمارات قيمتها ١,٤ بليون دولار، واحتالت على ١٢٠٠٠٠ شخص، فلم تدفع سوى ٣٧٥ مليون دولار غرامة. يتساءل الصحفي كيرت آيشنوالد «كيف يفوق احتمال سجن من يسرق مخزنًا للخمور، احتمال سجن من يحتال على ما يعادل نصف مجموع سكان مدينة متوسطة الحجم؟»، ترجع الإجابة إلى طبيعة احتيال الأعمال، ومعايير الأدلة المتشددة في نظام العدالة الجنائية. ليس البرهان على وجود ضحايا كافيًا، أو البرهان على أن البعض قد كوَّن ثروة من معاناة الآخرين. تقتضي أحكام الدولة البرهان على عناصر كثيرة في الجريمة، تبدو بعضها شديدة الشبه بمعايير الجودة الصناعية».

وهناك تزايد في نِسَب العنف يتخلل النسيج الاجتماعي من عناصر أمريكية، وليس عناصر دخيلة عليهم، وقد انتشرت في الأعوام الأخيرة ظواهر قيام طالبٍ ما بقتل أقاربه، أو زملاء دراسته في المدرسة، والذهاب إليها محملاً بالأسلحة! ليقتل عددًا منهم دون أي سبب حقيقي لذلك، وهي ليست حوادث فردية، ولكنها تتكرر بشكل واضح في الأعوام الأخيرة.

الجريمة في أمريكا قد تكون مقنَّنة أيضًا من الناحية الدستورية، ولكنها مدمرة اجتماعيًّا وأخلاقيًّا وحضاريًّا أيضًا. يذكر أحد المفكرين الغربيين أنه تم في أمريكا وحدها أكثر من أربعين مليون عملية إجهاض، منذ أن حكمت المحكمة الدستورية هناك بأن الإجهاض (حق دستوري للمرأة الأمريكية)، وهي جريمة اجتماعية في نظر المفكر ستؤدي إلى انتحار الغرب وزوال أمريكا.

انحلال الأخلاق:

يذكر الدكتور عبد الله النفيسي، نقلاً عن الكاتبة الغربية فاليري سولانيس، أنها ترى أن المرأة تستطيع فنيًّا technically أن تستغني عن الرجل في الاحتياجات الجنسية، وحتى في إنجاب الأطفال، لا بل وإنجاب البنات فقط، ولذلك أسست تلك المرأة جمعية مشهرة وقانونية أسمتها «جمعية الاستغناء عن الرجل Society For Cutting up men»، وكتبت في تقديم هذه الجمعية أن «الرجال خطأ بيولوجي يجب أن تصححه المرأة، وأن الذكور قد حوَّلوا العالم إلى [كومة من القاذورات]».

وفي إحصائية جمعها كتاب المؤلف الأمريكي

(١١) القطط السمان والكلاب اللاهثة، فيجاي براشاد، ترجمة: د. فاطمة نصر، سطور، ٢٠٠٣، ص١٢٦.

جايمس باترسون، «يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة»، يذكر المؤلف أن ٧٤٪ من الأمريكيين لا يمانعون من السرقة، إن كانت الفرصة سانحة، وأن ٦٤٪ منهم لا يرون في الكذب مشكلة ما دام مناسبًا، ولا يُعرِّض حياة الغير للخطر، وأن ٥٣٪ من الرجال والنساء يمكن أن يخونوا أزواجهم، إن سنحت لهم الفرصة. أليس من المخجل اجتماعيًّا أن يحتل الاغتصاب المرتبة الثانية في خطورته على المجتمع الأمريكي، وأن الطفولة المثالية البريئة، كما يقولون، لم يعد لها وجود في ذلك المجتمع؛ بناء على الدراسات التي غطَّت معظم ولايات أمريكا.. فكثير من الفتيات الأمريكيات يفقدن بكارتهن قبل سن الثالثة عشرة! وإن مفهوم الزواج لم يعد يمثل أهمية، بل إن نسبة الثلث من الرجال والنساء المتزوجين، الذين شملتهم عينة الدراسة، اعترفوا أنهم كانت لهم علاقات جنسية غير شرعية! وأن هناك نسبة كبيرة من الأمريكيين لا يهتمون بوالديهم عند كبرهم. وأن نسبة واحد من كل سبعة أشخاص يحمل سلاحًا؛ إما معه شخصيًّا أو في سيارته، كما تذكر الدكتورة نورة السعد في دراسة لها.

ليس هدف هذا البحث تجريم المجتمع الأمريكي بأكمله، أو وصفه بالانحلال، ولكنه بالتأكيد مجتمع تفشَّت فيه مظاهر الانحلال الأخلاقي بشكل كبير، وأثرت على تركيبة الأسرة الاجتماعية وتماسكها، وهو ما يهدد هذا المجتمع بشكل كبير.

الأمية والجهل:

تعرِّف الأمم المتحدة الأمية بأنها عدم القدرة على قراءة أو كتابة جملة بسيطة بأي لغة. وبناء على هذا التعريف، وبناء على دراسة أعدها المركز القومي الأمريكي للإحصاءات التعليمية National Center for Education Statistics عام ٢٠٠٣م، فإن ١٤٪ من المواطنين الأمريكيين البالغين لا يجيدون القراءة والكتابة، وهو ما يصل إلى ٤٠ مليون إنسان. وأن ما يزيد على نصف تلك النسبة لم يحصل على شهادة الثانوية العامة.

ويذكر الكاتب باول ريفز Paul Rivas، وهو محاضر الدراسات الحضرية في جامعة وسكونسن -اعتمادًا على دراسات وإحصاءات الرابطة القومية للتعليم National Education Association- أن الأمية لا تمثل مشكلة فئة أو شريحة واحدة في المجتمع الأمريكي؛ حيث تنتشر بين البيض والسود واللاتينيين بنسب متقاربة، كما أن نسبة الأمية في المدن الكبرى ٤١٪ تقترب من النسبة في القرى والبلدات الصغيرة ٥١٪. كما أن الأمية لا ترتبط بجيل كبار السن فقط؛ حيث إن ٤٠٪ ممن لا يعرفون الكتابة والقراءة هم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠ و٣٩ عامًا.[١٢]

كما تشير التقارير إلى أن نسبة الأمية بين البيض لم تشهد زيادة أو نقصان طوال العقدين الأخيرين، وهي ٣٧٪ من إجمالي عدد الأميين، بينما قلَّت نسبة الأمية بين السود خلال العقد الأخير إلى ٢٠٪ من إجمالي عدد الأميين. اللافت للنظر أن نسبة الأميين البيض، بين إجمالي عدد الأميين في الولايات المتحدة، أكبر من نسبتها بين السود، وهو ما يخالف الصورة الذهنية الشائعة، والتي ترى أن البيض أكثر تعلمًا وذكاءً من السود في أمريكا، وهي نتاج العنصرية الأمريكية التي يتم تصديرها إعلاميًّا وفكريًّا بأشكال مختلفة إلى كل أنحاء الأرض.

العنصرية في المجتمع الأمريكي:

قد لا يشكِّل التجانس العِرْقي، نتيجة الهجرة، مشكلة حقيقية في المجتمع الأمريكي، الذي يعاني من مشكلة أخرى، وهي التمييز بين الجنس الأبيض، وبين الأقلية السوداء، وهي مشكلة تاريخية، ولم ترتبط بالمهاجرين الجدد. ويذكر المفكر الفرنسي ميشال بوغنون أن أمريكا تقوم على فكرة الاستبعاد والعنصرية، مهما نفت ذلك بشدة. إنه استبعاد اقتصادي بامتياز، ما دامت

(١٢) ٤٠ مليون أمريكي لا يجيدون القراءة والكتابة، نقلاً عن موقع «تقرير واشنطن» على شبكة المعلومات، جريدة السبيل الأردنية، ٧ نوفمبر ٢٠٠٦م.

السلطة الفعلية تصادرها طبقة المالكين؛ حتى وإن بدا ممكنًا حراك اجتماعي ما، جراء التمجيد لروح المقاولة، التي ستتاح أمامها فرصة التجلي التام، إبان التسابق إلى المناجم الذهبية وأراضي الغرب. لكن الاستبعاد ليس اقتصاديًّا وحسب. ففي الذهنيات تقوم رؤية مزدوجة القطب للواقع الذي يفرِّق فيه بين الحضارة (المسيحية، الغربية) من جهة، و«الوحشية» (الهنود ثم السود) من جهة أخرى. ويسعى الأمريكيون، وهم يعانون ضرورة تسويغ مولد أمتهم، إلى التميز قدر المستطاع عن الأهالي المقيمين معهم في المجال عينه، لكنهم لا يتطابقون مع الصورة التي يكوِّنونها عن أنفسهم؛ وعن الأوروبيين الذين انحدروا منهم، معلنين أنهم أعلى كعبًا، وأنهم جاءوا برسالة مقدسة.(١٣)

ورغم أنه لأول مرة في تاريخ أمريكا يتقدم أمريكي أسود، كمنافس قوي لرئاسة البيت الأبيض، وهو باراك أوباما، لكن هذا التطور في وضع الأمريكان من ذوي الأصول الإفريقية قابله تشاؤم في نظرة المواطن الأمريكي- الإفريقي حول تحسن وضعه الاقتصادي والاجتماعي؛ حيث أشار استطلاع أصدره مركز أبحاث (بيو) في نهاية عام ٢٠٠٧م إلى أن ٤٤٪ من الأفارقة الأمريكان لا يعتقدون أن وضعهم سيتحسن في المستقبل، وكانت هذه النسبة ٥٧٪ في العام ١٩٨٦م، ويشعرون باتساع الهوة بين الطبقة الوسطى والفقراء منهم.

استغلال الدين سياسيًّا، وسقوط هيبة التدين اجتماعيًّا:

يستهل السياسي الأمريكي نيوت غينغريتش فصول كتابه «إعادة اكتشاف (الله) في أمريكا» بمقدمة بعنوان «الخالق والرأي العام الأمريكي» قائلاً: إنه لا يوجد هجوم على الثقافة الأمريكية أكثر خطرًا وأشد فتكًا من جهود اليسار الأمريكي العلماني؛ لإزاحة وإبعاد (الله) من حياة الشعب الأمريكي. كما أظهر المؤلف أيضًا تخوفه من تقلص دور الدين في الحياة العامة الأمريكية، قائلاً: «إن المحكمة، التي تُعتبر أحد أضلاع مثلث السلطة في الولايات المتحدة، قد ابتعدت كثيرًا عن الاعتراف بالدور المركزي للدين في حياة الأمريكيين، وضرورة انعكاسه في مؤسسات الجمهورية». ويرى المؤلف أن أمريكا تواجه خطرًا حقيقيًّا ليس فقط بسبب محاولة تهميش الدين وإزالته من الحياة العامة، وإنما أيضًا بسبب السعي إلى استثمار الدين سياسيًّا.

ولتأكيد ذلك، فقد جاء خبر في وكالات الأنباء يوم الأحد ٣٠ مارس من عام ٢٠٠٣م، مفاده ما يلي: «طُلب من الجنود الأمريكيين الذين يشاركون في القتال ضد العراق الدعاء من أجل رئيسهم جورج بوش. ووُزعت كتيبات على آلاف من رجال مشاة البحرية (المارينز)، تحمل عنوان (واجب المسيحيين)، وتحتوي تلك الكتيبات على أدعية، كما تحتوي على جزء يتم نزعه من الكتيب لإرساله بالبريد إلى البيت الأبيض؛ ليثبت أن الجندي الذي أرسله كان يصلي من أجل بوش. وطبقًا لأحد الصحفيين المرافقين لقوات التحالف؛ فإن هذا الجزء يقول: (لقد صليت من أجلك، ومن أجل عائلتك وموظفيك، وجنودنا في هذه الأوقات التي تسودها حالة عدم اليقين والاضطراب. ليكن سلام الله إليك).

يقدم الكتيب، كما يذكر المفكر المصري الأستاذ السيد ياسين، والذي وضعته جماعة تسمى (آن كولين تنيستريز) صلوات يومية من أجل الرئيس الأمريكي، المعروف بأنه من «المسيحيين الجدد»، والذي يعمد دائمًا إلى ذكر (الله) في خطاباته. وتقول صلاة يوم الأحد (أدعو مَن أجد أن يلجأ الرئيس ومستشاره إلى الله وحكمته كل يوم، ولا يعتمدون على فهمهم الخاص). أما صلاة الاثنين فتقول (أدعو أن يكون الرئيس ومستشاره أقوياء وشجعانًا لعمل الصواب بغضّ النظر عن النقاد).(١٤)

وقد اختتم نيوت غينغريتش كتابه بالتأكيد على أن «الجهود الراهنة لإبعاد رؤية الآباء المؤسسين لدور الدين عن الحياة العامة للأمريكيين، هي المعركة التي يجب أن يخوضها الأمريكيون الآن؛ معتبرًا أن قاعات المحاكم والفصول الدراسية هي مركز

(١٣) «أمريكا التوتاليتارية»، «الولايات المتحدة والعالم: إلى أين؟»، ميشال بوغنون – موردان، دار الساقي، لبنان ٢٠٠٢م، ص: ٣٣.

(١٤) راجع جريدة الحياة، الصادرة في لندن، بتاريخ ٣٠ مارس ٢٠٠٣م.

وساحة المعركة؛ حيث إن هذين المكانين هما اللذين شهدا التحول الذي فرضه العلمانيون على أغلبية المجتمع الأمريكي». إن المعركة حول الدين في أمريكا تؤكد حالة الانقسام الحاد داخل ذلك المجتمع، وهو ما يلقي بظلاله على الحياة الأمريكية بأكملها.

عدم الاهتمام بشئون العالم:

إن استطلاعات الرأي واضحة بشأن موضوع لا مبالاة الشعب الأمريكي بما يحدث في العالم. فاهتمام الأمريكيين بالأخبار، وخصوصًا عن البلدان الأجنبية، تضاءل بعد انتهاء الحرب الباردة. فليس هناك من «المهتمين جدًّا» بالأخبار عن البلدان الأخرى سوى ٢٩٪ من الجمهور الأمريكي. وهناك ٢٢٪ «لا يكادون يعيرونها اهتمامًا يُذْكَر». وعند طرح سؤال عن أكبر المشاكل التي تواجه البلد، شكَّلت السياسة الخارجية أصغر نسبة مئوية في أجوبة الجمهور (٧٪) (أما عند القادة فكان الرقم ١٩,٥٪).

إن المعركة حول الدين في أمريكا تؤكد حالة الانقسام الحاد داخل ذلك المجتمع، وهو ما يلقي بظلاله على الحياة الأمريكية بأكملها

«في عالم ما بعد الحرب الباردة، مع عدم وجود عقلية «نحن - ضد - هم» بوضوح محدد، فإن علاقة أحداث العالم تبدو أقل وضوحًا لكثير من الأمريكيين». وبعض الناس يصفون هذه المواقف بأنها «نزعة انعزالية طرية ناعمة». ويسميها آخرون «نزعة دولية أممية مخففة».(١٥)

ليس من الممكن توقع أن ترغب دولة في علاقات طيبة مع عالم لا تعرف عنه إلا القليل، ومن اللافت للنظر أن الرئيس الأمريكي، رغم كل انشغال إدارته الأمريكية بشئون الشرق الأوسط وهمومه، إلا أنه قد قام بزيارته الأولى في حياته لنفس المنطقة بعد سبع سنوات من حكمه، وشاع في أروقة الإدارة الأمريكية أنه حصل على جواز سفر لأول مرة في حياته بعد أن بدأ حملته الانتخابية لكي يصبح رئيسًا لأكبر دولة في العالم، أي أنه لم يسافر إلى أي دولة في العالم قبل أن يهتم بأن يكون رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية.

التحول إلى دولة بوليسية:

أظهرت أحداث سبتمبر أن الديمقراطية يمكن التضحية بها من أجل ما سُمِّي بالأمن القومي، ومحاربة الإرهاب، فقد قامت الولايات المتحدة لأول مرة في تاريخها عقب تلك الأحداث بإنشاء وزارة داخلية على نمط وزارات داخلية دول العالم الثالث، وبدأت في إجراءات أمنية متشددة، وقامت بتغيير القوانين؛ لكي تسمح بالكثير من الإجراءات الأمنية، التي كان يُنظَر لها في السابق على أنها من علامات الدكتاتوريات في الشرق، وفي الكيان الشيوعي قبل سقوطه، وإذا بها جميعًا تُطبَّق، وبسرعة، عندما تعرضت أمريكا للخطر.

ولقد حَذَّر اتحاد الحُريات المدنية بنيويورك، من انتشار الكَاميرات الأمنية في أَنحاء المدنية مما يُشكل تَهديدًا عَلى الحُريات الشخصية للمواطن الأمريكي، وذكر الاتحاد في تقريره أن عَدد الكَاميرات الأمريكية زَاد خمس مرات في أَجزاء من مدينة «نيويورك»، وأَصبحت ذَات تقنية وقُدرات عَالية، مما يُهدِّد الخُصوصية وحُرية التعبير والاتصال، كَما أشار الاتحاد أنه رَغم انتشار الكَاميرات بكثرة، إلا أنه لَم يَمنع تَراجع الجَريمة في «نيويورك»، فيما ذَكر التَقرير أنه خَلال العام ٢٠٠٥م، كَان هُناك (٤١٧٦) آلة تَصوير في ثَلاثة مَناطق في حي «منهاتن» الجنوبي، ارتفاعًا من (٧٦٩) عام ١٩٩٨.(١٦)

تأثير الواقع الداخلي الأمريكي على السياسات الخارجية:

إن أحد المشكلات الرئيسة التي تواجه دول العالم عندما تتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية، هو

(١٥) مفارقة القوة الأمريكية، جوزيف س. ناي (الابن)، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣م، ص٢٤٢.

(١٦) عام ٢٠٠٦ هو عام التراجع الأمريكي، غسان مصطفى الشامي، شبكة المعلومات السوية القومية الاجتماعية، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٦م.

تلك القناعة المتجذرة في العقل الجمعي الأمريكي أن الولايات المتحدة «استثناء» تاريخي، وأن العالم لا غنى له عنها. وقد ترسخت هذه العقلية بشكل داخلي أولاً، ولكن يجري تصديرها على ألسنة الساسة والمفكرين والإعلام، رغم أن الواقع الحالي يشير إلى التراجع أكثر بكثير مما يشير إلى النهضة أو التقدم.

وفي عبارة بليغة، عشية القرن العشرين، يعبر مجلس الشيوخ الأمريكي عن رؤيته لدور أمريكا الكوني في مطلع القرن الجديد بما يلي: «على التجارة العالمية أن تكون تجارتنا، وستكون كذلك. فنحن سنملأ البحار بأساطيلنا التجارية، وسنبني أسطولاً على قدر عظمتنا. وسوف ترسم معالم طرقاتنا التجارية مستوطنات كبيرة، تحكم نفسها بنفسها، وترفع عَلَمنا وتعمل لأجلنا. أما مؤسساتنا فسوف تتابع علمنا على أجنحة تجارتنا. وسوف يبلغ القانون الأمريكي، والنظام الأمريكي، والحضارة والعَلَم الأمريكيان، الشواطئ المترامية والمعزولة حتى الآن، لكنها ستسطع قريبًا، بنعمة الله».

ونرى كذلك مؤخرًا أحد السياسيين الأمريكيين يقول: إن «أمريكا وحدها هي القادرة على قيادة العالم. فهي تبقى في الواقع الحضارة الواحدة الدولية الكونية في تاريخ البشرية. ففي خلال ٣٠٠ سنة سمح نظام ديمقراطيتنا البرلمانية المحترم لحقوق المواطن وللحريات الفردية والتبادل الحر، بأكبر قفزة اقتصادية في التاريخ. قِيَمُنا يستعيرها العالم أجمع. تكنولوجيتنا التي حوَّلت أنماط الحياة كانت العنصر الأول المحرك للعولمة. اليوم قواتنا العسكرية متمركزة في كل مناطق المعمورة؛ بناء على طلب الحكومات المضيفة، ليس لإخضاعها ولكن لتلبية الرغبة بالحرية وبالديمقراطية لهذه الحكومات ولشعوبها. أي حضارة أخرى نجحت في هيمنة مماثلة على العالم بدون قمع؟ أمريكا هي الأمة الوحيدة الكبرى... المتعددة الأعراق والتي تستخدم الحرية كدليل... إذا اختفينا غدًا فمن غير الواضح أن يكون لليابانيين أو الألمان أو الروس، كشعوب، الإمكانية أو القدرة على إدارة المعمورة. بدون حضارة أمريكية حية؛ فإن البربرية والعنف والديكتاتورية سوف تسيطر على الأرض».(١٧)

ويقول بول وولفوفيتز نائب وزير الدفاع السابق في نفس السياق: «ينبغي منع أية قوة معادية من السيطرة على مناطق؛ يمكن لثرواتها أن تجعل من هذه القوة قوة عظمى. كما ينبغي تثبيط عزيمة الدول الصناعية المتقدمة إزاء أية محاولة منها لتحدي زعامتنا، أو لقلب النظام السياسي والاقتصادي القائم، كما علينا التنبه والتوقع لأي بروز محتمل لمنافس لنا على مستوى العالم».

إننا في العالم الإسلامي لسنا وحدنا من يخشى من حماقات وتهور الإدارات الأمريكية التي تعاني من عدم إدراك واقع التراجع الأمريكي الحالي. وكما قال أحد المحررين الإيطاليين، فإن «التخوف الجماعي من الولايات المتحدة يبدو الصمغ الوحيد الذي يلصق الأوروبيين معًا. فالقصص المريرة القاسية عن عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة، وإطلاق النار في مدارسها الثانوية، وسوقها التي لا تتسامح مع أحد، وانعدام الرفاهية فيها تنتشر بكثرة في الصحافة الأوروبية».(١٨)

إن أمريكا ترى أن سياساتها الخارجية، التي تنبع وتستمد قوتها من واقع تفوقها الداخلي، يجب أن تكون سياسة مهيمنة، ولا بأس أحيانًا من أن تكون سياسة عدوانية أيضًا.

والسند الأخلاقي والفكري الذي تستند عليه فكرة الهيمنة والاعتداء على الغير هو ببساطة التميز الداخلي الأمريكي، وقيمة المجتمع الأمريكي. لذلك فإن إسقاط هذه الأكذوبة حول تماسك وقوة المجتمع الأمريكي سيؤدي بشكل مباشر إلى تقلص القدرة على استخدام الزعم بأن قوة أمريكا الاجتماعية والأخلاقية، يمكن أن تبرر أفعالها الإجرامية. لا بد للعالم أن يتكاتف من أجل

(١٧) «الإمبراطورية الأمريكية»، «ثلاثية الثروة.. الدين.. القوة، من الحرب الأهلية إلى ما بعد ١١ سبتمبر»، سمير مرقس، مكتبة الشروق، ٢٠٠٣م، ص٦٦.

(١٨) مفارقة القوة الأمريكية، جوزيف س. ناي (الابن)، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣م، ص٧٨.

إسقاط أكذوبة «الإمبراطورية الخيِّرة»، التي حاولت الولايات المتحدة أن تفرضها على مخيلة شعوب العالم؛ كي تُبرِّر بها مشروعات النهب والسيطرة والعدوان على الغير.

الواقع الداخلي .. ونظرة إلى المستقبل الأمريكي:

إن الولايات المتحدة لا تزال مصرَّة ومقتنعة بأنها القوة العظمى الوحيدة، وأن لها حقوقًا عالمية بسبب ذلك، وأن هذا الأمر سوف يمتد إلى عقود قادمة، وبأنها كدولة قادرة على قيادة العالم ورسم مصيره. وفي المقابل فإن هناك مؤشرات عديدة، كالتي ذكرناها في هذا البحث، من شأنها أن تؤدي بالتفكير إلى نتيجة معاكسة تمامًا، مفادها أن الولايات المتحدة مُقْدِمَة على سيناريو الانهيار والتفكك؛ بفعل تلك العوامل التي يبدو أن بعضها خارج نطاق السيطرة التامة.

إن القانون العام الذي أدى إلى سقوط الإمبراطوريات، كما أكد من قبل بول كيندي في كتابه «صعود وسقوط القوى العظمى»، هو قانون بسيط ومطَّرد، وهو أنه إذا زادت الالتزامات الاستراتيجية للإمبراطورية عن قدرتها الاقتصادية؛ فإنها لا بد أن تسقط. وقد يكون ذلك صحيحًا تمامًا من النواحي العقلية والفكرية والاقتصادية. ولكن هناك أسبابًا أخرى يمكن أن تكون هامة ومؤثرة في التراجع الحضاري، أو المدني لدولة ما، وهي أسباب ترتبط بالقيم الأخلاقية للمجتمعات، وما يمكن أن يسمى بالـ«المحتوى القِيَمِي والأخلاقي للحضارة». وقد نجحت أمريكا في تفريغ الحضارة الغربية من الكثير من قيمها التي تطلعت لها بعض شعوب العالم في العقود الماضية.

لم تبدأ هذه التجاوزات مع إدارة جورج بوش، أو مع مقدم المحافظين الجدد ومحاولتهم توجيه السياسة الأمريكية، وإنما بدأ الأمر قبل ذلك بكثير. يرى المفكر الفرنسي ميشال بوغنون أن البذور الأولى للتجاوزات الأمريكية الراهنة، العدوانية في نظر البعض، غير القابلة للتحمل لدى الكثيرين، المثيرة في كل حال للسواد الأعظم، نجدها في عقيدة القادمين من إنجلترا وإيكوسيا، في العقود الأولى من القرن السابع عشر. إنها «عقيدة كالفينية» تقرر ما يلي:

لئن كان الله قد سمح بأن يجتمع في أرض أمريكية شعب من رجال ونساء مميزين؛ فذلك لأنه منح هذا الشعب «رسالة حكم العالم» ذات يوم. هكذا، بعد تأسيس الأمة سنة ١٧٧٦م، يفسر إجماع الخطابات: أمريكا، الديمقراطية النموذجية، التي اختارها الرب، لا يمكنها إلا أن تكون المرشدة للطريق الذي يجب السير عليه، والقائد لموكب أمم الكون. ولم ير الآباء المؤسسون، ثم معظم النخب السياسية والتجارية والعلمية والثقافية في كل العصور، أن الأمور يمكنها أن تكون مغايرة لذلك الاعتقاد.(١٩)

لقد بدأت أمريكا منذ اليوم الأول لها كمشروع نفعي خالص. وكما يؤكد المفكر شوقي جلال في كتابه المتميز «العقل الأمريكي يفكر»، فإن العقل الجمعي الأمريكي منذ بداية تكوُّنه لا يعرف غير اثنتين: الإرادة والغاية... وإذا كانت الإرادة هي مبرر الوجود؛ فإن الغاية هي عين الوجود، تُكسِبه معناه، وتُضفِي عليه قيمته. وتحقق الغاية هو تحقق للوجود الذاتي. وهكذا تغدو الذات مصلحة أو مشروعًا قابلاً للتحقق بفعل الإرادة، وبدونه ينتفي الوجود... ولم تكن أرض الميعاد هي المدينة الفاضلة التي نسجتها أحلام من صنع الخيال، لتكون أمّ الجميع، والجميع أبناؤها. بل حياة صراع أو تفاعل قائم على الصراع. صراع مصالح وغايات، أو صراع وجود(٢٠).

إن العوامل الاجتماعية تساهم بلا شك في التراجع الأمريكي الراهن، ويشغل موضوع التغيرات السكانية بال الكثير من المحللين الغربيين، ليس فقط فيما يتعلق بمستقبل الدولة، وإنما كذلك ما يتعلق بمستقبل الحضارة الغربية ذاتها. لقد كتب المحلل السياسي الأمريكي نيل فيرجسون، وهو أستاذ التاريخ الاقتصادي والسياسي في جامعة نيويورك، في دراسته عن «ما هي القوة؟» قائلاً: «أنت فقط تحتاج أن تسأل الفرنسيين، الذين كان انحدارهم وسقوطهم كقوة عظمى، مرتبطًا بانخفاض معدل المواليد نسبيًّا

---

(١٩) «أمريكا التوتاليتارية»، «الولايات المتحدة والعالم: إلى أين؟»، ميشال بوغنون – موردان، دار الساقي، لبنان ٢٠٠٢م، ص: ١٩، ٢٠.

(٢٠) «الإمبراطورية الأمريكية»، «ثلاثية الثروة.. الدين.. القوة، من الحرب الأهلية إلى ما بعد ١١ سبتمبر»، سمير مرقس، مكتبة الشروق، ٢٠٠٣م، ص٤٨.

في القرن التاسع عشر. ففي القرن الثامن عشر فاقَ تعدادهم كل القوى الأوروبية الأخرى، باستثناء روسيا».

ومن المناسب أن نذكر هنا في نهاية هذه الدراسة عبارة هامة للمفكر الفرنسي «إيمانويل تود» الذي يقول: «هنالك منطق خفي في الأسلوب (المخمور) في الظاهر الذي تنتهجه الدبلوماسية الأمريكية، فالولايات المتحدة الحقيقية هي من الضعف بحيث لا تقوى سوى على مجابهة القوى العسكرية الصغيرة الهزيلة. وهي تحاول باستفزازها جميع اللاعبين الثانويين، أن تؤكد دورها العالمي. وتستوجب تبعيتها الاقتصادية للعالم حضورها العالمي بطريقة أو بأخرى، ويقودها عدم كفاية الموارد الحقيقية إلى أن تضخِّم الصراعات الثانوية وتُحِيلها إلى عمليات هستيرية مسرحية».

أما عن الهجرة من العالم الإسلامي فقد كتب قائلاً: «ومما يستحق الملاحظة أيضًا؛ أن معدل النمو السكاني في العالم الإسلامي، ما زال يتدفق عند معدل، يُقارب ضعفَ المعدل الصيني. وإذا كنا نشهد -كما يجادل هنتنجتون- «صدام الحضارات»؛ فلا بد أن يكون مما يَستحِقُّ الاهتمام؛ أنّ حضارتهم تشهد نموًّا بالمعنى الحرفي، أكثر من حضاراتنا. وهي بالإضافة إلى ذلك حضارةٌ أكثر شبابًا بكثير، مما عليه حالُ الحضارة الغربية الهَرِمَة». إن الغرب لا يتأمل ويفكر في التعامل مع الأمة الإسلامية والعربية من المنظور الأمني أو الاقتصادي فقط، كما يحاول البعض إقناعنا، ولكنه أيضًا يدرس الأمة، ويحذر منها من الجوانب الفكرية والحضارية أيضًا. إننا بالمقابل بحاجة إلى أن نفهم الغرب حقًّا قبل أن نحدد موقفنا من أطروحاته، ومن مواقفه. الفهم سيجعلنا أكثر دراية بحجم المواجهة الحضارية التي تواجهها الأمة في علاقتها بالغرب.

إن ذلك الزمن الذي كان يجمع في الولايات المتحدة القوة الاقتصادية والعسكرية والتسامح الفكري والثقافي، يبدو الآن بعيدًا جدًّا. لم تعد أمريكا الضعيفة وغير المنتجة لعام ٢٠٠٠م متسامحة. إنها تزعم أنها تجسد مثلاً إنسانيًّا فريدًا، وأنها تملك مفتاح أي نجاح اقتصادي، وتنتج الأعمال السينمائية الوحيدة المقبولة. وليس هذا الادعاء الحديث بالهيمنة الاجتماعية والثقافية، وعملية التوسع الأناني، سوى علامة بين علامات أخرى للتراجع المأسوي للقدرة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية الحقيقية، وكذلك التراجع العمومي في أمريكا، فالولايات المتحدة تفقد قدرتها على السيطرة على العالم، ولذلك فإنها تنفي وجود هذا العالم المستقل وتنوع مجتمعاته.[٢١]

لا تتوفر للولايات المتحدة المتطلبات الأساسية للإمبراطورية؛ بسبب ثغرات هامة يسمح النظر بها بالتنبؤ بأنه لن تكون هنالك إمبراطورية أمريكية في العام ٢٠٥٠م. هنالك نوعان من الشروط الرئيسة للإمبريالية لا يتوفران لأمريكا: أولاً قدرتها العسكرية والاقتصادية غير كافية من أجل الاحتفاظ بالمستوى الحالي لاستغلال العالم. ثانيًا: أن عموميتها الأيديولوجية في حالة تراجع، ولا تسمح لها بعد الآن بأن تعامل الأفراد والشعوب بالمساواة من أجل أن تؤمن لهم السلام والرخاء، ومن أجل استغلالهم.

> الزمن الذي كان يجمع في الولايات المتحدة القوة الاقتصادية والعسكرية والتسامح الفكري والثقافي، يبدو الآن بعيدًا جدًّا.

لقد توقع الفيلسوف الألماني اشبنغل تدهور وسقوط الغرب؛ إذ ذكر في دراسة له حول مستقبل الغرب: «أن حضارة الغرب جاوزت مرحلة الشباب والقوة، ودخلت في مرحلة التدهور والشيخوخة». وبالمقابل فقد اهتم أيضًا بتأكيد توقعه أن المسلمين سيبدءون في التوحد مع نهاية القرن العشرين. وهنا لا بد أن نتفق مع الفيلسوف الألماني في الجزء الأول من عبارته التي يؤكد على شيخوخة الولايات المتحدة والغرب، ونأمل أن تكون عبارته الثانية حول توحد الأمة هي الرسالة التي تحملها هذه الدراسة كموقف للأمة في مواجهة ذلك التراجع الأمريكي والغربي.

(٢١) «ما بعد الإمبراطورية»، «دراسة في تفكك النظام الأمريكي»، إيمانويل تود، دار الساقي، ٢٠٠٣م، ص١٤٤.

معلومات إضافية

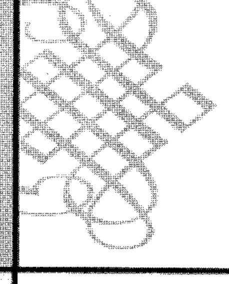
العنف ضد المرأة في المجتمع الأمريكي

أظهرت عدد من الدراسات الأمريكية، التي أُجريت خلال السنوات الأخيرة بشأن العنف والجرائم التي تتعرض لها النساء في الولايات المتحدة الأمريكية، أن حوالي ٤,٤ ملايين امرأة تعرضن للإيذاء في الولايات المتحدة الأمريكية خلال عام ٢٠٠٥م. وأن واحدة من بين كل ثلاث أمريكيات يتعرضن للضرب المبرح والاعتداء الجسدي، وأن العنف داخل البيوت الأمريكية قد أصبح وباءً يهدد تلك البيوت من الداخل، بل ويهدد المجتمع ككل.

وكان من أهم النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسات:

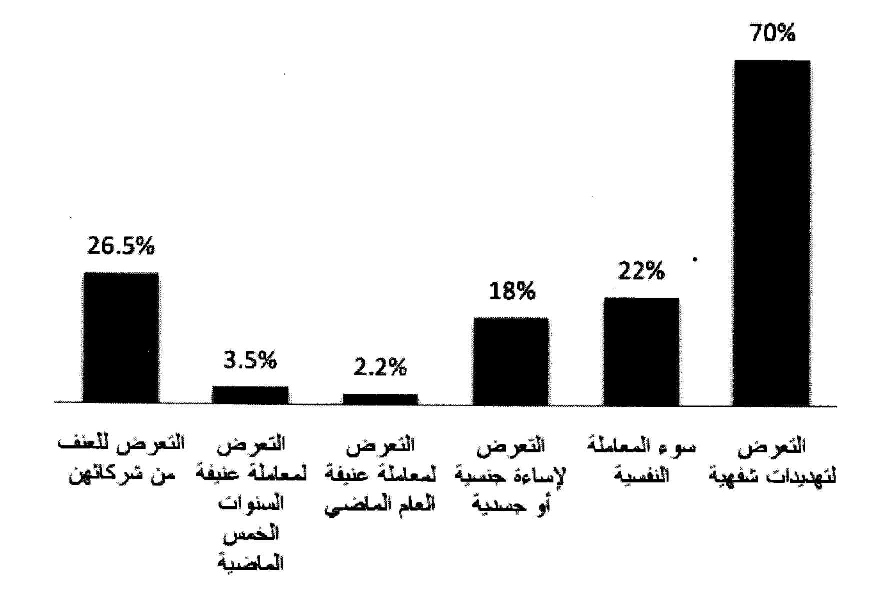
- قرابة ٥٧٤٥ امرأة تعرضن للقتل العمد؛ كأحد نتائج العنف المنزلي، فيما قدّر المحللون عدد النساء اللائي قتلن من قِبل أزواجهن أو أصدقائهن بأكثر من ٤٠٠٠٠ امرأة منذ بداية العقد المنصرم.
- ارتفاع نسبة العنف الأسري ضد المرأة في الولايات المتحدة؛ حيث تتراوح نسبة النساء اللاتي تعرضن للإيذاء من قبل شركائهن، سواء كانوا أزواج أو (أصدقاء) ما بين ٢٠٪ إلى ٤٠٪، وأن حوالي ٨,٤٪ من النساء تم إيذائهن خلال العام ٢٠٠٥م، وأن هناك حوالي ٣,٢٪ تعرضن للإيذاء مرات عديدة.
- نسبة الاعتداء والعنف على النساء الحوامل ما بين ٨٪ إلى ١٦٪.
- تشير الدراسة إلى أن الحالة الصحية كانت سيئة بين النساء اللاتي تعرضن إلى الإيذاء والعنف الأسري؛ حيث تبلغ نسبتهن ٢٠٪ مقارنة بحوالي ١٠٪ من النساء اللاتي لم يتعرضن لإيذاء أو عنف.
- تقول أستاذة بجامعة «جون هوبكتر»: بأنه كل ١٥ ثانية تتعرض امرأة في الولايات المتحدة الأمريكية لنوع ما من الاعتداء البدني أو الجنسي أو العاطفي، وأن هذا الاعتداء غالبًا ما يكون أمام الأبناء.
- قدَّرت الرابطة الطبية الأمريكية في أوائل التسعينيات أن الخسائر الناجمة عن العنف الأسري تصل إلى عشرة مليارات دولار، هي نفقات العلاج الطبي والشرطة، وإجراءات التقاضي، وتوفير المأوى والدعم والرعاية والتغيب عن العمل ونقص الإنتاجية.
- بالنسبة لموضوع الانتحار أو التفكير فيه؛ فإن النسبة بلغت بين السيدات اللاتي تعرضن للعنف العائلي والإيذاء حوالي ٤٠,٥٪، مقارنة بحوالي ٤,٦٪ من النساء العاديات، حوالي ٢٩٪ منهن احتجن إلى علاج طبي، فيما اضطر نحو ٣٣٪ منهن إلى اللجوء إلى مساكن الإيواء الخاصة بالنساء اللاتي تعرضن للعنف الأسري. وحوالي ٧٧٪ منهن لجأن إلى مستشفيات أو عيادات نفسية.
- نسبة حوادث استخدام العنف لممارسة الجنس بين النساء الأمريكيات هو حوالي ١٤٪ بينما يصل إلى حوالي ٤٠٪ بين النساء اللاتي يعشن في منازل يسودها العنف. وبلغت هذه النسبة بين الطالبات في الكليات والجامعات الأمريكية حوالي ٧,٦٪، بينما بلغت النسبة في مرحلة المراهقة بين الفتيات التي أُجبرن بالقوة على ممارسة الجنس إلى حوالي ٢٥٪.
- ربع النساء اللواتي تزيد أعمارهن عن السادسة والخمسين في ولايتي واشنطن وإيداهو تعرضن خلال مراحل حياتهن للعنف الجسدي أو الجنسي أو النفسي.





ووفقًا لهذه الدراسة التي نشرتها «ذي جيرونتولوجست»، وشملت ٣٧٠ امرأة فإن:

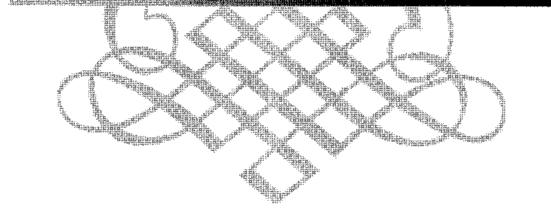
- ٢٦,٥٪ من هؤلاء اشتكين من أن شركاءهم مارسوا العنف ضدهن خلال فترة حياتهن.
- ٣,٥٪ منهن عُومِلن بشكل عنيف خلال السنوات الخمس الماضية.
- ٢,٢٪ منهن عُومِلن بشكل عنيف في السنة الماضية.
- ١٨٪ تعرضن للإساءة الجنسية والجسدية.
- ٢٢٪ كنَّ ضحايا سوء المعاملة النفسية، ومن ضمن ذلك التهديد، ومخاطبتهن بكلمات نابية، والسيطرة الكاملة لأزواجهن عليهن.
- ٧٠٪ من النساء تعرضن لتهديدات شفهية كان بعضها خطرًا جدًّا.



المصادر:

- العنف ضد النساء في المجتمع الأمريكي، موقع مفكرة الإسلام، ٢٢ فبراير ٢٠٠٦م.
- جريدة القدس العربي، ٧ مارس ٢٠٠٧م.





العراق والتراجع الأمريكي

أ. علي باكير:

(باحث في العلاقات الدولية)

ملخص البحث

تلعب العديد من العوامل المتنوعة التي تحيط بأي نزاع عسكري دورًا كبيرًا في تحديد مصير المعركة لما «بعد الحرب»، والتي لم تأخذ الإدارة الأمريكية بأيّ منها في التخطيط لمرحلة ما بعد احتلال العراق عسكريًّا بالقوّة المدمّرة.

ورغم أن الولايات المتّحدة الأمريكيّة أُعطيت في المجالات الثلاثة: العسكريّة، والاقتصاديّة، والقوّة الناعمة ما لم تُعط دولة أخرى على الإطلاق، فقد فشلت في العراق؛ لأنها اعتمدت على القوة وحدها، إضافة إلى غياب التصوّر والتخطيط الاستراتيجي الواضح لمرحلة ما بعد صدام، واتخاذ سلسلة من القرارات الخاطئة؛ كقانون اجتثاث البعث، وقانون حل الجيش العراقي، بجانب الفشل في الوصول إلى إعادة الخدمات الأساسية، وسقوط الولايات المتحدة في سجل حقوق الإنسان سقوطًا ذريعًا.

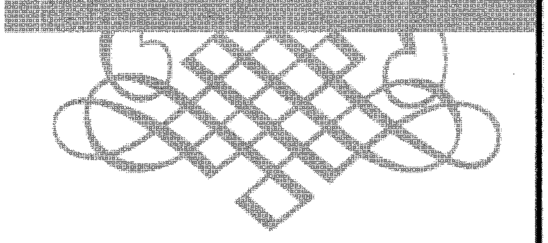
ولعبت المقاومة العراقية دورًا مهمًّا في إفشال المخطط الأمريكي بعدما نجحت في استغلال نقاط الضعف الأمريكية بشكل ممتاز؛ إذ لا تزال واشنطن تقاتل عدوًّا في العراق لا تعرف الكثير عنه، في الوقت الذي تتمتع فيه جماعات المقاومة بالثقة بالنفس، والتنظيم المركزيّ القوي، مع اعتمادها على الحرب النفسية، وزيادة وعيها بدور الرأي العام.

بجانب ذلك اتبعت المقاومة أساليب متطورة غير تقليدية في محاربة الأمريكيين؛ لدرجة دفعت العديد من الخبراء في وزارة الدفاع الأمريكية إلى القول: إنّه «عندما تنتهي الحرب في العراق ستدرس وزارات الدفاع وحركات المقاومة في العالم تجربة المقاومة العراقية».

وقد ظهرت معالم الانكسار الأمريكي في العراق واضحة، مع تصاعد حدة الاستنزاف العسكري، والبشري، والاقتصادي والخسائر الفادحة التي مُنيت بها الولايات المتّحدة على هذه الأصعدة.

وتزامنًا مع التراجع الأمريكي الواضح في العراق وانعكاساته على العراق والمنطقة ومستقبل الهيمنة الأمريكية، تعمل الأوساط الأمريكية حاليًا على دراسة واختبار أربعة سيناريوهات رئيسية، تسعى من خلالها إلى الهروب من المستنقع العراقي، وهي: تقسيم العراق عمليًّا، أو الانسحاب والتمركز على تخوم العراق، أو الانقلاب العسكري، أو تعديل المحاصصة الطائفية والقومية العراقية.





أفكار و مقتطفات

- على الرغم من القوة القاهرة والطاغية التي تمتلكها بعض الدول، فقد فشلت أقوى دول العالم هذه في تحقيق أهدافها في ٣٩٪ من الحروب والعمليات العسكرية التي خاضتها منذ الحرب العالمية الثانية.

- يقول «جوزيف ناي» في دراسة له بعنوان «حدود القوة الأمريكية»: «القوّة في القرن الواحد والعشرين تعتمد على خليط من عناصر القوّة القاسية والناعمة. وليس هناك من دولة على الإطلاق أُعطيت مثلما أُعطيت الولايات المتّحدة الأمريكيّة في المجالات الثلاثة: العسكريّة، والاقتصاديّة، والقوّة الناعمة، لذلك فمن الخطأ الكبير في عالم كهذا أن نسقط في تحليل الزاوية الواحدة، ومن الخطأ أيضًا أن نؤمن أنّ الاستثمار في القوّة العسكريّة وحدها سيؤمّن لنا القوة اللازمة لتحقيق أهدافنا».

- في أحد أهم التقارير له والمنشور بعنوان «٤٠٠ يوم ومن ثمّ الانسحاب: استراتيجية الخروج من المأزق العراقي»، يعزو «مشروع البدائل الدفاعية» الوضع الأمريكي المتدهور في العراق إلى السياسات الخاطئة الأمريكية فيقول: «إنّ اندفاع الإدارة إلى إعادة اختراع العراق قاد إلى سلسلة من السياسات الخاطئة، وإلى تخبّطٍ عمِل على تغذية المقاومة وتزويد الثوّار -كملاذ أخير- بقاعدة من عدم الرضا الشعبي».

- تُظهر الحرب في العراق القدرة المحدودة لتفوق وسمو القوة العسكرية التقليدية الأمريكية عندما تكون في مواجهة مقاومة بأسلوب قتالي لـ «حرب الشوارع»... في هذا الإطار يمتلك «التمرد» في «الحرب اللامتناظرة» العديد من العوامل التي ترجّح انتصاره في أي حرب مع قوة كبرى.

- اعترف خبراء أمريكيون في تقرير لهم بأنّ الولايات المتّحدة لم تجّهز جيشها لمهمات عسكرية-مدنية؛ بحيث تكون قادرة على التعامل مع المقاومة بأسلوب «حرب الشوارع»، أو للعب دور المحتل في أمّة لها دين مغاير، ولغة أخرى، وثقافة مختلفة، أو لمزيج من الدعم البشري والأسلحة التي يحتاجونها «لحرب ما بعد الحرب».

- جماعات المقاومة العراقية منظّمة تنظيمًا مركزيًا قويًا، وهي ذات نظام اتصالات تقني مقنع، ولهذا لم تعد مجموعات متفرقة، متشوشة، وفوضوية، بل منظمة تنظيمًا مركزيًا قويًا.

- تعلّم المقاومون أن المخابرات الأمريكية تكون في أفضل أحوالها عندما تستطيع «توصيف الأشياء وحسابها»، ولكنّها «أي الولايات المتحدة» تملك قدرات ضئيلة في قياس وتوصيف المشاة وأعضاء المقاومة والجرحى والخسائر البشرية، وهم يستغلون نقاط الضعف هذه في هجماتهم.

- أُسقطت في العام ٢٠٠٧م، على الأقل ١٦ مروحية حتى أغسطس/آب، منها ثمان مروحيات أمريكية بين ٢٠ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٧م و٢٣ فبراير/شباط.

- كان لجهود المقاومة تأثير على تلف وتآكل المعدات الأمريكية. وقد اعترف في العام ٢٠٠٥م مسئول أمريكي كبير في الجيش «أنّه إذا انتهت الحرب الآن، وتمّ إعادة المعدات والآليات إلى الوطن، فإنها ستكون بحاجة إلى ١٢,٨ مليار دولار لإعادة تجهيزها وإصلاح وصيانة ما قد تمّ إتلافه في العراق. فمعظم المعدات العسكرية تعرّضت للتلف والتآكل؛ نتيجة الاستعمال الدائم والمستمر والقاسي، ونتيجة لهجمات «المتمردين» المستمرة».

- التقرير اليومي لعدد القتلى الذي يُصدره البنتاغون يعاني من خلل فني، فقد تقع إصابات لا يتم تسجيلها، وذلك في الفترة التي تمتد من الانتهاء من كتابة التقرير إلى حين نشره، وبالتالي لا ترد ضمن التقرير اليومي ولا يتم نشرها.

- على المقاومة العراقية في حال الانسحاب المفاجئ أو التدريجي أن تزيد من ضغطها على الأمريكيين، وأن تترك قناة أو منفذًا صغيرًا للتفاوض معهم؛ كي يتم استثمار نتيجة الانسحاب لصالحهم، ولا تقوم أي جهة بسرقة هذا الاستحقاق لصالحها كإيران أو سوريا، ومن المعلوم أن ذلك لا يصح إلا إذا كان هناك خطّة وأجندة سياسية لدى المقاومة العراقية تعمل على تنفيذها.

- الحكومة الوليدة تشكلت على أساس طائفي ومذهبي، وهي تعاني من أمراض سياسية كثيرة، ولا تمثّل الشعب العراقي، وجزء منها مُوَالٍ لإيران، والآخر لأمريكا، وهي ضعيفة وغير مسيطرة على الوضع العراقي، ولا يمكن الاعتماد عليها في نشر الأمن والاستقرار، وتعاني من أزمة فساد ضخمة، وتورطت في عمليات دعم ميليشيات وتعذيب.

- تحاول الإدارة الأمريكية الآن استمالة أطياف عديدة من السنّة لدفعها للاشتراك في التمثيل السياسي العراقي بشكل أكبر وأكثر فاعلية، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تحقيق نوع من الاستقرار والتوازن السياسي، وأيضًا يعمل على امتصاص نقمة السنّة وعزل المقاومة العراقية عبر مكافأة المتعاونين المشتركين في العملية السياسية، وقمع المعارضين ومحاربتهم عبر الذراع السنّي نفسه.

- انعكاسات سيناريو الانسحاب المبرمج والتدريجي على العراق غير واضح المعالم فيما يتعلق بالمستقبل السياسي للعراق، ويعتمد على رد فعل القوى المختلفة من المقاومة والقوى السياسية والشعبية والحكومة وكوادرها.

العراق والتراجع الأمريكي

أ. علي باكير: باحث في العلاقات الدولية

مقدمة:

نتناول في هذه الدراسة مدى الفشل الأمريكي في إدارة صراع ضخم استمر لسنوات، والعوامل التي تقف وراء الفشل، وانعكاسات التراجع الأمريكي نتيجة لذلك على العراق والمنطقة، ومستقبل الهيمنة الأمريكية وفق المخطط التالي:

دور الأخطاء الأمريكية في التراجع الحاصل:

١- الاعتماد الكليّ على القوّة بمفهومها العسكري.

٢- غياب التخطيط والتصوّر الاستراتيجي الواضح.

٣- سلسلة من القرارات الخاطئة.

دور المقاومة العراقية في إفشال المخطط الأمريكي:

أ- استغلال الأخطاء الأمريكية.

ب- اتباع أساليب مختلفة غير تقليدية في محاربة الأمريكيين.

معالم الانكسار الأمريكي في العراق:

أ- الاستنزاف العسكري. ب- الاستنزاف البشري.

جـ- الاستنزاف الاقتصادي.

الفشل الأمريكي في العراق ومستقبل الهيمنة الأمريكية:

السيناريوهات المتوقعة.

انعكاساتها على مستقبل العراق والهيمنة الأمريكية في المنطقة.

أولاً: دور الأخطاء الأمريكية في التراجع الحاصل:

أ- الاعتماد الكلي على القوّة العسكرية:

من المعلوم أنّه وعلى الرغم من القوة القاهرة والطاغية التي تمتلكها بعض الدول، فقد فشلت أقوى دول العالم هذه في تحقيق أهدافها في ٣٩٪ من الحروب والعمليات العسكرية التي خاضتها منذ الحرب العالمية الثانية.(١)

وتلعب العديد من العوامل المتنوعة التي تحيط بأي نزاع عسكري دورًا كبيرًا في تحديد مصير المعركة لما «بعد الحرب»، والتي لم تأخذ الإدارة الأمريكية بأيّ منها في التخطيط لمرحلة ما بعد احتلال العراق عسكريًا بالقوّة المدمّرة.(٢)

وتعليقًا على هذه النقطة، يقول «جوزيف ناي» في دراسة له بعنوان «حدود القوة الأمريكية»: «القوّة في القرن الواحد والعشرين تعتمد على خليط من عناصر القوّة القاسية والناعمة. وليس هناك من دولة على الإطلاق أُعطيت مثلما أُعطيت الولايات المتّحدة الأمريكيّة في المجالات الثلاثة: العسكريّة، والاقتصاديّة، والقوّة الناعمة، لذلك فمن الخطأ الكبير في عالم كهذا أن نسقط في تحليل الزاوية الواحدة، ومن الخطأ أيضًا أن نؤمن أنّ الاستثمار في القوّة العسكريّة وحدها سيؤمّن لنا القوة اللازمة لتحقيق أهدافنا».(٤)

وقد اعترف الجنرال الأمريكي، قائد القوات المركزية الأمريكية السابق «جون أبي زيد» في محاضرة له بعنوان «الوضع الاستراتيجي في منطقة الشرق الأوسط» في جامعة Carnegie Mellon بهذا الخطأ الفادح قائلاً:(٥) «من أخطاء الولايات المتّحدة الفادحة: اعتماد الولايات المتحدة على القوى العسكرية فقط .... أودّ هنا أن أوضح أن ما نقوم به الآن هو ٨٠٪ من عمليات عسكرية، و٢٠٪ من الدبلوماسية والاقتصادية والسياسية والتعليمية والإعلامية والاستخباراتية ..، ولكن ما يجب أن يكون هو أن نجعل ٨٠٪ تلك هي الأشياء الأخرى».

الدول القيادية ومصادر القوّة(٣): ١٥٠٠م-٢٠٠٠م

الفترة الزمنية	الدولة	المصادر الرئيسية
القرن السادس عشر	أسبانيا	السبيكة الذهبية، تجارة المستعمرات، جيوش المرتزقة، روابط السلالات الحاكمة.
القرن السابع عشر	هولندا	التجارة، أسواق رأس المال، والقوة البحرية
القرن الثامن عشر	فرنسا	السكان، الصناعة الريفية، الإدارة العامة، الجيش، والثقافة، (القوة الناعمة).
القرن التاسع عشر	بريطانيا	الصناعة، التماسك السياسي، المالية والرصيد، القوة البحرية، المبادئ الليبرالية (قوة ناعمة)، موقع الجزيرة (من السهل الدفاع عنها).
القرن العشرون	الولايات المتحدة	المعيار الاقتصادي، موقع القيادة العلمية، والتكنولوجية، القوات العسكرية والتحالفات، الثقافة العالمية، والأنظمة الدولية الليبرالية (قوة ناعمة).
القرن الواحد والعشرون	الولايات المتحدة	القيادة التكنولوجية، المعيار الاقتصادي والعسكري، القوة الناعمة، محور الاتصالات العالمية

ووفقًا لدراسة مهمة نُشرت في مجلة «حل النزاعات» في العدد رقم ٣ للعام ٢٠٠٧م بتاريخ ٢٠٠٧/٦/١٢م بعنوان «أهداف الحرب ونتائج الحرب: لماذا تخسر الدول القوية الحروب المحدودة»، فإن من أهم أسباب الفشل الأمريكي في العراق وتراجع فرص فوز الولايات المتحدة بالحرب فيها حاليًا، ضرورة حصول الجيش الأمريكي على دعم العراقيين

(١) See: Patricia L. Sullivan, "War Aims and War Outcomes: Why Powerful States Lose Limited Wars", Journal of Conflict Resolution, Vol. 51, No. 3, (2007), p: 496-524

يمكن الرجوع إلى ملخص الدراسة باللغة العربية: «هل تخدم القوة العسكرية صاحبها في الحروب؟»، علي حسين باكير، مجلة الإسلام اليوم، العدد ٣٢، يوليو ٢٠٠٧م.

(٢) Ibid

(٣) انظر دراسة لـ: جوزيف ناي، «حدود القوّة الأمريكية»، فصلية العلوم السياسية، أكاديمية العلوم السياسية، نيويورك، المجلد ١١٧، رقم ٤، شتاء ٢٠٠٢م -٢٠٠٣م، ترجمة: علي حسين باكير، مجلة العصر، على الرابط التالي:

http://www.alasr.ws/index.cfm?method=home.cat&categoryID=١٠٣

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) See lecture: John Abi Zaid, "Strategic Challenges in the Middle East", Carnegie Mellon University, 31-1-2007, at this link:

لتحقيق أهدافه التي لا يمكن إنجازها باستخدام القوة وحدها.[٦]

واستنادًا إلى الدراسة، فمن دون توافر هذه العناصر المهمة في العراق فإن فرص النجاح سوف تقل عن ٢٦٪ فيما قد ترتفع إلى نحو ٧٠٪ في حال توافر الدعم الشعبي للولايات المتحدة في العراق.[٧]

ب- غياب التصوّر والتخطيط الاستراتيجي الواضح:

لقد بدأت الانتقادات لنهج وسياسة الإدارة الأمريكية في هذا الإطار مبكرًا؛ إذ أشار تقرير أصدرته مؤسسة كارنيغي للسلام - بعد فترة قصيرة على احتلال بغداد - إلى وجود ضعف بنيوي شديد في التصورات الأمريكية لمرحلة ما بعد صدام، وقد أكد ملاحظات التقرير مجموعة كبيرة من الخبراء الأمريكيين؛ إذ رأى جوزيف بيدين (السيناتور الأمريكي) أن المخططات الأمريكية بُنيت في الحالة العراقية متجاهلة السيناريو الأسوأ «أو ما يطلق عليه في الفكر السياسي الأمريكي الآن The Day After».[٨]

يقول الجنرال الأمريكي «أنتوني زيني» القائد السابق للقوات المركزيّة الأمريكية مشيرًا إلى غياب التخطيط والتصور الواضح: «استمعت في شهادة أمام لجنة الشئون الخارجية في الكونجرس ومع مجموعة من لجان التخطيط في وزارة الخارجية والدفاع إلى ما قيل، وقد فهمت جيدًا وكنت أعرف أننا نملك خطّة جيدة من الناحية العسكرية والأمنية... لكنني لم أسمع شيئًا بخصوص وجود خطّة أو تخطيط من أجل إعادة البناء السياسي، إعادة البناء الاقتصادي، إعادة البناء الاجتماعي، تنمية البنى التحتية للبلاد... لم أسمع شيئًا عن ذلك، لم يكن هناك خطّة واضحة بخصوص الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يجب أن يكون عليه..».[٩]

وقد شدّد على هذه النقطة أيضًا «أنتوني كوردسمان»، الخبير الاستراتيجي في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية CSIS بواشنطن. ففي شهادة له أمام لجنة الشئون الخارجية في الكونجرس الأمريكي قام خلالها بعرض لتسعة أخطاء أساسية تمّ ارتكابها من قِبل الإدارة الأمريكية في العراق قائلاً: «خططنا لحرب من أجل إزاحة صدام من السلطة دون أن نجهّز أي خطة ذات معنى تهدف إلى تحقيق الاستقرار وإلى بناء الدولة. لقد سمحنا لفوضى سياسية واقتصادية أن تحدث بينما كنّا نتقدّم في أعقاب سقوط صدّام مباشرة».[١٠]

ج- سلسلة من القرارات الخاطئة:

في أحد أهم التقارير له والمنشور بعنوان «٤٠٠ يوم ومن ثمّ الانسحاب: استراتيجية الخروج من المأزق العراقي»، يعزو «مشروع البدائل الدفاعية» الوضع الأمريكي المتدهور في العراق إلى السياسات الخاطئة الأمريكية فيقول: «إنّ اندفاع الإدارة إلى إعادة اختراع العراق قاد إلى سلسلة من السياسات الخاطئة وإلى تخبّط عمِل على تغذية المقاومة وتزويد الثوّار -كملاذ أخير- بقاعدة من عدم الرضا الشعبي».[١١]

---

(٦) See: Patricia L. Sullivan, op.cit.

(٧) Ibid.

(٨) انظر: محمد أبو رمان، مراجعات أمريكية في العراق، الإسلام اليوم، ٢٠٠٤/٥/٢٩م، على الرابط التالي:
http://www.islamtoday.net/albasheer/show_articles_content.cfm?id=72&catid=79&artid=3791

(٩) See: Gen. Anthony Zinni, former CentCom commander, "The 10 mistakes", at this link:
zinni//26/05/http://dir.salon.com/story/news/feature/2004 index.html

(١٠) راجع: أنتوني كوردسمان، «نحو استراتيجية أمريكية فعالة في العراق»، شهادة أمام لجنة الشئون الخارجية في الكونغرس الأمريكي بتاريخ ٢٠٠٥/٢/١م، ترجمة علي حسين باكير، مجلة العصر، على الرابط التالي:
http://alasr.ws/index.cfm?method=home.con&ContentId=6602

(١١) انظر: كارل كونيتا، «استراتيجية لخروج أمريكا من المأزق العراقي: ٤٠٠ يوم ومن ثمّ الانسحاب»، مشروع البدائل الدفاعية، ترجمة: علي حسين باكير، مجلة دراسات شرق أوسطية، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمّان، عدد ٣٢-٣٣، صيف وخريف ٢٠٠٥م، ص١٧.

ولا شك أنّ هذا الكلام صحيح، فقد ساهمت سلسلة القرارات الخاطئة التي اتّخذتها الإدارة الأمريكية في تراكم السلبيات التي أثّرت على وضع الأمريكيين في الداخل العراقي، وأهمها:

- قانون اجتثاث البعث: وقد تمّ سَنُّه بضغط من مجموعة العملاء «الشيعية-الكردية» التي أتت على ظهر الدبابة الأمريكية إلى العراق، بعد أن كانوا منتشرين في إيران وأمريكا وغيرها من البلدان. وقد تمّ استغلال هذا القانون بطريقة بشعة وبغيضة وطائفية وعنصرية وعشوائية، بعد أن تمّ توصيف النظام السابق بأنّه «نظام سنّي»!!، وبالتالي استغلال هذا القانون للانتقام من السنّة بحجّة «البعث»، مع العلم بأنّ الجميع يعلم أنّ نظام صدّام كان «علمانيًا»، بل إنّ الشيعة فيه -وفق المفهوم «الطائفي»- كانوا يسيطرون على السواد الأعظم من المراكز الحساسة والقيادية فيه، لكنّ عملاء الاحتلال الذين دخلوا معه أرادوا إعطاء النظام صبغة طائفية؛ كي يكون ذلك مسوّغًا لهم في السيطرة على العراق تحت شعار «مظلومية الشيعة»[١٢]، و«الأكثرية العددية للشيعة» - من الأهمية مراجعة الملحق حول العدد الحقيقي للسُّنة مقارنة بالشيعة-[١٣]، وإلى ما هنالك من مفاهيم كان الاحتلال الأمريكي وآلة الدعاية الأمريكية أحد أهم عوامل انتشارها، رغم عدم واقعيتها، وذلك لتبرير احتلال العراق، وتسهيل ذلك باسم «الشيعة».

نسبة مشاركة الشيعة في حزب البعث وأجهزة الدولة في عهد «صدام»[١٤]

القطاع	نسبة «الشيعة»
الجهاز الحزبي	٩٠٪ من القواعد، ٧٥٪ من القيادات الوسطية، و٥٠٪ من أعضاء القيادة القُطْريّة
الجيش	٨٠٪ من المراتب، ٦٠٪ من الضباط
الحرس الجمهوري	٦٠٪ من المراتب، ٥٠٪ من الضباط
الحرس الخاص	٣٠٪ من المراتب، ٢٠٪ من الضباط
المخابرات	٦٠٪ من الجسم العام
الأمن العام	٧٥٪ من المراتب، ٤٠٪ من الضباط
الدوائر الحكومية	٨٠٪ من الموظفين، ٦٠٪ من المدراء العامين
القيادة العليا مجلس قيادة الثورة القيادة القطرية مجلس الوزراء	٥٥٪ من الشيعة
القائمة التي أعلنها الغزاة الأمريكيون (قائمة الـ ٥٥ مطلوبًا)	٣٥ شيعيًا، ١٤ سنيًا، ومسيحي واحد.

وبناء عليه، تمّ «تطهير» الوزارات والدوائر الحكومية من الموظفين بحجّة أنّهم «بعثيون»، وتم تدمير الجهاز الحكومي والإداري للدولة الذي كان يخدم المواطنين بمثل تزويدهم بالماء والكهرباء والخدمات الصحية والتعليمية والأمن، ما أدى إلى تدمير مقومات الدولة.

- قانون حل الجيش العراقي: وهو أول قرار للحاكم المدني الأمريكي في العراق بول بريمر بعد سقوط النظام العراقي في التاسع من أبريل (نيسان) ٢٠٠٣م، مما أدى إلى تسريح ما يقارب ٤٠٠ ألف عسكري، وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها في

(١٢) من الأهمية بمكان وفيما يتعلق بهذا الشأن مراجعة مقال: «هل الشيعة مضطهدون حقًّا؟ وما هي مواقعهم خلال حكم صدام»، نوري المرادي، ٢٠٠٦/٢/٦م، على الرابط التالي:
http://www.alnoha.com/read5/halalshee3ah.htm

(١٣) من الأهمية مراجعة هذه التقارير والدراسات والإحصاءات الحيادية التي تشير إلى أكثرية سنّية عكس ما هو شائع في الإعلام، وهذه التقارير هي:
- إحصائية المنظمة الإنسانية الدولية «هيومانيتارين كوردينيوتر فور إيراك» (Humanitarian Coordinator for Iraq).
- دراسة الأكاديمي العراقي الدكتور سليمان الظفري.
- أول كتاب مخطوط عن تعداد السنة والشيعة في العراق. على الروابط التالية:
http://www.islamonline.net/arabic/news/2004-01/28/article12.shtml
http://www.islammemo.cc/article1.aspx?id=2626

(١٤) الأرقام الموجودة في الجدول مستقاة من مقال: هل الشيعة مضطهدون حقًّا؟، مرجع سابق.

الشارع[١٥]، بالإضافة إلى توابعهم من الجيش من مختلف الصفوف.

- الفشل في التوصل إلى إعادة الخدمات الأساسية.
- سقوط الولايات المتحدة في سجل حقوق الإنسان سقوطًا ذريعًا.[١٦]

وقد شكّلت هذه القرارات بهذا الخصوص كارثة أدّت إلى فوضى وقتل، ونهب وسلب، وتدمير لم يشهد العراق مثله في التاريخ «باستثناء فترة هولاكو».

ثانيًا: دور المقاومة العراقية في إفشال المخطط الأمريكي:

يقول «جيفري ريكورد» أستاذ «الاستراتيجية» في الكلّية الحربية الجوية: «يتوقع الأمريكيون دائمًا أن يؤمّن لهم تفوقُهم التقليدي عسكريًا، وسموُّهم في هذا المجال نصرًا حاسمًا، سريعًا وغير مكلف.... لكنّهم سرعان ما يتفاجئون ويُحبَطون سياسيًا عندما يواجهون مستنقعات كفيتنام والعراق».[١٧]

وتُظهِر الحرب في العراق القدرة المحدودة لتفوق وسمو القوة العسكرية التقليدية الأمريكية عندما تكون في مواجهة مقاومة بأسلوب قتالي لـ «حرب الشوارع».... في هذا الإطار يمتلك «التمرد» في «الحرب اللامتناظرة» العديد من العوامل التي ترجّح انتصاره في أي حرب مع قوة كبرى، ومنها:

أ- استغلال الأخطاء الأمريكية:

استنادًا إلى «ريكورد»: «فإن الولايات المتّحدة ليست جيّدة في هزيمة أعدائها الذين يقاتلون بطريقة مختلفة عنها، الذين يتحاشون مواطن القوّة عندها، ويستغلون مواطن الضعف لديها».[١٨] وقد نجحت المقاومة العراقية بالفعل باستغلال نقاط الضعف الأمريكية بشكل ممتاز.

واعترف خبراء أمريكيون في تقرير لهم بأنّ الولايات المتّحدة لم تجهّز جيشها لمهمات عسكرية- مدنية؛ بحيث تكون قادرة على التعامل مع المقاومة بأسلوب «حرب الشوارع»، أو للعب دور المحتل في أمّة لها دين مغاير، ولغة أخرى وثقافة مختلفة، أو لمزيج من الدعم البشري والأسلحة التي يحتاجونها «لحرب ما بعد الحرب».[١٩] يضيف «كوردسمان»: «ونتيجة لذلك، فقد أجبرنا قواتنا المسلحة على التأقلم ببطء وتحت الضغط في وجه عدو تتزايد قوته».[٢٠]

وقد خلص تقرير لمجموعة الأزمات الدولية، والذي يتحدّث عن مزايا المقاومة العراقية، ويحمل الرقم «٥٠» تحت قسم الشرق الأوسط، إلى النقاط التالية:[٢١]

١- واشنطن لا تزال تقاتل عدوًا في العراق لا تعرف الكثير عنه: ولا تزال واشنطن تعيد تكرار تقديراتها عن قوة وقدرة المقاتلين أو المقاومة، مستخدمة الرموز العامة، مثل وصف المقاتلين بالصداميين، الإسلاميين الفاشيين، وهي الأوصاف التي تؤكد المجموعة أنه لا أساس لها من الصحة، ولا تشير إلى واقع المقاتلين وجماعاتهم.

٢- هناك نوع من الثقة بالنفس يدور داخل هذه الجماعات، وهو الحس الواثق بالانتصار، وهزيمة أمريكا على أرض العراق: وهذا الموقف لم يكن موجودًا في البداية عندما أعلن المقاتلون جهادًا مفتوحًا على عدو جاء إلى العراق ليبقى، غير أن حرب الاستنزاف التي يخوضها المقاتلون ضد القوات الأمريكية تحقق نجاحات.

٣- جماعات المقاومة العراقية منظّمة تنظيمًا مركزيًا قويًا: وهي ذات نظام اتصالات تقني مقنع، ولهذا لم تعد مجموعات متفرقة، متشوشة، وفوضوية، بل منظمة تنظيمًا مركزيًا قويًا.

٤- اعتماد الحرب النفسية: تقوم هذه الجماعات

---

(١٥) صحيفة الشرق الأوسط، الأحد ٢٥/٤/ ٢٠٠٤م، العدد ٩٢٨٠.

(١٦) انظر مقال: أسباب فشل الاستراتيجية الأمريكية في العراق وانهيار المشروع الأمريكي، على الرابط التالي:
www.alarabnews.com/alshaab/2004/20-08-2004/15.htm

(١٧) See: Jeffrey Record, «The American Way of WarCultural Barriers to Successful Counterinsurgency», cato institute, 1 paper no. 577, 2006-9 at this link:
www.cato.org/pubs/pas/pa577.pdf

(١٨) Ibid.

(١٩) راجع: كوردسمان، «نحو استراتيجية أمريكية فعّالة في العراق»، ترجمة علي حسين باكير، مرجع سابق.

(٢٠) نفس المرجع السابق.

(٢١) See: "In their own words: Reading the Iraqi Insurgency" report, Crisis Group, Middle East Report N°50, 15 February 2006, at this link:
http://www.crisisgroup.org/library/documents/middle_east___north_africa/iraq_iran_gulf/50_in_their_own_words_arabic.pdf

بالإضافة للعمليات العسكرية، بإصدار البيانات الإعلامية، وترد على الأوضاع السياسية، وتبدو المقاومة تابعة لجهاز مركزي قوي.

٥- حدوث نقلة أو تحول تجاه الممارسات الموحدة والخطاب الواحد الذي يدور في سياق الهوية السنية والمذهب السني.

٦- الجماعات المقاتلة واعية لدور الرأي العام: ولهذا تهتم كثيرًا بصورتها لدى هذا الرأي؛ ولأنهم واعون بخطر الردود السلبية من الرأي العام؛ فإنهم في أدبياتهم يقومون دائمًا برفض اتهامات حول العنف الأعمى، ويرفضون الاتهامات التي تُساق بأنهم يسعون لإشعال حرب طائفية، ويؤكدون -خلافًا لهذا- على صورتهم الساعية لحماية المدنيين، بل يحاولون أن يردوا على ذلك بأن الأمريكيين متوحشون؛ لأنهم يتعاونون مع ميليشيات طائفية لشن حرب قذرة، وانتهاكات السجون العراقية، ومحاولة الأمريكيين تعزيز الانقسام داخل المجتمع العراقي.

ب- اتّباع أساليب مختلفة غير تقليدية في محاربة الأمريكيين:

يقول جيفري وايت، وهو محلل سابق في وكالة استخبارات الدفاع في مركز واشنطن لسياسة الشرق الأدنى: «نستطيع فقط أن نسيطر على الأرض التي نقف عليها وعندما نغادر تسقط».(٢٢)

وفي اتّباع الأساليب غير التقليدية، يعدّ التقرير الصادر عن مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن بعنوان «التمّرد العراقي المتطوّر»، من أفضل ما كُتب حول الأساليب المتطوّرة التي تتبّعها المقاومة العراقية، وقدراتها التقنية والاستخباراتية والتكتيكية والاستراتيجية العالية، لدرجة دفعت العديد من الخبراء في وزارة الدفاع الأمريكية إلى القول: إنّه «عندما تنتهي الحرب في العراق ستدرس وزارات الدفاع وحركات المقاومة في العالم تجربة المقاومة العراقية». وقد سبق لكوردسمان في تقارير سابقة أن أشار إلى أشياء مماثلة، كما سبق للمجموعة الدولية للأزمات أن أشارت إلى نفس الموضوع.

ذهب العديد من الخبراء في وزارة الدفاع الأمريكية إلى القول: إنّه «عندما تنتهي الحرب في العراق ستدرس وزارات الدفاع وحركات المقاومة في العالم تجربة المقاومة العراقية».

ومن أهم ما أورده التقرير الأمريكي حول الأسلوب القتالي للمقاومة العراقية، والذي كان السبب الرئيسي والأساسي في التراجع والإخفاق الأمريكي في العراق، ما يلي:(٢٣)

١- تنفيذ سلسلة متتابعة من الكمائن والعمليات.

٢- اعتماد تنوّع تسليحي أثناء الهجوم لإحداث إرباك لدى القوات الأمريكية، ويشمل هذا استخدام الأسلحة الصغيرة مثل: الأسلحة الأوتوماتيكية، وقذائف الهاون والـ أر. بي.جى، والمهاجمة من مواقع نائية ومتعددة، واستخدام تجهيزات موقوتة.

٣- إيجاد شبكات غير رسمية موزعة لأغراض القيادة والسيطرة والاتصالات وأجهزة الحاسوب بطريقة متعمدة، واستغلال نقاط الضعف في المخابرات الأمريكية، حيث تعلّم المقاومون أن المخابرات الأمريكية تكون في أفضل أحوالها عندما تستطيع «توصيف الأشياء وحسابها»، ولكنّها «أي الولايات المتحدة» تملك قدرات ضئيلة في قياس وتوصيف المشاة وأعضاء المقاومة والجرحى والخسائر البشرية، وهم يستغلون نقاط الضعف هذه في هجماتهم.

٤- المراوغة باستخدام أنظمة الاتصال: واستغلال وظيفة بث الرسائل النصية على الهواتف الخلوية

---

(٢٢) تقرير: المقاومة العراقية.. بأرقام أمريكية، جريدة السبيل الأردنية، ١/٢/٢٠٠٥م.

(٢٣) - See: Anthony H. Cordesman,The Developing Iraqi Insu gency, Center for Strategic and International Studies CSIS, 22-12-2004, at this link: http://www.csis.org/media/csis/pubs/iraq_deviraqinsurgency.pdf

للاتصال في محاولة تجنب التصنت الإلكتروني من الجانب الأمريكي، إضافة إلى استخدام أكثر من جهاز واحد لتوصيل الرسالة؛ كي لا يلتقط الذين يتصنتون إلا جزءًا من الرسالة فيما لو كانوا يتصنتون.

٥- استغلال بطء رد الفعل العراقي والأمريكي على الصعيد التكتيكي: وأنماطهم التكتيكية والأمنية والحركية الثابتة، وتوزيع الهجمات بالشكل الذي يُنهك إمكانات المخابرات والاستطلاع والتعقب الأمريكية.

٦- استخدام المرونة في أسلوب الكر والفر مع مفاجأة العدو أحيانًا عبر خيار الصمود البطولي: استخدام الانبعاث والتسلل من جديد، والتمركز والاختباء والعودة للظهور، والتفرق تحت الضغط، أو حين تبدو الهزيمة مرجحة، واتّباع قاعدة «دع الأمريكيين يأخذون مدينة فارغة أو هدفًا فارغًا، ثم عُدْ إلى الظهور حينما يتراجع الوجود التكتيكي الأمريكي».

ولكنهم أحيانًا يختارون الصمود البطولي إذا كان ذلك سيؤدي إلى خسائر فادحة في وجه العدو، كما حصل في الفلوجة والموصل وسامراء.

٧- حسن اختيار الأهداف التي تترك أثرًا سياسيًّا وإعلاميًّا: فقد تعلّموا القدْر الكثير عن كيفية استخدام أسلحتهم، وصنع تجهيزات متفجرة سريعة أكثر تطورًا، وعن التخطيط للهجمات والكمائن، وتحسين أمنهم، وتحديد مواقع وأهداف هجماتهم، وبالتحديد الأهداف التي تترك أثرًا سياسيًّا وإعلاميًّا.

٨- استخدام المتفجرات «المتطورة» غير العادية.(٢٤)

٩- استخدام القنص الاحترافي.(٢٥)

ثالثًا: معالم الانكسار الأمريكي في العراق:

أ- الاستنزاف العسكري:

على الرغم من صعوبة الحصول على معلومات في هذا الشأن حول عدد الآليات والدبابات، والطائرات القتالية والمروحيات، والمدرعات والعربات التي تمّ تدميرها أو إعطابها، في ظل التعتيم الرسمي الكامل، والذي لا يوفّر حتى أرقامًا رسمية لهذا الموضوع، كما يُفعل بالنسبة للقتلى من الجنود، إلاّ أننا استطعنا الحصول على بعض الأرقام التقريبية التي أوردها «مركز التقدّم الأمريكي» في تقريره «معدّات الجيش بعد العراق» الصادر في بداية العام ٢٠٠٦م، والتي تزيد عن ألف قطعة، وهي على الشكل التالي حتى شباط العام ٢٠٠٦م:(٢٦)

٢٠ دبابة طراز Abrams M1 .

٥٠ آلية قتالية طراز Bradley.

٢٠ آلية قتالية طراز Stryker wheeled.

٢٠ مدرّعة حاملة جنود طراز M113.

٢٥٠ عربة طراز Humvees.

أكثر من ٥٠٠ عربة بين كاسحة ألغام، وآليات ثقيلة ومتوسطة وقاطرات.

أمّا بخصوص الطائرات فوفقًا للإحصاءات المتوفرة فهي على الشكل التالي:(٢٧)

على الأقل ١٠٨ طائرات هليكوبتر من أنواع متعددة (Apache، Blackhawk، Kiowa Warrior، big Chinook cargo helicopters)

على الأقل ١٨ طائرة ذات جناح ثابت من أنواع متعددة؛

---

(٢٤) للاطلاع على معلومات حول المتفجرات المزروعة إلى جانب الطريق، ومدى تأثيرها على الجنود الأمريكيين يمكنك مراجعة:

- تقرير خدمة أبحاث الكونجرس «سي أر إس» بتاريخ ٢٣/١١/٢٠٠٥م على الرابط التالي:

fpc.state.gov/documents/organization/57512.pdf

- تقرير مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن، بعنوان: «النجاح أم الفشل؟ التمرد العراقي والعنف المدني والاستراتيجية الأمريكية» وفيه بند خاص بالموضوع تحت الفصل الثامن، بتاريخ ٧/٧/٢٠٠٧م على الرابط التالي:

www.csis.org/media/csis/pubs/070709_iraqinsurgupdate.pdf

(٢٥) انظر تقرير: «القناصون الماهرون في التمرّد العراقي ينهكون جنودنا»، ونشر أيضًا بعنوان «القناصون العراقيون يكتسبون مهارات عالية»، وليام ويليت، بتاريخ ٢٣/١٢/٢٠٠٦م على الرابط التالي:

http://www.boston.com/news/world/middleeast/articles/2006/12/23/iraqi_insurgent_snipers_gaining_skill

(٢٦) -See Report: Loren B. Thompson and others, Army Equipment After Iraq, Center for American Progress, 2006, p:10, at this link: http://www.americanprogress.org/kf/EQUIPMENT_SHORTAGE.PDF

(٢٧) انظر موسوعة ويكيبيديا، الكلفة المالية لحرب العراق، وأيضًا: تحطم طائرات قوات التحالف في العراق على الروابط التالية:

http://en.wikipedia.org/wiki/Financial_cost_of_the_2003_Iraq_Conflict#_note-lexington_773

http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_Coalition_aircraft_crashes_in_Iraq

تشمل طائرات استطلاع وطائرات قتالية مثل (F-14، F-15، F-16)

مع العلم أنّه أُسقطت في العام ٢٠٠٧م، على الأقل ١٦ مروحية حتى أغسطس/آب ، منها ثمان مروحيات أمريكية بين ٢٠ يناير/كانون الثّاني ٢٠٠٧م و٢٣ فبراير/شباط.[٢٨] (iraq 's sectarian and ethnic violence، cordesman، p55)

واستنادًا إلى نشرة المعلومات الاستخباراتية «تقرير تكتيكي» بتاريخ ٢/٧/ ٢٠٠٧م، فإنّ الجيش الأمريكي قد خسر منذ بداية العام ٢٠٠٧م حتى تاريخه:[٢٩]

طائرة مقاتلة طراز (F-16).

٩ طائرات هليكوبتر.

٥٠ عربة طراز Humvees ، HAMER.

١٥ آلية قتالية طراز Stryker.

٤٠ مدرّعة حاملة جنود طراز M113.

حوالي ١٠٠ عربة من أنواع مختلفة.

تدمير ١٠ دبابات طراز M1 Abrams وإعطاب ١٠ آخرين.

تدمير 30 دبابة طراز T-62 وT-54/55s للجيش العراقي.

كما كان لجهود المقاومة تأثير على تلف وتآكل المعدات الأمريكية. وقد اعترف في العام ٢٠٠٥م مسئول أمريكي كبير في الجيش «أنّه إذا انتهت الحرب الآن، وتمّ إعادة المعدات والآليات إلى الوطن، فإنها ستكون بحاجة إلى ١٢,٨ مليار دولار لإعادة تجهيزها وإصلاح وصيانة ما قد تمّ إتلافه في العراق. فمعظم المعدات العسكرية تعرّضت للتلف والتآكل نتيجة الاستعمال الدائم والمستمر والقاسي ونتيجة لهجمات «المتمردين» المستمرة».[٣٠]

وبالإضافة إلى الخسائر المباشرة، ذكر تقرير للجيش الأمريكي في منتصف العام ٢٠٠٦م أنّ كلفة استبدال تجهيزاته المستهلكة في العراق قد تضاعفت ثلاث مرات في العام ٢٠٠٦م عما كانت عليه في العام ٢٠٠٥م. وأنّ هناك «حتى ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦م» حوالي ٥٠٠ دبابة M1، و٧٠٠ آلية قتالية طراز Bradley، و١٠٠٠ عربة Humvees تحتاج إلى عملية إصلاح وتنتظر دورها.

واستنادًا إلى معلومات رسمية نقلتها «الواشنطن بوست» فإنه وبدءًا من ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦م صرّح الجيش الأمريكي أنّ حوالي ٤٠٪ من معدّاته الكليّة قد تمّ إرسالها إلى العراق، وأنّ الكلفة التقريبية السنوية لتجديدها تبلغ حوالي ١٧ مليار دولار، علمًا بأنّ هذه الكلفة قد تضاعفت عشر مرات عمّا كانت عليه قبل الحرب.[٣١]

وقد تجاوزت جميع المعدّات الأمريكية في العراق من دبابات وآليات قتالية ومدرعات ومروحيات قتالية صلاحيتها الميدانية؛ نتيجة لاستنزافها، وهي بحاجة سريعة وماسة إلى الإصلاح والصيانة.[٣٢]

ب- الاستنزاف البشري:

استنادًا إلى الأرقام الرسميّة الأمريكية، يشكّل العام ٢٠٠٧م أكثر الأعوام دموية للجيش الأمريكي منذ اجتياحه العراق في العام ٢٠٠٣م. وتشير الإحصاءات الرسمية الصادرة عن القيادة الأمريكية في بغداد إلى أنّ ٨٢٨ جنديًا أمريكيًا قتلوا في العراق حتى تاريخ ١٩ تشرين أول/أكتوبر ٢٠٠٧م. وقد ارتفع هذا الرقم إلى ٨٥٤ قتيل حتى تاريخ ٦/١١/٢٠٠٧م، ليصل بذلك عدد قتلى الأمريكيين منذ العام ٢٠٠٣م وحتى تاريخه الرقم ٣٨٥٧ وفقًا للأرقام الرسمية[٣٣]، بينما يصل عدد الجرحى إلى ٢٨٤٥١ جريحًا أمريكيًا.[٣٤]

هذه الأرقام وعلى الرغم من أنّها مرتفعة إلاّ أنّها لا

(٢٨) See: Anthony H. Cordesman, Iraq 's Sectarian and Ethnic Violence, Center for Strategic and International Studies CSIS, 2-4-2007, P:55, at this link:
http://www.csis.org/media/csis/pubs/070402_iraq_spring.pdf

(٢٩) See: "Iraq: US casualties rose, loss of equipment too", Tactical Report, Monday, 02 July 2007.

(٣٠) David Isenberg, US war costs continue to shoot up, atimes, Aug 1, 2006, at this link:
www.atimes.com/atimes/Front_Page/HH01Aa01.html

(٣١) See: wikipedia page at this link:
http://en.wikipedia.org/wiki/Financial_cost_of_the_2003_Iraq_Conflict#_note-lexington_773

(٣٢) Loren B. Thompson and others, Army Equipment After Iraq, p: 8, op. cit.

(٣٣) انظر: ٢٠٠٧م الأكثر دموية على الأمريكيين بالعراق، إسلام أون لاين، ٦/١١/٢٠٠٧م، على الرابط التالي:
www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1193049503575&pagename=Zone-Arabic-News/NWALayout

(٣٤) See: http://icasualties.org/oif/

تعكس الحقيقة وفقًا للكثير من المراقبين العرب والأجانب، ووفقًا لمراكز الرصد والدراسات الغربيّة أو حتى المواقع الإخبارية.

وقد تناول تقرير مهم «لكاتب هذه السطور» تمّ نشره بخمس لغات عالمية (العربية- التركية- اليابانية- الفرنسية- الإنكليزية) وتداولته العديد من وسائل الإعلام العربية والأجنبية، والقناة السابعة في التلفزيون التركي، وهو بعنوان «حقيقة القتلى الأمريكيين في العراق: أكثر من عشرين ألف قتيل»[٣٥]، هذه المعضلة شارحًا بالتفاصيل والوثائق المتوفرة هذا الموضوع، ومستندًا إلى أرقام أربع جهات أساسية حتى تاريخ ٢٣/١٠/٢٠٠٦م، وهي:

- الأرقام الرسميّة الأمريكية: ٢٧٩٠ قتيلاً أمريكيًّا.
- تقديرات المصادر الأجنبيّة المستقلّة: أكثر من ١٥,٠٠٠ قتيل أمريكي.
- أرقام الجماعات الجهادية في العراق «خاصة الجيش الإسلامي»: أكثر من ٢٥,٠٠٠ قتيل.
- أرقام المواقع الإخبارية العربية: ٢٣,٦٩٣ قتيلاً أمريكيًّا.

وذلك للتوصل إلى خلاصة منطقية وواقعية حول المعدّل الحقيقي للقتلى الأمريكيين في العراق.

يشير التقرير التفصيلي المطوّل إلى أنّ هذا الفارق الكبير في الأعداد دفع بعض القرّاء إلى التشكيك في هذه الأرقام في إشارة إلى حجمها الكبير، مقارنة بما يتم الإعلان عنه وفق الجهات الرسميّة الأمريكيّة. ولتفنيد ذلك قام التقرير بمناقشة الطرح بشكل موثّق وعلمي للإشارة إلى عدم صحّة الأرقام الرسمية، نسوق بعض التبريرات التي أوردها باختصار شديد جدًا، وهي:[٣٦]

١- أنّ التقرير اليومي لعدد القتلى الذي يصدره البنتاغون يعاني من خلل فني، فقد تقع إصابات لا يتم تسجيلها، وذلك في الفترة التي تمتد من الانتهاء من كتابة التقرير إلى حين نشره، وبالتالي لا ترد ضمن التقرير اليومي ولا يتم نشرها.

٢- أنّ الأرقام الرسميّة الأمريكية لا تشمل أيضًا الجنود الذين يموتون خلال عمليات إسعافهم، أو عند نقلهم إلى مستشفيات ألمانيا أو البلدان المجاورة، كما أنّ هذه الأرقام لا تشمل الموظّفين الأمريكيين في سلك الخارجية أو المخابرات، أو المتعاقدين الأمريكيين، أو المرتزقة الأمريكيين، أو حتى الجنود الذين يقاتلون في الجيش الأمريكي دون حصولهم على الجنسية، والذين يموتون في العراق نتيجة عمليات المقاومة العراقية.

٣- لو افترضنا أنّ الأرقام الصادرة عن الجهات الرسمية الأمريكية هي أرقام صحيحة، فهذا يعني أنّ الجيش الأمريكي لا يعاني أي مشكلات؛ لأن عدد الخسائر في صفوفه قليلة، وهي تشكّل نسبة ١,٩٪ تقريبًا من حجم الجيش الأمريكي الكلي الموجود في العراق، والبالغ تعداده حاليًا ١٤٤,٠٠٠ جندي. لكن هل المؤشرات الرسمية تشير حقيقة إلى عدم وجود مشاكل أم أنّ العكس هو الصحيح؟ (عزوف عن الالتحاق بالجيش، قصور في عدد القوات المطلوبة، عمليات فرار كبيرة، عمليات انتحار، قرارات منع مغادرة قسرية، قرارات تمديد الخدمة قسريًّا ...)[٣٧]

ويخلص التقرير إلى أن نقول: إن معدّل الأرقام مجتمعة يساوي «أكثر من ٢٤,٠٠٠ قتيل أمريكي، وهو رقم منطقي ومقبول لعدد قتلى الأمريكيين في العراق، والذي يتوافق مع عدد من الحقائق والمعطيات والوثائق التي تمّ ذكرها سابقًا، وهو يشكّل نسبة حوالي ٩,٨٪ من حجم الأمريكيين الكلي الموجود في العراق. (قبل الزيادة الأخيرة في حجم القوات في العراق، والبالغة ٣٠ ألف جندي).

---

(٣٥) يمكن مشاهدة تقريرنا هذا على مدونتنا نقلاً عن الأماكن التي تمّ نشره فيها، وهو موجود تحت تصنيف «الحقيقة» في فئات التصنيف الموجودة في المدونة، على الرابط التالي:
www.maktoobblog.com/alibakeer

(٣٦) نفس المرجع السابق.

(٣٧) للتفاصيل والاستزادة حول عمليات العزوف والقصور، وعمليات الفرار وقرارات التمديد والانتحار يرجى مراجعة المقالات التالية:
- معالم انهيار الجيش الأمريكي في العراق، علي حسين باكير، الجزيرة. نت، ١٧/٥/٢٠٠٦م، على الرابط التالي:
www.aljazeera.net/NR/exeres/742B6CFF-D643-4972-907C-BA0CB5AAE992.htm
- ٥٠٠٠ جندي أمريكي سابق ينتحرون سنويًّا نتيجة التقصير والتوتر، سي إن إن العربية، ١٢/٦/٢٠٠٧م، على الرابط التالي:
http://arabic.cnn.com/2007/scitech/5/13/suicide.risk/index.html

ج- الاستنزاف الاقتصادي:

كانت التوقعات الأولية فيما يتعلق بالتكلفة المالية للحرب على العراق متواضعة جدًّا بالنسبة للإنفاق الحاصل اليوم، إذ أشار المستشار الاقتصادي لإدارة بوش إلى أن النفقات المخصصة للحرب قد تتراوح بين ١٠٠ مليار دولار و٢٠٠ مليار دولار، في حين اعتبر هيتش دانييل، مدير مكتب الإدارة والميزانية آنذاك أنّ الحرب ستكلّف ٦٠ مليار دولار فقط!![٣٨]

وقد قام «جوزيف ستيغليتز» من جامعة كولومبيا، والحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، بالتعاون مع البروفيسور «ليندا بيلمس» [٣٩****] من جامعة هارفرد والخبيرة بموضوعات الميزانية بوضع دراسة بعنوان: «التكاليف الاقتصادية لحرب العراق». واستنادًا إلى هذه الدراسة الواقعة في ٣٦ صفحة، والمنشورة على موقع جامعة هارفرد، فإنّ التكلفة الحقيقية للحرب على العراق تتراوح بين ٧٥٠ مليار دولار و١,٢ تريليون دولار (العام ٢٠٠٦م)، وحوالي أكثر من تريليوني دولار إذا بقي الاحتلال للعام ٢٠٠٨م.[٤٠]

وفي نفس الإطار قام مركز «التقدّم الأمريكي» بنشر تقرير في ٦ شباط ٢٠٠٧م بعنوان: «فرص ضائعة: إنفاق بوش الدفاعي في غير محلّه»، جاء فيه «أنّ الحرب على العراق أمست خطأً استراتيجيًّا بتريليون دولار دون أفق واضح لإنهاء الوضع».[٤١] واستنادًا إلى الدراسة فإنّ الإنفاق في العراق الآن يساوي ضعف التمويل المخصص للأمن القومي، والدبلوماسية، والمساعدات الدولية مجتمعة.

رابعًا: الفشل الأمريكي في العراق ومستقبل الهيمنة الأمريكية:

أ- السيناريوهات المتوقعة:

ومن بين الخيارات التي تعمل الأوساط الأمريكية على دراستها واختبارها، أربعة سيناريوهات رئيسية، تحاول تطبيقها بشكل انفرادي أو جماعي آملة أن يؤدي ذلك في النهاية إلى خلاصها من المستنقع العراقي. وهذه السيناريوهات هي:

١- سيناريو تقسيم العراق عمليًّا:

يعدّ هذا الإجراء أحد السيناريوهات الذي من الممكن أن تلجأ إليه الولايات المتّحدة لإنهاء أزمتها العراقية. ويشكّل قرار الكونجرس الأمريكي الذي صدر مؤخرًا، والذي تبنى مشروع المرشح الرئاسي الديمقراطي السناتور «بايدن» الداعي إلى تقسيم العراق إلى ثلاث فيدراليات «كردية، وسنية، وشيعية»، -وذلك بموافقة المجلس عليه بأغلبية الثلثين ٧٥ صوتًا، مقابل ٢٥ صوتًا معارضًا- الأساس العملي لتطبيق هذا الخيار رسميًّا. ويمثّل الديمقراطيون في الولايات المتّحدة عماد هذا الخيار؛ لأنّ تقسيم العراق يعدّ الحل الأسهل والأنسب لهم، خاصّة إذا ما كان الرئيس الأمريكي المقبل من الديمقراطيين، وبذلك يكون قد تخلّص من عبء كبير كان عليه أن يواجهه فيما لو بقيت الأوضاع على حالها من استنزاف للجيش الأمريكي وللاقتصاد الأمريكي وللهيبة الأمريكية.

يؤيّد هذه الخطّة كل من السناتور الديمقراطي «جوزيف بايدن»، «ليزلي جيلب»، والأكراد والشيعة «خاصة جماعة الحكيم وإيران».[٤٢]

بالإضافة إلى أمريكا وإسرائيل، فإنّ إيران ستكون من أكبر المستفيدين من مسألة التقسيم. وقد يستغرب البعض هذا القول على اعتبار أنّ إيران ستكون مهدّدة بتقسيم مماثل. لكن إذا ما أمعنّا النظر في المعطيات، فسنرى أنّ عراقًا عربيًّا وقوميًّا وعدوًّا تاريخيًّا لإيران

---

(٣٨) See: Linda Bilmes And Joseph E. Stiglitz, "THE ECONOMIC COSTS OF THE IRAQ WAR", at this link: http://ksghome.harvard.edu/~lbilmes/paper/iraqnew.pdf
للاطلاع على الملخص العربي للدراسة: علي حسين باكير، التكلفة المالية الحقيقية للحرب الأمريكية على العراق، مجلة المجتمع الكويتية، العدد ١٧٥٤، تاريخ ٢/٦/٢٠٠٧م.

(٣٩) «علمًا بأنّ الدكتورة «بيلمس» قد نشرت دراسة مهمة في يناير من العام ٢٠٠٧م حول «التكلفة الصحية الطويلة الأمد للجنود الأمريكيين العائدين من الحرب في العراق وأفغانستان» وتقع في ٢١ صفحة، وهي من منشورات جامعة هارفرد».

(٤٠) نفس المرجع السابق.

(٤١) See: P.J. Crowley, Lost Opportunities: Bush Defense Spending is Misplaced, Center Of American Progress, February 6, 2007, at this link: www.americanprogress.org/issues/2007/02/pdf/defense_report.pdf
للاطلاع على ملخص الدراسة يمكن مراجعة: علي حسين باكير، «فرص ضائعة: إنفاق بوش الدفاعي في غير محلّه»، صحيفة الأمان، لبنان، تاريخ ٢/٣/٢٠٠٧م.

(٤٢) See: The List: Options for Iraq, Foreign Policy Magazine, Dec. 2006
الترجمة العربية للتقرير: الخيارات الأمريكية الجديدة في العراق لعام ٢٠٠٧، ترجمة علي حسين باكير:
- صحيفة السياسية الكويتية: ٢٥/١٢/٢٠٠٦م. أو
- الإسلام اليوم ٧/١/٢٠٠٧م: على الرابط التالي:
http://islamtoday.net/articles/show_articles_content.cfm?id=72&catid=80&artid=8485

سيزول من الخريطة، وهذا بحد ذاته مكسب استراتيجي وتاريخي لإيران. كما أنّ نشوء دولة شيعية سيكون ممهدًا لضمّها إلى الرقعة الجيوسياسية والاستراتيجية الإيرانية الممتدة في المنطقة، وسيجعلها للمرة الأولى منذ زوال الإمبراطورية الفارسية أقرب إلى تحقيق حلمها التاريخي بابتلاع الخليج العربي.

٢- سيناريو الانسحاب والتمركز على تخوم العراق:

ويعدّ وزير الدفاع الأمريكي روبرت جيتس أحد المنظّرين في هذا المجال إلى جانب عدد لا بأس به من جنرالات الجيش الأمريكي[٤٣]، وتقوم الفكرة على الإعداد لمرحلة جديدة تتطلب الانسحاب من العراق، نتيجة لضربات المقاومة العراقية التي استنزفت الجيش الأمريكي لأقصى درجة، والتمركز بعد الخروج على حدود الخليج بقوّة هائلة تتيح للولايات المتّحدة استرجاع قدرتها الردعية التي فقدتها عندما غرقت في وحل العراق، نتيجة للقدرات التي أبدتها المقاومة العراقية، وبالتالي استرجاع قوّة التأثير والردع من خلال التهديد بالقوة، وليس من خلال استعمالها، وهو ما سيساعد الولايات المتّحدة على التفرّغ لموضوعات وملفات مهمة كالملف النووي الإيراني.

ووفقًا للمفهوم الأمريكي في هذا الطرح، فالعراق مهم جدًّا وهشّ أيضًا، ولذلك فليس من المفروض أن تتم مغادرته على عجلة. فعبر زيادة عدد القوات لفترة قصيرة، ونقل مهمة عدد كبير من الألوية المخصصة للقتال للقيام بمهمة تدريب القوات العراقية وبمهام استشارية تستطيع الولايات المتّحدة تثبيت الوضع بما فيه الكفاية؛ لتفادي كارثة كبيرة في العراق. كما أن الالتزام ببقاء أطول، ولكن بمهمة أصغر سيدعم الحكومة العراقية المهزوزة.

وعلى المقاومة العراقية في حال الانسحاب المفاجئ أو التدريجي أن تزيد من ضغطها على الأمريكيين وأن تترك قناة أو منفذًا صغيرًا للتفاوض معهم؛ كي يتم استثمار نتيجة الانسحاب لصالحهم، ولا تقوم أي جهة بسرقة هذا الاستحقاق لصالحها كإيران أو سوريا، ومن المعلوم أن ذلك لا يصح إلا إذا كان هناك خطّة وأجندة سياسية لدى المقاومة العراقية تعمل على تنفيذها.

٣- سيناريو الانقلاب العسكري:

ويعدّ هذا الخيار أحد أهم الخيارات التي يتم الحديث عنها خلف الكواليس. لقد كانت الخطّة الأمريكية تقتضي التأسيس لحكومة موالية لها بعد الإطاحة بنظام صدّام حسين، تعمل على نشر الأمن والاستقرار، وبالتالي تكون حليفًا للولايات المتّحدة، وتسوّق لإنجازاتها في العراق، ويمكن الاعتماد عليها في بقاء القوات الأمريكية أو جزء كبير منها على الأقل.

الذي حصل أنّ الحكومة الوليدة تشكّلت على أساس طائفي ومذهبي، وهي تعاني من أمراض سياسية كثيرة، ولا تمثّل الشعب العراقي، وجزء منها مُوالٍ لإيران، والآخر لأمريكا، وهي ضعيفة وغير مسيطرة على الوضع العراقي، ولا يمكن الاعتماد عليها في نشر الأمن والاستقرار، وتعاني من أزمة فساد ضخمة، وتورطت في عمليات دعم ميليشيات وتعذيب. وعليه فبعض المسئولين في الإدارة الأمريكية قد يرى في حصول انقلاب يأتي برئيس وحكومة قوية، ويفرض الأمن والاستقرار بالقوّة، خلاصًا لأمريكا من هذا المستنقع وخيارًا محتملاً وغير مكلف، قياسًا بالخسائر الاقتصادية والعسكرية التي تعاني منها أمريكا في العراق، وإن كان يقوّض من مصداقية الولايات المتّحدة في ترويجها للديمقراطية.

وفي حال وقوع مثل هذا السيناريو سيعتمد مستقبل أمريكا في العراق والمنطقة على نوع وتوجّهات الرئيس القادم بانقلاب عسكري. فإن كان الانقلاب نابعًا من دافع أمريكي، فإنّ شرعيته ستكون منقوصة، وسيُنظر إليه على أنّه «عميل» على غرار من قامت أمريكا بتنصيبهم في أفغانستان والعراق بعد الاحتلال.

أمّا إذا كان الرئيس ذا توجّه وطني وقومي، فمن المرجّح أن يضرّ ذلك النفوذ الأمريكي في العراق تحديدًا، وفي المنطقة عمومًا على المدى المتوسط والبعيد. فهو لن يرضى بالتواجد العسكري الأمريكي أو النفوذ الإيراني، وهو ما سيُكسبه شرعية مقبولة في الشارع العراقي ومصداقية عالية. وهذا هو أفضل سيناريو ممكن للعراق والمنطقة.

٤- سيناريو تعديل المحاصصة الطائفية والقومية العراقية:

تحاول الإدارة الأمريكية الآن استمالة أطياف عديدة من السُّنّة لدفعها للاشتراك في التمثيل السياسي العراقي بشكل أكبر وأكثر فعالية، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تحقيق نوع من الاستقرار والتوازن

---

(٤٣) Ibid.

السياسي، وأيضًا يعمل على امتصاص نقمة السُّنّة وعزل المقاومة العراقية عبر مكافأة المتعاونين المشتركين في العملية السياسية، وقمع المعارضين ومحاربتهم عبر الذراع السنّي نفسه. وقد بدأت الولايات المتّحدة أيضًا -وفي نفس الإطار- في التخفيف من القيود على البعثيين ممن تعتبرهم معتدلين؛ وذلك لتحقيق هدفها.

ووفقًا لما نقلته مجلة «فورين بوليسي» الأمريكية الشهيرة في تقرير نُشر في عددها الصادر في كانون الأول ٢٠٠٦م بعنوان: «اللائحة: خيارات للعراق»، فإنّ رئيس الوزراء العراقي السابق إياد علاوي، والسفير الأمريكي زلماي خليل زاد، بالإضافة إلى عدد من دول الجوار السنّي للعراق توافق على هذه الخطّة وهذا الطرح.

إذ إنّ المفهوم الأمريكي لهذا السيناريو يقوم على أساس أنّ البعثيين وشيوخ القبائل المنخرطين منهم بما تسميه «التمرد» يُعدّون من البراغماتيين، وليسوا من الأيديولوجيين. ولذلك، فهي تستطيع -من الناحية النظرية على الأقل- شق وشرخ المقاومة عبر إيجاد فجوة بين السنّة والقاعدة، وبين الموافقين على الاشتراك في العملية السياسية والرافضين لذلك، ويتم هذا عبر:

منحهم العفو لمن تراه أهلاً لذلك من فئة البعثيين وشيوخ القبائل وأتباعهم.

التراجع عن سياسة اجتثاث البعث.

تقديم حصّة عادلة من العائدات النفطيّة لهم.

ولأن الولايات المتّحدة قامت بتحقيق طموح إيران في العراق من خلال تفكيك الجيش العراقي، ومن خلال دعم وتقوية الشيعة في الانتخابات، فهي تعتقد أنّ الميل إلى السنّة في هذا السيناريو قد يُطمئن العالم العربي الذي يضم ٨٥٪ من السنّة، بالإضافة إلى إمكانية استغلال القبائل والعشائر في موضوع مقاومة النفوذ الإيراني في العراق.[٤٤]

ب- انعكاساتها على مستقبل العراق والهيمنة الأمريكية في المنطقة:

١- انعكاسات سيناريو تقسيم العراق:

على العراق:

- حصول حملات تطهير عرقي وقومي وطائفي في المنطقة التي تشكل خليطًا من هذا النسيج، خاصة في الحزام الفاصل في المناطق الثلاث المقسّمة.
- اختفاء عراق قومي وعربي.

على المنطقة:

- إيران أقوى نتيجة انهيار السد العربي الوحيد باتجاه نفوذها إقليميًّا، وإمكانية احتضان أو ضم المنطقة الشيعية المستقلة الجديدة.
- دور تركي إقليمي أكبر قد يظهر في تجليات رفض الدولة الكردية الجديدة المستقلة والقيام بغزوها لمنع الاستقلال.
- امتداد شرارات التقسيم إلى الجوار العربي مع ضعف شديد في قدرة الأنظمة الحاكمة على ضبط مجتمعاتها أو التأثير على مجريات الأحداث في المنطقة.

على وضع أمريكا في المنطقة:

- سيطرة أكبر على مجريات الوضع العراقي والإقليمي، واسترجاع قدرة أمريكا على الصعيد العالمي من خلال التمركز في الدول الثلاث الجديدة، التي ستطلب العون وبقاء الأمريكيين لتدعيم الاستقلال الناشئ.
- سهولة أكبر في محاصرة المقاومة العراقية تمهيدًا للقضاء عليها، والانتقال لتوسيع دائرة محاربة ما يسمى «الإرهاب» في دول أخرى.
- إحكام السيطرة على النفط من خلال نظام المحاصصة والمشاركة تحت الإشراف الأمريكي المباشر.
- إمكانية اندلاع حرب إقليمية مع تركيا التي ستكون الأقدر على رفض التقسيم، والتعبير عن ذلك من خلال احتلالها لكردستان العراق.

٢- انعكاسات سيناريو الانسحاب الفوري من العراق:

على العراق:

- هروب قادة الميليشيات والعملاء الذين دخلوا مع الدبابة الأمريكية إلى خارج العراق.
- تشظّي البلاد إلى وحدات مناطقية في حالة التوازن العسكري بين المقاومة والميليشيات.
- وقوع العراق تحت السيطرة الإيرانية المباشرة، عبر ملء الفراغ الذي سيتركه الانسحاب الأمريكي، أو

---

(٤٤) Ibid.

غير المباشرة كونها اللاعب الأقدر والأكثر وجودًا في العراق حاليًا عبر ميليشياتها، أو أدواتها العراقية.

على المنطقة:

- احتمال تدخل قوي من السعودية ومصر وتركيا لمنع الاستفراد الإيراني بالعراق، خوفًا من أن يتم الإطاحة بالتوازن الإقليمي الذي يحقق الاستقرار في الشرق الأوسط، وخوفًا من أن يخلق الابتلاع الإيراني للعراق وضعًا جيوسياسيًّا وجيواستراتيجيًّا يعمل على تقزيم هذه الدول، وانبثاق إيران كقوة إقليمية لا منازع لها على الإطلاق.
- ضعف الثقة بالدور الأمريكي من الآن وصاعدًا على الصعيد الإقليمي، وتدهور العلاقة بين هذه الدول وأمريكا.
- إعادة إحياء دور القوى المناهضة لأمريكا بكافة أشكالها «المتعصبة، العقلانية، الجهادية، اليسارية، ، ، ،إلخ»؛ لكونها ترى بالانسحاب الأمريكي السريع هزيمة تاريخية غير مسبوقة.

على وضع أمريكا في المنطقة:

- انكفاء المشروع الأمريكي في المنطقة نتيجة الهزيمة المذلة.
- تضرر العلاقة بين الدول العربية وتركيا مع أمريكا.
- انعدام الثقة دوليًّا بقدرة أمريكا على تحقيق الاستقرار في المنطقة والعالم.
- بروز أقطاب دولية تستغل الهزيمة الأمريكية لإبراز مكانتها في النظام الدولي من جديد مثل روسيا والصين.
- أفول نجم الاتحاد الأوروبي سياسيًّا وعسكريًّا؛ بسبب هزيمة القاطرة الأمريكية التي تدفعه.
- عدم ثقة حلفاء أمريكا الذين يحظون بتغطيتها «كوريا الجنوبية- اليابان- دول الخليج...» بقدرة أمريكا العسكرية على ردع أي عدو أو السيطرة عليه عسكريًّا.

٣- انعكاسات سيناريو الانسحاب المبرمج والتدريجي:

على العراق:

- غير واضح المعالم فيما يتعلق بالمستقبل السياسي للعراق، ويعتمد على رد فعل القوى المختلفة من المقاومة والقوى السياسية والشعبية والحكومية وكوادرها.
- بروز لافت للمقاومة من الناحية العسكرية والسياسية في حال أحسنت استثمار التراجع والانسحاب الأمريكي، وقدّمت برنامجًا ومشروعًا سياسيًّا؛ منعًا لاستغلال إيران أو غيرها من الدول لهذا الحدث لحسابها.
- دخول المقاومة في مواجهة مع الميليشيات الشيعية وقوات الجيش في حال إنكار إنجازات المقاومة وتجاهلها؛ وذلك كلما زاد الانسحاب الأمريكي، أو ابتعدت القوات الأمريكية عن موقع المواجهة.

على المنطقة:

- بروز دور أكبر لكل من إيران وتركيا في العراق، مقابل انكفاء الدور العربي إلى أقصى درجة ممكنة؛ نتيجة لاستيائهم من طريقة إدارة البلاد الطائفية من جهة، ونتيجة عدم وجود اتصالات مع الجهة المناوئة للحكومة «أي المقاومة»، مما يعني الخروج بخفي حنين.
- مخاوف وتوترات إقليمية من قدرة أمريكا على شن هجوم عسكري على إيران بعد تحررها من المستنقع العراقي، وتحصنها في إطار الجوار الجغرافي لإيران.

على وضع أمريكا في المنطقة:

- استعادة قدراتها الردعية بعد الخروج من المستنقع العراقي، ومحاولة الاستفادة من ذلك في الضغط على إيران لتحجيم وضعها الإقليمي، أو على الأقل لحصره في حدود الممكن.
- محاولة اعتماد استراتيجية جديدة لمحاربة ما يسمى «الإرهاب» بعد استقاء الدروس والعبر من التجربة العراقية.
- نقل بعض القوات إلى أفغانستان لمحاولة تثبيت الوضع هناك؛ لمنع سقوط أفغانستان في أيدي المقاومة الأفغانية أيضًا، ولكي لا يشكل ذلك هزيمة دراماتيكية في آن.
- قدرة أكبر على التأثير في الملفات الإقليمية والدولية من الناحية السياسية.

٤- انعكاسات سيناريو الانقلاب العسكري:

على العراق:

- الحفاظ على عراق موحّد.
- إعادة دوره السياسي كسد لمشاريع الأطماع التوسعية الإيرانية، خاصة في ظل وجود رئيس ذي توجه وطني- قومي «إسلامي».
- فرض إنهاء الاحتلال الأمريكي إذا كان لم يحصل بعدُ عبر معاهدة أو عبر مفاوضات.
- القضاء على جميع الميليشيات وإنهاء الفوضى، وفرض الأمن والاستقرار.
- إنهاء النفوذ الإيراني المباشر في العراق.

على المنطقة:

- ارتياح عربي لمستقبل العراق.
- دور أكبر للعرب في تحجيم «الانتفاخ» الإيراني الحاصل.
- ارتياح تركي لاستقرار العراق، ومنع انقسامه، وما ينتج عن ذلك من مخاوف تجاه كردستان مستقلة.
- تراجع نفوذ إيران على عدد من المستويات إقليميًّا.

على مستقبل أمريكا في المنطقة:

١- تقويض سمعة أمريكا تجاه قضايا الديمقراطية والانفتاح، والفشل في بناء عراق ديمقراطي.

٢- هزيمة وليس «فشل» المشروع الأمريكي في العراق، وبالتالي محاولة تعويض ذلك في جبهات أخرى، أو أخذ العبر والدروس، وانكفاء أمريكا إلى استراتيجيات أخرى أقل وطأة.

٣- إمكانية تراجع النفوذ الأمريكي في المنطقة على المستوى البعيد، خاصة عندما يستعيد العراق عافيته وقوته.

٥- انعكاسات سيناريو المحاصصة الطائفية والقومية:

على العراق:

- عراق هش ومتضارب الاتجاهات، ودائم الصراعات «أشبه باللبننة».
- تِيهٌ في معرفة الانتماء والوجهة، وتعدد في الولاءات.
- مخترَق من قِبل الأنظمة والدول الأخرى، لاسيما إيران والولايات المتحدة.

على المنطقة:

١- حالة ترقّب إقليمية دائمة لمنع تفجّر العراق، والحفاظ الدائم على وحدته.

٢- خوف من مواجهة إيران حال تعافي العراق.

على مستقبل أمريكا في المنطقة:

١- اعتبار ذلك إنجازًا على الصعيد السياسي، يتم التأسيس عليه لتأكيد النفوذ الأمريكي، والانتقال إلى ملفات أخرى إقليمية.

٢- بقاء حالة التوتر بخصوص إيران، مع قدرة أمريكية أكبر على التهديد والتنفيذ.

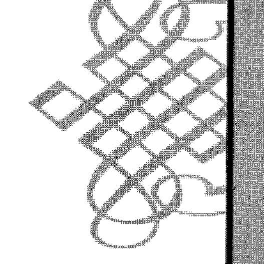
٣- متنفس أمريكي لاستعادة قدراتها العسكرية والسياسية والاقتصادية في العراق والمنطقة.وعلى هذا تقدّرُ الأموال التي تباع بها هذه الكميات بـ ٥ – ١٥ مليون دولار يوميًّا، في حالة احتساب سعر البرميل الواحد بخمسين دولارًا فقط!! مما يعني أن مليارات الدولارات قد دخلت جيوب هؤلاء السُّرّاق، على مدى أربعة أعوام ونيف من عمر الاحتلال.

ووفق كل هذا أدى الفساد الإداري، وقلة خبرة المتصدرين لإدارة أموال العراق، وإقصاء المتخصصين بهذا الشأن، إلى ضياع مليارات الدولارات من أموال بلاد الرافدين، وفي العام الماضي وحده ضاع اثنا عشر مليار دولار من الأموال التي كانت مخصصة لإعمار العراق، حسب ما اعترف به الجنرال ستيوارت بوين المفتش الأمريكي العام لشؤون إعمار العراق.(٤٥)

التحديات وأخطرها صراع البقاء والوجود في إفريقيا جنوب الصحراء، والذي يعد أحد جوانب الصراع الحضاري بين المسلمين والغرب، الأمر الذي يقتضي استفراغ الجهد والوسع لمواجهته بخطط مدروسة واستراتيجيات فاعلة.

---

(٤٥) وقد نقل التصريح عدد من وسائل الإعلام بتاريخ ٢٠٠٧/٤/٣م.



معلومات إضافية

التكلفة المالية الحقيقية للحرب الأمريكية على العراق:

بحسب الدراسة المشتركة التي أجراها الدكتور «جوزيف ستيغليتز» والبروفيسورة «ليندا بيلمس» تحت عنوان «التكاليف الاقتصادية لحرب العراق»، فإنّ التكلفة الحقيقية للحرب على العراق تتراوح بين ٧٥٠ مليار دولار و١,٢ تريليون دولار (العام ٢٠٠٦م)، وحوالي أكثر من تريليوني دولار إذا بقي الاحتلال للعام ٢٠٠٨م وما بعده؛ استنادًا للمعيار المعتمد والحسابات الحذرة والمعتدلة والمتحفظة.

واستنادًا إلى الدراسة، فإنّ كلفة الحرب الحقيقية لا تتحدد بالإنفاق العسكري المباشر فقط، بل تشمل الإنفاق غير المباشر أيضًا، والإنفاق المرتبط بنتائج العمل العسكري الحالي والمستقبلي، وعلى علاج الجنود الجرحى وخسائر الأسلحة والمركبات والمعدات والفوائد على الحصص المالية المقتطعة للحرب.

أما عن الفرق الشاسع والكبير بين الأرقام الأوليّة للحكومة الأمريكية عن تكاليف الحرب على العراق والأرقام التقديرية وفقًا للدراسة؛ فإنّ ذلك يعود وفقًا لـ«جوزيف ستيغليتز» لعدد من العناصر منها:

أولاً: التستر الحكومي على العدد الضخم من المقاتلين السابقين الذين يعودون مثخنين بجراح بليغة من الحرب في العراق، والذين بلغ عددهم ١٦ ألفًا حتى الآن، ٢٠٪ منهم تقريبًا يعانون من أمراض عقلية وإصابات في الرأس تحتاج إلى علاج مكلف؛ فكلفة علاج ورعاية الجنود بعد الحرب ستصل إلى ٣٥٠ مليار دولار باعتبار أن كل قتيل أمريكي في حرب العراق يقابله ١٦ جريحًا بين الجنود مقارنة مع ٢,٦ جندي جريح في فيتنام و٢,٨ جندي في كوريا.

ثانيًا: عدم إدراج الحكومة للنفقات الخاصة المتعلّقة بزيادة المكافآت بشكل كبير لحالات إعادة التطوع في الجيش، وتحسين القروض، وزيادة نفقات التجنيد (حتى ٢٠٪ فقط بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٥م)، والتي اعتمدتها الحكومة الأمريكية نتيجة لمواجهتها مشكلة متعاظمة في التجنيد وتلافيًا لخوضها مشكلة التجنيد والاحتجاز العسكري لمن يرفض الخدمة. وتبلغ هذه النفقات التي لا تشمل الفوائد ما بين ٦٥٢ مليار دولار -وفقًا للحسابات المتحفّظة- و٧٩٩ مليار دولار -وفقًا للحسابات المعتدلة-.

ثالثًا: عدم إدراج التعويضات عن حالات الوفاة والتي تصل إلى ٥٠٠ ألف دولار، وذلك أقل بكثير من الحسابات الاعتيادية للنفقة الاقتصادية لمدى الحياة، والتي يشار إليها أحيانًا كمعادل للقيمة الإحصائية للحياة عمومًا، والتي تقدر من ١,٦ إلى ٥,٦ ملايين دولار.

رابعًا: عدم احتساب الخسائر العسكرية الماديّة المباشرة ضمن تكاليف الحرب كفقدان وخسارة المعدات والتجهيزات العسكرية والآليات التي تتراوح بين فقدان كلي يحتاج إلى تعويض واستبدال، وبين فقدان جزئي يحتاج إلى إصلاح.



خامسًا: عدم احتساب الفوائد المالية المترتبة على النفقات الخاصة غير المدرجة، والتي تتراوح بين ٩٨ مليار دولار- بتقدير متحفّظ- و٣٨٤ مليار دولار- بتقدير معتدل-.

وقد أصدرت خدمة أبحاث الكونجرس الأمريكي «SRC» تقريرًا في أواخر آذار ذكرت فيه وفقًا لما نقلته «يو بي آي» أنّ حرب العراق بلغت كلفتها الشهرية ٤,٧ مليارات دولار. واستنادًا إلى التقرير، فإنّ الأرقام المتعلقة بالحرب على الإرهاب، والعراق، وأفغانستان مستمرة في الارتفاع؛ حيث طلب الرئيس الأمريكي جورج بوش تمويلات إضافية للعام ٢٠٠٧م، تبلغ قيمتها ٤,٤٩ مليارات دولار، و١٤١ مليارًا أخرى لسنة ٢٠٠٨م لتمويل الحرب. وبحسب التقرير، فإنّ كلفة هذه الحرب ستصل إلى ٢٥٧ مليار دولار بحلول منتصف عام ٢٠٠٨م.

ورأى التقرير أنه في حال استمرت الحرب لعشر سنوات أخرى؛ فإنّ التمويلات الإضافية التي من المحتمل أن يقرها الكونجرس، يرجّح أن تزيد الكلفة بقيمة ١٤٠ مليار دولار في حال خفض عدد الجنود إلى ٣٠ ألفًا، أمّا إذا استمرت الحرب عشر سنوات مع خفض القوات إلى ٧٠ ألف، بحلول عام ٢٠١٣م فذلك سيعني ٩١٩ مليار دولار إضافيًّا، وهو ما سيرفع كلفة الحرب (المباشرة) إلى ٤,١ تريليونات دولار.

المصدر:

علي حسين باكير، التكلفة المالية الحقيقية للحرب الأمريكية على العراق، مجلة المجتمع الكويتية، العدد ٤٥٧١، بتاريخ ٢٠٠٧/٦/٢م. (باختصار)

من ملامح انهيار الجيش الأمريكي في العراق:

انهيار استراتيجية التجنيد:

تفيد التقارير بأن الجيش الأمريكي -القائم على نظام التطوع منذ العام ١٩٧٣- يعاني قصورًا بنسبة ٤٠٪ عن تحقيق هدفه من التجنيد.

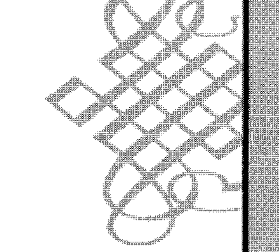
أسباب عدم القدرة على هذه التعبئة:

١- حجم الخسائر المادية والبشرية الكبيرة في الجيش الأمريكي في العراق.

٢- الهزيمة النفسية التي تنتشر بين المجندين الأمريكيين، بعد أن كانوا يظنون أن جيشهم يقوم بنزهة في بلدان العالم الثالث.

٣- عدم الإيمان بعدالة القضية.

كما تواجه القوات المسلحة مشكلات في الاحتفاظ بجنودها؛ إذ إن نحو ٣٠٪ من المجندين الجدد يتركون الخدمة خلال ستة أشهر، وبعض هؤلاء يتركون الخدمة على الأقل بسبب الهوة الواسعة بين الخبرات اليومية للشباب قبل التجنيد وبعد الانخراط في حياة المجند أثناء التدريب.



واعترف البنتاغون بأن أكثر من ٥٥٠٠ جندي فروا من الخدمة منذ بداية حرب العراق.

انتشار الأمراض الصحية والنفسية:

تعد الأمراض النفسية والصحية التي تصيب الجنود إحدى أهم المشاكل التي يعاني منها الجيش الأمريكي.

وقد أكد تقرير صدر مؤخرًا أن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) بات يساورها القلق من الحالة النفسية للجنود العائدين من العراق؛ بسبب ما لحقهم من إصابات غير مرئية، خاصة تلك المتعلقة بما يسمى بمرض «اضطرابات ما بعد صدمة الضغوط» ويدعى (sssert citamuar ptso).

وأشار التقرير أيضًا إلى أن أكثر من ١٠ آلاف جندي أمريكي عادوا من العراق طلبوا المساعدة الطبية؛ حتى يتمكنوا من الاندماج من جديد في المجتمع بسبب شعورهم بصعوبة مخالطة الناس دون خوف، وإحساسهم بأنهم سيتعرضون لتهديدٍ ما.

ويشير معهد دراسات السياسة الأمريكي في تقرير له نشر يوم ٢٠٠٥/٨/١٣م عن تكاليف الحرب الأمريكية على العراق، وعن موضوع انسحاب القوات الأمريكية، إلى تدني الحالة النفسية للجيش وانخفاض الروح المعنوية للقوات، خاصة بعد قرارات منع مغادرة الجنود من العراق.

انتشار الدعارة في صفوف الجيش:

عادت فضائح الجيش الأمريكي إلى الظهور على السطح مجددًا، فبعد فضائح انتشار الشواذ في جيش الحرية الأمريكي، ومن ثَم فضائح أبو غريب وغوانتانامو وسجون أفغانستان. تفشت هذه المرة ظاهرة «الدعارة في صفوف الجيش».

وكان البنتاغون قد أعلن مؤخرًا أن الجيش الأمريكي تلقى في العام الأخير تقارير بوقوع ٨٨ حادث اعتداء جنسي في منطقة القيادة المركزية الأمريكية التي تشمل العراق والكويت، فضلاً عن القرن الإفريقي ومنطقة الخليج وآسيا الوسطى بما في ذلك أفغانستان.

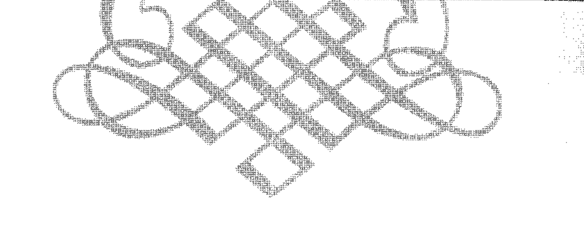
وأوضحت أن الاعتداءات الجنسية تشمل الاغتصاب أو محاولة الاغتصاب أو اللواط، علمًا بأن النساء يمثلن نحو ١٠٪ من بين نحو ١١٠ آلاف جندي أمريكي موجودين الآن في العراق.



المصدر:

علي حسين باكير، معالم انهيار الجيش الأمريكي في العراق، موقع الجزيرة. نت، ٢٠٠٦/٥/١٧م.





مستقبل الهيمنة الاقتصادية الأمريكية

أ.ممدوح الولي

(مساعد رئيس تحرير جريدة الأهرام للشئون الاقتصادية)

ملخص البحث

تعد الولايات المتحدة الاقتصاد الأول بالعالم، من حيث الناتج المحلي الإجمالي، وصاحبة النصيب الأكبر من التجارة السلعية والخدمية الدولية، إلا أن الاقتصاد الأمريكي يعاني من نقاط ضعف تجعل قضية استمرار الهيمنة الاقتصادية الأمريكية أمرًا محل نظر، رغم ما للاقتصاد الأمريكي من قوة تأثير على مختلف الاقتصادات الدولية.

ويعتبر العجز بالميزان التجاري السلعي الأمريكي أحد المشاكل الرئيسة بالاقتصاد؛ خاصة مع النمو الدائم لقيمة الواردات، والذي أدى لاستمرار هذا العجز -الأكبر دوليًا- ما دفع الولايات المتحدة إلى اتباع سياسة الدولار الضعيف تجاه العملات الأخرى.

وبعكس الوضع المزمن للعجز التجاري السلعي؛ فإن هناك فائضًا دائمًا بالميزان التجاري الخدمي الأمريكي، كما احتلت الولايات المتحدة المركز الأول عالميًا في التجارة الخدمية الدولية، سواء من حيث قيمة الصادرات أو الواردات.

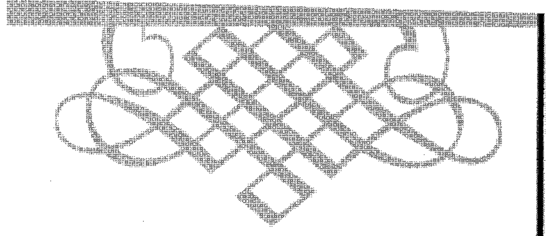
ولأن ميزان المعاملات الجارية لأي اقتصاد يتضمن داخله محصلة موازين التجارة السلعية والتجارة الخدمية والدخل والتحويلات؛ فإن ميزان المعاملات الجارية الأمريكي قد شهد عجزًا دائمًا خلال الفترة من ١٩٩٥م وحتى ٢٠٠٦م.

كما تصاعد حجم العجز بالموازنة الأمريكية خلال السنوات الأخيرة، ويتوقع استمرار هذا العجز حتى عام ٢٠١٢م، في ظل الإنفاق العسكري الأمريكي بالعراق وأفغانستان، وسياسة عدم زيادة الضرائب.

وقد استطاعت الولايات المتحدة عن طريق النظام النقدي والمالي السائد إقناع دول العالم بتمويل عجزها الدائم، وتحول الاقتصاد الأمريكي إلى ما يشبه البنك المركزي للعالم من خلال إصداره الدولار الذي تحتفظ به الدول لأغراض معاملاتها الدولية، ما جعل لانخفاض الدولار تداعياته على الكثير من الاقتصادات الدولية، ودفع العديد من الدول إلى فك الارتباط به، ولو بشكل جزئي، وتقليل نسبة وجوده في احتياطياتها.

وجاءت أزمة الرهون العقارية في صيف ٢٠٠٧م لتُضيف بُعدًا جديدًا، تسبب في تراجع معدلات بناء المساكن، حتى أصبح الكثيرون يخشون دخول الاقتصاد في حالة من الكساد.

لكن رغم ما يراه البعض من ظهور مظاهر الشيخوخة على جسد الإمبراطورية الأمريكية، سواء داخليًا أو خارجيًا، فإن الاقتصاد الأمريكي ما زال مليئًا بالعديد من العوامل التي تساند أداءه، وتجعل الهيمنة الاقتصادية الأمريكية مستمرة خلال العقد الحالي.



أفكار و مقتطفات

- تعـد الولايـات المتحدة الأمريكيـة الاقتصاد الأول بالعـالم، من حيث الناتـج المحلي الإجمالي، وصاحبة النصيب الأكبر من التجارة السلعية الدولية، وكذلك بالتجارة الخدمية الدولية، وأيضًا في الاستثمارات الأجنبية الدولية، سواء المباشرة أو غير المباشرة.

- تظـل قضية اسـتمرار الهيمنة الاقتصادية الأمريكية أمـرًا محل نظر في ضوء انخفاض معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، بالمقارنة إلى ما تحققه الصين من معدلات عالية للنمو.

- يُعَدّ العجز بالميزان التجاري السـلعي الأمريكي أحد المشـاكل الرئيسـة بالاقتصاد، خاصة مع الامتداد الزمني له عبر سـنوات طويلة، والذي جاء نتيجة لمعدلات الاسـتهلاك العالية التي تتطلب استيراد كميات ضخمة، سواء من المواد الخام أو السلع الاستهلاكية.

- تعد السـياحة مكونًا رئيسًـا بالتجارة الخدمية الأمريكية؛ حيث احتلت أمريكا المركز الأول عالميًّا في الإيرادات السـياحية عام ٢٠٠٦م، وهو نفس مركزها خلال العام السـابق. وبلغت قيمة الإيرادات ٨٥,٧ مليار دولار بفارق كبير عن أسبانيا التي احتلت المركز الثاني.

- مـورد آخـر حقق فائضًا مسـتمرًّا لميزان المدفوعـات الأمريكي تمثَّل في حصيلـة الدخل الناجمة عـن عوائد الودائع الأمريكية خـارج الولايات المتحدة. حيث ظلت حصيلة الدخل المحصلة تنافس حصيلـة الخدمات خلال معظم السـنوات، وتفوقت عليها غالبًا. وبلغـت حصيلة الدخل ٦٢٢ مليار دولار عام ٢٠٠٦م، وهو ما يمثل أكبر رقم تحقق خلال السنوات الاثنتي عشرة.

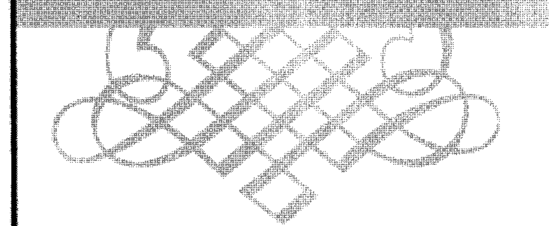
- نظرًا للطبيعة السكانية والعُمّالية للمجتمع الأمريكي كمجتمع للوافدين من بلدان عديدة؛ فإن تحويلات هؤلاء العاملين الأجانب إلى أُسَـرهم في بلدانهم الأصلية قد تسـببت في عجز دائم لميزان التحويـلات الأمريكي؛ حيث تزيد التحويلات المدفوعة دائمًا عن التحويلات المحصلة الواردة إلى الولايات المتحدة من قِبَل الأمريكيين العاملين خارج الولايات المتحدة.

- شـهدت الموازنـة الأمريكية خلال السـنوات الثلاث عشـرة الأخيرة ما بـين ١٩٩٤م وحتى ٢٠٠٦م تحقيق عجز مستمر بالموازنة، فيما عدا أربع سنوات متصلة في الفترة من ١٩٩٨م وحتى ٢٠٠١م.

- في أواخـر عـام ٢٠٠٧م بلغ الدَّيْن الداخلي الأمريكي ٩,١٣ تريليـون دولار. وهو الدَّيْن الذي يزداد بحوالـي ١,٤ مليـار دولار يوميًّـا، أي بحوالي مليون دولار كل دقيقـة. مما يجعل نصيب كل فرد أمريكي ٣٠ ألف دولار من الدَّيْن الداخلي.

- تحول الاقتصاد الأمريكي إلى ما يشبه البنك المركزي للعالم من خلال إصداره الدولار الذي تحتفظ به الدول لأغراض معاملاتها الدولية؛ ليظل الدولار في التداول دون أن يعود للاقتصاد الأمريكي.

- مـن أهم أسـباب تـرك الإدارة الأمريكية سـعر صرف الـدولار ينخفض أمام العملات الرئيسـة الأخـرى، أو ما يسـمى بالدولار الضعيف، هو محاولة تشـجيع الصـادرات الأمريكية للنفاذ إلى الأسواق العالمية؛ نتيجة رخص سعر المنتجات الأمريكية.



- دفع انخفاض الدولار العديد من الشركات الأوروبية الكبرى مثل: بي إم دبليو، وفولكسفاجن، وجلاكسو سميث كلاين للأدوية إلى اتخاذ أساليب للحماية من تقلبات أسعار الصرف بإنشاء مصانع إنتاجية حول العالم. حيث ذكرت شركة إيرباص الأوروبية أنها تخسر مليار يورو في كل مرة يتراجع فيها الدولار أمام اليورو عشر سنتات.

- أشار التقرير الشهري لمنظمة الأوبك لشهر يوليو ٢٠٠٧م -وهي المنظمة التي تسيطر على ٤٠٪ من إنتاج النفط العالمي- إلى أنه بالرغم من تسجيل أسعار النفط أسعارًا قياسية في يونيو من عام ٢٠٠٧م إلا أن الدراسات التي أجرتها الأوبك قد أوضحت أنه عند احتساب معدلات التضخم والتغير في أسعار الصرف العالمي؛ فإن أسعار النفط الحقيقية قد انخفضت بمقارنتها بأسعار العام الماضي.

- أعلن أكثر من ٢٠ بنكًا تعمل في مجال قروض شراء المنازل إفلاسها، وأفلست مؤسسات دائنة مثل أميركان هوم مورجيدج. وأعلنت عدة بنوك عن شطب مليارات من القروض؛ مما أثَّر على أسعار أسهمها بالسوق وعلى ربحيتها.

- أدت مشاكل سوق المساكن إلى انخفاض معدلات بناء المساكن الجديدة، ففي شهر يوليو ٢٠٠٧م انخفضت معدلات بناء المنازل لأدنى مستوًى لها خلال عشر سنوات. مما أثَّر على قطاعات اقتصادية أخرى يرتبط نشاطها بقطاع المساكن؛ حتى أصبح الكثيرون يخشون دخول الاقتصاد في حالة من الكساد.

- تراجع نصيب الولايات المتحدة من الصادرات السلعية الدولية من نسبة ١٠٪ عام ٢٠٠٤م إلى ٨,٧٪ عام ٢٠٠٥م، ثم انخفض نصيب أمريكا من الصادرات السلعية إلى ٨,٦٪ من الصادرات السلعية الدولية عام ٢٠٠٦م.

- تتوقع منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية بلوغ نسبة النمو بالولايات المتحدة عام ٢٠٠٨م نحو ٢٪ و٢,٢٪ عام ٢٠٠٩م، بينما كان توقعها بلوغ نسبة النمو بالصين ١٠,٧٪ عام ٢٠٠٨م وبلوغ نسبة نمو روسيا ٦,٢٪ بنفس العام.

- الاقتصاد الأمريكي ما زال مليئًا بالعديد من العوامل التي تساند أداءه، وأبرزها معدل الإنتاجية المرتفع مقارنة بالمعدل الأوروبي، ونجاح السياسة الأمريكية في أن تجعل مصالح القوى الاقتصادية الكبرى بالعالم مرتبطة باستمرار النمو للاقتصاد الأمريكي.

- الهيمنة الاقتصادية الأمريكية مستمرة خلال العقد الحالي، ولا يتوقع لها أن تخسر موقعها المتميز خلال العِقد القادم. فمازال لديها الكثير من الأدوات والسياسات ما تستطيع به الحفاظ على مكانتها الدولية الاقتصادية.

مستقبل الهيمنة الاقتصادية الأمريكية

أ.ممدوح الولي : مساعد رئيس تحرير جريدة الأهرام للشئون الاقتصادية

مقدمة:

تعد الولايات المتحدة الأمريكية الاقتصاد الأول بالعالم ، من حيث الناتج المحلي الإجمالي، وصاحبة النصيب الأكبر من التجارة السلعية الدولية، وكذلك بالتجارة الخدمية الدولية، وأيضًا في الاستثمارات الأجنبية الدولية، سواء المباشرة أو غير المباشرة.

إلا أن الاقتصاد الأمريكي يعاني عددًا من نقاط الضعف، أبرزها: العجز المزمن بميزان المعاملات الجارية؛ بسبب العجز المزمن بالميزان التجاري السلعي، والعجز المزمن بميزان التحويلات. وكذلك العجز بالموازنة الأمريكية، وجاءت أزمة الرهون العقارية في صيف ٢٠٠٧م لتضيف بعدًا جديدًا تسبب في تراجع معدلات بناء المساكن، مما قد يؤدي إلى دخول الاقتصاد في حالة ركود، وإن كانت قد أدت بالفعل لتوقع تراجع معدلات النمو خلال عام ٢٠٠٨م.

وتظل قضية استمرار الهيمنة الاقتصادية الأمريكية أمرًا محل نظر في ضوء انخفاض معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، بالمقارنة إلى ما تحققه الصين من معدلات عالية للنمو. وكذلك ما يحدث من تراجع النصيب النسبي للتجارة الخارجية السلعية الأمريكية من إجمالي التجارة الدولية خلال السنوات الأخيرة، مقابل تزايد النصيب النسبي للصين خلال نفس السنوات. وتراجع نسبة الدولار الأمريكي من مكونات الاحتياطيات الدولية لدى كثير من دول العالم، مقابل ارتفاع نسبة اليورو ضمن تلك الاحتياطيات.

ولهذا فإن استمرار الهيمنة الاقتصادية الأمريكية أمر مشكوك به ، في ظل تقليل بعض الدول من حجم استخدام الدولار في المعاملات الدولية. خاصة وأن الاقتصاد الأمريكي يعتمد على الاستخدام الدولي للدولار كعملة للمبادلات الدولية؛ بما يمكنه من تغطية ما به من عجز، سواء بالميزان التجاري، أو بالموازنة بما يطرحه من أدوات دَيْن، وبما يستقطبه من استثمارات أجنبية وودائع من خارج الولايات المتحدة.

وسوف تتناول الدراسة عددًا من المحاور هي:

النصيب النسبي للاقتصاد الأمريكي دوليًا.

العجز التجاري المزمن بالميزان التجاري السلعي.

- الفائض الدائم بالميزان التجاري الخدمي.
- العجز الدائم بميزان المعاملات الجارية.
- المركز الأمريكي المتقدم بالاستثمارات الدولية.

- استمرار العجز بالموازنة الأمريكية حتى عام ٢٠١٢م.
- المسيرة التاريخية للاعتماد على الدولار.
- الآثار الدولية لانخفاض الدولار.
- أزمة القروض العقارية الأمريكية.
- مستقبل الهيمنة الاقتصادية الأمريكية.

احتل الاقتصاد الأمريكي المرتبة الأولى عالميًا في حجم الناتج المحلي الإجمالي، وارتبط ذلك بتصدره للنصيب الأكبر من التجارة السلعية الدولية، وكذلك بالتجارة الخدمية الدولية. رغم أن سكان الولايات المتحدة لا يشكِّلون سوى نسبة ٤,٧٪ من سكان العالم، كما لا تشكل مساحة الولايات المتحدة سوى نسبة ٧,٢٪ من مساحة اليابسة.

وتبدو قوة تأثير نمو الاقتصاد الأمريكي على مختلف الاقتصادات الدولية حتى ظهرت المقولة الشائعة أنه «إذا عطست أمريكا فإن العالم سيصاب بالأنفلونزا الحادة». خاصة بالنسبة لدول الجوار مثل المكسيك وكندا. كما أن هناك اقتصادات دول تنمو على أكتاف نمو الطلب المحلي الأمريكي، مما يعظم أثره بالنسبة للصين واليابان والاتحاد الأوروبي في ضوء ضخامة تجارتهم مع الولايات المتحدة. كما أن السياح الأمريكيين يشكلون الحصة الأكبر من السياح الأجانب في أوروبا، ومن هنا فإن بطء الاقتصاد الأمريكي يعني قلة عدد السياح الأمريكيين القادمين إلى أوروبا.

وهكذا يرى هؤلاء أن الأمريكي متوسط الدخل يمسك بزمام الكرة الأرضية؛ حيث إن كل الأنشطة بالعالم مرتبطة بالنمو الاقتصادي بالولايات المتحدة، فالصين واليابان ترتبط بالولايات المتحدة كسوق تصديرية لمنتجاتهما، وفى سبيل ذلك تشتريان سندات الخزانة الأمريكية لمساندة وتأمين استمرار نمو الطلب داخل المجتمع الأمريكي، والأمر شبيه في أوروبا.

إلا أن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن منطقة اليورو لم تعد الشريك التجاري الأول للولايات المتحدة، وأن صادرات الاتحاد الأوروبي لأمريكا لا تشكل سوى نسبة ٨٪ من إجمالي صادراته، خاصة وأن الاستثمار المباشر أخذ يحل محل التجارة بعد أن اتجهت الشركات الأوروبية لبناء مصانعها بالولايات المتحدة؛ لتكون قريبة من المستهلك الأمريكي. ومن هنا فإن المبيعات داخل أمريكا من منتجات الشركات الأوروبية الموجودة هناك أصبحت أعلى خمس مرات من الصادرات الأوروبية للولايات المتحدة.

ويرى هؤلاء أيضًا أن دورات الاقتصاد في أمريكا وأوروبا ليست مرتبطة بشكل كبير، ودَلَّلوا بأن الانكماش الذي أصاب الاقتصاد الأمريكي عام ٢٠٠١م لم تكن له مضاعفات قوية على المستوى العالمي، بما في ذلك أوروبا. كذلك وجود ثنائية في النظام النقدي العالمي من خلال منافسة اليورو للدولار كَمُكَوِّن في الاحتياطيات الدولية والمعاملات التجارية، وفى تقويم الدَّيْن العالمي. أيضًا عدم تأثر نمو الاقتصاد العالمي عام ٢٠٠٧م، رغم تداعيات مشكلة قروض الرهن العقاري الأمريكية؛ بسبب معدلات النمو العالية في الصين ودول آسيا مثل الهند، مما يعني مراكز قوى اقتصادية دولية جديدة.

عجز مزمن بالميزان التجاري السلعي:

- ويعد العجز بالميزان التجاري السلعي الأمريكي أحد المشاكل الرئيسة بالاقتصاد، خاصة مع الامتداد الزمني له عبر سنوات طويلة، والذي جاء نتيجة لمعدلات الاستهلاك العالية التي تتطلب استيراد كميات ضخمة، سواء من المواد الخام أو السلع الاستهلاكية. وبعد أن كان الميزان التجاري السلعي الأمريكي يحقق فائضًا خلال الستينيات من القرن الماضي، فقد انقلب الوضع منذ عام ١٩٧١م، وتحول الميزان لتحقيق عجز مزمن.

وكان النمو الدائم لقيمة الواردات هو السبب الرئيس لاستمرار العجز بالميزان التجاري السلعي. وهو العجز الأكبر دوليًا، والذي بلغ ٨٨٣ مليار دولار في عام ٢٠٠٦م. ولقد دفع تزايد معدلات العجز التجاري السلعي إلى اتباع سياسة الدولار الضعيف تجاه العملات الأخرى، خاصة اليورو والجنيه الإسترليني والين الياباني، والدولار الكندي والدولار الأسترالي. الأمر الذي نجح جزئيًا في زيادة قيمة

الصادرات الأمريكية خلال عام ٢٠٠٧م، وتقلص قيمة العجز التجاري السلعي نسبيًا خلال عام بنسبة ٧,٤٪ عن العام المالي السابق -حيث ينتهي العام المالي الأمريكي في سبتمبر- وكانت قيمة العجز التجاري قد بلغت ٦٥,٥ مليار دولار خلال سبتمبر ٢٠٠٧م، وهو أقل رقم شهري للعجز منذ مايو ٢٠٠٥م.

ومن الوسائل التي لجأت إليها الولايات المتحدة لزيادة صادراتها عقد اتفاقات تجارة حرة مع عدد من الدول؛ حيث تربطها اتفاقات مع البحرين والسلفادور وهندوراس، وجواتيمالا ونيكارجوا، وسلطنة عمان وإسرائيل، والمكسيك وشيلي والأردن والمغرب.

- أما الواردات السلعية الأمريكية فقد احتلت المركز الأول على المستوى الدولي لسنوات بلا منافس، بنصيب ١,٩٢٠ تريليون دولار عام ٢٠٠٦م. بنسبة ١٥,٥٪ من الإجمالي العالمي البالغ ١٢,٣٨٠ تريليون دولار.

وفي محاولة لتحسين الميزان التجاري مع الصين تقدمت الولايات المتحدة إلى منظمة التجارة العالمية لدفع الصين لفرض قانون لحماية الملكية الفكرية لحماية برامج الكمبيوتر الأمريكية، ولفتح أسواقها أمام صناعة الموسيقى والسينما الأمريكية، واتهمتها بدعم عدد من الصناعات، وتم فرض عقوبات على صادرات الصين من الورق لأمريكا.

- ويُعَدّ العطش البترولي الأمريكي سببًا مهمًا في ارتفاع حجم الواردات الأمريكية؛ نظرًا لاستيرادها حوالي ٦٠٪ من استهلاكها البترولي. حيث تعد الولايات المتحدة المستهلك الأول للمنتجات البترولية المكررة عالميًا. بنصيب ٢٠,٣٨٠ مليون برميل يوميًا خلال عام ٢٠٠٦م. وهو ما يمثل نسبة ٢٥,٦٪ من حجم الاستهلاك الدولي من المنتجات المكررة البالغ ٧٨,٣ مليون برميل يوميًا.

فائض دائم بالتجارة الخدمية:

- وبعكس العجز المزمن بالميزان التجاري السلعي فإن هناك فائضًا دائمًا بالميزان التجاري الخدمي الأمريكي منذ حوالي ثلاثين عامًا.
- وفى التجارة الدولية الخدمية احتلت الولايات المتحدة المركز الأول عالميًّا، سواء من حيث قيمة الصادرات الخدمية، أو الواردات الخدمية. حيث بلغت قيمة التجارة الخدمية الأمريكية ٦٩٤ مليار دولار عام ٢٠٠٦م، بنسبة ١٣٪ من إجمالي التجارة الخدمية الدولية البالغة ٥,٣٣٠ تريليون دولار. وبلغت قيمة الصادرات الخدمية الأمريكية ٣٨٧ مليار دولار بنسبة ١٤,٣٪ من الإجمالي العالمي البالغ ٢,٧١٠ تريليون دولار. كما بلغت قيمة الواردات الخدمية الأمريكية ٣٠٧ مليار دولار بنسبة ١١,٧٪ من الإجمالي العالمي البالغ ٢,٦٢٠ تريليون دولار. وهكذا حقق الميزان الخدمي الأمريكي فائضًا بلغ ٨٠ مليار دولار.

وتعد السياحة مكونًا رئيسًا بالتجارة الخدمية الأمريكية؛ حيث احتلت أمريكا المركز الأول عالميًّا في الإيرادات السياحية عام ٢٠٠٦م، وهو نفس مركزها خلال العام السابق. وبلغت قيمة الإيرادات ٨٥,٧ مليار دولار، بفارق كبير عن أسبانيا التي احتلت المركز الثاني، والتي بلغت إيراداتها السياحية ٥١,١ مليار دولار عام ٢٠٠٦م.

- ورغم الفائض الدائم للميزان التجاري الخدمي فإنه كان دائمًا أقل حجمًا من قيمة العجز الدائم بالميزان التجاري السلعي. ولذلك ظل ميزان السلع والخدمات الأمريكي يعاني من العجز المزمن.

عجز دائم بميزان المعاملات الجارية:

- مورد آخر حقق فائضًا مستمرًا لميزان المدفوعات الأمريكي تمثل في حصيلة الدخل الناجمة عن عوائد الودائع الأمريكية خارج الولايات المتحدة. حيث ظلت حصيلة الدخل المحصلة تنافس حصيلة الخدمات خلال معظم السنوات، وتفوقت عليها غالبًا. وبلغت حصيلة الدخل ٦٢٢ مليار دولار عام ٢٠٠٦م، وهو ما يمثل أكبر رقم تحقق خلال السنوات الاثنتي عشرة.
- ونظرًا للطبيعة السكانية والعمالية للمجتمع الأمريكي كمجتمع للوافدين من بلدان عديدة؛ فإن تحويلات هؤلاء العاملين الأجانب إلى أسرهم

في بلدانهم الأصلية قد تسببت في عجز دائم لميزان التحويلات الأمريكي؛ حيث تزيد التحويلات المدفوعة دائمًا عن التحويلات المحصلة الواردة إلى الولايات المتحدة من قبل الأمريكيين العاملين خارج الولايات المتحدة.

وكانت التحويلات المحصلة قد بلغت ١٩،٨ مليار دولار عام ٢٠٠٦م. وتكاد التحويلات المدفوعة تمثل نحو خمسة أضعاف التحويلات المحصلة لتصل التحويلات الخارجة إلى ١٠٣،٩ مليار دولار عام ٢٠٠٦م. وقد زاد عجز ميزان التحويلات الأمريكي من ٣٠،١ مليار دولار عام ١٩٩٥م إلى ٨٤،١ مليار دولار عام ٢٠٠٦م.

- وتدخل المساعدات الأمريكية سواء الرسمية، أو من قِبل المؤسسات الأمريكية الخاصة ضمن التحويلات الخارجية. والتي تقلصت إلى ٢٠،٣ مليار دولار عام ٢٠٠٧م. إلا أنها كانت أكثر مما كانت عليه عام ٢٠٠٦م بنسبة ١٢٪. وكانت أبرز الدول التي اتجهت إليها المعونات الأمريكية الرسمية عام ٢٠٠٧م إسرائيل التي احتلت المركز الأول بنصيب ٢،٤ مليار دولار، تليها مصر ١،٧٢١ مليار دولار؛ موزعة ما بين ١،٣ مليار دولار معونة عسكرية، و٤٠٠ مليون دولار معونة اقتصادية. وفي المركز الثالث باكستان بنحو ٧٨٥ مليون دولار، والسودان ٦٧٣ مليون دولار، وإندونيسيا ١٥٨ مليون دولار، وكوسوفو ١٥١ مليون دولار.
- وإذا كان ميزان المعاملات الجارية لأي اقتصاد يتضمن داخله محصلة موازين: التجارة السلعية، والتجارة الخدمية، والدخل، والتحويلات. فإن ميزان المعاملات الجارية الأمريكي قد شهد عجزًا دائمًا خلال الفترة من ١٩٩٥م وحتى ٢٠٠٦م، وبلغ العجز بميزان المعاملات الجارية ٨٥٦،٧ مليار دولار عام ٢٠٠٦م.

مركز متقدم بالاستثمارات الدولية:

- خلال السنوات الخمس الأخيرة من ٢٠٠٢م إلى ٢٠٠٦م لم يقِلّ موقع الولايات المتحدة عن المركز الثاني بالنسبة لحجم الاستثمارات الأجنبية المباشرة الواردة إلى بلدان العالم على المستوى الدولي. ففي عام ٢٠٠٢م احتلت أمريكا المركز الثاني بعد لكسمبورج. وفي عام ٢٠٠٣م احتلت المركز الثاني بعد الصين. وفي عام ٢٠٠٤م احتلت أمريكا المركز الأول إلا أنها في عام ٢٠٠٥م تراجعت للمركز الثاني بعد بريطانيا لتعاود احتلال المركز الأول مرة أخرى عام ٢٠٠٦م. حيث بلغت قيمة الاستثمارات الواردة إليها ١٧٥،٣٩٤ مليار دولار بنسبة ١٣،٤٪ من الإجمالي العالمي البالغ ١،٣٠٦ تريليون دولار.

وفيما يخص الاستثمارات الخارجية من دول العالم خلال عام ٢٠٠٦م، والبالغ مجموعها ١،٢١٦ تريليون دولار، فقد تصدرت الولايات المتحدة أيضًا القائمة دوليًا بنصيب ٢١٦،٦ مليار دولار بنسبة ١٧،٨٪ من الإجمالي العالمي. وهكذا حقق ميزان الاستثمارات الأجنبية المباشرة الأمريكي عجزًا بلغ ٤١،٢ مليار دولار عام ٢٠٠٦م.

- وكانت الاستثمارات الأجنبية غير المباشرة، أو ما يسمى باستثمارات الحافظة بالولايات المتحدة أكبر حجمًا من الاستثمارات الأجنبية المباشرة خلال الفترة من ١٩٩٥ وحتى ٢٠٠٦م.

ومع كون محصلة ميزان الاستثمارات الأجنبية المباشرة الأمريكي قد تذبذبت ما بين تحقيق فائض أو عجز، فإن ميزان الاستثمارات الأجنبية غير المباشرة قد أسفر عن تحقيق فائض دائم طوال تلك السنوات الاثنتي عشرة. ونظرًا لجاذبية البورصات الأمريكية فقد بلغ الفائض ٩٣٩،٦ مليار دولار عام ٢٠٠٦م.

- وعلى الجانب الآخر فإن الاستثمارات الأمريكية في البورصات الدولية خارج أمريكا كانت كبيرة أيضًا، لكنها دائمًا أقل من استثمارات الأجانب في البورصات الأمريكية. حيث بلغت الاستثمارات غير المباشرة ٢٧٧،٧ مليار دولار عام ٢٠٠٦م. وبذلك حقق ميزان الاستثمارات الأجنبية غير المباشرة الأمريكي فائضًا مستمرًا متذبذب القيمة بلغ ٦٦١،٩ مليار دولار عام ٢٠٠٦م.

عجز بالموازنة حتى ٢٠١٢م:

- شهدت الموازنة الأمريكية خلال السنوات الثلاث

عشرة الأخيرة ما بين ١٩٩٤ وحتى ٢٠٠٦م تحقيق عجز مستمر بالموازنة، فيما عدا أربع سنوات متصلة في الفترة من ١٩٩٨ وحتى ٢٠٠١م. ومنذ عام ٢٠٠٢م عاد العجز بالموازنة مرة أخرى نتيجة سياسة الرئيس بوش الرامية لخفض الضرائب ليصل العجز إلى ٢٠٩,٣ مليار دولار عام ٢٠٠٦م.

ورغم تصاعد حجم العجز بالموازنة الأمريكية خلال السنوات الأخيرة؛ إلا أن نسبة العجز إلى الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي ظلت في حدود مقبولة خلال معظم سنوات العجز؛ لتصل إلى ١,٥٨٪ عام ٢٠٠٦م.

ولسداد العجز بالموازنة اتجهت وزارة الخزانة الأمريكية لإصدار السندات الحكومية التي بلغت أرصدتها ٤,٨٦٢ تريليون دولار بنهاية عام ٢٠٠٦م. وكانت الولايات المتحدة قد لجأت إلى رفع سعر الفائدة على الدولار ١٧ مرة منذ منتصف ٢٠٠٤م، وحتى منتصف ٢٠٠٦م لتصل إلى ٥,٢٥٪ في يونيو من عام ٢٠٠٦م؛ لتشجيع قدوم الودائع الأجنبية إلى السوق الأمريكية لمعالجة فجوة الادخار الموجودة.

ففي عام ٢٠٠٦م بلغت نسبة الادخار للناتج المحلي الإجمالي الأمريكي ١٣,٧٪ بينما كانت نسبة الاستثمارات للناتج ٢٠٪، كما ساعد رفع الفائدة في جذب الاستثمارات في السندات الأمريكية، والتي بلغ مجملها خلال العام الماضي ٤,٨٦٢ تريليون دولار، ساهم غير المقيمين منها بنحو ٢,١٣٥ تريلون دولار.

- وفي أواخر عام ٢٠٠٧م بلغ الدَّيْن الداخلي الأمريكي ٩,١٣ تريليون دولار. وهو الدين الذي يزداد بحوالي ١,٤ مليار دولار يوميًّا، أي بحوالي مليون دولار كل دقيقة. مما يجعل نصيب كل فرد أمريكي ٣٠ ألف دولار من الدَّيْن الداخلي. ولقد ارتفعت نسبة الدين الداخلي الأمريكي إلى الناتج المحلي الأمريكي إلى حوالي ٦٥٪ عام ٢٠٠٧م.
- وترى مصادر حكومية أمريكية أن إنفاق الحرب على الإرهاب في أفغانستان والعراق منذ هجمات سبتمبر ٢٠٠١م، وحتى آخر أبريل ٢٠٠٧م بلغت ٦٠٩ مليار دولار، وبإضافة الميزانية الإضافية التي طلبها الرئيس بوش يصل الإجمالي إلى ٧٥٤ مليار دولار. وأن الإنفاق الدفاعي الأمريكي يصل فقط إلى نسبة ٤٪ من الناتج المحلي الأمريكي، وأن الشعب الأمريكي لا يشعر بالحرب من جانبها الاقتصادي؛ حيث إنها لم تسبب له معاناة أو تؤثر على مستوى معيشته.
- وكان سعر الخصم بالولايات المتحدة قد بلغت نسبته ٦٪ عام ٢٠٠٠م، ثم تراجع المعدل بشكل حاد عام ٢٠٠١م إلى ١,٣٣٪ في محاولة للخروج من حالة الركود بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ لتنخفض النسبة إلى ٠,٧٥٪ عام ٢٠٠٢م. ولقد أحدث ذلك الانخفاض الملموس آثاره على الاقتصاد الأمريكي، وكان من ذلك تراجع الاستثمارات الأجنبية.

ثم بدأ الرفع التدريجي للفائدة مرة أخرى من قبل بنك الاحتياط الأمريكي إلى ٢٪ بنهاية عام ٢٠٠٣م ليستمر الارتفاع إلى ٦,٢٥٪ عام ٢٠٠٦م. وفي أغسطس ٢٠٠٧م خفَّض مجلس الاحتياط الأمريكي سعر الخصم، وهو الخاص بقروض بنك الاحتياط للبنوك التجارية، نصف درجة مئوية من ٦,٢٥٪ إلى ٥,٧٥٪ لتهدئة أسواق المال المضطربة. وكان العائد على سندات الخزانة الأمريكية طويلة الأجل قد بلغ ٤,٧٩٪ بنهاية ٢٠٠٦م.

إلا أن رفع الفائدة على الدولار يؤدي إلى رفع تكلفة الاقتراض مما يبطئ الإنفاق الاستهلاكي وإنفاق الشركات، ويضر بفرص انتعاش سوق العقارات، وبالتالي يقلص النمو الاقتصادي. ومن هنا كان الاتجاه مرة أخرى إلى خفض الفائدة على الدولار في سبتمبر ٢٠٠٧م لإبعاد شبح دخول الاقتصاد في حالة الركود.

المسيرة التاريخية للاعتماد على الدولار:

أما عن كيفية إقناع الولايات المتحدة دول العالم بتمويل عجزها الدائم، فقد تم ذلك عن طريق النظام النقدي والمالي السائد. فمع نهاية الحرب العالمية

الثانية، وقيام نظام النقد العالمي الجديد. والأخذ بنظام أسعار الصرف الثابتة بين العملات والذهب. الأمر الذي تحول في الناحية العملية إلى نظام الصرف بالدولار؛ حيث كان الدولار قابلاً للتحويل إلى ذهب بسعر ثابت ٣٥ دولارًا للأوقية من الذهب.

وأدت ظروف الحرب وتحطيم القدرات الإنتاجية لأوروبا واليابان إلى زيادة الطلب على السلع الأمريكية، وبالتالي على الدولار ليصبح العملة الوحيدة المقبولة للدفع دوليًا. فحرصت الدول على تكوين احتياطي من الدولار لمواجهة احتياجات معاملاتها الدولية.

- وهكذا تحول الاقتصاد الأمريكي إلى ما يشبه البنك المركزي للعالم من خلال إصداره الدولار الذي تحتفظ به الدول لأغراض معاملاتها الدولية. ليظل الدولار في التداول دون أن يعود للاقتصاد الأمريكي. وساعد نشاط سوق المال الأمريكي في جعل السوق الأمريكية كملاذ للفوائض من أنحاء العالم.

ومع زيادة الاستثمارات الأجنبية في الولايات المتحدة؛ فإن هؤلاء المستثمرين الأجانب قد أصبحوا أصحاب مصلحة في حماية قيمة الدولار. أي أن ممولي العجز الأمريكي قد تحولوا إلى أصحاب مصلحة في حماية الدولار.

وهكذا أصبح الدولار يمثل نحو ثلثي الاحتياطيات الدولية و٨٠٪ من مبادلات سعر الصرف، كما أن نصف الصادرات العالمية يتم دفع قيمتها بالدولار. ومن هنا فإن اعتماد الاقتصاد الأمريكي على مكانة الدولار العالمية قد أصبح يحقق مكاسب من الفرق بين تكلفة طباعة العملة وبين قيمتها الاسمية المسجلة عليها.

ولعل من أهم أسباب ترك الإدارة الأمريكية سعر صرف الدولار ينخفض أمام العملات الرئيسية الأخرى، أو ما يسمى بالدولار الضعيف، هو محاولة تشجيع الصادرات الأمريكية للنفاذ إلى الأسواق العالمية؛ نتيجة رخص سعر المنتجات الأمريكية. وزيادة أعباء الواردات الداخلة إلى السوق الأمريكي، وبالتالي تقليل العجز التجاري المتزايد خاصة مع دول آسيا: اليابان والصين وكوريا الجنوبية.

آثار انخفاض الدولار دوليًا:

وإذا كان انخفاض الدولار يؤدي لزيادة الصادرات الأمريكية، ويقلل القيمة الفعلية للديون الخارجية الأمريكية. فإن انخفاض الدولار قد يؤدي في نفس الوقت إلى هروب رءوس الأموال القادمة إلى أمريكا. ويساعد على تسرب رءوس الأموال للخارج وتراجع أسعار السندات والأسهم. كما أن ارتفاع أسعار المنتجات المستوردة قد يؤدي إلى التضخم.

وتسببت مشكلة تعثر المقترضين الأمريكيين عن سداد قروض الرهن العقاري عالية المخاطر في توقع حدوث كساد بالاقتصاد، خاصة مع حدوث اضطرابات بالأسواق المالية الأمريكية. مما دعا بنك الاحتياط الفيدرالي الأمريكي لتوجيه رسالة لتهدئة الأسواق وطمأنتها من خلال خفض الفائدة على الأموال لمدة ليلة بنحو نصف درجة مئوية في الثامن عشر من سبتمبر ٢٠٠٧م. إلى جانب خفض سعر الخصم على القروض التي يمنحها مجلس الاحتياط الفيدرالي على القروض المباشرة للبنوك بنصف درجة مئوية إلى ٥,٢٥٪ وهو ما يعد ثاني خفض لهذا المعدل خلال شهر.

وذكرت بيانات صندوق النقد الدولي أن أسعار الصرف الحقيقية لدول الخليج قد انخفضت بنسبة ١٢,٥٪ ما بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٦م؛ بسبب الارتباط بالدولار مع ارتفاع معدل التضخم. والمعروف أن دول الخليج الست تثبت أسعار صرف عملاتها مع الدولار فيما عدا الكويت التي تخلت عن ذلك في مايو ٢٠٠٧م.

وكان البنك الاستثماري ميريل لينش قد لاحظ قيام العديد من المستثمرين الخليجيين من مؤسسات وأفراد بزيادة معدلات تحويل جزء من محافظهم الاستثمارية المقوَّمة بالدولار الأمريكي إلى عملات أخرى خاصة اليورو والجنيه الإسترليني. إلى جانب اتجاه المزيد من ثروات منطقة الشرق الأوسط إلى

الاستثمار في آسيا بداية من العقارات والأسهم وصفقات التملك.

وقدَّر مصرفيون خسائر الأموال الخليجية بالسوق الأمريكية؛ نتيجة هبوط الدولار حتى سبتمبر ٢٠٠٧م، بحوالي ٩٧ مليار دولار. وتزداد تلك الأرقام بالأخذ في الاعتبار هبوط أسعار الأسهم وأصول الشركات الأمريكية؛ حيث تقدر أموال الخليجيين بالخارج بأكثر من ١,٥ تريليون دولار نصفها بالأسواق الأمريكية.

ودفع انخفاض الدولار العديد من الشركات الأوروبية الكبرى مثل بي إم دبليو وفولكسفاجن وجلاكسو سميث كلاين للأدوية إلى اتخاذ أساليب للحماية من تقلبات أسعار الصرف بإنشاء مصانع إنتاجية حول العالم. حيث ذكرت شركة إيرباص الأوروبية أنها تخسر مليار يورو في كل مرة يتراجع فيها الدولار أمام اليورو عشر سنتات.

ولأن انخفاض الدولار يؤثر على الدول التي لديها احتياطيات ضخمة دولارية فقد كان رد فعل عدد من البلدان إزاء انخفاض قيمة الدولار تقليلَ نسبة وجوده في احتياطياتها؛ حتى إن حصة العملة الأمريكية من مجمل الاحتياطيات الدولية قد هبطت إلى أدنى مستوياتها خلال العشر سنوات الأخيرة، لتصل إلى ٦٤,٢٪ من إجمالي الاحتياطيات بالربع الأول من عام ٢٠٠٧م مقابل ٦٤,٦٪ بالربع الأول من عام ٢٠٠٦م.

وعلى الجانب الآخر ارتفعت حصة اليورو من تلك الاحتياطيات الدولية إلى ٢٦,١٪ مقابل ٢٥,٩٪ إلى جانب نصيب قليل لكلٍّ من الجنيه الإسترليني والين الياباني. ولقد أعلن البنك المركزي الروسي في يونيو من عام ٢٠٠٦م أنه قلَّص احتياطياته من العملات الأجنبية بالدولار إلى ٥٠٪ بعد أن كانت نسبته ٧٥٪ من الاحتياطي الروسي.

- وفيما يخص أثر انخفاض الدولار على قطاع النفط، فقد أشار التقرير الشهري لمنظمة الأوبك لشهر يوليو ٢٠٠٧م -وهي المنظمة التي تسيطر على ٤٠٪ من إنتاج النفط العالمي- إلى أنه بالرغم من تسجيل أسعار النفط أسعارًا قياسية في يونيو من عام ٢٠٠٧م إلا أن الدراسات التي أجرتها الأوبك قد أوضحت أنه عند احتساب معدلات التضخم والتغير في أسعار الصرف العالمي؛ فإن أسعار النفط الحقيقية قد انخفضت بمقارنتها بأسعار العام الماضي.
- والمعروف أن سوق الذهب تستفيد من انخفاض الدولار بارتفاع أسعار الذهب في محاولة من المتعاملين للحفاظ على القيمة الحقيقية للذهب. وكان عام ٢٠٠٦م قد شهد زيادة مشتريات من الحكومات غير الموقعة على اتفاقية الذهب كجزء من عمليات التنويع الهادفة للابتعاد عن الدولار في احتياطياتها.

أزمة القروض العقارية الأمريكية:

أعلن الرئيس جورج بوش برنامجًا بعنوان «مجتمع التملك» عام ٢٠٠٢م عندما أعلن تخفيضًا كبيرًا في الضرائب قائلاً: إن النظام الرأسمالي قادر على توفير منزل محترم لكل مواطن أمريكي. ولكن حدث أن زاد العرض من المنازل عن الطلب عليها، كما ارتفعت ديون البائعين الذين اقترضوا مليارات الدولارات من البنوك لاستثمارها. وزادت ديون المشترين؛ لأن متوسط الدخل لم يرتفع بما يواكب الأقساط التي ترتفع قيمتها مع الوقت.

وكما عجز المشترون عن سداد أقساط المنازل فقد عجز البائعون عن سداد أقساط البنوك، ومن هنا فقد ظهرت أزمة العقار الأمريكي في مطلع صيف ٢٠٠٧م. وإذا كانت الهزة الأولى قد ظهرت في مارس ٢٠٠٧م فقد تبعتها ارتدادة أقوى في منتصف أغسطس من نفس العام زلزلت الأسواق في مراكز كثيرة من العالم، وحدث انخفاض في غالبية البورصات العالمية؛ ولأن مشتقات الدَّيْن المعقدة قد صدرت في سوق العقارات الخطرة في أمريكا، وتم بيعها في أنحاء العالم فقد انتشرت آثار المشكلة في بلدان عديدة. من خلال تأثر عديد من صناديق الاستثمار والبنوك، كما أفلست شركات عقارية عديدة. وأعلنت شركة كانتري وايد فاينانشال وهي أكبر شركة للإقراض العقاري في الولايات المتحدة عن

تخفيض عدد موظفيها بنحو ١٢ ألف وظيفة.

وأثَّر إفلاس شركات العقار على البنوك وصناديق التحوط، والمؤسسات المالية التي تقدم القروض بشكل سلبي. وكان بنك بي إن بي باريبا الفرنسي قد أعلن عن توقف العمل بثلاثة من صناديقه. ولقد ارتفعت نسبة القروض السيئة بالبنوك واضطرت إلى زيادة الاحتياطيات، وانسحبت بنوك أمريكية كبيرة من سوق قروض شراء المنازل. ومع نقص الائتمان والسيولة بالأسواق تدخلت البنوك المركزية في العديد من الأسواق الأمريكية والأوروبية واليابانية والآسيوية بضخ سيولة بالأسواق لتهدئتها حتى تتجاوز الأزمة.

وأعلن أكثر من ٢٠ بنكًا تعمل في مجال قروض شراء المنازل إفلاسها، وأفلست مؤسسات دائنة مثل أميركان هوم مورجيدج. وأعلنت عدة بنوك عن شطب مليارات من القروض مما أثَّر على أسعار أسهمها بالسوق وعلى ربحيتها. فمؤسسة ميريل لينش أعلنت أنها شطبت ٨,٤ مليار دولار كديون معدومة خلال الربع الثالث من عام ٢٠٠٧م.. وحدثت خسائر مماثلة لدى مجموعة سيتي بنك جروب الأمريكية، والتي توقعت خسارة ١١ مليار دولار.

كذلك بنك يو بي إس السويسري قد شطب ٣,٤ مليار دولار من إيراداته لتغطية خسائره، وذكر أنه سيستغني عن ١٥٠٠ عامل به. وأيضًا بنك كريدي سويس السويسري، وتوقع بنك أوف أمريكا شطب ٣ مليارات دولار خلال الربع الأخير من عام ٢٠٠٧م، وتوقعت مؤسسة مورجان استانلي شطب ٣,٧ مليار دولار، وتوقع واتشوفيا شطب ١,١ مليار دولار خلال الربع الأخير من عام ٢٠٠٧م.

وأعلنت مجموعة إتش إس بي سي البريطانية، والتي تعد أحد أكبر المصارف العالمية عن تراجع أداء نشاطها بالولايات المتحدة خلال الربع الثالث من العام ٢٠٠٧م. وقررت الدولة الألمانية بيع حصتها البالغة ٣٨٪ في المصرف الألماني أي كي بي المتعثر بسبب أزمة سوق الرهن العقاري الأمريكي. وكان بنك نورذرن البريطاني خامس مؤسسة مصرفية بريطانية في قطاع التسليف المتعلق بالرهونات العقارية قد أوشك على الإفلاس، لولا تدخل البنك المركزي البريطاني لمساندته.

ولقد أدت مشاكل سوق المساكن إلى انخفاض معدلات بناء المساكن الجديدة؛ ففي شهر يوليو ٢٠٠٧م انخفضت معدلات بناء المنازل لأدنى مستوًى لها خلال عشر سنوات. مما أثَّر على قطاعات اقتصادية أخرى يرتبط نشاطها بقطاع المساكن حتى أصبح الكثيرون يخشون دخول الاقتصاد في حالة من الكساد.

مستقبل الهيمنة الاقتصادية الأمريكية:

- ظل الاقتصاد الأمريكي يحتل المرتبة الأولى عالميًا من حيث الناتج المحلي الإجمالي، وبنصيب مميز بينه وبين اليابان التي احتلت المركز الثاني وبمسافة كبيرة. حيث بلغ الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي عام ٢٠٠٦م نحو ١٣,٢٤٧ تريليون دولار بنسبة ٢٧,٥٪ من الإجمالي العالمي البالغ ٤٨,١٤٤ تريليون دولار.

إلا أنه رغم تفوق نصيب الولايات المتحدة بهذه النسبة دوليًا؛ فإن هذا النصيب النسبي أخذ يتراجع خلال السنوات الأخيرة، بسبب نِسَب النمو الأعلى في اقتصادات أخرى منافسة، أبرزها الصين والهند وروسيا، بالمقارنة بنسبة نمو الاقتصاد الأمريكي.

حيث تراجعت نسبة نمو الناتج المحلي الأمريكي من ٤,٤٪ عام ١٩٩٩م إلى ٣,٣٪ عام ٢٠٠٦م. كما تشير توقعات صندوق النقد الدولي إلى تراجع نسبة النمو إلى ٢,٥٪ عام ٢٠٠٧م بسبب مشكلة قروض الرهن العقاري.

في حين أن نسبة النمو للناتج المحلي الإجمالي الصيني قد ظلت تزيد عن نسبة العشرة بالمائة لمدة أربع سنوات متصلة مابين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦م. حيث زادت نسبة النمو من ٨,٣٪ عام ٢٠٠١م إلى ٩,١٪ بالعام التالي، وإلى ١٠٪ عام ٢٠٠٣م إلى ١٠,١٪ بالعام التالي، واستمرت في الارتفاع إلى ١٠,٤٪ عام ٢٠٠٥م ثم نسبة ١١,١١٪ عام ٢٠٠٦م. ويتوقع بلوغها ١١,٥٪ عام ٢٠٠٧م.

وفى الهند تخطت بلغت نسبة النمو ٦,٩٪ عام ٢٠٠٣م، وزادت إلى ٧,٩ عام ٢٠٠٤م، ثم تخطت النسبة إلى ٩٪ عام ٢٠٠٥م، وارتفعت إلى ٩,٧٪ عام ٢٠٠٦م. كما تخطت نسبة النمو في روسيا نسبة السبعة بالمائة

معدلات النمو الحقيقي للناتج المحلي الإجمالي لبعض الدول ٪

الدولة / السنة	١٩٩٩	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٥	٢٠٠٦
أمريكا	٤,٤	٧,٣	٠,٨	١,٦	٢,٥	٣,٦	٣,١	٢,٩
الصين	٧,٦	٨,٤	٨,٣	٩,١	١٠	١٠,١	١٠,٤	١١,١
الهند	٦,٩	٥,٤	٣,٩	٤,٥	٦,٩	٧,٩	٩	٩,٧
روسيا	٦,٤	١٠	٥,١	٤,٧	٧,٣	٧,٢	٦,٤	٦,٧
أسبانيا	٤,٧	٥	٣,٦	٢,٧	٣,١	٣,٣	٣,٦	٣,٩

عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤م، وكذلك نسبة الستة بالمائة عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦م. وكانت نسب النمو للاقتصاد البريطاني والكندي أفضل من نسب النمو للاقتصاد الأمريكي خلال السنوات الثمانية ما بين عامي ١٩٩٩ وحتى ٢٠٠٦م.

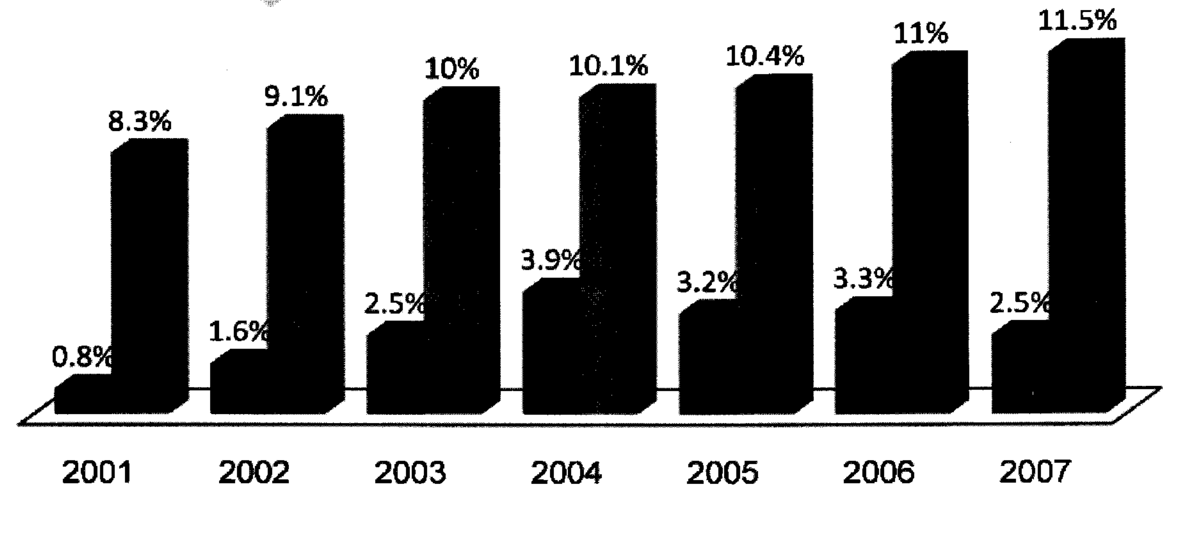
- ومن هنا فقد تراجع النصيب النسبي للاقتصاد الأمريكي من الاقتصاد الدولي من ٣٢,٩٪ عام ٢٠٠١م إلى ٣١,٩٪ في عام ٢٠٠٢م، واستمر هبوط النصيب من الاقتصاد الدولي بالعام التالي إلى ٢٩,٧٪. ثم إلى نسبة ٢٨,٣٪ عام ٢٠٠٤م، ثم استمر النصيب في التراجع إلى ٢٧,٤٪ في عام ٢٠٠٥م. ورغم التحسن الطفيف للنصيب في عام ٢٠٠٦م إلى ٢٧,٥٪ من الاقتصاد الدولي، إلا أن الرقم مازال أقل كثيرًا مما كان عليه قبل عدة سنوات. لتفقد الولايات المتحدة نسبة ٤,٦٪ من نصيبها من الاقتصاد الدولي خلال ست سنوات.
- وفيما يخص التجارة السلعية الدولية فقد تراجع نصيب الولايات المتحدة النسبي من التجارة الدولية السلعية من نسبة ١٣,٤٪ عام ٢٠٠٣م إلى ١٢,٧٪ عام ٢٠٠٤م، ثم استمر التراجع للنصيب النسبي إلى ١٢,٥٪ عام ٢٠٠٥م. ثم تواصل انخفاض النصيب النسبي من التجارة السلعية الدولية إلى ١٢,١١٪ عام ٢٠٠٦م. وكان النصيب النسبي للواردات الأمريكية من إجمالي الواردات السلعية الدولية قد تراجع من نسبة ١٧,١٪ عام ٢٠٠٣م إلى ١٦,٣٤٪ عام ٢٠٠٤م. ثم استمر النصيب النسبي في الانخفاض إلى ١٦,٢٧٪ عام ٢٠٠٥م، ثم واصل انخفاضه إلى نسبة ١٥,٥٪ في عام ٢٠٠٦م.
- وكذلك تراجع نصيب الولايات المتحدة من الصادرات السلعية الدولية من نسبة ١٠٪ عام ٢٠٠٤م إلى ٨,٧٪ عام ٢٠٠٥م، ثم انخفض نصيب أمريكا من الصادرات السلعية إلى ٨,٦٪ من الصادرات السلعية الدولية عام ٢٠٠٦م.
- وفيما يخص الموازنة العامة الأمريكية، فقد أسفر العام المالي الأمريكي المنتهي في سبتمبر ٢٠٠٧م ،عن تراجع قيمة العجز إلى ١٦١ مليار دولار، مقابل عجز بلغ ٢٤٨ مليار دولار بالعام المالي السابق. وجاء ذلك نتيجة إيرادات الضرائب بسبب أرباح الشركات والمكاسب الرأسمالية. وحقق شهر سبتمبر ٢٠٠٧م فائضًا بلغ ١١٣ مليار دولار بزيادة ٥٧ مليار دولار عن أغسطس ٢٠٠٧م.

الخلاصة:

تتوقع منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية بلوغ نسبة النمو بالولايات المتحدة عام ٢٠٠٨م نحو ٢٪ و٢,٢٪ عام ٢٠٠٩م، بينما كان توقعها بلوغ نسبة النمو بالصين ١٠,٧٪ عام ٢٠٠٨م، وبلوغ نسبة نمو روسيا ٦,٢٪ بنفس العام.

كذلك تراجع نصيب الولايات المتحدة من التجارة الدولية السلعية من ١٣,٤٪ عام ٢٠٠٣م إلى ١٢,٧٪ بالعام التالي، ثم إلى ١٢,٥٪ عام ٢٠٠٥م، ثم إلى

نسبة نمو الناتج المحلي الأمريكي مقارنة بالصين



الصين ■ الولايات المتحدة الأمريكية ■

١٢,١٪ عام ٢٠٠٦م. بينما نجد ارتفاعًا للنصيب النسبي للصين بنفس السنوات من ٥,٦٪ عام ٢٠٠٣م إلى ٦,٣٪ بالعام التالي، ثم إلى ٦,٨٪ في عام ٢٠٠٥م، ثم إلى ٧,٢٪ في عام ٢٠٠٦م.

أيضًا تراجع نسبة الدولار الأمريكي ضمن مكونات عملات الاحتياطيات الدولية، خاصة بعد تراجع سعر صرفه إزاء عدد من العملات، وارتفاع نسبة اليورو ضمن مكونات تلك الاحتياطيات. مما دعا البعض للقول بظهور بعض مظاهر الشيخوخة على جسد الإمبراطورية الأمريكية، سواء بالداخل؛ حيث تحولت حسب هؤلاء من أرض الأحلام إلى أرض الخوف، وأشاروا إلى تراجع أعداد المهاجرين من الولايات المتحدة من أوروبا وكندا بشكل كبير في حين زادت نسبة المهاجرين من آسيا وأمريكا اللاتينية. وكذلك التراجع بالخارج مع تراجع نفوذها التقليدي في مناطق العالم، خاصة أمريكا اللاتينية وإفريقيا بعد دخول الصين إليها.

إلا أن الاقتصاد الأمريكي ما زال مليئًا بالعديد من العوامل التي تساند أداءه، وأبرزها معدل الإنتاجية المرتفع مقارنة بالمعدل الأوروبي. ونجاح السياسة الأمريكية في أن تجعل مصالح القوى الاقتصادية الكبرى بالعالم مرتبطة باستمرار النمو للاقتصاد الأمريكي. حتى إنه يمكن القول بأنه كي يحتفظ العمال الصينيون الفقراء بوظائفهم فإنهم يستمرون في إقراض الأغنياء الأمريكان كي يستطيعوا الاستمرار في شراء المنتجات الصينية.

كما أن الهيمنة السياسية الأمريكية لها دور في الحفاظ على المصالح الاقتصادية الأمريكية باستمرار تسعير منظمة الأوبك للبترول بالدولار، واستمرار ارتباط سعر صرف العديد من عملات الدول بالدولار الأمريكي، رغم ما سببه تراجع سعر صرفه لها من أضرار. وهو ما يحافظ على الطلب على الدولار بالأسواق الدولية الأمر الذي يعني عمليًا اعتماد الولايات المتحدة بما تصدره من أوراق نقد، وأذون خزانة وسندات على دول العالم في تمويل عجز الموازنة الأمريكية.

وإذا كانت السياسة الأمريكية قد خسرت حليفًا قويًا مثل رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، حيث لم يسر رئيس الوزراء براون على دربه معها. فقد استطاعت كسب الرئيس الفرنسي ساركوزي لتعوض توتر علاقتها مع سلفه جاك شيراك.

ورغم انخفاض سعر صرف الدولار تجاه اليورو

بحوالي ٣٠٪ خلال الأحد عشر شهرا الأولى من عام ٢٠٠٧م، وتضرر صادرات عدد من دول منطقة اليورو من جراء ذلك الانخفاض مثل فرنسا وإيطاليا. إلا أن اجتماع وزراء مالية دول اليورو خلال الربع الأخير من عام ٢٠٠٧م قد صب غضبه على الصين؛ مطالبًا إياها برفع سعر صرف عملتها المنخفضة. دون الإشارة إلى الولايات المتحدة، وما سببته من أضرار للاقتصادات الأوروبية نتيجة انخفاض سعر صرف الدولار!

وإذا كان هناك تباطؤ متوقع للاقتصاد الأمريكي خلال عام ٢٠٠٨م إلا أن التوقعات تستبعد انزلاقه إلى حالة الركود. كذلك فإن نفقات الحرب المستمرة في العراق وأفغانستان لا تمثل سوى نسبة محدودة من الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، بما يعني إمكانية استيعاب أثرها اقتصاديًا.

ورغم أزمة الائتمان وضعف سوق الإسكان الأمريكي خلال النصف الثاني من عام ٢٠٠٧م، والتي تم إقرار خطة لتخفيف أثر أزمة الرهون العقارية عالية المخاطر؛ فان عوامل عديدة بالاقتصاد الأمريكي ظلت جيدة منها انخفاض التضخم، وتدني أسعار الفائدة، وقوة سوق العمل، وارتفاع الصادرات، كما بلغت نسبة النمو للاقتصاد الأمريكي خلال الربع الثالث من عام ٢٠٠٧م نحو ٥٪، مقابل نسبة ٣,٨٪ للنمو خلال الربع الثاني من نفس العام. وارتفعت إنتاجية العامل الأمريكي خلال الربع الثالث من ٢٠٠٧م بمعدل لم يتحقق منذ أربع سنوات. حيث حقق معدل الإنتاجية في القطاعات غير الزراعية نموًا بنسبة ٦,٣٪ خلال الربع الثالث من ٢٠٠٧م.

وهكذا فإن الهيمنة الاقتصادية الأمريكية مستمرة خلال العقد الحالي، ولا يتوقع لها أن تخسر موقعها المتميز خلال العقد القادم. فمازال لديها الكثير من الأدوات والسياسات ما تستطيع به الحفاظ على مكانتها الدولية الاقتصادية.

المراجع :

١- صندوق النقد الدولي، آفاق الاقتصاد العالمي، أبريل وسبتمبر ٢٠٠٧م.

٢- صندوق النقد الدولي، الإحصاءات المالية الدولية، أعداد شهرية مختلفة عام ٢٠٠٧م.

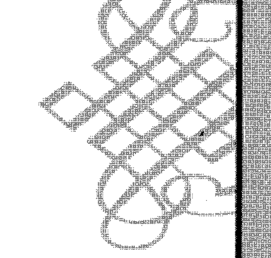
٣- صندوق النقد الدولي، الكتاب السنوي للإحصاءات المالية الدولية لعام ٢٠٠٧م.

٤- منظمة التجارة العالمية، مؤشرات التجارة الدولية عام ٢٠٠٦م.

٥- البنك الدولي، مؤشرات التنمية بالعالم ٢٠٠٧م.

٦- جريدة الحياة، أعداد مختلفة عام ٢٠٠٧م.





معلومات إضافية

الدولار الأمريكي:

عُرف الدولار الأمريكي بوصفه أقوى العملات العالمية طوال عقود عدة، فهو يمثل نحو ثلثي احتياطيات النقد الأجنبي في العالم و٨٠٪ من مبادلات سعر الصرف الأجنبي.

لكن الدولار تراجع بقوة خلال الشهور الماضية أمام العملات الدولية الرئيسية، الأمر الذي تسبب بإرباك الاقتصادات العالمية، وألحق خسائر بالعديد من الدول التي ربطت عملتها بالدولار، فضلاً عن الإخلال بالقيم الحقيقية للصادرات والواردات عبر العالم، التي يجري تقويم نحو نصفها بالعملة الأمريكية.

نشأة الدولار:

الدولار الأمريكي هو العملة الرسمية في الولايات المتحدة منذ عام ١٧٨٥ ويساوي ١٠٠ سنت.

- اتفقت البلدان التي انضمت إلى صندوق النقد الدولي عام ١٩٤٥م على إبقاء أسعار صرفها (أي قيمة عملاتها) بالدولار الأمريكي، ويطلق على هذا النظام اسم نظام بريتون وودز لأسعار الصرف، أما الولايات المتحدة فكانت تقدر قيمة الدولار بالذهب.
- ظل هذا النظام سائدًا حتى عام ١٩٧١م عندما أوقفت حكومة الولايات المتحدة إمكانية تحويل الدولار (واحتياطيات الحكومات الأخرى بالدولار) إلى ذهب. ومنذ ذلك الحين أصبح أعضاء صندوق النقد الدولي أحرارًا في اختيار أي شكل يفضلونه من أشكال ترتيبات الصرف المختلفة (فيما عدا ربط عملاتهم بالذهب).

أهمية الدولار في الاقتصاد العالمي:

- يشكل الدولار أهمية كبيرة في التجارة العالمية إذ يمثل عملة أكبر اقتصادات العالم، كما أن أكثر من ٥٠٪ من صادرات العالم يتم دفع قيمتها به بما فيها البترول.
- يصل حجم التداول بالدولار حول العالم نحو ثلاثة تريليونات، وبها ينعكس أي تذبذب واضطراب في سعر العملة الأمريكية على أسعار هذه السلع والخدمات، كما يؤثر على تقييم العملات الأخرى مقابل الدولار.
- يستولي الدولار على ثلثي احتياطيات النقد الأجنبي في العالم، وعلى ٨٠٪ من مبادلات سعر الصرف الأجنبي. وتربط العديد من الدول عملاتها بالدولار، أو بسلة عملات دول صناعية يمثل الدولار فيها وزنًا نسبيًّا كبيرًا.

تذبذب سعر الدولار:

يواجه الدولار تراجعًا في سعر صرفه أمام العملات الرئيسية -خاصة اليورو الأوروبي والين الياباني- منذ الركود الاقتصادي في الولايات المتحدة عام ٢٠٠١م، لكنه شهد تحسنًا ملحوظًا مؤقتًا في عام ٢٠٠٥م؛ بسبب استفادته من لجوء البنك المركزي الأمريكي إلى رفع أسعار الفائدة أكثر من مرة، ومن تحويلات غير مسبوقة قامت بها الشركات الأمريكية العاملة في الخارج للاستفادة من قانون جرى تطبيقه لمرة واحدة في ذلك العام، يعفي هذه التحويلات من الضرائب.

ورغم ذلك لم يستعد الدولار قيمته السابقة، لا سيما مع استمرار العجز في الحساب الجاري الأمريكي؛ بسبب استمرار حربي العراق وأفغانستان، وزيادة العجز التجاري، خاصة أمام الصين المتهمة من قِبل الولايات المتحدة بتعمد خفض عملتها اليوان، ما دفع واشنطن -برأي بعض المحللين- إلى اللجوء إلى دولار أرخص لخفض العجز، عبر زيادة صادراتها.





فك الارتباط الدولار:

دفعت الأزمات المتكررة للدولار دولاً عدة إلى الخروج من دائرة الارتباط به، ولو بشكل جزئي، فقد فضلت الكويت ربط عملتها الدينار بسلة عملات بدلاً من الدولار، في أول خطوة تقوم بها دولة خليجية بهذا الصدد. ثم تلتها ماليزيا ودول آسيوية أخرى، كما أعلنت إيران تقييم تجارتها ومبيعات نفطها باليورو بدلاً عن الدولار.

أما قطر فهي مازالت تصر على استمرار ربط عملتها بالدولار، لكن محفظة استثمارية ضخمة لها تدير نحو ٦٠ مليار دولار لم تقوِّم سوى ٤٠٪ فقط منها بالعملة الأمريكية، فيما توزع بقية المبلغ بين ٤٠٪ باليورو و٢٠٪ بعملات أخرى.

الدولار والتهديد الصيني:

يأتي التهديد الأكبر للدولار من الصين التي تحتفظ بأكبر احتياطي بالعملة الأمريكية يتجاوز تريليون دولار، وقد أشارت معلومات إلى أن بكين ربما تحول جزءًا كبيرًا من هذا الاحتياطي إلى عملات أخرى غير الدولار، مما قد يسبب زيادة ضخمة في المعروض منه، وبالتالي تخفيض أسعاره بشكل حاد، ناهيك عن فقدان الثقة به.

لقد فقد الدولار الأمريكي نحو ٩٪ من قيمته ضد اليوان الصيني خلال السنتين الماضيتين.

أسباب الهبوط الحالي:

زادت الضغوط على الدولار، وازداد هو ضعفًا عقب أزمة الائتمان الناجمة عن أزمة القروض العقارية، والخسائر الكبيرة للبنوك الأمريكية، خاصة مع لجوء البنك المركزي الأمريكي إلى خفض أسعار الفائدة؛ لإنعاش القطاع العقاري المتهاوي، فضلاً عن تزايد المخاوف من تراجع النمو الاقتصادي الأمريكي.

السنة (م)	الدولار=... (يورو)
٢٠٠١	١,١١١
٢٠٠٢	١,٠٥٢
٢٠٠٣	٠,٨٨٥
٢٠٠٤	٠,٨٠٦
٢٠٠٥	٠,٧٩١
٢٠٠٦	٠,٧٦٣
٢٠٠٧	٠,٧٢٢

وانخفض سعر صرف الدولار أمام العملة الأوروبية اليورو إلى أدنى مستوياته على الإطلاق، واقترب من حافة الدولار ونصف لليور الواحد.

وتوقع محللون أن تستمر العملة الأمريكية في الانخفاض، حتى منتصف العام ٢٠٠٨م؛ ليصل نحو ١,٧ دولار لليورو، و٢,٥ دولار للجنيه الإسترليني، قبل أن يعاود الصعود مرة أخرى.

المصدر:

.انخفاض سعر الدولار، موقع الجزيرة نت، ٢٠٠٧/١١/١٤



الباب الثالث

العالم الإسلامي

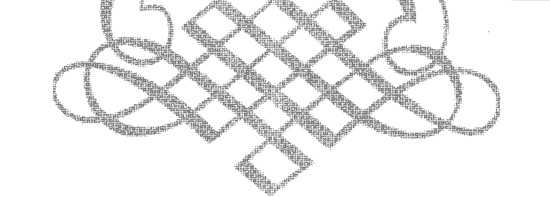
تركيا ومستقبل التدافع الإسلامي - العلماني — د. كمال حبيب

التغيرات الاجتماعية في العراق بعد الغزو الأمريكي — د. حسين الرشيد

باكستان ومآلات التحالف الأمريكي — أ. محمد عادل

الاستراتيجية الغربية لاحتواء الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء — أ. عصام زيدان





تركيا ومستقبل التدافع الإسلامي ـ العلماني

د. كمال حبيب

(متخصص في شئون تركيا والجماعات الإسلامية)

ملخص البحث

تواجه العلمانية أُفُولاً على المستوى الفكري والسياسي والأخلاقي في تركيا، كما في العالم كله، ما يجعل مستقبل التدافع الإسلامي - العلماني في تركيا محسومًا لصالح الإسلام والتيار الاجتماعي الذي يمثله، كما حدث في الانتخابات الأخيرة التي حقق فيها حزب العدالة والتنمية التركي اكتساحًا غير مسبوق.

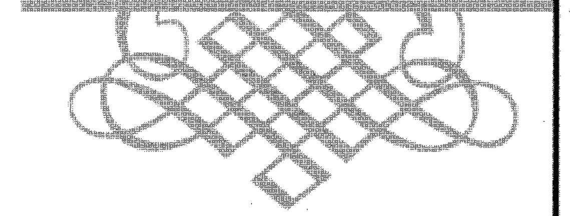
هذا التحول الكبير الذي تعيشه تركيا اليوم يعتبر جزءًا من سعي القوى الاجتماعية الإسلامية لمواجهة التحدي العلماني الأتاتوركي، الذي بدأ منذ وقت بعيد عندما أعد أتاتورك مشروع قانون لإلغاء الخلافة، وأصدر دستورًا علمانيًا جديدًا للدولة، وما تبعه من إقرار القانون المدني، واعتبار العلمانية عقيدة سياسية للدولة، إلى أن ظهرت قوى اجتماعية واقتصادية جديدة مناوئة للعلمانية.

ومع وصول الحزب الديمقراطي إلى السلطة عام ١٩٥٠م شهدت تركيا خلال حكمه «بدايات الإحياء الإسلامي» في البلاد، واستمرت هذه الصحوة في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وعاد الاتجاه الإسلامي بقوة يقوده «أربكان» في الثمانينيات فأسس حزب الرفاه، الذي نجح في كل الانتخابات التي دخلها، ثم تأسس حزب الفضيلة، لكنه أُغلق ليظهر بعده حزب «العدالة والتنمية» في بدايات القرن الحالي، ويتمكن من حكم تركيا حتى اليوم، واستطاع خلال حكمه أن يغير السياسة التركية، وأن يجدد شبابها.

وبالنظر إلى ملامح النموذج التركي وحدود تأثيره، يمكننا القول: إن هناك حالة تركية خاصة، فنموذج العدالة والتنمية ناجح في سياق الخبرة التركية، ولكنه ليس قابلاً للتعميم؛ حيث إننا أمام نموذج مختلف للعلاقة بين الدولة والدين والحركة الإسلامية.

ولأن المسألة مختلفة في العالم العربي؛ فإن حدود تأثير هذا النموذج ستكون في القضايا الحركية، أو بعض القضايا الفكرية، فنموذج العدالة والتنمية الذي يعبِّر عن الوصول للسلطة دون امتلاك برنامج واضح، يمكِّنه من تحويل المجتمع والأمة إلى الإسلام هو محل انتقاد في العالم العربي، ولا يمكن قبوله بهذه الصيغة، فحالة تركيا تظل استثناءً لا يمكن تعميمه أو تحويله إلى نموذج للتصدير.





أفكار ومقتطفات

- من منظور استراتيجي لا يشك مراقب أو باحث -أيًا كانت هويته- أن مستقبل التدافع الإسلامي - العلماني في تركيا محسوم لصالح الإسلام، والتيار الاجتماعي الذي يمثله، وأن العلمانية تواجه أُفولاً على المستوى الفكري والسياسي والأخلاقي في تركيا، كما في العالم كله.

- نتائج الانتخابات -التي لا تعرف التزوير في تركيا- تشير إلى أن قطاعًا أوسع ممن يؤمنون بالعلمانية في تركيا يتركونها، ويتجهون للتصويت لحزب العدالة والتنمية، والذي ينفي عن نفسه صفة الإسلامية؛ لكنه يؤكد الهوية الإسلامية لتركيا، والتي لا يمكن هدرها أو تقويضها، فالهوية الإسلامية للحزب هي علامة دالة لا يمكن تجاهلها أو إغفالها.

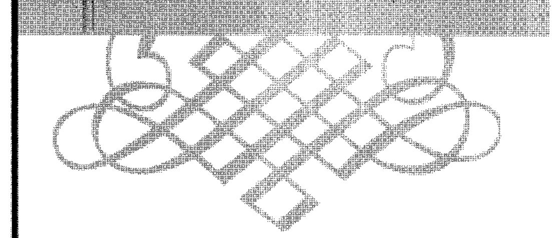
- لم تتوقف عجلة العلمانية عند حدٍّ؛ حيث تم تعديل مواد الدستور التي تشير إلى قَسَم رئيس الجمهورية ونواب الشعب (بالله)، وأصبحت أقسم بشرفي، وحذفت عبارة «تطبيق الشئون الدينية» من مهام البرلمان، وتم إلغاء المدارس الدينية والمسيحية باسم «قانون توحيد المدارس»، وبعدما كان عدد طلاب المدارس الدينية الإسلامية عام ١٩٢٣-١٩٢٤م يربو على الألفين وصل إلى الصفر عام ١٩٣١-١٩٣٢م، وأبطلت وظيفة شيخ الإسلام.

- يقول «محمد يشار» في كتابه الهام «الأحزاب السياسية في تركيا .. دور الإسلام»: «إنه من الممكن أن نتصور أنه عندما توفي «أتاتورك» عام ١٩٣٨م كانت البلد كلها قد تحولت إلى كيان علماني بحت، وأن الإسلام اختفى من أجل الصالح العام، إلا أن الوضع لم يكن كذلك؛ فعلى الرغم من كون الجزء المسيطر من الصفوة المتعلمة تحول تمامًا إلى كيان غربي، إلا أن العامة ظلت محافظة وقريبة بطبعها من الإسلام».

- بعد وفاة «أتاتورك» ومجيء «عصمت إينونو» للسلطة عبَّر عن تشدد أكثر قسوة وضراوة في تطبيق العلمانية، وعمَّق الطابع الديكتاتوري للدولة، بيد أن التحالف الاجتماعي - الاقتصادي الذي قامت عليه «الأتاتوركية» بدأ يتعرض للتفكيك، وظهرت قوى اجتماعية واقتصادية جديدة مناوئة للعلمانية، كما أن الفساد والانتهازية والنهب وتغليب المصالح الشخصية انتشر بشكل واسع.

- مع بداية التعددية الحزبية في تركيا عام ١٩٤٦م استطاع الحزب الديمقراطي بقيادة «عدنان مندريس» أن يحقق فوزًا كاسحًا على حزب الشعب الجمهوري في انتخابات عام ١٩٥٠م، وظل يحكم البلاد حتى عام ١٩٦٠م، وهذه العشر سنوات هي التي شهدت ما نطلق عليه «بدايات الإحياء الإسلامي» في تركيا.

- الانتخابات الأخيرة التي جرت في تركيا في ٢٢ يوليو ٢٠٠٧م أثبتت أن خيار الشعب التركي لا يزال مع تجربة العدالة والتنمية؛ إذ استطاع الحزب أن يحصل على ٤٧٪ من الأصوات محققًا بذلك تقدمًا عن نتائج الانتخابات الماضية (٣٤٠ نائبًا)، كما استطاع مرشحه لانتخابات الرئاسة «عبد الله جول» أن يفوز بالمنصب بعد معركة كبيرة مع التيار العلماني، الذي اضطر في النهاية أن يسلم بأن يتولى منصب رئيس تركيا شخص له جذور إسلامية وزوجته محجبة.



- لدينا تحولات كبيرة في الحركة الإسلامية، كلما اتجهت للتعايش مع مجتمعها، وازداد خيار الشعوب لها، فهناك ميل لدى هذه الحركات لتكون أكثر انتقالاً من الأطراف إلى المركز أو القلب، ليس بمعنى التعبير عن التيار الرئيسي في مجتمعها فقط، وإنما بمعنى مراجعة أفكارها ومواقفها؛ بحيث إن الكتلة الكبيرة داخل هذه الحركات تميل لأخذ مشروعها لواقع الناس وللواقع الإقليمي والدولي في الاعتبار.

- لعمق مفهوم الدولة في نفسية التركي ولعمق التأثير الصوفي في وجدانه؛ فإن الإسلاميين الأتراك لم ينظروا للدولة التركية في الفترة الكمالية باعتبارها جاهلية، كما عبر «سيد قطب» مثلاً في ظل النظام الناصري، ولكنهم اعتبروها دولتهم، ومارسوا الصراع مع العلمانية على أرضية إنقاذ الدولة والدين من وحشية الكمالية، وأظن أن العدالة والتنمية هي جزء من هذا الصراع.

- يرفض «أحمد داوود أوغلو» أحد مفكري حزب العدالة مفهوم الحزب الإسلامي؛ لأن الحزب برأيه هو قوة انقسامية وليست موحدة، أما الإسلام فهو عنصر موحد، أي قاسم مشترك، ولا يجب تقليص دور الإسلام إلى مجرد التعبير عن مجموعة سياسية أو حزب سياسي؛ لأننا سنجد مجموعات ستذهب لاحتكار الإسلام والحديث باسمه.

- حزب العدالة يتحرك على حبل مشدود، وليس لديه الثقة ولا الإحساس بشرعية كاملة تمكِّنه من توجيه مصير الدولة، ومن ثَم فهو نموذج يفتح الباب واسعًا لإثراء تجربة الإسلاميين في العالم العربي، ويُعدّ مثالاً على تغيير صورة الإسلاميين كما يصر العلمانيون المتطرفون على طرحها، وكما يصر أصوليو الغرب على طرحها أيضًا.

- تشير المعلومات إلى أن تركيا تشهد بناء ما يقرب ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ مسجد سنويًا، وفي اسطنبول وحدها بُني ما يقرب من ٢٧٠٠ مسجد، وتشير دراسة تركية إلى أن عدد المساجد في تركيا يعادل عدد المساجد مجتمعة في ٤٥ دولة مسلمة أخرى.

- فوز حزب العدالة والتنمية في الانتخابات الأخيرة بنسبة ٤٧٪ من الأصوات يشير إلى أن الخيار المرجح، والذي يتعمق ويتسع هو تجاه الإسلام، فأداء ذوي الجذور الإسلامية في الفترة الأولى لحكمهم استطاع أن يجذب ثقة الناس إليهم إلى درجة أن «التوسياد» -وهو أكبر تجمع مالي وصناعي لرجال الأعمال العلمانيين- وقف في مواجهة العسكر لصالح خيار حزب «العدالة والتنمية».

- يمكن لتركيا كقوة إقليمية مهمة في المنطقة أن تملأ الفراغ الذي تسعى أمريكا لخلقه؛ بإضعاف بعض دول المنطقة المحورية كمصر والسعودية، كما يمكنها أن توازن محاولات التمدد الإيراني في المنطقة، خاصة في الخليج والعراق.

تركيا ومستقبل التدافع الإسلامي ـ العلماني

د. كمال حبيب: متخصص في شئون تركيا والجماعات الإسلامية

من منظور استراتيجي لا يشك مراقب أو باحث -أيًّا كانت هويته- أن مستقبل التدافع الإسلامي – العلماني في تركيا محسوم لصالح الإسلام، والتيار الاجتماعي الذي يمثله، وأن العلمانية تواجه أُفُولاً على المستوى الفكري والسياسي والأخلاقي في تركيا، كما في العالم كله، وأكبر دليل على ذلك نتائج الانتخابات الأخيرة التي حقَّق فيها حزب العدالة والتنمية التركي اكتساحًا غير مسبوق؛ إذ حصل على نسبة ٤٧٪ من الأصوات (٣٤٠) مقعدًا في البرلمان، وكان الحزب قد حصل في الانتخابات السابقة التي جرت في نوفمبر ٢٠٠٢م على ٣٤٪ من الأصوات (٣٦٣)، وتراجع نصيب الحزب من المقاعد بسبب نجاح حزب الحركة القومية وتجاوزه حاجز الـ١٠٪ اللازم لدخول البرلمان، وحصوله على ١٤٪ من أصوات الناخبين؛ بسبب تأجج المشاعر القومية بين الأتراك ضد حزب العمال الكردي، أما حزب الشعب الجمهوري، والذي حصل على ٢١٪ من الأصوات، وهي نفس الأصوات التي حصل عليها في الانتخابات السابقة؛ فإن نسبة المقاعد التي يمثلها في البرلمان انخفضت من ١٧٨ مقعدًا إلى ١١٠ مقاعد، فنتائج الانتخابات -التي لا تعرف التزوير في تركيا- تشير إلى أن قطاعًا أوسع ممن يؤمنون بالعلمانية في تركيا يتركونها، ويتجهون للتصويت لحزب العدالة والتنمية، والذي ينفي عن نفسه صفة الإسلامية لكنه يؤكد الهوية الإسلامية لتركيا، والتي لا يمكن هدرها أو تقويضها، فالهوية الإسلامية للحزب هي علامة دالة لا يمكن تجاهلها أو إغفالها. والحزب بذلك هو أول حزب في تركيا يمكنه تحقيق تقدم في الانتخابات الثانية له على مدى خمسين عامًا.

المنهج الذي نستخدمه كأداة للتحليل في مقاربتنا لفهم التحولات التركية هو «منهج دراسة الحالة»، بمعنى التعمق فيما يجري داخل تركيا، دون الوصول إلى تعميمات متجاوزة لها، مع التركيز على ما نطلق عليه دائمًا «الفروق الاجتماعية والسياسية»، والتي تعني أننا بصدد التعامل مع مجتمعات وأمم وخبرات متعددة وليس مجتمعًا أو أمة أو خبرة واحدة، وهو ما يمكننا من المقارنة ومعرفة الأشباه والنظائر، وأن الحَكَم على مجمل ما يجري ليست معايير عقدية مسبقة، وإنما معايير واقعية متصلة «بريح التغيير والتحول» إلى أية قبلة أو جهة، ومن ثَم فالسياسة الشرعية التي تزن المصالح والمفاسد هي المعيار هنا.

سنعالج هذا الموضوع من خلال خمسة مباحث هي:

المبحث الأول: التحدي العلماني الأتاتوركي للإسلام.

المبحث الثاني: الاستجابة الإسلامية المُقَاوِمَة للعلمانية.

المبحث الثالث: خبرة حزب العدالة والتنمية في الحكم.

المبحث الرابع: ملامح النموذج التركي وحدود تأثيره.

المبحث الخامس: مستقبل الواقع الإسلامي في تركيا.

المبحث الأول
التحدي العلماني الأتاتوركي للإسلام

١- أسس «أتاتورك» حزب الشعب الجمهوري عام ١٩٢٣م، وكانت الخلافة لا تزال قائمة، واتخذ الدين سُلّمًا لمقاصده؛ لمنازعة سلطة الخليفة، ولإعطاء وَهْم كاذب عند الجماهير بأن حركته إسلامية، وحين وَجَد أن «مجلس الأمة الكبير الأول» به عدد كبير من علماء الإسلام ألغاه، وأجرى انتخابات جاءت بمجلس جديد هو «مجلس الأمة الكبير الثاني» هيْمَن عليه حزبه، وأصبح هو رئيسًا له، كما أصبح حزبه هو حزب الأغلبية بلا معارضة، وأقر هذا المجلس «معاهدة لوزان» التي منحت تركيا المعاصِرة استقلالها، واعترفت بحكومة «أنقرة»، واشترطت إلغاء الخلافة ضمن أربعة شروط، عُرفت بشروط «كرزون» الأربعة، وأعلنت الجمهورية ليلة ٣٠ أكتوبر ١٩٢٣م، وأصبح «أتاتورك» رئيسًا للجمهورية.

> أسس «أتاتورك» حزب الشعب الجمهوري عام ١٩٢٣م، وكانت الخلافة لا تزال قائمة، واتخذ الدين سُلّمًا لمقاصده؛ لمنازعة سلطة الخليفة، ولإعطاء وَهْم كاذب عند الجماهير بأن حركته إسلامية

٢- أعد مشروع قانون لإلغاء الخلافة؛ باعتبارها زائدة في التاريخ العثماني؛ على حد قول «عصمت أينونو» الذي أصبح رئيس الوزراء ورئيس حزب الشعب الجمهوري، ووافق «مجلس الأمة الكبير» على ثلاثة قوانين في ٣ مارس ١٩٢٤م، وهي: إلغاء الخلافة، وإخراج جميع أفراد الأسرة العثمانية في ظرف عشرة أيام، وإلغاء وكالة الأوقاف الشرعية، وإلغاء وكالة الأركان الحربية العمومية.

٣- صدر دستور علماني جديد للدولة عُرف بقانون «التشكيلات الأساسية، رقم ٤٩١» في ٢٠ أبريل ١٩٢٤م، وظل هذا الدستور هو دستور تركيا، حتى عام ١٩٦٠م، وبمطالعة هذا الدستور نجد أنه تعرض لأكثر من سبعة تعديلات، كلها كانت باتجاه علمنة الدولة، وإلغاء أي أثر يدل على الإسلام، فالمادة الثانية من الدستور، والتي كانت تنص على «أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ولغتها هي اللغة التركية، ومقر عاصمتها مدينة «أنقرة» ألغي منها الإشارة إلى الدين الإسلامي.

٤- لم تتوقف عجلة العلمانية عند حد؛ حيث تم تعديل مواد الدستور التي تشير إلى قَسَم رئيس الجمهورية ونواب الشعب (بالله)، وأصبحت أقسم بشرفي، وحذفت عبارة «تطبيق الشئون الدينية» من مهام البرلمان، وتم إلغاء المدارس الدينية والمسيحية باسم «قانون توحيد المدارس»، وبعدما كان عدد طلاب المدارس الدينية الإسلامية عام ١٩٢٣-١٩٢٤م يربو على الألفين وصل إلى الصفر عام ١٩٣١-١٩٣٢م، وأبطلت وظيفة شيخ الإسلام.

٥- في فبراير ١٩٢٦م تم إقرار القانون المدني الذي نحى قوانين الشريعة وفرض القوانين الوضعية، فأخذ القانون المدني من سويسرا، وقانون العقوبات من إيطاليا، والقانون التجاري من ألمانيا وإيطاليا، وقانون المرافعات من سويسرا وألمانيا، وقانون الجنايات من ألمانيا، وأدخل فيها كلها أَوْفَق الأحكام الواردة في القانون الفرنسي.

٦- تم إلغاء الحروف العثمانية، واستبدلت بالحروف اللاتينية، وتم تغيير الأعداد، وفي عام ١٩٣٤م تم تغيير الألقاب التي كانت سائدة في العصر العثماني، ومنحت المرأة حق الترشُّح والانتخاب، واستطاعت ١٨ امرأة أن تدخل البرلمان عام ١٩٣٥م.

٧- أَمَر بكتابة القرآن الكريم باللغة التركية الجديدة، وأصبح الدعاء والصلاة باللغة التركية، وسعى لتطهير اللغة التركية من أية آثار للغة العربية والكردية والفارسية واليونانية، وألف اللجان ودشَّن القوانين لتعميم اللغة التركية، وتجريم من لا يستخدمها في جميع مناحي الحياة.

٨- فرض الاختلاط على المرأة التركية، وأبطل الحجاب والنقاب، وصارت المرأة التركية سافرة الوجه، وأحل التقويم الميلادي محل التقويم الهجري، وأبطل استعمال المقاييس والموازين الشرقية، واستعاض عنها بالمقاييس والموازين الغربية، وأجبر جميع الموظفين على استخدام الحروف الإفرنجية، وأمر بعزل كل موظف يستعمل الحروف العربية، كما أمر بحرمانه من جنسيته التركية، وأمر بعدم الإفراج عن المسجونين بعد الانتهاء من عقوبتهم إذا لم يتعلموا القراءة والكتابة بالحروف الإفرنجية.

٩- أبطل لبس الطربوش بالنسبة للموظفين في ٣ سبتمبر عام ١٩٢٥م، وبالنسبة لجميع المواطنين في ٢٠ نوفمبر من نفس العام، وفرض القبعة الإفرنجية، واستبدل الأزياء الشرقية بالملابس الغربية، وحذا النساء حذو الرجال، ولبسن الملابس الغربية والقبعة الإفرنجية، وأبطل جميع الطرق الصوفية والتكايا، وجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدل الجمعة، واستبدل التحية الشرقية بالتحية الغربية، وساوى بين الرجل والمرأة في كل شيء في الحقوق السياسية والواجبات الوطنية، وفي الحقوق المدنية والانتخابات والتجنيد والمواريث.

١٠- في ٣ فبراير عام ١٩٣٧م، وقبل موته بعام واحد أقر العلمانية كعقيدة سياسية للدولة، وعدلت المادة الثانية لتصبح «دولة تركيا جمهورية قومية شعبية دولتية علمانية، وثورية مركزية ومتطورة»، وكما يقول «محمد يشار» في كتابه المهم «الأحزاب السياسية في تركيا .. دور الإسلام»: «إنه من الممكن أن نتصور أنه عندما توفي «أتاتورك» عام ١٩٣٨م كانت البلد كلها قد تحولت إلى كيان علماني بحت، وأن الإسلام اختفى من أجل الصالح العام، إلا أن الوضع لم يكن كذلك، فعلى الرغم من كون الجزء المسيطر من الصفوة المتعلمة تحول تمامًا إلى كيان غربي، إلا أن العامة ظلت محافظة وقريبة بطبعها من الإسلام».

المبحث الثاني

الاستجابة الإسلامية المُقَاوِمَة للعلمانية

١- قاوم المجتمع المسلم العثماني الشرقي إجراءات «أتاتورك»، الذي حاول من خلالها أن يقطعه عن دينه وتاريخه وثقافته وهويته؛ فكانت هناك معركة كبرى هي معركة «الطربوش والقبعة»، فقد رفض المسلم التركي الصلاة بالقبعة، واعتبرها عنوانًا للكفر وتقليدًا للغرب، وكثير من العلماء أفتوا بتحريم ارتدائها، بل أفتوا بكفر من يلبسها، وأُعدِم العشرات من العلماء بسبب رفضهم لارتدائها، وفي مرعش قال أحد علماء الدين وهو على المشنقة: «إن القبعة من علامات الكفر ولبسها كفر، وإنني أحمد الله أنني أموت دون أن ألبسها»، وترك العديد من العلماء ووجهاء المجتمع البلاد بسبب رفضهم اعتمار القبعة.

٢- بعد وفاة «أتاتورك» ومجيء «عصمت إينونو» للسلطة عبَّر عن تشدد أكثر قسوة وضراوة في تطبيق العلمانية، وعمَّق الطابع الديكتاتوري للدولة، بيد أن التحالف الاجتماعي الاقتصادي الذي قامت عليه «الأتاتوركية» بدأ يتعرض للتفكيك، وظهرت قوًى اجتماعية واقتصادية جديدة مناوئة للعلمانية، كما أن الفساد والانتهازية والنهب، وتغليب المصالح الشخصية انتشر بشكل واسع، ومن هنا بدأت الدولة مكرهة في رد الاعتبار للإسلام، فتقرر عودة الوعاظ إلى الجيش سنة ١٩٤٠م، وأعيدت مقررات التعليم الديني في المدارس الابتدائية، وأعيد تأسيس كلية الإلهيات، وافتتحت عام ١٩٤٩م.

٥- بدأت العلمانية تُطرَح على النقاش العام داخل حزب الشعب الجمهوري نفسه، وثار جدل عام ١٩٤٦م حول ضرورة دعم الروح الوطنية في مواجهة التيار الشيوعي من خلال الدين، واقتنع بعض أعضاء الحزب بأن السياسة المعادية للدين من جانب الدولة تدمر الأخلاق، ومن هنا سمحت الدولة للمدارس الدينية الخاصة بمباشرة عملها



في سبتمبر ١٩٤٧م، وقررت وزارة التعليم جعل مادة الدين اختيارية في المدارس الأولية، ثم قررت على وجه السرعة فصولاً دراسية للأئمة والخطباء في ٢٠ مايو ١٩٤٨م بدأت في يناير ١٩٤٩م بأنقرة واسطنبول، ثم تبعتها بعد ذلك مدن أخرى، ثم انتظمت الدراسة بعد ذلك في مدرسة الأئمة والخطباء، كل هذه التحولات تتم في ظل سياق علماني صارم، تحميه قوة الانكشارية الكمالية، ولكن العلمانية لم تصمد أمام إصرار الشعب التركي على التمسك بدينه وهويته.

٦- مع بداية التعددية الحزبية في تركيا عام ١٩٤٦م استطاع الحزب الديمقراطي بقيادة «عدنان مندريس» أن يحقق فوزًا كاسحًا على حزب الشعب الجمهوري في انتخابات عام ١٩٥٠م، وظل يحكم البلاد حتى عام ١٩٦٠م، وهذه العشر سنوات هي التي شهدت ما نطلق عليه «بدايات الإحياء الإسلامي» في تركيا، فرغم علمانية الحزب إلا أنه اعتبر أن الإسلام هوية للبلاد، كما في الدول المسيحية وقال: «نعلن بأن تركيا مسلمة، وستبقى مسلمة، ويجب عدم إبقاء الطفل بعيدًا عن تعاليم الدين الذي يعد حقًّا من حقوقه الطبيعية»، وسمح الحزب بعودة الأذان باللغة العربية، وأن تكون الصلاة باللغة العربية، وعودة تلاوة القرآن لبرامج الإذاعة التي تبث من أنقرة، وعودة حصص التربية الدينية للمدارس، وتخصيص حصص من ميزانية الدولة للتعليم الديني في مدارس الأئمة والخطباء، وتقررت حصص التربية الدينية في المدارس الثانوية، وأعيد فتح معهد الدراسات الإسلامية في اسطنبول، ونشطت حركة المطبوعات والنشر الإسلامية، وزاد عدد النساء اللاتي يرتدين الحجاب، وزاد عدد الأشخاص الذين يبادرون إلى بناء المساجد منذ عام ١٩٥٠م، وزاد عدد المراكز الإسلامية التي تبنى بالجهود الذاتية، وزاد عدد الحجاج الذين يرغبون في أداء فريضة الحج، وزاد عدد الصائمين في رمضان، وزاد الاستشهاد والاقتباس من القرآن الكريم بين العامة، وانتشرت المكتوبات الدينية في الأماكن العامة كالمتاجر ووسائل المواصلات، وزاد الاهتمام بما يجري في العالم الإسلامي، وزاد عدد الجمعيات الإسلامية الأهلية، وشهدت مديرية الشئون الدينية توسعًا هائلاً في اختصاصاتها.

وكتب أحد نواب الحزب الديمقراطي في مجلة BUYUK CIHAD - الجهاد الكبير- : «الأمة ليست ممتنة لقيام «أتاتورك» بالثورة، الأمة يجب أن تبحث عن حل في القرآن الكريم»، وكسَّر أعضاء «الطريقة التيجانية» تماثيل «أتاتورك»، وأشار «مندريس» في عام ١٩٥٧م إلى أن تركيا في السنوات السبع المنقضية بني بها أكثر من ١٥ ألف مسجد، وأدت نجاة «مندريس» من حادث طائرة إلى الاقتراب بقوة من الإسلام، وهو ما جعل العديد من الباحثين ينظرون إلى الحزب الديمقراطي نفسه باعتباره أحد تجليات الإحياء الإسلامي.

وفي الخمسينيات تم الاعتراف بحركة الشيخ «سعيد النورسي»، وأعيد إليها الاعتبار، وتوطدت العلاقة بينها وبين الحزب الديمقراطي، الذي كانت تصوت له الحركة بشكل علني.

٧- في الستينيات وبعد انقلاب عام ١٩٦٠ الذي قاده الجنرال «جمال كورسيل» تجذر الإسلام في نفوس أبناء الشعب التركي، فقد زاد عدد الذين التحقوا بمدارس الأئمة والخطباء حتى وصل إلى ٥٠ ألف طالب في أوائل السبعينيات، وبني ما يقرب من ستة آلاف مسجد في الفترة ما بين ١٩٦٠-١٩٦٤م، وانتشرت حلقات تحفيظ القرآن على نطاق واسع تحت إشراف إدارة الشئون الدينية الرسمية، وازدادت المطبوعات الإسلامية المبسَّطة التي تعلِّم الناس العبادات والدين والأخلاق، وخاصة أطفال المدارس، وظهرت كتب لتعليم اللغة العربية، ومجموعات لكتب التاريخ الإسلامي، وترجمات لكتب السنة مثل: البخاري ومسلم، وبعض أعمال أبي حامد الغزالي، وظهرت ترجمات كبار الكتاب والمفكرين الإسلاميين في مصر وباكستان،

من أمثال: سيد قطب، وأبي الأعلى المودودي، «وقُدِّرَ عدد الكتب الإسلامية المطبوعة في منتصف الستينيات بثلاثمائة كتاب، ولكنها كانت تباع بكميات مهولة جدًا، وبشكل عام فإن فترة الستينيات كانت تعبيرًا عن تجاوز الحركة الإسلامية للأرضية التي اغتصبتها العلمانية الكمالية، وكانت تعبيرًا عن فترة الانتقال من الاستئصال إلى المدافعة.

٨- في السبعينيات تأسس حزب «النظام الوطني»، وهو أول حزب مستقل يعبر عن القوى الاجتماعية والسياسية الإسلامية، ولكنه أغلق بعد انقلاب ١٢ مارس عام ١٩٧١م؛ لتهديده العلمانية والعمل ضد مبادئ أتاتورك، ثم تأسس حزب السلامة الوطني في يناير عام ١٩٧٣م، وأغلق هو الآخر مع انقلاب ١٢ سبتمبر عام ١٩٨٠م، ثم عاد الاتجاه الإسلامي الذي يقوده «أربكان» فأسس حزب الرفاه عام ١٩٨٣م، والذي استطاع أن يحصل على أعلى الأصوات في الانتخابات البرلمانية لتركيا عام ١٩٩٥م (٢١,٣٪) أي ستة ملايين صوت، وشكّل الحكومة بالائتلاف مع حزب الطريق القويم بقيادة «طانسو شيللر» في يونيه عام ١٩٩٦م، وظل في الحكم عامًا، ثم تم الانقلاب الأبيض (انقلاب ما بعد الحداثة) على رئيسه وطرده من الحكومة، وتسليمها إلى حزب «الوطن الأم» الذي يقوده مسعود يلماز.

المبحث الثالث

خبرة حزب العدالة والتنمية في السلطة منذ ٢٠٠٢م

١- تأسس حزب العدالة والتنمية في عام ٢٠٠١م بعد إغلاق حزب الفضيلة الذي ورث تقاليد الخبرة الأربكانية في الممارسة السياسية، وكان جيل الوسط في الحركة الإسلامية التركية، والذي يمثله «جول وأردوغان وبولنت إرينج»، قد توصلوا إلى أن الخط الذي يمثله «أربكان» في ظل نظام علماني صارم، لن يقود تركيا إلى بر الأمان؛ لذا غيَّروا من استراتيجياتهم وتكتيكاتهم في مواجهة هذا النظام عن طريق تبني مشاكل الناس الحياتية واليومية؛ بعيدًا عن النظريات الكبرى، والأيديولوجيات الواسعة التي كان يدعو إليها «أربكان»، خاصة وأن أغلب جيل الوسط هذا كانت لديه خبرة ناجحة في ممارسة ما يمكن أن نطلق عليه «السياسات المحلية» في البلديات التي نجحوا نجاحًا ساحقًا في إدارتها، ومنحتهم الثقة والشعبية، فأرادوا تعميم هذا المنهج على مستوى «السياسات العامة»، وهم يتبنون أيديولوجية أطلقوا عليها «الديمقراطية المحافظة» التي تقوم على نبذ الصراع والاستقطاب بين القوى السياسية، واعتماد التوفيق بين مختلف القوى السياسية بإيجاد بيئة يتعايش فيها الجميع، وهم يرون أن الحزب إنما هو عمل سياسي وليس ديني في مجتمع أغلبيته مسلمة، وهم يميزون بين الدين والسياسة، ولكنهم لا يفصلون بينهما، بمعنى أن السياسة لا تُمارس بدون قيم دينية، ولكن الدين له مجاله، والسياسة لها مجالها، ومن ثَم هو ينفي عن نفسه كونه حزبًا إسلاميًّا، وهو يقبل العلمانية ويفسرها من المنظور الإنساني لها، كما في الغرب بمعنى احترام حق الإنسان واختياره، والإيمان بالتعددية والديمقراطية، واختيار الناس والتحول من الدولة العميقة إلى الدولة الشفافة الطبيعية، ويحتار المحللون في توصيف حزب العدالة والتنمية كظاهرة اجتماعية وسياسية، فالبعض يصفهم بأنهم «إسلاميون سابقون»، والآخرون يصفونهم بأنهم «إسلاميون تجديديون»، وآخرون يتحدثون عن «ما بعد الإسلام السياسي»، وبصرف النظر عن توصيفهم فهم تعبير عن شريحة واسعة من القوى في تركيا تتراوح بين إسلاميين اتجهوا ناحية الواقعية، وعلمانيين يرفضون الاتجاه الدولتي، ويدعو للتحرر من الفاشية الكمالية، وقوى شبابية تبني آمالاً كبيرة على الالتحاق بعالم الاتحاد الأوروبي.

وبشكل عام فإن حصول الحزب على ٣٤٪ من الأصوات يشير إلى جذبه للأصوات التي تعبر عن التيار الإسلامي في تركيا، والتي تتراوح بين ١٥-٢٠٪ بالإضافة إلى قوى متعددة أخرى بعضها بالتأكيد علماني، لكنه لا يثق في المعارضة التي يعبر عنها التيار العلماني.

٢- استطاع حزب العدالة والتنمية أن يغير السياسة التركية، وأن يجدد شبابها بعد فقدان أحزاب اليمين واليسار والأحزاب القومية لتعاطف المواطنين معها، فقد تنافس في انتخابات نوفمبر عام ٢٠٠٢م مرشحو ١٨ حزبًا، ولم يستطع أن يتجاوز حاجز الـ١٠٪ إلا حزبان فقط، هما حزب العدالة والتنمية، وحزب الشعب الجمهوري، فيما وُصف بأنه «انقلاب مدني»، ووُصف بأنه هزيمة للعسكر وللاتجاه الدولتي الذي حاول أن يحاصر الحزب، ويقلِّص فرصه في الفوز، وشكّل الحزب الحكومة برئاسة «عبد الله جول» أولاً، ثم «طيب أردوغان» ومن خبرة السنوات التي قضاها في الحكم، فإن تجاوز الحزب للأزمة الاقتصادية التي كانت تركيا تعيشها قبل مجيئه من خلال زيادة الاستثمارات التي وصلت لعشرين مليار، وإلغاء الأصفار الستة من أوراق العملة التركية، وانخفاض معدل الفائدة، وتعاظم دخل السياحة إلى حوالي ٢٠ مليار، وتسعى حكومة العدالة والتنمية إلى رفع مستوى دخل المواطن التركي لعشرة آلاف دولار، كما تسعى للتحرر من ديونها الخارجية، وترفع الحكومة خطة الانضمام كعضو كامل العضوية بالاتحاد الأوروبي؛ وذلك لتعديل النظام السياسي، ووافقت دول الاتحاد الأوروبي فعلاً على الدخول في مفاوضات مع تركيا للدخول إلى الاتحاد الأوروبي عام ٢٠٠٤م، وهناك مصاعب كثيرة تواجه ذلك، لكنها أحد الأوراق المهمة في يد حزب العدالة والتنمية.



٣- الانتخابات الأخيرة التي جرت في تركيا في ٢٢ يوليو ٢٠٠٧م أثبتت أن خيار الشعب التركي لا يزال مع تجربة العدالة والتنمية؛ إذ استطاع الحزب أن يحصل على ٤٧٪ من الأصوات محققًا بذلك تقدمًا عن نتائج الانتخابات الماضية (٣٤٠ نائبًا)، كما استطاع مرشحه لانتخابات الرئاسة «عبد الله جول» أن يفوز بالمنصب بعد معركة كبيرة مع التيار العلماني الذي اضطر في النهاية أن يسلم بأن يتولى منصب رئيس تركيا شخص له جذور إسلامية وزوجته محجبة، وكما يقول «أربكان» نفسه فإن المواطن التركي صوَّت للعدالة والتنمية لمنع «تسونامي» علمانية ضد الإسلام، ولمنع عاصفة العلمانية ممثلة في «أحمد نجدت سيزار» رئيس الجمهورية، والجيش وبيانه على الإنترنت في ١٧ أبريل للحفاظ على العلمانية، وحزب الشعب والمظاهرات المليونية التي أخرجها كلها قادت الجماهير للتصويت لحزب العدالة والتنمية ضد العلمانية الاستئصالية، وأصبح حزب العدالة والتنمية يمثل مركز الحياة السياسية في تركيا، والتي أصبح لها مغزًى ومعنًى، ولدى حكومة العدالة والتنمية تحديات كثيرة: أهمها تعديل دستور ١٩٨٢م الذي وضعه انقلابيو عام ١٩٨٠م، والتحولات العامة تتجه لصالح تجربة العدالة والتنمية في الحكم، والتي لا تزال محاولة غضة لا يمكن القطع بالحكم النهائي عليها.

المبحث الرابع

ملامح النموذج التركي وحدود تأثيره

١- يمكننا القول: إن هناك «استثناءً تركيًّا» أي حالة تركية خاصة، هذه الحالة التركية، وكما يقول «شريف ماردين»، جعلت الدولة تسبق الدين بخطوة، فالتركي لا يمكنه أن يعيش بدون دولة، ولذا فإن الدولة عندهم هي كيان له مكانة محترمة تصل إلى حد التقديس، والخلافة العثمانية مكوناتها في الواقع كان الجيش «البيروقراطية العسكرية»، ثم «البيروقراطية الإدارية المدنية»، ثم «رجال الدين»، وكان لرجال الدين مكانة قوية داخل النظام السياسي العثماني في مرحلة قوة الدولة، ولكنه مع بدايات ضعفها وهزيمتها أمام الغرب عسكريًّا بدأت مكانة رجال الدين تضعف داخل منظومة الدولة العثمانية، إلى حد أن رجال الدين كفوا عن القيام بأدوارهم السياسية، ومن هنا بدأ يحدث نوع من الانفصال بين الدين والدولة، خاصة في فترة التنظيمات التي بدأت مع منتصف القرن التاسع عشر، وتعمق هذا الانفصال حتى بلغ منتهاه مع سقوط الخلافة، والطبيعة الأوروبية للدولة هي جزء منها، وعرفت الدولة نماذج لتسامح غير مسبوق مع غير المسلمين خاصة الأرثوذكس، الذين استخدمتهم في مواجهة عدوها الرئيسي من الكاثوليك.

فالنموذج العثماني هو نموذج يعبر إلى حد كبير عن مفهوم الدولة الحارس بمعنى الدولة التي لا تتدخل في حياة مواطنيها، وإنما يتركز دورها بشكل أساسي في إدارة العلاقات بين الجماعات المكونة لها، وحفظ التوازن في العلاقات بينها بما لا يقود إلى توتر، أي أن الدولة لم تكن تحمل وظيفة «عقدية» بالمعنى الذي تفهمه الحركات الإسلامية الإحيائية اليوم، وإنما كان لها دور سياسي بالأساس هدفه الحفاظ على استمرار الدولة؛ لأنها حامية الدين وبدونها يكون الدين في خطر، أي أننا أمام نموذج يغلِّب فكرة التوازن والتوفيق والتعايش لمجموع الجماعات التي تعيش داخل الدولة على الاستقطاب والصراع والمواجهة.

٢- نموذج العدالة والتنمية في تقديرنا يمثل استمرارًا لتقاليد الدولة العثمانية، وفكرة «الديمقراطية المحافظة»، التي يتبناها الحزب، هي أقرب لروح التقاليد العثمانية، بينما نموذج «الأتاتوركية» هو تجاوز للنموذج العثماني لمحاولته إلغاء الدين طلبًا للحداثة الغربية العلمانية، وهي تستبطن في الواقع نزعة كلية ثيوقراطية ترفض التعدد وترفض الآخر، ويستخدم ذلك النموذج القوة لفرض أيديولوجيته، ونموذج «الأربكانية» هو تجاوز للنموذج العثماني أيضًا؛ لأنه يعبر عن حالة استقطاب وينزع نحو الصراع والمواجهة، ويرفض التوفيق وإدارة شئون الجماعة على أساس من التراضي العام، كما في النموذج العثماني، وحتى نموذج العدالة اليوم حين يتجه للاندماج في الاتحاد الأوروبي فهو يعبر عن الروح الأوروبية الكامنة في التقاليد والخبرة العثمانية، والنموذج العربي مختلف إذًا؛ فإن الدين هو الأصل والدولة تبع له، ومن ثم فإن أي مسّ للدين أو تهديد له يمثل خطرًا لا يعطي للدولة معنًى، ولا بد أولاً من حفظ الدين، النموذج العربي أقرب للحالة الإحيائية الإسلامية كما تقدمها الحركات الإسلامية، وهنا الفروق في فهم الحالات والتطبيقات المختلفة.

٣- لدينا تحولات كبيرة في الحركة الإسلامية، كلما اتجهت للتعايش مع مجتمعها، وازداد اختيار الشعوب لها، فهناك ميل لدى هذه الحركات لتكون أكثر انتقالاً من الأطراف إلى المركز أو القلب، ليس بمعنى التعبير عن التيار الرئيسي في مجتمعها فقط، وإنما بمعنى مراجعة أفكارها ومواقفها بحيث: إن الكتلة الكبيرة داخل هذه الحركات تميل لأخذ مشروعها لواقع الناس وللواقع الإقليمي والدولي في الاعتبار، فالعديد من الحركات السَلفية في الخليج العربي بدأ يتحدث عن الحرية ومقاومة الاستبداد، وإمكان دخول الانتخابات والمشاركة في السلطة.



وحركة الإخوان المسلمين راجعت العديد من مواقفها تجاه الديمقراطية والمرأة وغير المسلمين، والحركات الجهادية راجعت العديد من رؤاها تجاه السلطة والمجتمع والواقع، وبالطبع فإن تأثير النموذج التركي، والخبرة التركية الاستثنائية التي جعلت النظام العلماني يقبل الإسلاميين داخله من خلال تأسيسهم لأحزاب إسلامية خاصة بهم، ودخولهم في ائتلاف مع حزب الشعب، ثم مع الجبهة الوطنية، ثم وصول «أربكان» لكي يكون أول رئيس وزراء إسلامي في نظام علماني، هذه الخبرة لفتت انتباه الإسلاميين في العالم العربي، وأعتقد أنها أثرت بقوة على تحولات هامة في أفكار جيل الوسط الإسلامي المصري، وجيل الوسط الإسلامي في المغرب وإندونيسيا تجاه التحول للعمل السياسي، والتفكير في تأسيس أحزاب إسلامية، وهناك بالفعل العديد من الأحزاب أطلق على نفسه اسم «العدالة والتنمية» كما في المغرب، لكن يبقى القول: إن النموذج التركي ناجح في سياق الخبرة التركية، ولكنه ليس قابلاً للتعميم.

٤- النموذج التركي للعلاقة بين الدين والدولة، والسياسة والمجتمع، تأسس على قاعدة صوفية، هذه القاعدة لها جذر قوي في الخبرة العثمانية، وهناك طرق صوفية عديدة اليوم لها قوة وتأثير كبير في الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية للأتراك، يأتي على رأسها «الطريقة النقشبندية، والطريقة التيجانية، والطريقة السليمانية، والطريقة النورسية»، وفي ظل النموذج العثماني كانت الطرق الصوفية جزءًا من الدولة، التي ترعى الطرق ومشايخها، والسلطان العثماني نفسه هو زعيم هذه الطرق جميعًا، ولا يوجد إسلامي واحد في تركيا ليس له طريقة صوفية، فأربكان نقشبندي، وطورجوت أوزال نقشبندي، والنقشبنديون اليوم يؤيدون «حزب العدالة والتنمية»، كما يؤيده النورسيون أيضًا وهم بالملايين، فالطرق الصوفية هي القاعدة الاجتماعية للأحزاب القريبة من الإسلام أو الأحزاب الإسلامية.

ولعمق مفهوم الدولة في نفسية التركي ولعمق التأثير الصوفي في وجدانه؛ فإن الإسلاميين الأتراك لم ينظروا للدولة التركية في الفترة الكمالية باعتبارها جاهلية؛ كما عبر «سيد قطب» مثلاً في ظل النظام الناصري، ولكنهم اعتبروها دولتهم، ومارسوا الصراع مع العلمانية على أرضية إنقاذ الدولة والدين من وحشية الكمالية، وأظن أن العدالة والتنمية هي جزء من هذا الصراع.

٥- المكون الصوفي في النموذج التركي يجعله أميل لفسح المجال أمام عمل الإسلاميين وحركتهم ومناشطهم، مع التمييز بين المجال الديني والسياسي، أي قصر المجال الديني على المتخصصين في الدين، وفي المجالات المتصلة به (الصلاة، الزكاة، المناسك، الدعوة، الصدقة، أعمال البر، الحج، حسن الخلق، الحجاب للمرأة، الإحسان إلى الآخرين)، ويقوم بالإفتاء والوعظ والتوجيه في كل ذلك متخصصون في علوم الدين، وفي المجال السياسي قصره على السياسيين الذين يقومون بإدارة الدولة أو الأحزاب أو النقابات، وأن يكون ذلك على أساس علوم الإدارة والسياسة في اتخاذ القرارات وإدارة الشئون العامة، ولا يتدخل في ذلك رجال الدين، كما لا تكون على أساس الدين، وإنما على أساس البرامج.

وينظم كل ذلك الدستور والقوانين واللوائح، والتمييز يختلف عن فصل الدين عن السياسة، فالسياسة لا تُمارَس بدون قيم، ولكن لا يُستخدم الدين لأغراض متصلة بها، وفي ذلك يقول أردوغان «يسألنا الناس عن مسائل دينية بينما نحن لسنا مفتين، بل حزبًا سياسيًّا»، ويرفض «أحمد داود أوغلو» أحد مفكري حزب العدالة مفهوم الحزب الإسلامي؛ لأن الحزب برأيه قوة انقسامية وليست موحدة، أما الإسلام فهو عنصر موحد أي قاسم مشترك، ولا يجب تقليص دور الإسلام إلى مجرد التعبير عن مجموعة سياسية أو حزب سياسي؛ لأننا سنجد مجموعات ستذهب لاحتكار الإسلام والحديث باسمه.

٦- نحن أمام نموذج مختلف للعلاقة بين الدولة والدين والحركة الإسلامية، وهذا النموذج له سياق علماني ينص على العلمانية في الدستور، ويعتبرها مادة غير قابلة للتغيير، وفي نفس الوقت يسمح للإسلاميين بتنظيم أنفسهم من داخل الدولة العلمانية، والإسلاميون قبلوا منذ وقت مبكر قواعد اللعبة السياسية؛ التي تستبعد الدين من العملية السياسية بالكلية، واستطاع الإسلاميون تجاوز مجرد كونهم عاملَ توازن داخل النظام، إلى أن أصبحوا قلب النظام السياسي ومركز الحياة السياسية، ووصل «أربكان» الإسلامي إلى سُدَّة رئاسة الوزراء في نظام علماني، ثم وصل «عبد الله جول» ذو الجذور الإسلامية إلى رئاسة الدولة، والجيل الذي يمثله «أردوغان» يحاول التوفيق بين الإسلام والديمقراطية والحداثة والغرب، ويدعو للانضمام الكامل للاتحاد الأوروبي، وكل هذا في ظل سياق دولة عميقة، يمكنها في أية لحظة أن تهدم المعبد على رءوس الجميع.

ومن ثم فحزب العدالة يتحرك على حبل مشدود، وليس لديه الثقة ولا الإحساس بشرعية كاملة تمكِّنه من توجيه مصير الدولة، ومن ثم فهو نموذج يفتح الباب واسعًا لإثراء تجربة الإسلاميين في العالم العربي، ويعد مثالاً على تغيير صورة الإسلاميين، كما يصر العلمانيون المتطرفون على طرحها، وكما يصر أصوليو الغرب على طرحها أيضًا، فنموذج العدالة والتنمية -الذي يعبر عن الوصول للسلطة دون امتلاك برنامج واضح يمكنه من تحويل المجتمع والأمة إلى الإسلام- هو محل انتقاد في العالم العربي، ولا يمكن قبوله بهذه الصيغة، فحالة تركيا تظل استثناءً لا يمكن تعميمه أو تحويله إلى نموذج للتصدير، كما ترغب أمريكا في حديثها المتكرر عن «النموذج التركي».

حالة تركيا تظل استثناءً لا يمكن تعميمه أو تحويله إلى نموذج للتصدير كما ترغب أمريكا في حديثها المتكرر عن «النموذج التركي».

المبحث الخامس
مستقبل الواقع الإسلامي في تركيا

١- بالنسبة للوجود الإسلامي في تركيا فإن البلاد تشهد رسوخًا لم تعرفه من قبل للمؤسسات الإسلامية، وعلى رأسها المساجد فهناك حوالي ٨٠ ألف مسجد في تركيا، يتولى الخطابة فيها خريجو مدارس الأئمة والخطباء، وتشير المعلومات إلى أن تركيا تشهد بناء ما يقرب ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ مسجد سنويًّا، وفي اسطنبول وحدها بُنِيَ ما يقرب من ٢٧٠٠ مسجد، وتشير دراسة تركية إلى أن عدد المساجد في تركيا يعادل عدد المساجد مجتمعة في ٤٥ دولة مسلمة أخرى، وهناك «رئاسة الشئون الدينية والأوقاف»، وهي تعيِّن الخطباء والمفتين للضواحي، وتتبع رئاسة الوزراء، ويشرف عليها وزير دولة، ويتبعها ٨٥ ألف موظف، والمبالغ المخصصة لخدمة الأغراض الدينية بصورة مباشرة أو غير مباشرة تعادل تقريبًا ما تنفقه الدولة على ميزانية التعليم، وفي مجال الاقتصاد الإسلامي ظهر ما يُعرَف باسم «نمور الأناضول»، وهناك تكتلات اقتصادية إسلامية كبيرة مثل «إخلاص هولدنج، وآسيا فينانس، وأناضول فينانس» واتحاد رجال الأعمال المسلمين يعرف باسم MUSIAD، وهو تجمع ضخم لرجال الأعمال المستقلين المسلمين، ويرفض هؤلاء الربا والفائدة.

والإشارات والرموز الإسلامية التي تستخدمها القوى الاقتصادية الإسلامية -كالبنوك والشركات والمؤسسات الاقتصادية الكبرى- مثلت أحد العوامل المهمة لجذب الجمهور التركي المتدين، وتملك الطرق الصوفية خاصة النقشبندية والنورسية أغلب هذه القوة الاقتصادية، ويقدر أحد الخبراء الأتراك أن قوة الاقتصاد الإسلامي في تركيا تبلغ حوالي ١٠-٢٠٪ من الاقتصاد الكلي.

٢- عدد الصحف والمجلات التي تعبر عن التيار الإسلامي في تركيا تبلغ حوالي ٥٠٠ صحيفة ومجلة، فضلاً عن ٣٥٠ محطة إذاعية وأربع محطات تلفزيونية، ويبلغ حجم توزيع الصحف اليومية الإسلامية وفق تقديرات خبراء أتراك ما يقارب المليون نسخة تستأثر صحيفة «زمان» بما يقارب نصفها، ومن الصحف الإسلامية في تركيا «الملي جازيت، ويني شفق»، وهناك جريدة «وقت»، ويمكننا القول: إن ما يُنْشَر في تركيا وحدها؛ معبِّرًا عن التيار الإسلامي من صحف ومجلات، يزيد على كل المنشور في العالم العربي.

٣- فوز حزب العدالة والتنمية في الانتخابات الأخيرة بنسبة ٤٧٪ من الأصوات يشير إلى أن الخيار المرجح، والذي يتعمق ويتسع هو تجاه الإسلام، فأداء ذوي الجذور الإسلامية، في الفترة الأولى لحكمهم، استطاع أن يجذب ثقة الناس إليهم، إلى درجة أن «التوسياد» -وهو أكبر تجمع مالي وصناعي لرجال الأعمال العلمانيين- وقف في مواجهة العسكر لصالح خيار حزب «العدالة والتنمية».

ومن هنا فإن الحزب تتسع قاعدته الاجتماعية؛ لتشمل تنويعات متعددة تعبِّر عن مصالحها، وتسعى لدمجها في النظام السياسي، وعلى رأسهم التيار الإسلامي، ويكتسب الحزب اليوم شرعية بنجاحه الكبير وغير المتوقع في البرلمان، بالإضافة لاستحواذه على مؤسسة الرئاسة، ليقوم بتغيير الدستور الذي جاوزه الزمن والتحولات في تركيا، ويؤسس لدستور جديد يمنح الفئات المهمشة في النظام الشرعيةَ، وعلى رأسهم الإسلاميون والأكراد والمحجبات، ومن ثم فإن وضع الإسلاميين في تركيا سوف يتحسن في المستقبل -كما نتوقع- خاصة وأن الكمالية بصيغتها القديمة والعلمانية المتصلبة ليس لها مستقبل.

٤- تشير خبرة واقع الممارسة السياسية لحزب العدالة والتنمية إلى أن هناك توجهًا يمكن وصفه «بالتوجه العربي والإسلامي»، بالإضافة إلى التوجه «للاتحاد الأوروبي» والعالم الغربي، فالإدراك التركي والإدراك العربي كلاهما بدأ يتفاعل تجاه الآخر بشكل إيجابي وفعَّال، وأصبح على خارطة السياسة العربية نقلة واضحة باتجاه علاقة صحية وقوية مع العالم العربي والإسلامي، فالقضايا العربية أصبحت على أجندة السياسة الخارجية التركية مثل: القضية العراقية، وحسن الجوار مع الدول العربية المتاخمة لتركيا، وبناء علاقات اقتصادية قوية مع العالم العربي.

ويمكن لتركيا كقوة إقليمية مهمة في المنطقة أن تملأ الفراغ الذي تسعى أمريكا لخلقه بإضعاف بعض دول المنطقة المحورية كمصر والسعودية، كما يمكنها أن توازن محاولات التمدد الإيراني في المنطقة، خاصة في الخليج والعراق، فتركيا كدولة محورية لا يمكنها أن تقف غير مكترثة تجاه الفرصة السانحة لديها للعب دور إقليمي مهم يرفع الضغط عن المنطقة العربية، ويعيد إليها قدرًا من التوازن، وأفكار قادة الحزب «كأحمد داود أوغلو» تتحدث عن العمق الاستراتيجي لتركيا، سواء بالنسبة للتاريخ أو الموروث الثقافي، أو بالنسبة لدول الجوار الجغرافي ممثلاً في العالم العربي بشكل رئيسي، ثم العالم الإسلامي.

ومن ثَم فقصة تركيا والإسلام والتدافع بين العلمانية والمجتمع المسلم لها دلالة خالدة، وهي أن قوة القمع والقهر لا يمكنها أن تُصْنَع من أعلى أيديولوجية يمكن أن تصبح دينًا للناس، ومن ثم فإن الإسلام ظل صامدًا أقوى من «أتاتورك» و«النخبة» المتغربة، وظل هو الدين الذي لا يمكن لأحد أن يتحداه، وحتى الحديث عن «إصلاحية إسلامية» في تركيا مثل «الكالفنية أو البروتستانتية» لا يمكنها أن تحقق أي نجاح يُذْكَر؛ ذلك لأن الوحي والشريعة كمرجعية عليا لا يمكن لأحد أن يتجاوزها أو يتخطاها، كما يقول المفكر التركي «أحمد داود أوغلو».

المراجع:

١- محمد نور الدين، حجاب وحِراب، الكمالية وأزمات الهوية في تركيا، بيروت: رياض الريس، ط١، ٢٠٠١م.

٢- قبعة وعمامة، مدخل إلى الحركات الإسلامية في تركيا، بيروت: دار النهار، ط١، ١٩٩٧م.

٣- هاينتس كرامر، تركيا المتغيرة، تبحث عن ثوب جديد، تعريب فاضل جتكر، الرياض: العبيكان، ط١، ٢٠٠١م.

٤- عمرو الشوبكي وآخرون، إسلاميون وديمقراطيون، إشكاليات بناء تيار إسلامي ديمقراطي، القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٤م.

٥- كمال السعيد حبيب، الإسلام والأحزاب السياسية في تركيا، دراسة حالة لحزب الرفاه ١٩٨٣-١٩٩٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة في العلوم السياسية، قسم العلوم السياسية، كلية الاقتصاد، جامعة القاهرة.

٦- كمال حبيب، تركيا بعد ٧٧ عامًا من العلمانية، http://www.albayan-magazine.com/files/almaniah/index.HTM

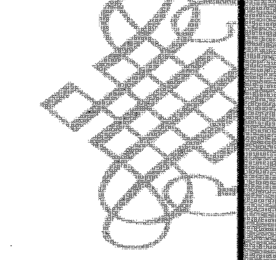
٧- الإسلام ينتصر في تركيا، http://www. /٢٣٨-albayan-magazine.com/bayan htm.١٤-bayan

٨- قراءة في مستقبل تركيا بعد نتائج الانتخابات الأخيرة، مجلة البيان، ع٢٤٠، شعبان ١٤٢٨هـ، أغسطس ٢٠٠٧م.

٩- تركيا تستهل عصر الجمهورية الثالثة، مجلة وجهات نظر، ع ١٠٥، السنة التاسعة، أكتوبر ٢٠٠٧م.

١٠- وصايا الباش معلم، حزب العدالة والتنمية التركي يتجه لتأسيس الجمهورية الثالثة، جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٠٠٧/٥/١٠م.

١١- منال لطفي، تركيا من أتاتورك إلى أردوغان، مجموعة حلقات عن تركيا نشرتها جريدة الشرق الأوسط، بدأت نشرها يوم ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٧م، ع ١٠٥٥٣.



معلومات إضافية

حزب العدالة والتنمية (PKA)

النشأة:

تم تشكيل حزب العدالة والتنمية من قِبَل النواب المنشقين من حزب الفضيلة الإسلامي، الذي تم حله بقرار صدر من محكمة الدستور التركية في ٢٢ يونيو/حزيران ٢٠٠١م، وكانوا يمثلون جناح المجددين في حزب الفضيلة.

تاريخ التشكيل: ١٤ أغسطس/آب ٢٠٠١م.

رئيس الحزب: رجب طيب أردوغان.

انتُخب رجب طيب أردوغان عمدة اسطنبول السابق، وأحد البارزين في الحركة السياسية الإسلامية في تركيا، أول زعيم لحزب العدالة والتنمية، الذي يُعتبر الثالث والتسعون بعد المائة ضمن الأحزاب السياسية التي دخلت الحياة السياسية التركية.

هو الحزب الحاكم حاليًا في تركيا بعد فوزه للمرة الثانية على التوالي في الانتخابات التركية.

التوجه الفكري للحزب:

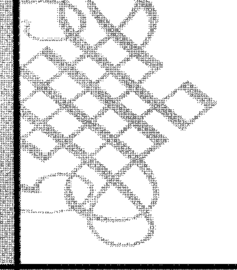
يثير توصيف حزب العدالة والتنمية إشكالية وجدلاً، فعلى الرغم من أن الحزب ينفي عن نفسه صفة الديني أو الإسلامي بشكل قاطع، ويؤكد احترامه للنظام العلماني في تركيا، إلا أن هناك عاملين يشيران إلى علاقة لا يمكن نفيها بالتيار الإسلامي:

الأول: أن الحزب خرج من عباءة حزب الرفاه الإسلامي، ثم وريثه حزب الفضيلة، اللذان أسسهما أبو الإسلام السياسي في تركيا «نجم الدين أربكان».

الثاني: أن معظم قيادات الحزب وكوادره الوسيطة لها تاريخ معروف كناشطين أو رموز للتيار الإسلامي، حتى قبل تأسيس حزب الرفاه، أبرز وأكبر وعاء لهذا التيار عام ١٩٨٣م، ويأتي على رأس هذه القيادات زعيم الحزب رجب طيب أردوجان، والرئيس التركي عبد الله جول، اللذان يعدان تلميذين لأربكان التصقا به لفترة طويلة.

بالإضافة إلى ذلك يُجمِع الكثيرون من غلاة العلمانيين في تركيا على أن حزب العدالة والتنمية له «أجندة سرية» كحزب إسلامي، ويخفي هذه الأجندة التي يريد تنفيذها خطوة بخطوة وعلى مدى طويل. غير أنه لا يمكن أخذ مثل هذه الاتهامات أو الشكوك دليلاً على أن الحزب إسلامي التكوين





والتوجه، لكن الشيء الثابت أنه لا يشبه الأحزاب العلمانية القائمة، ومن ثم نذهب إلى توصيف جديد يتجاوز التصنيفات القائمة، وهو أن حزب العدالة والتنمية يشكل توليفة أيديولوجية تتمثل في الإسلام الروحي والعلمانية السياسية.

أهداف الحزب:

وفقًا للوثائق الصادرة عن حزب العدالة والتنمية، فإن هناك أحاديث متفاوتة عن أهداف الحزب ومبادئه وأفكاره.

حددت اللائحة الداخلية للحزب أهدافه كما يلي:

١- تحقيق السيادة، وبدون أي قيد أو شرط، للشعب التركي على الجمهورية القانونية التي تعتبر القوة التي تراعي مصالح الفرد والمؤسسات.

٢- الحفاظ على وحدة الدولة التركية.

٣- الحفاظ على القيم والأخلاق التي تعد بمثابة تراث للشعب التركي.

٤- تحقيق الحضارة والمدنية المعاصرة في تركيا، وفقًا للطريق الذي رسمه مصطفى كمال أتاتورك.

٥- تأمين الرفاه والأمن والاستقرار للشعب التركي.

٦- تحقيق مفهوم الدولة الاجتماعية التي تُتيح للأفراد العيش بالشكل الاجتماعي المطلوب.

٧- تحقيق العدالة بين الأتراك والتوزيع العادل للدخل القومي.

أما برنامج الحزب فقد اقتصرت أهدافه في الآتي:

- الديمقراطية.
- التنمية.
- النهوض فوق مستوى الحضارة المعاصرة.

شعبيته:

يتمتع الحزب بشعبية كبيرة في الشارع التركي جعلته يحقق اكتساحًا غير مسبوق في الانتخابات التشريعية الأخيرة؛ إذ حصل على نسبة ٤٧٪ من الأصوات (٣٤٠ مقعدًا في البرلمان)، بعدما حقق الفوز



في الانتخابـات السـابقة التي جرت في نوفمبر ٢٠٠٢م، وحصل على ٣٤٪ مـن الأصوات (٣٦٣ مقعدًا في البرلمان).

الانتخابات التركية عام ٢٠٠٢م:

لم ينجـح سـوى حزبان فقط في تخطـي حاجز الـ١٠٪ المطلوبة للحصول علـى مقاعد في البرلمان، وهما حزبا: العدالة والتنمية، والشعب الجهوري.

الحزب	نسبة الأصوات
حزب العدالة والتنمية	٣٤,٢٩٪
حزب الشعب الجمهوري	١٩,٣٤٪

ومن ثَم حصدا كافة مقاعد البرلمان كلٌّ حسب نسبة الأصوات التي نالها، وقد خصم منها ٩ مقاعد فاز بها مستقلون، وكان إجمالي مقاعد البرلمان التركي (٥٥٠ مقعدًا) وُزِّعَت على النحو التالي:

حزب العدالة والتنمية: ٣٦٣ مقعدًا.

حزب الشعب الجمهوري: ١٧٨ مقعدًا.

المستقلون ٩ مقاعد.

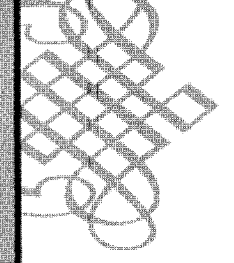
الانتخابات التركية عام ٢٠٠٧م:

في هذه الانتخابات نجح ثلاثة أحزاب في تخطي نسبة الـ١٠٪ المطلوبة للحصول على مقاعد في البرلمان، وهم: حزب العدالة والتنمية الحاكم، وحزب الشعب الجمهوري المؤيَّد من قِبل الجيش، وحزب الحركة القومية اليميني المتشدد.

الحزب	نسبة الأصوات
حزب العدالة والتنمية	٤٧٪
حزب الشعب الجمهوري	٢١٪
حزب الحركة القومية	١٤٪

في حين لم تقترب أي أحزاب أخرى من تخطي نسـبة ١٠٪ الضرورية لدخول البرلمان، عدا فوز عدد من المستقلين أغلبهم أكراد.





وكان إجمالي مقاعد البرلمان التركي (٥٥٠ مقعدًا) وُزِّعَت على النحو التالي:

حزب العدالة والتنمية: ٣٤٠ مقعدًا.

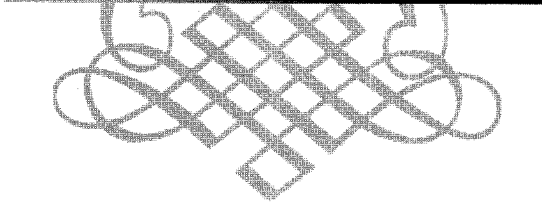
حزب الشعب الجمهوري: ١١٠ مقاعد.

حزب الحركة القومية: ٧٢ مقعدًا.

المستقلون: ٢٨ مقعدًا.

أهم مصادر المعلومات:

دليل الحركات الإسلامية في العالم، العدد الأول، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، يناير ٢٠٠٦م.



التغيرات الاجتماعية في العراق بعد الغزو الأمريكي

د. حسين الرشيد

(كاتب وباحث عراقي)

ملخص البحث

أحدث الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م كثيرًا من المتغيرات الاجتماعية في المجتمع العراقي. فعلى المستوى الأسري شهدت الأسرة العراقية تغيرات هامة أدت لتراجع دورها الريادي، فارتفعت نسبة الطلاق لنحو ٢٠٠٪، وتزايدت حالات فقد الأبوين أو أحدهما في العراق، وبلغ عدد الأطفال الأيتام الملايين؛ وارتفع معدل وفيات الأطفال إلى ١٥٠٪؛ بسبب الحصار الظالم، والأمراض المتنوعة التي ظهرت بعد الغزو.. وتحدثت التقارير بأنّ ٩٠-١٠٠ امرأة تترمل كل يوم، ووصل عدد الأرامل والعوانس في العراق ثمانية ملايين امرأة.. وانتشرت الأمراض، كالكوليرا والسرطان والإسهال والإيدز، والأمراض الوبائية والنفسية وأمراض الأطفال.. وشهد المجتمع أعظم حالات التهجير الطائفي؛ حتى بلغ عدد المُهَجَّرين الملايين، وصار العراق من أخطر دول العالم، وأقلها أمنًا على الإطلاق.

وعلى مستوى المرأة وخصوصياتها، أصبحت المرأة العراقية هدفًا مركزيًّا من أهداف الاحتلال، فاستهدفوها بجميع الوسائل وبمختلف الطرق، اقتصاديًّا وعلميًّا وجسديًّا وفكريًّا.

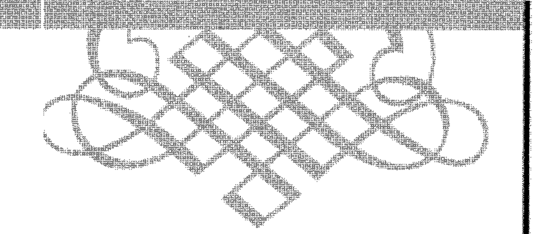
كما شهد الاقتصاد العراقي ترديًّا كبيرًا في مستوى أدائه، وصارت المعيشة في أدنى مستوياتها، وضربت البطالة أطنابها في المجتمع، حتى بلغت نسبتها ٧٠٪ مما ولّد معاناة كبيرة لدى الأسرة العراقية.

لم تكن الخدمات بأفضل حال؛ إذ يعاني العراق -منذ الغزو- من فقدانٍ كبير للخدمات الأساسية الضرورية جدًّا، كالماء -الذي وصلت نسبة العراقيين الذين لا يجدونه ٧٠٪- والكهرباء، والوقود، وغيرها.

وعمّت المجتمعَ كثيرٌ من المشاكل الأخلاقية والتربوية؛ حيث انتشر ما يسمى «زواج المتعة» في مناطق عديدة، وخاصة جنوب البلاد، في تجسيدٍ واضح لأحد مظاهر تفتت المجتمع، وانهيار قيمهِ الأصيلة.. وراجَ سوق المخدرات وتهريبها من وإلى العراق، وقُدِّر عدد مدمنيها والمتاجرين بها بعشرات الآلاف.. وشاعت السرقات وعمَّ الفساد، في مؤشر خطير على ضياع خيرات العراق وثرواته، التي يتكالب عليها المجرمون.

لقد تأكد أنَّ الاحتلال هو أساس المشاكل في بلاد الرافدين، وأنَّ تصرفاته الهمجية اليومية وراء التراجع الكبير الذي شهدته مفاصل المجتمع العراقي.. فكل المتغيرات جاءت نتيجة واضحة لتداعيات الحرب العدوانية، التي عملت بشكل كبير على تحطيم دعامات المجتمع، وتمزيق نسيجه، مما انعكس بصورة واضحة على مكونات مجتمعنا الداخلي.





أفكار و مقتطفات

- يكاد يتفق الجميع على أنَّ الحروب تحطِّم دعامات المجتمع، وتمزق نسيجه؛ بسبب الكوارث التي تسببها، والتي تنعكس بصورة كبيرة على الوضع الداخلي للمجتمع، وما يتبع ذلك من تغيرات في القيم والأعراف الاجتماعية السائدة والمتوارثة.

- إذا كان تقرير الأمم المتحدة ينص على أنَّ معدلات الطلاق ارتفعت خلال الأعوام ٢٠٠٣-٢٠٠٦م بنسبة ٢٠٠٪، في حين تراجعت نسبة الزواج في نفس الفترة إلى ٥٠٪ ، فإنَّ إحصائيةً أخرى ذكرت أنَّ حالات الطلاق بلغت (١٣٣٣٤٨) حالة طلاق في عموم أنحاء العراق، منها (٩٤٤٠١) دعوى طلاق، و(١٠٩٠١) دعوى لطلب التفريق، بينما كان عدد طلبات تصديق الطلاق الواقع خارج المحاكم (١٣٠٢٦) حالة.

- في ظل أوضاع أمنية متردية تعيشها بلاد الرافدين، منذ أكثر من أربع سنين، وعمليات عنفٍ دام ومتواصل تُودِي بحياة مئات العراقيين شهريًّا، كان من الطبيعي أن ترتفع أعداد الأطفال العراقيين اليتامى، الذين فقدوا كلا الوالدين أو أحدهما؛ بسبب الغزو الأمريكي وتداعياته لبلادهم.

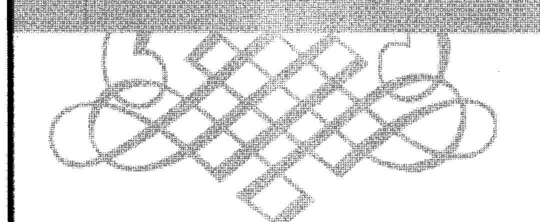
- معروفٌ أنَّ المجتمع العراقي قد أصيب بالانهيار بعد الضربات المتتالية التي تلقاها في حربين إبان ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، أعقبهما حصار ظالم استمر ثلاثة عشر عامًا، تلاه غزو دمّر البنية التحتية وهياكل المجتمع كافة، وكان نصيب الأسرة منها وافرًا؛ بسبب تزايد أعمال القتل الذي يطال الرجال غالبًا، مما ترك مجموعة كبيرة من النساء الأرامل في المجتمع، الذي لا يزال تتصاعد فيه وتيرة العنف والدمار.

- أظهرت دراسة خاصة لمنظمة اليونسيف التابعة للأمم المتحدة أجرتها نهاية العام الماضي (٢٠٠٦م) وجود أكثر من مليون ونصف من النساء الأرامل في العراق، إضافة إلى مئات الآلاف من المطلقات.

- يعاني ربع سكان العراق من اضطرابات نفسية؛ نتيجة الحروب المتلاحقة، والعوز المادي، والاضطهاد السياسي.. وقد حذَّر تقرير نشرته «واشنطن بوست الأمريكية» قبل فترة وجيزة من التداعيات النفسية على الأطفال نتيجة الاحتلال وتبعاته، مستندة في ذلك على أقوال خبراء عديدين من أصحاب الاختصاص، وأكدت على أنَّ هذا سيؤدي إلى خلق جيلٍ سيصبح أكثر عنفًا في المجتمع.

- أظهرت دراسة حديثة أنَّ العراق أخطر دول العالم، وأقلها أمنًا على الإطلاق، وعزت الدراسة سبب ذلك إلى الاضطرابات التي خلَّفها الاحتلال الأمريكي.

- تسبب الفلتان الأمني الرهيب بعد الغزو بمقتل ما يقرب من مليون وربع عراقي، حسب دراسة أجرتها وكالة [ORB] البريطانية. وهذه الدراسة وإن لم تكن دقيقة إلى حد اليقين، إلا أنها تثير من جديد شبح كون القتلى العراقيين بسبب الغزو هو أكبر بكثير مما تعترف به إدارة أمريكا وبريطانيا ووزارة الصحة العراقية.



- إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد شنَّت حربها الضروس ضد بلدٍ آمنٍ، تطغى فيه التركيبة النسوية بنسبة ٦٢٪ أمام نسبة الرجال البالغة ٣٨٪؛ فإنَّ الدراسات الحديثة كافة تؤكد على أنَّ النساء يُعتبرن الضحايا الرئيسة للمعارك والحروب في زماننا، وأنَّ الحروب تترك آثارها الطويلة على النساء بشكلٍ خاص.. وعلى هذا فقد أصبحت المرأة العراقية هدفًا مركزيًّا من أهداف الاحتلال؛ فقد استُهدِفت بجميع الوسائل، وبمختلف الطرق، فهي مستهدفة اقتصاديًّا وخُلقيًّا وعلميًّا وجسديًّا وفكريًّا.

- في كل الحروب التي دارت رحاها على الأرض منذ القرون الوسطى لم تسجل جرائم وانتهاكات قذرة وقعت على المرأة بحجم الجرائم الكبرى التي ارتُكبت ضد المرأة العراقية من قِبَل قوات الاحتلال الأمريكي، وتشكيلات حكوماته الأربعة.

- تعدُّ «التجارة الجنسية» أو ما يعرف بـ «تجارة الرقيق الأبيض» من أقذر الظواهر التي تم تشجيعها بعد الغزو الأمريكي للعراق؛ إذ قامت الولايات المتحدة الأمريكية بفتح شركات متخصصة للاتجار بالجنس لأول مرة في تاريخ العراق.

- يعاني الاقتصاد العراقي من تردٍ كبير في مستوى أدائه؛ فالمعيشة في أدنى مستوياتها، والبطالة ضاربة أطنابها في المجتمع، وبلغت نسبتها ٧٠٪ -سوى مجالي الجيش والشرطة- مما ولّد معاناة كبيرة لدى الأسرة العراقية، التي بات كثير منها لا يستطيع توفير القوت اليومي.

- لُوحظ بعد الاحتلال الأمريكي انتشار ما يسمى زواج المتعة في مناطق عديدة من العراق، خاصة مناطق الجنوب.. ويعتبر هذا الزواج إحدى مظاهر تفتت المجتمع، وانهيار قيمه الأصيلة التي يحملها.

- بعد الغزو، وفي ظل صمت من قوات الاحتلال الأمريكي والحكومة ظهرت عادة تعاطي المخدرات والاتجار بها بشكل واضح في العديد من المناطق، بعد أن كانت من المحرمات التي تقضي، في كثير من الأحيان، بمتعاطيها أو تاجرها إلى عقوبة الإعدام.

- واقع الحال والسرعة الكبيرة التي ظهرت فيها المخدرات في الشارع العراقي بعد أيام من الاحتلال، وما رافقه من صمت مريب من قِبَل السياسيين، كل ذلك يؤكد بالدليل الملموس أنَّ انتشار المخدرات لم يكن -إطلاقًا- ردّ فعلٍ ناجم عن الإحباط أو اليأس، الذي سبَّبه الاحتلال والعنف الطائفي، بل إنَّ الأمر كان صفحة سياسيّة من صفحات الحرب البشعة، التي تعرض لها العراق.

- أخذت السرقات دورًا منظمًا من قبل الميليشيات، وصارت تلعب بمقدرات وثروات البلد، وأهمها النفط، الذي صار عُرضة للسلب والنهب والاغتصاب من قبل تلك الميليشيات المتنفذة في الحكومة اليوم، وقد قدّرت صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية -استنادًا إلى مسوَّدة تقرير أعده مكتب محاسبة الحكومة الأمريكية- أنَّ حجم النفط الذي تم الاستيلاء عليه من قبل هذه الميليشيات – من إنتاج العراق اليومي المقدر بمليوني برميل- ما يتراوح بين ١٠٠ – ٣٠٠ ألف برميل.

التغيرات الاجتماعية في العراق بعد الغزو الأمريكي

د. حسين الرشيد: كاتب وباحث عراقي

مقدمة:

يـكاد يتفـق الجميـع على أنَّ الحروب تحطـم دعامات المجتمع، وتمزق نسـيجه؛ بسـبب الكوارث التي تسـببها، والتي تنعكس بصورة كبيرة على الوضع الداخلي للمجتمع، وما يتبع ذلك من تغيرات في القيم والأعـراف الاجتماعيـة السـائدة والمتوارثـة، ومع أنَّ محـاولات المجتمع في الحفاظ على تماسـكه وقيمه وعاداتـه وموروثاتـه الاجتماعيـة قائمـة، إلا أنه يواجه تحديًا كبيرًا في تحقيق التغيرات السـلبية؛ بسـبب التبعات الكبيرة والمآسي التي يتعرض لها أي بلد خلال الحرب، خاصة إذا كان جزء من أهداف الحرب المعلنة اسـتهدافَ القيم والهوية.. وهذه الحالة يمكن تتبعها في كل الدول التي تعرضت لحروب عدوانية، ولا بد من التأكيد هنا على أنَّ الحروب لها تأثيرها المباشـر على جميع مفاصل المجتمع، سـواء تلك التي تتعلق بالمجتمع والأسرة عمومًا، أو المرأة خصوصًا، وكذا ما يتعلق بالحالة المعيشية والخدمية والأخلاقية والتربوية والفكرية.

وإذا كان الغزو الأمريكي قد أحدث تغيرات عديدة في المجتمع العراقي، فإننا سنتناول جانبًا مهمًّا منها، مع الإشارة مقدمًا إلى أنَّ منهجنا في البحث يتبنى أسلوب التمثيل وليس الحصر، وذلك وفق الآتي:

المشاكل الأسرية في المجتمع العراقي بعد الغزو الأمريكي:

شهد المجتمع العراقي بعض التغيرات الأسرية، التي كان لها دورها الكبير في تراجع دور الأسرة الريادي، بما أعان على تفككها وتدميرها في أحيان كثيرة، ونريد هنا التطرق إلى أهمها، حسب الآتي:

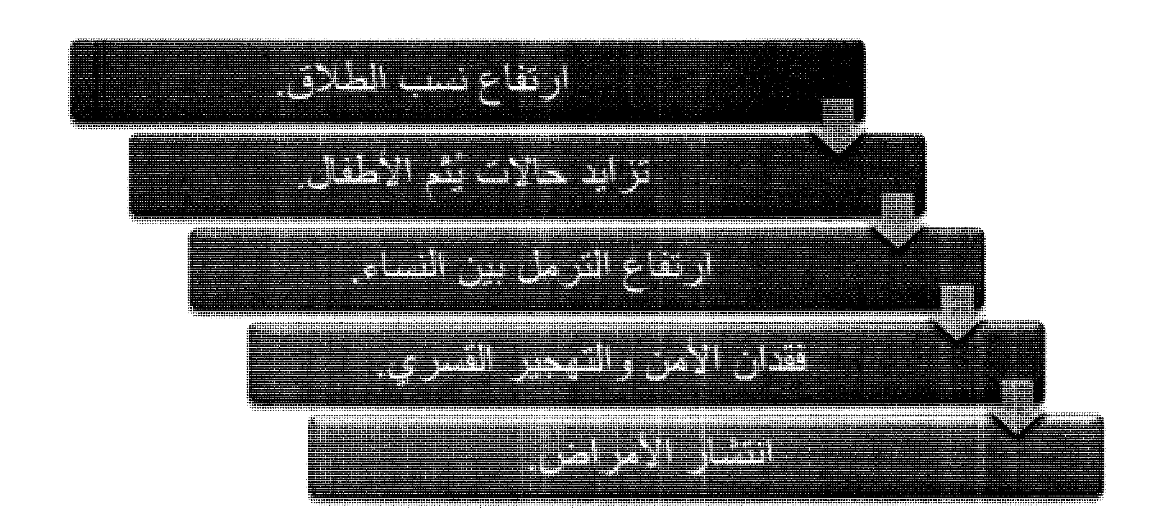
أولاً: ارتفاع نسب الطلاق:

أدى التغير الحاصل في المجتمع العراقي إلى تحول خطير في أغلب العادات التي نشأ عنها؛ إذ سادت النظرة المادية، وغابت المفاهيم التي كان يؤمن بها المجتمع العراقي.

وكان من اللافت للنظر هو الزيادة الحاصلة في حالات «الطلاق» التي لا بد أن تنعكس بالنتيجة على مستقبل المجتمع العراقي عمومًا.

وإذا كان تقرير الأمم المتحدة ينص على أنَّ معدلات الطلاق ارتفعت خلال الأعوام ٢٠٠٣م -٢٠٠٦م بنسبة ٢٠٠٪ في حين تراجعت نسبة الزواج في نفس الفترة إلى ٥٠٪، فإنَّ إحصائيةً أخرى ذكرت أنَّ حالات الطلاق

بعض المشاكل الأسرية في المجتمع العراقي بعد الغزو الأمريكي:



بلغت (١٣٣٣٤٨) حالة طلاق في عموم أنحاء العراق، منها (٩٤٤٠١) دعوى طلاق، و(١٠٩٠١) دعوى لطلب التفريق، بينما كان عدد طلبات تصديق الطلاق الواقع خارج المحاكم (١٣٠٢٦) حالة.

وأقرَّ بعض قضاة بغداد أنَّ عام ٢٠٠٤م شهد نحو (١٦١٧١٨) حالة طلاق، وشهد عام ٢٠٠٥م (١٤٥٤٤٤) حالة، أما حالات الزواج: فقد شهد عام ٢٠٠٤م (٣١٣٧٥٣) حالة زواج، وشهد عام ٢٠٠٥م (٣٤٢٢١١) حالة[١].

ويبدو أن البحث العلمي لأسباب هذه الظاهرة صعب في الوقت الراهن؛ فالعراقيون أمام استحقاقاتٍ سياسية وأمنية واجتماعية كبيرة، والتفكير في هذا الأمر يرتكز على الاحتلال، وفقدان الأمن، والاقتتال الطائفي، وعمليات التهجير القسري، والبطالة المستشرية ...إلخ

وفي ظل كل هذه الظواهر لا يمكن الحديث عن أبحاث حقيقية ميدانية لتفسير التغيرات الاجتماعية.. ولكن مع هذا يمكن الإشارة إلى بعض النقاط التي تعتبر جزءًا من أسباب انتشار هذه الظاهرة أو المساعدة على انتشارها في أقل تقدير :

١- الطابع الطائفي والعِرقي، الذي بدأ يلعب بتكوين الأسرة العراقية وتماسكها.
٢- التهجير القسري المستمر، الذي يطالُ أحد الزوجين دون الآخر؛ نتيجة الانتماء الطائفي أو العِرقي، فيكون الطلاق طريقًا سالكًا للفراق.
٣- الظروف الاقتصادية الصعبة، فضلاً عن انتشار البطالة؛ إذ يؤكد الباحثون على أنَّ للظرف الصعب أثرًا لا بأس به في تفاقم حالات الطلاق، التي قد يلجأ إليه بعض من أصابهم العوز، ممن لم يجدوا مخرجًا سوى الفراق.. وقبل تحديد نقاط العلاج أؤكد على أمرين مهمين:

أولاً: أنَّ أزمة الطلاق من الأزمات التي حلّت بالمجتمع العراقي مع الاحتلال، وأنه لم يكن يعرفه قبل الغزو، أو لم يكن على هذه الصورة من الانتشار.

ثانيًا: أنَّ العلاج في ظل هذه الأجواء التي شهدها العراق نتيجة الاحتلال غير مناسب وحجم الأزمة، في ظل التدهور الأمني الذي يعيشه العراق وتداعياته.

ولكني أقول معقّبًا على ذلك: إنَّ الحلول المناسبة، التي قد يكون لها تأثير مباشر في التخفيف من حدة هذه الأزمة تتمثل بالآتي:

(١) صحيفة المشرق العراقية في ١٢/٨/٢٠٠٦م.

١- التوعية الثقافية والدينية بخطورة الإقدام على مثل هذه الخطوة، وتذكير أبناء المجتمع بأنّ «الطلاق» من أبغض الحلال عند الله[٢]، فضلاً عن آثاره السلبية في تفكك الأسرة، وتسيب الأطفال، الذين سيتيهون دون مأوًى أو مربٍّ.

٢- عمل المؤسسات الحكومية والشعبية على توفير فرص العمل المناسب لأصحاب الأسر الفقيرة؛ إذ سيكون في ذلك غلق لباب كبير من الأبواب التي يدخل منها الطلاق.

٣- إيقاف عمليات التهجير القسري، بكل أنواعه وأشكاله، ولا سيما النوع الأخطر، الذي ينبني على أسس طائفية وعرقية، والعمل على إرجاع العوائل التي هجِّرت من بيوتها، وإدانة ومطاردة الميليشيات والجماعات كافة، التي تقف وراء هذه العمليات.

ثانيًا: تزايد حالات يُتْم الأطفال:

في ظل أوضاع أمنية متردية تعيشها بلاد الرافدين، منذ أكثر من أربع سنين، وعمليات عنفٍ دام ومتواصل تودي بحياة مئات العراقيين شهريًا، كان من الطبيعي أن ترتفع أعداد الأطفال العراقيين اليتامى، الذين فقدوا كلا الوالدين أو أحدهما؛ بسبب الغزو الأمريكي وتداعياته لبلادهم.

وإذا كان بعض المختصين يعترف بأنّ الوقوف على حجم مشكلة أعداد الأيتام في العراق - في ظل هذه الظروف- أمر في غاية الصعوبة؛ فإنّ تقارير أشارت إلى وجود نحو (٩٠٠) ألف يتيم في مدارس بغداد وحدها.. وأكدت دراسة متخصصة أنّ عدد الأطفال الأيتام في العراق يقدّر بـ ٤-٥ ملايين طفل[٣].. وأنهم في تزايد نتيجة للأعمال المسلحة، والوضع الأمني غير المستقر.. وتقول الدراسة: إنّ عددًا قليلاً جدًّا من الأيتام يحظون بخدمات من الدولة في دور أعدت لهم، لكن كثيرين منهم لا تتوافر لهم مثل هذه الفرص، مما يعني أنّ مصيرهم سيكون مجهولاً[٤].

وإذا كانت أعداد الأيتام في حقبة التسعينيات -مثلاً- تقدر بمليون ومائة ألف يتيم، فإنّ هذا الرقم تضاعف بشكلٍ خيالي خلال سني الاحتلال الأمريكي؛ نتيجة القتل العشوائي، وفقدان الأمن، في ظل تقصيرٍ واضح في تقديم الخدمات الضرورية لهذه الشريحة الكبيرة؛ إذ لا تمتلك الدولة سوى ٢٦ دارًا لإيواء الأيتام، ثمانية منها في بغداد، والبقية في محافظات العراق المختلفة، وكل دار من هذه الدور لا تسع أكثر من ألف شخص في أحسن الأحوال[٥].

ثالثًا: ارتفاع نسبة الأرامل بين نساء العراق:

معروفٌ أنّ المجتمع العراقي قد أصيب بالانهيار بعد الضربات المتتالية التي تلقاها في حربين إبّان ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، أعقبهما حصار ظالم استمر ثلاثة عشر عامًا، تلاه غزو دمّر البنية التحتية وهياكل المجتمع كافة، وكان نصيب الأسرة منها وافرًا؛ بسبب تزايد أعمال القتل الذي يطال الرجال غالبًا، مما ترك مجموعة كبيرة من النساء الأرامل في المجتمع، الذي لا يزال تتصاعد فيه وتيرة العنف والدمار.

وإذا كانت أحدث تقارير مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية تقدر عدد الأرامل والعوانس في العراق بثمانية ملايين، فإنّ سجلات وزارة شؤون المرأة في العراق تؤكد وجود ثلاثمائة ألف أرملة في بغداد وحدها، وإنّ ما بين ٩٠-١٠٠ امرأة عراقية تترمل كل يوم؛ نتيجة أعمال القتل، والعنف الطائفي، والجرائم المنظمة.. حتى باتت نسبة الأرامل تشكّل نحو ٣٥٪ من عدد نفوس العراق، أي ما يعادل ٦٥٪ من عدد نساء العراق، ونحو ٨٠٪ من النساء المتزوجات، ما بين سن العشرين والأربعين عامًا.

ولم تتمكن وزارة الشؤون الاجتماعية العراقية من تسجيل سوى ٥٦٠ ألفًا من أعداد النساء الأرامل،

(٢) روي هذا الحديث موصولاً ومرسلاً، وللعلماء في تصحيحه أو تضعيفه كلام طويل، ينظر الجوهر النقي لابن التركماني مع السنن الكبرى للبيهقي (٢٢٢/٧-٢٢٣)، والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١٩٦/٢).

(٣) الدراسة أجرتها منظمة اليونيسف التابعة للأمم المتحدة في بغداد، ينظر: موقع شبكة الأخبار العربية «محيط» بتاريخ ٢٠/٤/٢٠٠٧م.

(٤) من مقالة للأستاذ عبد المجيد خضير مدير تحرير وكالة حق في ١٧/٨/٢٠٠٧م.

(٥) ينظر: موقع شبكة الأخبار العربية، بتاريخ ٢٠/٤/٢٠٠٧م.

بينما سجل مكتب التنسيق الإنساني للأمم المتحدة في العراق أنَّ النساء اللاتي ترملنَ بسبب الحرب وأصبح أطفالهنَّ مشردين من عرب الأهوار فقط، وصل عددهنَّ إلى مائة ألف امرأة، في وقت تؤكد فيه بعض الدراسات وجود ما يزيد على مائة وخمسين ألف امرأة في العاصمة بغداد وحدها.

وقد أظهرت دراسة خاصة لمنظمة اليونسيف التابعة للأمم المتحدة أجرتها نهاية العام الماضي (٢٠٠٦م) وجود أكثر من مليون ونصف من النساء الأرامل في العراق، إضافة إلى مئات الآلاف من المطلقات.

وأيًّا كانت الإحصائية الدقيقة، فإنَّ الأمر في النهاية مشكلة حقيقية لا يمكن تجاهلها بحالٍ من الأحوال، وهو بذلك يستدعي حلولاً مناسبة في ظل الظرف العصيب الذي يمر به بلد مثل العراق، مما يستدعي مزيدًا من التكاتف والتلاحم لتجاوزه.. ولذا فإنني أؤكد هنا على أنَّ العلاج الناجع لتجاوز هذه الأزمة هو أن تتكاتف مؤسسات المجتمع المدني -لأننا لا نعول كثيرًا على المؤسسات الحكومية- على إشاعة روح الألفة، وتوعية أبناء المجتمع من الرجال على لمِّ شمل هؤلاء الأرامل وأطفالهنَّ، ومحاولة إشاعة الامتيازات الدينية لمن يقوم بمثل هذه الأدوار المشرفة، على اعتبار أنَّ من يرعى أرملة، أو يكفل يتيمًا فإنَّ له منزلة عظيمة عند الله، وربما تكون سببًا في رفع درجته وإدخاله الجنة[٦].

وهذا ما قام به بعض مشايخ وعلماء «الفلوجة» لتجاوز معضلة هؤلاء الأرامل؛ من خلال مشروع يقوم بالعمل على تزويجهنَّ ورعايتهنَّ، وإنّ العشرات وربما المئات من الأرامل تزوجن بسبب هذا المشروع.

رابعًا: الأمراض المنتشرة في المجتمع:

المتابع للشأن العراقي يجد أنَّ كثيرًا من الأمراض قد انتشرت في البلد بعد الغزو، وهي متنوعة ونحن نذكرُ أبرزها وأكثرها تهديدًا، لا سيما للعجزة والأطفال والنساء.. وهي:

١- **الكوليرا**: وهو أحد أمراض الجهاز الهضمي، وقد توقعت منظمة الصحة العالمية في وقت قريب من هذا العام وجود ما يقرب من سبعة آلاف حالة كوليرا في العراق[٧]، وأكدت بعد أقل من شهر تسجيل ٢١٠٠ حالة مؤكدة[٨]، ووصفته بأنه وباء واسع[٩].

٢- **الإسهال**: ويعتبر ثاني أكبر الأمراض المسببة لوفيات الأطفال في العراق، حسبما أقرَّ صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة «اليونسيف».

٣- **السرطان**: انتشر هذا المرض قبل أكثر من عقد ونصف على احتلال العراق؛ بسبب الآثار التي خلّفها استخدام القوات الأمريكية لقذائف اليورانيوم المنضّب في قصف أهداف عراقية، وبلغ عدد المصابين بالسرطان عام ١٩٩٧م (١٠٩٣١) عراقيًّا.

٤- **الحالة النفسية**: يعاني ربع سكان العراق من اضطرابات نفسية؛ نتيجة الحروب المتلاحقة، والعوز المادي، والاضطهاد السياسي[١٠].. وقد حذر تقرير نشرته «واشنطن بوست الأمريكية» قبل فترة وجيزة من التداعيات النفسية على الأطفال نتيجة الاحتلال وتبعاته، مستندة في ذلك على أقوال خبراء كثيرين من أصحاب الاختصاص، وأكدت على أنَّ هذا سيؤدي إلى خلق جيلٍ سيصبح أكثر عنفًا في المجتمع[١١].

٥- **الإيدز**: تفشى هذا المرض نتيجة الممارسات غير الأخلاقية، وانتشر الإيدز أيضًا بين النساء في الكثير من السجون، لا سيما أن أحد المراكز الصحية التابعة لمديرية الصحة في النجف أصدر تقريرًا يحذر فيه من تزايد أعداد الإصابة بهذا المرض، الذي يشكل منحدرًا خطيرًا، ظهرت تداعياته بعد الغزو الأمريكي للعراق[١٢].

٦- **الأمراض الوبائية**: تنتج هذه الأمراض عن الإشعاعات الكيماوية، وازداد انتشار المرض في المناطق التي شهدت مواجهات وحملات عسكرية كبرى، فترية

(٦) يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وفرج بينهما)) والحديث في صحيح البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري وبهامشه الصحيح ١٠/٥٣٦-٥٣٧.

(٧) وقد نقلت الخبر قناة (ANB) في ٢٠٠٧/٩/١١م.

(٨) وقد نقلت الخبر قناة الجزيرة الفضائية ٢٠٠٧/٩/٣٠م.

(٩) نقلته وكالة الأخبار العراقية يوم الجمعة ٢٠٠٧/٨/٣١م.

(١٠) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يراجع جريدة الشرق الأوسط، السبت، ٢٠٠٧/٣/١٠م.

(١١) نقل التقرير موقع وكالة الأخبار الإسلامية بتاريخ ٢٠٠٧/٦/٢٦م.

(١٢) جريدة العراق الإلكترونية بتاريخ ٢٠٠٧/٣/١٧م.

«مدينة الفلوجة» -مثلاً- تعاني من إشعاعات كيماوية، سيبقى تأثيرها السلبي ضد الإنسان والنبات على مدى خمسين عامًا مقبلة، وغالبية مواطنيها مصابون بتلك الإشعاعات السامة[١٣].

٧- **أمراض الأطفال**: كفقدان الوزن، وسوء التغذية، وآلام الرئة.

خامسًا: فقدان الأمن

أظهرت دراسة حديثة أنَّ العراق أخطر دول العالم، وأقلها أمنًا على الإطلاق، وعزت الدراسة سبب ذلك إلى الاضطرابات التي خلّفها الاحتلال الأمريكي[١٤].

وقد أفاد استطلاع للرأي أجرته محطة (BBC) البريطانية و(ABC) الأمريكية و(NHK) اليابانية، صدر مؤخرًا: أنَّ أكثر من ستة عراقيين من كل عشرة -أي ما يعادل ٦١٪- يرون أنَّ الوضع الأمني في بلادهم زاد سوءًا في الأشهر الأخيرة، بالتزامن مع نشر قوات أمريكية إضافية في العراق[١٥].. بل اعترف كبار جنرالات الاحتلال أنَّ قوات الأمن لا تسيطر إلا على نحو ٨٪ من مناطق بغداد -مثلاً- بعد ثمانية أشهر من إرسال التعزيزات الأمريكية[١٦]. وهذا يؤكد حقيقة مهمة، مفادها: أنَّ الأمن لا يفرض في البلد بالعدد والعدة مهما بلغ قوامهما، وإنما يعود بتوفر جملة من المناخات المناسبة، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية..

ولقد تسبب الفلتان الأمني الرهيب بعد الغزو بمقتل ما يقرب من مليون وربع عراقي، حسب دراسة أجرتها وكالة (ORB) البريطانية[١٧]، وهذه الدراسة وإن لم تكن دقيقة إلى حد اليتين، إلا أنها تثير من جديد شبح كون القتلى العراقيين بسبب الغزو هو أكثر بكثير، مما تعترف به الإدارة الأمريكية والبريطانية ووزارة الصحة العراقية.. وأكدت الدراسة أنَّ ٤٨٪ من القتلى ماتوا بسبب الطلقات النارية، و٢٠٪ من القتلى قضوا بالسيارات الملغمة، و٩٪ من القتلى قتلوا نتيجة القصف الجوي، وقتل ٦٪ في حوادث السير، و٦٪ أيضًا قتلوا بسبب الألغام والمواد المتفجرة الأخرى.

سادسًا: ظاهرة التهجير القسري:

تعدُّ ظاهرة «التهجير القسري» من أحدث المصطلحات التي غزت الشارع العراقي بعد الاحتلال، حتى باتت هذه الظاهرة الغريبة تثير المشاعر وتقلق النفوس.

وتخضع ظاهرة «التهجير القسري» في إطارها العام إلى أهداف ومصالح وأجندات سياسية، وهي تنطوي -عمومًا- على أغراض تتلخص بمحاولة تصنيع خطوط تماس عِرقية وطائفية، تعزل العراقيين فيما بينهم، على أساس الهوية الطائفية والعرقية، ضمن مناطق محدودة؛ تمهيدًا لتوفير المناخ المناسب، والأرضية الخصبة لحرب أهلية حاضرة، وبالتالي فرض تقسيم العراق كأمرٍ واقع إلى أقاليم ومقاطعات، لا مكان فيها للتنوع الطائفي والتعدد القومي القائم في العراق منذ زمن طويل، يتعايش أهله دون قتالٍ أو احتراب.

وهذه الظاهرة وإن شاعت بعد الاحتلال، إلا أنها تكثفت وتضاعفت بشكل واضح بعد أحداث تفجير قبتي المرقدين في سامراء؛ لتغدو ظاهرة طبيعية، يمارسها أفراد من ميليشيا بدر وجيش المهدي، يساعدهم كثير من أفراد الأجهزة الأمنية الحكومية، بما لم يعد خافيًا على المطلعين والمتابعين للشأن العراقي.

وبالنتيجة، فإنَّ سياسة التهجير القسري، المسكوت عنه حكوميًّا تارة، والموظّف سياسيًّا تارة أخرى، تعدُّ انتهاكًا صارخًا للحريات المتعلقة بالسكن والإقامة والتنقل وحق الحياة.

وقد أعلنت وكالة الأمم المتحدة للاجئين في منتصف هذا العام أنَّ أكثر من أربعة ملايين عراقي هربوا، وتركوا بيوتهم بحثًا عن ملجأ آمن، إما داخل العراق أو خارجه، ويُعتقد أن أكثر من مليوني عراقي قد

(١٣) ينظر وكالة الأخبار العراقية (واع) في ٢٠٠٧/٣/١١م.

(١٤) الدراسة أعدتها «مجلة إيكونومكس»، ونشرتها «صحيفة هارت الإسرائيلية» في الخامس من شهر يونيه ٢٠٠٧م، حسبما نقلته وكالة الأخبار الإسلامية.

(١٥) نقلت الاستطلاع شبكة النبأ المعلوماتية يوم الأربعاء الموافق ٢٠٠٧/٩/١٢م.

(١٦) صحيفة عكاظ السعودية، العدد ٢٢٨٨ بتاريخ ٢٠٠٧/٩/٢٢م.

(١٧) أذاعت هذه الدراسة قناة الشرقية الفضائية العراقية بتاريخ ٢٠٠٧/٩/١٦م.

شُـرِّدوا داخل العـراق، وأنَّ أكثر مـن مليوني وربع عراقـي أصبحـوا لاجئـين في دول الجـوار وغيرها، وحسب تقارير منظمات الإغاثة الدولية فإنَّ ما يقرب من نصف المهجّرين لا يحصلون على الحصة التموينية. وعدد اللاجئين في دول الجوار كالآتي:

١٤٠٠٠٠٠ لاجئ في سوريا.

٧٥٠٠٠٠ لاجئ في الأردن.

٢٠٠٠٠٠ لاجئ في الخليج.

٨٠٠٠٠ لاجئ في مصر.

وحسب دراسـة عراقية فإنَّ ٨٠٪ من المعتقلين الذين يطلق سراحهم يخرجون وقد تملكهم الخوف نتيجة ما عانوه مـن تعذيب وإذلال وإهانـة، مما يضطرهم لـترك البـلاد.. وقد نشـرت «جمعية ضحايا سـجون الاحتـلال الأمريكـي في العـراق» دراسـة أوضحت فيها بأنَّ ما يقرب من ٩٥٪ ممن يطلق سـراحهم بعد الاعتقال، لا يفكرون سوى بالهجرة من البلد، وعدم الرجوع إليه مرة أخرى[١٨].

وفي ظـل تأكيـدات المنظمـة الدوليـة للهجـرة باسـتمرارية ظاهـرة التهجـير، وأنَّ مـا يقـرب مـن مليـون عراقي آخرين ينتظرون سـاعة ترك منازلهم؛ فـإن نصيبًا كبيرًا من الحل الحقيقـي لهذه المعضلة المستشـرية بيد الكتل السياسية، التي تعمل في ظل الاحتـلال -حسـب ما أرى- وهـي قادرة علـى تغيير المسارات، وتقويم العمل، وبذل الجهد، وترك الأثر في الشارع، خاصة وأننا نعلم يقينًا أنَّ جزءًا كبيرًا من هـذه التكتلات يقف وراء هـذه الأعمال الإجرامية.. وهنا تكمنُ -إلى حـد ما- صحة القول بأنَّ الصراع في العراق سياسـي وليس طائفيًا، وإن كانت هناك بعض الآثار الملحوظة على المستوى الاجتماعي[١٩].

(١٨) موقع المسلم في ٢٠٠٧/٤/١١م.

(١٩) ينظر: حقيقة التهجير القسري في العراق، مقالة للباحثة منى إبراهيم، منشورة على الجزيرة توك بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٢م.

مشاكل المرأة في المجتمع العراقي بعد الغزو الأمريكي

إنَّ نظرةَ تأمـلٍ ومتابعةٍ لما وصلت إليه المرأة العراقية بعد الاحتلال الأمريكي وحتى يومنا هذا، يسـتطيع الباحـث والمتابع مـن خلالها أن يرى الفرق الشاسـع والمهول في وضعها علـى الأصعدة كافة.. فقد كان استقرار البنية الاجتماعية العراقية تصب فيه عوامل كثيرة يقف على رأسـها تماسـك الأسـرة العراقية، والقاعـدة الحقيقيـة لثبـات هـذا الكيـان (أعـني الأسـرة) هـي المـرأة العراقية؛ لما تحمل مـن مفاهيم أخلاقية، وإسلامية، وسمات عشائرية أصيلة.

وإذا كانـت الولايات المتحدة الأمريكية قد شـنت حربهـا الضروس ضد بلدٍ آمنٍ، تطغى فيه التركيبة النسـوية بنسبة ٦٢٪ أمام نسـبة الرجال البالغة ٣٨٪؛ فإنَّ الدراسات الحديثة كافة تؤكد على أنَّ النساء يُعتـبرن الضحايـا الرئيسـة للمعـارك والحـروب في زماننا، وأنَّ الحروب تترك آثارها الطويلة على النساء بشكلٍ خاص.. وعلى هذا فقد أصبحت المرأة العراقية هدفًا مركزيًا من أهداف الاحتلال؛ فقد استُهدفت بجميع الوسـائل، وبمختلف الطرق، فهي مسـتهدفة اقتصاديًا وخلقيًا وعلميًا وجسديًا وفكريًا، في إطار تغيرات حدثت بعد الغزو الأمريكي لعلَّ أهمها:

أولاً: عمل المرأة العراقية:

أوضح عدد من الدراسـات أنَّ المـرأة العراقية تعاني من الأعباء التي تفوق طاقتها، وأنها تتحمل المسؤولية المباشـرة عن الأسـرة، في ظل الفقر والبطالة وتردي الأوضاع الاقتصادية.. وأشير هنا باختصار شديد إلى أبرز الأسباب المباشرة التي تقف وراء هذه الظاهرة:

١- فقـدان المُعِيل، وقد بلغ عـدد المفقودين في العراق أكثر من مليون شخص[٢٠].

٢- اعتقـال مُعِيل الأسـرة من قبل قـوات الاحتلال أو الأجهزة الحكومية، والزج به في السجون.

٣- غياب الدور المؤسساتي الذي يُعنى بشؤون الأسر، وتوفير العيش الكريم لها.

(٢٠) نقلاً من الموقع الرسمي لهيئة علماء المسلمين بتاريخ ٢٠٠٧/٩/١٥م.

وتتمثل طرق المعالجة الحقيقية لهذه الظاهرة بقيام المؤسسات الرسمية والشعبية بدورها الحقيقي، وأن تتحمل المؤسسات الحكومية المسؤولية الكاملة عن هذا الأمر، خاصة أنَّ المادة (٣٠) من الفقرة (أولاً) من الدستور العراقي (الجديد) تنص على أنَّ الدولة تكفلُ للفرد والأسرة -وبخاصة الطفل والمرأة- الضمان الاجتماعي والمقومات الأساسية للعيش في حياة حرة وكريمة.. فضلاً عن ضرورة تفعيل الوزارات التي تُعنى بشؤون المجتمع عمومًا والمرأة خصوصًا؛ لممارسة دورها في إصلاح الخلل والتردي الخدمي والمعيشي، كإعادة العمل بنظام البطاقة التموينية، التي شهد العمل بها تراجعًا ملحوظًا في سني الاحتلال.. ولا يمكن لأي مواطن -رجلاً أو امرأة- أن يعمل في ظل العوائق المتعددة التي تقف في طريق الرزق كالعمليات العسكرية، والاعتقالات العشوائية، وحظر التجوال، وما شابه ذلك.

ثانيًا: اختطاف المرأة واغتصابها

تعيش المرأة العراقية حالة نفسية مضطربة، يملؤها الخوف والرعب، في ظل انتشار ظاهرة الخطف والاغتصاب.. ولوحظ على أرض الواقع – مثلاً- ترك كثير من النساء لوظائفهنَّ؛ بسبب فقدان الأمن، والخوف من الممارسات اللاأخلاقية ضدهنَّ.

وفي كل الحروب التي دارت رحاها على الأرض منذ القرون الوسطى لم تُسجل جرائم وانتهاكات قذرة وقعت على المرأة، بحجم الجرائم الكبرى التي ارتُكبت ضد المرأة العراقية من قبل قوات الاحتلال الأمريكي، وتشكيلات حكوماته الأربعة[٢١].. وقد أعلنت منظمة «حرية المرأة العراقية» بالتزامن مع «يوم المرأة العالمي» في الثامن من شهر مارس ٢٠٠٦م عن اختطاف أكثر من ألفي امرأة، منذ دخول قوات الاحتلال إلى العراق.. وتعود أسباب الاختطاف في أغلب الأحوال إلى أمرين رئيسين، هما:

١- الفدية التي تُطلب من أهل المخطوفة أو زوجها.

٢- الاتجار بها، وتحويلها إلى سلعة جنسية رخيصة.

وانتشرت في المجتمع العراقي «ظاهرة الاغتصاب» أيضًا، التي يعد «فقدان الأمن» أبرز أسبابها، وقد تواترت الشواهد التي تحدثت عن اغتصاب عدد من جنود الاحتلال وقوات الجيش والشرطة الحكومية الحالية لبعض النساء العراقيات، وظهر اعتراف بعضهنَّ أمام شاشات التلفزة قبل فترة من الآن.. وقد كشفت -على استحياء- مصادر أمريكية وبريطانية في وقتٍ مبكر[٢٢] عن حالات كثيرة لنساء عراقيات تعرضن للاغتصاب والاعتداءات والإساءات الجنسية على يد جنود أمريكيين.. واعترف المتحدث باسم البنتاغون في الشهر الخامس من عام ٢٠٠٤م بوجود ألف ومائتي إهانة جنسية في معتقل أبو غريب وحده، مما لم ينشر إلى الآن[٢٣].

ثالثًا: الاتجار بالمرأة العراقية:

تعدُّ «التجارة الجنسية» أو ما يعرف بـ «تجارة الرقيق الأبيض» من أقذر الظواهر التي تم تشجيعها بعد الغزو الأمريكي للعراق؛ إذ قامت الولايات المتحدة الأمريكية بفتح شركات متخصصة للاتجار بالجنس لأول مرة في تاريخ العراق.

وقد كشف تقرير ميداني مع بعض شخصيات مافيا الجنس: أنَّ تجارة الجنس تشهدُ رواجًا كبيرًا على الحدود العراقية، وتؤكد الشواهد أن عصابات الجنس تعملُ في وضحِ النهار، ومهمتها خطف النساء والفتيات والأطفال، وبيعهم لجهاتٍ خارجية بمبالغ متفاوتة؛ حتى أكدت «منظمة حرية المرأة العراقية» أنَّ النساء أصبحنَ بضاعة رخيصة قابلة للمبادلة في عملياتٍ يومية، وأنهنَّ أصبحن سببًا في تجارة مزدهرة في العراق، وتعد الأكبر من نوعها في العالم[٢٤].

إنَّ المؤسسات الحكومية العراقية المعنية بمعالجة هذه الظواهر مطالبة بتحمل مسؤولياتها، في وقت تنص فيه المادة (٣٥) من الفقرة (ثالثًا) من الدستور العراقي الجديد – الذي كُتب في زمن الاحتلال- على «حرمة الاتجار بالنساء والأطفال والاتجار بالجنس».

(٢١) ينظر: جريدة العراق الإلكترونية في ٢٠٠٧/٣/١٧م.

(٢٢) تحديدًا في يوم الأربعاء الموافق ٢٠٠٤/٥/١٢م.

(٢٣) ينظر: إسلام أون لاين، تقرير منشور بعنوان «سجينات عراقيات بين رحى الاغتصاب والتكتم» في ٢٠٠٥/٦/٢٣م.

(٢٤) الفوضى الخلاقة الفوضى في العراق، للكاتب سعدون المشهداني منشورة على موقع البصرة الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٢٩م.

رابعًا: تغريب المرأة العراقية:[٢٥]

معلوم أنَّ الدول الغربية – وتقفُ على رأسها أمريكا – تضغط منذ سنين على العالم العربي بطرح المفاهيم الغربية فيما يتصل بالمرأة -وهي تختلف عن المفاهيم الإسلامية- ويحاولون فرضها على أساس أنها وحدها الحقيقة التي يجب اتباعها، وأنَّ من يخالفها يتبنى أعرافًا وتقاليد رجعية بالية .. وصار من معالم السياسة الأمريكية في مجال المرأة ما أصبح يُعرف اليوم بـ «سياسة تمكين المرأة»، وخصصت موارد مالية ضخمة، ووضعت تشريعات وإجراءات، تهدفُ كلها إلى إيجاد طبقة من النساء المشتغلات بالأعمال والوظائف السياسية والاجتماعية والعلمية، يكون ولاؤهنَّ لأمريكا؛ باعتبارها التي قدمت لهنَّ الحرية، وعملت على تمتعهنَّ بالسلطة والنفوذ.

وما يجري في العراق اليوم نسخة مصورة عن هذه الحقيقة، التي تكمن وراءها عدة أهداف تريد الولايات المتحدة تنفيذها على أرض الرافدين، بمشاركة بعض النسوة اللاتي ارتضينَ هذا المشروع.

وقد عملت أمريكا على مدى الأعوام الماضية من عمر الاحتلال في مجال ما يسمى «الجمعيات النسوية»؛ إذ تقوم مختلف الأجهزة والوكالات الأمريكية باصطناع مثل هذه الجمعيات، وإغداق جميع أنواع الدعم المادي والمعنوي عليها، ودفعها لكي تتخذ سياساتٍ معادية للإسلام وقيمه، وتصبُّ في اتجاه تغريب المرأة وأمركتها، ونشر القيم العلمانية، تحت شعار تقديم معونات اقتصادية واجتماعية لهنَّ، تتخذ من خلاله وسيلة لتثبيت سياسات معادية للإسلام بين هؤلاء النسوة[٢٦].

(٢٥) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يراجع «المرأة العراقية في جحيم الاحتلال» للكاتب عماد عبد العزيز، مجلة البيان.

(٢٦) أبعاد التدخل الأحادي الغربي – تقرير: ليلى بيومي.

وقد بدأت وزارة الخارجية الأمريكية أواخر عام ٢٠٠٤م بتنفيذ مبادرة تلتها أخرى لمساعدة العراقيات على تطوير دورهنَّ في المجتمع، وهما:

١- مبادرة الديمقراطية النسائية: وهي برنامج خصص له عشرة ملايين دولار أمريكي، ويهدفُ إلى تدريب العراقيات على مهارات الحياة العامة والديمقراطية، وممارستها.

٢- مبادرة الشبكة النسائية الأمريكية العراقية: ومهمتها إقامة اتصالات بين القطاع الخاص في أمريكا والنساء في العراق؛ لإيجاد رابط بين موارد مالية في أمريكا واحتياجات في العراق.

تبلورت الأموال والجهود التي قدمتها أمريكا في تشكيل جمعيات ومنظمات ونقابات مهنية ومراكز تدريب نسوية، تعملُ على تنفيذ المخطط الأمريكي.

وقد صدر عن وزارة الخارجية الأمريكية في شهر شباط عام ٢٠٠٥م بيان تحت عنوان «الولايات المتحدة الأمريكية ملتزمة بدعم المرأة العراقية في المجالات المختلفة»، وقد خصص مبلغ قدره نصفُ مليار دولار من المبالغ المخصصة لإعادة إعمار العراق، لمشاريع تساعد المرأة العراقية في عمليتي التنظيم الديمقراطي، والمناداة بالأفكار الغربية ومناصرتها، وحشد التأييد لها.

وقد تبلورت الأموال والجهود التي قدمتها أمريكا في تشكيل جمعيات ومنظمات ونقابات مهنية ومراكز تدريبٍ نسوية، تعملُ على تنفيذ المخطط الأمريكي، وأهمها:

١- منظمة حرية المرأة: وأهم أهدافها اعتبار تطبيق أحكام الشريعة انتهاكًا صارخًا لحقوق المرأة.

٢- منظمة آفاق العراق الجديد: ومهمتها تقديم التقارير للاحتلال عن فرص عمل النساء.

٣- مراكز نشر الفكر العلماني: وأهم هذه المراكز «مركز النخلة الخضراء» و«مركز المنصور للفرص النسائية» و«مؤسسة مركز الحوراء» و«مركز الديوانية لحقوق النساء» و«مركز فاطمة الزهراء لحقوق النساء في الحلة» و«مركز ختو زين للعمل الاجتماعي في أربيل» ..

وكل هذه المراكز تمول أمريكيًا، ومهمتها: الإسهام في إشاعة الفكر الإلحادي بين نساء العراق بحجة الديمقراطية والحرية والمساواة(٢٧).

المشاكل المعيشية في المجتمع العراقي بعد الغزو الأمريكي «البطالة أنموذجًا»

يعاني الاقتصاد العراقي من تردٍّ كبير في مستوى أدائه؛ فالمعيشة في أدنى مستوياتها، والبطالة ضاربة أطنابها في المجتمع، وبلغت نسبتها ٧٠٪ -سوى مجالي الجيش والشرطة- مما ولّد معاناة كبيرة لدى الأسرة العراقية، التي بات كثير منها لا يستطيع توفير القوت اليومي.

وهذه المعاناة المعيشية الجديدة - التي تفاقمت بشدة بعد الغزو الأمريكي- جاءت بعد معاناة متراكمة؛ جراء الحصار الذي استمر أكثر من عقد من الزمن، وقد أدى ذلك إلى حدوث تفكك في بناء الأسرة؛ إذ اضطر كثير من الأسر إلى دفع أبنائهم إلى العمل في مهن الشوارع، التي كثيرًا ما تكون بيئة صالحة للانحراف الخلقي، فضلاً عن هجر مؤسسات التعليم، لصعوبة الجمع بينها وبين العمل.

وقد أكدت دراسة حديثة -أجراها الجهاز المركزي للإحصاء في العراق، وأصدرها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي- أنَّ ثلث سكان العراق يعيشون في فقر، بينما يعيش أكثر من ٥٪ في فقر مدقع، وأنَّ نسبة عالية من العراقيين يعيشون مستويات مختلفة من الفقر والحرمان، على الرغم من الموارد الطبيعية والمادية الهائلة في البلاد.. وتؤكد الدراسة أيضًا أنَّ هناك اختلافًا كبيرًا في مستوى المعيشة في البلاد، فتعاني المنطقة الجنوبية في العراق من حرمان هائل، وتردٍّ كبير في مستوى المعيشة والخدمات، تتبعها المنطقة الوسطى -بما فيها العاصمة بغداد-، وبعدها المنطقة الشمالية، التي يتمتع أغلبها بحكم ذاتي منذ سنين.. وقد أكدت دراسة مهمة أنَّ العراق احتل ذيل الترتيب العالمي، خلف مجموعة من أفقر دول العالم على الإطلاق(٢٨).

وعطفًا على ما تقدم ذكره؛ فإنه لا يمكن النظر إلى حلولٍ واقعية للتردي المعيشي الذي يعمُّ بلاد الرافدين، واكتوى بناره جمهرة كبيرة من أبنائه الذين لا تتوافر لديهم فرص العمل، إلا بالتفكير الجدي لإعادة الأمن والاستقرار إلى البلد، فضلاً عن العمل على إعادة جهود الوزارات والمؤسسات التي تهتم بتوفير فرص العمل لأبناء المجتمع عمومًا، والشباب خصوصًا.

المشاكل الخدمية في المجتمع العراقي بعد الغزو الأمريكي «الكهرباء أنموذجًا»

يعيش العراق بعد الغزو الأمريكي تدهورًا كبيرًا على المستوى الخدمي، كتوفير الماء والكهرباء والوقود وغيرها.. وإذا كانت الأزمة الخدمية متسعة الجوانب وتحتاج إلى بسط، فإنني أريد أن أركز على مشكلة الكهرباء، التي شُلَّت حياة المواطن بفقدها، فأبدأ بما تقوله مؤسسة بروكينجر- التي تجمع معلومات عن العراق- ومقرها في واشنطن: إنّ متوسط الإمداد اليومي بالكهرباء ٥-٦ ساعات، مقارنة بنحو ١٦-٢٤ ساعة قبل الغزو الأمريكي(٢٩).

وفي الوقت الذي يقر فيه العراقيون أنَّ معظم الخدمات -ومنها الكهرباء- في أسوأ مستوياتها منذ عقود؛ فإنَّ وزراء الكهرباء في الحكومات المتعاقبة بعد الاحتلال يؤكدون على أنَّ سبب تردي ذلك يرجع إلى التخريب المنظم، والإجراءات المطولة لتوفير التمويل لمشروعات صيانة جديدة، وقد نشرت «الواشنطن بوست» أنَّ العراق يحتاج إلى خمسين مليار دولار لإصلاح قطاعي النفط والكهرباء(٣٠).

ومن خلال المتابعة لهذه المشكلة أستطيع أن أحدد أبرز الأسباب التي أدت إلى حرمان المواطن العراقي من نعمة الكهرباء منذ سنين.. وهي:

١- تعرض محطات التوليد الرئيسة والفرعية، وكذا الخطوط الناقلة إلى القصف الأمريكي، نتيجة العمليات العسكرية التي تحدث يوميًا في العراق.

---

(٢٧) المرأة العراقية في جحيم الاحتلال، للكاتب عماد عبد العزيز، مجلة البيان.

(٢٨) من موقع قناة CNN العربية بتاريخ ١١/٥/٢٠٠٧م.

(٢٩) شبكة النبأ المعلوماتية- الخميس ٢٦ /٧/٢٠٠٧م.

(٣٠) حسب ما نشرته الجزيرة الفضائية، وينظر: وكالة الأخبار العراقية (واع) بتاريخ ٢/٩/٢٠٠٧م.

٢- الفساد الإداري والمالي، وإشراف غير المختصين على هذا القطاع.. ويؤكد الكثيرون أنَّ قطاع الكهرباء يديره أناس لا علاقة لهم بالكهرباء، فضلًا عن تعرض المهندسين والعاملين إلى التصفيات الجسدية والاختطاف، وقد أوضح وزير الكهرباء في حكومة المالكي: أنَّ ما يقرب من ألف ومائة من عمال الكهرباء في عداد المفقودين.

٣- عدم الجدية في معالجة الأزمة وإصلاح هذا المرفق الحيوي، وقد اعترف وزير الكهرباء نفسه بأنَّ قطاع الكهرباء لم يلق عناية ورعاية حقيقية خلال السنوات التي تلت الاحتلال، وأنه لم تكن هناك خطة لإصلاح وإعادة تأهيل الشبكة الكهربائية[٣١].

٤- رفض المحافظات التي تحتضن محطات التوليد تقاسم الطاقة الكهربائية، واحتكارها على مناطقهم خاصة، وقد أوضح وزير الكهرباء في تصريح له أنَّ العاصمة بغداد شبه مشلولة؛ بينما تحصل بعضُ مدن العراق على التيار الكهربائي دون انقطاع.

٥- ومن بين الأسباب ما ينتج عن ردود فعل المحتلين الغزاة عند تعرضهم للمقاومة في أي مدينة أو منطقة، فنجد أنَّ قوات الغزو حينما تتعرض لمقاومة تتسبب في قتل جنودهم أو إيذائهم أو حرق آلياتهم يقومون بقطع التيار الكهربائي عن تلك المنطقة؛ عقوبة لأهلها المقاومين، وقد تواترت الأنباء عن تكرار قوات الاحتلال لقولهم -وهم يجوبون شوارع مثل هذه المدن-: أعطونا الأمان نعطيكم الماء والكهرباء.

المشاكل الأخلاقية والتربوية في المجتمع العراقي بعد الغزو الأمريكي

أولاً: انتشار ظاهرة زواج المتعة:

لوحظ بعد الاحتلال الأمريكي انتشار ما يسمى زواج المتعة في مناطق عديدة من العراق، خاصة مناطق الجنوب.. ويعتبر هذا الزواج أحد مظاهر تفتت المجتمع، وانهيار قيمه الأصيلة التي يحملها.. ويبدو -والله أعلم- أنَّ الذي ساعد على انتشار مثل هذا الزواج ما يأتي:

١- الهروب من الوضع الاقتصادي المتردي، فضلاً عن عوائق الزواج الدائم، التي أوجدتها المظاهر الاجتماعية الكاذبة.

٢- انهيار القيم وتوفر المناخ المناسب لممارسة الأفعال المشينة بحجج الحرية والديمقراطية.

٣- الفتاوى التي يتبناها مراجع مكوّن معين في الشارع العراقي.

وهذه الأسباب الثلاثة -بمجموعها- إحدى النتائج الخطيرة المباشرة لاحتلال العراق، التي تدفعُ بالبلد إلى تفتت المجتمع وانهياره.. وإذا كان الباحثون يختلفون في بروز ظاهرة زواج المتعة في المجتمع العراقي[٣٢] فإنهم يتفقون تمامًا على أنَّ الغزو الأمريكي للعراق فاقمَ الأزمة، وأفسح المجال أمام الشباب والشابات لممارسة هذا النوع من الزواج، في ظل التدهور الأمني، وغياب المؤسسات الرقابية والشرعية، وفتح الباب على مصراعيه لفتح المكاتب العلنية، التي تعملُ على التوسط لإتمام مثل هذه الظواهر الهابطة.

ويبدو لي أنَّ الحل الحقيقي لهذا الزواج وما يترتب عليه يعود إلى جملة من حملات التوعية، التي تتمثل بضرورة المحافظة على الأعراض من أن تتعرض لأي من الممارسات التي تعين على إهدارها أو الاعتداء عليها، ومحاولة سنّ القوانين التي تجرِّم هذه الممارسات، وتشجيع الشباب على الزواج، وتحقيق غاياته العظمى من الإحصان وتكثير سواد الأمة.. وكذلك التنبيه على المخاطر الحقيقية الكامنة وراء مثل هذه الزيجات، وما يترتب عليه من اختلاط في الأنساب، وإهدار لحقوق المرأة، وما تجلبه من

---

(٣١) جاء التصريح في جريدة الصباح العراقية في يوم الاثنين ٢٠٠٧/٦/٤م.

(٣٢) يقول بعض الباحثين: إنَّ ظاهرة زواج المتعة ظهرت على استحياء في المجتمع العراقي للمرة الأولى منتصف التسعينيات من القرن الماضي، وتحديدًا عندما بدأت شركات السياحة بجلب أفواج سياحية من شيعة الخليج وإيران، وتركزت في مدن العتبات المقدسة، لكنها وجدت في محافظة كربلاء الجنوبية وفنادقها السياحية ازدهارًا لم تشهده في المدن العراقية الأخرى، وكانت هناك مكاتب لهذا الزواج، يديرها معممون في الشوارع المتفرعة والمحيطة بمقامي الإمامين الحسين والعباس رضي الله عنهما. ينظر: موقع «العربية نت» مقالة بعنوان «ازدياد الإقبال على زواج المتعة في العراق» يوم الثلاثاء ٢٢ رجب ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤/٩/٧م.

أمراض، فضلًا عن دور هذا الزواج في عزوف الشباب والشابات عن الزواج الدائم المحترم في ظل الاكتفاء بمثل هذه الممارسات المؤقتة.

ثانيًا: انتشار ظاهرة المخدرات، والاتجار بها:

كان العراقي يفتخر بأنه يعيشُ في بلدٍ نظيفٍ من سموم المخدرات، وكان المواطن لا يرى متعاطي المخدرات وهم ملقون على قارعة الطريق في بغداد الرشيد، ولم نر -في يوم ما قبل الغزو- زوايا مظلمة يتبادلُ فيها المدمنون حقنَ الشر والرذيلة.. أما بعد الغزو، وفي ظل صمت من قوات الاحتلال الأمريكي والحكومة ظهرت عادة تعاطي المخدرات والاتجار بها بشكل واضح في العديد من المناطق، بعد أن كانت من المحرمات، التي تُفْضِي في كثير من الأحيان بمتعاطيها أو تاجرها إلى عقوبة الإعدام..

وفي تقرير لجمعية الإصلاح لمكافحة المخدرات في العراق تبين أنَّ عدد الذين يتعاطون المخدرات في ازدياد؛ بسبب الحرب التي تسببت بالفوضى الأمنية، وحسب الإحصائية الصادرة عن وزارة الصحة العراقية، فإنَّ أكثر من أربعة وعشرين ألف عراقي قد تعاطوا المخدرات في عام ٢٠٠٥م وحده، ممن راجعوا الدوائر الصحية فحسب(٣٣)، فيما لم أطلع على إحصائية حقيقية لبقية سني الاحتلال، وأتحفظ على إحصائية وزارة الصحة، التي تفتقر إلى مقومات الإحصاء الهادف؛ بسبب ضعف المؤسسات المنضوية تحتها.

وأؤكد هنا بأنَّ واقع الحال والسرعة الكبيرة التي ظهرت فيها المخدرات في الشارع العراقي بعد أيام من الاحتلال، وما رافقه من صمت مريب من قبلُ السياسيين، كل ذلك يؤكد بالدليل الملموس أنَّ انتشار المخدرات لم يكن -إطلاقًا- رد فعلٍ ناجمًا عن الإحباط أو اليأس، الذي سبَّبه الاحتلال والعنف الطائفي، بل إنَّ الأمر كان صفحة سياسية من صفحات الحرب البشعة، التي تعرض لها العراق.. ومن أهم المشاكل التي تقف وراء انتشار هذه الظاهرة، وتكونت بسببها عقبات وقفت في طريق معالجتها أو الحد منها ما يأتي:

(٣٣) من مقالة منشورة على الإنترنت بعنوان «دول تجد في العراق مرتعًا خصبًا لتجارة المخدرات» بقلم الكاتب: ماهر حميد عبد الله.

١- المشكلة الأمنية: التي ترتب على وجودها كافة المظاهر المزرية، في ظل غياب السلطة الحكومية، وعدم كفاءة الأجهزة الأمنية، بالإضافة إلى قلة الملاك الفني والأجهزة الخاصة بتعقب المتعاطين والمهربين والمروجين لهذه الآفة.
٢- المشكلة الرقابية: في ظل غياب الرقابة داخل الأراضي العراقية، التي تدخل إليها كميات كبيرة من المخدرات عبر دول الجوار(٣٤).
٣- المشكلة القضائية: وقد اتسم القضاء في فترة ما بعد الغزو بالتراخي في التعامل مع الجناة؛ فأغلب الذين يقبض عليهم يطلق سراحهم؛ في ظل تفشي الفساد، وانتشار الرشوة(٣٥).
٤- المشكلة الجغرافية: بسبب جوار العراق لإيران التي تُنتج المخدرات وتروِّج لها.. ويعمل عدد كبير من مواطنيها على إدخال هذه الآفة للعراق، وخاصة المناطق الجنوبية منه(٣٦).

وقد أكد تقرير صادر عن اللجنة الوطنية العراقية لمكافحة المخدرات أنَّ نشاط مهربي المخدرات ينحصر بمنافذ متنوعة مع دول الجوار، أخطرها «إيران» التي يبلغ عدد المدمنين فيها -حسب تقارير دولية- مليوني مدمن، بينهم ٧٨٠ ألف طالب(٣٧).

ولعلَّ أهم طرق معالجة هذه الآفة تتمثلُ بالآتي:

١- ضبط الحدود مع دول الجوار، وتعزيز حالة الأمن، وتوفير أجهزة الكشف فيها.
٢- تدريب موظفي الحدود والموانئ البرية والبحرية والجوية على برامج مكافحة المخدرات، في دورات تدريبية تخصصية.
٣- بثُّ الوعي لدى الجماهير بخطورة هذا الأمر، من خلال المؤسسات الاجتماعية (الأسرة، المدرسة، المسجد، وسائل الإعلام) وتشجيع المواطنين

(٣٤) ينظر على سبيل المثال: مجلة الصوت الآخر الأسبوعية، العدد ٢٨ في ٢٠٠٤/١٢/٢٠م.
(٣٥) ولمزيد من المعلومات تراجع مقالة الكاتب: ماهر حميد عبد الله، بعنوان «دول تجد في العراق مرتعًا خصبًا لتجارة المخدرات».
(٣٦) لمزيد من الاطلاع على هذه الجزئية تحديدًا، راجع التقرير السنوي الذي نشرته مفكرة الإسلام على موقعها الإلكتروني تحت عنوان «حقائق خطيرة تنشر لأول مرة: الدور القذر للمخابرات الإيرانية في العراق» بتاريخ ٢٠٠٥/٨/٢٨م.
(٣٧) من مقالة «المخدرات في العراق: الواقعُ المرير» منشورة على الإنترنت.

على ضرورة تبليغ الجهات المسئولة لدى توفر أي معلومة عن هذه الآفة الخطيرة، ولا بأس من رصد مكافآت مالية للمبلّغين؛ تقديرًا لجهودهم.

٤- تشديد الرادع القانوني لمروجي المخدرات ومتعاطيها والمتاجرين بها، وتعزيز العقوبات، بما فيها عقوبة الإعدام.

ثالثًا: شيوع السرقات والفساد:

بعد ساعات من استيلاء قوات الغزو على بغداد، شاعت عمليات السرقة والسلب والنهب بشكل كبير، في ظل غياب السلطة الرادعة، وحلّ الأجهزة الأمنية والعسكرية.. وتحت عيون قوات الاحتلال استغل آلاف العراقيين حالة الفوضى التي عمت البلاد، وانشغال الأمريكيين بتأمين أنفسهم، وترتيب موقعهم انطلقت العصابات لسرقة القصور الرئاسية والدوائر الحكومية ومعسكرات الجيش، وانتشر السلاح بكل يد، وأصبح من الصعب إيقاف هذه الأعمال الوحشية، وصارت فيما بعد أكثر رواجًا وتنظيمًا.. وتعود أسباب ظواهر السلب والنهب وشيوع السرقات إلى ما يأتي:

١- الحصار الاقتصادي، الذي أصاب العراقيين على مدى ثلاثة عشر عامًا، وولّد حالة من ردة الفعل عند ضعفاء النفوس.

٢- الكثافة السكانية العالية في بعض المناطق، وخاصة العاصمة بغداد، في ظل غياب القانون، وحلّ الأجهزة الأمنية، وتوفير الغطاء للمجرمين من قبل قوات الاحتلال، التي كانت تتغاضى عن تلك الأفعال الهمجية.

٣- إطلاق سراح المجرمين من السجون، ويقدر عددهم بعشرين ألفًا من المحترفين، بينهم ٣٥٠ من المحكومين بجرائم القتل، و٧٤٢ من المحكومين بجرائم الخطف و١١٦٣٦ من المحكومين بجرائم السرقة.

٤- إيقاف العمل بالأحكام الرادعة، كعقوبة الإعدام التي كانت موجودة قبل الغزو الأمريكي للعراق.. وقد اتفق أهل القانون على أنَّ إيقاف هذه العقوبة أنعش الجرائم، وجعل المجرمين والسُّرّاق يزدادون شراسة.. وأكد استطلاع للرأي أجري في بغداد أنَّ ٢٨٪ من رجال القضاء العراقي يردون سبب ارتفاع الجريمة إلى منع عقوبة الإعدام[٣٨].

وقد أخذت السرقات دورًا منظمًا من قبل الميليشيات، وصارت تلعب بمقدرات وثروات البلد، وأهمها النفط، الذي صار عُرضة للسلب والنهب والاغتصاب من قبل تلك الميليشيات المتنفذة في الحكومة اليوم، وقد قدّرت صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية -استنادًا إلى مسوَّدة تقرير أعده مكتب محاسبة الحكومة الأمريكية- أنَّ حجم النفط الذي تم الاستيلاء عليه من قبل هذه الميليشيات -من إنتاج العراق اليومي المقدر بمليوني برميل- ما يتراوح بين ١٠٠ - ٣٠٠ ألف برميل..

وعلى هذا تقدّرُ الأموال التي تباع بها هذه الكميات بـ ٥ - ١٥ مليون دولار يوميًّا، في حالة احتساب سعر البرميل الواحد بخمسين دولارًا فقط!! مما يعني أن مليارات الدولارات قد دخلت جيوب هؤلاء السُّرّاق، على مدى أربعة أعوام ونيف من عمر الاحتلال.

ووفق كل هذا أدى الفساد الإداري، وقلة خبرة المتصدرين لإدارة أموال العراق، وإقصاء المتخصصين بهذا الشأن، إلى ضياع مليارات الدولارات من أموال بلاد الرافدين، وفي العام الماضي وحده ضاع اثنا عشر مليار دولار من الأموال التي كانت مخصصة لإعمار العراق، حسب ما اعترف به الجنرال ستيوارت بوين المفتش الأمريكي العام لشؤون إعمار العراق[٣٩].

---

(٣٨) ظواهر اجتماعية نشأت في ظل الاحتلال، هاني عاشور.

(٣٩) وقد نقل التصريح عدد من وسائل الإعلام بتاريخ ٢٠٠٧/٤/٣م.

معلومات إضافية

مأساة أطفال العراق

- تسبب الحصار الذي فُرض على العراق ثلاثة عشر عامًا، ومن بعده الغزو الذي قادته الولايات المتحدة، في وفاة عدد كبير جدا من أطفال العراق!! وكشفت دراسة صحية عراقية أعدتها منظمة «أنقذوا الأطفال» أنَّ معدل وفيات الأطفال تضاعف إلى ١٥٠٪ ، وأنَّ طفلاً من بين كل ثمانية أطفال في العراق يموت قبل أن يبلغ سن الخامسة من عمره، بل إنَّ عام ٢٠٠٥م – على سبيل المثال- شهد وفاة ١٢٢ ألف طفل عراقي، حسب ما أكدت بعض الدراسات .. وتعود أسباب زيادة عدد الوفيات بين الأطفال العراقيين -عمومًا- إلى ما يأتي:
- الحصار الظالم، الذي فُرض على العراق منذ بداية التسعينيات، وحتى ما بعد الغزو الأمريكي، حيث شمل الحصار منع الغذاء والدواء، وحتى حليب الأطفال ومستلزماتهم الضرورية.
- الغزو الأمريكي؛ الذي ترتب عليه قصف همجي، وقتل عشوائي، طال العديد من الأسر البريئة، التي تتكون من عدد كبير من الأطفال في أغلب أحوالها.
- الأمراض المنتشرة في العراق، وتعود أسباب انتشارها إلى تداعيات الحصار، والتلوث البيئي الناتج بفعل الغازات السامة، التي استخدمتها -ولا تزال- قوات الاحتلال، وكذلك النقص الحاد في الماء الصالح للشرب والاستخدام، وانتشار الأمراض المنقولة بالمياه، وخصوصًا مرض «الكوليرا» في فصل الصيف.

وحسب الإحصاءات، فإنَّ محافظتي بغداد والأنبار احتلتا الصدارة في عدد قتلى الأطفال؛ وبلغ عدد الأطفال الذين قُتلوا -دون سن الثامنة- في النصف الأول من عام (٢٠٠٧م) أكثر من ٦٨٠٠ طفل عراقي.

من ناحية أخرى يواجه أطفال العراق مزيدًا من المآسي التي لم يكن يعرفها المجتمع العراقي من قبل، تقف في مقدمتها ظاهرة «الاغتصاب»، وقد أعلنت منظمة الطفولة العراقية أنها رصدت في عام ٢٠٠٥م وحده ما يزيد على ٧١ حالة اغتصاب، تعرض لها أطفال عراقيون لا تتجاوز أعمارهم العشر سنين، من قِبل جنود الاحتلال الأمريكي.

وترتبط بظاهرة الاغتصاب المشينة ظاهرة أخرى هي «ظاهرة الاتجار بالأطفال» بيعًا وشراءً.



أما على الجانب العلمي والفكري، فقد حدث تَدَنٍّ في مستوى الذكاء عند الطفل العراقي؛ بسبب فقدان الأمن، وسيطرة وحدات من جيش الاحتلال على عدد كبير من مؤسسات التعليم، وانتشار قواتهم في الشوارع، مما يسبب ذعرًا حقيقيًّا عند الطفل، وهو ما أدى إلى تدني مستوى التعليم، وترك ٢٢٪ من الأطفال مدارسهم خاصة في المحافظات الساخنة.

وعمل الاحتلال ومؤسساته على استهداف الأطفال فكريًّا وعقديًّا استهدافًا مباشرًا؛ إذ كشفت هيئة علماء المسلمين في العراق مؤخرًا عن قيام بعض المنظمات الأمريكية المسماة «معسكر الصليبيين العالمي من أجل المسيح» بتنصير أطفال العراق، وفق برامج عمل منظمة، استلزمت توزيع مطبوعات

ومنشورات ومناهج تنصيرية حديثة.

ونشر الموقع الرسمي لهيئة علماء المسلمين «الهيئة نت» تفاصيل مهمة بخصوص عمليات التنصير موثقة بالعديد من الصور.

أهم المصادر:

- جريدة الشرق الأوسط الدولية، العدد ١٠٤٠١، بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٢١م.
- سعدون المشهداني، الفوضى الخلاقة في العراق، موقع البصرة الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٦/١٠/٢٩م.
- تقرير «جمعية الطفولة العراقية»، موقع «نسيج الإخبارية» الإلكتروني في ٢٠٠٧/٦/٢٠م.

مشكلة اللاجئين العراقيين:

تصف تقارير المنظمات الدولية موجة نزوح اللاجئين العراقيين التي بدأت عقب الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م بأنها أكبر موجة هجرة تشهدها منطقة الشرق الأوسط منذ ترحيل الفلسطينيين عقب إعلان قيام «إسرائيل» عام ١٩٤٨م، وقالت منظمة الأمم المتحدة: إن واحدًا من كل ثمانية عراقيين نزح عن داره.

أعداد اللاجئين:

وبحسب تقديرات المفوضية العليا لوكالة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة حتى نوفمبر ٢٠٠٧م، تجاوز عدد اللاجئين العراقيين حتى نوفمبر ٢٠٠٧م أربعة ملايين بين نازح إلى مناطق داخل العراق، ولاجئ خارجه.

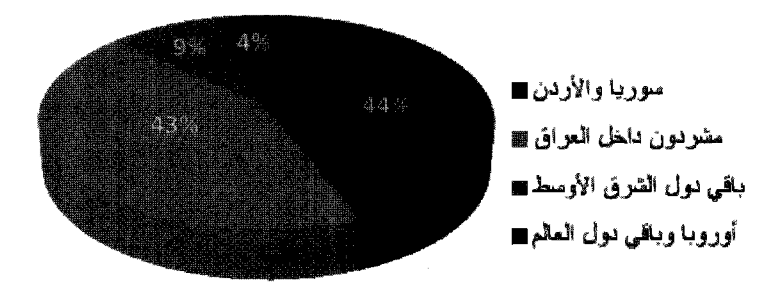
وتشير أرقام المفوضية إلى أن:

٢٢٠٠٠٠٠ عراقي فروا خارج العراق.

نحو ١٩٠٨٤٠٠ عراقي مشردون في الداخل.

نحو ٥٠ ألف عراقي يفرون شهريًا.

أماكن اللجوء:



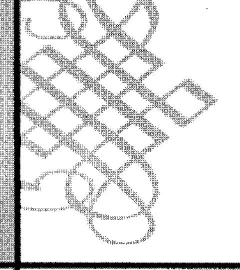
أعداد اللاجئين العراقيين في دول الجوار

سوريا	١٢٠٠٠٠٠
الأردن	٧٥٠٠٠٠
مصر	١٠٠٠٠٠
دول مجلس التعاون	٢٠٠٠٠٠
إيران	٥٤٠٠٠
لبنان	٤٠٠٠٠
تركيا	١٠٠٠٠

أعداد اللاجئين العراقيين في أنحاء العالم

الولايات المتحدة الأمريكية	٦٠٠٠
المملكة المتحدة	٢٢٣٠٠
ألمانيا	٥٢٩٠٠
هولندا	٢١٨٠٠
السويد	٢١١٠٠
أستراليا	١١١٠٠
الدانمارك	١٠٧٠٠
النرويج	٨٥٠٠
سويسرا	٥٠٠٠
كندا	٤٠٠٠
فنلندا	١٦٠٠
إيطاليا	١٣٠٠
فرنسا	١٣٠٠
النمسا	١٢٠٠
هنغاريا	١٢٠٠
بلغاريا	١٢٠٠
رومانيا	١٢٠٠
اليونان	٨٢٠
نيوزيلندا	٨٢٠
أرمينيا	٤٦٠
رومانيا	٤٥٠
أيرلندا	٣٤٠



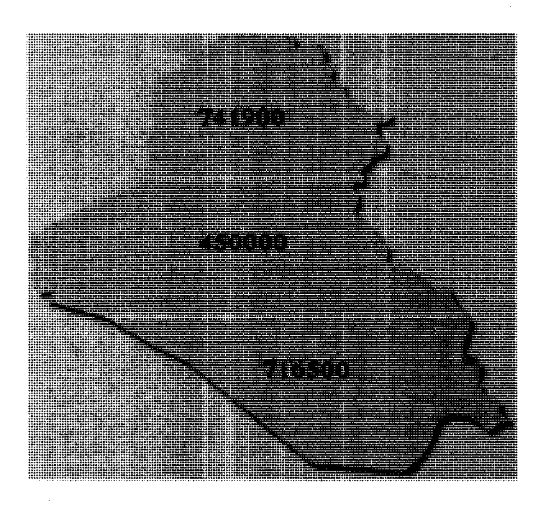


أعداد النازحين داخل العراق

شمال العراق: ٧٤١٩٠٠

وسط العراق: ٤٥٠٠٠٠

جنوب العراق: ٧١٦٥٠٠

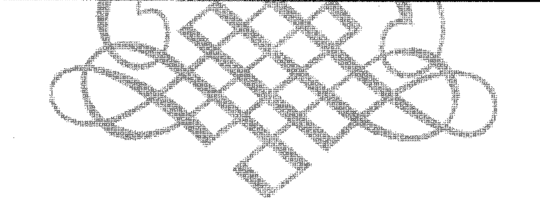


المصدر:

موقع (الجزيرة نت) على الرابط:

http://www.aljazeera.net/news/archive/archive?ArchiveId=1060005





باكستان ومآلات التحالف الأمريكي

أ. محمد عادل

(كاتب وباحث سياسي . سكرتير تحرير التقرير الارتيادي للبيان)

ملخص البحث

مثَّلت العلاقة الأمريكية الباكستانية نموذجًا بارزًا لطبيعة العلاقة المصلحية التي ترتبط بها أمريكا مع دول العالم، في غالب سياساتها الخارجية؛ حيث تأرجح مؤشر العلاقة صعودًا وهبوطًا، حسب الحاجة الأمريكية للدور الباكستاني، خاصة فيما يتعلق بالتوازن الإقليمي والمصالح الأمريكية في منطقة جنوب آسيا ووسطها، فضلاً عن دورها في محاربة «الإرهاب».

ويبدو أن مؤشر العلاقة -بعد أن بلغ أعلى درجاته بعد أحداث سبتمبر- آخذ في الهبوط؛ بعد تراجع أهمية باكستان بالنسبة للولايات المتحدة، بل وصل الأمر -برغم كل ما قدمته باكستان لدعم الحملة الأمريكية على «الإرهاب» - إلى الدرجة التي أصبحت فيها السيادة الباكستانية نفسها مهددة على أراضيها.

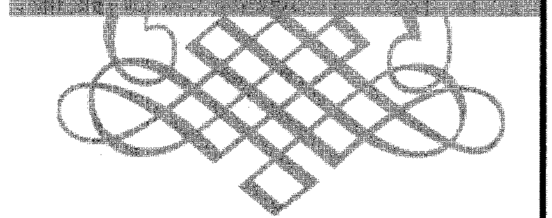
وبرغم حساسية وضع الدين في الحسّ الشعبي الباكستاني؛ إلا أن أمريكا لم تلتفت لخطورة تجاوز ذلك المعطى الأكثر أهمية في الحياة الباكستانية، وكان التحريض ضد المناهج والمدارس الدينية، ومحاربة التيارات الإسلامية على اختلاف توجهاتها أحد شواهد هذا التجاوز.

وبين التأزم الداخلي؛ بسبب تصاعد الرفض الشعبي لسياسات النظام، والمواجهة مع الإسلاميين، فضلاً عن مشكلات القبائل التي يصعب إرضاؤها، والتململ الذي بدأ يتسلل لصفوف العسكر، وتراجع قضية كشمير، إضافة للضغوط الخارجية على مشرف لاستمرار تقديم الدعم لتحالف الحرب «ضد الإرهاب»، بين كل ذلك يبدو نظام مشرف في مأزق حقيقي، قد يفشل في تجاوزه؛ بسبب صعوبة التوفيق بين التمسك بتحالفه مع أمريكا من جانب، مع المحافظة على بقاء النظام واستمراره من جانب آخر.

ومع مرور الوقت تأكد خسارة النظام الباكستاني، وظهر المأزق الذي أوقع نفسه فيه، وتجاوز تهديد النظام إلى تهديد بنية الدولة ذاتها؛ بسبب تنازلاته التي قدمها لأطراف خارجية على حساب قضايا حساسة، تأتي في مقدمة أولويات الأمن القومي الباكستاني.

إن ما آل إليه الوضع الباكستاني في ظل التحالف الذي جمعها والولايات المتحدة، وفي ظل تجاوز النظام للاعتبارات الدينية، يؤكد المقولة التي تثبت أن معارضة الاستعمار وإغضابه أقل تكلفة من استرضائه.





أفكار ومقتطفات

- في سبيل وقف حالة التهميش الأمريكي لباكستان، فترة التسعينيات، تنصّل مشرف من تحالفه مع طالبان، في محاولة لتجنب الغضب الأمريكي من جانب، والانتقال بالعلاقات الباكستانية الأمريكية لمرحلة التحالف الاستراتيجي لموازنة التحالف الأمريكي الهندي من جانب آخر.

- يبدو أن مؤشر العلاقة -بعد أن بلغ أعلى درجاته بعد أحداث سبتمبر- آخذ في الهبوط، بعد تراجع أهمية باكستان بالنسبة للولايات المتحدة، يدل على ذلك تقديم أمريكا لشراكتها الاستراتيجية مع الهند على علاقتها التحالفية مع باكستان، بل وصل الأمر -برغم كل ما قدمته باكستان لدعم الحملة الأمريكية على «الإرهاب»- إلى الدرجة التي أصبحت فيها السيادة الباكستانية نفسها مهددة على أراضيها.

- يمتد الصراع الهندي- الباكستاني لأكثر من نصف قرن من الزمن، هي عمر دولة باكستان تقريبًا، تورط خلاله الطرفان في ثلاثة حروب، تسبب إقليم كشمير -ذي الأغلبية المسلمة- في اثنتين منهما.

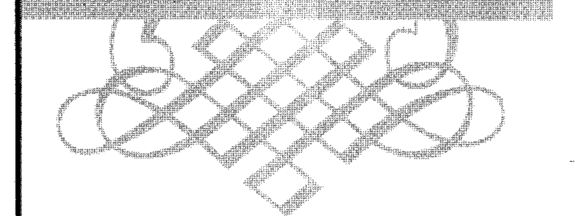
- فضلاً عن المنطق العقدي، والولاء السياسي، الذي يربط كشمير بباكستان تاريخيًا، إضافة للتضحيات التي قدمها الطرفان في سبيل الوصول لاستقلال كشمير أو التحاقها بباكستان، فإن القضية ترتبط في الحس الشعبي الباكستاني بالوجود الباكستاني ذاته، مما جعلها القضية الأهم على جدول السياسة الخارجية لإسلام آباد.

- منذ نشأة باكستان، وأوضاعها الداخلية، وسياساتها الخارجية محكومة بعاملين لا يمكن إغفالهما، للوصول لفهم دقيق لحقيقة الأوضاع الباكستانية ومستقبلها، أولهما «الدين» الذي يمثل محور النشأة للدولة، وما ترتب على ذلك من قوة دور التيارات الإسلامية في الحياة الباكستانية، و«الجيش» الذي يمثل محور الاستمرار والاستقرار.

- بالرجوع للطبيعة الأيديولوجية للدولة الباكستانية يظهر بوضوح أهمية الدور العقائدي، الذي قامت على أساسه الدولة منذ نشأتها، وجاء ذلك ردًا طبيعيًا مصاحبًا للشعور بالخوف الذي انتاب الباكستانيين، جراء محاولات الهيمنة الهندية لصبغ شبه القارة الهندية بطابعها الهندوسي، فكان من الصعوبة بمكان الوقوف أمام تلك الهيمنة بصبغتها الدينية سوى بالالتفاف حول الإسلام كمُكَوِّن وحيد يمكنه جمع مسلمي تلك المنطقة، على اختلاف أعراقهم تحت مظلة دولة خاصة بهم.

- كان انقلاب مشرف -وبتحريض ودعم من أمريكا- على التيارات الدينية الباكستانية، والانقلاب على طالبان، وثيقة الصلة بالجماعات الإسلامية الداخلية، يعد نوعًا من محاولة تجاوز ثوابت هامة في بنية الدولة.

- مثَّل الصراع مع الهند، خاصة فيما يتعلق بقضية كشمير، المعطى الأكثر أهمية في توغل العسكر في السلطة؛ للدرجة التي أصبح فيها اللاعب الأبرز في توجيه دفة الأمور.



- للتدليل على النفوذ غير العادي للجيش في باكستان؛ فإن تأثير العسكر توغل في كل القطاعات الهامة في الدولة: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، حتى إن الكثير من رؤساء الجامعات الوطنية هم من قادة العسكر المتقاعدين.

- برغم شدة احتياج الولايات المتحدة للجيش الباكستاني في حربها ضد «الإرهاب» إلا أن المؤسسة العسكرية الباكستانية كانت دائمًا محل شك واتهامات من قِبَل أمريكا؛ لما تعلمه من سابق العلاقات التي تربط المؤسسة العسكرية، والمخابرات الباكستانية، بالجماعات الإسلامية الداخلية وطالبان الأفغانية، وتغلغُل العديد من الرُّتَب العسكرية من ذوي الخلفية الإسلامية داخل المؤسسة العسكرية الباكستانية.

- رغم أن الدعم الأمريكي لبناظير تمكن من إعادتها -بعد سنوات المنفى- إلى حلبة السياسة الباكستانية بقوة، وفرض شروطها على مشرف لقبول عودة تؤمِّن بعض المصداقية للنظام، إلا أن هذا الدعم يبدو أنه كلَّفها الكثير من مصداقيتها الشعبية؛ لِمَا تحظى به أمريكا من كراهية في الشارع الباكستاني، فضلاً عن أن ولعها الشديد للسلطة دفعها للتحالف مع «ديكتاتور باكستان»، حتى وإن أدى هذا التحالف إلى استياء واسع ورفض داخل حزبها نفسه.

- المؤسسة العسكرية التي يعتمد عليها مشرف في تدعيم سلطاته، بدأت بوادر أزمة بينها وبين الرئيس؛ بسبب تصاعد السخط الشعبي، وتراجع معنويات الجيش لخسائره التي ألمت به في المواجهات مع القبائل، فضلاً عن سياسات مشرف في معالجة ملف كشمير، الذي تراجع لأول مرة بهذه الصورة في سُلَّم أولويات باكستان الخارجية.

- مع مرور الوقت تأكد خسارة النظام الباكستاني، وظهر المأزق الذي أوقع نفسه فيه؛ بسبب تنازلاته التي قدمها لأطراف خارجية على حساب قضايا حساسة تأتي في مقدمة أولويات الأمن القومي الباكستاني.

- المأزق الذي وصل إليه النظام الباكستاني -بتحالفه مع أمريكا، ومشاركته في حرب لا فائدة لبلاده من ورائها- تجاوزت أضراره الجنرال مشرف إلى باكستان نفسها، التي اشتعلت فيها الأحداث، وتهددت بنية الدولة للدرجة التي أصبح يتردد معها الحديث حول إمكانية انهيار الدولة نفسها، وليس النظام فقط.

- إن لم تَعِ جميع القوى الباكستانية خطورة الوضع، الذي يهدِّد الكيان الباكستاني، وتتعاون على تقديم المصلحة الباكستانية على المصالح والمكاسب الشخصية؛ فإن الحال ينذر بتفجر الأوضاع، ودخول البلاد في حالة الفوضى لحساب أطراف خارجية لا اهتمام لها بالمصلحة الباكستانية.

باكستان ومآلات التحالف الأمريكي

أ. محمد عادل : كاتب وباحث سياسي. سكرتير تحرير التقرير الارتيادي للبيان

مقدمة:

علـى مـدار تاريخها الذي تجاوز نصف القرن، ارتبطت باكسـتان بعلاقات خاصـة مع الولايات المتحدة، أثَّرت بوضوح في رسم مسار التاريخ الباكستاني الإقليمي والداخلي.

وعلـى الرغـم ممـا غلب على تاريخ تلك العلاقة مـن طبيعة تحالفية – في ظاهرهـا- تخللتها بعض فترات الفتور، إلا أن الواقع يشهد أن مجموعة من الإشكالات التي تصل بمجموعها لدرجة الأزمة التي تهدد بنية الدولـة هي الحصـاد الحقيقي لتلك العلاقة، وأن الثمن الذي دفعته باكسـتان نظير تحالفها مع أمريكا كان أكبر بكثير مما عاد عليها من منافع.

ومنذ نشـأتها يتحكم في الوضع الباكسـتاني ثلاثة مفاصل هامة، يصعب فهم الشأن الباكستاني دون استيعابها: محورية الدين- سيطرة الجيش- مركزية القضية الكشميرية في السياسة الباكستانية.

يتنـاول البحـث -من خلال ثلاثة محاور رئيسـة وخاتمـة- فكرة التأثير الأمريكـي الكبير على الوضع الباكسـتاني الإقليمي والداخلي -خاصة على تلك المفاصل الأساسـية التي تحكم الوضع الباكستاني- وذلك في ظل التحالف مع الولايات المتحدة، وما استدعاه من مشاركة فيما سُمِّيَ «الحرب على الإرهاب»، وانعكاسـاته السلبية على علاقات السـلطة مع القوى الباكستانية، ومدى الضرر الذي لحق بباكستان جراء محورية علاقتها بأمريكا.

المحور الأول: مسار العلاقات الباكستانية الأمريكية ومحدداتها:

مثَّلـت العلاقة الأمريكية الباكسـتانية نموذجًا بارزًا لطبيعة العلاقـة المصلحية التي ترتبط بها أمريكا مع دول العالم في غالب سياسـاتها الخارجية، حيث تأرجح مؤشـر العلاقة صعودًا وهبوطًا حسـب الحاجة الأمريكيـة للدور الباكسـتاني، خاصـة فيما يتعلق بالتـوازن الإقليمي والمصـالح الأمريكية في منطقة جنوب آسيا ووسطها، فضلاً عن دورها في محاربة «الإرهاب» فيما بعد.

كانـت المسـاعدة في تحجيـم النفـوذ السـوفييتي في المنطقة، وإضعافه عـن طريق إغراقه في المسـتنقع الأفغاني، هي أبرز المحددات الأمريكية لطبيعة العلاقة بين البلدين قبل ١١ سبتمبر؛ حيث لعبت باكستان دورًا محوريًـا في دعـم المجاهدين الأفغان، مما تسـبب لاحقًا في هزيمة الاتحاد السـوفييتي وانهياره، وفي المقابل حصلت باكستان في تلك المرحلة على بعض الدعم الأمريكي عسـكريًّا واقتصاديًّا.

ثم تراجع مؤشر العلاقة بين الطرفين، بسبب قضية النووي الباكستاني وتداعياتها دوليًا، فضلاً عن أن الحاجة الأمريكية المُلِحّة لباكستان قد انتهت بعد الانسحاب السوفييتي من أفغانستان، فتخلت أمريكا مؤقتًا عن تحالفها مع باكستان، وتحولت إلى سياسة العقوبات والضغوط.

وفي سبيل وقف حالة التهميش الأمريكي لباكستان فترة التسعينيات تنصل مشرف من تحالفه مع طالبان، في محاولة لتجنب الغضب الأمريكي من جانب، والانتقال بالعلاقات الباكستانية الأمريكية لمرحلة التحالف الاستراتيجي، لموازنة التحالف الأمريكي الهندي من جانب آخر.

أما بعد ١١ سبتمبر فاعتبر «الحرب على الإرهاب» والمشاركة فيه هو المحدد الأهم أمريكيًا لطبيعة العلاقة، فقد أصبح ١١ سبتمبر يومًا فارقًا ليس فقط في تاريخ أمريكا، بل في تاريخ باكستان أيضًا.

إذ أصبح على باكستان- التي وجدت نفسها بعد ذلك اليوم دون اختيار في بؤرة الاهتمام الأمريكي- أن تقبل بأحد خيارين تم التقدم بهما من قبل الإدارة الأمريكية، إما أن تكون في الخندق الأمريكي الغربي في حربه ضد «الإرهاب» -بما يعنيه ذلك من استحقاقات- تجاوزت فيما بعد حجم التنازلات المتوقعة- وإما أن تكون في الخندق المقابل والمصنف أمريكيًا بالداعم «للإرهاب».

ومن جانبه حاول النظام الباكستاني توظيف أحداث سبتمبر لصالحه، فالتحق بما يسمى الحرب على «الإرهاب»، وقدم دعمًا كبيرًا للقوات الأمريكية في غزوها لأفغانستان، لم تكن أمريكا نفسها تتوقع أن يصل لهذه الدرجة على المستوى العسكري والمخابراتي واللوجستي، بما يتجاوز في حقيقة الأمر للكثير من الخطوط الحمراء التي لم يسبق لأي نظام باكستاني تجاوزها، بما أضر بوضوح بالأمن القومي الباكستاني، وأدى فيما بعد لانفجار الوضع الداخلي وتوتر علاقات باكستان بجيرانها.

ويمكن توصيف اختيار مشرف بالوقوف في الجانب الأمريكي بهذه الصورة غير المسبوقة بالتحول المحوري في التاريخ الباكستاني، فيما يخص ثوابتها الأيديولوجية وبنيتها الداخلية ومسارها السياسي المعاصر، فضلاً عن وضعها الإقليمي وقضيتها المحورية في كشمير.

> يمكن توصيف اختيار مشرف بالوقوف في الجانب الأمريكي بهذه الصورة غير المسبوقة بالتحول المحوري في التاريخ الباكستاني، فيما يخص ثوابتها الأيديولوجية وبنيتها الداخلية

وربما كانت قضية كشمير والنزاع مع الهند أحد أهم محاور الحاجة الباكستانية لأمريكا، ولذا فقد تطلعت بعض النُظُم السياسية الباكستانية السابقة في بداية نشأة الدولة إلى الدور الأمريكي كشريك، وحليف يمكن الاعتماد عليه في وجه التحديات التي نشأت في ظلها الدولة الوليدة، وخاصة لمحاولة تقليل الفارق وتضييق مساحة الخلل بينها وبين خصمها الرئيس الهند، والمدعوم صينيًا، «وأدركت باكستان حقيقة تلك الخيالات الوهمية عندما قامت الولايات المتحدة بقطع إمدادات التسليح عنها في الحرب ضد الهند عام ١٩٦٥م».(١)

كما لا ينسى الباكستانيون إلى الآن الموقف السلبي الذي وقفته أمريكا- برغم تحالفها حينها مع باكستان- أثناء الحرب مع الهند عام ١٩٧١م، والذي أدى إلى هزيمة كبيرة للباكستانيين.

ويبدو أن مؤشر العلاقة - بعد أن بلغ أعلى درجاته بعد أحداث سبتمبر- آخذ في الهبوط بعد تراجع أهمية باكستان بالنسبة للولايات المتحدة، يدل على ذلك تقديم أمريكا لشراكتها الاستراتيجية مع الهند على علاقتها التحالفية مع باكستان، بل وصل الأمر - برغم كل ما قدمته باكستان لدعم

(١) التأثير الأمريكي على باكستان: هل للحلفاء أولويات متباينة، إعداد: شاهيناز محمود أبو سريع، قراءات استراتيجية، السنة العاشرة، العدد التاسع سبتمبر ٢٠٠٥م.

الحملة الأمريكية على «الإرهاب»- إلى الدرجة التي أصبحت فيها السيادة الباكستانية نفسها مهددة على أراضيها إلى حد أن حذرت مسئولة أمريكية بشن عمليات عسكرية داخل باكستان قد تؤدي لتسوية منطقة وزيرستان الباكستانية بالأرض تمامًا».

وبذلك تعتقد واشنطن أن باكستان أصبحت ميدان رماية يحق لها أن تمارس فيه ألعابها النارية المميتة وقتما تشاء وكيفما تشاء. واختصارًا لمراحل سياسية طويلة، فإن هذا الموقف الأمريكي ما كان ليصل إلى هذا الحد لولا التنازلات العديدة التي قدمها الرئيس الباكستاني برويز مشرف منذ وصوله للسلطة عامة، وعقب هجمات سبتمبر بشكل خاص، فقد قدَّم للأمريكيين تقريبًا كل ما طلبوه، وكل ما يرغبون في إنجازه بداية من الحرب على أفغانستان وصولاً إلى الموقف الراهن»(٢)

«لقد ضحى الباكستانيون بكل شيء من أجل الحرب الأمريكية ضد ما تسميه الإرهاب، فهم غدروا بحلفائهم الأفغان من الطالبان... وبسبب هذا الموقف أصبح الباكستاني؛ الذي كان إلى وقت قريب الصديق والعزيز على الأفغان، هو الأكثر بغضًا؛ بسبب سياسة حكومته الانتهازية، وهذه الخسارة الكبرى التي حصدتها الحكومة الباكستانية لم تعوضها واشنطن إلا بالمزيد من الإذلال والاحتقار. فقد كانت باكستان تعوِّل كثيرًا على المكاسب التي ستجنيها نتيجة موقفها المتواطئ مع واشنطن، فهي علاوة على خسارتها لأفغانستان، فإن الحكومة الباكستانية بدأت تخسر كثيرًا في الداخل الباكستاني»(٣).

وقد أدت هذه السياسة الأمريكية التي اتسمت بالمصلحية والانتهازية الواضحة من جانب، فضلاً عن الضغوط التي تمارسها على النظام الباكستاني لمحاربة المد الديني من جانب آخر إلى انتشار الشعور بالكراهية للسياسات الأمريكية داخل الكثير من قطاعات الشعب الباكستاني الذي لم يجن في غالبه أي مكتسبات تُذْكَر جراء هذا التحالف المفروض عليه.

«واقع الأمر أن التحالف الباكستاني- الأمريكي قد انطوى على إشكاليات مهمة على الجانبين الباكستاني والأمريكي. فعلى الجانب الأمريكي، تبرز إشكالية الموازنة بين الحفاظ على التحالف الأمريكي- الباكستاني من ناحية، واستحقاقات عملية التحول الديمقراطي من ناحية أخرى، بمعنى كيف يمكن التوفيق داخل الخطاب الأمريكي بين الحفاظ على هذا التحالف والمطالبة بالإصلاح السياسي في باكستان .. وعلى الجانب الباكستاني تبرز إشكالية التوفيق بين استحقاقات الحفاظ على التحالف من ناحية، واستحقاقات الحفاظ على بقاء النظام من ناحية أخرى، بمعنى إلى أي مدى يمكن الالتزام بالتحالف دون تهديد استمرار النظام؟»(٤)

المحور الثاني: أمريكا وطبيعة العلاقات الباكستانية الهندية:

منذ استقلال باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧م، والعلاقات بين الدولتين الجارتين لم تعرف سوى الاضطراب الذي وصل كثيرًا لدرجة الصراع العنيف الذي صبغ المنطقة بالتوتر والالتهاب، بسبب الملفات الخلافية بين الطرفين، والتي يأتي على رأسها القضية الكشميرية.

ويمتد الصراع الهندي- الباكستاني لأكثر من نصف قرن من الزمن، هي عمر دولة باكستان تقريبًا، تورط خلاله الطرفان في ثلاثة حروب، تسبب إقليم كشمير- ذي الأغلبية المسلمة- في اثنتين منهما.

فالمواجهة الأولى، كانت بسبب كشمير سنة ١٩٤٧م، أما المواجهة الثانية فقد اندلعت سنة ١٩٦٥م

---

(٢) ثمن التنازل، عماد عريان، الأهرام، ٢٠٠٧/٧/٢٥م، أخبار العالم، سياسة خارجية.

(٣) زيارة بوش إلى إسلام آباد مجرد مجاملة.. ووسيلة لأهداف سياسية في آسيا، العبور الأمريكي إلى الصين عبر البوابة الباكستانية «بتصرف»، جريدة الرياض الأحد، ١٢ صفر ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦/٣/١٢م، العدد ١٣٧٧٥.

(٤) هل يتراجع التحالف الباكستاني - الأمريكي؟ «بتصرف» محمد فايز فرحات، ملف الأهرام الاستراتيجي، العدد ١٣٦، أبريل ٢٠٠٦م.

بفعـل النزاع على هـذا الإقليم أيضًـا، بينما اندلعت المواجهة المباشـرة الثالثة بينهما في بداية السبعينيات مـن القرن الماضي، بعدما تدخلت خلالها الهند لدعم بنغلادش (باكسـتان الشرقية) عسـكريًّا؛ لتستقل وتنفصل نهائيًّا عن باكستان سنة ١٩٧١م.

وفضـلاً عـن المنطـق العقـدي والـولاء السياسـي الـذي يربط كشـمير بباكسـتان تاريخيًّـا؛ إضافة للتضحيـات التي قدمها الطرفان في سـبيل الوصول لاسـتقلال كشـمير أو التحاقهـا بباكسـتان، فإن القضيـة ترتبـط في الحـس الشـعبي الباكسـتاني بالوجود الباكستاني ذاته، مما جعلها القضية الأهم على جدول السياسة الخارجية لإسلام آباد.

وقـد لخَّص ظفـر الله خان، أحـد وزراء الخارجية لباكستان، أهمية كشميرالاستراتيجية لباكستان بقولـه: «إن إلحـاق كشـمير بالهنـد لا يمكـن أن يضيف شـيئًا كثـيرًا إلى اقتصـاد الهنـد، أو أمنها الاسـتراتيجي، بينما يمثل أمرًا حيويًّا لباكسـتان، فإذا ما انضمت كشـمير إلى الهند فإن باكسـتان، سـواء من الجانب الاسـتراتيجي أو الاقتصادي، إما أن تصبـح جزءًا خاضعًا للسـلطة الهنديـة، أو ينتهي وجودها كدولة ذات سيادة مستقلة».(٥)

ولمعرفة مدى الترابط بين باكسـتان وكشمير نجد أن معظم المقاتلين الكشـميريين المنادين بالاستقلال عن الهند، والانضمام لإخوانهم الباكسـتانيين، هم مـن خريجي المـدارس الدينية الباكسـتانية، كما أن دولـة باكسـتان تسـتضيف العديـد مـن مقاتلي كشـمير، وتنشـط فيهـا العديـد مـن الجماعـات الإسلامية المؤيدة لهذا الاستقلال.

ومن هنا مثَّلت كشـمير البوصلة الرئيسية المحددة لاتجاه العلاقات الهندية الباكسـتانية؛ حيث أفقدت مشكلة كشـمير كلا الطرفين أي ثقة في الطرف الآخـر إلى أن أصبحـت الشـكوك وقلـة المصداقية تمثل محورًا أساسًا في تشكيل وجهة النظر الخاصة لدى البلدين؛ حيث إن الهند في التصور الباكستاني دولة عدوانية تسـعى للتوسـع على حسـاب جيرانها، والنزاعـات الثلاثة الكبرى بين البلدين تركت آثارًا يصعب محوها من الذاكرة الباكستانية.

وفي إطار معالجة الخلل في موازين القوى العسكرية والاقتصادية والبشرية لصالح الهند سعت باكستان لتطوير برنامجها النووي لتحقيق التوازن مع خصمها التاريخي؛ إذ إن النظام السياسي الباكستاني كان علـى قناعـة أنـه يصعب تحقيـق التوازن عـن طريق المنافسة في مجال الأسلحة التقليدية التي تتفوق فيها الهند بمراحل، ومن أجل تطوير هذا البرنامج تحملت باكستان العقوبات الدولية.

ويـبرز الـدور الأمريكي بوضـوح كلاعب مهم في تشكيل العلاقة بين نيودلهي وإسلام آباد؛ حيث تبلورت ملامـح العلاقة الأمريكيـة الهنديـة، والأمريكية الباكسـتانية حسـب المصالح الأمريكية في جنوب آسـيا ووسـطها، ورغم الصورة التحالفية التي غلبت على توجه العلاقات الباكستانية الأمريكية؛ إلا أن طبيعة العلاقة ونمط الدعم الأمريكي لم يأخذ خطًّا واحدًا أو مسـارًا مسـتقرًّا، بل اتجهت في بادئ الأمر تجاه باكسـتان في إطـار ضمان التـوازن بين القوى الفاعلـة في المنطقـة، ثم اتجهت مؤخـرًا نحو ترجيح كفة الطرف الهندي وتفوقه العسكري، وذلك بعد ازدياد الحاجة الأمريكية للهند في دعم استراتيجيتها بالمنطقـة؛ حيث أعطت أمريـكا الأولوية في التعاون النـووي للهند، طبقًا للبروتوكـول الذي وقَّعه جورج بـوش أوائـل ٢٠٠٦م في زيارته لنيودلهـي، وهو الأمر الذي فشـلت باكسـتان في تحقيقه، على الرغم من التنازلات التي قدمتها إسلام آباد لواشنطن.

كما أن «.. انضمام الطرفين: الهندي والباكستاني إلى التحالـف الأمريكـي لمواجهـة «الإرهـاب» جاء في صـالح الطـرف الأول، وضـد مصـالح الطـرف الثاني، خاصـة وأن الولايات المتحدة تعتبر الهند بلدًا ديمقراطيًّا، وأهلاً للثقة، وشـريكًا مناسـبًا يقدِّس الحريـات والاتجاهـات العلمانية، زيـادة على قدرته الفائقـة في المحافظـة علـى التـوازن الاسـتراتيجي الإقليمي في مواجهة الصين، فيما تُصَنِّف باكستان

(٥) مأساة كشمير منذ نشأتها حتى أحداث ١١ سبتمبر، منى حندقها، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

التي يسيطر فيها «انقلابيٌّ عسكريٌّ» على السلطة كمجرد دولة هشَّة البنيان ترزح تحت ظل المفاهيم «الثيوقراطية»(٦).

وبناء على تلك التحولات في استراتيجية أمريكا بالمنطقة، فقد تأثرت وضعية القضية الكشميرية بالنسبة لباكستان تأثرًا كبيرًا، مما أدى بالنظام الباكستاني -تحت الضغوط الهندية وتصلب موقفها- إلى تراجع ملموس في موقفه من قضية كشمير المصيرية، حيث «فرضت أحداث سبتمبر ٢٠٠١م قيودًا شديدة على فرص عمل حركة المجاهدين في كشمير، من خلال ما أفرزته تلك الأحداث من تحولات مهمة في البيئة الأمنية الدولية بشكل عام، ومنطقة جنوبي آسيا بشكل خاص، خاصة بعد انضمام باكستان إلى التحالف الدولي ضد الإرهاب»(٧).

وتضغط أمريكا على باكستان لإقناعها بالتوقف عند حدود الوسائل السلمية، والتفاوض من أجل حلّ القضية الكشميرية، ووصل الأمر مؤخرًا -بعد تطور العلاقة الأمريكية الهندية لدرجة التحالف الاستراتيجي- إلى اعتبار النضال البطولي للشعب الكشميري، والمساعدات التي تقدمها الجماعات الجهادية الباكستانية لإخوانها في كشمير من قبيل أعمال الإرهاب، بل تجاوزت الضغوط الأمريكية على باكستان للدرجة التي دفعت بباكستان إلى تجريم، ومنع عمل بعض الجماعات المسلحة الداعمة للقضية الكشميرية من داخل أراضيها، بما عدَّه البعض انقلابًا غير مقبول على المستوى الاستراتيجي على الثوابت الباكستانية تجاه القضية الكشميرية.

إن وضع القضية الكشميرية يمثل مأزقًا حقيقيًا لباكستان في حال فشل محاولات التوصل لحل مناسب، الأمر الذي يؤدي لاستمرار التوتر في المنطقة، ويهدد باندلاع صراع لا يُعلم مداه بين الجارتين، كما أن إيجاد حل لتلك القضية قد يمثل مأزقًا من نوع آخر للنظام الباكستاني؛ حيث يتوقع -في ظل الضغوط الخارجية على باكستان، وفي ظل التراجع الملحوظ في الموقف الباكستاني تجاه القضية- أن تصل التنازلات التي قد يقدم عليها النظام تحت تصلب الموقف الهندي، والضغوط الأمريكية، إلى الدرجة التي يتم فيها التخلي عن ثوابت القضية، ومِحْوَريتها في السياسة الباكستانية، والتنازل عن حق تقرير المصير للكشميرين، بما يمثله ذلك من تهديد للأمن القومي الباكستاني.

المحور الثالث: أمريكا والداخل الباكستاني:

منذ نشأة باكستان وأوضاعها الداخلية، وسياساتها الخارجية، محكومة بعاملين لا يمكن إغفالهما للوصول لفهم دقيق لحقيقة الأوضاع الباكستانية ومستقبلها: أولهما «الدين» الذي يمثل محور النشاة للدولة، وما ترتب على ذلك من قوة دور التيارات الإسلامية في الحياة الباكستانية، و«الجيش» الذي يمثل محور الاستمرار والاستقرار.

كان الاهتمام الأمريكي وتأثيره واضحًا على هذين المحورين، وبالأخص العامل الديني في المرحلة الأخيرة من تاريخ العلاقة بين البلدين، وتبلور هذا الدور في العديد من الصور التي غلب عليها محاولات التهميش والتغيير والإقصاء.

أ- أمريكا ومحاولات التهميش الديني والتحريض ضد الجماعات:

بالرجوع للطبيعة الأيديولوجية للدولة الباكستانية يظهر بوضوح أهمية الدور العقائدي الذي قامت على أساسه الدولة منذ نشأتها، وجاء ذلك ردًا طبيعيًا مصاحبًا للشعور بالخوف الذي انتاب الباكستانيين جراء محاولات الهيمنة الهندية لصبغ شبه القارة الهندية بطابعها الهندوسي، فكان من الصعوبة بمكان الوقوف أمام تلك الهيمنة بصبغتها الدينية، سوى بالالتفاف حول الإسلام كمُكَوِّن وحيد يمكنه جمع مسلمي تلك المنطقة على اختلاف أعراقهم تحت مظلة دولة خاصة بهم.

(٦) الصراع الهندي- الباكستاني في ضوء الحملة الأمريكية لمكافحة الإرهاب، إدريس لكريني، الحوار المتمدن، العدد: ١٥٩٠ - ٢٠٠٦/٦/٢٣م.

(٧) حركة المجاهدين في كشمير، دليل الحركات الإسلامية في العالم، العدد الأول، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.

«باكستان الدولة الوحيدة التي لم تحشر الدين حشرًا مفتعلاً في السياسة، بل إن الأخيرة هي التي طلبته وسعت إليه، وجعلته جزءًا منها، وأسَّست عليها شرعية الدولة؛ إذ إنه لولا «الإسلام» كدين ما كانت «باكستان» كدولة».(٨)

ومن هنا اهتمت باكستان منذ النشاة بتقوية الإسلام في نفوس أبنائها، وترسيخ مبادئه في وجدان تلك الشعوب والأعراق المختلفة التي ضمتها دولة باكستان الوليدة، فانتشر التعليم الديني، وتجاوزت المدارس الدينية- التي تواجه مشاكل مع النظام حاليًا- العشرة آلاف مدرسة.

وبرغم حساسية وضع الدين في الحس الشعبي الباكستاني؛ إلا أن أمريكا لم تلتفت لخطورة تجاوز ذلك المعطى الأكثر أهمية في الحياة الباكستانية، وكان التحريض ضد المناهج والمدارس الدينية -التي تعتبرها أمريكا المسئول عن تفريخ الإرهاب؛ لما لها من تأثير كبير في الداخل الباكستاني والجوار الأفغاني- أحد شواهد هذا التجاوز، ومن هنا كان التضييق على طلبة تلك المدارس، وملاحقة إداراتها سمة هامة للنظام الباكستاني الحالي، بلغت ذروتها في حادثة المسجد الأحمر التي اقتحم فيها العسكر أحد أكبر مساجد العاصمة، ونتج عنها عشرات من القتلى والمصابين، ما عُدَّ بمثابة رسالة شديدة اللهجة من النظام لطلبة المدارس الدينية.

ولفهم واقعي لطبيعة الأزمة التي تعتصر باكستان، لا يمكننا تجاوز العلاقة المتشابكة بين الإسلاميين والأنظمة في باكستان، منذ نشأتها، أو ما يمكن أن نسميه الدور الحيوي الذي تلعبه التيارات الدينية الباكستانية في الحياة السياسية الباكستانية، فضلاً عن تأثيرها البالغ في تشكيل الهوية الثقافية والاجتماعية للشعب الباكستاني الذي يَعدّ الدين أحد أهم مكونات نشأته.

ومن هنا تطلبت طبيعة النظُم السياسية الباكستانية المتعاقبة أن يصبح الإسلاميون لاعبًا أساسيًا، وأحد أطراف التأثير الهامة في الحلبة السياسية، بسبب ميل غالبية الشعب الباكستاني إلى التدين، فضلاً عما حققته الجماعات الإسلامية من حضور بارز في بنية المجتمع، خاصة في عهد ضياء الحق الذي مهَّد لهم الطريق ليصبحوا ركنًا هامًّا من أركان البنية الداخلية، بعدما منحهم حق تكوين إمارات إسلامية، وفرض نفوذهم على العديد من المناطق خاصة الحدودية.

«وقد أدت هذه العلاقة التاريخية إلى استناد الجماعة -بالإضافة إلى الإطار الدستوري والقانوني الذي يسمح بالعمل السياسي الرسمي على أساس الدين- إلى ما يمكن أن نطلق عليه الحق التاريخي للقوى الإسلامية، استنادًا إلى الدور التاريخي المهم الذي لعبته هذه الجماعات في تحديد وتأكيد الهوية الإسلامية للدولة الباكستانية، بدءًا من ممارسة الضغوط على الجمعية الوطنية المسئولة عن صياغة الدستور الجديد بعد الاستقلال ... ومرورًا بالدور المهم لهذه القوى في دعم تنفيذ السياسة الخارجية للدولة، أو في الحفاظ على مصالح النخبة الحاكمة .... وفي جميع الحالات اضطلعت القوى الإسلامية بدور مشارك للدولة، وللجيش وللنظام الحاكم في تنفيذ وظيفة الجهاد، سواء على المستوى الخارجي، أو الداخلي، على نحو جعل من القوى الإسلامية الحليف الطبيعي للجيش وللدولة في معظم تاريخ الدولة الباكستانية، فالجيش من وجهة نظر الجماعات الإسلامية الباكستانية هو حامي الدولة في مواجهة العدو التاريخي التقليدي البوذية الهندية»(٩)

ولذا فقد كان انقلاب مشرف - وبتحريض ودعم من أمريكا- على التيارات الدينية الباكستانية، والانقلاب على طالبان، وثيقة الصلة بالجماعات الإسلامية الداخلية، يُعدّ نوعًا من محاولة تجاوز ثوابت هامة في بنية الدولة، وبرغم أن الصراعات الأساسية كانت مع بعض التيارات الجهادية، ولم تشمل في البداية الجماعات الرئيسية (مجلس العمل

(٨) إذ يتحول اغتيال بوتو إلى «سنجة»! محمود سلطان، المصريون، ٣٠/١٢/٢٠٠٧م.

(٩) الأسس العرقية والطائفية لأزمة الدولة في باكستان «بتصرف»، محمد فايز فرحات، تعليقات مصرية، العدد ٩٠، بتاريخ ٢٠/١٠/٢٠٠٧م.

المتحد) إلا أن سياسات مشرف المتعلقة بالتحالف مع أمريكا في حربها ضد «الإرهاب»، والتنازلات المقدمة على حساب القضية الكشميرية، وانتهاءً بالتصعيد الخطير الذي بلغ ذروته في حادث المسجد الأحمر، الذي خسر فيه مشرف بوضوح التعاطف الشعبي وتأييد الإسلاميين، أدت في النهاية إلى تحول في العلاقة وصل إلى حد الصدام، وتخلي الإسلاميين عن حيادهم تجاهه بعد انقلابه العسكري، إلى حد وقوفهم ضده في خندق المعارضة.

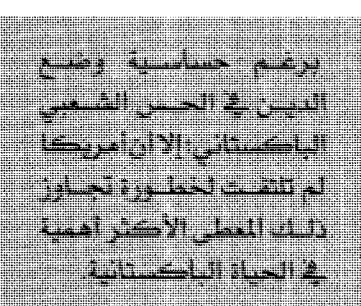
كما تبرز مشكلة القبائل كزاوية أخرى من زوايا صراع السلطة مع الإسلاميين، الذي بلغ ذروته حين حاول مشرف الزجّ بالجيش في منطقة القبائل، والذي أشعل فتيل المواجهات التي تجاوزت الإسلاميين إلى زعماء العشائر والقبائل في وزيرستان وبلوشستان، ففي سبيله للقضاء على شوكة الإسلاميين في هذه المناطق الحدودية -إرضاء لرغبة الأمريكيين- وتخفيفًا من الضغوط الغربية التي تشير بأصابع الاتهام إلى تواطؤ مشرف مع إسلاميي تلك المنطقة- في سبيل ذلك تجاوز مشرف الكثير من الخطوط الحمراء، وكثير من الأعراف التي تحكم تلك المناطق، والتي حرصت كل الأنظمة السابقة له على احترامها، مما أدى إلى ازدياد عمليات التفجير والمواجهات مع القوى الأمنية، مما مثّل حاليًا أحد أهم أسباب الفوضى العارمة التي تجتاح باكستان وتهدد كيانه.

إن الدور الأكبر للتحكم في الشارع الباكستاني وتحريكه كان وما زال متعلقًا بالاعتبارات الدينية، ومن هنا وبرغم مهارة مشرف خارجيًا في مغازلة بعض الأطراف الإقليمية والدولية، إلا أنه يبدو أنه لا يمتلك نفس المهارة في التعامل مع الواقع الداخلي؛ حيث يبدو المشهد ملتهبًا؛ بسبب تجاوزات مشرف لاعتبارات دينية وقومية، مما أدى إلى حشد العديد من القوى في خندق المعارضة.

ب- أمريكا والعلاقة مع الجيش:

«كل الدول لها جيوش، ولكن هنا الجيش له دولة»، يُبرِز هذا المثل المشهور في الأدبيات الباكستانية حجمَ الدور الذي يضطلع به الجيش في السيطرة على مجريات الأمور بباكستان.

فبعد قيام دولة باكستان استمر الصراع مع الهند، وأصبح العداء للجار الهندي من السمات الهامة التي تميز السياسة الخارجية لباكستان، فضلاً عن الشارع الباكستاني، ومثّل الصراع مع الهند، خاصة فيما يتعلق بقضية كشمير، المعطى الأكثر أهمية في توغل العسكر في السلطة للدرجة التي أصبح فيها اللاعب الأبرز في توجيه دفة الأمور.


برغم حساسية وضع الدين في الحس الشعبي الباكستاني، إلا أن أمريكا لم تلتفت لخطورة تجاوز ذلك المعطى الأكثر أهمية في الحياة الباكستانية

وللتدليل على النفوذ غير العادي للجيش في باكستان؛ فإن تأثير العسكر توغل في كل القطاعات الهامة في الدولة: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، حتى إن الكثير من رؤساء الجامعات الوطنية هم من قادة العسكر المتقاعدين.

وحرص مشرف منذ انقلابه العسكري الذي أوصله للسلطة على إحكام سيطرته على قطاعات الجيش، والبدء في تولية ذوي الولاء للنظام المناصب العليا في الجيش؛ ليضمن إحكام قبضته على هذه المؤسسة، التي سبق وانقلبت على أنظمة سابقة وأطاحت بها. إلا أن سيطرة مشرف على الجيش بدأت تدريجيًّا في التراجع، خاصة بعد تحول مشرف ضد طالبان، المرتبطة بعلاقات خاصة مع الجيش والمخابرات الباكستانية، ثم تلا ذلك التنازلات التي قدمها مشرف في قضية كشمير التي تعد قضية العسكر الأولى، وزاد الوضع تأزمًا بعدما زجّ مشرف بالجيش -وتحت ضغوط أمريكية- لمواجهة زعماء القبائل، برغم أن تلك المنقطة (القبائل) التي تسير تحت حكم الزعامات القبلية لم يسبق للجيش، ومنذ نشأة باكستان، أن دخلها بهذه الطريقة التي أضرت بصورة الجيش، فضلاً عن انهيار معنوياته

بعد الخسائر التي لحقته في تلك المنازلات. «فبعض أفراد الجيش لا يريد التورط في نزاع دموي ضد الشعب الذي ينتمي إليه، ولعل أخطر ما تواجهه أية قيادة عسكرية هي الزج بالجيش في معركة مع أبناء الشعب في معركة خاسرة سياسيًا».(١٠)

ورغم رمزية التنازل الأخير لمشرف عن بِزّته العسكرية، وقيادته لأركان الجيش الباكستاني، إلا أنه ما زال القائد الأعلى للقوات المسلحة، ومازال يحتفظ بالعديد من الصلاحيات في تسيير أمور الجيش، وربما تمثل هذه الخطوة، في مثل هذه الأوضاع الضاغطة، تحولاً إضافيًا نحو تراجع أركان نظامه، وقبوله بالمزيد من التنازلات.

ومع ما قد يبدو من تراجع لدور الجيش في المرحلة الحالية؛ نتيجة المطالبة بابتعاده عن السياسة، إلا أن تاريخ باكستان يشهد بأن احتمال ضعف تأثير الجيش في السياسة هو احتمال مستبعد، خاصة في ظل الظروف المتوترة والأوضاع المشتعلة التي أثرت على كل قطاعات الدولة ومؤسساتها الرئيسة، وأدت إلى تراجع دورها وفاعليتها، بسبب ديكتاتورية مشرف في إدارة أمور البلاد، ولم يبق غير الجيش وحده كمؤسسة ما زالت قادرة على لعب دور كبير في السيطرة على مجريات الأمور.

وبرغم شدة احتياج الولايات المتحدة للجيش الباكستاني في حربها ضد «الإرهاب» إلا أن المؤسسة العسكرية الباكستانية كانت دائمًا محل شك واتهامات من قِبل أمريكا؛ لما تعلمه من سابق العلاقات التي تربط المؤسسة العسكرية والمخابرات الباكستانية بالجماعات الإسلامية الداخلية، وطالبان الأفغانية، وتغلغل العديد من الرُّتَب العسكرية من ذوي الخلفية الإسلامية داخل المؤسسة العسكرية الباكستانية.

ومن جانبه «لم ينس الجيش أن الولايات المتحدة تخلَّت عن باكستان في تسعينيات القرن الماضي بعد طرد السوفييت من أفغانستان، والجنرالات قلقون من تقرب واشنطن من الهند، ويخشون أن يتم التخلي عنهم مجددًا. أحد أسباب حفاظه على بعض الروابط مع طالبان هو أنه يريد الاحتفاظ بهذا الخيار لما «بعد الحقبة الأمريكية» من أجل تقويض الحكومة المؤيدة للهند -بنظره- في كابول».(١١)

ويبقى أن الجيش -طالما بقي متماسكًا- يظل هو الطرف الأقوى والمفتاح الهام في السيطرة على الأوضاع وضبط الأمور، وإبعاد فكرة انهيار الدولة، بينما تنذر حالة الانشقاق والصراع داخل الجيش في حال حدوثها بأزمة كبيرة تتجاوز الوضع الحالي وتهدد الدولة بخطر التفكك.

ج- أمريكا والقوى السياسية الباكستانية (بناظير – نواز):

مع اشتعال الوضع الداخلي، ودخول العديد من القوى الإسلامية والعلمانية الباكستانية في خندق المعارضة؛ بسبب سياسات مشرف الديكتاتورية، أضحى النظام أمام مؤشرات انهيار لا تخطئها العين، الأمر الذي استشعرت خطورته أمريكا، وكان لا بد من تحرك سريع يمنع تهاوي النظام، وسيطرة الإسلاميين على الوضع، ويبدو أن قبول النظام عودة قطب المعارضة بناظير بوتو من منفاها- برغم تاريخ الخصومة بينهما- لتكوين حكومة ائتلاف هو الملمح الأبرز لأولى التحركات الأمريكية لوقف انهيار النظام، ربما حتى تجد البديل الأنسب الذي يحل محل مشرف الذي احترقت أوراقه.

ووقع الاختيار على بوتو الإيرانية الأم -والدتها السيدة نصرت أصفهاني الإيرانية المولد والجنسية-؛ لما لها من توجهات ليبرالية موالية للغرب، والأهم عداوتها المعلنة للتيارات الإسلامية، واستعدادها القوي للمشاركة بصورة أكثر فاعلية في الحرب ضد «الإرهاب».

ورغم أن الدعم الأمريكي لبناظير تمكن من إعادتها -بعد سنوات المنفى- إلى حلبة السياسة الباكستانية بقوة، وفرض شروطها على مشرف؛

---

(١٠) أزمة مشرف: بين عودة نواز شريف، وابتزاز بوتو ومطالبته بنزع البزة العسكرية، مجلة المجلة، ٢٣- ٢٩/٩/٢٠٠٧م، العدد ١٤٤١.

(١١) نيوزويك العربي، ٢٦ يونيو ٢٠٠٧م.

لقبول عودة تؤمن بعض المصداقية للنظام، إلا أن هذا الدعم يبدو أنه كلَّفها الكثير من مصداقيتها الشعبية، لما تحظى به أمريكا من كراهية في الشارع الباكستاني، فضلاً عن أن ولعها الشديد للسلطة دفعها للتحالف مع «ديكتاتور باكستان»، حتى وإن أدى هذا التحالف إلى استياء واسع ورفض داخل حزبها نفسه «حزب الشعب»، الذي وجد نفسه فجأة يغير اتجاهه المعارض «للديكتاتور» ليصطف معه وحده ضد كل تيارات المعارضة على اختلافها.

ولنفس الأسباب الداخلية الضاغطة، ولأهداف مختلفة، وافق مشرف على عودة نواز شريف من منفاه، بعد رفضه لعودته في بادئ الأمر، كما تخلى عن قيادة الجيش كخطوات تكتيكية تهدف لامتصاص الضغوط المتزايدة، وكسب الدعم الدولي لإضفاء بعض من المشروعية على نظام حكمه.

وقد يبدو للمتابع حينها أن عودة لاعبين هامين إلى حلبة السياسة الباكستانية (شريف- بناظير) إلى المشاركة السياسية قد يمثل بصورةٍ ما عامل استقرار من جهة ما يرمز إليه من تراجع لمؤشرات الديكتاتورية في البلاد، وفي المقابل ارتفاع مؤشر الممارسة الديمقراطية، مما قد يعني بعضًا من الانفراج السياسي، فضلاً عما يتوقع جراء تلك الخطوة من حدوث تحالفات سياسية، قد تمهد الطريق لتقاسم السلطة، أو استقرار الوضع الداخلي ولو إلى حين.

والحقيقة وبحسابات الواقع فإن عودة (بناظير- شريف) مثَّلت من جهة أخرى إضافة مزيد من عوامل الصراع إلى معطيات الوضع الداخلي، فبناظير تحتفظ بشعبية كبيرة خاصة في إقليم السند، فضلاً عن توجهاتها الغربية، مع خلفيات علاقتها غير الجيدة بالجماعات الإسلامية، كما أن عودتها، بشعبيتها الكبيرة، يقلق الجنرال مشرف، ولا ينال الرضا الكامل من الجيش من جهة أخرى[١٢]، كما أن نواز شريف يمتلك هو الآخر شعبية كبيرة، خاصة بين أبناء إقليم البنجاب، ولن يرضى بحالٍ بعد عودته من منفاه أن يفوته نصيب من الكعكة السياسية، وإلى الآن يبدي رفضه للتحالف مع مشرف.

إذًا فالقوى الأساسية في المشهد الباكستاني (مشرف - الجماعات - بناظير - شريف) ما يوجد بينهم من خلافات تتجاوز في حقيقتها القدر الهامشي، بصورة كان يصعب معها حدوث استقرار حقيقي مستديم في باكستان.

ولذا فمنذ عودة بوتو «صاحبة الشعبية الأكبر»، والصراع السياسي يشتد، ويأخذ منحًى شرعيًّا أحيانًا، وغير شرعي في كثير من الأحيان، ودخلت البلاد في مرحلة من الانفلات الأمني الذي صاحَبه العديد من الاغتيالات، والاعتقالات السياسية، فضلاً عن التفجيرات التي طالت إحداها بناظير بوتو نفسها لتُنهِيَ حياتها ومستقبلها السياسي نهاية دموية، وذلك عقب مهرجان انتخابي لها في مدينة روالبندي، لتلاقي نفس مصير والدها الذي اغتيل أيضًا، ومن بعده أخويها؛ لتصبح الرابعة في أسرتها التي تلقى نفس المصير، وتدخل البلاد في مرحلة أكثر اضطرابًا وخطورة.[١٣]

وقد يكون مقتل بوتو قد فتح الطريق أمام رئيس الوزراء السابق، ورئيس حزب الرابطة الإسلامية، نواز شريف لتزعم المعارضة، وتملُّك أوراق أكثر فاعلية في مواجهة الجنرال مشرف.

«أما الإسلاميون فسوف يستفيدون من تداعي حزب الشعب، وانهياره الكلي، من خلال بقائهم كقوة سياسية وحيدة تدعو إلى إصلاح النظام الباكستاني الحاكم، المبتلى بالفساد والظلم، وغياب الكفاءة، وقد ثبت فراغ الوعود التي قدمها حزب الشعب بالإصلاح من خلال ولايتي السيدة بوتو اللتين اتسمتا بالفساد والإخفاق الأمر الذي أدى في النهاية إلى تدهور مكانة الحزب في استطلاعات الرأي العام».[١٤]

(١٢) انقلب الجيش قديمًا على بوتو الأب وأعدمه.

(١٣) تم الانتهاء من كتابة البحث بعد حادثة مقتل بناظير مباشرة.

(١٤) ما بعد بنازير بوتو، أناتول لايفين، المصريون، ٣١ /١٢/ ٢٠٠٧م.

د- اشتعال الأوضاع ومستقبل الأزمة:

دخلت باكستان منذ العام الماضي في دوامة من الاضطرابات غير المسبوقة؛ حيث فتح مشرف -بسبب سياساته العنيفة ضد خصومه، وتبعيته المفرطة لأمريكا- العديد من ملفات العداء ضد نظامه الذي خسر المزيد من شرعيته.

ويبدو أن ما آل إليه الوضع الباكستاني، في ظل التحالف الذي جمعها والولايات المتحدة، يؤكد المقولة التي تثبت أن معارضة الاستعمار وإغضابه أقل تكلفة من استرضائه.

فيومًا بعد يوم تتحرك باكستان تجاه فوضى عارمة، ويبدو الجنرال الباكستاني في ورطة حقيقية، بسبب السلطة الآخذة في التراجع، والتخبط الذي يعصف بمؤسسات الدولة، ويهدد بتفكك البنية الاجتماعية، مما ينذر بحدوث مفاجآت في خريطة التوازنات السياسية أو العسكرية.

ففضلاً عن الصدام مع التيارات الإسلامية، إلا أن علاقة مشرف مع القوى المدنية والعلمانية الأخرى لا تبدو أفضل حالاً، فقد أثار عداء الهيئة القضائية، والكثير من مؤسسات المجتمع المدني، حين ألقى القبض على كبير قضاة المحكمة العليا افتخار شودري، الذي استقطب اهتمامًا إعلاميًّا كبيرًا، فضلاً عن اعتقال العديد من القضاة والمحامين وغيرهم، مما أضاف جبهة جديدة من جبهات المعارضة التي أتى على رأسها المثقفون واتحادات العمال وجماعات الحقوق المدنية، الأمر الذي أثر بشدة على شرعية النظام.

ثم أتت حادثة مقتل بوتو[١٥] لتضيف المزيد من عوامل الاضطراب الداخلي والانفلات الأمني، الذي وصل لمدًى يصعب تصور نهايته.

ويُجمِع المتابعون للشأن الباكستاني على أن أكبر أخطاء الرئيس مشرف أنه سلَّم أوراقه السياسية للإدارة الأمريكية، الأمر الذي أفقده لاحقًا تعاطف الشارع الباكستاني وثقته، التي انعدمت مع تصاعد الأحداث، كما أن المؤسسة العسكرية التي يعتمد عليها مشرف في تدعيم سلطاته، بدأت بوادر أزمة بينها وبين الرئيس بسبب تصاعد السخط الشعبي، وتراجع معنويات الجيش لخسائره التي ألمت به في المواجهات مع القبائل، فضلاً عن سياسات مشرف في معالجة ملف كشمير الذي تراجع لأول مرة بهذه الصورة في سُلَّم أولويات باكستان الخارجية.

ومع مرور الوقت تأكد خسارة النظام الباكستاني، وظهر المأزق الذي أوقع نفسه فيه؛ بسبب تنازلاته التي قدمها لأطراف خارجية على حساب قضايا حساسة تأتي في مقدمتها أولويات الأمن القومي الباكستاني.

ولذا فالمسار المتوقع للأحداث -في حال عدم حدوث ثورة شعبية أو تدخل الجيش للإطاحة بالجنرال مشرف أو نجاح إحدى محاولات اغتياله- فإن مشرف لا يملك غير تقديم بعض التنازلات، أو إبرام صفقة مع إحدى القوى المؤثرة في الشارع الباكستاني لتحييدها أو كسبها، وفي الغالب فإن المرشح للمشاركة في تلك الصفقة لن يعدو كونه مجلس العمل المتحد؛ الذي يضم عدة أحزاب إسلامية فاعلة، أو نواز شريف الذي ازددات فرصه السياسية بعد مقتل بوتو.

كما أن الضغوط التي تجمعت على الجنرال، الحريص على السلطة، قد تدفعه، في ظل تصاعد الأحداث، إلى تقديم المزيد من التنازلات والمقايضات مع أمريكا؛ لضمان دعمه وعدم التخلي عنه في ورطته، من أجل الاستمرار في السلطة، وحينها فإن أي مقايضة جديدة من هذا النوع -بين الجنرال وأمريكا- ستؤدي ولا شك لمزيد من عدم الاستقرار في باكستان، وستمهد لمزيد من الاضطرابات، بل وقد تمهد الطريق مستقبلاً لفتح الملف النووي الباكستاني وتفكيكه.

لكن يبدو أيضًا أن أوراق مشرف السياسية ومصداقيته الشعبية قد احترقت، لدرجة قد تصل معها الأمور إلى أن أيّ محاولة من جانبه -في حال نجاحها- لتخطي الأزمة الحالية لن تعدو كونها

(١٥) تشير بعض الدلائل لتورط النظام في هذه الحادثة؛ بسبب خوفه من شعبية بناظير الكبيرة، واحتمال انقلابها عليه بعد وصولها للسلطة.

نجاحًا مؤقتًا، أو وقفًا آنيًا لانهيار نظامه الذي باتت ملامح سقوطه وشيكة، خاصة بعد أن أصبحت واشنطن تشك في قدراته على الاستمرار.

إن الصراعات التي تطفو حاليًا على سطح السياسة الباكستانية، وتزداد اشتعالاً يومًا بعد يوم -مع ما قد يُضاف لها في الفترة المقبلة- لا تمثل في حقيقة الأمر سوى المشهد الخارجي لإشكاليات عميقة (تتعلق بالهوية - البنية الاجتماعية - الأمن القومي)، وترتبط في أصلها بمكونات المجتمع والدولة الباكستانية؛ ولذا فلا يُتوقَّع انفراجة حقيقية قريبة وحل جذري للمعضلة الباكستانية، بل أقصى ما يمكن تصوُّره هو نوع من التوافق بين القوى السياسية أو بعضها؛ لتهدئة الوضع المشتعل، وتبقى المشكلة الأساسية أن استقرار الدولة هدف بعيد المنال، في ظل مسار السياسة الباكستانية الحالية.

وربما كانت باكستان تعاني في الأصل من بعض الأزمات الداخلية، فيما يتعلق بمشكلة الأعراق، والاندماج القومي، والبطالة، والحدود وغيرها، إلا أن اللافت أن جميع هذه الأزمات وغيرها -إضافة للأزمات الجديدة المرتبطة بسياسات مشرف العنيفة داخليًا، والتابعة خارجيًا للتوجهات الأمريكية- قد انفجرت وتصاعدت في توقيت واحد يُنذر بأزمة غير محسوبة العواقب.

وبرغم اختلاف تلك المشاكل والأزمات، التي تعصف بالنظام وبالدولة؛ إلا أن غالبيتها يرجع في أساسه لمعطًى يسبق في الأهمية غيره من المعطيات الحاكمة للوضع الباكستاني -وهو محاولة تجاوز الاعتبار الديني، الذي يغلب على المشهد الباكستاني، سواء على المستوى الشعبي، أو على مستوى التيارات الإسلامية؛ حيث تم تحدي ذلك المعطى، والخضوع للابتزازات الأمريكية في محاولة تجاوزه، أو تهميشه، بل والقضاء عليه.

في حين أن العامل الديني ثبت وأن نجح في العبور بباكستان لبر الأمان، عندما التفَّت القوى الباكستانية على مستوى النخبة -في غالبها- والجمهور حول الخيار الإسلامي لتجاوز عقبة الهوية، ومواجهة تحديات ضخمة خارجية (الهند)، وتجييش المشاعر للالتفاف حول قضية كبرى (كشمير)؛ لتجاوز مشاكل وأزمات تشبه، إلى حدٍّ ما، المأزق الراهن.

«وقد شهد منتصف السبعينيات أحداثًا كبرى، شكَّلت تحديات خطيرة لباكستان، مثل انفصال بنغلادش، وانقلاب محمد داود رئيس الوزراء الأفغاني على ابن عمه الملك ظاهر شاه، ثم انقلاب الحزب الشيوعي الأفغاني على داود، وشعرت باكستان أنها مهدَّدة من الشرق والغرب، وتفتقت أذهان ضباط الاستخبارات المتدينين وضياء الحق الرئيس الباكستاني المتدين، عن تجييش الجماعات الإسلامية التقليدية والجديدة، والتي كانت مشغولة بالدعوة والتعليم، وقليل من العمل السياسي، وقد شجَّع نجاح التجربة المنقطع النظير الحكومة الباكستانية على تطويرها وتوسعتها».(١٦)

فشل مشرف في الحفاظ على الأمن القومي الباكستاني:

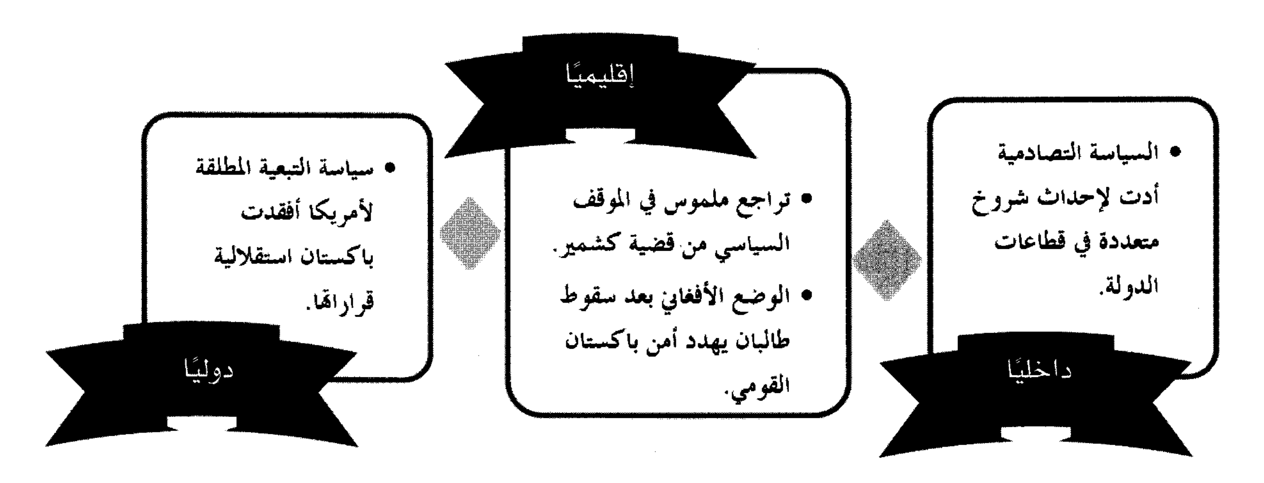
بين التأزم الداخلي، بسبب تصاعد الرفض الشعبي، وتجمُّع جبهات عدة ضد سياسات النظام، إضافة للضغوط الخارجية على مشرف؛ لاستمرار تقديم الدعم لتحالف الحرب ضد "الإرهاب"، واتهامه بأنه لا يقوم بما يجب فعله في حربه ضد الإسلاميين، يبدو نظام مشرف في مأزق حقيقي؛ حيث أدت هذه الإشكاليات المتداخلة إلى فشل ذريع لمشرف في تحقيق الأمن القومي الباكستاني، والمتمثلة أبرز شواهده فيما يلي:

- تراجع ملموس في الموقف السياسي الباكستاني من قضية كشمير المصيرية؛ حيث تواجه الحكومة الباكستانية تحديًا داخليًا حقيقيًا، وتراجعًا قويًا في مؤشرات التأييد الشعبي؛ بسبب التراجع الذي أصاب القضية الكشميرية، التي يعتبرها الشعب الباكستاني قضيته الأولى؛ لاعتبارات دينية وقومية في آن.
- أصبح الوضع في أفغانستان بعد سقوط طالبان

---

(١٦) باكستان والجماعات المسلحة، إبراهيم غرايبة، مجلة العصر، ٢٠٠٧/١٠/٣١م.

فشل مشرف في الحفاظ على الأمن القومي الباكستاني



-بمساندة باكستانية لأمريكا- يمثل خسارة كبيرة تمسّ أمن باكستان القومي؛ لِمَا كانت أفغانستان تمثله من عمق استراتيجي لباكستان، فضلاً عما كانت تقوم به طالبان من تأمين مصالح باكستان الحيوية.

- سياسة مشرف الخارجية، التي تتسم بالتبعية المطلقة لأمريكا، أصبحت معها سيادة باكستان مهددة على أراضيها، وأفقدها استقلالية قراراتها، وأضعفت من موقفها الإقليمي، خاصة أمام الهند خصمها التقليدي.

كما أن المأزق الذي وصل إليه النظام الباكستاني -بتحالفه مع أمريكا، ومشاركته في حرب لا فائدة لبلاده من ورائها- تجاوزتْ أضراره الجنرال مشرف إلى باكستان نفسها، التي اشتعلت فيها الأحداث، وتهددت بنية الدولة للدرجة التي أصبح يتردد معها الحديث حول إمكانية انهيار الدولة نفسها، وليس النظام فقط.

- سياسته الداخلية التصادمية أدت لإحداث شروخ متعددة في قطاعات الدولة المختلفة، بل داخل القطاع الواحد، مثلما حدث للمؤسسة العسكرية التي ظهرت فيها بوادر السخط؛ بسبب سياسات مشرف الخطيرة داخليًّا، فضلاً عن صراع الولاءات: ما بين الولاء لرئيس الدولة، ورئيس الجيش، وبين التعاطف مع التيارات الدينية، التي طالما دعَّمت الجيش، ومثَّلت محورًا هامًّا في عقيدته العسكرية.

خاتمة وتوصيات

لقد بالغ مشرف في مشاركته فيما يُعرف بالحرب على الإرهاب، دون أي اعتبار لمكانة الدين في المجتمع الباكستاني، في حين «استندت تجربة تأسيس الدولة الباكستانية إلى الدين كأساس لقيام الدولة، وشكَّل الدين الإسلامي أساسًا للقومية الباكستانية، والمعيار الذي تم على أساسه تمييز الشعب الباكستاني (المسلم) عن باقي شعوب شبه القارة الهندية».(١٧)

ولذا فإن أزمة باكستان الحقيقية تتمثل في محاولة انقطاع النظام عن ماضيها، وتجاوز معطيات نشأتها الدينية التي تميزها عن أي دولة أخرى في العالم.

«لقد وعى المؤسسون الأوائل للدولة طبيعة النفسية الباكستانية التي آمنت بأن ترابطها العقائدي أساسُ أَمْنِها الاجتماعي لدولة متعددة الأعراق، وأن الجيش هو ضمانتها في مواجهة العداء الهندي المعلن، الذي اشتدت عدوانيته بعد بروز قضية إقليم كشمير ذي الأغلبية المسلمة، والصراع عليه مع باكستان

---

(١٧) الأسس العرقية والطائفية لأزمة الدولة في باكستان، محمد فايز فرحات، تعليقات مصرية، العدد ٩٠، بتاريخ ٢٠/١٠/ ٢٠٠٧م.

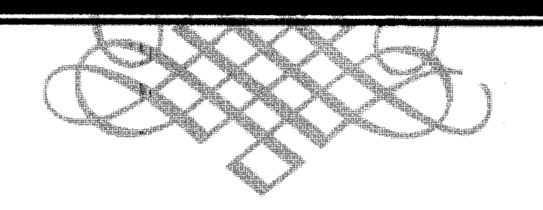
التي جنّدت الفصائل المسلحة المقاومة لمواجهة خطر الاحتواء الهندي».[١٨]

ومن هنا يبرز أهمية التحرك الفاعل، وإعادة التحالف القديم بين الجماعات الإسلامية الباكستانية -التي تمثل صمام الأمان للشارع الباكستاني؛ لمحاولة إعادة الهدوء- والجيش المؤسسة القوية التي يمكنها وقف تدهور الأوضاع، وهما الفاعلان القويان على الساحة بامتياز، خاصة بعد موت بناظير بوتو.

كما أنه وفي مثل هذا الوضع الحرج، والمرحلة التاريخية الفاصلة، التي تمر بها باكستان، ومع ارتفاع مؤشر الخطر الذي يكاد يقترب من المساس بما يُعرَف «بفكرة باكستان»، أو بمعنى آخر ارتفاع مستوى التهديدات التي تعانيها باكستان لدرجة أوصلها البعض إلى تهديدات تتعلق بأساس وجودها، الذي تجاوز نصف قرن -لم تعرف على مداره فترات استقرار طويلة- يمكن أن تشهد فيها تثبيت معالم الدولة، واستقرار أركانها، لذا وفي مثل تلك الظروف يصعب تصور مخرج لذلك المأزق الباكستاني بدون مراعاة مجموعة من الثوابت، يأتي على رأسها:

- إعادة الاعتبار للأساس العقدي الذي قامت باكستان -كدولة- على أساسه ابتداءً، واستطاعت عن طريقه تجميع مسلمي شبه القارة الهندية في دولة مستقلة، تهدف لتحقيق هويتهم وثقافتهم الخاصة، فعنصر الدين -الذي كان بمثابة المحرك والدافع لفكرة باكستان في البداية- يصعب أن تتجاوزه باكستان في أزمتها الحالية، فبدون ترسيخ حقيقي للوعي الإسلامي، وتعميق للهوية الإسلامية -في مقابل العلمانية التي تريد أمريكا فرضها- يصعب أن تتجاوز باكستان أزمتها الحادة، خاصة في تلك البيئة القبلية التي تلعب فيها الأعراق والعصبيات دورًا كبيرًا، يصعب معه إيجاد بديل مناسب يجمع ذلك الشتات الداخلي المضطرب، والمتعارض أحيانًا، سوى الإسلام الذي تمكن في البداية من أن يكون المحور الأساس الذي يلتف حوله الجميع. ولذا فإن أي محاولة لتجاوز هذا الأساس، والعمل على إضعافه أو تهميشه، فضلاً عن محاربة التيارات الإسلامية -التي تمثل قوة هامة في الحياة السياسية الباكستانية- سيؤدي إلى نتائج لا يمكن لأحد التنبؤ بمدى خطورتها.
- الحفاظ على القدرات النووية، والإبقاء على الوضعية الخاصة للنووي الباكستاني، كقضية أمن قومي غير قابلة للتفاوض أو الابتزاز، وبعيدًا عن أي مفاوضات أو تنازلات، يمكن أن تقدمها القيادة السياسة مهما بلغت الضغوط، بحيث يظل بقاؤها على سُلَّم اهتمامات النظام السياسي، في مكانة تسبق في أهميتها الحصول على المساعدات أو الدعم العسكري، أو السياسي أو الاقتصادي للنظام القائم.
- تدعيم شبكة العلاقات التحالفية الممتدة مع القوى الإقليمية الصديقة مثل الصين، فضلاً عن تدعيم شبكة العلاقات الباكستانية الإسلامية والعربية، مستثمرة روابط الدين والمصالح المشتركة؛ لمحاولة الهروب من فخ الضغوط الأمريكية التي تعمل دائمًا على قولبة السياسات الباكستانية، بما يخدم المصالح الأمريكية، دون مراعاة للمصلحة الباكستانية.
- السعي لإيجاد توافق وطني يجمع القوى الباكستانية الوطنية، بما فيها التيارات الإسلامية؛ للعمل على إعادة الحياة المؤسسية للدولة، ووقف تدهور الأوضاع الذي بات يهدد استقرار باكستان، وسقوطها في دائرة العنف والاقتتال الداخلي الذي لن يستفيد منه سوى أعداء باكستان.
- أهمية تدخل الجيش (المؤسسة القوية) لوقف نزيف الخسائر، والمسارعة لإعادة الهدوء إلى الشارع الباكستاني، والضغط لإعادة عمل مؤسسات الدولة، وإجراء انتخابات نزيهة؛ لتفويت الفرصة على القوى الخارجية، التي يُتوقع استغلالها لحالة الهشاشة التي تمر بها الدولة، للتدخل في مقدرات باكستان، بما يضر بأمنها القومي، ثم

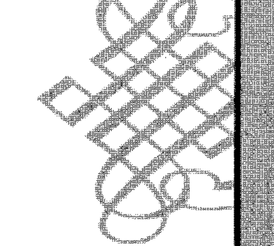
(١٨) المسجد الأحمر .. دماء شرارة وثورة الهجوم وعلاقته بتقارير هيئة «راند» الأمريكية - محمد لافي الجبريني، مفكرة الإسلام، ٢١/٧/٢٠٠٧م.



الانسحاب لثكناتها، وترك أمور السياسة بعد استقرار الأمور.

وأخيـرًا: فـإن خيـار الرئيـس مشـرف بالوقوف في الخندق الأمريكي، وتنفيذ أجندتها بالمنطقة بصورة أضرت بالأمن القومي الباكسـتاني، كلَّف النظام الباكسـتاني إلى الآن فاتـورة باهظة الثمن، وكان بمثابـة قفز النظام على ثوابـت الدولة، وانقطاع عن معطيات نشأتها.

وإن لم تَعِ جميعُ القوى الباكسـتانية خطورة الوضع الذي يهدد الكيان الباكستاني، وتتعاون على تقديم المصلحـة الباكسـتانية علـى المصالح والمكاسـب الشخصية؛ فإن الحال ينذر بتفجر الأوضاع، ودخول البلاد في حالة الفوضى لحساب أطراف خارجية، لا اهتمام لها بالمصلحة الباكستانية.



معلومات إضافية
جمهورية الباكستان

جغرافيًّا :

المساحة الكلية ٨٠٣,٩٤٠ كم مربع، العاصمة إسلام آباد.

طول الحدود: ٦٧٧٤ كم.

دول الجوار: الهند (٢٩١٣كم)، أفغانستان (٢٤٣٠كم) ، الصين (٥٢٣كم) ؟، إيران (٩٠٩ كم).

المصادر الطبيعية: احتياطي كبير من الغاز، كميات محدودة من النفط، فحم، خامات حديد، نحاس، ملح.

اقتصاديًّا:

الصناعات: المنسوجات، تصنيع الأغذية، مواد البناء، الألبسة، الورق، السمك.

المنتجات الزراعية: القطن ، القمح، الأرز، قصب السكر، الفاكهة، الخضروات، اللحوم.

العملة المتداولة: الروبية الباكستانية.

سكانيًّا:

وفق إحصائيات ٢٠٠٣م.

عدد السكان: ١٤٧,٥٢٣,١٦٤ نسمة.

اللغة الرسمية: البنجابية.

نسبة المسلمين: ٩٧٪.

المصدر:

الأطلس الجغرافي للعالم الإسلامي ، اقتصاديًّا- جغرافيًّا ، دار الشرق العربي، إعداد الدكتور سيف الدين الكاتب.



الأحزاب السياسية في باكستان

يوجد عدد كبير من الأحزاب السياسية في باكستان قد تصل إلى ٥٦ حزبًا، لكن الأحزاب المؤثرة في الحياة السياسية قليلة. وأهم هذه الأحزاب هي:

١- حزب الرابطة الإسلامية - جناح قائد أعظم:

حزب الرابطة الإسلامية هو الحزب الذي أنشأ باكستان، لكن هذا الاسم كان مطية لكل طامع في السلطة، ومن هنا كان لهذا الحزب أجنحة كثيرة، في كل فترة من الفترات السياسية. وقد استغل

العسـكريون الطامعون في السـلطة مرارًا اسم هذا الحزب، وكل عسـكري حكم باكستان جمع بعـض السياسـيين ممن لهم علاقة بهذا الحزب في السـابق، وشـكّل جناحًا خاصًا بـه، وحكَم البلد باسمه.

كما أن كل من ينشـق عن الحزب يشـكّل جناحًا خاصًا به، وأصبح اليوم هناك أكثر من عشـرة أجنحة لهذا الحزب، أشـهرها جناح نواز شـريف، وجناح قائد أعظم، وحزب الرابطة الإسلامية، الذي شكّله الجنرال مشرف عام ٢٠٠١م.

يقول الجنرال مشـرف في ص١٦٧ من النسـخة الإنجليزية من كتابه «على خط النار»]: «بعد نَفْي نواز شـريف من باكسـتان، كنت أريد أن يكون في هذا البلد حزب يواجه حزب الشـعب التابع لـ «بينظير بوتو» وحزب الرابطة الإسـلامية التابع لنواز شـريف، ومن هنا رتَّب سـكرتيري الخاص، السيد طارق عزيز، لقاء بـ «تشودري شجاعت حسين»، وبذلك نشأ حزب الرابطة الإسلامية بقيادته».

ولمـا أجريت الانتخابـات العامة في عام ٢٠٠٢م، حصل حزب الرابطة الإسـلامية الوليد على ٦٩ مقعدًا فقط في البرلمان المركزي من بين (٢٧٢) مقعدًا للبرلمان الباكستاني، ثم انضمت إليه مجموعة كبيرة مـن أعضـاء البرلمـان التابعين لحزب الرابطة الإسـلامية -جناح نواز شـريف-، فأصبح أكبر حزب في البرلمان الباكستاني، ووصل عدد أعضائه في البرلمان المركزي إلى ١٢٦ عضوًا.

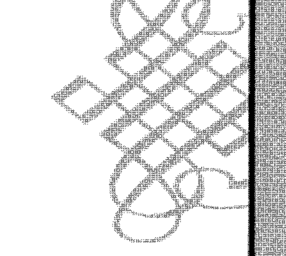
هـذا الحـزب يعتبر من مؤيدي الجنرال مشـرف ومصيره مرتبط بقراره، ولذلـك يرى المحللون أنه ليس له أيّ مسـتقبل. لذلك، فقد اتجه الجنرال مشـرف نحو حزب الشـعب التابع لـ «بينظير بوتو» لتشـكيل الحكومة القادمة، وقد أغضب هذا القرار القيادة السياسية لهذا الحزب.

٢- الحركة القومية المتحدة:

نشـأ الحزب في البداية باسـم (حركة المهاجرين المتحدة) تحت قيادة ألطاف حسـين عام ١٩٧٨م على خلفية عمل طلابي، ويعتبر الحزب المذكور حزبًا متعصبًا شعاره المحافظة على حقوق المهاجرين، الذين هاجروا إلى باكستان من الهند وقت انفصالهما عام ١٩٤٧م.

يجـد الحـزب قبولاً كبيرًا في المناطق التي أغلب سـكانها مـن المهاجرين، مثل مدينة «كراتشـي»، ومدينـة «حيـدر آباد»، وبعـض المناطق الأخـرى في إقليم السـند، وليس له وجـود في أي منطقة أخرى في باكسـتان. ويرتبط اسـم هذا الحزب بالتشـدد والإرهاب، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك حوادث القتل والعنف في كراتشـي يوم ١٢ مايو ٢٠٠٧م أثناء زيارة رئيس المحكمة العليا المعطل افتخار محمد تشودري، حيث قُتل العشرات وجُرِح المئات من قِبل حركة المهاجرين القومية.

وهناك انطباع بأن الحزب يُدَار بصورة غامضة، وكل القرارات بيد شـخص واحد هو ألطاف حسـين الـذي هـرب إلى لندن من مواجهة قضايا عديدة في المحاكم الباكسـتانية. ويعتبر الحزب المذكور من مؤيدي الجنرال مشـرف، ويُكوِّن في الغالب جزءًا من كل حكومة يشكّلها حزب كبير بالتعاون مع بعض الأحزاب الصغيرة.



٣- حزب الرابطة الإسلامية - جناح نواز شريف:

ورث محمـد نواز شـريف قيادة حزب الرابطة الإسـلامية من خلفه محمد خـان جونيجو - رئيس وزراء باكستان الأسبق- في أواخر عهد الجنرال ضياء الحق.

وقد ظهر شـريف كقائد سياسـي في الانتخابات التي أجريت في عام ١٩٨٨م حين تولى رئاسـة وزراء إقليـم بنجـاب، ثم حصـل على الأغلبية في الانتخابـات التي أجريت عام ١٩٩٠م بعد تشـكيل (الاتحاد الإسـلامي الديمقراطي) بالتعاون مع الجماعة الإسـلامية، وشكّل الحكومة، ثم حصل على الأغلبية في البرلمـان في الانتخابـات التي أجريت عام ١٩٩٧م، وشـكّل الحكومة المركزية. وكان شـريف هو الذي رقى الجنرال مشـرف ليكون قائدًا للجيش، إلا أنه حصل خلاف بينهما بسـبب قضية «كارجل» التي كادت تشعل الحرب بين الهند وباكستان، فأراد أن يعزله من منصبه.

ولكن مشـرف استبق ذلك بأن قام بانقلاب عسكري عام ١٩٩٩م؛ حيث وجهت لشريف تهم كثيرة، منهـا محاولـة اختطـاف الطائرة التي كان الجنرال مشـرف يعـود على متنها من سـيريلانكا، ومنها الاختلاسات المالية، ومنها علاقته بأسامة بن لادن.

وقد أدخل شريف السجن إلا أنه خرج بوساطة المملكة العربية السعودية إلى المملكة أولاً، ومن هناك إلى إنجلترا. وقد حصل حزبه على عدد كبير من المقاعد في الانتخابات العامة التي أجريت عام ٢٠٠٢م في حكومـة الجنرال مشـرف، إلا أن أغلبهم انشـقوا عنه وانضموا لحـزب الرابطة - جناح قائد أعظم المؤيد للجنرال مشرف. ويمثل الحزب في البرلمان الحالي (١٩) عضوًا. ويعتبر محمد نواز شريف من أشد المعارضين للحكومة العسكرية الحالية، ومن المنتظر أن يكون محور المعارضة في المرحلة القادمة.

وقـد حصل نواز شـريف على حكم مـن القضاء الباكسـتاني بأحقيته في العـودة، وأعلن عن عزمه الرجوع إلى باكسـتان وخوض الانتخابات النيابية القادمة. لكن عند وصوله في ١٠ سـبتمبر ٢٠٠٧م، تمـت محاصـرة الطائرة التي وصل عليها، ومنـع أتباعه من الوصول إليه. كما احتجزته السـلطات في المطار، ثم وضعته مرة أخرى على طائرة متجهة إلى السعودية بحجة وجود أحكام ضده. وقد أثار ذلك مناصريه، وزاد من حدة الاحتقان السياسـي في البلاد. «ثم عاد مشـرف وقَبِلَ عودة شـريف لباكستان فيما بعد».



٤- حزب الشعب الباكستاني:

أسسه ذو الفقار علي بوتو عام ١٩٦٧م، وتولى الحكومة إثر إجراء الانتخابات عام ١٩٧٠م، وكان هو السبب الرئيسي في انفصال بنجلاديش عن باكستان. اتُّهِمَ بوتو بقتل تشودري ظهور إلهي (والد تشودري شجاعت حسين رئيس الحزب الحاكم)، وحكم عليه بالإعدام من قِبَل المحكمة الباكستانية، ونفذ فيه حكم الإعدام في أبريل عام ١٩٧٩م في عهد ضياء الحق.

وقد تولت ابنته بينظير بوتو قيادة الحزب بعده، وعاشت في المنفى أغلب سنوات حكم الجنرال محمد ضيـاء الحـق، ثم عادت عام ١٩٨٦م في أواخر عهده. وفاز حزبها في الانتخابات التي أجريت عام ١٩٨٨م

بأغلبية ضئيلة، وشكّلت الحكومة، واتُّهِمَت هي وحكومتها وزوجها آصف علي زرداري باختلاس أموال الشعب، فأقيلت حكومتها في عام ١٩٩٠م من قِبَل غلام إسحاق خان رئيس الدولة حينذاك. وقاطع حزبها الانتخابات التي أُجريت عام ١٩٩٠م، ثم عادت إلى السلطة عام ١٩٩٣م، ولم يستمر حكمها إلا ثلاث سنوات، فأقيلت حكومتها مرة أخرى عام ١٩٩٦م.

عاشت بوتو في المنفى بين الإمارات العربية المتحدة وبريطانيا، حتى عادت إلى باكستان يوم ١٨ أكتوبر ٢٠٠٧م، ولكنها اغتيلت في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٧م أثناء خروجها من مؤتمر انتخابي لمناصريها؛ حيث تعرضت لإطلاق نار، وقام المهاجم بتفجير نفسه على بعد ٢٥ مترًا من سيارتها. وفي حين روت التقارير الأولية أصابتها برصاصة برأسها وأخرى بعنقها، تحدثت رواية السلطات الرسمية الباكستانية عن وفاة جراء ارتطام رأسها بسقف السيارة المصفحة التي كانت تركبها.

٥- مجلس العمل المتحد:

هو تحالف لستة من الأحزاب الإسلامية، وقد تشكّل قبيل الانتخابات التي أُجريت عام ٢٠٠٢م. كانت الأحزاب الإسلامية قبل ذلك تعاني من التفرق والتمزق، ولذلك لم يكن لها دور بارز في السياسة الباكستانية، لكنها لما شكلت تحالفًا وجدت قبولاً كبيرًا في إقليمين من الأقاليم الباكستانية هما: إقليم سرحد، وإقليم بلوشستان. شكّل مجلس العمل المتحد حكومة إقليمية في إقليم سرحد بمفرده، وشكّل حكومة إقليمية في إقليم بلوشستان، بالاشتراك مع الحزب الحاكم والأحزاب التي تشارك في التحالف المذكور، هي كالتالي:

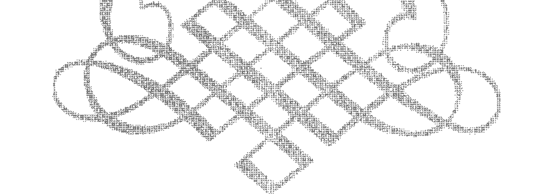
١- الجماعة الإسلامية بقيادة الأستاذ القاضي حسين أحمد.
٢- جمعية علماء الإسلام - جناح المولوي فضل الرحمن، وهو من أكبر الأحزاب المشاركة في التحالف المذكور.
٣- جمعية علماء الإسلام - جناح سميع الحق.
٤- جمعية علماء باكستان - جناح المولوي شاه أحمد نوراني (الاتجاه البريلوي).
٥- جمعية أهل الحديث بقيادة البروفيسور ساجد مير.
٦- الحركة الإسلامية، وهي حركة شيعية كانت تُعرف قبل ذلك باسم حركة تنفيذ الفقه الجعفري.

هذا التحالف سيلعب دورًا مؤثرًا في الحياة السياسية في المستقبل؛ إذا حافظ أصحابه على وحدته، لكن المواقف المضطربة التي يقفها المولوي فضل الرحمن، خاصة في التقرب من الحكومة والتحاور معها، يعرِّض عقد التحالف المذكور للتناثر.



المصادر:

د. مصباح الله عبد الباقي، مشرف وأزمة النظام السياسي في باكستان، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٧٠، أكتوبر ٢٠٠٧م (بتصرف).



الاستراتيجية الغربية لاحتواء الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

أ. عصام زيدان

(باحث سياسي)

ملخص البحث

يأخذ الصراع الحضاري في إفريقيا بُعدًا مزدوجًا؛ إذ هو صراع بين الحضارة العربية والإسلامية، والحضارة الغربية على حاضر القارة ومستقبلها، ومن زاوية أخرى أجّج الغرب صراعًا حضاريًّا آخر بين العرب وإفريقيا، وأشعلها حربًا على الوجود العربي والإسلامي في القارة.

الحضور العربي والإسلامي في إفريقيا كان له من الخصائص والميزات الفريدة التي ساهمت في كون أغلبية العرب أفارقة، كما أن أغلبية الأفارقة مسلمون.

لكن الأجندة الغربية وضعت الوجود العربي في إفريقيا على قمة أولوياتها، وراحت ترسم للقارة على العموم، ولإفريقيا جنوب الصحراء خاصة، مصيرًا يهدف إلى عزل الوجود العربي والإسلامي شمال القارة عن جنوبها.

وما يحاك الآن ويدبر ليس إلا امتدادًا لرؤية غربية ضاربة بجذورها في عمق التاريخ الاستعماري الأوروبي للقارة.

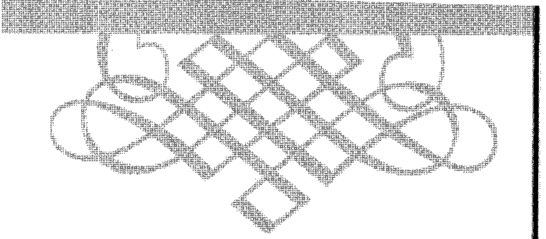
وعلى الرغم من رحيل الاستعمار فإن فكرة تقسيم إفريقيا لخدمة المخطط الغربي، وتجزئتها على أسس عرقية، لعزل العرب والمسلمين في الشمال عن بقية أجزاء القارة بقيت كما هي قائمة، وفي سبيل تنفيذ مخططه لجأ الغرب إلى عدة وسائل؛ كالتنظير لصراع حضاري بين الإفريقي والعربي، وبناء ثقافة متكاملة معادية للعرب، إضافة إلى الوجود العسكري المباشر، واستخدم جيوش التنصير في محاربة الوجود العربي والإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء.

هذا المخطط الغربي يرمي إلى تحقيق سلة من الأهداف، يأتي على رأسها قطع الطريق أمام الحضارة العربية والإسلامية لتجد لها موطئًا مستقرًّا في العمق الإفريقي، ومحاربة الوجود الإسلامي، وجعل القارة الإفريقية بحيرة مسيحية تنفر من الوجود العربي والإسلامي، بجانب إحكام السيطرة على الموارد الإفريقية الهائلة دون منازع عربي وإسلامي.

ولا يجب أن نغفل الذراع الإسرائيلي ودوره في تنفيذ المخطط الغربي، إذ تتلاقى رغبتهما في احتواء ومنع التمدد العربي والإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء.

تحتاج الدول العربية إلى استراتيجية مضادة توقف مفعول المخطط الغربي، وتحافظ على الوجود العربي والإسلامي، وتدعم بقاءه في إفريقيا عامة وإفريقيا جنوب الصحراء خاصة. ولا بد أن تنطلق هذه الاستراتيجية من هدف واضح وأساسي هو الحفاظ على المصالح العربية والإسلامية في إفريقيا وتدعيم هذا الوجود، والتصدي للمخططات الغربية.





أفكار و مقتطفات

- الصدام بين الحضارات والأديان بلغ غايته في العلاقة بين حضارة الإسلام والحضارة الغربية المعاصرة، وأخذ ذلك الصدام بُعدًا تنظيريًا قويًا، خاصة بعد كتاب صامويل هينتجتون الذي وسمه بـ«صدام الحضارات».

- يربط بين العرب والأفارقة مجموعة من العوامل المشتركة؛ تتمثل في المرتكزات التاريخية والجغرافية، والدينية والاقتصادية، والتي صهرت الجانبين في بوتقة واحدة، ووجدت صداها في القبول الإفريقي للدين الإسلامي الذي انتشر في إفريقيا، كما لم ينتشر في قارة سواها، وعاش العرب في الكنف الإفريقي كما لم يتعايشوا في قارة أخرى.

- الأجندة الغربية وضعت الوجود العربي في إفريقيا على قمة أولوياتها، وراحت ترسم للقارة على العموم، ولإفريقيا جنوب الصحراء خاصة، مصيرًا يهدف إلى عزل الوجود العربي والإسلامي شمال القارة عن جنوبها، بشد بعض الأطراف وبترها من جغرافية العرب لجعل مناطق التماس في السودان، والنيجر، وتشاد وغيرها سدًّا مانعًا من التواصل بين شمال القارة وجنوبها.

- فرضت فرنسا الاستعمارية ثقافتها ونمطها التغريبي على الشعب الموريتاني، وخلّفت النزعة العنصرية بين «البيضان» و«السودان»؛ إذ نشبت العديد من الصراعات بين أبناء البلد الواحد، وقد بذلت فرنسا كل الجهود لتشويه الأصالة الموريتانية، حتى لا تنتشر اللغة العربية والإسلام في إفريقيا؛ لأن موريتانيا كانت على الدوام جسرًا بين إفريقيا والحضارة العربية والإسلامية.

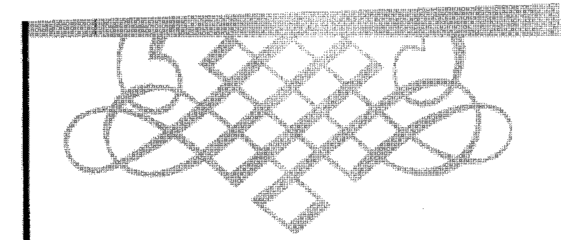
- خريطة إفريقيا الجديدة، كما يتصورها الغرب والأمريكان في السياق المعاصر للمخطط القديم، يظهر منها جليًّا الرغبة في جعل الوجود العربي منفصلاً، بحيث يشكل بمفرده كيانًا متمايزًا عن بقية القارة.

- لأهمية وكبر مساحة حجم الدولة السودانية، وأهميتها الاستراتيجية كهمزة وصل، وجسر ناقل للثقافة والحضارة العربية والإسلامية للعمق الإفريقي، فقد جرى التركيز عليها في المخطط باعتبارها نقطة البدء، وقاعدة انطلاق لتنفيذ الاستراتيجية الغربية في إفريقيا.

- تعرض العرب «الطوارق» في النيجر للاضطهاد منذ الاستقلال؛ نتيجة النزعة الإثنية التي زرعها الاستعمار، ويرعاها الغرب الآن، ووصل هذا الاضطهاد إلى ذروته عام ١٩٩٢م، عندما ادعت الحكومة النيجرية أن العرب في الشمال يسعون إلى الانفصال.

- أشعل الغرب صراعًا حول الهوية الإفريقية مقابل الهوية العربية الإسلامية، وجعل الهويتين في مقابلة بعضهما، بعدما مزج الإسلام بينهما في تناغم وتناسق بديع لقرون طويلة.

- يعد الراحل جون جارنج وموسيفيني وأفورقي هم القادة الأفارقة، الذين تُطلق عليهم الأدبيات الأمريكية اسم «القادة الجدد»، الذين تربوا على مائدة التنصير والعداء للعرب والمسلمين من قبل، ويشكلون الآن رافعة للمخطط الغربي بكل تفاصيله وتجلياته المعاصرة.



- في مخططها للتواصل وجذب هذه الكيانات بعيدًا عن العرب الشماليين نجد أن اللجنة المشتركة للخبراء السياسيين والاستراتيجيين بالكونجرس الأمريكي تقدمت بمشروع مبادرة أطلقت عليها «المبادرة الأمريكية للتواصل مع مسلمي إفريقيا جنوب الصحراء»؛ وذلك لوقف انتشار ما وصفته بـ «الأصولية الإسلامية».

- استخدم الغرب جيوش التنصير في محاربة الوجود العربي والإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء، ولذلك مثّلت إشكالية الوجود العربي والإسلامي في إفريقيا حضورًا لافتًا على غالب أجندات وفعاليات مؤتمرات التنصير المختلفة قديمًا وحديثًا.

- تعتمد الولايات المتحدة على إشعال الحروب والنزاعات بين الدول العربية ودول الجوار الإفريقي، وتسميم الأجواء بينهما؛ لتصفية الوجود العربي في الدول ذات الغالبية الإفريقية، وترتيب أوضاع القارة بما يحقق رؤيتها السياسية والاقتصادية.

- الرغبة السادية لإثبات تفوق الجنس الغربي وحضارته، والتي عبر عنها فرانسيس فوكاياما في كتابه «نهاية التاريخ وخاتم البشر»، شكلت الدافع والحافز لدى الغرب لمحاولة كبح التمدد العربي الإسلامي المنافس والعدو اللدود له، وحصاره جغرافيًّا في أطراف القارة الشمالية، وحضاريًّا عن التواصل مع الجنوب الإفريقي والقضاء على ذلك الوجود في منطقة جنوب الصحراء في حملة «تطهير» عرقي لهذا الجنس العربي في العمق الإفريقي.

- محاربة الوجود الإسلامي وجعل القارة الإفريقية بحيرة مسيحية تنفر من الوجود العربي والإسلامي بقدر انجذابها إلى العالم الغربي المسيحي؛ كان وما زال على رأس الأهداف التي يصبو الغرب لتحقيقها من وراء مخططه المشار إليه.

- نجحت «إسرائيل» منذ النصف الثاني من الخمسينيات، وحتى الآن، في بناء نفوذ سياسي ملموس لها في داخل عدد ضخم من الدول الإفريقية، كما ثبتت دعائم الوجود العسكري المباشر، خاصة في الدول الإفريقية ذات التماس الجغرافي مع العالم العربي، بهدف استكمال حزام التطويق للدول العربية، والذي يمتد من البحر الأحمر ومنابع النيل حتى دول جنوب الصحراء.

- استطاعت الدعاية الصهيونية أن تبث أفكارًا ومعتقدات غير حقيقية عن العرب وعلاقتهم بالأفارقة، لاسيما فيما يتناول موضوع الرق والاستعباد، وهو ما أدى إلى إيجاد صورة نمطية إفريقية عن الإنسان العربي تتسم بالتشويه والكذب، في حين رسمت صورة عكسية لليهودي تتسم بإيجاد قواسم مشتركة مع الإفريقي.

- الحرب على الهوية والحضارة العربية والإسلامية، لا تستهدف أطرافها، ولكن تسعى أيضًا لحرق عمقها الاستراتيجي ووأدها في موطنها، وشلّ حركتها وفاعليتها في المحيط الإفريقي.

- تحتاج الدول العربية إلى استراتيجية مضادة تُوقف مفعول المخطط الغربي، وتحافظ على الوجود العربي والإسلامي، وتدعم بقاءه في إفريقيا عامة، وإفريقيا جنوب الصحراء على وجه الخصوص.

الاستراتيجية الغربية لاحتواء الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

أ. عصام زيدان : باحث سياسي

مقدمة:

الصدام بين الحضارات والأديان بلغ غايته في العلاقة بين حضارة الإسلام والحضارة الغربية المعاصرة، وأخذ ذلك الصدام بُعدًا تنظيريًّا قويًّا، خاصة بعد كتاب صامويل هينتنجتون الذي وسمه بـ«صدام الحضارات».

وساحة هذا الصراع الحضاري لا تتوقف عند جغرافية محددة أو بلد ما، بل نجدها ساحة للصراع الممتد، الذي يشمل جغرافيا كل وجود عربي أو إسلامي، يمكن أن يزاحم الحضارة الغربية، أو يعوق نفوذها وتقدمها ووصولها إلى مآربها الاستعمارية.

وفي إفريقيا يشتد هذا الصراع، ويأخذ بُعدًا مزدوجًا، فهو من زاويةٍ صراعٌ بين الحضارة العربية والإسلامية والحضارة الغربية على حاضر القارة ومستقبلها، ومن زاويةٍ أخرى نرى الغرب في سبيل كسب المعركة يؤجِّج صراعًا حضاريًّا آخر بين العرب وإفريقيا، وأشعلها حربًا على الوجود العربي والإسلامي في القارة، هادفًا إلى حصار هذا الوجود في شريط ساحلي ضيق، وراح يصنع من ورائه أخدودًا عميقًا فاصلاً بين مسلمين عرب، ومسلمين أفارقة جنوب الصحراء من ناحية، وينسج حاجزًا وسدًّا منيعًا بين حضارة عربية شمال القارة، وحضارة إفريقية يريدها أن تسود القارة من ناحية أخرى.

وفي هذه الدراسة نتناول «الاستراتيجية الغربية لاحتواء الوجود العربي في إفريقيا جنوب الصحراء» من خلال التمهيد بسياق تاريخي موجز عن تاريخية الوجود العربي والإسلامي في إفريقيا، والروابط المتشعبة التي صهرت العرب والأفارقة، حتى أصبحا لُحْمةً واحدة، على أن نتبع ذلك ببيان المقصود بإفريقيا جنوب الصحراء جغرافيًّا، ثم نتناول تلك الاستراتيجية المشار إليها من خلال أربعة محاور رئيسة:

المحور الأول: عرض الفكرة الأساسية التي تدور حولها هذه الدراسة، متضمنًا عمقها التاريخي، ومشفوعًا بأبعادها المعاصرة.

المحور الثاني: الوسائل التي اتبعها الغرب لتنفيذ المخطط.

المحور الثالث: أهداف الاستراتيجية الغربية من المخطط.

المحور الرابع: الدور الإسرائيلي في تنفيذ المخطط الغربي.

على أن نعرض في الختام لأهم النتائج، والاستراتيجية المضادة التي نراها ضرورية لمواجهة ما يسعى إليه الغرب وما يخطط له.

تمهيد:

يربط بين العرب والأفارقة مجموعة من العوامل المشتركة تتمثل في المرتكزات التاريخية والجغرافية والدينية والاقتصادية، والتي صهرت الجانبين في بوتقة واحدة، ووجدت صداها في القبول الإفريقي للدين الإسلامي الذي انتشر في إفريقيا، كما لم ينتشر في قارة سواها، وعاش العرب في الكنف الإفريقي كما لم يتعايشوا في قارة أخرى.

فعلى الرغم من أن الأمة العربية لها وجود آسيوي، وإفريقي مشهود، ورغم أن أصل العرب ومنبت الإسلام هو الجزيرة العربية؛ إلا أن الحضور العربي والإسلامي في إفريقيا كان له من الخصائص والميزات الفريدة التي ساهمت في كون أغلبية العرب أفارقة، كما أن أغلبية الأفارقة مسلمون.

تاريخ الوجود العربي والإسلامي في إفريقيا:

ترجع الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية إلى ما قبل ظهور الإسلام، وهو ما ذهب إليه بعض المؤرخين مثل ابن خلدون الذي أشار في تاريخه إلى أن عددًا من القبائل العربية اتخذت طريقها، ووصلت إلى إفريقيا قبل دخول الإسلام إلى تلك القارة.(١)

أما الوجود العربي بعد الإسلام فيُؤَرَّخ له بهجرة الصحابة الأولى للحبشة في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وكان عددهم مكونًا من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة على رأسهم عثمان بن عفان، ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.(٢)

وقد عمّ الإسلام شمال إفريقيا منذ منتصف القرن الهجري الأول، وبدأ زحفه في العمق الإفريقي، وامتد أثره إلى معظم دول غرب ووسط إفريقيا، وكان له انتشاره الواسع كذلك في القرن الإفريقي وجنوب القارة، بحيث جرى القول في منتصف القرن العشرين بأننا نكاد نجد من بين كل ثلاثة أفارقة اثنين منهم مسلمين، وصح في وجدان المسلمين وحسابهم أن إفريقيا قارة الإسلام.(٣)

إفريقيا جنوب الصحراء:

إفريقيا السوداء، أو إفريقيا جنوب الصحراء، هو المصطلح المستخدم لوصف المنطقة من القارة الإفريقية التي تقع جنوب الصحراء الكبرى(٤)

«واصطلاح إفريقيا جنوب الصحراء تسمية أكاديمية بحتة لا يسندها أي ضابط علمي؛ حيث جاءت هذه التسمية الأكاديمية لفصل بعض أجزاء القارة».(٥)

الحضور العربي والإسلامي في إفريقيا كان له من الخصائص والميزات الفريدة التي ساهمت في كون أغلبية العرب أفارقة، كما أن أغلبية الأفارقة مسلمون

ومنطقة التماس هذه بين الشمال الإفريقي، وإفريقيا جنوب الصحراء، وإن كانت تفتقر إلى المقومات والإمكانيات الضخمة من المنظور الاقتصادي والجغرافي، إلا أنها تكتسب أهميتها الاستراتيجية من جانبين:

الأول: أنها تمثل المعبر الأساسي الذي يدخل منه الإسلام إلى بقية مناطق القارة في الوسط والجنوب.

الثاني: أنها أكثر المناطق التي تضم تشكيلة متنوعة من القبائل العربية والإفريقية.

الاستراتيجية الغربية لاحتواء الوجود العربي في إفريقيا جنوب الصحراء:

نتناول تلك الاستراتيجية، كما سبق ونوهنا، من خلال أربعة محاور رئيسة كالتالي:

---

(١) ابن خلدون: كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٧م، ص ٣٧٠.

(٢) عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٦٧.

(٣) الصراع الإسلامي - المسيحي في إفريقيا، بروفيسور عون الشريف قاسم، موقع معهد مبارك قسم الله الإلكتروني للبحوث ودراسات التنصير بإفريقيا.

(٤) موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية.

(٥) الإعلام الغربي والمؤامرة على الإسلام في إفريقيا، د.عبد العليم عبد الرحمن خضر، العدد (١٨٢) من سلسلة دعوة الحق، ١٩٩٧/٧/٦م، ص٦٦.

المحور الأول: المخطط الغربي وفكرته الأساسية:

الأجندة الغربية وضعت الوجود العربي في إفريقيا على قمة أولوياتها، وراحت ترسم للقارة على العموم، ولإفريقيا جنوب الصحراء خاصة، مصيرًا يهدف إلى عزل الوجود العربي والإسلامي شمال القارة عن جنوبها، بشدّ بعض الأطراف وبترها من جغرافية العرب؛ لجعل مناطق التماس في السودان، والنيجر، وتشاد وغيرها سدًّا مانعًا من التواصل بين شمال القارة وجنوبها.

فالغرب يسعى لفصل الكيان العربي في الشمال، والذي يبدأ من مصر إلى موريتانيا مرورًا بشمال السودان، وإعادة توزيع القبائل العربية صاحبة الوجود في إفريقيا جنوب الصحراء بعيدًا عن الكيانات التي يُرَاد لها أن تكون إفريقية خالصة؛ باللعب على ثنائية «الإفريقي والعربي»، و«المواطنين الأصليين في مقابل العرب المستعمرين»، وتحويل الصحراء إلى عازل جيوسياسي بين الجانبين.

وسنتناول هذا المخطط، في عمقه التاريخي وأبعاده المعاصرة، على النحو التالي:

أولاً: العمق التاريخي للمخطط الغربي:

الحديث عن مؤامرات الغرب وخططه ضد الأمة العربية والإسلامية يقع غالبًا فريسة النظرة النقدية لـ «نظرية المؤامرة»، وهو ما قد يُفَوِّت على الأمة واقعية التعامل مع ما يُحاك لها ويُدَبَّر، ومن هنا رأينا أن التعرض للعمق التاريخي للمخطط الذي يُحاك، والمؤامرة التي تسري في روح الغرب وجسده ضد الوجود العربي في إفريقيا جنوب الصحراء ضروريٌّ لقطع الطمع على من يريد أن يشجب على الأمة رؤية واقعها بصورة تتضح فيها كافة تفاصيل المؤامرة؛ ولإثبات أن ما يحاك الآن ويدبر ليس إلا امتدادًا لرؤية غربية ضاربة بجذورها في عمق التاريخ الاستعماري للقارة.

يقول بازيل دافدسون في كتابه «عودة للحضارة الإفريقية»: «إن الفهم السائد في أوروبا حتى القرن التاسع عشر هو أن إفريقيا جنوب الصحراء جغرافيا بلا تاريخ، وأنها ما دخلت التاريخ إلا بعد الغزو الأوروبي. كان هذا فهمًا أيديولوجيًّا برَّروا به الغزو الاستعماري، وسياسات التمكين لمصالحهم وثقافاتهم على حساب التراث الإفريقي، لاسيما الروابط الدينية والثقافية والاقتصادية بين شعوب إفريقيا شمال وجنوب الصحراء».[٦]

وتاريخيًّا نجد أن الغارة الصليبية على شعوب جنوب الصحراء الكبرى تزامنت مع بداية الغزو الأوروبي لشمال إفريقيا والصحراء الكبرى، حيث قُسِّمت إفريقيا في مؤتمر برلين (١٨٨٤- ١٨٨٥) بين المستعمرين الأوروبيين، وكان لبريطانيا وفرنسا النصيب الأوفر من المستعمرات، فقد وقعت مصر والسودان بيد بريطانيا، ووقعت بلاد المغرب العربي -عدا ليبيا- ومالي والنيجر وتشاد بيد فرنسا.

وقد اتسمت فترة الاستعمار الأوروبي لإفريقيا بظاهرتين أساسيتين شكَّلتا دعامتين أساسيتين قام عليهما المخطط الغربي حينذاك وهما:

١- فتح المجال للمنظمات التنصيرية:

وكانت خطة التنصير ترمي إلى هدفين اثنين:

١- تنشئة وإعداد نُخَب تتشرب المفاهيم الغربية وقيم المستعمر الأوروبي؛ لتكون بمثابة العقل المبرمَج آليًّا لخدمة الأهداف الغربية في القارة مستقبلاً.

٢- مواجهة الوجود الإسلامي المتمركز في إفريقيا جنوب الصحراء.

٢- زرع النزعة الإثنية عند الشعوب الإفريقية:

فقد عملت الإدارات الاستعمارية على جعل الوعي الإثني حقيقة ملموسة لدى الأفارقة، وكان بمثابة القنبلة الموقوتة التي يمكن أن تنفجر في أي لحظة إذا ما توافر لها المناخ المواتي.

(٦) قضية وسؤال: الصحراء الكبرى.. واصلة أم فاصلة، الصادق المهدي، الشرق الأوسط، ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٦م، العدد ١٠٠٠٨.

كيف ظهرت الآثار السياسية للاستعمار الغربي لإفريقيا في عمقها التاريخي؟!

ظهرت الآثار السياسية للاستعمار، في إطار مخططه لعزل العرب والإسلام شمال القارة عن جنوبها، في عدة نماذج نذكر منها:

١- الاستعمار البريطاني:

ترك الاستعمار البريطاني بصماته السيئة على العلاقات العربية الإفريقية، عن طريق وضع بذور لشد الجنوب السوداني بعيدًا عن الشمال تمهيدًا لبتره، وفي النهاية أفرقة جنوب السودان.

واتخذت بريطانيا في سبيل ذلك عدة وسائل منها:

١- إضعاف الوجود الشمالي في الجنوب بمنع العرب المسلمين من الشمال من دخول الجنوب.

٢- الحدّ من انتشار الإسلام في الجنوب، سواء بإحلال الإنجليزية محل العربية، أو بتشجيع اللغات المحلية، وتفعيل دور الإرساليات التبشيرية.

٣- العمل على التخلص من الموظفين والتجار الشماليين، وإبعادهم عن الجنوب(٧).

٢- الاستعمار الإيطالي:

حاول الاستعمار الإيطالي وقف المد العربي الإسلامي إلى داخل القارة الإفريقية، وسد الإيطاليون -باستعمارهم لمناطق شرق إفريقيا- المنافذ التي كان يستخدمها التجار العرب الذين كانوا يتوغلون داخل القارة حاملين معهم الإسلام والحضارة واللغة العربية، كما قضى الإيطاليون في طرابلس على تجارة القوافل الليبية إلى داخل القارة الإفريقية، تلك التجارة التي أثر فيها سلبًا الاستعمار البريطاني لمصر والفرنسي لتونس.

وقضى الاستعمار الإيطالي أيضًا على الزوايا السنوسية في إفريقيا، وساعد بذلك على خلق فاصل بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوبها؛ إذ لم تكن الصحراء قبل المد الاستعماري فاصلًا إنما امتلأت دروبها بالتجار العرب والأفارقة.(٨)

٣- الاستعمار الفرنسي:

فرضت فرنسا الاستعمارية ثقافتها ونمطها التغريبي على الشعب الموريتاني، وخلّفت النزعة العنصرية بين «البيضان»، و«السودان»؛ إذ نشبت العديد من الصراعات بين أبناء البلد الواحد.

وقد بذلت فرنسا كل الجهود لتشويه الأصالة الموريتانية، حتى لا تنتشر اللغة العربية والإسلام في إفريقيا؛ لأن موريتانيا كانت على الدوام جسرًا بين إفريقيا والحضارة العربية والإسلامية.(٩)

ثانيًا: المخطط الغربي في سياقه المعاصر:

على الرغم من رحيل الاستعمار وانهيار الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية في الحرب العالمية الثانية، فإن فكرة تقسيم إفريقيا لخدمة المخطط الغربي، وتجزئتها على أسس عرقية؛ لعزل العرب المسلمين في الشمال عن بقية أجزاء القارة بقيت كما هي قائمة، وهذا ما تؤكده دراسة للباحث السوداني عبد الهادي الصديق عن «السودان والإفريقانية».

يؤكد الباحث في دراسته أن أغلبية الدول الإفريقية حصلت على استقلالها في الستينيات من القرن العشرين، ونشأت إبَّان ذلك حركة أطلق عليها الإفريقانية «حركة الجامعة الإفريقية» (pan africansim)، ومنها انبثقت حركة «الزنوجة»، التي تعمِّق الفارق بين كل ما هو شمالي عربي مسلم، وجنوبي إفريقي مسيحي.

وأطلت فكرة «الزنوجة» بقوة في المؤتمر السابع الذي انعقد في كمبالا في أغسطس ١٩٩٤م، وقد تم تنظيم المؤتمر من قِبَل مجموعة «التحالف من أجل إفريقيا»، الذين أعدوا -وبإدارة مساعد وزير الخارجية الأمريكي الأسبق للشئون الإفريقية هيرمان كوهين-

(٧) الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، راوية توفيق، موقع الجزيرة نت، ٢٠٠٦/٥/١٧م.

(٨) المرجع السابق.

(٩) موريتانيا بين الأصالة والعصرنة، يحيى أبو زكريا، موقع الإسلام اليوم الإلكتروني، ٢٠٠٢/٤/٧م.

ما عرف بـ«وثيقة كمبالا».

وتركز جدول أعمال المؤتمر على العناصر الكفيلة بتجزئة وتقسيم القارة؛ انطلاقًا من فكرة «الزنوجة».

ونُوقش في المؤتمر ورقتان تدعمان المخطط الغربي:

الورقة الأولى: وقد حملت عنوان: «استرقاق العرب للأفارقة»، وتأتي في إطار التكريس للمفهوم الاستعماري لتجزئة إفريقيا: إلى إفريقيا السوداء جنوب الصحراء، وإفريقيا البيضاء شمال الصحراء.

الورقة الثانية: كانت بعنوان «نحو خريطة جديدة لإفريقيا»، ونُوقش خلالها خريطة لإفريقيا تُلغَى فيها حدود جميع الدول الإفريقية، وتُقَسَّم فيها القارة إلى ست مناطق على النحو التالي:

١- جمهورية الصحراء، وتضم: مصر وبلاد المغرب العربي حتى موريتانيا، وتضم الجزء الشمالي من جمهورية السودان، وكأنه جزء من جمهورية مصر.

٢- جمهورية إفريقيا الوسطى، وتضم: أوغندا، وكينيا، وزائير، وتشاد، والكاميرون، والكنغو، وإفريقيا الوسطى، وتضم الجزء الجنوبي من السودان.

٣- جمهورية سنغامبيريا (semganmberia)، وتضم دول الحزام السوداني من السنغال إلى نيجيريا مع استبعاد السودان.

٤- جمهورية إريثوميا، وتضم دول القرن الإفريقي: إثيوبيا، وإريتريا، والصومال.. وجيبوتي مع ابتعاد السودان.

٥- الجمهورية السواحيلية، وتضم الدول الناطقة باللغة السواحيلية.

٦- جمهورية موزامبيا، وتضم كل دول الجنوب الإفريقي.(١٠)

وخريطة إفريقيا الجديدة، كما يتصورها الغرب والأمريكان في السياق المعاصر للمخطط القديم، يظهر منها جليًّا الرغبة في جعل الوجود العربي منفصلاً بحيث يشكل بمفرده كيانًا متمايزًا عن بقية القارة.

ملامح وآثار المخطط الغربي في سياقه المعاصر:

تجلت آثار المخطط الغربي الذي تلاقت عليه الثقافة الفرنكفونية والأمريكية في الوقت الراهن في دول التماس على وجه التحديد، وهي السودان وتشاد والنيجر ومالي، ونتناولها على الوجه التالي:

١- السودان:

لأهمية وكبر مساحة حجم الدولة السودانية، وأهميتها الاستراتيجية كهمزة وصل وجسر ناقل للثقافة والحضارة العربية والإسلامية للعمق الإفريقي، فقد جرى التركيز عليها في المخطط باعتبارها نقطة البدء، وقاعدة انطلاق لتنفيذ الاستراتيجية الغربية في إفريقيا.

وتركزت تلك الاستراتيجية في بعدها المعاصر على أمرين أساسيين:

أ- استكمال مخطط فصل الجنوب عن الشمال، وهو الهدف الذي زرعت بذوره بريطانيا من قبل، وتكوين دولة مسيحية في الجنوب تصد أي توجه عربي، أو إسلامي يحاول الولوج إلى عمق القارة الإفريقية.

وقد ظهر ذلك جليًّا في الاقتراح الأمريكي بإقامة منطقة عازلة بين الجانبين: الشمال والجنوب، تكون منزوعة السلاح، ويشرف عليها خبراء غربيون، ودعوتها للإسراع بترسيم الحدود بين الجانبين.

ب- سلخ دارفور، ومحاولة إلحاقها بالجنوب لتسييج الجزء الشمالي، وقطع امتداده الإفريقي غربًا كما قطع جنوبًا.

٢- تشاد:

ظهرت النزعة الإثنية العِرْقية في تشاد على مستوى شعبي ومؤسسي كحصاد لغرس استعماري سابق، يجد الدعم والتأييد حتى الآن من قبل القوى الغربية.

---

(١٠) مجلة المجتمع، ٢٠٠٣/١/١١م، العدد، ١٥٣٤، بتصرف.

فقد دشنت تشاد سياسة الاضطهاد ضد العرب، عندما قام الرئيس التشادي السابق المسيحي فرانسوا تومبالباي عام ١٩٧٣م بحملة لأفرقة تشاد، فمارس الاضطهاد ضد العرب في الشمال؛ مما دفع عشرات الآلاف من هؤلاء إلى مغادرة البلاد باتجاه دول الجوار.[١١]

وتلك السياسة ما زالت قائمة حتى الآن، وظهرت جلية سافرة في استهداف حكومة الرئيس الحالي إدريس ديبي، والميليشيات المتحالفة معها- والمسماة «توروبورو»- العربَ في أماكن تواجدهم، خاصة في قرية «جوز أمير» و«أراديب»، حيث أكدت وكالة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة بأن انعدام الأمن أدى إلى نزوح نحو ٣٠٠٠٠ من عرب تشاد.[١٢]

٣- النيجر:

تعرض العرب «الطوارق» في النيجر للاضطهاد منذ الاستقلال، نتيجة النزعة الإثنية التي زرعها الاستعمار، ويرعاها الغرب الآن، ووصل هذا الاضطهاد إلى ذروته عام ١٩٩٢م، عندما ادعت الحكومة النيجرية أن العرب في الشمال يسعون إلى الانفصال.

وإذا كان عرب «الطوارق» يتعرضون لخطر التنصير الداهم والاضطهاد المستمر؛ فإن عرب «المحاميد» كانوا بؤرة الصراع ومحط أزمة لاحت في الأفق في العام ٢٠٠٦م، فقد أعلنت حكومة النيجر في ٢٥ أكتوبر طرد ١٥٠ ألف شخص منهم، وبررت سلطات النيجر حينها قرار الطرد بالتخوف من اندلاع صراع بين عرب «المحاميد» والقبائل المحلية الإفريقية[١٣].

٤- مالي:

تعرّض العرب في مالي فيما يعرف بإقليم «أزواد» لاضطهاد مستمر حتى الآن، من قبل الحكومة التي يسيطر عليها الزنوج، مما اضطر العرب إلى القيام بثورة عام ١٩٩٠م، وقد قابلت الحكومة هذه الثورة بقمع شديد للعرب، وبحرمانهم من الانتساب إلى الوظائف العامة، ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية في إطار خطة غير خافية لطمس الهوية العربية، وتصفية رموز الإسلام في البلاد[١٤].

> ظهرت النزعة الإثنية العرقية في تشاد على مستوى شعبي ومؤسسي كحصاد لغرس استعماري سابق، يجد الدعم والتأييد حتى الآن من قبل القوى الغربية.

هذه بعض النماذج التي تعبر بوجه واضح عن منحًى واحد في دول التماس العربي - الإفريقي، والتي كانت بمثابة معبر العرب والإسلام للعمق الإفريقي، يتمثل في محاربة الوجود العربي وتصفيته، وهي السياسة التي، كما سبق وأسلفنا، نجد جذورها في التاريخ الاستعماري الغربي للقارة، والتي ما زال الغرب يرعاها حتى الآن.

المحور الثاني: وسائل تنفيذ المخطط الغربي:

لجأ الغرب إلى عدة وسائل لتحقيق مخططه، ومن هذه الوسائل الآتي:

١- التنظير لصراع حضاري وإشعال الهوية الإفريقية في مواجهة العربية:

أشعل الغرب صراعًا حول الهوية الإفريقية مقابل الهوية العربية الإسلامية، وجعل الهويتين في مقابلة بعضهما، بعدما مزج الإسلام بينهما في تناغم وتناسق بديع لقرون طويلة.

وقد نجح الاستعمار الغربي في مسعاه لتفخيخ العلاقة العربية الإفريقية على نحو واسع، وما زال على توجهه ذلك، مستغلاً النزاعات التي تدور حول الرعي والزراعة، وتحريفها إلى نزاع عِرْقي بمدلولات حضارية.

ومن دلائل هذا التوجه أزمة دارفور التي روَّج الغرب لها باعتبارها مواجهة عربية إفريقية.

(١١) محمد خليفة، مأساة العرب في الصحراء الكبرى، صحيفة الخليج الإماراتية ٢٠٠٦/١١/١٢م.

(١٢) وكالة رويترز للأنباء ٢٠٠٧/٧/١٥م.

(١٣) الجزيرة نت، ٢٠٠٦/١٠/٢٥م.

(١٤) سيد أحمد ولد باب، إقليم «أزواد» بين ضياع الهوية ومطامع القوى الأجنبية، العربية نت، ٢٠٠٧/١٠/٣م، بتصرف.

٢- استغلال وتفعيل طاقة «القادة الجدد»:

استغل الغرب في تأجيج هذا الصراع الحضاري ما يطلق عليهم «القادة الجدد»، الذين يحملون لواء «الإفريقانية» في مواجهة العربية، ويدينون بالولاء للمخطط الغربي في جعل دول التماس بمثابة حائط صدّ ضد التمدد العربي والإسلامي.

ويعد الراحل جون جارنج، وموسيفيني، وأفورقي هم القادة الأفارقة الذين تطلق عليهم الأدبيات الأمريكية اسم «القادة الجدد»، الذين تربوا على مائدة التنصير والعداء للعرب والمسلمين من قبل، ويشكلون الآن رافعة للمخطط الغربي بكل تفاصيله وتجلياته المعاصرة.

٣- بناء ثقافة متكاملة معادية للعرب:

حاولت بعض القوى الغربية إظهار الوجود العربي في إفريقيا على أنه وجود غير أصيل، وأنه مرتبط بتجارة الرقيق، التي سبق ومارسها الغرب على نطاق واسع، وفرَّغ القارة من طاقات بشرية هائلة.

وفي إطار مخطط طويل الأمد تم بناء ثقافة متكاملة معادية للعرب، ورسمت لهم صورة نمطية ننقل بعضًا من ملامحها من ورقة بحثية قدمها كويسي كوا براه، مدير مركز الدراسات المتقدمة في المجتمعات الإفريقية بكيب تاون، عنوانها «رؤية استراتيجية جيوسياسية للعلاقات العربية الإفريقية» في ٢٠٠٤/٥/٢٢م، وفيها يقول ما نصه: «لقد مال الأفارقة إلى عدم الإفصاح عن رِيَبهم وشكوكهم واعتراضاتهم بما يخص العلاقات العربية الإفريقية في هذه القارة. بل إن ثمة ميل لديهم للصمت عن تاريخ الرق الذي قاده العرب في القارة».(١٥)

٤- اتباع سياسة «اللاستقرار البنّاء» لشد الأطراف وبترها:

سياسة الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس الحالي جورج بوش تقوم على فكرة «الفوضى الخلاقة»، على حد تعبير وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس، أو ما سبق أن أسماه «روبرت ساتلوف» مدير مؤسسة واشنطن لشئون الشرق الأدنى بسياسة «اللاستقرار البنّاء»، التي تعني إحداث هزات عنيفة داخل دول المنطقة العربية لخلخلة أوضاعها، وإعادة بنائها وفق النسق المرغوب فيه أمريكيًّا.(١٦)

وسنزيد هذه الفكرة وضوحًا عند التعرض لاستراتيجية شد الأطراف وبترها التي تتبعها «إسرائيل» في إطار دعمها للمخطط الغربي.

٥- الوجود العسكري المباشر:

تسعى الولايات المتحدة لوجود عسكري قوي في المنطقة جنوب الصحراء، تحت مسمى مكافحة «الإرهاب»، فقد أطلقت برنامجًا عسكريًّا أطلقت عليه اسم «مبادرة عموم الساحل»، تقوم بموجبه بتدريب جيوش عدة دول منها: مالي، تشاد، والنيجر، وأعلنت مؤخرًا أنها سوف تنشئ قيادة للعمليات في إفريقيا «أفريكوم»، على نمط القيادة العسكرية المركزية التي تشرف على العمليات في الشرق الأوسط.

واللافت للنظر أن «القيادة الجديدة مخصصة للعمل في مناطق بإفريقيا، تقع على خط التماس مع العالم العربي، وتتميز بوجود أغلبية إسلامية فيها مثل شرق ووسط وغرب إفريقيا، أو ما يسمى في لغة السياسة بإقليم الساحل وإفريقيا تحت الصحراء، ولا يوجد حديث حول أي عمل لهذه القوة العسكرية في مناطق جنوب إفريقيا بدءًا من خط الاستواء إلى الجنوب.. وهذا ما يدعونا إلى القول بأن المبدأ هو نفسه المبدأ الاستعماري القديم القائم على استعمال القوة المسلحة لعزل العرب عن إفريقيا، ثم اتخاذ إقليم جنوب الصحراء بعد ذلك نقطة وُثوب على الدول العربية».(١٧)

---

(١٥) ماذا وراء دارفور؟ ممدوح الشيخ، موقع الشهاب الإلكتروني للإعلام.

(١٦) غزو السودان لتدشين القرن الإفريقي الكبير، محمد جمال عرفة، إسلام أون لاين، ٢٠٠٦/٩/١٦م.

(١٧) قيادة أمريكا الإفريقية، د. محمد يحيى، وكالة الأخبار الإسلامية

٦- التواصل مع مسلمي إفريقيا جنوب الصحراء:

مدت الولايات المتحدة يدها للمسلمين جنوب الصحراء؛ بغية قطع طمعهم عن التواصل مع المسلمين العرب شمال القارة.

وفي مخططها للتواصل وجذب هذه الكيانات بعيدًا عن العرب الشماليين نجد أن اللجنة المشتركة للخبراء السياسيين والاستراتيجيين بالكونجرس الأمريكي تقدمت بمشروع مبادرة أطلقت عليها «المبادرة الأمريكية للتواصل مع مسلمي إفريقيا جنوب الصحراء»؛ وذلك لوقف انتشار ما وصفته بـ«الأصولية الإسلامية».

وتتضمن المبادرة عدة برامج ونشاطات، منها تخصيص أموال لتمويل برامج تعليمية ومشروعات؛ لتحل تلك الأموال محل المعونات العربية والإسلامية التي تزعم المبادرة أنه «يشتبه في وصولها لجماعات متطرفة».

٧- جيوش التنصير:

استخدم الغرب جيوش التنصير في محاربة الوجود العربي والإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء، ولذلك مثلت إشكالية الوجود العربي والإسلامي في إفريقيا حضورًا لافتًا على غالب أجندات وفعاليات مؤتمرات التنصير المختلفة قديمًا وحديثًا.

ولذلك حرَّك الغرب جيوشًا من الجمعيات التنصيرية، وما يعرف بالجمعيات التطوعية غير الحكومية؛ بغرض محاصرة التمدد الطبيعي للإسلام داخل إفريقيا السوداء، وتغليب الهوية الإفريقانية.

فإتاحة المجال أمام النشاطات التنصيرية كان من بين سلة الأهداف الغربية في إطار مخططها الكلي للاستحواذ على القارة، كما سنرى، واستخدمت هذه النشاطات في الوقت ذاته كذراع قوي لوقف التمدد الإسلامي والعربي في إفريقيا جنوب الصحراء.

٨- إشعال التوترات بين الدول العربية والإفريقية:

تعتمد الولايات المتحدة على إشعال الحروب والنزاعات بين الدول العربية ودول الجوار الإفريقي، وتسميم الأجواء بينها؛ لتصفية الوجود العربي في الدول ذات الغالبية الإفريقية، وترتيب أوضاع القارة بما يحقق رؤيتها السياسية والاقتصادية.

وقد بدت إرهاصات هذا التوجه في النزاع بين تشاد وليبيا، من جهة، والسنغال ضد موريتانيا، من جهة ثانية، ثم النزاع بين مالي والجزائر.

فمن خلال هذه التوترات تنظر الدول الإفريقية للوجود العربي فيها على أنه يُشكِّل الطابور الخامس المناوئ لها، والمتحالف مع أعدائها، ومن ثَم تمارِس ضغوطًا مكثفة على هذا الوجود؛ لطرده أو تصفيته.

المحور الثالث: الأهداف الغربية من وراء المخطط:

هذا المخطط الغربي، في رأينا، يرمي إلى تحقيق سلة من الأهداف الحضارية والدينية والاقتصادية والعسكرية، مما يمكن التعرض له بالصورة التالية:

أولاً: الأهداف السياسية والحضارية:

على رأس الأهداف التي يسعى إليها الغرب من مخططه: قطع الطريق أمام الحضارة العربية والإسلامية لتجد لها موطئًا مستقرًّا في العمق الإفريقي، وتصفية ما تبقى من هذا الوجود في إفريقيا جنوب الصحراء، في إطار الصراع المحتدم الذي جمع الغرب وقوده وأزكى ناره.

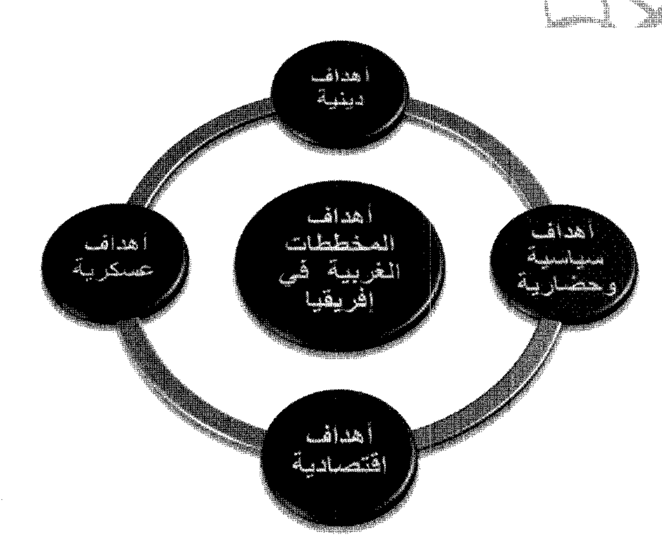
فالرغبة السادية لإثبات تفوق الجنس الغربي وحضارته، والتي عبَّر عنها فرانسيس فوكاياما في كتابه «نهاية التاريخ وخاتم البشر» بذاتها شكلت الدافع والحافز لدى الغرب لمحاولة كبح التمدد العربي الإسلامي المنافس والعدو اللدود له، وحصاره جغرافيًّا في أطراف القارة الشمالية، وحضاريًّا عن التواصل مع الجنوب الإفريقي، والقضاء على ذلك الوجود في

(نبأ) ٩/٩/٢٠٠٧م.

منطقة جنوب الصحراء في حملة «تطهير» عرقي لهذا الجنس العربي في العمق الإفريقي.

ثانيًا: الأهداف الدينية:

برغم المظهر العلماني الذي يبديه الغرب في مواجهة العالم، ودعوته الدءوبة لفصل الدين عن مجريات الحياة، لاسيما في شقها السياسي، نجد أن الدين ما زال القوة الأساسية المحرِّكة لسياسات الغرب، خاصة تلك التي يواجه بها العالم العربي والإسلامي.



فمحاربة الوجود الإسلامي، وجعل القارة الإفريقية بحيرة مسيحية تنفر من الوجود العربي والإسلامي، بقدر انجذابها إلى العالم الغربي المسيحي، كان وما زال على رأس الأهداف التي يصبو الغرب لتحقيقها من وراء مخططه المشار إليه.

ولتحقيق هذا الهدف كان لا بد من إفساح المجال لتنصير القارة، بعدما شكَّل الإسلام العائق الأساسي أمام نشاطات التنصير، رغم الإمكانيات الهائلة المتوافرة لتلك النشاطات.

ثالثًا: الأهداف الاقتصادية:

تحتفظ إفريقيا باحتياطي ضخم من البترول، من المعادن، والسودان وحدها تملك أكبر احتياطيات غير مستغلَّة من النفط في إفريقيا وأوروبا، وتحتفظ القارة بـ ٥٪ من احتياطي الغاز العالمي، ونحو ثلث احتياطي اليورانيوم، و٥٥٪ من احتياطي الذهب.

والغرب من وراء مخططه يهدف إلى إحكام السيطرة على تلك الموارد الإفريقية الهائلة دون منازع عربي وإسلامي؛ إذ تكفيه المشاكسة القوية من جانب التنين الصيني الذي غرس هو الآخر مخالبه بقوة في القارة.

هذه الرغبة الغربية محفوفة بخوف من تكامل عربي إفريقي، يحقق نهضة غير مسبوقة للطرفين، يدفع هو ثمنها في النهاية.

رابعًا: الأهداف العسكرية:

يتحسب الغرب عامة، والولايات المتحدة على وجه الخصوص، لصراعات عالمية مقبلة، وتريد احتجاز إفريقيا كظهير استراتيجي في هذه الصراعات.

وقد نشرت مجلة «آسيا تايمز أون لاين» في عام ٢٠٠٣م، حوارًا مع المحلل الأمني الأمريكي «مايكل كلير»، مؤلف كتاب «حروب مصادر الثروة»، نوَّه فيه إلى احتمالية زيادة النفوذ الأمريكي في إفريقيا؛ حيث رأى أنها ستكون هي الهدف، وستكون مسرحًا خلفيًّا للحروب القادمة بين القوى المتصارعة.(١٨)

المحور الرابع: الذراع الإسرائيلي ودوره في تنفيذ المخطط الغربي:

نجحت «إسرائيل» منذ النصف الثاني من الخمسينيات، وحتى الآن في بناء نفوذ سياسي ملموس لها في داخل عدد ضخم من الدول الإفريقية، كما ثبتت دعائم الوجود العسكري المباشر، خاصة في الدول الإفريقية ذات التماس الجغرافي مع العالم العربي، بهدف استكمال حزام التطويق للدول العربية، والذي يمتد من البحر الأحمر ومنابع النيل حتى دول جنوب الصحراء.

وعند هذه الرغبة في احتواء ومنع التمدد العربي والإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء تلتقي «إسرائيل» مع المخطط الغربي.

---

(١٨) إفريقيا.. بحر الثروات وأتون الصراعات، عصام زيدان، موقع مفكرة الإسلام.

وطبقًا لرأي كريستيان توردينى في كتابه «النزاع الإقليمي وسط إفريقيا والشراكة الأمريكية الإسرائيلية»، فإن «الخطط الإسرائيلية المتعلقة بالبحيرات العظمى ومنابع النيل، لا يقتصر الهدف من ورائها على فتح ثغرة في خطوط الأمن القومي والمائي العربيين بواسطة إثيوبيا وإريتريا، بل يتجاوز ذلك إلى جعل أبواب المنطقة مُشْرَعة أمام المصالح الأمريكية»(١٩)

استراتيجية شدّ الأطراف وبترها:

أهم الوسائل التي لجأت إليها «إسرائيل» للمساهمة في تنفيذ المخطط الغربي الذي يتلاقى مع أهدافها وطموحها ما عرف باستراتيجية شد الأطراف وبترها، والتي تحتاج إلى قدر من الإيضاح؛ باعتبارها مفهوم الأساس ومحور الارتكاز للسياسة «الإسرائيلية» الداعمة للمخطط الغربي.

تقوم تلك الاستراتيجية على إيجاد قنوات اتصال مع بعض العِرقيات في الدول ذات الأغلبية العربية؛ لمحاولة نزعها من الوطن الأم، خصمًا كليًّا من رصيد العرب، وإلحاقًا لها بالهوية الإفريقية.

وطبقت «إسرائيل» نظرية شد الأطراف، ثم بترها، من خلال محورين أساسيين:

الأول: استثمار المعطيات المرتبطة بصورة العربي في العيون الإفريقية:

استطاعت الدعاية الصهيونية أن تبث أفكارًا ومعتقدات غير حقيقية عن العرب وعلاقتهم بالأفارقة، لا سيما فيما يتناول موضوع الرق والاستعباد، وهو ما أدى إلى إيجاد صورة نمطية إفريقية عن الإنسان العربي تتسم بالتشويه والكذب، في حين رسمت صورة عكسية لليهودي؛ تتسم بإيجاد قواسم مشتركة مع الإفريقي.

وهذا التزييف المتعمد يمهِّد لبتر الأطراف التي غالبًا ونتيجة الدعاية المكثفة تتكون لديها «القابلية للانفصال» والتمرد على الكيان المركزي.

الثاني: تقديم الدعم والمساندة لحركات التمرد:

بعد تهيئة المناخ المناسب للتمرد، والميل نحو التعلق بالحبل الممدود، تقوم «إسرائيل» بمد يد المعاونة لتلك الحركات؛ حتى يقوى ساعدها في مواجهة السلطة المركزية، ويتسنى لها الوصول لبغيتها المنشودة.

وقد طبقت «إسرائيل» رؤيتها في هذا الشأن على الحالة السودانية منذ فترة مبكرة، وذلك من خلال تقديم الدعم والمساندة لحركة المتمرد جون جارنج جنوب السودان، والآن تقدم دعمها لبعض حركات التمرد الدارفورية لتطبيق الاستراتيجية ذاتها.

وقد برزت تفاصيل الدور «الإسرائيلي» في أزمة جنوب السودان من خلال كتاب صادر عن مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وإفريقيا التابع لجامعة تل أبيب عام ٢٠٠٣م، بعنوان: «إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان: نقطة البداية ومرحلة الانطلاق»، وهو من تأليف العميد موشى فرجى، وهو ضابط متقاعد من الجيش «الإسرائيلي».

ويشير الكتاب إلى أن ما قامت به «إسرائيل» من دعم لحركة التمرد في جنوب السودان هو استمرار لاستراتيجيةٍ وضعها فريق عمل ضمّ نخبة من أبرز المفكرين في «إسرائيل» في الخمسينيات، أطلق عليها استراتيجية «شد الأطراف وبترها»، حيث سعت إلى إذكاء الصراع، من خلال إقناع الجنوبيين بأن صراعهم يعتبر مصيريًّا، وهو يدور بين شمال عربي مسلم محتل، وجنوب زنجي إفريقي مسيحي.(٢٠)

النتائج:

نخلص من العرض السابق إلى مجموعة من النتائج من أهمها ما يلي:

١- الخريطة السياسية للمنطقتين العربية والإفريقية

---

(١٩) الأمن العربي وإشكاليات التغلغل الإسرائيلي في إفريقيا، إحسان مرتضى، موقع الجيش اللبناني على الإنترنت.

(٢٠) الدور الإسرائيلي في البحيرات العظمى وشرق إفريقيا، التقرير الاستراتيجي العربي ٢٠٠٤- ٢٠٠٥م.

تظهر مدى التلاحم والتلاصق بينهما، فإفريقيا هي العمق الاستراتيجي للوطن العربي، وهي الامتداد الجغرافي له.

٢- الغرب سعَّر من صراع حضاري بينه وبين العرب والمسلمين، ويسعى حثيثًا لتأجيج الصراع الحضاري العربي - الإفريقي.

٣- الصراع الحضاري الجديد الذي يريد الغرب أن يشعله تتسع رقعته لتشمل الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها.

٤- الحرب على الهوية والحضارة العربية والإسلامية، لا تستهدف أطرافها، ولكن تسعى أيضًا لحرق عمقها الاستراتيجي ووأدها في موطنها، وشلّ حركتها وفاعليتها في المحيط الإفريقي.

٥- الصراع في جانبه صراع إرادات يسعى الغرب للانتصار فيه، وما زالت المعركة دائرة، وإن كانت من جانب واحد؛ إلا أنها لم تنته بعدُ، فقد تفشل محاولاته وتُجْهَض خططه بإرادة أعلى وبخطط أنفذ.

٦- للغرب استراتيجية واضحة المعالم، محددة الأهداف والوسائل؛ للوصول إلى هدفه المتمثل في قطع الطريق أمام العرب والمسلمين عن التواصل مع إفريقيا جنوب الصحراء.

٧- المخطط الأمريكي في كثير من جوانبه يتوافق مع الرغبات الإسرائيلية التي كانت بمثابة المخلب للتنفيذ، خاصة في جانب شد الأطراف وبترها عن الوطن الأم.

٨- يستخدم الغرب على نطاق واسع المؤسسات الخدمية والمدنية لبسط نفوذه وتحقيق مخططه، لاسيما ما يخص الجانب الديني المتعلق بالتنصير.

٩- ثمة صراع غربي، خاصة ما بين فرنسا والولايات المتحدة، لجني حصاد المخطط، فالطرفان التقيا على إزاحة الوجود العربي والإسلامي من إفريقيا جنوب الصحراء، ويختلفان على تقاسم النفوذ بينهما.

١٠- في مقابلة هذا الاستراتيجية الغربية يتسم التوجه العربي نحو القارة الإفريقية بالتذبذب وعدم الوضوح، وهو ما ساهم في عدم وجود ممانعة قوية حتى الآن للمخطط الغربي.

١١- الدول العربية ذات الجوار الإفريقي في حاجة ماسة لترميم بنيانها الداخلي؛ بما يفوت على العدو المتربص فرصة اللعب على وتر الإثنيات وقضم أطرافها بعد شدها.

محاور استراتيجية لتدعيم الوجود العربي والإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء

تحتاج الدول العربية إلى استراتيجية مضادة تُوقِف مفعول المخطط الغربي، وتحافظ على الوجود العربي والإسلامي، وتدعم بقاءه في إفريقيا عامة وإفريقيا جنوب الصحراء على وجه الخصوص.

ومن جانبنا نطرح محاور استراتيجية للمواجهة، ونبدأ بمنطلقات وركائز أساسية، ثم نعرض للاستراتيجية في جوانبها المختلفة، ونختم بشروط نراها ضرورية لتفعيل تلك الاستراتيجية.

يستخدم الغرب على نطاق واسع المؤسسات الخدمية والمدنية لبسط نفوذه وتحقيق مخططه، لاسيما ما يخص الجانب الديني المتعلق بالتنصير

دعائم ومنطلقات استراتيجية المواجهة:

نقصد بتلك الدعائم الأسس التي يجب أن تقوم عليها، وتنطلق منها استراتيجية مواجهة المخطط الغربي، وهي برأينا تشمل الآتي:

١- أن يكون الهدف الأسمى لهذه الاستراتيجية هو الحفاظ على المصالح العربية والإسلامية في إفريقيا وتدعيم هذا الوجود، والتصدي للمخططات الغربية، ولا تشوبها نيات وأغراض خاصة محدودة الرؤية.



٢- ضرورة إعداد تقييم شامل للتعاون العربي الإفريقي؛ للتعرف على الجوانب السلبية التي تراكمت، والوقوف على حجم المشاكل بغية وضع الحلول المناسبة.

٣- أن تكون الاستراتيجية شاملة لكافة الجوانب لا تقتصر على جانب دون آخر.

٤- أن تراعى القدرات والإمكانيات العربية الفاعلة، ولا تحلق في فراغ متوهم يراهن فقط على الرغبات والأماني الحالمة.

٥- الاهتمام بجهود المؤسسات الشعبية والمدنية، بصورة أكبر من غيرها من المؤسسات الرسمية التي قد تكتنفها معوقات كثيرة.

محاور استراتيجية المواجهة:

تعتمد استراتيجية المواجهة في رأينا على ستة محاور هي كالتالي:

أولاً: الجانب العقدي والديني:

يشمل هذا الجانب العناصر الآتية:

١- استخدام كافة السبل المشروعة لمواجهة مخططات التنصير وتغلغلها في إفريقيا جنوب الصحراء، ومحاولة الحد من فاعلياتها ونشاطها، وبيان تناقضاتها وأدوارها المشبوهة في خدمة المخططات الغربية.

٢- تقديم الدراسات الإسلامية الميسرة وبلغات إفريقية لبيان حقيقة الإسلام، والرد على الافتراءات الغربية، مع الاستعانة بالوسائل الإعلامية الأخرى من إذاعة وصحف وغيرها.

٣- زيادة عدد البعثات الدينية ذات الفهم بمضمون المخططات الغربية، والواعية بالتركيبة الذهنية للأفارقة؛ ليسهل التواصل معها، وتؤتي ثمارها المرجوة.

ثانيًا: الجانب الثقافي والتعليمي:

يشمل الجانب الثقافي والتعليمي العناصر الآتية:

١- الاهتمام بنشر الثقافة العربية والإسلامية في إفريقيا، في مختلف المجالات، وتسخير كل الوسائل المناسبة لدعمها، مع توظيف اللغات الإفريقية كمعبر جيد لنقل الفكر العربي والإسلامي إلى المسلمين الأفارقة.

٢- الاهتمام بإعداد أُطُر علمية إفريقية تواكب احتياجات هذه البلدان الواقعية، وتسمح لأبنائها بتولي المناصب الفاعلة والمؤثرة في بلدانهم؛ بزيادة منح المبتعثين من هذه الأقليات للتعلم في البلاد العربية والإسلامية، بما تسمح به إمكانياتها.

٣- الاهتمام بإنشاء وتأهيل المراكز البحثية التي تُعْنَى بالشأن الإفريقي، سواء في الدول العربية شمالاً أو جنوب الصحراء، مع تفعيل الاتصال بالمراكز البحثية الإفريقية ذات التأثير؛ لإزالة ما قد رسخ في العقل الإفريقي البحثي من رواسب منهجية غير صحيحة عن العرب.

٤- مراجعة المناهج الدراسية للوقوف على التشوهات الموروثة عن الجانب العربي والجانب الإفريقي ومحاولة تفنيدها، مع التركيز في مناهجنا التاريخية على الفتوحات العربية والإسلامية لإفريقيا، والقواسم المشتركة بين الجانبين.

٥- إجراء حوارات معمقة بين النُّخَب الفكرية والثقافية العربية والإفريقية؛ للتعرف على نقاط التماس، وقواسم الفهم المشتركة، وتنميتها وإزالة التناقضات.

ثالثًا: الجانب الإعلامي:

يشتمل الجانب الإعلامي على العناصر الآتية:

١- إعادة النظر في التعبئة الإعلامية الذي سادت، والتي كانت سببًا لتشويه صورة الأفارقة في العالم العربي، وتشويه صورة العربي عند الأفارقة، وهو ما كان له مردود سلبي على التعاون بين الجانبين.

٢- إيجاد إعلام سياسي فاعل، يهتم بهموم القارة الإفريقية، والاستفادة من الوسائل القائمة من صحافة وتلفزة وإنترنت.

٣- زيادة المساحة المعلوماتية الإفريقية التي تنشر في

الإعلام العربي، مع العناية بطرح القضايا التي تهم المواطن الإفريقي العربي على مائدة الحوار، وهو ما يتيح رؤية العقل الإفريقي بصورة واضحة، ومن ثم يمكن إجراء اتخاذ الوسائل والإجراءات المناسبة لتعديل وبرمجة هذه الخريطة الذهنية، بما يحقق الصالح العربي والإسلامي والإفريقي كذلك.

رابعًا: الجانب السياسي:

يتضمن الجانب السياسي العناصر الآتية:

١- تفعيل وإيجاد الأطر والمنظمات المشتركة، التي تساهم في تنسيق المواقف السياسية التي تعني العرب والأفارقة، بما يحقق مصلحة ورؤية الجانبين.

٢- الوقوف إلى جانب الحق الإفريقي في القضايا الراهنة التي يمكن أن يكون الدور العربي فيها فاعلاً؛ لقطع الطريق أمام الوجود الإسرائيلي واستغلاله للمواقف السياسية في تدعيم صلته بالأفارقة.

٣- التواصل مع النخب والقيادات الإفريقية السياسية، وعدم ترك المساحات خالية للجانب الغربي والإسرائيلي في استمالة هذه القيادات إلى جانبها.

خامسًا: الجانب الاجتماعي والخدمي:

يشمل الجانب الاجتماعي والخدمي العناصر الآتية:

١- تفعيل وتنشيط دور الجاليات العربية والإسلامية في إفريقيا، وتأصيل سبل التعاون معها، واعتبارها وسيطًا وجسرًا لترسيخ القيم الإسلامية.

٢- الاهتمام بالجاليات الإفريقية في الدول العربية؛ بما يشجعها على التواصل والتلاقي الفكري والحضاري مع العرب والمسلمين، ومن ذلك إقامة مؤسسات خاصة بخدمة أبناء الأقليات الإفريقية في الدول العربية والإسلامية.

٣- دعم منظمات المجتمع المدني العربية والإسلامية لاسيما منظمات الإغاثة التي تعمل على أسس ومنطلقات دينية ووطنية، بما يحقق الفاعلية المطلوبة.

سادسًا: الجانب الاقتصادي والمالي:

يشمل الجانب الاقتصادي والمالي العناصر الآتية:

١- تحويل مسار المدخرات العربية من البنوك الغربية إلى الاستثمار في إفريقيا، خاصة أن البيئة الاقتصادية الإفريقية ما زالت متعطشة لمزيد من الاستثمارات التي تعود بالنفع على الجانبين.

٢- إنشاء شركات عامة ومختلطة بمشاركة رؤوس الأموال العربية والإفريقية في القطاعات الإنتاجية الحيوية بإفريقيا.

٣- المساهمة الاقتصادية في تطوير المؤسسات الإفريقية، والمشروعات الخدمية التي تحسن من صورة العربي في عيون الأفارقة.

٤- فتح الطريق أمام التكامل العربي الإفريقي وإبراز الجوانب الايجابية التي تعود على الطرفين بالنفع، برسم خريطة بمجالات الاستثمار في إفريقيا ومجالاته.

٥- تطوير البحوث والدراسات في مجالات العلوم التطبيقية المختلفة؛ لفتح الطريق أمام المستثمرين العرب في إفريقيا.

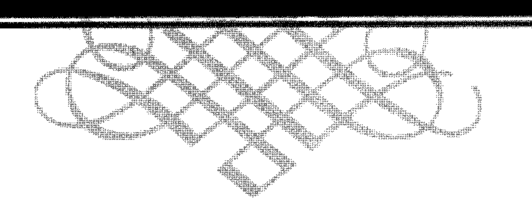
شروط ضرورية:

نجاح أي استراتيجية، أو مخططٍ ما، يحتاج إلى بيئة مناسبة وشروط ضرورية، وفي رأينا أن الاستراتيجية السابقة تحتاج إلى عدة مقومات لنجاحها:

١- التدرج في الخطوات مع الالتزام ببرنامج زمني محدد لتنفيذ التعاون، وتحديد مسئولية أطرافه، وضمان متابعته في كل فرع تناولناه.

٢- يُنتدَب لهذه الاستراتيجية فريق عمل من الكفاءات والتخصصات المختلفة، كلٌ في مجاله؛ بحيث يتابع سير عملها ويقوِّم عملها باستمرار.

٣- الابتعاد عن السطحية والتشجنات الفكرية والعصبية المذهبية والأطر الضيقة، وتغليب المصالح الكلية للأمة على الحسابات القصيرة، والمصالح الآنية.



الخاتمة:

لا شك أن التحديات التي تواجه الأمة العربية والإسلامية متشعبة ومتنوعة، ومن أعظم تلك التحديات وأخطرها صرع البقاء والوجود في إفريقيا جنوب الصحراء، والذي يعد أحد جوانب الصرع الحضاري بين المسلمين والغرب، الأمر الذي يقتضي استفراغ الجهد والوسع لمواجهته بخطط مدروسة واستراتيجيات فاعلة.



معلومات إضافية

أمريكا و«القرن الإفريقي الجديد»

تمثل منطقة القرن الإفريقي، بامتداداتها الجيواستراتيجية، أهمية بالغة في التفكير الاستراتيجي للقوى العالمية الكبرى، سواء في مرحلة الحرب الباردة أو ما بعدها. ويأتي الوجود الأمريكي المباشر في المنطقة، والذي ظهرت تفاعلاته بشدة أثناء العدوان الإثيوبي على الأراضي الصومالية؛ ليؤكد على نفس المسلك التاريخي للقوى الاستعمارية الغربية، ومحاولاتها الدءوبة لإعادة صوغ المنطقة بما يحقق أهدافها ومطامعها.

ومنذ انتهاء الحرب الباردة في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي بات واضحًا أن القرن الإفريقي يشكل أحد مكونات الاستراتيجية الكونية الجديدة للولايات المتحدة، سواء من خلال التدخلات العسكرية وفرض العقوبات، أو من خلال مخططات «سياسية» مثل مبادرة القرن الإفريقي الكبير التي طرحتها واشنطن عام ١٩٩٤م، ولكنها فشلت وتهاوت تمامًا بعد الهجوم على السفارتين الأمريكيتين في دار السلام ونيروبي.

وبعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م عادت منطقة القرن الإفريقي مرة أخرى لتحتل مكانة بارزة في الاستراتيجية الأمريكية الكبرى، وفي إطار الرؤية الأمريكية لما تسميه الحرب على الإرهاب، ولكن الإدارة الأمريكية لجأت هذه المرة إلى التركيز على مجموعة من الأدوات والآليات الدائمة لضمان إعادة صوغ المنطقة «أمريكيًّا» مثل: الوجود العسكري المباشر في المنطقة، والاعتماد على بعض دول الأركان الإقليمية مثل إثيوبيا التي أصبحت تمثل الذراع العسكري للولايات المتحدة في القرن الإفريقي.

الأهداف الأمريكية وراء مشروع «القرن الإفريقي الجديد»:

(١) إعادة فك وتركيب المنطقة استراتيجيًّا بما يخدم المصالح الأمريكية:

يشمل القرن الإفريقي الجديد نظمًا ذات توجهات علمانية غير عربية وموالية للغرب. ورغم أن جنوب السودان المستقل قد يصبح جزءًا من هذا المشروع، كما أن دول الأطراف الجنوبية في النظام الإقليمي العربي، وهي جيبوتي والصومال، تدخل في إطار هذا التعريف؛ إلا أن القيادة تظل غير عربية وغير إسلامية؛ حيث تعطى لإثيوبيا؛ التي يُنْظَر إليها دومًا على أنها جزيرة مسيحية وسط بحر إسلامي في المنطقة.

(٢) محاربة كل حركات الإسلام السياسي في دول المنطقة والقضاء عليها:

ظهر ذلك بجلاء من تجربة اتحاد المحاكم الإسلامية في الصومال؛ إذ استطاعت قوات المحاكم، وخلال فترة وجيزة، أن تُعيد فرض الأمن والنظام في العاصمة وكثير من أنحاء الصومال. بيد أن الأدبيات الأمريكية بدأت تحذر من عودة نموذج طالبان في القرن الإفريقي. عندئذ لجأت أمريكا إلى فرض رؤيتها المعادية للحركات الإسلامية من خلال الإطاحة بنظام المحاكم وفرض نظام بديل موالٍ لها.

(٣) منع تكرار السيناريو العراقي في منطقة القرن الإفريقي:

تستخدم الولايات المتحدة أسلوب الضربات الجوية النوعية والتعاون الاستخباراتي مع دول المنطقة؛ لمنع

وقوع حرب عصابات يقوم بها الإسلاميون والعناصر الجهادية المعادية للوجود الأمريكي في المنطقة، وكذلك الدور الإثيوبي المتزايد.

وتأخذ الإدارة الأمريكية هذا الهدف بمحمل الجد؛ نظرًا لغلبة الانتماء الإسلامي على التركيبة الديموغرافية للقرن الإفريقي.

(٤) تأمين الممرات المائية العالمية في البحر الأحمر والمحيط الهندي:

وهو ما يرمي أيضًا إلى أمن الكيان الصهيوني... ويلاحظ تركيز السياسة الإسرائيلية في القرن الإفريقي على دول محورية فيه مثل إثيوبيا وإريتريا.

(٥) تأمين الوصول إلى منابع النفط والمواد الخام:

تمتاز هذه المنطقة بأنها غنية بثرواتها الطبيعية. ويبدو أن الولايات المتحدة تسعى إلى إيجاد بديل آخر لنفط الخليج العربي؛ حيث تشير بعض المصادر الأمريكية إلى أنه بحلول عام ٢٠١٥م ستحصل أمريكا على ربع وارداتها النفطية من إفريقيا.

(٦) تقويض الدور الصيني والروسي وبعض القوى الآسيوية الفاعلة على الساحة الإفريقية. وهو ما يُضْفِي على الصراع الدولي في إفريقيا بُعْدًا جديدًا.

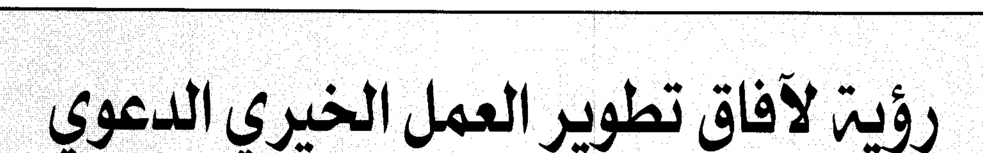
المصدر:

د. حمدي عبد الرحمن حسن، القرن الإفريقي الجديد أمريكيًّا، ملف الأهرام الاستراتيجي، العدد ١٤٧، مارس ٢٠٠٧م (بتصرف).



الباب الرابع

العمل الإسلامي



رؤية لآفاق تطوير العمل الخيري الدعوي

أ. أحمد الصويان

(رئيس تحرير مجلة البيان، رئيس رابطة الصحافة الإسلامية)

ملخص البحث

مضى على الحملة الغربية الأخيرة على العمل الخيري حوالي ست سنوات، وأدت هذه الحملة إلى تحجيم العمل الخيري الإسلامي، وتقييد أنشطته وبرامجه. ولا زالت بعض الدول الغربية تتعامل مع العمل الخيري والإغاثي الإسلامي بانتقائية قانونية، وتعدّه مصدرًا من مصادر الإرهاب، فيما تتعامل معه بعض الحكومات العربية بمنطق التوجس والقلق من جهة، ومنطق التهميش والإقصاء من جهة أخرى.

حفلت هذه المرحلة، بالعديد من الإيجابيات والسلبيات، فمن إيجابياتها أن كثيرًا من المنظمات أثبتت تماسكها الإداري، وقدرتها على إدارة الأزمات، كما تأسس عدد من المؤسسات الخيرية الرائدة، فضلاً عن المنظمات والهيئات المتخصصة في الدفاع عن العمل الخيري.

فيما كان من أبرز سلبياتها: استسلام بعض مؤسسات العمل الخيري، وانحسار العمل الخارجي، وتضاؤل المشاريع الدعوية، والانكفاء على الداخل.

ولما شهدت المرحلة السابقة انحسارًا للعمل الخيري، فإن الضغوط الكبيرة، والتحديات المتتابعة، أكدت ضرورة إعادة البناء من الداخل، وإحكام أركانه.

ومن أهم آفاق تطوير المؤسسات الإسلامية الخيرية التي تتطلبها المرحلة القادمة، تحقيق الانضباط الشرعي داخل المؤسسة، والعناية بالعمل المؤسسي الجماعي الذي يلتزم بمبدأ الشورى والتناصح، والبُعد عن العمل الفردي.

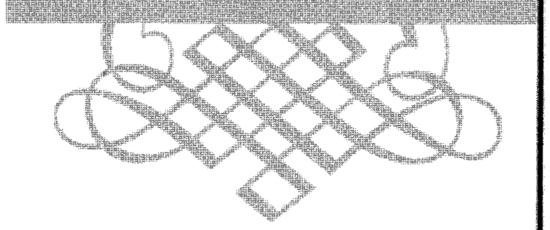
كما تبرز أهمية إعداد الدراسات والبحوث الميدانية لتحقيق فهم صحيح، وإدراك واعٍ للبيئة التي ستعمل بها المؤسسة، بجانب الحرص على التخطيط الفعال، ووضع برامج مستقبلية مرنة تراعي الأهداف والإمكانات المادية والبشرية المتوفرة.

يمثل التطوير والتغيير المخطط عنصرًا هامًا من عناصر الارتقاء بالمؤسسات الخيرية الإسلامية، والتي تحتاج إلى التخصص في عملها المؤسسي لتحقيق مزيد من التحسين والإتقان، كما تحتاج بالدرجة ذاتها إلى التدريب، ورفع مستوى الكفاءات الإدارية والدعوية.

وتحقيق المؤسسات الخيرية للانضباط القانوني يُجَنِّبُها المخاطر والمعوقات، التي تهدِّد عملها، كما يعمل بجانب الانضباط المالي -حين يتحقق- على رد الشبهات والضغوط الدولية عن المؤسسة.

إضافة لذلك يحتاج العمل الخيري إلى غطاء إعلامي يُبرِز إنجازاته المشرقة، ويدفع الشبهات والأوهام التي قد يثيرها بشأنه بعض المبطلين.





أفكار ومقتطفات

- لا زالت بعض الدول الغربية تتعامل مع العمل الخيري والإغاثي الإسلامي بانتقائية قانونية، وتعده مصدرًا من مصادر الإرهاب، رغم أنها لم تُثبت ذلك قانونيًا، بل على العكس عندما أُحيلت بعض القضايا إلى المحاكم الأمريكية ظهرت براءة العمل الخيري الإسلامي، كما حدث مع مؤسسة الحرمين مثلًا.

- نجحت المؤسسات الخيرية في تأكيد أهمية العمل الخيري والإغاثي، وجَعْلِه جزءًا من التكوين الثقافي للمجتمع. وقد أكدت تلك الحملات الجائرة أن العمل الخيري متجذر في صفوف المسلمين بمختلف طبقاتهم واهتماماتهم.

- مع تصاعد الحملة الإعلامية على العمل الدعوي الخيري ظهرت أصوات تدعو إلى التركيز على العمل الإنساني الصِّرف، وإلغاء البرامج الدعوية والتعليمية، وقد أدى هذا الفصل الحادّ بين الإغاثة والدعوة إلى ضعف الرسالة الدعوية في عدد من الأنشطة والبرامج، أو غيابها.

- على المؤسسات الدعوية -إن هي أرادت استنقاذ الناس من الضلالة، وحرصت على استقامة برامجها ومشاريعها- أن تُعنى بتأهيل القيادات العلمية، وخدمة الموجود منها ورعايته؛ ليكونوا بعون الله -تعالى- اليدَ الكريمةَ التي تنير السبيل؛ وتقود إلى التزام الصراط المستقيم.

- من المهم جدًّا أن تبدأ المؤسسات الإسلامية العمل الخيري في المنطقة بعد فهم صحيح وإدراك واعٍ للبيئة، وأحسب أن التصور الدقيق للواقع الفكري والاجتماعي والدعوي؛ من أنجع السبل لسلامةً التخطيط ووضوح الرؤية.

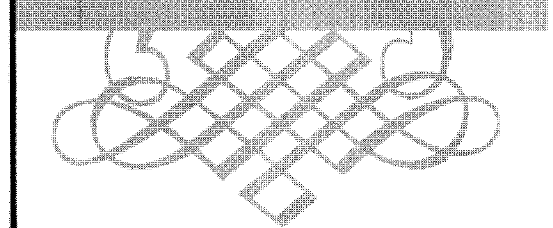
- العناية بإنشاء وحدات بحثية ملحقة بالمؤسسات الخيرية، أو مراكز مستقلة مخصصة للأبحاث والدراسات، من الأولويات المهمة لدى العمل الخيري، والتي من شأنها أن تساعده على تحقيق إنجازاته وطموحاته.

- ثمة ظاهرة لافتة للنظر، جديرة بالعناية والاهتمام، وهي أن بعض المؤسسات الخيرية تعاني من أُمِّية إدارية، انعكست آثارها على المشاريع والأنشطة. ولهذا فإن من التحديات التي تواجه المؤسسات الخيرية: قدرتها على إعادة بناء نسيجها الإداري بناءً علميًا؛ ليكون أكثر قوة وتماسكًا، وأقدرَ على توظيف الطاقات واستيعاب المتغيرات المتلاحقة.

- عند وضع الخطط الدعوية من المهم إدراك إمكانات المؤسسة البشرية والمادية القادرة على تحقيقها؛ لأن بعض المؤسسات قد تختار أهدافًا طموحة، لكنها قد لا تكون مناسبة لها، أو لا تهيئ البيئة المناسبة لتحقيقها.

- تفاعل المؤسسة مع البيئة المحيطة، واستثمارها لجوانب النفع فيها، وأخذها بزمام المبادرة والتطوير؛ من أهم مقومات التخطيط الناجح، ومن أهم مقومات الإبداع والنمو. إننا في حاجة ماسّة لخطوات جادة وجريئة، وتكون كذلك خطوات واضحة ومدروسة ترفع من عقليتنا الإدارية، وتحقق طموحاتنا الدعوية والتعليمية.

- الدخول في كل ميدان، والاتجاه إلى كل بلد، أدى إلى تشتت ملحوظ في بعض المؤسسات الخيرية، وإلى ضعف ظاهر في استثمار هذه الأعمال، وهذا بلا شك انعكاس لضعف الرؤية وقصور التخطيط.



- دوافع عدم التخصص، مهما تذرعت بالموضوعية، فإنها تخفي كثرة الملل والسآمة، وقلة الثبات والإنتاج، وضعف الخبرة والبصيرة. كيف لا؛ والواقع يشهد بأن التوسع غير المدروس يقلل الجودة، ويبعثر الجهود، ويضيع النتائج؟! كما يشهد بأن تخصص المؤسسات أمارة على نجاحها حين تصير مرجعًا في مجال عملها، ودليلاً إليه، ومستشارة فيه، وسبّاقة إلى فروعه.

- نقل الخبرة وتوطين العمل الخيري في دول العالم الإسلامي ضرورة مُلِحَّة، ومرحلة استراتيجية مهمة، لا ينبغي التأخر عنها. وقد تأكد هذا المطلب بعد حصار العمل الخيري وتقييد حركته.

- القيمة الحقيقية لأي مؤسسة ليست فقط في مواردها المالية، أو قوتها الإدارية، أو سعة انتشارها، ولكن تتركز قوتها في رجالها؛ فَهُم ثروة بنائها، وهم الأعمدة التي تعين -حقًّا- في استقرار المؤسسة وثباتها؛ ولهذا كانت الدقة في حسن اختيارهم وتوظيفهم، ثم العناية بتدريبهم، ورفع قدراتهم، وصقل طاقاتهم؛ من أهم جوانب القوة والتميز، ومن أهم أسس النمو والاستقرار المستقبلي.

- المتابع لواقع المؤسسات الخيرية الإسلامية الدولية والمحلية؛ يجد نسبة لافتة من العاملين فيها من غير المتخصصين في العمل الخيري الذي يمارسونه؛ وذلك لندرة الجامعات والمعاهد التي تعتني أصلاً بالعمل الدعوي والخيري في العالم الإسلامي، ولحداثة عمرها الخيري في كثير من البيئات الإسلامية، كما أن بعض المتخصصين منهم لم يكتسبوا خبرات ميدانية تستثمر تعليمهم.

- إهمال التدريب، وضعف العناية ببناء الرجال، أدى إلى ضعف الإنتاجية، ورتابة كثير من الأعمال والبرامج الدعوية، وغياب التجديد والإبداع في كثير من الوسائل الدعوية، فضلاً عن الفوضى الإدارية.

- المال عصب الحياة، وشريان العمل، وقِوَام المؤسسات الخيرية، كما أنه أمانة كبيرة في أيدي القائمين على المؤسسة، وجميع العاملين فيها كلٌّ بحسبه، كما أن الانضباط المالي في أي مؤسسة رمز لقوتها وسلامتها؛ فاقتضى ذلك كله الدقة والضبط المالي للمؤسسة في جميع الجوانب المالية؛ من جمعٍ واستثمار وصرف.

- يتهاون بعض الموظفين -من حيث لا يشعر أحيانًا- في صرف الأموال الخيرية على الأنشطة والمشاريع، ويحدث هدر غير متزن أحيانًا؛ بحجة أنها لم تصرف إلا في الخير! وهذا خطأ ظاهر، ومقتضى الأمانة يُلزمنا بصرف أقل التكاليف المالية المتيسرة لتحقيق أعلى المصالح الشرعية الممكنة.

- العمل الخيري والتطوعي عِلْم من العلوم الدعوية المهمة التي لم تأخذ حظها من الدراسة والبحث، وهو جدير بأن تخصَّص له كلية أو معهد، يمكن أن يبدأ بقسم في إحدى كليات الدعوة أو العلوم الاجتماعية، ثم ينمو تدريجيًّا.

- لكثير من المؤسسات الإسلامية الخيرية تجارب وخبرات مهمة تراكمت خلال أكثر من عقدين من الزمان، ومن المهم -جدًّا- حثّ تلك المؤسسات على تدوين تجربتها في العمل الدعوي الخيري؛ من أجل استثمار تلك التجارب، وتوظيفها من المؤسسات الناشئة، أو الأفراد العاملين في القطاع نفسه.

رؤية لآفاق تطوير العمل الخيري الدعوي

أ. أحمد الصويان: رئيس تحرير مجلة البيان، رئيس رابطة الصحافة الإسلامية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.. وبعد:

فلقد مضى على الحملة الغربية الأخيرة على العمل الخيري عدة أعوام، وحققت هذه الحملة نجاحات عديدة في تحجيم العمل الخيري الإسلامي، وتقييد أنشطته وبرامجه، وقد ظهرت آثار ذلك بجلاء في أزمات إنسانية حدثت مؤخرًا، مثل: أزمة دارفور، ومجاعة النيجر، وزلزال تسونامي في إندونيسيا، حيث غُيِّب العمل الخيري الإسلامي بشكل لافت، بينما أصبحت هذه الأزمات مرعًى خصيبًا للمنظمات التنصيرية والتغريبية.

ولا زالت بعض الدول الغربية تتعامل مع العمل الخيري والإغاثي الإسلامي بانتقائية قانونية، وتعده مصدرًا من مصادر الإرهاب، رغم أنها لم تُثبت ذلك قانونيًّا، بل على العكس عندما أُحيلت بعض القضايا إلى المحاكم الأمريكية ظهرت براءة العمل الخيري الإسلامي، كما حدث مع مؤسسة الحرمين مثلاً[1].

وفي الاتجاه نفسه لا زالت عدة دول تتعامل مع العمل الخيري الإسلامي بمنطق التوجس والقلق من جهة، ومنطق التهميش والإقصاء من جهة أخرى.

وقد استثمر هذا المناخَ المتوتر عددٌ من الكتاب والصحفيين بانتهازية واضحة في تشويه صورة العمل الخيري ومؤسساته ورموزه، والتهويل من أخطائه، واختزال إنجازاته، بل واستعداء الأنظمة عليه وتخويفها منه ودفعها إلى مصادرته وإلغائه!

أما العاملون في القطاع الخيري الإسلامي فقد تباينت ردود أفعالهم إزاء هذه الحملة قوة وضعفًا، إقدامًا وإحجامًا. ومن المفيد تقويم هذه المرحلة للاستفادة من إيجابياتها وسلبياتها، من أجل تشكيل قاعدة انطلاق لبناء الصورة المستقبلية للعمل الخيري وتطويرها. وستركز هذه الدراسة على بناء بعض الرؤى المتعلقة بتطوير العمل الدعوي الخيري الموجَّه إلى دول العالم الإسلامي والأقليات المسلمة.

---

(١) انظر: كتاب «ضحايا بريئة للحرب العالمية على الإرهاب»، للدكتور محمد السلومي. فصل: (انتصار الحقيقة: المؤسسات الخيرية الإسلامية في الكونجرس الأمريكي) (ص ٩٩ - ١٣٤).

ردود أفعال المؤسسات الخيرية

تعددت الإيجابيات بفضل الله تعالى، وأثبتت المؤسسات أنها على مستوى المسئولية. وليس الهدف في هذا المقام هو الاستقصاء أو الاستطراد، وإنما المناسبة تستدعي تقديم بعض الإيجابيات الكلية، ثم إتْباعها ببعض السلبيات:

أولاً: من الإيجابيات:

١ - أثبتت الحملة الغربية الجائرة أن العديد من مؤسسات العمل الخيري والإغاثي متماسكة من الناحية الإدارية، ومنضبطة قانونيًّا وماليًّا، ولم تنجح حملات التشويه الإعلامية المحلية والدولية أن تثبت عكس ذلك.

٢ - أظهرت الأعوام الماضية قدرة كثير من المؤسسات الخيرية على إدارة الأزمات، وصناعة التغيير، والمرونة في إعادة الهيكلة الإدارية والتخطيط المرحلي.

٣ - تأسس في هذه المرحلة عددٌ من المنظمات والهيئات المتخصصة في الدفاع عن العمل الخيري في المحافل الدولية، وإبراز الصورة الإيجابية للمؤسسات الفاعلة في هذا الميدان. ومن أبرز هذه المنظمات: (جمعية أصدقاء المؤسسات الخيرية - FOCA) في واشنطن، (والمكتب الدولي للجمعيات الإنسانية والخيرية - IBH) في جنيف، وقد قدمت هذه المنظمات إنجازات متميزة عمليًّا وإعلاميًّا.

٤ - شهدت هذه المرحلة تلاحمًا محمودًا بين المؤسسات الخيرية، وكان من ثمرات ذلك: تنسيق المواقف وتبادل الخبرات، والتعاون والتكامل في مشاريع عملية كثيرة، وعُقِد في هذا السياق عدد من المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش وورش العمل، ومن بين هذه المؤتمرات:

أ - مؤتمر باريس للجمعيات الإنسانية والخيرية المنعقد بتاريخ: ٦ - ١٤٢٣/١١/٧هـ - الموافق: ٩ - ٢٠٠٣/١/١٠م.

ب - مؤتمر الآفاق المستقبلية للعمل الخيري، المنعقد في الكويت بتاريخ: ١٠ - ١٤٢٥/١١/١٢هـ - الموافق: ٢٣ - ٢٠٠٤/١١/٢٥م.

ج- مؤتمر العمل الخيري الخليجي الثاني، المنعقد في الدوحة بتاريخ: ٢٢ - ١٤٢٧/١/٢٣هـ - الموافق: ٢١ - ٢٠٠٦/٢/٢٢م.

د - مؤتمر الحرب على الإرهاب وأوضاع المنظمات غير الحكومية، المنعقد في إسطنبول بتاريخ: ٢٥ - ١٤٢٨/٨/٢٦هـ - الموافق: ٧ - ٢٠٠٧/٩/٨م.

٥ - تأسس في هذه المرحلة عدد من المؤسسات الخيرية الرائدة، من أهمها:

أ - المركز الدولي للأبحاث والدراسات (مداد)، في جدة: تأسس عام ١٤٢٧هـ، ويسعى هذا المركز لإعداد دراسات استراتيجية لدعم وتقوية بنية العمل الخيري.

ب - مكتب بصائر للاستشارات التربوية، في الرياض: تأسس عام ١٤٢٧هـ، وهو متخصص في بناء مناهج للتعليم الإسلامي تناسب البيئة الإفريقية.

كما أُسست أيضًا في هذه المرحلة عدد من مراكز التدريب، خصوصًا المهتمة بالتدريب في المؤسسات الخيرية والتطوعية، من أهمها:

أ - مؤسسة بناء الأجيال، في جدة.

ب - مؤسسة عطاء، في الرياض.

ج- مؤسسة إعداد، في الرياض.

وهذا النمو النوعي المتميز في العمل الدعوي الخيري يدل على حيويته وتجدده.

٦ - نشطت في ظل الأزمة بعضُ المبادرات الفردية الجيدة، ممَّا أدى إلى نوع توسع في

بعض المناطق أو المجالات، بشكل غطّى بعض الثغرات الناشئة عن انحسار أعمال المؤسسات فيها.

٧ - نجحت المؤسسات الخيرية في تأكيد أهمية العمل الخيري والإغاثي وجَعْلِه جزءًا من التكوين الثقافي للمجتمع. وقد أكدت تلك الحملات الجائرة أن العمل الخيري متجذر في صفوف المسلمين بمختلف طبقاتهم واهتماماتهم؛ فالعمل الخيري ليس مجرد عمل إنساني فحسب، بل هو قبل ذلك قربة يتقرب بها المسلمون لنيل مرضاة الله - عز وجل - ، ومن ثم فإن محاولات مصادرته أو التضييق عليه ستبوء بالفشل على المدى البعيد، حتى ولو حققت نجاحات وقتية محدودة، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

ثانيًا: من السلبيات:

١ - تقبُّل بعض مؤسسات العمل الدعوي الخيري أو بعض العاملين فيها للواقع، وعجزهم عن الاستمرار، وتفريطهم في الإنجازات السابقة.

٢ - الدفاع عن العمل الخيري تحول أحيانًا إلى مناحة أو بكائية سلبية، ربما ولَّدت الإحباط عند بعض الناس.

٣ - أثار بعض الناس خصومة مفتعلة بين العمل الخيري في البلاد العربية والعمل الخيري في مناطق المسلمين المختلفة، ممَّا أدى إلى انحسار العمل الخارجي وتضاؤل المشاريع الدعوية، والانكفاء على الداخل، مع أن العملين ينبغي أن يكونا متكاملين وليسا متعارضين.

٤ - مع تصاعد الحملة الإعلامية على العمل الدعوي الخيري ظهرت أصوات تدعو إلى التركيز على العمل الإنساني الصِّرف، وإلغاء البرامج الدعوية والتعليمية، وقد أدى هذا الفصل الحاد بين الإغاثة والدعوة إلى ضعف الرسالة الدعوية في عدد من الأنشطة والبرامج، أو غيابها.

٥ - أدى تحجيم مؤسسات العمل الدعوي الخيري إلى تشتت جهد المتطوعين، وقصور في توظيف طاقاتهم في مشاريع بديلة، ونشوء أعمال وأنشطة فردية مرتجلة وغير مدروسة.

٦ - إحجام بعض المتبرعين والمحسنين عن دعم العمل الخيري، مما أدى إلى ضعف الموارد، وتعثر بعض البرامج.

آفاق تطوير العمل الخيري

نعيش اليوم في عصر شديد التغير، كثير التقلب، تقاربت فيه الشعوب، وتداخلت فيه الثقافات، وأصبحت الصراعات السياسية والاقتصادية، والتحولات الفكرية والثقافية والاجتماعية، تؤثر على الأفراد والجماعات والمؤسسات والدول.

ولقد نشأت المؤسسات الخيرية في بيئات تعاني من مشكلات متعددة، وورثت تركةً مليئةً بالأمراض المزمنة والأدواء المهلكة، ولهذا فهي تواجه تحديات متعددة المجالات، مما يتطلب أفقًا واسعًا قادرًا على مكافحة أعراض العجز، وقادرًا على التكيف مع المتغيرات المذهلة في هذا العصر.

وإن من الأولويات التي تواجه مؤسسات العمل الدعوي الخيري في هذه المرحلة: كيفية النهوض بها وتحديثها، وتطوير آلياتها الإدارية؛ لتستوعب هذه التحديات.

وإعادة بناء المؤسسات الدعوية الخيرية يتطلب قيادات حية وناضجة، تملك رؤى استشرافية عميقة، كما تملك القدرة على المبادرة وتفعيل الطاقات[٢]. إنَّ المؤسسة الرتيبة الراكدة؛ التي لا تتطور ولا تُحدِّث آلياتها وطرائق عملها ؛ مؤسسة هزيلة تعيش خارج إطار الزمن الذي نعيشه! وهي مؤسسة كتبت على

(٢) يقول بعض الإداريين: «حتى تستطيع المنظمات تحقيق النجاح - بصرف النظر عن البقاء حية - فلا بد أن يتولى قيادتها أشخاص لديهم التزام قوي بإحداث التغيير المطلوب، ويستلزم ذلك أن يكون لدى القادة رؤية واضحة لما يحمله المستقبل»، إدارة السلوك في المنظمات، تأليف: جيرالد جرينبرج وروبرت بارون، (ص٥٨٩).

نفسها التآكل التدريجي، حتى تسقط وتنتهي..!

وإذا كانت المرحلة السابقة شهدت انحسارًا نسبيًّا للعمل الخيري، فإن الضغوط والتحديات المتتابعة، تؤكد ضرورة إعادة البناء من الداخل وإحكام أركانه، وفتحت آفاقًا رحبة وفرصًا جديدة يمكن أن ينطلق فيها العمل الخيري بعون الله.

ومن أهم آفاق التطوير المقترحة التي تتطلبها المرحلة القادمة:

أولاً: الانضباط الشرعي.

ثانيًا: العناية بالعمل المؤسسي.

ثالثًا: إعداد الدراسات والبحوث الميدانية.

رابعًا: التخطيط.

خامسًا: التخصص في العمل المؤسسي.

سادسًا: توطين العمل الخيري.

سابعًا: التدريب ورفع مستوى الكفايات الإدارية والدعوية.

ثامنًا: الالتزام القانوني للمؤسسات الخيرية.

تاسعًا: الانضباط المالي في المؤسسات.

وأرجو أن أوفق في عرض الموضوع ومعالجته بصورة علمية قدر الإمكان.

أولاً: الانضباط الشرعي:

وأقصد بالانضباط الشرعي: الالتزام بالأصول والقواعد الشرعية في الدعوة إلى الله، وبناء المؤسسات الخيرية بإحكام علمي، والوقوف عند حدود ما أنزله الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم في كل شأن دقيق أو جليل.

وإن من فضل الله - تعالى - على أي مؤسسة خيرية أن يفقِّه الله - سبحانه وتعالى - القائمين عليها في دينه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[٣]. ومن مقتضيات ذلك: أن تحرص المؤسسة على صواب العمل وتحقيقه لمراد الله. وكما أن الغاية لا بد أن تكون شرعية فكذلك الوسيلة لتحقيق تلك الغاية لا بد أن تكون شرعية، والقصد مهما كان حسنًا فإنه لا يكفي في صحة العمل. قال الله - تعالى -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ويتحقق الانضباط الشرعي في أمور كثيرة؛ ومنها:

١ - مراقبة الله - تعالى - في جمع الأموال من المحسنين، والورع في رعايتها، وحفظها، واستثمارها، وإنفاقها في وجوهها وأوقاتها الشرعية.

٢ - الانضباط الشرعي في جميع البرامج والأنشطة والمشاريع.

٣ - الالتزام بالأحكام الشرعية في التعاقد مع العاملين، وفي العقود والاتفاقات مع المنظمات الرسمية والأهلية.

٤ - تولية أهل الفقه والديانة والقدرة بما يتناسب مع نوع العمل وحجمه؛ تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

آفاق تطوير العمل الخيري

وبالجملة؛ فإن الانضباط الشرعي هو ما يجعل أعمال المؤسسة كلها مبنية على شرع الله القويم؛ كما أنه طريق إلى تحقيق رضا الله تعالى، ونيل سعادة الدارين، وهو في الوقت نفسه حماية للمؤسسة من الوقوع في البدع والمخالفات المذمومة، ويجيرها من الوقوع في مزالق التفرق والتنازع. ويجب على قيادات العمل الخيري ومديريه أن

---

(٣) أخرجه: البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين (١/١٦٤) رقم (٧١)؛ ومسلم في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة (٢/٧١٨) رقم (١٠٣٧).

يتقوا الله ويراقبوه، ويستشعروا هذه الأمانة التي في أعناقهم. وإن ممَّا يحزن له المرء تفريطَ بعض المؤسسات في هذا الأمر، وتساهلها فيه، بل ضيقَها أحيانًا ببعض الناصحين الذين يذكِّرونها بحق الله تعالى، ويخشى أن يؤدي ذلك إلى حرمان عون الله وتأييده. نسأل الله العفو والسلامة!

وعلى من يتطلع إلى عون الله ورضاه ألا يتساهل في الامتثال لأمره وحكمه، أو يتكلف في التماس الرخص والمعاذير..!

ومن المقترحات العملية في هذا السبيل:

١ - الاستعانة بأهل الفقه والفطنة في مجالس إدارة المؤسسات الخيرية.

٢ - التواصل مع العلماء، واستشارتهم، واستفتاؤهم في مختلف المسائل والنوازل.

٣ - إعداد دورات شرعية لتثقيف الإداريين والعاملين في القطاع الخيري بالمسائل الشرعية التي يحتاجونها في مجال عملهم.

٤ - العناية بالدعاة وطلبة العلم المحليين في مناطق العمل، فهُمْ منطلق التصحيح والتغيير؛ ولذا فعلى المؤسسات الدعوية -إن هي أرادت استنقاذ الناس من الضلالة، وحرصت على استقامة برامجها ومشاريعها- أن تُعنى بتأهيل القيادات العلمية، وخدمة الموجود منها ورعايته؛ ليكونوا بعون الله -تعالى- اليدَ الكريمةَ التي تنير السبيل؛ وتقود إلى التزام الصراط المستقيم.

٥ - تكوين آلية إدارية عملية للتقويم والتناصح داخل المؤسسة.

ثانيًا: العناية بالعمل المؤسسي:

المقصود بالعمل المؤسسي في هذا البحث هو: العمل الجماعي الذي يلتزم بمبدأ الشورى والتناصح، ويقوم بتوزيع الأعمال والبرامج والصلاحيات على مجالس عمل، ولجان متخصصة، وفرق عمل متكاملة، تضم أعضاء مؤهلين.

ويخرج من هذا التعريف: العمل الفردي الذي قد يتسم بالارتجال، أو ضعف التخطيط، كما يخرج منه العمل الجماعي الظاهري الذي هو في حقيقته عمل فردي، لكنه يتزيا بزيِّ العمل المؤسسي.

وتتجلى أهمية العمل المؤسسي في أمور عدة؛ منها:

١ - تآلف القلوب وتآزر العقول لمزيد من الإنجاز والتصحيح والإبداع؛ حيث يُسدِّد بعض العاملين بعضًا، وتتلاقح أفكارهم وتتكامل خبراتهم. ولهذا أُمِرَ سيِّدُ ولدِ آدم -صلى الله عليه وسلم- وهو أكمل الخلق عقلاً، وأخشاهم لله تعالى- بمشاورة أصحابه، فقال - تعالى -: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

٢ - الاستقرار الإداري في جميع الأعمال والأنشطة؛ فإذا غاب فرد سدَّ مكانه آخرون، وإذا مرض أو عجز قام مقامه غيره، فلا يتوقف العمل بغياب أحد أو عجزه؛ وبذلك يستمر العطاء ولا يتوقف، بإذن الله تعالى.

٣ - رعاية حقوق المؤسسة والحفاظ عليها، وأداء الأمانة كما أمر الله تعالى؛ فالفرد - مهما كان مخلصًا - ربما يخطئ أو يقصِّر، ولا يجد من يقوِّمه ويرشده إلى الصواب ويأخذ بيده إلى الحق.

٤ - استيعاب طاقات الأمة، وتوظيفها توظيفًا متكاملاً متآلفًا؛ فالعمل المؤسسي يضمن مناخًا أفضل للعمل والإبداع وتكامل الجهود.

٥ - العمل المؤسسي الجماعي أقرب إلى الموضوعية والتجرد في اتخاذ القرارات ورسم السياسات؛ فالحوار وتبادل الآراء هو الذي يقود إلى اتخاذ القرارات وإنضاجها.

ولئن قصرت بعض المؤسسات الخيرية في تحقيق العمل المؤسسي في مرحلة سابقة؛ فإن المرحلة

القادمة تتطلب جهدًا حقيقيًّا وعملاً جادًّا في إعادة البناء وإحكامه.

من آفات العمل الفردي:

إنَّ ثمة حقيقة مهمة يجب الإشارة إليها، وهي أن الفردية في إدارة كثير من أعمالنا الدعوية والخيرية هي السائدة مع الأسف الشديد، بل قد تتم ممارسة الفردية - أحيانًا - في ظل الإدارة المؤسسية؛ حيث تختزل المؤسسة كلها بمجالسها ولجانها وفروعها في رأي رجل واحد؛ هو الذي يخطط، وهو الذي يتخذ القرارات، وهو الذي يرسم السياسات العامة، ويمسك بالمؤسسة من جميع أبوابها، ويدير مفاتيحها برؤيته الفردية التي تلغي عقول الآخرين، وتزدري ملكاتهم؛ حتى يصبح بقية الأفراد مجرّد أدوات صمّاء للتنفيذ..!

بل تتضخم الفردية أحيانًا في بعض الجمعيات حتى تتحول إلى مكتسبات شخصية!، ويزداد التضخم أحيانًا في بعض البيئات إلى أن تتحول هذه الجمعيات إلى ممتلكات فردية تُورَّث للأبناء، وقد يكون من الأبناء من لا يستحق هذه الأمانة فيَضِيع ويُضيِّع، نسأل الله السلامة!

ولا شك أن بعض الأفراد يملك من القوة والنشاط والهمة العالية وسداد الرأي ما لا يملكه جمع من الناس، ولكن هذا الفرد سوف يزداد قوة وهمة وسدادًا - بإذن الله تعالى - حين يجتمع معه أصحابه من ذوي القوة والرأي؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو الراشد المُلْهَم إذا عرضت له الحاجة، أو نزلت به النازلة جمع لها أهل بدر، رضي الله عنهم[٤].

ثالثًا: إعداد الدراسات والبحوث الميدانية:

من المهم جدًّا أن تبدأ المؤسسات الإسلامية العملَ الخيري في المنطقة بعد فهم صحيح وإدراك واعٍ للبيئة. وأحسب أن التصور الدقيق للواقع الفكري والاجتماعي والدعوي من أنجع السبل لسلامة التخطيط ووضوح الرؤية.

الأخطاء الشائعة في إعداد الدراسات والأبحاث الميدانية:

بعض المؤسسات والجمعيات لا تعتني بالدراسات والأبحاث الميدانية، وقد تعدها من الوقت المهدَر!، وغالبًا ما تقع هذه المؤسسات والجمعيات في أحد الأمور الآتية:

١ - إعداد الدراسات والأبحاث بطريقة غير علمية؛ كأن يُكلَّف أحد الدعاة بأخذ جولة سريعة عابرة في بعض المدن والقرى، ويلتقي بعض الجمعيات والدعاة، ثم يدون ملحوظاته على شكل دراسة. ولا شك بأن هذه الجولات لا تعطي معلومات وافية وشاملة، بل تعطي انطباعات سريعة وغير دقيقة، أو غير ناضجة، وقد تتأثر بقناعات المرافقين في تلك الجولات.

> العمل المؤسسي الجماعي أقرب إلى الموضوعية والتجرد في اتخاذ القرارات، ورسم السياسات.

ويُتأكد تجنب هذه الطريقة بوجود طرق علمية مبنية على أدوات إحصائية، تبنى بحسب حاجة العمل ونوعية المعلومة التي يتطلبها، ثم يقوم على تحليلها مختصون عبر برامج إحصائية حاسوبية.

٢ - أن بعضهم يبدأ العمل بطريقة تقليدية، وينظر بمنظار البيئة التي جاء منها؛ دون اعتبار أو نظر في الظروف الفكرية والاجتماعية والنفسية للبيئة الجديدة.

ولك أن تتصور مقدار التخبط الذي يحدث في الأعمال والأنشطة التي تُنفَّذ بهذه العقلية..! ولا شك بأن الأعمال التي قد تنجح في بيئةٍ ما؛ لظروف معينة ليس بالضرورة أن تنجح في بيئةٍ أخرى مختلفة في ظروفها. ومن الفقه أن نميِّز بين البيئات، وأن نعمل على استخدام الوسائل والطرائق المناسبة لها.

٣ - أن بعضهم قد يستنسخ أعمال المؤسسات الأخرى بطريقة رتيبة، وغير مدركة لأهداف الأنشطة ومراميها وأبعادها الدعوية..!

إن الاستفادة من تجارب الآخرين مهمة، ولكن لا

(٤) انظر: أدب المفتي والمستفتي، تأليف: الإمام ابن الصلاح، (ص ٧٦).

بد أن تكون استفادة واعية ناضجة؛ تدرس التجربة بمختلف أبعادها وملابساتها؛ حتى تُطبَّق ببصيرةٍ تراعي خصائص البيئة، وتحقق النجاح المطلوب.

إن العناية بإنشاء وحدات بحثية ملحقة بالمؤسسات الخيرية، أو مراكز مستقلة مخصصة للأبحاث والدراسات، من الأولويات المهمة لدى العمل الخيري، والتي من شأنها أن تساعده على تحقيق إنجازاته وطموحاته.

واللافت للنظر أن تجد من يتخذون قرارات مصيرية في برامج وأنشطة ينفقون فيها جهودًا كبيرة، وأموالاً طائلة؛ دون تصور للواقع الذي يعملون فيه، أو دون فحص للمعلومات والأخبار التي يحصلون عليها! ومن المهم أن نملك العاطفة الحية التي تدفعنا إلى العمل المعطاء، ولكن الأهم أن نضيف إلى ذلك عقلاً يستبصر الأمور ويدرك مآلاتها.

رابعًا: التخطيط:

التخطيط: هو وضع برنامج مستقبلي لتحقيق أهداف معينة، عن طريق حصر الإمكانات وتوظيفها؛ لوضع هذه الأهداف موضع التنفيذ خلال مدة محددة[5].

والتخطيط عملية إدارية أساسية للبناء المؤسسي، وهو آية وضوح الرؤية واستقامة الطريق؛ فبه تعرف المؤسسة: موقعها، وإلى أين هي ذاهبة؟ ومن أي الطرق؟ ومتى سوف تصل لأهدافها؟! وبه تُنسق جهود العاملين في المؤسسة ويؤلف بينها لتحقيق أهداف واضحة محددة متفق عليها.

والالتزام بالتخطيط يعني: البعد عن العشوائية والارتجال في العمل المؤسسي ما أمكن. وغيابه يؤدي إلى التخبط والاضطراب في العمل، والسير في طريق غير واضح المعالم.

والتخطيط الفعال هو التخطيط الذي يكون ثمرة جهد مشترك يقوم به أهل التجربة مع أهل الاختصاص، وتشترك فيه جميع المستويات الإدارية في المؤسسة؛ ابتداءً من الإدارة العليا، وانتهاء بالإدارات الميدانية التنفيذية المختلفة. ولقد أثبتت الدراسات الإدارية أن التخطيط الفعّال يوفر ثلاث ساعات أو أربعًا يوميًا عند التنفيذ.

وقد أثبتت التجربة الميدانية أن البعض يهوِّن من شأن التخطيط العلمي للبرامج الدعوية والتعليمية ونحوها، إما بلسان الحال أو بلسان المقال، بل قد يعدُّون ذلك لونًا من ألوان الترف المعرفي الذي لا ينفع الأمة! لذا يميل هذا النوع من المؤسسات إلى الفردية من جانب، وإلى العشوائية من جانب آخر، ويتسم بضعف الرؤية من جانب ثالث؛ مما قد يؤدي إلى ضعف الثمرة وقلة بركتها.

إنَّ ثمة ظاهرة لافتة للنظر، جديرة بالعناية والاهتمام، وهي أن بعض المؤسسات الخيرية تعاني من أُمِّية إدارية، انعكست آثارها على المشاريع والأنشطة. ولهذا فإن من التحديات التي تواجه المؤسسات الخيرية: قدرتها على إعادة بناء نسيجها الإداري بناءً علميًّا؛ ليكون أكثر قوة وتماسكًا، وأقدرَ على توظيف الطاقات واستيعاب المتغيرات المتلاحقة.

ومن أهم جوانب التخطيط:

١ - تحديد أهداف المؤسسة الرئيسة بدقة، وتحديد الأهداف التفصيلية لكل قطاع من قطاعات المؤسسة. وإنَّ ضعف وضوح الأهداف عند بعض العاملين يؤدي - غالبًا - إلى الخلط والتخبط، وتصبح المؤسسة عاجزة عن تحديد هويتها وطبيعتها؛ وقد يؤدي ذلك إلى التردد، والانتقال من مشروع إلى آخر بدون بصيرة أو فهم. والنتيجة المتوقعة تتمثل في: ضعف الإنتاجية وقصورها، وتشتيت الجهود، وضياع الأموال.

٢ - الاحتياجات الخيرية لأي منطقة من مناطق العمل كثيرة، ومن الفقه الحرصُ على تحديد الأولويات، والبدء بالأهم فالمهم، وذلك من جوانب التخطيط الدعوي التي يكون انعكاسها على بقية الأعمال كبيرًا.

٣ - عند وضع الخطط الدعوية من المهم إدراك إمكانات المؤسسة البشرية والمادية القادرة على تحقيقها؛ لأن بعض المؤسسات قد تختار

(٥) انظر: أصول علم الإدارة، سامي زين العابدين حماد، (ص ١١٥).

أهدافًا طموحة، لكنها قد لا تكون مناسبة لها، أو لا تهيئ البيئة المناسبة لتحقيقها.

٤ - ينبغي أن تتميز الخطة بالمرونة، بمعنى أن تكون قادرة على استيعاب المتغيرات، ومؤهلة لاستثمار الفرص الطارئة. ولا تعني المرونة ضعف الرؤية أو الارتباك.

٥ - الخطة الناجحة هي التي تراعي الحاجات الآنية، وتعتني كذلك بالحاجات المستقبلية. والعمل الخيري المؤثر لن تظهر نتائجه خلال مدة يسيرة؛ ولهذا ينبغي أن تتميز برامجه بالعمق وطول النفس(٦).

من علامات الركود والرتابة في المؤسسات الإسلامية:

١ - انكفاؤها على قوالب إدارية جامدة مغلقة مقاوِمة للتطور؛ ترسِّخ الأمية الإدارية، وتؤدي إلى الفوضى والتخبط.

٢ - ضبابية الأهداف، وعدم وضوح الرؤية الآنية والمستقبلية.

٣ - الضيق بالتجديد والإبداع في الوسائل والبرامج، وحصر الجهود في أعمال نمطية رتيبة.

٤ - العجز عن استيعاب المتغيرات السياسية والقانونية؛ والتعامل مع الواقع الدولي والإقليمي بطريقة تؤكد الضعف والغياب عن الواقع.

٥ - العجز عن التأقلم مع البيئات الاجتماعية والفكرية المختلفة بفاعلية ومرونة.

٦ - العجز عن استثمار التقنيات التي تيسر سبل العمل، وتقلل من تكاليفه.

٧ - ضعف برامج التنمية البشرية داخل المؤسسات.

كيف يحدث التغيير؟

من خلال التجربة أحسب أن التغيير في المؤسسات الإسلامية سوف يفرض نفسه من حيث نشعر أو لا نشعر، ويذكر الإداريون أن هناك نوعين من التغيير:

١ - التغيير العشوائي:

ويحدث هذا النوع دون تدخل، أو اتباع خطة معينة، ولا تُبذل فيه محاولة للوصول إلى نتائج محددة، فهو تغيير غير إرادي!

٢ - التغيير المخطط:

حيث يُتحكم في مسار هذا النوع من التغيير، ويُخطط لحدوثه، فتُحدد أهدافه وسرعته ومجالاته وطرق تنفيذه(٧).

> الأعمال التي قد تنجح في بيئة ما لظروف معينة، ليس بالضرورة أن تنجح في بيئة أخرى مختلفة في ظروفها.

ولهذا فإن تفاعل المؤسسة مع البيئة المحيطة، واستثمارَها لجوانب النفع فيها، وأخذَها بزمام المبادرة والتطوير؛ من أهم مقومات التخطيط الناجح، ومن أهم مقومات الإبداع والنمو. إننا في حاجة ماسّة لخطوات جادة وجريئة، وتكون كذلك خطوات واضحة ومدروسة ترفع من عقليتنا الإدارية، وتحقق طموحاتنا الدعوية والتعليمية.

وينبغي التأكيد هنا أن التطوير والتغيير المطلوب في المؤسسات الخيرية ليس لمجرد التغيير ومجاراة الآخرين، ولكنه تغيير مخطط يتلمس بحكمة جوانبَ القوة والتأثير؛ فيزيد من فاعليتها، ويؤلف بينها بانسجام وتكامل، ويتلمس بصدق جوانب الضعف والنقص فيدرؤها بالتصحيح والعلاج.

ويبدأ التطوير والتغيير بقناعات راسخة من الإدارة العليا في المؤسسة، ثم بإشاعة ثقافة التطوير والإبداع في مناخ المؤسسة، وبذلك تتوافق الأقسام وتتكامل في بنائها.

(٦) من المراجع المفيدة في هذا الموضوع: كتاب مبادئ إدارة الأعمال، تأليف: د. أحمد الشميمري و عبد الرحمن هيجان و بشرى غنام، فصل: (التخطيط)، ص (٦٧ - ١٠٠).

(٧) انظر: كتاب التطوير التنظيمي، تأليف الدكتور عبد الله بن عبد الغني الطجم، (ص ٢٤).

خامسًا: التخصص في العمل المؤسسي:

والمراد بالتخصص هنا: الاتجاه بقوة وتركيز إلى منطقة من مناطق العمل، أو جانب من جوانب العمل الخيري.

إن الدخول في كل ميدان والاتجاه إلى كل بلد أدى إلى تشتت الأعمال في بعض المؤسسات الخيرية، وإلى ضعف في استثمار هذه الأعمال، وهذا بلا شك انعكاس لضعف الرؤية وقصور التخطيط.

دواعي التخصص:

١ - أهمية إتقان العمل. وطريق الإتقان هو التخصص الذي يوحد الذهن، ويضاعف عطاءه، الأمر الذي لا يحصل بالتشتت.

٢ - محدودية الجهد والوقت الإنساني، وعجز المرء عن تحقيق كثير من رغباته وطموحاته. ولذا كان من رحمة الله بعباده أنه لا يكلف نفسًا إلا ما آتاها، وإذا رام المرء عمل كل شيء لم ينل شيئًا. ومن هنا جاء التوجيه الحكيم: «عليكم بما تطيقون! فو الله، لا يمل الله حتى تملوا»، وكان أحب الدِّين إليه ما داوم عليه صاحبه[8].

٣ - ضعف الموارد المالية في كثير من المؤسسات، خاصة في ظل الحصار الدولي المفروض على العمل الخيري.

٤ - تفاوت الناس في القدرات والملكات والرغبات، مما يجعل فروض الكفايات متفاوتة في لزومها لأناس دون آخرين. قال - سبحانه -: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٥ - طبيعة العصر التي أوجدت مفهومَ: (نعمل شيئًا محددًا في زمن محدد)، محلَّ مفهوم: (أعمل كل ما أشتهي في أي وقت)؛ فلم يبقَ مكان لمن يريد حيازة كل شيء.

والتخصص المنشود في دائرة العمل الخيري نوعان:

أ - تخصص نوعي: وهو التخصص في مجال من مجالات العمل؛ كالمجال الدعوي أو التعليمي أو الإغاثي ... وقد يكون أكثر تخصصًا في جزء من مجال؛ كرعاية الأيتام، أو بناء المساجد، أو كفالة الدعاة، أو دعوة الطلاب والمثقفين، أو دعوة المرأة، أو تعليم القرآن الكريم.

ب - تخصص جغرافي: وهو التخصص في المكان؛ كالعمل في دول معينة، أو قارة أو منطقة جغرافية. وقد يكون أكثر خصوصية؛ كالعمل في مدينة معينة مثلاً[9].

وكلما وُجد التخصص كان الأمر أفضل في الإتقان والانطلاقة الثابتة المطردة الواعدة؛ إذا توافرت شروط النجاح الأخرى وتخلفت موانعه.

إن دوافع عدم التخصص، مهما تذرعت بالموضوعية، فإنها تخفي كثرة الملل والسآمة، وقلة الثبات والإنتاج، وضعف الخبرة والبصيرة. كيف لا؛ والواقع يشهد بأن التوسع غير المدروس يقلل الجودة، ويبعثر الجهود، ويضيع النتائج؟! كما يشهد بأن تخصص المؤسسات أمارة على نجاحها حين تصير مرجعًا في مجال عملها، ودليلاً إليه، ومستشارة فيه، وسبّاقة إلى فروعه[10].

سادسًا: توطين العمل الخيري:

والمقصود بالتوطين: إيجاد مؤسسات خيرية محلية في الدول الإسلامية الفقيرة أو الدول التي توجد فيها أقليات مسلمة، قادرة على القيام بأداء الواجب

---

(٨) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه (١/١٠١) رقم (٤٣)؛ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، (١/٥٤٠ ـ ٥٤١) رقم (٧٨٢).

(٩) انظر: تجربة المنتدى الإسلامي في العمل الدعوي، (ص ٢٨ ـ ٢٩).

(١٠) انظر: بحث (أهمية المؤسسات الدعوية لإبلاغ الدعوة الواقع والتطلعات)، للدكتور سليمان بن عبد الله الحبس، (ص ٢٤٩ - ٢٥٠)، منشور ضمن أبحاث مؤتمر (الشباب وبناء المستقبل) الذي نظمته الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

الشـرعي دون الاعتمـاد علـى غيرهـا من المؤسسـات الإسلامية الدولية.

ونقـل الخـبرة وتوطين العمل الخـيري في دول العالم الإسـلامي ضرورة ملحة، ومرحلة استراتيجية مهمة، لا ينبغـي التأخـر عنها. وقـد تأكد هـذا المطلب بعد حصار العمل الخيري وتقييد حركته.

صحيح أنَّ ذلك يتطلب جهدًا كبيرًا ونفَسًا طويلاً، لكنْ ينبغي السعي لتحقيقه وفق رؤية مدروسة ومتدرجة.

فوائد توطين العمل الخيري:

لتوطين العمل الخيري في الدول الإسلامية الفقيرة أو دول الأقليات المسلمة فوائد كثيرة، من أهمها:

١ - اسـتغناء العمل الخيري والدعوي في دول العالم الإسلامي عن دعم ورعايـة المؤسسـات الإسـلامية الدولية، وقيامه بنفسه.

٢ - المؤسسات المحلية أقدر على تفهُّم الاحتياجات المحلية، وممارسـة الأنشطة الدعوية بحرية أكبر.

٣ - التقليـل مـن العوائق السياسـية والأمنيـة الدوليـة والإقليميـة المتعلقة بحركة الأموال وانتقال الدعاة.

٤ - توثيق أواصر الإخاء بين المؤسسات الإسلامية الدولية والمؤسسـات المحلية مـن جهة، وبناء الثقة بين المؤسسات المحلية ورموزها الدعوية ومجتمعاتهم من جهة أخرى.

من متطلبات توطين العمل الخيري:

١ - الحـرص علـى بنـاء مؤسسـات خيريـة قوية ومتخصصـة، واسـتيفاء أسـس النجاح قدرَ الإمـكان، وذلـك بتكوين مجالـس إدارة جماعيـة، ووضع أنظمة ولوائح إدارية، تعين في اسـتقامتها علـى الطريـق الصحيح بإذن الله.

٢ - العناية ببناء الرجال، وإعداد القيادات الإدارية والعلميـة والدعويـة؛ القـادرة علـى تحمُّـل المسـؤولية، والمؤهلة لأخذهـا بحقها، يقول الأسـتاذ عبـد الله العقيل: «إن بنـاء الرجال هـو أعظـم ثـروة يتركهـا أيّ مديـر قيادي للمنظمـة، حتـى يـترك جيلاً مـن الموظفين والمديرين المخلصين المعتمدين على أنفسهم، والذيـن يتحلـون بالنشـاط والمبـادرة الذاتية والاعتمادية والمسؤولية العالية»[١١].

إننا بحاجة ماسـة إلى أن نتعامل مع القيادات المحلية بمنطق التقدير والثقة وتفويض الصلاحية، وأن يكون ذلك وفق رؤية استشرافية بعيدة النظر.

٣ - رعايـة طلاب المِنَح - النابهين منهم خصوصًا - الدارسـين في الجامعـات العربيـة والإسلامية، فهم من البذور المستقبلية الواعدة لتوطين العمل الخيري والدعوي في بلدانهم.

٤ - عقد شراكات جادة بين المؤسسات الإسـلامية الدوليـة والمؤسسـات المحلية؛ لتحقيـق التواصـل البنّاء وتبـادل الخبرات والتجارب.

> بعض المؤسسات الخيرية لم تقتنع بعد بأهمية التدريب، وقد تظن أنه مجرد هدر للأموال والأوقات!

٥ - كثـير مـن الـدول لا تخلـو مـن خلافات بين بعض الدعاة والجمعيات، وينبغـي أن يكـون للمؤسسـات الدولية دور جـاد في التأليـف وتقريـب وجهـات النظـر وتوحيـد الصفوف، والتحذيـر من النزاعات والصراعـات الـتي تفسـد العمـل وتذهـب بحلاوة الدعوة.

٦ - إيجاد اسـتثمارات وقفية في الدول الإسلامية تقوم على تمويل الأنشطة الخيرية المتنوعة.

سابعًا: التدريب ورفع مستوى الكفاءات الإدارية والدعوية:

إنَّ الناظر في كثير من الأوساط الدعوية والمؤسسات الخيرية يجد قصورًا في أمور ثلاثة؛ هي:

---

(١١) الإدارة القيادية الشاملة، (ص ٧١).

الأول: قصورٌ في الطاقات المبدعة، وليس هذا القصور ناتجًا عن قلة عدد الراغبين في العمل الخيري، بل هو ناتج عن قلة المعادن الكريمة التي يُعضّ عليها بالنواجذ، وهذا مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنَّما الناس كالإبل المائة؛ لا تكاد تجد فيها راحلة»(١٢).

الثاني: قصورٌ في اكتشاف الطاقات، ثم قصور في توظيف الطاقات توظيفًا مثمرًا، يُسَخِّر ملكاتها، ويوجِّه قدراتها.

الثالث: ضعفٌ قيادي وإداري في التأليف بين الطاقات الموجودة وجعلِها تنتظم في فرق عمل منسجمة، تتكاتف لتحقيق أهداف المؤسسة.

والقيمة الحقيقية لأي مؤسسة ليست فقط في مواردها المالية، أو قوتها الإدارية، أو سعة انتشارها، ولكن تتركز قوتها في رجالها؛ فَهُم ثروة بنائها، وهم الأعمدة التي تعين - حقًّا - في استقرار المؤسسة وثباتها؛ ولهذا كانت الدقة في حسن اختيارهم وتوظيفهم، ثم العناية بتدريبهم، ورفع قدراتهم، وصقل طاقاتهم؛ من أهم جوانب القوة والتميز، ومن أهم أسس النمو والاستقرار المستقبلي.

تعريف التدريب وبيان أهميته:

التدريب هو: «الجهود المنظمة والمخططة لتطوير معارف وخبرات واتجاهات المتدربين، وذلك بجعلهم أكثر فاعلية في أداء مهامهم»(١٣).

واللافت للنظر أن بعض المؤسسات الخيرية لم تقتنع بعدُ بأهمية التدريب، وقد تظن أنه مجرد هدر للأموال والأوقات! ولا شك بأن هذا خطأ؛ فلقد أثبتت الدراسات أن التعليم والتدريب يسهمان في رفع مستوى الإنتاج. وبناءً على ذلك؛ فإن أي تقدم في العمل المؤسسي يعتمد بدرجة كبيرة - بعد توفيق الله تعالى - على التعليم والتدريب(١٤).

والمتابع لواقع المؤسسات الخيرية الإسلامية الدولية والمحلية يجد نسبة لافتة من العاملين فيها من غير المتخصصين في العمل الخيري الذي يمارسونه؛ وذلك لندرة الجامعات والمعاهد التي تعتني أصلًا بالعمل الدعوي والخيري في العالم الإسلامي(١٥)، ولحداثة عمرها الخيري في كثير من البيئات الإسلامية، كما أن بعض المتخصصين منهم لم يكتسبوا خبرات ميدانية تستثمر تعليمهم.

إنَّ كثيرًا من العاملين في المؤسسات الخيرية يتميز بالصدق والحرص - والله حسيبهم -، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هؤلاء الصادقون على قدر كافٍ من القدرة والكفاية العملية.

ولهذا فإن أولى أولويات المؤسسات الإسلامية في المرحلة القادمة ينبغي أن تكون بناءَ العاملين الأَكْفَاء القادرين على تحمل المسؤولية، والعناية الفائقة بهم، وتدريبهم؛ لأداء مهامهم بكفاية وفاعلية؛ تحقيقًا لقول المولى - جل وعلا -: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وها هنا قضية مهمة؛ وهي أهمية إشاعة روح التنافس المحمود بين الموظفين، ودفعهم للتسابق في الخيرات؛ حتى يدركوا أن الموظف الذي لا ينمو ولا يتطور، ولا يرتقي أداؤه مع مرور الوقت؛ موظف عاجز ضعيف الأثر في أمته، وغير مؤهل للحفاظ على تلك الوظيفة.

قبل التدريب:

من الملحوظات المهمة التي يجب الانتباه إليها قبل البدء في تدريب الموظفين:

١ - وضع نظام متقن لتعيين الموظفين؛ حتى تضمن المؤسسة استقطاب الكفايات المتميزة للعمل فيها.

٢ - إيجاد الحافز المستمر للتعلم، وتنمية الرغبة في بناء الذات وتطويرها. وهذا الحافز لن

(١٢) أخرجه: البخاري في كتاب الرقائق، باب: رفع الأمانة (١١/٣٣٣)، رقم (٦٤٩٨)؛ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: قوله صلى الله عليه وسلم: «الناس كإبل مائة»، (٤/ ١٩٧٣م)، رقم (٢٥٤٧).

(١٣) التدريب مفهومه وفعالياته، تأليف: الدكتور حسن الطعاني، (ص ١٣).

(١٤) المرجع السابق، (ص ١٤ - ١٥).

(١٥) أدركت المنظمات التنصيرية أهمية ذلك منذ وقت طويل جدًّا، ولهذا رعت المجالس الكنسية والإرساليات التنصيرية عددًا كبيرًا من الجامعات والمعاهد في مختلف أنحاء العالم، ونجحت في تعليم وتدريب جحافل كثيرة من المنصرين، نسأل الله - تعالى - أن يجعل كيدهم في نحورهم.

يتحقق إلا إذا كانت بيئة المؤسسة بيئةً صحيةً تحرص على ذلك، وتشجع على الإبداع، وتعين على التميز.

٣ - التدريب بدون تخطيط يعد هدرًا للموارد. ويتم تحليل الحاجات التدريبية في المؤسسة بمقارنة الأداء الفعلي بالأداء المرغوب فيه، وتحديد حجم الفارق الذي يمكن معالجته بالتدريب.

متى يفقد التدريب أهميته؟

من خلال التجربة تبين أن هناك مؤسسات وأشخاصًا قد لا ينفعهم التدريب حقًّا، بل يتحول إلى عبء نفسي ومالي، ومن هؤلاء:

١ - المؤسسات التي لم تقتنع أصلاً بجدوى التدريب لموظفيها، ولكنها تفعل ذلك مجاراة للمؤسسات الأخرى، أو إسكاتًا لموظفيها.

٢ - الشخص الذي ضعف عنده الدافع للعمل والإنجاز: فالداعية الذي يضعف عنده الهمّ الدعوي، وتقل غيرته على دين الله - تعالى - لا ينفع معه التدريب؛ لأن إتقانه للمهارات الدعوية لن يزيد من فاعليته وإنتاجه، وهو في حاجة إلى إحياء الدافع الدعوي أولاً.

٣ - عدم مناسبة الموظف لوظيفته:
فحين يُكلَّف داعية بمتابعة مشروع هندسي - كما يحدث كثيرًا في بعض المؤسسات الخيرية - فإن التدريب لن ينفع؛ لأن الداعية لا يملك المقومات الأساسية للإشراف الهندسي، وتدريبه على ذلك تكليف بما لا يطاق، وهدر للأموال والطاقات.

٤ - الشخص المتعالي: فهذا الشخص بعُجبه يُضيِّع على نفسه وأُمَّته فرصًا عظيمة لمزيد من البناء والتطوير.

ومثل هؤلاء الذين أشرت إليهم - وأمثالهم - ينبغي معالجة مشكلاتهم أولاً، ثم السعي لتدريبهم. ولهذا كله فإنني أؤكد ما جاء في تعريف التدريب وأنّه عملية مخططة؛ فالتدريب المرتجل بدون رؤية واضحة لا شك أنه عبء على الموارد المؤسسية، ولن يؤدي إلى رفع كفاءات الموظفين.

من نتائج التقصير في التدريب:

لتقصير المؤسسات الخيرية في التدريب نتائج سلبية عديدة؛ منها:

١ - أن إهمال التدريب، وضعفَ العناية ببناء الرجال، أدى إلى ضعف الإنتاجية، ورتابة كثير من الأعمال والبرامج الدعوية، وغياب التجديد والإبداع في كثير من الوسائل الدعوية، فضلاً عن الفوضى الإدارية.

٢ - ندرة القيادات والطاقات المتميزة داخل بعض المؤسسات والجمعيات أدى إلى أن يُوسَّد الأمر إلى غير أهله في كثير من الأحيان. ولا تخفى النتائج السلبية التي تنتج عن هذا..!

> ينبغي السعي الجاد للوصول إلى الاستقلالية المالية للمؤسسات الإسلامية؛ من خلال الأوقاف الخيرية، والاستثمارات التجارية.

٣ - القصور في توطين العمل الخيري في الدول الإسلامية ودول الأقليات المسلمة، واستمرار اعتماده على المؤسسات الإسلامية الدولية.

٤ - عالجت بعض المؤسسات مشكلةَ ندرة القيادات وضعف الطاقات في البيئات الدعوية عن طريق استقطاب بعض القيادات والطاقات من بيئات أخرى. وهذا لا بأس به في مرحلة مؤقتة، وبخطة واضحة، إلى أن يتم تدريب طاقات محلية مؤهلة لتحمل المسؤولية؛ إذ هي أقدر من غيرها على التعامل مع بيئتها[١٦]

ثامنًا: الالتزام القانوني للمؤسسات الخيرية:

توجد لكل البلدان التي تعمل فيها المؤسسات الخيرية الإسلامية قوانين تنظم العمل الخيري، وتضع له حدودًا، وتفرض عليه أمورًا لا بد من الالتزام بها. ولكي تحصل الفائدة المرجوة من العمل، ويستفاد من تلك القوانين، ولكي تُجتنب المخاطر والمعوقات التي

(١٦) من أنفع كتب التدريب التي وقفت عليها: كتاب (دليل التدريب القيادي)، تأليف: الدكتور هشام الطالب. وكتاب: آفاق التدريب الإداري في الجهات الخيرية، تأليف: محمد بن يحيى مفرح.

تهدد عمل المؤسسات الخيرية؛ لا بد من مراعاة الأمور الآتية:

(١) التعرف على القوانين المحلية المتعلقة بالجانب الخيري.

(٢) اتخاذ مستشار قانوني للمؤسسة:

وذلك في كل بلد تَشرع بالعمل فيه، وتكون مهمته ضمان سلامة الوضع القانوني للمؤسسة، والإجابة عن الاستشارات القانونية التي ترد عليه، وتقديم دورات قانونية متخصصة لمن يحتاج من موظفي المؤسسة.

(٣) وضع دليل بالإجراءات اللازمة:

وهي الإجراءات التي يلزم اتخاذها أو مراعاتها قبل الشروع في تنفيذ عمل ما، مع أهمية المراجعة لهذه الإجراءات، نظرًا للتغيرات القانونية والإدارية التي تحصل في كثير من البلدان بين فينة وأخرى.

(٤) القيام بتنفيذ الجوانب القانونية الرئيسة، والتي تتمثل فيما يأتي:

أ - وضع نظام أساسي للمؤسسة يتضمن هوية المؤسسة ورسالتها في البلد الذي تعمل فيه، والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها، والأنظمة واللوائح التي توضح طريقة عملها وإدارتها، مع بيان الهيكلة الإدارية للمكتب، وصلاحيات الأمناء وأعضاء مجلس الإدارة، ونحوها من الأمور المهمة، مثل: حق المؤسسة في الاقتراض أو الاستثمار.. ونحو ذلك.

ب - أهمية أن تبقى الأنشطة التي تقيمها المؤسسة في بلد ما متوافقة مع نوع الترخيص الذي تحمله؛ وذلك تلافيًا للاستشكالات التي قد يطرحها عدم قانونية الأنشطة الخارجة عن نطاق الترخيص.

ج - التأكد من صلاحية الإدارة المالية لمكاتب المؤسسة، وتحقيقها الحد الأدنى من متطلبات القانون؛ وذلك لكي تتأكد المؤسسة من تحقيق ضبط مالي، وانضباط قانوني لا يعرضها للمساءلة.

د - كتابة عقود عمل مع العاملين في المؤسسة؛ تكون متوافقة مع المتطلبات الدنيا لطبيعة العقود التي تنص عليها جهات الاختصاص في كل بلد. وتبرز أهمية هذه العقود في كونها من المتطلبات القانونية للمؤسسة، وأنها مرجع التحاكم عند حصول مشكلات مع الموظفين.

هـ - القيام بتوصيف وظائف العاملين في المؤسسة من الناحية الإدارية.

و - القيام بتسجيل المؤسسة في مصلحة الضرائب والتأمين الاجتماعي؛ إذ إن الإعفاءات الضريبية - الممنوحة للمؤسسات الخيرية - لا تشمل في كثير من البلدان الضرائب على رواتب الموظفين والتأمينات الاجتماعية.

(٥) مراعاة العلاقة القانونية والمحاسبية بين المركز الرئيس والمكاتب الفرعية:

وذلك لأن طبيعة العلاقة بينهما تختلف بحسب نوع الترخيص، والنظام الأساس للفرع. ويجب على إدارة المكاتب الفرعية مراعاة القضايا التي تهتم بها الجهة المشرفة على المؤسسات الخيرية في بلد المركز الرئيس.

(٦) الحرص على تعيين الموظفين - وبخاصة إذا كانوا من غير أهل البلد - بناءً على الأنظمة السائدة في البلد:

فعلى المؤسسات الخيرية تجنب تعيين أي موظف - وخاصة في المناصب القيادية - مخالفًا لهذه الأنظمة؛ مع الحرص على الالتزام بقوانين الإقامة والتنقل لهم.

(٧) يجب الحرص على عدم التداخل بين العمل الخيري بأبوابه المختلفة والأنشطة السياسية؛ لأن ذلك قد يسبب - في العاجل أو الآجل - إشكالات قانونية تؤثر على العمل الخيري.

ويدخل في هذا السياق تعيين موظفين - خاصة في الإدارة العليا - لهم أنشطة سياسية أو ينتمون لأحزاب سياسية.

(٨) التقويم المستمر للانضباط القانوني في المؤسسة.



تاسعًا: الانضباط المالي في المؤسسات الخيرية:

المال عصب الحياة وشريان العمل، وقوام المؤسسات الخيرية. كما أنه أمانة كبيرة في أيدي القائمين على المؤسسة والعاملين فيها كل بحسبه، كما أن الانضباط المالي في أي مؤسسة رمز لقوتها وسلامتها؛ فاقتضى ذلك كله الدقة والضبط المالي للمؤسسة في جميع الجوانب المالية؛ من جمعٍ واستثمار وصرف.

ويتأكد هذا لأمرين:

١ - أن حفظ المال وحسن التصرف فيه بدقة وضبط هو مقتضى أداء الأمانة التي أمر الله - عز وجل - الناس بأدائها، وأوجبَ عليهم وضعَها في مواضعها الشرعية.

٢ - أن في ذلك رعايةً للأمانة التي وكَّلهم المحسنون على أدائها، وأمروهم بصرفها في مصارفها الشرعية.

ولذا فإن من الضروري أن تضع المؤسسات الخيرية ضوابط محكمة تنظم القواعد المالية الداخلية، وترتب العلاقات المالية؛ سواء كان ذلك بين مكتب المؤسسة الرئيس والفروع المختلفة، أم بين الفروع والعاملين فيها والمتعاملين معها.

ومن التنبيهات المهمة في هذا المقام:

١ - لا بد من اتباع نظام محاسبي دقيق وواضح في كل بلد للمؤسسة فيه عمل، مع توفير كل الإمكانات البشرية والتقنية لإنجاحه، كما يفضَّل أن يكون ذلك النظام متسقًا مع الأنظمة المحاسبية المتبعة في كل بلد، وأن يوجد محاسب قانوني لكل مكتب من مكاتب المؤسسة.

٢ - يجب الالتزام بالأنظمة والقوانين المالية السائدة في البلد الذي تعمل فيه المؤسسة - ما لم تكن حرامًا -، سواء في الحوالات المالية أو صرف العملات ، أو الإنفاق على المشاريع، أو البيع أو الشراء.. ونحوها. مع ضرورة الوضوح التام في هذه المعاملات، والحرص الشديد على تدوينها وضبطها، وحفظ الوثائق والمستندات المتعلقة بها.

وفي الدول التي تُلزِم المؤسسات الخيرية برفع تقارير مالية دورية يجب الالتزام بذلك، والتعامل مع الجهات المسئولة بدقة وشفافية.

٣ - ينبغي السعي الجاد للوصول إلى الاستقلالية المالية للمؤسسات الإسلامية؛ من خلال الأوقاف الخيرية والاستثمارات التجارية، فهذا أضمن في قوتها واستمرار أنشطتها(١٧).

وهناك عدد من الضوابط لهذا الجانب يلزم مراعاتها:

أ - أن يتولى إدارة المشاريع الاستثمارية ومتابعتها مَنْ جمع بين صفتي الخبرة والأمانة؛ تحقيقًا لقول المولى - جلَّ وعلا -: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ب - أن يتولى القرارَ الاستثماري فريقٌ من أهل الخبرة والاختصاص، وتجنُّب القرارات الفردية المتسرعة.

ج - استفراغ الجهد في إعداد الدراسات الاستثمارية، مع الحرص على الاستثمارات المأمونة تجاريًّا وذات العائد الربحي الأكبر، والبعد ما أمكن عن جوانب المخاطرة.

د - الابتعاد تمامًا عن الاستثمارات التي قد يختلط فيها الحلال بالحرام، والتورع عن مواطن الشبهات، مع التنبه إلى المسائل الدقيقة في المعاملات التجارية.

هـ - تقييم الاستثمارات التجارية سنويًّا؛ للنظر في مناسبة الاستمرار فيها من عدمه.

٤ - الحرص على التخطيط المالي، ووضع موازنات سنوية دقيقة للمكاتب الفرعية والمشروعات والأنشطة.

---

(١٧) من أهم الدراسات العلمية التي اطلعت عليها في دراسة الوقف وأهميته، كتاب: (أثر الوقف على الدعوة إلى الله تعالى)، تأليف: خالد بن هدوب المهيدب، وهو رسالة علمية حصل كاتبها على درجة الماجستير.

٥ - يشرف على إعداد ومراجعة الموازنات والخطط المالية أهل القدرة والخبرة؛ حيث إن من الأخطاء الشائعة أن بعض مؤسساتنا الإسلامية قد تكلف بذلك بعض الدعاة ممن لا يدركون كثيرًا من الفنون المحاسبية؛ فيحدث الخلط والاضطراب.

٦ - يتهاون بعض الموظفين - من حيث لا يشعر أحيانًا - في صرف الأموال الخيرية على الأنشطة والمشاريع، ويحدث هدر غير متزن أحيانًا، بحجة أنها لم تصرف إلا في الخير! وهذا خطأ ظاهر، ومقتضى الأمانة يُلزمنا بصرف أقل التكاليف المالية المتيسرة لتحقيق أعلى المصالح الشرعية الممكنة(١٨).

التوصيات

يقوم العمل الخيري على قطاع حيوي من قطاعات الدعوة الإسلامية المباركة، وتقدم المؤسسات الخيرية بمختلف تخصصاتها جهودًا متميزة تستحق الإشادة والتقدير. وأختم هذه الورقة بذكر بعض التوصيات:

١ - مستجدات المسائل الشرعية التي تطرأ على العمل الدعوي الخيري - خاصة في بُعده الخارجي - كثيرة جدًّا، وأوصي طلاب الدراسات العليا في قسمي الفقه والدعوة باستقرائها وبحثها وتأصيلها.

٢ - العمل الخيري والتطوعي عِلْم من العلوم الدعوية المهمة التي لم تأخذ حظها من الدراسة والبحث، وهو جدير بأن تخصص له كلية أو معهد، ويمكن أن يُبدَأ بقسم في إحدى كليات الدعوة أو العلوم الاجتماعية، ثم ينمو تدريجيًّا.

وإلى أن يتحقق ذلك أوصي كليات الدعوة وأقسام الثقافة الإسلامية بإضافة مواد خاصة في أصول العمل الخيري ومهاراته.

٣ - ينبغي على كل مؤسسة من مؤسسات العمل الخيري مراجعة لوائحها الإدارية وأطرها التنظيمية، وأدائها الوظيفي، بواسطة مؤسسة من مؤسسات التطوير الإداري المتخصصة، أو خبير من خبراء الإدارة.

٤ - العمل الخيري يحتاج إلى غطاء إعلامي يُبرز إنجازاته المشرقة، ويدفع الشبهات والأوهام التي قد يثيرها بعض المبطلين. ولئن قصرت المؤسسات الخيرية في لغتها الإعلامية في وقت سابق، فإنني أوصي بضرورة تصحيح الوضع وإعطاء الإعلام عناية خاصة.

٥ - لكثير من المؤسسات الإسلامية الخيرية تجارب وخبرات مهمة تراكمت خلال أكثر من عقدين من الزمان، ومن المهم جدًّا حث تلك المؤسسات على تدوين تجربتها في العمل الدعوي الخيري؛ من أجل استثمار تلك التجارب وتوظيفها من المؤسسات الناشئة أو الأفراد العاملين في القطاع نفسه.

٦ - تكوين مجلس للتنسيق بين المؤسسات الخيرية، من أهدافه: تحقيق أواصر الأخوة والتعاون على البر والتقوى، وتبادل الخبرات، والتشاور، وتنسيق البرامج.

٧ - تأسيس مؤسسة دعوية تُعنَى برعاية طلاب المِنَح خصوصًا، وتقدم لهم الخبرات والبرامج الخادمة للعمل الدعوي الخيري، والتي قد لا يتضمنها منهج الدراسة الجامعية، من أجل الارتقاء بآفاقهم الخيرية والدعوية.

٨ - تأسيس إدارة قانونية أو تعيين مستشار قانوني في كل مؤسسة خيرية من أجل ضبط عمل المؤسسة، والتأكد من التزامه بالقوانين المنظمة للعمل الخيري.

وختامًا:

أسأل الله - عز وجل - أن يستعملنا جميعًا في طاعته، وأن يجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشر.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١٨) من المراجع المفيدة في هذا الموضوع: كتاب (دور مجلس إدارة المنظمة غير الربحية في وضع وتنفيذ السياسات المالية)، تأليف: هيرنتجتون ج. برايس، ترجمة: سعاد الطنبولي. وكتاب (لجنة مراجعة الحسابات: مدخل للمساءلة المالية في المنظمات غير الربحية)، تأليف: ساندرال. جونسون، ترجمة: حسني تمام.





معلومات إضافية

مؤسسة الحرمين الخيرية

من أشهر المؤسسات الخيرية الإسلامية السعودية، تم تأسيسها في مدينة كراتشي الباكستانية عام ١٩٨٨م، ومقر مكتبها الرئيس في العاصمة السعودية الرياض وتأسس عام ١٩٩١م، وكانت تملك مجموعة من المكاتب الفرعية في أنحاء العالم بلغت حوالي ٤٥ مكتبًا فرعيًا، إضافة إلى مواقع عمل ومندوبين في حوالي ٧٠ دولة.

كان أكثر تواجدها في مناطق الكوارث والمجاعات والفقر والجهل، وقد ساهمت بنجاح، مثل غيرها من المنظمات الإسلامية الخيرية، في أزمات أفغانستان وكشمير، والشيشان وكوسوفا، والبوسنة والهرسك وغيرها.

من أنشطة المؤسسة:

ذكر تقرير أمريكي سنوي أن أنشطة الحرمين كانت: «طبع ١٣ مليون كتاب إسلامي، وتدشين ستة مواقع على الإنترنت، وتوظيف ٣٠٠٠ داعية، وتأسيس ١١١٠ مساجد ومدارس ومراكز إسلامية ثقافية، وتوجيه أكثر من ٣٥٠ ألف رسالة تدعو لاعتناق الإسلام».

اتهامات بالإرهاب:

قال تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر: إن «مؤسسة الحرمين الإسلامية هو واحدة من أهم وأبرز المؤسسات الخيرية السعودية، وقد ظلت هذه المؤسسة تحت مراقبة الحكومة الأمريكية كجهة محتملة لتمويل الإرهاب منذ منتصف عقد التسعينات».

تعرضت بعض المكاتب الفرعية للمؤسسة لاتهامات بتمويل الإرهاب، وأُقفلت تلك الفروع مثل فرعي الحرمين في البوسنة والصومال عام ٢٠٠٢م، تم تجميد أربعة فروع أخرى في كل من إندونيسيا وكينيا، وتنزانيا وباكستان عام ٢٠٠٤م، وفي العام نفسه تم تصنيف خمسة مكاتب فرعية أخرى للمؤسسة في أفغانستان وألبانيا، وبنجلاديش وإثيوبيا وهولندا.

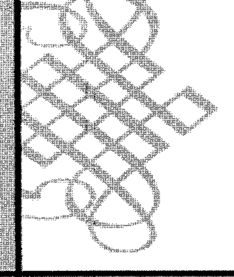
وفي فبراير ٢٠٠٤م أعلنت وزارة المالية الأمريكية عن ضم فرع مؤسسة الحرمين السعودية في الولايات المتحدة، ومديرها بالولايات المتحدة «سليمان البطحي» إلى قائمة «الإرهابيين»، بالإضافة إلى فرع المؤسسة في اتحاد جزر القمر.

وفي أكتوبر ٢٠٠٤م، أعلنت وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف في السعودية حل مؤسسة الحرمين الخيرية، وطلبت من إدارة المؤسسة إغلاق المقار، وتسريح جميع الموظفين. وتم توكيل الهيئة السعودية الأهلية للإغاثة والأعمال الخيرية بتولي القيام بنشاطات مؤسسة الحرمين في الخارج.

إسقاط الاتهامات:

في ٨ سبتمبر عام ٢٠٠٥م حكم قاضٍ من المحكمة الفيدرالية بولاية أوريجون الأمريكية بإسقاط





شـامل لجميـع التهم الموجهة إلى مكتب مؤسسـة الحرمـين الخيرية بمدينة آشـلاند، في ولاية أوريجون بالولايات المتحدة، وعدم أحقية الحكومة في رفع القضية مستقبلاً بنفس التهم.

المصادر:

ضحايا بريئة للحرب العالمية على الإرهاب، د. محمد بن عبد الله السلومي، البيان، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

صحيفة «الوطن» السعودية، العدد (١٤٦٨)، ٢٢ شعبان ١٤٢٥هـ - ٦ أكتوبر ٢٠٠٤م، انظر الرابط:

first_page/first_page09.htm/06-10-http://www.alwatan.com.sa/daily/2004

المكتب الدولي للجمعيات الإنسانية والخيرية HBI

- تأسس المكتب الدولي للجمعيات الإنسانية والخيرية في باريس، بهدف وقف الهجوم على المؤسسات والجمعيات الإنسـانية التي اتهمتها الإدارة الأمريكية بتمويل «الإرهاب»، وهو الأمر الذي أدى إلى نتائج كارثية على عمليات الإغاثة في إفريقيا وآسيا.

- يجمع «المكتب الدولي للجمعيات الإنسـانية والخيرية» بين المنظمات غير الحكومية الإنسـانية -من ألـوان وتيـارات، ومدارس مختلفـة ومتباينة- الراغبة في العمـل التعاوني والتضامني للتعريف بنفسـها، ومثيلاتها على الصعيد العالمي؛ ولتأكيد الدور الإنساني الذي تقوم به هذه المؤسسات، والقيام بما يلزم لحمايتها، وضمان اسـتمرار المساعدات الإنسـانية للمحتاجين، والمساعدة على شفافية موارد ومصارف هذه المساعدات.

- يعمـل المكتـب اليوم من جنيف وباريس، وله قاعدة هامـة في دول مجلس التعاون الخليجي، ويتمتع باعتراف دولي كبير.

- نجـح المكتـب مـع المنظمـات العضو فيه في رفـع تهمة «الإرهـاب» عن عدد مـن الجمعيات الخيرية الإسلامية، التي عادت لتمارس نشاطها بشكل طبيعي في أوروبا وأحيانًا في الولايات المتحدة.

دور «المكتب الدولي للجمعيات الإنسانية والخيرية»:

بناء تجمع دولي معروف، عالمي النهج والتكوين، وترسيخ ذلك بكل الطرق القانونية والإعلامية.

بناء علاقات جيدة مع الأمم المتحدة، ودول الاتحاد الأوربي والمفوضية الأوربية، وممثلي هذه الدول في المؤسسات الدولية، وطلب الدعم المعنوي والقانوني والمادي منها.

ترسيخ علاقات واسعة مع الإعلام.
السعي للحصول على دعم المنظمات غير الحكومية للمكتب.
جمع عدد من المحامين حول المكتب، ولخدمة أهدافه.

إصـدار تعريـف دوري يوزع على مكاتب الأمـم المتحدة، والدول الكبرى بما تقوم به المؤسسـات من أعمال إنسانية؛ ترسيخًا لدورها، وعملاً بمزيد من الشفافية.

دعوة ممثلي الدول التي لا تحبذ عمل هذه المؤسسات لاستكشاف هذا العالم عن قرب.
إصدار نشرة دورية تعرِّف بالمكتسبات والمعاناة التي تعرضت لها المؤسسات.



إبـلاغ الاحتجاجات للدول ولممثليها وللهيئات الدولية في حال تعرض أعمال المؤسســات غير الحكومية للمضايقات.

الاتفـاق مــع المؤسســات على طرق التعريـف بالمناطق المحتاجة للعمل الإنســاني، أو تلقــي التعريف بها والاقتراحات، وإبلاغ ذلك للمؤسسات العاملة.

مطالبة الدول الكبرى ومؤسســاتها ببذل العون للمجتمعات وللمؤسســات العاملة في المناطق المتضررة. وهنا يتم جانب من التنسيق الدولي وصناعة جو تعاون غير حكومي.

يظهر المكتب للحكومات وللشـعوب فائدة المؤسســات غير الحكومية في التخفيف من مآســي الفقر والمرض والجهل في بلادهم.

المصدر:

الموقع الإلكتروني للمكتب الدولي للجمعيات الإنسانية والخيرية (IBH)

http://www.humanitarianibh.net

جمعية أصدقاء المؤسسات الخيرية. FOCA:

هيئة خاصة غير حكومية مقرها العاصمة الأمريكية واشنطن، لا تستهدف الربح، تسعى إلى تكوين شـخصية تتعامـل مع الحكومات والرأي العام الغربي، وقد سـجلت رسميًـا في الكونجرس الأمريكي كجماعة ضغط (Lobby) في منتصف شهر يناير من عام ٢٠٠٤م.

المؤسسون:

رابطة العالم الإسلامي.

الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية.

المنتدى الإسلامي – بريطانيا.

مؤسسة مكة المكرمة.

الأهداف:

توضيح دور العمل الخيري الإسلامي، وأهميته على الساحة العالمية.

الدفاع عن المؤسســات والجمعيــات الخيرية، ورصد ومتابعة كل ما يثار حولها من شـبهات ومغالطات والرد عليها.

إقامة علاقات حسنة مع جميع الجهات الحكومية والشعبية.

الفئات المستهدفة:

تستهدف الجمعية مراكز اتخاذ القرار، والجهات المناوئة للأعمال الخيرية، ووسائل الإعلام، ومراكز

الدراسات الفكرية، والمنظمات غير الحكومية، والجهات المتضررة من تحجيم العمل الخيري، والمنظمات الدولية، والسفارات الغربية في العالم الإسلامي، والعاملين في المجال الخيري، والرأي العام.

من أهم أعمال الجمعية:

شاركت «FOCA» مع ٤٠ من الجمعيات والمؤسسات والمنظمات الخيرية الأخرى في إنشاء «مجموعة عمل» تكون ملتزمة بإحداث تغيير في القوانين والتشريعات التي تؤثر على المؤسسات الخيرية، وتسليط الضوء على الأضرار التي لحقت بالمؤسسات الخيرية الإسلامية من جراء هذه القوانين والسياسات.

السعي للحصول على تأييد أعضاء وموظفين في الكونجرس؛ حيث ساعدت «FOCA» في وضع استراتيجية لكسب التأييد، وذلك بالتنسيق مع مجموعة العمل وغيرها من المنظمات الأوربية والأمريكية.

متابعة التشريعات والنشاطات الأخرى في الكونجرس والتي تهم «FOCA»، وتزويد الأعضاء بالجديد منها.

تقديم تعليقات وتوضيحات إلى وزارة الخزانة الأمريكية نيابة عن جمعية أصدقاء المؤسسات الخيرية.

الاتصال بالمؤسسات الحكومية فيما يخص المواضيع التي تهم «FOCA» وأعضائها.

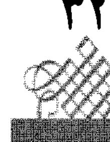
تحليل سياسات الحكومة الأمريكية، ومواقفها من المسائل التي تؤثر على أعضاء «FOCA».

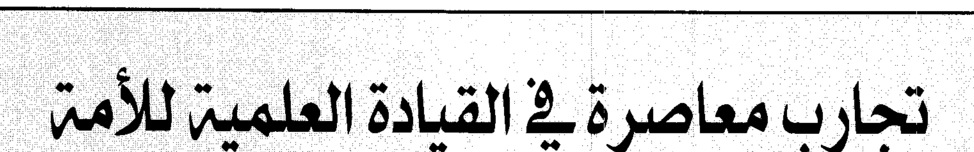
متابعة وسائل الإعلام؛ بحثًا عن الموضوعات التي تؤثر على المؤسسات الأعضاء في «FOCA». والسعي لتقديم التصحيحات اللازمة، كلما كان ذلك ضروريًّا.

البحث عن الادعاءات التي تتعلق بالمؤسسات الأعضاء في «FOCA»، وتقديم التفنيدات.

المصدر:

الموقع الإلكتروني لجمعية أصدقاء المؤسسات الخيرية http://www.foca.net/AR





تجارب معاصرة في القيادة العلمية للأمة

د. عبد الحي يوسف

(أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم، السودان)

ملخص البحث

حين تفتقد الأمة لقيادات حقيقية ورموز علمية يظهر الخلل، وينحسر دور العلماء اجتماعيًا وسياسيًا؛ ليقتصر في الغالب على أوساطِ المتديِّنين.

ولأسباب سياسية كثيرة كقِلة الوعي بضرورة الإصلاح السياسي، والتغيير الاجتماعي الواسِع، وعَدم استِقلالية بعضِ العلماء، ووُقوعهم في طَرَيْ الموافَقة أو المعارَضة السياسية -تفتقد الأمة القدرة على إفراز قيادات علمية حقيقية.

ومثَّل غِياب التخطيطِ العِلمي والاستراتيجي في العملِ العلمي والدعوي، فضلاً عن بُعْد العلماء عن مواقعِ التأثير الإعلامي والاجتماعي اثنين من أهم الأسباب الإدارية لعدم إفراز الأمة لتلك القيادات.

ومن خلال نماذج علمية معاصرة من أمثال «ابن باديس»، و«الشيخ طاهر بن عاشور»، و«الأمير محمد الخطابي» و«عمر المختار» وغيرهم يبرز أثر الأسرة التي تُعْنَى بالعِلم، وقيمة القدوة، وصحبة العلماء، والانتفاع بالمركز الاجتماعي للأسرة، فضلاً عن الوعي الجامع بين العلوم الشرعية والثقافة العصرية، في تكوين شخصيات العلماء والقادة العلميين ونجاح مشاريعهم.

ونتج عن غِياب القيادات العِلمية في إدارةِ مجتمعاتِنا المسلمة أن ملأ هذا الفراغَ قياداتٌ ليس لها كفاءة عِلمية ولا إدارية، وليس لها قَبول اجتِماعي، كما تَنقُصُها الأمانة في بعضِ الأحيان، وهذا مُشاهَد في كثيرٍ من الدول الإسلامية.

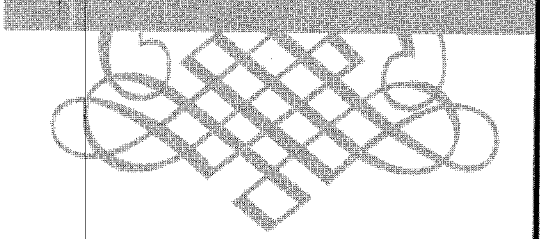
كما أحدثَ غِيابُ هذه القيادات هُوَّةً حالَت بين العلماءِ وبين قيادةِ المجتمع وإدارةِ مؤسَّساته.

إنَّ تقصيرَ العلماءِ في بناء مؤسَّساتِ المجتمَع سياسيًا وتعليمِيًّا واجتماعِيًّا على العِلمِ والإصلاح؛ جعلَ منهَجَ العلماء يكتفي غالِبًا بِرُدُود الأفعال، وما يُشْبِهُ سِياسة إطفاء الحرائق.

ومن الأهمية بمكان تبني الأمة لآليات واضحة تمكِّنها من صناعة الرموز العلمية الحقيقية من خلال: حسن اختيار من يُرَشَّحُ ليكون من القيادات العلمية؛ ليكون رحمةً لأُمَّتِه، بجانب وضع معايير عِلمية وأخلاقية لهذا الاختيار؛ حتى لا يُرَشَّحُ مَن ليس له إلا حُبّ الذات، وإنْ كان ذكيًّا نابِغًا؛ فيكون مشرُوعَ فِتنة للناسِ.

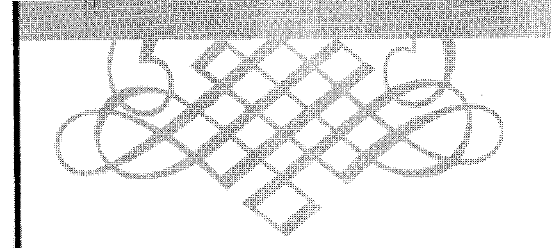
وتمثل إقامة دوراتٍ مُكثَّفة للقياداتِ في الإدارة والإعلام والعلوم المعاصرة، والدعوة لإقامةِ مؤسَّسةٍ خاصةٍ بتكوينِ القياداتِ الإسلامية -خطوتين هامتين على طريق صناعة الرموز العلمية.





أفكار ومقتطفات

- لا خيرَ أعظم من العلم والفقه في الدِّين، كما روى معاويةُ -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «مَن يُرد الله به خيرًا يُفقِّهْه في الدِّين».
- بعض الدُّعاة لم يتخلَّصوا من أسْرِ الجماعةِ والعملِ التنظيمي، كما أنَّ بعضَ العلماء يقصرون اهتمامهم على قلةٍ من الطلبة، ولا يَسْعَوْن إلى نَشرِ نُورِ العلمِ بين عامة الناس، مُستَفيدِين من سَعَةِ مؤسَّساتِ الدولة وفئاتِ المجتمَع وشدةِ حاجةِ الناس.
- لو توفَّرَ التخطيطُ العِلمي والتربوي؛ لكان مِن أهمِّ الأهدافِ الموضُوعة والمصالِح المرجُوَّة: إعدادُ قياداتٍ عِلميةٍ تنهضُ بالمجتمعاتِ المسلِمة على بَصِيرةٍ ووِفْقَ خُطَّةٍ عِلْمِيةٍ واضِحة.
- تلقَّى ابنُ باديس العلومَ الإسلامية على جماعةٍ من أكابر علماء الزيتونة، أمثال: العلامة محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ في التكوين اللغوي لعبد الحميد بن باديس، والشغف بالأدب العربي.
- جعلَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- الدعوةَ الإسلاميةَ قائمةً على أساسِ التربيةِ والتعليم، وعدَّ (الهدى والعِلمَ) غيثًا نافِعًا يُحيي القُلوبَ والعُقولَ.
- عمل عبد الحميد بن باديس -رَحِمَه الله- على نَشْر التعليم الإسلامي في الجزائر؛ حتى ختَمَ تفسير القرآنِ بالجامع الأخضر بقُسَنْطِينَة بعد خمسة وعشرين عامًا، فاحتفلت الجزائر بختم هذا التفسير في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٥٧هـ (١٢ من يونيو ١٩٣٨م).
- ابنَ عاشُور -رَحِمَه الله- دخلَ بابَ الإصلاح من بابِه الكبير: وهو باب التعليم؛ فالتعليم قَمِينٌ بتَصحِيحِ المفاهِيم وغرسِ القِيَم الإسلامية، وإعدادِ قياداتِ المستقبَل؛ فإذا صلُحَ التعليمُ تحقَّقت النهضةُ العلمية والتنميةُ الاجتماعية.
- يقول غراسياني Graziani القائد العام الإيطالي في بيان له عن الوقائع التي نشبت بين جنوده والسيد عمر المختار: «إنها كانت ٢٦٣ معركة في خلال عشرين شهرًا»، هذا عدا ما خاضه المختار من المعارك في خلال عشرين سنة قبلها.
- يُلاحَظُ في تجربةِ عُمرَ المُختار -رَحِمَه الله- دَوْرُ أُسْرَتِه الحريصة على تعليمِه في إعداده وصُحْبَتِه للعلماء؛ ليكون من أعظم قياداتِ المجتمع الليبي.
- قاد عمر المختار المجاهدين في ليبيا، ووفقه الله -عز وجل- أن يُلْحِقَ بالإيطاليين خسائرَ فادِحةً وضرباتٍ مُوجِعة، كما استطاع أن يُلْفِت أنظارَ العالم إلى قضيَّتِهم.
- يُستفاد من هذه النماذج العِلمية المعاصِرة: (ابن باديس في الجزائر، وابن عاشور في تونس، والخطابي في المغرب، وعمر المختار في ليبيا) أنه لا صلاحَ لِلفَردِ ولا لِلمُجتمعِ إلا بالتربية والتعليم، والدعوة الحكيمة وإعدادِ قادةِ المجتمع من العلماء الربانيِّين والدعاةِ الموفَّقِين.



- أدَّى غِيابُ القيادات العِلمية في إدارةِ مجتمعاتِنا المسـلمة إلى أن يُملأَ هذا الفراغُ بقياداتٍ ليس لها كفاءةٌ عِلميةٌ ولا إداريةٌ، وليس لها -في كثيرٍ من الأحيان- قَبولٌ اجتِماعي، كما تَنقُصُها الأمانةُ والورَعُ، وليس لها من بضاعة إلا الولاء الحزبي والسياسي. وهذا مُشاهَدٌ في كثيرٍ من الدولِ الإسلامية.

- تقصير بعضِ العلماءِ في بناءِ مؤسَّسـاتِ المجتمَع وإصلاحِها تعليميًّا واجتماعِيًّا وسياسـيًّا؛ جعلَ منهَجَ العلماءِ يكتفي غالبًا بِرُدُود الأفعالِ، وما يُشْبِهُ سِياسةَ إطفاءِ الحرائق، وأما السَّبقُ إلى صِناعةِ القادةِ والإصلاحِ السياسي والإعلامي وأخذُ المبادَرات الاجتماعية الإصلاحيةُ فأقلُّ من القليل.

- قالت خديجةُ -رضي الله عنها- تُثْني على أنواع الخدماتِ الاجتماعية التي كان يُقدِّمُها النبيُّ -صلى الله عليه وسـلم- إلى الناسِ قبل الإسـلام: (كلا والله ما يُخْزيك الله أبدًا؛ إنك لَتَصِلُ الرَّحِـمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِـبُ المعدُوم، وتَقْري الضَّيـفَ، وتُعِينُ على نَوائب الحق)! رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. حديث ٣، وأطرافه: (٣٢١٢، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢ - ٤٦٧٤، ٦٥٨١).

تجارب معاصرة في القيادة العلمية للأمة

د. عبد الحي يوسف : أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم، السودان

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه الطيِّبين الطاهرين، ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

وبعـد، فإنَّ العلماءَ هم الجماعةُ والأُمَّةُ الوَسَـطُ والطائفةُ المنصُورة، كمـا تَرْجَمَ البُخَارِيُّ رَحِمه الله في كتابِ (الاعتصام بالكتاب والسُّـنَّة)، باب: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾[1] وما أمَرَ النبيُّ -صلى الله عليه وسـلم- بِلُزُومِ الجماعة، وهم أهلُ العِلْم). وروى رحمه الله في باب: (قول النبيِّ -صلى الله عليه وسـلم-: (لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ظاهِرِين على الحق) وهم أهلُ العِلم) عن المغيرة بن شُـعبة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيَهم أمر الله وهم ظاهرون).[2]

فـلا خـيرَ أعظم من العلمِ والفقهِ في الدِّين، كما روى مُعاويةُ -رضي الله عنه- قال: سمعت النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يقول: (مَن يُرِد الله به خيرًا يُفقِّهْه في الدِّين).[3] وروى عبدُ الله بن مَسعُود قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا حَسَدَ إلا في اثنَتَيْن: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحق، وآخَرُ آتاه الله حِكمة، فهو يقضي بها ويُعلِّمها).[4]

وقد بيَّنَ النبيُّ -صلى الله عليه وسـلم- أنَّ بقاءَ العِلْمِ ببقاءِ العُلماءِ وذَهابَه بِذَهابِهم، كما روى البُخَارِيُّ --رَحِمَه الله-- في كتابِ (العِلْم) باب (كيف يُقبَضُ العِلم؟) أنَّ عمرَ بن عبد العزيز كتبَ إلى أَبِي بَكْر بـن حَـزْم: (انظُـرْ مـا كان من حديثِ رسـولِ الله -صلـى الله عليه وسـلم- فاكْتُبْه؛ فإني خِفـتُ دُرُوسَ العِلمِ[5] وذَهَابَ العُلَماء)، وروى عن عبد الله بن عَمْرو -رضي الله عنهما- قال: سَمِعتُ رسـولَ الله -صلى

(١) البقرة ١٤٣.

(٢) صحيح البُخَارِيّ، حديث ٦٨٨١، (ر: ٣٤٤١)، كتاب الاعتصام.

(٣) صحيح البُخَارِيّ، حديث ٦٨٨٢ (ر: ٧١).

(٤) صحيح البُخَارِيّ، حديث ٦٨٨٦. رواه البُخَارِيّ -رَحِمَه الله- في باب: (ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ومدح النبي -صلى الله عليه وسلم- صاحب الحكمة حين يقضي بها ويعلِّمها. ولا يتكلَّف مِن قِبَلِه، ومشاورة الخلفاء وسؤالهم أهل العلم).

(٥) أي ضَياعَه.

اللّه عليه وسلم- يقول: (إنَّ اللّه لا يَقبِضُ العِلمَ انتِزاعًا يَنتَزِعُه من العِبادِ؛ ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بِقَبْضِ العُلَماءِ؛ حتى إذا لم يُبْقِ عالِمًا اتخَذَ الناسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فسُئِلُوا فأفتَوْا بِغَيرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا).[٦] ورواه كذلك في كتاب (الاعتصام بالكِتاب والسُّنَّة)، باب (ما يُذكَرُ مِن ذمِّ الرأي وتكلُّفِ القِياس (ولا تَقْفُ) لا تقُلْ (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)) عن عُروةَ -رضي اللّه عنه- قال: حجَّ علينا عبد اللّه بن عمرو فسمِعتُه يقول: سمِعتُ النبيَّ -صلى اللّه عليه وسلم- يقول: «إنَّ اللّه لا يَنزِعُ العِلمَ بعد أنْ أعْطاهُمُوه انتِزاعًا؛ ولكنْ يَنتزِعُه منهم مع قبضِ العُلماءِ بِعِلْمِهم؛ فيبقى ناسٌ جُهَّالٌ يُستَفْتَوْن؛ فيُفتُون برأيهم؛ فيَضِلُّون ويُضِلُّون».[٧] وفي لفظٍ لمسلم: «إنَّ اللّه لا ينتَزِعُ العِلمَ من الناسِ انتزاعًا؛ ولكن يقبضُ العلماء؛ فيَرفَعُ العِلمَ معهم، ويُبقي في الناسِ رؤوسًا جُهَّالا يُفتُونهم بغيرِ عِلم؛ فيَضِلُّون ويُضِلُّون»[٨]

فكيف نستفيدُ من تجارِبِ عُلمائنَا ونهتدي بها في حياتنا؟ هذا ما نُحاوِلُ بيانَه في هذه الورقة (تجارب مُعَاصِرَة في القيادة العِلْمِيَّة)، وهي تتناولُ المطالِبَ التالية:

أولاً: لماذا لا تُفرزُ الأُمَّةُ قيادةً عِلميةً حقيقيةً؟

ثانيًا: نماذج عِلمية مُعاصِرة.

ثالثًا: الأمة وإشكالات غيابِ الرُّموز العلمية.

رابعًا: الأمة وآليات صِناعة الرُّموز والقادة.

واللّه الموفِّقُ، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواهُ.

المطلب الأول: لماذا لا تُفرزُ الأمة قياداتٍ عِلميةً حقيقيةً؟

للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلى بيانِ الأسباب السياسية والأمنية من ناحية، والأسباب الإدارية والإعلامية من ناحيةٍ أخرى.

أولاً: الأسباب السياسية والأمنية:

١) المضايقاتُ الأمنيةُ التي تُسلِّطُها بعضُ الأنظمةِ الحاكمة على العامِلِين في حقلِ الدعوة والتدريس في المساجد ومَنع المنظمات الإسلامية (نموذج تونس مثلاً..)؛ مما يجعل وظيفةَ التربية والتعليم مُهِمَّةً شاقةً، كما أنَّ هذا الوَضعَ الأمنيَّ يَحْرِمُ كثيرًا من طَلبةِ العلم من الاتصالِ الوَثِيقِ بأهلِ العِلم والانتِفاع بهم.

٢) حَذَرُ كثيرٍ من العلماء وتوجُّسُهم من إثارةِ الرِّيبة والشُّكوك من حولِهم؛ أو خوفُهم من انقِطاعِ دعوتِهم إذا هم توجَّهوا إلى إعدادِ قِياداتٍ بديلةٍ للمجتمع؛ مما جعلَ تأثيرَ العلماءِ محدُودًا.

ما زال كثيرٌ من العاملين للدعوة -على سَعَةِ علمِهم الشرعي- مُتردِّدين في المساهَمة المنضبِطة في الإصلاح السياسي والتنمية الاجتماعية

٣) قِلَّةُ الوَعي بضرورةِ الإصلاحِ السياسيِّ والتغيير الاجتماعيِّ الواسِع. فما زال كثيرٌ من العامِلِين للدعوة - على سَعَةِ عِلمِهم الشرعي - مُتردِّدين في المساهَمة المنضبِطة في الإصلاحِ السياسي والتنمية الاجتماعية.

٤) الانتِماءُ الضيِّق إلى الجماعاتِ، وقِلَّةُ الهمِّ الإسلاميِّ العامِّ، والانغِلاقُ على العمل لمصلحةِ جماعةٍ مُعيَّنةٍ، فالملاحَظ أنَّ بعضَ الدُّعاة لم يتخلَّصوا من أَسْرِ الجماعةِ والعملِ التنظيمي، كما أنَّ بعضَ العلماء يقصرون اهتمامَهُم على قلةٍ من الطَّلَبة، ولا يَسْعَوْن إلى نَشرِ نُورِ العلمِ بين عامَّة الناسِ، مُستَفِيدِين من سَعَةِ مؤسَّساتِ الدَّوْلَة وفئاتِ المجتمَع وشِدَّةِ حاجةِ الناس. واللّه المستعانُ.

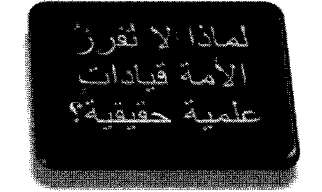
٥) عَدَمُ استِقلاليَّةِ بعضِ العُلَماء، ووُقوعُهم في طَرَفَي الموافَقة أو المعارَضة السياسية؛ فمَن وافَقَ رضِيَ وتابعَ واستغنَى غالبًا عن إقامةِ مؤسَّساتٍ تعليميةٍ واجتماعيةٍ حُرَّةٍ وفاعِلةٍ، وقَنعَ بالموجود. ومن عارضَ لم يسلَمْ له عَملٌ تغييريٌّ كبيرٌ. والحكمةُ تتمثلُ في مُراعاةِ التوازُن في الإصلاح وحُسنِ التناصُح والتعليم، وتحقيقِ المقاصِد بالرِّفق والإقناع والموعظةِ الحَسَنة.

---

(٦) صحيح البُخَارِيّ١/ ٥٠، حديث١٠٠. وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٥٨، حديث ٢٦٧٣، كتاب (العلم) باب (رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان).

(٧) صحيح البُخَارِيّ٦/ ٢٦٦٥، حديث ٦٨٧٧.

(٨) قال ابنُ حَجر -رَحِمَه اللّه-: «في هذا الحديثِ: الحَثُّ على حِفظِ العلم، والتحذيرُ من ترئيسِ الجَهَلة، وفيه: أنَّ الفتوى هي الرِّياسةُ الحقيقية، وذَمُّ مَن يُقْدِمُ عليها بغيرِ عِلم». فتح الباري١/ ١٩٥.





ثانيا: الأسْبَابُ الإداريَّة والإعلامِيَّة:

وتتمثلُ في ما يلي:

١) عَـدَم اهتمامِ كثيرٍ من العُلَماءِ الأفاضِلِ بالنواحي الإداريـة والإعلامِيَّة، وبُعْدُهم عـن مواقعِ التأثيرِ الإعلامِـيِّ والقيـادَةِ الاجتماعيـة؛ ممـا قَلَّـلَ من نُفُوذِهـم وخِبْرَتِهم الإعلامِيَّة وقُدْرتِهم الاجتماعِيَّةِ على التغيير.

٢) غِيـاب التخطيطِ العِلْميِّ والاسـتراتيجيِّ في مجالِ العمـلِ العِلْمِـيّ والدَّعَـويّ. فلـو توفَّـرَ التخطيطُ العِلْمـيُّ والتربـويُّ؛ لـكان مِـن أهـمِّ الأهـدافِ الموضوعة والمصالح المرجُوَّة: إعدادُ قياداتٍ عِلميةٍ تنهضُ بالمجتمعاتِ المُسْلِمة على بَصِيرةٍ ووفْقَ خُطَّةٍ عِلْمِيةٍ واضِحةٍ.

٣) ضَعْـف الوعـي الإداريِّ والقناعـةِ بـدورِ إعـدادِ القيـاداتِ الفِكْريَّـة والرُّمـوز العِلميَّة في إحداثِ النهضةِ السياسية والاجتماعِيَّةِ المنشُودة.

٤) قِلـةُ تعـاوُنِ العلمـاءِ وغِيـابُ فِقْـهِ التناصُـحِ بـين المؤسَّساتِ الإسلامية -على اختلافِ الجماعاتِ الدَّعويـةِ العامِلة- وعدم انتباهِهم إلى فوائدِ التنسِـيقِ فيمـا بينَهـم وثَمَـراتِ توزيـعِ الأعمـال حَسـب التَّخصُّص والكفَاءَة.

٥) عـدمُ عنايـةِ كثـيرٍ من العُلَمَـاء والدُّعـاة بتقييم تجربتِهـم العِلْمِيَّـة؛ لتصحيح الأخطـاء واجتنابِ الوقُوع فيها من جديدٍ، وقد روى أَبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْـهُ أَنَّ النبيَّ -صلى الله عليه وسـلم- قال: (لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ).(٩) وترجَمَ البُخَـاري -رَحِمَـه الله-: في كِتَـاب الأَدَبِ (بَاب (لا يُلْـدَغُ الْمُؤْمِـنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ) وَقَـالَ مُعَاوِيَةُ: لا حَكِيـمَ إِلا ذُو تَجْرِبَـةٍ)).(١٠) وقد سُـئِل أَحْمَد -رَحِمَـه الله- عـن معنى قولِ النـبيِّ -صلى الله عليـه وسـلم-: (لا يُلْـدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْـرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ)؟ فقال: «إن يَقع مَرَّةً في ذَنْبٍ لا يَعُود فيه».(١١) وقَالَ الْخَطَّابِيُّ رحمه الله: «أَيْ لِيَكُنْ الْمُؤْمِن حَازِمًا حَذِرًا لا يُؤْتَى مِنْ نَاحِيَة الْغَفْلَة فَيُخْدَع مَرَّة بَعْد أُخْرَى، وَقَدْ يَكُون ذَلِكَ فِي أَمْر الدِّين كَمَا

(٩) صحيح البُخَاريّ ١٩/٩٨، حديث ٥٦٦٨.
(١٠) صحيح البُخَاريّ ١٩/٩٧.
(١١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/٤٧.

يَكُون فِي أَمْرِ الدُّنْيَا، وَهُوَ أَوْلاهُمَا بِالْحَذَرِ».[12] وقال ابنُ حَجَر -رَحِمَه الله-: «فِيهِ تَحْذِير مِنْ التَّغْفِيل، وَإِشَارَة إِلَى اِسْتِعْمَال الْفِطْنَة». وَمَالَ أَبُو عُبَيْدٍ إلى أَنَّ مَعْنَاهُ: لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ إِذَا نُكِبَ مِنْ وَجْهٍ أَنْ يَعُود إِلَيْهِ...[13] وقِيلَ: «الْمُرَاد بِالْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الْحَدِيث: الْكَامِل الَّذِي قَدْ أَوْقَفَتْهُ مَعْرِفَتُه عَلَى غَوَامِض الأُمُور؛ حَتَّى صَارَ يَحْذَر مِمَّا سَيَقَعُ. وَأَمَّا الْمُؤْمِن الْمُغَفَّل فَقَدْ يُلْدَغ مِرَارًا».[14] وقال النَّوَوِيُّ -رَحِمَه الله-: «مَعْنَاهُ: الْمُؤْمِن الْمَمْدُوح هُوَ الْكَيِّسُ الْحَازِم الَّذِي لَا يُسْتَغْفَل؛ فَيُخْدَع مَرَّة بَعْد أُخْرَى وَلا يَفْطِن لِذَلِكَ... وَفِيهِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ نَالَهُ الضَّرَرُ مِنْ جِهَةٍ أَنْ يَتَجَنَّبهَا لِئَلاَّ يَقَعَ فِيهَا ثَانِيَةً».[15]

المطلب الثاني: نَمَاذج عِلميَّة مُعاصِرَة:

ونتناول أربعةَ نماذجَ من القياداتِ العلميةِ التي نجحَتْ في قيادةِ مجتمعِها، وتركَتْ أثرًا عظيمًا في تاريخِ الأمة وحياةِ الناس: هي نَمُوذَج الشيخ ابْن بَادِيس رئيس جمعية العُلَمَاء المسلمين بالجزائر، والشيخ ابْن عَاشُور مدير جامع الزيتونة ومفتي المالكية بتونس، ونموذج الأمير الْخَطَّابيّ الشيخ المجاهد في المغرب، والشيخ عُمَر المختار قائد المجاهدين في ليبيا.

أ) نموذج ابْن بَادِيس:

فقد وُلد الشيخ عبد الحميد بن بَادِيس -رَحِمَه الله- سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وتُوُفِّي سنة ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠م).[16]

وهو «عَبد الحَمِيد بن مُحَمَّد المصطفَى بن مَكِّيّ ابْن بَادِيس: رئيس جمعية العُلَمَاء المسلمين بالجزائر. وُلد في قسنطينة، وأتم دراسته في جامع الزيتونة بتونس، وأصدر مجلة الشِّهَاب، واشتغل بالسياسة وصَارَع الاستعمار الفرنسيّ، واضطُهِدَ وأُوذِيَ، وتوفي بقسنطينة. له تفسير القرآن الكريم».[17]

ويُلاحَظ في تجربةِ عَبد الحمِيد بْن بَادِيس -رَحِمَه الله- في الجزائر أمورٌ:

أولها: دَوْرُ الأُسرةِ التي تُعْنَى بالعِلم والدِّين في تكوينِ العُلَمَاء وتربيةِ الدُّعاة؛ وذلك بِغَرسِ محبةِ القرآن والسُّنةِ والعلوم الشرعية والآدابِ العربية في قُلوبِ الناشئة، وحُسنِ تربيتِهم، وتوفير الشروط المُساعِدة على نبوغِهم ورُسُوخِهم في العِلم؛ فقد حَفِظَ القرآنَ وهو في الثالثة عَشْرة من عُمُره، وتعلَّم مبادئ العربية والعلوم الإسلامية على يد الشيخ «أحمد أبو حمدان الونيسي» بجامع سيدي محمد النَّجَّار، ثم سافر إلى تُونس في سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وانْتَسَب إلى جامع الزيتونة؛ مما فتح له أبوابَ العِلمِ النافعِ على مِصْراعيه.

ثانيها: أثَرُ القُدْوةِ وصُحبةِ العُلَمَاء في تكوينِ القياداتِ العِلميَّة:

فَقَدْ تلقَّى ابنُ بَادِيس العلومَ الإسلامية على جماعةٍ من أكابر عُلَماء الزيتونة، أمثال: العَلَّامَة محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ في التكوين اللُّغَويّ لعَبْد الحميد بْن بَادِيس، والشَّغَف بالأدب العربي، والشيخ محمد الخضر الحسين، الذي هاجر إلى مصرَ وتولى مشيخةَ الأزهر. وبعد أربع سنوات قضاها ابْن بَادِيس في تحصيل العِلْم بكل جدّ ونَشَاط، تَخَرَّج في سنة (١٣٣٠هـ/١٩١٢م) حاملاً شهادةَ «التَّطْويع»، ثم رَحَلَ إلى الحِجَاز لأداءِ فَرِيضَة الحَجِّ، كما اتَّصل بعددٍ من علماءِ مصرَ والشام، وتَتَلْمَذ على الشيخ حسين أحمد الهِنْدِيّ الذي نَصَحَه بالعَودَة إلى الجزائرِ

---

(١٢) نقله ابن حجر في فتح الباري ١٧/ ٣٢١.

(١٣) قال ابن حجر: «وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الأَكْثَر وَمِنْهُمْ الزُّهْرِيّ رَاوِي الْخَبَر، فَأَخْرَجَ اِبْن حِبَّان مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن عَبْد الْعَزِيز قَالَ: «قِيلَ لِلزُّهْرِيّ لَمَّا قَدِمَ مِنْ عِنْدَ هِشَام بْن عَبْد الْمَلِك: مَاذَا صَنَعَ بِك؟ قَالَ: أَوْفَى عَنِّي دَيْنِي، ثُمَّ قَالَ: يَا اِبْنَ شِهَاب تَعُود تُدَان؟ قُلْت: لا. وَذَكَرَ الْحَدِيث». وقد رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء «قال سعيد بن عبد العزيز: قضى هشام عن الزهري سبعة آلاف دينار، وقال: لا تعد لمثلها تدان، فقال: يا أمير المؤمنين، حدثني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)» سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤٠.

(١٤) فتح الباري لابن حجر ١٧/ ٣٢١.

(١٥) شرح النووي على مسلم ٩/ ٣٨١.

(١٦) وفي معجم المؤلفين لعمر كحالة ٥/١٠٥: عبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ) (١٨٨٧ - ١٩٤٠ م)

(١٧) المرجع السابق.

واستِثْمار عِلْمِه في الإصلاح؛ إذ لا خير في علم لا ينفعُ الناس، فعاد إلى الجزائر، وفي طريق العودة مرَّ بالشام ومصر واتَّصل بعُلمائهما، واطَّلعَ على أوضاعِهم الاجتماعية والثقافيةِ والسياسية؛ مما وسَّعَ مَداركه وزادَ مِن وَعْيه بأساليب الإصلاح. فقَدْ انتفَعَ ابنُ بَادِيس بِصُحْبَةِ العُلَمَاء ونَصائحِهم وتجاربِهم في أعمالِه الإصلاحِيَّة.

ثالثها: قَنَاعَة ابْن بَادِيس بأنَّ الإصلاحَ يبدأ بالتربية والتعليم:

فَتِلْكَ هي الوظيفةُ التي بُعِث بها النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ووَرَّثَها من جاء بعده من المصلحِين، كما قال الله عزَّ وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[١٨] وقال جَلَّ جلاله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[١٩]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٢٠].

وقد جعلَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- الدعوةَ الإسلاميَّةَ قَائمةً على أساسِ التربيةِ والتعليم، وعدَّ (الهُدى والعِلمَ) غيثًا نافِعًا يُحيي القُلوبَ والعُقولَ، كما روى البُخاريّ ومُسلِم عَنْ أَبِي مُوسَى -رضي الله عنه- عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْم كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِير أَصَابَ أَرْضًا: فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ[٢١] فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِير، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».[٢٢]

فَقَدْ عَمِل عَبد الحميد بْن بَادِيس -رَحِمَه الله- على نَشْرِ التعليم الإسلاميّ في الجزائر؛ حتى ختَمَ تفسيرَ القرآنِ بالجامع الأخضر بقُسَنْطِينَة بعد خمسة وعشرين عامًا، فاحتفَلَت الجزائر بخَتْمِ هذا التفسير في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٥٧هـ (١٢ من يونيو ١٩٣٨م).

رابعها: دَعْوَتُه إلى العودةِ بالإسلام إلى مَنابعه الأولى، وتطهير العقائدِ والأفكارِ من الأوهام والأباطيلِ التي علقت بها، ومُحارَبة الفِرَقِ الضَّالَّة التي نشَرتِ الخُرَافَات وأعانت المسْتَعْمِر. وهذا مِن توفيقِ الله عزَّ وَجَلَّ لابْن بَادِيس؛ فالإصلاحُ لا يَتَحقَّق إلا بالحِكمةِ والموعظةِ الحسَنَة، كما قال عزَّ وجل: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.[٢٣] ورَحِمَ الله السَّعْديَّ حَيْثُ قال: «كمالُ العبدِ مُتوَقِّفٌ على الحكمَةِ؛ إذْ كَمالُه بتكميلِ قُوَّتَيْه: العِلْمية والعَمَلية.. وبذلك يتمكَّنُ من الإصابةِ بالقَولِ والعَملِ وتَنزيلِ الأمُور مَنازِلَها في نَفسِه وفي غيرِه، وبدون ذلك لا يُمْكِنُه ذلك».[٢٤]

خامسها: عِنايتُه بتربيةِ الشباب وتعليمِهم؛ حيث لم يقتَصِرْ على تعليمِ الكِبار، بل عَمَدَ ابنُ باديس -رَحِمَه الله- إلى تعليمِ الصِّغار بعد خُرُوجِهم من كتاتيبِهم. ثم أسَّسَ بعد بِضْعِ سنواتٍ مع جماعةٍ من أصحابه مَكْتَبًا للتعليم الابتدائي في مسجد سيدي بُومعزَة، ثم انتَقَل إلى مَبْنى الجمْعِيَّة الخيرية الإسلاميَّة التي تأسست سنة (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ثم تطوَّر المكتبُ إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم

(١٨) الجمعة ٢.

(١٩) البقرة ١٥١.

(٢٠) آل عمران ١٦٤. وقال الخليل عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. البقرة ١٢٩.

(٢١) وفي روايةٍ لمسلم: (فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ)، صحيح مسلم ١١/٣٩٥، حديث ٤٢٣٢، كتاب الفَضَائِل، باب (بَيَان مَثَل مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْم).

(٢٢) رواه البُخاريّ في كتاب العلم.. باب (فضل من عَلِمَ وعَلَّمَ). فتح الباري ١/٢٣٦. حديث ٧٧.

(٢٣) البقرة ٢٦٩.

(٢٤) تيسير الكريم الرحمن لعبد الرحمن السعدي، ص ١١٥.

الإسلامية التي أُنشئت في (رمضان ١٣٤٩هـ/١٩٣١م) وتكونت هذه الجمعية من عشرة أعضاء برئاسة الشيخ عَبْد الحميد بْن بَادِيس[٢٥]، رَحِمَه الله تَعَالى.

ب) نموذج ابن عاشور -رَحِمَه الله-:

وُلِدَ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بتونس سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، وتوفي سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

وهو «محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المُفْتين المالِكِيِّين بتُونُس، وشيخ جامع الزيتونة وفُرُوعه بتُونس، مَولِدُه ووفَاتُه ودِرَاسَتُه بها. عُيِّن (عام ١٩٣٢م) شيخًا للإسلام مَالِكيًّا.

وهو من أعضاء المجمَعَيْن العربِيَّيْن في دمشق والقاهرة. له مُصنَّفاتٌ مطبوعة، من أشهرها: (مَقَاصِد الشَّرِيعَة الإسلاميَّة) و(أُصُول النِّظَام الاجتماعِيّ في الإسلام) و(التَّحْرِير والتَّنْوِير) في تفسير القرآن، و(الوقف وآثاره في الإسلام) و(أصول الإنْشَاء والخَطَابَة) و(مُوجَز البلاغة) ومما عُنيَ بتحقيقه ونشره (ديوان بَشَّار بن بُرْد) أربعة أجزاء، وكتَبَ كثيرًا في المجلات، وهو وَالِدُ محمد الفاضل ابن عاشور».[٢٦]

ويُلاحَظ في تجربة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رَحِمَه الله- ما يلي:

أولاً: أثرُ الأسرة العلمية العريقة في نشأته ونبوغه، وقد سبقَت هذه الملاحَظَة في نموذج ابْن بَادِيس -رَحِمَه الله-؛ فالأسرةُ هي المحضَن التربويُّ الأولُ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾.[٢٧] وقد قال ابنُ عاشور -رَحِمَه الله- في تفسير قولِ الله عزَّ وجل في مريم -عليها السلام-: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾:[٢٨] «المرادُ بالقانِتِينَ: المكثِرُون من العبادة. والمعنى: أنها كانت سَلِيلةَ قوم صَالحِين، أي: فجاءت على طريقةِ أُصُولها في الخيرِ والعَفاف!

وَهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ!».[٢٩]

ثانيًا: نلاحِظُ أنَّ ابنَ عاشُور -رَحِمَه الله- دخَلَ بابَ الإصلاح من بابِه الكبير: وهو باب التعليم؛ فالتعليم قَمِينٌ بتَصحِيحِ المفاهِيم وغرسِ القِيَم الإسلامِيَّة، وإعدادِ قياداتِ المستقبَل؛ فإذا صلُحَ التعليمُ تحقَّقت النهضةُ العِلْمِيَّة والتنميةُ الاجتماعية؛ ولذلك كان مِن أعظم أعمالِ ابنِ عاشُور: إصلاحُ التعليم في الزيتونَة والصَّادِقية، وقد شَهِدَ بذلك مُحَمَّد عَبده -رَحِمَه الله- فقال: «إنَّ مُصلِحي الزيتونة سَبَقُونَا إلى إصلاحِ التعليم؛ حتى كان ما يجرُون عليه في جامع الزيتونة خيرًا مما عليه أهلُ الأزْهَر».[٣٠]

ثالثًا: عنايةُ ابن عاشور -رَحِمَه الله- بكتابة المؤلَّفاتِ القيِّمة التي انتفعَ بها الناسُ في العَالَم الإسلامِيّ، خاصَّة تفسيره القيِّم (التحرير والتنوير).

رابعًا: حِفاظُه على هَيبةِ الفتوى واستِقْلالها، وصَدْعُه بالحق، ومِن مَواقفِه الجليلةِ المشهُورة -رَحِمَه الله-: رَفضُه إصدارَ فتوى تُبِيحُ للتونسِيِّين الفِطْرَ في رمَضَان، وكان ذلك عام (١٣٨١هـ/١٩٦١م) عندما دعا الرئيسُ التونسيُّ السابقُ «بورقيبة» العُمَّالَ إلى الفِطر في رمَضَان بدَعْوَى زِيادَة الإنتاج، وطَلَب من الشيخ ابن عاشور أنْ يُفْتيَ في الإذاعَةِ بما يُوافِق هذا، لكنَّ الشيخَ صرَّحَ في الإذاعَة بما يُريدُه الله تعالى، بعد أن قرأَ آيةَ الصِّيَام، وقال بَعْدهَا: «صَدَقَ الله وكذب بورقيبة»! فَخَمدَ هذا التطاوُلُ المقيتُ، وهذه الدعوةُ الباطلةُ بفضلِ مقُولة ابْن عاشور.[٣١]

ج) نموذج الأمير الخَطَّابِيّ -رَحِمَه الله-:

وقد وُلِدَ الأميرُ محمد بن عبد الكريم الخَطَّابِيّ بالمغْرِب سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١م)، وتُوُفِّيَ سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).

وهو «محمد بن عبد الكريم الريفي الخَطَّابِيّ:

---

(٢٥) راجع (ابن باديس: الإسلام ديننا والعربية لغتنا)، (في ذكرى ميلاده: ١١ ربيع الآخر ١٣٠٧هـ)، سمير حلبي.

(٢٦) الأعلام للزركلي ٦/١٧٤.

(٢٧) الأعراف ٥٨.

(٢٨) ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾. التحريم ١٢.

(٢٩) التحرير والتنوير ١٥ / ١٩٤. والشعر لزهير من أبياته السائرة:

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلَامُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ!

وَهَلْ يَحْمِلُ الخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إلا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ!

(٣٠) الطاهر بن عاشور: صدق الله وكذب بورقيبة، مصطفى عاشور.

(٣١) الطاهر بن عاشور: صدق الله وكذب بورقيبة، مصطفى عاشور.

زعيم الثورة الريفية المعروفة باسمه في شمالي المغرب. وُلِد في بلدة (أجدير) قرب الحسيمة من الريف، في بيت عِلْم وجهَاد، من قبيلة ورياغل إحدى كُبريات القبائل البربرية في جبال الريف. وحَفِظ القرآن وبعث به والده إلى (القرويين) بفاس، فتعلَّم وعاد إلى الرِّيف وأقام في (مليلة) فَوَلِيَ قضاءها. وامتد احتلالُ الأسبان من مليلة وتطوان إلى (شفشاون) فأظهر عبد الكريم -والد الخَطَّابِيّ- مُعَارضَته لهم، وكان من أعيان القوم؛ فانتقم الأسبان منه بعزل ابنِه محمد واعتقاله في سجن (كبالرزا) سنة ١٩٢٠م، وأراد (محمد) الفرار من المعتقل فسقط وكُسرت ساقه، وأُطلق، فجمع أنصارًا من ورياغل (قبيلته) وقد آلت إليه زعامتُها بعد أبيه، وقَاتَل الأسبان، فظفر في معركة (أنوال) من جبال الريف، في يوليو ١٩٢١م (أواخر ١٣٣٩ هـ)، وتتابعت معاركه معهم فاحتل شفشاون (١٩٢٥)، وحاول احتلال تطوان وأرسل مَن يُهَدِّد (تازة) وقُدِّر جيشُه بمئة ألف.

وأنشأ جمهوريةَ الرِّيف، وخاف الفرنسيون امتدادَ الثورة إلى داخل (المغرب) فحالفوا الأسبان؛ وأطبقت عليه الدولتان، فاستسلم مضطرًا إلى الفرنسيين في ٢٥ مايو ١٩٢٦م (١٢ ذي القعدة ١٣٤٤هـ) بعد أن وَعَدوا بإطلاقه، ولكنَّ هذا الوعد -كما تقول جريدةُ لوموند الفرنسية- لم يُوفَ به كما لم يُوفَ بالوعد لعبد القادر قبل خمسٍ وسبعين سنة. ونفَوْه مع أخٍ له وبعض أقربائهما إلى جزيرة (رينيون) في بحر الهند، شَرْقِيّ إفريقية؛ حَيْثُ مكثوا عشرين عامًا. وأُرِيدَ نقلُهم إلى فرنسا (سنة ١٩٤٧ م، ١٣٦٦ هـ)، فلما بلغوا (السويس) كان شبابٌ من المغاربة قد هيأوا لهم أسبابَ النزولِ من الباخِرَة، فنزلوا واستقرُّوا في القاهرة، وتُوُفِّيَ بها».[٣٢]

ويُلاحَظُ في تجربةِ الأميرِ محمد بن عبد الكريم الخَطَّابِيّ ما يلي:

أولا: انتِفاعُه بالمركز الاجتماعي لأسرته؛ مما يؤكد ما سبق في تجربتَي ابنِ عاشور وابْن بَادِيس؛ فقد وُلد الأميرُ الخَطَّابِيُّ في بَلَدة أغادير لأبٍ يتولى زعامةَ قبيلة بني ورياغل أكبر قبائل البربر في بلاد الريف، فحَفِظَ القرآنَ الكريمَ صغيرًا، ثم أرسله أبوه إلى جامع القرويين بمدينة فاس لدراسة العلوم العربيةِ والدينيةِ، ثم التحق بجامعة سلمنكا بأسبانيا، فحصل منها على درجة الدكتوراه في الحقوق، ثم عُيِّنَ قاضِيًا بمدينة مليلة التي كانت خاضعةً لأسبانيا.[٣٣]

ويلاحظُ ثانيًا أثَرُ هذا الوعي الجامع بين العلوم الشرعية والثقافة العصرية في نجاحِ ثورة الخَطَّابِيّ وجهاده ضد الأسبان؛ حتى تكالبَ عليه الفرنسيون والأسبان؛ فتمَّ نَفْيُه، ولكنَّ أثرَه كان بالغًا في بلادِ المغرب ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.[٣٤]

د) نموذج عُمَر المُخْتار:

وُلِد عمر المختار -رَحِمَه الله- بليبيا سنة ١٢٧٤هـ (١٨٦١م)، وتُوُفِّيَ سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).[٣٥]

وهو «عمر بن مختار بن عمر المنفي: أشهر مُجَاهِدِي طرابلس الغرب في حربهم مع المستعمرين الإيطاليين، نِسْبَتُه إلى قبيلة «المنفة» من قبائل بَادِيَة بَرْقَة. وُلِدَ في البطنان (ببَرْقَة) وتعلَّمَ في الزاوية السنوسية بالجغبوب، وأقامَه محمد المهديُّ الإدريسيُّ شيخًا على «زاوية القصور» بالجبل الأخضر بقرب المرج. وسَافَر معه إلى السودان سنة ١٣١٢ هـ، فأقيم بها شيخًا لزاوية «كلك» إلى سنة ١٣٢١ هـ، وعاد إلى بَرْقَة شيخًا لزاوية القصور، فأقام إلى أن احتل الإيطاليُّون مدينة بنغازي (سنة ١٣٢٩ هـ)؛ فكان في طليعة الناهضين للجهاد، وطالت الحرب، وتتابعت المعارك، ومنطقة المختار ثابتة منيعة. وتهادن الإيطاليون والطرابلسيون سنة ١٣٤٠ هـ، ودَبَّ الخلافُ في زعماء طرابلس وبَرْقة، وتجددت المعركةُ مع الإيطاليين، ونفض الأدارِسةُ يَدَهُمْ منها، فتولى عمرُ قيادةَ «الجبل

(٣٢) الأعلام للزركلي ٢١٦/٦-٢١٧. وللدكتور جلال يحيى كتاب (عبد الكريم الخطابي) طبع بالقاهرة.

(٣٣) راجع: الخطابي أمير ثائر ودولة ناشئة، (في ذكرى معركة أنوال: ٢٥ شوال ١٣٣٩هـ)، مصطفى عاشور.

(٣٤) الرعد ١٧.

(٣٥) وفي الأعلام للزركلي ٦٥/٥: عمر المختار (١٢٧٥- ١٣٥٠هـ = ١٨٥٨- ١٩٣١م)

الأخضر» وتلاحقت به القبائل، واتفق الرؤسَـاء على أنْ يكونَالقائـدَ العام والرئيسَ الأعلـى لِلمُجاهِدِين. وهاجمتهم القوى الإيطالية؛ فردوا هُجومَهَا، وغَنِمُوا منها آلاتٍ حربيةً ومؤنًا غيرَ قليلة.

وأشـهر ما نشـب من المعارك معركة «الرحيبة» و «عقـيرة المطمورة» و«كرسـة» وهي أسمـاء أماكن في الجبل الأخضر، نُسِبَت إليها تلك الوقائع. ويقول غراسـياني Graziani القائد العام الإيطالي في بيان لـه عن الوقائع التي نشـبت بين جنوده والسـيد عمر المختار: «إنها كانت ٢٦٣ معركة في خلال عشـرين شـهرًا»، هذا عـدا ما خاضه المختـارُ من المعارك في خلال عشـرين سـنة قبلَهَـا. وبينما هو في سـرية من رجالـه، نحـو خمسـين فارسًـا، بناحيـة «سـلنطة» بالجبل الأخضر، يستكشـفُ مواقعَ العدو، فُوجِئ بقُـوَّة إيطالية أحاطت به؛ فقاتلها، واستُشْـهِد أكثرُ من معه، وأُصِيب بجراح، وقتل جواده، فانقضَّ عليه بعـضُ الجنود فأسـروه، وهم لا يعرفـون من هو. ثم عُرِف وأرسـل إلى «سوسـة»، ومنها أركـب الطراد «أوسـيني» إلى بنغازي. وسُـجِن أربعة أيام. وسُئل عن أعماله فأجابَ بالإيجابِ غيرَ هَيَّابٍ، فقُتِلَ شـنْقًا في مركز «سـلوق» ببنغـازي. وأخبارُهُ كثـيرةٌ، بعضُهَا مُدَوَّنٌ. وممن رَثَاه الشَّاعِرَان شوقي ومُطران».[٣٦]

أولاً: يُلاحَـظُ في تجربةِ عُمـرَ المُختار -رَحِمَه الله- دَوْرُ أُسْرَتِه الحريصة على تعلِيمِه في إعداده وصُحْبَتِه للعلمـاءِ؛ ليكـونَ من أعظم قيـاداتِ المجتمع الليبي. وقـد عَهِدَ به أبوهُ إلى السـيد حسـن الغرياني شـيخ زاويـة جنـزور (التابعة للطريقـة السنوسـية) لتربيته وتحفيظـه القرآن، وعند وفـاةِ الوالدِ عام ١٨٧٨م في رحلـة الحج أوصَى مَـن حولَه بأنْ يرعَى هذا الشـيخُ أولادَه من بعدِه، فقامَ الشيخُ حسن الغرياني بما عهد إليه خيرَ قِيَام.

وثانيًا: يُلاحَظ أثرُ العلم في تكوين القِيَادات:

فَقَدْ قامَ الشيخُ حسن الغرياني بإرسال عمر المختار وله سـتة عشـر عامًا إلى معهـد زاويـة الجغبوب مع أولاده؛ ليتعلمَ في هذا المعهد السنوسـي كافةَ العلوم الشـرعية، فتلقـى القـرآنَ وعلومَـه على يد الشـيخ الزروالـي المغربي، ودَرَس على سـائر مشـايخ المعهد مجموعةً من العلوم الشرعية وغيرها، وقد كان نَهْجُ التعليـم في المعهد يعتمِد على أن يقـوم الدارس بأداء بعض المِهَن اليدويةِ مثل: النجارة والحدادة، وقد تميز عمـر المختار في هذه الحِرَف وفي ركوب الخيل على سائر إخوانه بالمعهد، وتميز أيضًا بشخصيتِه القيادية واتزانِ كلامِه، مع تواضُعِه وبساطَتِه، وقد ساعدت صِفاتُه على توسـيع دائرة اتصالاته، واكتسـابِ حبِّ كل من تَعَامَل معهم وتقديرِهم من خلال المهامِّ الكثيرة التي قام بها، وقد انْقَطَع عُمر المختار عن مُواصَلة تعليمه حوالي سـنة ١٨٨٦م؛ وذلك بسـبب إحساسـه بـأن وطنه وقومه في حاجة إلى عمله وجهاده.

ثالثًـا: أنَّ الجهـاد ضـد المُسْـتَعْمِر ثَمـرةُ الغَـرْس الطيِّب:

فقَـدْ قَاد عمر المختار المجاهديـن في ليبيا، ووفقه الله عـز وجـل أن يُلْحِـقَ بالإيطاليين خسـائرَ فادِحةً وضربـاتٍ مُوجِعـة، كما اسـتطاع أن يُلْفِـت أنظارَ العَالَمِ إلى قضيَّتِهم، وقد سَـعت إيطاليا بكلِّ قُوَّتِها وجَبروتِهـا إلى تصفيـةِ عُمـر المختـار ورفاقـه، حتى نجحت في أسـره في ٢٨ مـن ربيع الآخر ١٣٥٠هـ (١١ من سـبتمبر ١٩٣١م) بعد أن أُصيب فرسُـه، وسـقط على الأرض جريحًا، وبعد محاكمة صُورِيَّة سـريعةٍ لم تدم أكثر من سـاعة، صـدر الحُكْمُ بإعدامه، وتم تنفيـذُ الحكـم في صبـاح الرابـع مـن جمـادى الأولى سـنة ١٣٥٠هـ (١٦ من سـبتمبر ١٩٣١م) أمام جمهور غفير من أبناء البلاد، سِيقُوا قَسْرًا ليشاهدوا عمليةَ إعدام شـيخ المجاهدين الـذي كان عمره قد تجـاوز الثمانين. ولكن جَذْوة الجهاد لم تنطفئْ إلى نهايات الحرب العالمية الثانيـة (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م إلى ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م) حتى تم خروج آخر جندي إيطالي مـن ليبيا في (١٩ مـن المحرم ١٣٦٢هـ/٢٥ من يناير ١٩٤٣م).[٣٧]

والخلاصة:

أنه يُستفاد من هذه النماذج العِلمية المعاصِرة: (ابْن بَادِيس في الجزائر، وابْن عَاشُور في تونس، والخَطَّابِيّ

(٣٦) الأعلام للزركلي ٥/٦٥-٦٦. وكتاب «عمر المختار» للسيد أحمد محمود، طبع مصر سنة ١٣٥٣ هـ.

(٣٧) الفاشية تحتل ليبيا، (في ذكرى احتلال ليبيا: ١١ من شوال ١٣٢٩هـ)، سمير حلبي.

في المغرب، وعمر المختار في ليبيا) أنه لا صلاحَ لِلفردِ ولا لِلمُجتمعِ إلا بالتربيـةِ والتعليـمِ، والدعـوةِ الحكيمـةِ، وإعـدادِ قادةِ المجتمع من العُلَمَاء الربانيِّين والدعاةِ الموفَّقِين.

وثانيًـا: أنَّ الأسـرةَ الصالِحـة هي اللَّبِنـةُ الأُولى في إعدادِ العُلَمَاء الذين يكونون قُدوةً للناسِ وقادةً لهم.

وثالثًـا: أنَّ النهضـةَ الإسـلامية لا تتحقـقُ في مُجتمعاتِنا إلا إذا وُجِدت القياداتُ العِلْمية الصادِقـة العامِلة على تنميةِ مجتمعاتِها المسلمة على بصيرةٍ.

المَطْلَب الثالثُ: الأمة وإشكالات غياب الرموز العلمية.

أ) أدَّى غِيـابُ القيـاداتِ العِلميـة في إدارةِ مجتمعاتِنـا المسـلمة إلى أن يُمـلأَ هذا الفراغُ بقيـاداتٍ ليس لها كفـاءةٌ عِلميةٌ ولا إداريـةٌ، وليس لها -في كثيرٍ من الأحيـان- قَبـولٌ اجتِماعيّ، كمـا تنقصُها الأمانةُ والـورَعُ، وليـس لها مـن بضاعة إلا الـولاءُ الحزبي والسياسـي. وهـذا مُشاهَدٌ في كثيـرٍ مـن الـدولِ الإسلامية. واللّه المستعانُ.

ب) لقـد أحدثَ غِيابُ القيـاداتِ العِلمية هُـوَّةً حالَتْ بين العُلَمَاء وبين قيادةِ المجتمع وإدارةِ مؤسَّسـاته؛ فالملاحَـظ في مجتماعاتِنـا العربيـةِ أنَّ مـن تقـدَّمَ الصُّفـوفَ -ولو لم يكُنْ له كفـاءة- قُدِّم ليقودَ الناسَ بمشرُوعِه؛ وهذا سِرُّ تَسَلُّق التجاربِ القومية والاشـتِراكية والعِلْمَانيَّـة في العَالَم الإسـلاميّ؛ فقـد تقـدَّمَ أصحابُها في غيـابِ مُنافَسـةِ العُلَمَاء على مواقـعِ التأثيرِ والقَـرار؛ فَصَـاروا بإقدامِهم ومُبادرتِهم قادةً للناسِ في سياسـتِهم واجتماعِهم، ومكَّنُوا لمشـاريعِهم بالتحالُفات السياسـية حينًا مـن الدهـر. وهذه عِبرةٌ لأهـلِ العلم والدعوةِ؛ فهم المؤتَمَنُون على قيادةِ الناسِ وهدايتِهم.

ج) لقـد تسـبَّب غيـابُ الرُّمـوزِ العلميـة في انحِسـار دورِ العُلَمَاء اجتماعيًّا وسياسيًّا ليقتصر -في الغالب- على أوساطِ المتديِّنين ورُوَّادِ المساجد؛ مما جعلَ كثيرًا من العُلَمَاء في العالَم الإسـلاميّ بِمَعـزِلٍ عن قوى التأثير الاجتماعي ومراكزِ اتخاذِ القرار السياسي!

> تسبَّب غيابُ الرُّموزِ العلمية في انحِسـار دور العلمـاء اجتماعيًـا وسياسـيًّا ليقتصر -في الغالب- علـى أوساطِ المتديِّنين ورُوَّادِ المساجد.

د) إنَّ تقصيـرَ بعـضِ العُلَمَـاء في بنـاءِ مؤسَّسـاتِ المجتمَع وإصلاحِها تعليميًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا؛ جعلَ منهَجَ العُلَمَاء يكتفي غالِبًا بِرُدُود الأفعالِ وما يُشْبِهُ سِياسـةَ إطفاءِ الحرائق، وأما السَّبقُ إلى صِناعةِ القادةِ والإصلاحِ السياسـي والإعلامي، وأخذُ المبادَرات الاجتماعية الإصلاحيةُ فأقلُّ من القليل.

المَطْلَب الرابع: الأمة وآليَّات صناعة الرموز والقَادَة:

أ) من الناحية الإدارية والإعلامية:

١) حُسْنُ اختيار من يُرَشَّحُ من طلبةِ العلم ليكون من (القيادات العِلمية للمجتمع)، واستِحْضار حديثِ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّه عَنْـهُ عن النبيِّ -صلى اللّه عليه وسـلم- قال: (النَّـاسُ مَعَـادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّـةِ خِيَارُهُـمْ فِي الإِسْـلام إِذَا فَقِهُوا)، [٣٨] وفي روايـةٍ: (تَجِـدُونَ النَّـاسَ مَعَـادِنَ: خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلام إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّـأْنِ أَشَـدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَـرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ). [٣٩] وروى البُخَارِيّ عن عَبْـدَ اللّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِـيَ اللّه عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِـلِ الْمِائَـةِ لا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَـا رَاحِلَةً)، [٤٠] وفي روايـةٍ لمسـلم: (تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِـلٍ مِائَةٍ لا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً). [٤١]

---

(٣٨) صحيح البُخَارِيّ ١٧٦/١١، حديث ٣١٣١. كتاب التفسير، بَاب قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ ومطلع الحديث: (سُئِلَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ لِلّهِ. قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي...).

(٣٩) صحيح البُخَارِيّ ٣١٤/١١.، حديث ٣٢٣٤. كتاب المناقب. وفي رواية مسلم، كِتَاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَاب خِيَارِ النَّاسِ: (قَالَ: تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ فِي هَذَا الأَمْرِ أَكْرَهَهُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَتَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ). صحيح مسلم ٣٤١/١٢، حديث ٤٥٨٨.

(٤٠) صحيح البُخَارِيّ ١٥١/٢٠، حديث ٦٠١٧. بَاب رَفْعِ الأَمَانَةِ.

(٤١) صحيح مسلم ٣٨٤/١٢، حديث ٤٦٢٠. في (بَاب قَوْلِهِ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً)

٢) تربية طَلَبةِ العِلم -المرشَّحِين لقيادةِ المجتمَع- على خِدمةِ الناسِ ورِعايَتِهم، وبذلِ المعرُوفِ إليهم؛ ليكونوا رحمةً لأُمَّتِهم.

٣) وَضعُ معاييرَ عِلْميةٍ وتربويةٍ لهذا الاختيار؛ حتى لا يُرَشَّحَ مَن ليس له صِدقٌ في خِدمةِ الدعوةِ ورعاية الناس؛ فيكون مشرُوعَ فِتنةٍ للناسِ، كما هو مُشاهَدٌ في بعضِ القِياداتِ الإسلامية التي فتنَت مجتمعَها بالفتاوى المشبوهة والمصالح الموهومة. ولنا في السودان تجربةٌ مريرةٌ والله المستعانُ.

٤) مُراعاة التوازُن في التمكُّنِ من العُلوم الإسلامية وحُسن الاطلاع على العلوم العَصْريَّة.

٥) إقامة دوراتٍ مُكثَّفة للقياداتِ المرشَّحة في الإدارة والإعلام والعلوم المُعَاصِرَة.

٦) الاستفادةُ من بعض التجارب الإسلامية (مثل تجربة الكويت في تكوين القيادات)، مع العمل على التقييم السَّنويّ.

٧) الدعوةُ لإقامةِ مؤسَّسةٍ خاصةٍ بتكوينِ القياداتِ الإسلامية وتدريبها ورعايتها، (على نَمطِ معهدِ تأهيلِ العُلَمَاء في موريتانيا على سبيل المثال).

٨) اعتِماد إدارةِ توجيهٍ عِلميةٍ راشِدةٍ (من أمثال العلامة الددو)؛ لإنجاحِ هذه التجربة.

٩) توحِيدُ المناهج الدراسية في مؤسَّساتِ تكوينِ القيادات الإسلامية.

١٠) اعتِمادُ وَقفٍ لضمانِ ميزانياتِ تَسْيِيرٍ سنويةٍ.

ب) من الناحية العِلْمِيّة:

١) تربية العُلَمَاء (العامِلِين) والقادة (المصلِحين).

٢) الاهتِمام بالبناء الفِكريّ والسياسيّ.

٣) إحياء قيمة القُدوات؛ وذلك بِربطِ القادة المرشَّحِين بكبارِ العُلَمَاء.

ج) من الناحية الاجتماعية:

١) تقويةُ العَلاقَة بين القادة المرشَّحِين وقضايا الأمة.

٢) العِناية بِهَمِّ الإصلاحِ الاجتماعيِّ.

٣) اعتِماد الخدماتِ الاجتماعية مجالاً للدعوة والإصلاح؛ فالخدمةُ العامةُ من أعظمِ أبوابِ القَبُول في المجتمع، وهي مِفتاحُ القُلوبِ والعُقول؛ فقد قالت خديجةُ رضي الله عنها تُثْني على أنواع الخدماتِ الاجتماعية التي كان يُقدِّمُها النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- إلى الناسِ قبل الإسلامَ: (كلا والله ما يُخْزِيك الله أبدًا؛ إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدُوم، وتَقْرِي الضَّيفَ، وتُعِينُ على نَوائب الحق)[٤٢].

خاتمة:

وقد كان للعلماءِ في السودان -بحمدِ الله عزَّ وجل- بعضُ التوفيقِ في الخدماتِ العلميةِ والاجتماعية:

١) من حيثُ نبذُ الفُرقة والتنازُع بين الدُّعاة، وجمع كلمتِهم على ما ينفعُ الأمةَ ويحفظ هوِيَّتَها.

٢) وتوعِيةُ المجتمَع السوداني بالدروس والكُتُب، والدورات والمؤتمرات، ووسائل الإعلام المُتَاحَة.

٣) بالإضافة إلى إقامةِ بعض المؤسَّسات التعليمية الخيرية (مثل منظمة المشكاة الخيرية)، والإعلامية في الصحافة (صحيفة المحرر، ومجلة اللواء بالتعاون مع وزارة الدفاع السودانية) والشبكة الدولية للمعلومات (شبكة المشكاة الإسلامية)، والإذاعة (إذاعة طيبة)، مع الإعدادِ لانطلاقِ بثِّ (قناة طَيبة) الفضائية إن شاء الله بإشرافِ بعضِ العُلَمَاء والدُّعاة.

وهذه المشاريعُ الاجتماعية في السودانِ قد مَكَّنَت العُلَمَاء -بِعَوْنِ الله وفَضلِه- مِن أداءِ بعضِ الواجبِ في التوجِيه العلمي والإصلاحِ الاجتماعي والسياسي.

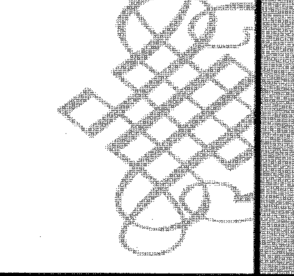
نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ المزيدَ مِن فضلِه وتوفيقِه وعَونِه جلَّ جلاله.

وهذه التجربة السودانية تؤكِّد كذلك ثَمرةَ الأخذِ بالتربيةِ والتعليم، واعتِماد الخدماتِ الإعلامية والاجتماعية في قيادة المجتمع. والله الموفِّقُ، نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير.

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ وَالاه.

---

(٤٢) رواه البُخَاريّ في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديث ٣، وأطرافه: (٣٢١٢، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢ - ٤٦٧٤، ٦٥٨١).



معلومات إضافية

الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي

هو العلامة محمد الحسن ولد محمد الملقب «الددو»، زعيم الحركة الإسلامية في موريتانيا، وأحد أبرز علمائها، والملقب في بلاده بـ«نابغة المغرب الأقصى».

مولده ونشأته:

ولد الشيخ الددو نهاية شهر أكتوبر ١٩٦٣م (عام ١٣٨٣هـ) في البادية التابعة لمقاطعة أبي تلميت لعائلة اشتهرت بالعلم والمعرفة. ونشأ بين أبوين عالمين. بدأ دراسة القرآن الكريم في سن الخامسة وأكمله بعد تجاوز السابعة.

درس مبادئ العلوم الشرعية، وصحب جده الشيخ محمد عالي ولد عبد الودود، فحفظ عليه الكثير من المتون المهمة في علوم الوسائل وعلوم المقاصد، وتلقى عليه علوم الكتاب والسنة، ولازمه حتى وفاته، ثم واصل تلقي العلوم على خَالَيْهِ محمد يحيى ومحمد سالم ابني عدود.

نبوغه:

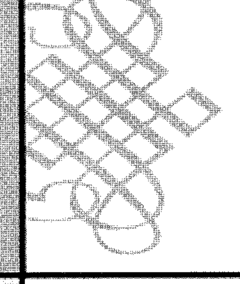
كان من المتفوقين على المستوى الوطني في البكالوريا عام ١٩٨٦ م، وأعطي منحة إلى تونس، ولكنه اعتذر عنها. سجل في جامعة نواكشوط -كلية الحقوق-، وشارك في مسابقة المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية فجاء الأول فيها، كما جاء الأول في مسابقة القسم الجامعي لجامعة الإمام محمد بن سعود في نواكشوط ليلتحق به، وإثر مقابلة مع مدير الجامعة أثناء زيارة له لنواكشوط اتخذ هذا الأخير قرارًا بنقل محمد الحسن إلى الرياض ليكمل الدراسة فيها. حصل على الماجستير بامتياز في نفس الجامعة، وكانت رسالته عن «مخاطبات القضاة».

يشهد له العلماء بالتبحر في العلوم الشرعية المختلفة، قرآنًا وسنة وفقهًا وأصولاً، فضلًا عن معرفة واسعة بلغة العرب وتاريخهم، وبالعلوم الكلامية والمنطقية.

يقول عنه الدكتور «عبد الله الحكميّ» -عضو هيئة التدريس بقسم السنة وعلومها بكلية أصول الدين بجامعة الإمام بالرياض سابقًا-: «هو من أعاجيب الدنيا في الحفظ والاستحضار، يشرح المتون الكثيرة، دون أن ترى بيده كتابًا أو ورقًا إلا في حالات نادرة حين يريد نقل نصّ معين لم يكن حفظه من قبل، ويحفظ من أشعار العرب ودواوينهم وشعر المعاصرين ما لا يخطر على بال.

ومن أعجب ما سمعته منه، ولم أنقله عن أحد: حفظه للمشهور من أقوال الأئمة الأربعة، ومعرفته لدقائق علل الحديث النبويّ، وإذا تكلم في فن قلت: إنه قصر نفسه عليه وأفنى عمره في تحصيله» انتهى كلامه.





نتاجه العلمي:

شارك الشيخ الددو في عدد كبير من المؤتمرات الدولية، ودرس وحاضر في أوروبا وإفريقيا والعالم العربي وآسيا وأمريكا، وله رسائل مطبوعة كما طبعت رسالته التي أعدها لنيل درجة الماجستير، من كلية الشريعة بالرياض، وعنوانها «مخاطبات القضاة». له عدد كبير من الفتاوى والأشرطة. له علاقات جيدة بعلماء العالم الإسلامي.

قائد الحركة الإسلامية الموريتانية:

قاد «ولد الددو» الحركة الإسلامية في بلاده، ويعد هو مرشدها الروحي، وكانت له صولاته في مناهضة الاستبداد والحكم الفردي المطلَق، لكنه دفع حريته ثمنًا لذلك، بتعرُّضه لمضايقات عدة من جانب السلطة في السنوات الأخيرة لحكم الرئيس المخلوع «معاوية ولد سيد أحمد الطايع»، واعتقاله بين الفينة والأخرى؛ بدءًا من اعتقاله في مايو ٢٠٠٣م في مدينة نواذيبو شمال البلاد؛ حيث كان يلقي محاضرة أمام جَمْع مِن المصلين في أحد جوامع المدينة، وذلك بعد فتوى له بتحريم التطبيع مع «إسرائيل»، ووجوب الجهاد للدفاع عن العراق.

كما صدر في مارس ٢٠٠٤م، قرار بحظر نشاطه الدعوي في جميع أنحاء البلاد بمنعه من إلقاء دروس أو خطب في جميع مساجد البلاد.

وفي أكتوبر ٢٠٠٤م، أطلق الشيخ على قناة «الجزيرة» الفضائية، مبادرة الحوار والتسامح بين السلطة والمعارضة، باعتبار الحوار هو السبيل الوحيد لتسوية الأزمة السياسية، ولنزع بذور الفتن والانقلابات في البلاد، لكنَّ النظام الحاكم لم يتجاوب مع دعوته إلى الحوار، وقام باعتقاله للمرة الثانية، في إطار التحقيق حول ما تقول السلطات إنه محاولة انقلاب فاشلة التي أحبطتها يوم ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٤م، لكنها سرعان ما أفرجت عنه بعد عدة أيام قضاها في المعتقل.

وبعد مرور أقل من شهر على الإفراج عنه، أعادت اعتقاله لأكثر من شهرين.

وكان «ولد الددو» أحد أبرز المستهدَفين في حملة اعتقالات شنتها السلطات في صفوف الإسلاميين المعارضين في أبريل ٢٠٠٥م، وذلك قبل زيارة وزير الخارجية الإسرائيلي «سيلفان شالوم» لنواكشوط في مايو ٢٠٠٥م، وقامت السلطة بتوجيه اتهامات إلى المعتقلين بالتخطيط لاغتيالات داخل البلاد، ما أثار حملة تنديد واسعة النطاق على المستويين العربي والإسلامي؛ حيث طالب العشرات من العلماء والمفكرين في العالم الإسلامي بإطلاق سراحه.

وظل الشيخ الددو رهن الاعتقال لنحو ثلاثة أشهر حتى أطلق سراحه في ٧ أغسطس ٢٠٠٥م وذلك بعد أربعة أيام على الانقلاب العسكري الذي أطاح بالرئيس معاوية ولد الطايع.

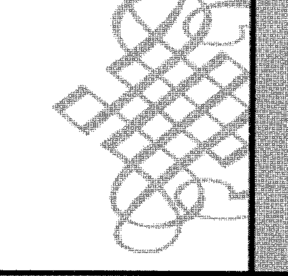
المصادر:

الموقع الإلكتروني للشيخ محمد الحسن ولد الددو: http://www.dedew.net

د. عبد الله بن محمد الحكميّ، عن فخر شنقيط: الشيخ الددو، موقع «الراية» الموريتاني، ٢٠٠٥/٧/٢١م.

فتحي مجد، فقيه في غياهب السجون، موقع «الراية» الموريتاني، ٢٠٠٥/٧/١٩م.





منظمة المشكاة الخيرية

هي منظمة إسلامية طوعية، تأسست في شوال ١٤٢١هـ الموافق يناير ٢٠٠١م بموجب قانون المنظمات الطوعية في السودان بهدف الدعوة إلى الإسلام ونشر العلم الشرعي، على منهج أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.

النشأة:

نشأت منظمة المشكاة نتيجة لتنادي مجموعة من العلماء ورجال الأعمال السودانيين رجاء أن يسهموا في نشر العلم الشرعي، ويعمقوا أثره في المجتمع، ويوسعوا دائرته بتعاونهم وتناصحهم وتكامل جهودهم. وقد تم تسجيل المنظمة رسميًّا في شوال عام ١٤٢١هـ الموافق يناير ٢٠٠١م.

رسالة المنظمة وأهدافها:

تعمل منظمة المشكاة الخيرية على نشر العلم الشرعي بين العامة والخاصة، وتلجأ في سبيل ذلك إلى كافة الوسائل المتاحة المشروعة، مع مراعاة الظروف الاجتماعية السائدة في أوساط المستهدفين من مشاريعها المختلفة، ودفع وتجميع جهود العلماء والدعاة وطلبة العلم.

لتحقيق هذه الرسالة وضعت المنظمة العديد من الأهداف العامة منها:

١- الدعوة إلى الإسلام بشموله: عقيدةً، وشريعةً، ومنهاجَ حياة.

٢ - نشر العلم الشرعي في أوساط العامة والخاصة.

٣ - الاهتمام بالدعاة والخطباء والأئمة وطلاب العلم وكفالتهم.

بعض وسائل المنظمة لتحقيق أهدافها:

١- تنفيذ الدورات العلمية العامة والمتخصصة التي تخدم شرائح المجتمع المتعددة.

٢- كفالة الدعاة وطلبة العلم وقضاء حوائجهم العلمية والمعيشية الملحة.

٣- تسيير القوافل وإقامة المعارض الدعوية.

٤- طباعة ونشر الكتب والمطويات والنشرات والأشرطة في المكتبات وبين طلبة العلم والدعاة.

٥- تطوير موقع دعوي على الإنترنت يحتوي على محاور دعوية وعلمية، وتحديثه باستمرار.

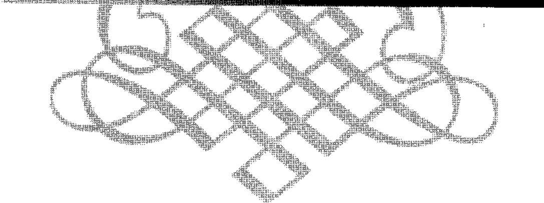
٦- التواصل المستمر مع العلماء والدعاة وطلبة العلم.

٧- إقامة الكليات والمعاهد والمدارس الشرعية وحلقات الدروس العلمية.

المصدر: الموقع الإلكتروني لمنظمة المشكاة الخيرية: http://www.meshkat.org/







الدور المعاصر للفتوى

د. محمد يسري

(رئيس مركز البحوث وتطوير المناهج بالجامعة الأمريكية المفتوحة - القاهرة)

ملخص البحث

لئن كانت الحاجة قائمة إلى الفُتيا الراشدة في كل عصر مضى، فإن الحاجة إليها في عالم اليوم أشدّ، فقد تمخض الزمان عن نوازل لا عهد للسابقين بها، ووُجِدَت وسائل للفتيا وطرائق معاصرة لإصدارها.

اتخذ التعبير الشرعي عن الفُتيا أشكالاً متنوعة، وهي طرائق قديمة حديثة في نفس الوقت، تعتمد القول أو الفعل أو الكتابة أو الإشارة أو الإقرار.

إلا أن الجديد في هذا السياق العصري هو استعمال وسائل الاتصالات الحديثة في إيصال السؤال والجواب، مثل الهاتف والمذياع والتلفاز، والناسوخ والمواقع على الشبكة العنكبوتية، والبريد الإلكتروني والقنوات الفضائية، إضافة إلى الصحف اليومية والمجلات الدورية، والكتب ونحوها.

ومما لا شك فيه أن العناية بمتغيرات العصر، وإبداء القول الشرعي في حديث مخترعاته أمر مطلوب في إعادة الثقة إلى نفوس متذبذبة، وتقوية الإيمان في قلوب ضعيفة، وهو من جهة أخرى يقطع ذريعة اللجوء إلى قوانين وضعية، ويغلق باب الاجتراء على الشريعة الإسلامية، ويقيم البرهان على حيوية الفقه.

هذه الوسائط المتعلقة بالفتيا المعاصرة شديدة النفع شديدة الخطر في آنٍ واحد، وحين يختار المفتي أن يخرج على هذه الوسائل الإعلامية عميقة التأثير، سريعة الانتشار؛ فعليه أن يُحسن الإفادة منها، متجنِّبًا الوقوع في عثرات كثيرة.

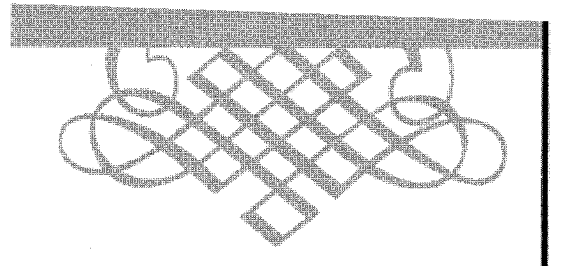
وحتى تؤتي الفتيا المباشرة والمعاصرة أُكلها فيحسن مراعاة عدة ضوابط يجب على المفتي الالتزام بها والحرص عليها ومنها: النية الصالحة، استجماع ضوابط الفتيا المباشرة، عدم تجاوز المفتي موقعه العلمي في الفتيا، العناية بضوابط ما قبل الفتيا، كما على المفتي القاصر أن يحدد نطاق الفتيا، إلى غير ذلك من الضوابط الهامة.

ومن جانبه فعلى المستفتي أن يسأل أهل العلم المعروفين، وأن يُحسن عرض سؤاله، وأن يسأل عما ينفعه في حياته وآخرته.

إن صناعة الفتيا المعاصرة أمرٌ تشكِّله عناصر كثيرة، وتحفّ به متغيرات عديدة، وحسن التخطيط لإدارته ومتابعة تنفيذه بشكل علمي وتقني يُنْهض الأمة بأسرها.

وهذا العمل الجليل يجب أن يبدأ من تأهيل المفتي أولاً، وهو أيضًا يمر ببناء الآليات القويمة لإخراج الفتيا المعاصرة، ولا يُغْفِل الإفادة القصوى من الوسائل المعاصرة لتبليغ الفتيا والتعبير عنها.





أفكار ومقتطفات

- الفتيا أعمّ من أن تكون هدايةً لجاهل، أو تنويرًا لسائل، أو إعانةً لمكلف، أو استجلاءً لحكم شرعيّ في أمرٍ عصريّ؛ إذ الفُتيا كل ذلك، وفوق ذلك هي إقامة لخليفة الله تعالى في أرضه على منهاج ربِّه.

- الفُتيا أمر تولاه الله بنفسه، وقام به الأنبياء، عليهم السلام، ثم العلماء من بعدهم؛ فهي توقيعٌ عن ربِّ العالمين، ولا شكَّ أن أهل الإفتاء قد رفع الله قدرهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[المجادلة: ١١].

- أنفع وسائل الفُتيا للأمة وأدومها وأطولها أثرًا هي الكتابة، وتتميز بدقة ضبطها، وحفظ قيودها، وإمكان العودة إليها، ولو مع طول العهد، وكذلك لا يتمكن المستفتي أن يحرِّف فيها لحاجة في نفسه.

- الفتاوى من خلال الشبكة العنكبوتية -خاصة- وفَّرت للمستفتي مكتبة للفتوى بشكل ميسر، بل أصبحت مرجعية للجاليات المسلمة في بلاد غير المسلمين، كما أنها تميزت بالخصوصية أو الشخصية فيما يرسله المستفتي إلى المفتي وفيما يجيبه عليه، مع إمكانية مراجعة المفتي في فتواه وتوضيح أبعاد المسألة، علاوة على أن تلك الفتاوى تعطى بالمجان.

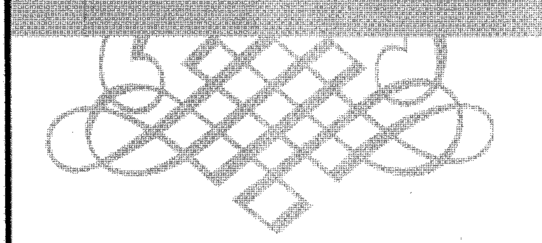
- العناية بمتغيرات العصر، وإبداء القول الشرعي في حديث مخترعاته، لما يسهم في إعادة الثقة إلى نفوس متذبذبة، وتقوية الإيمان في قلوب ضعيفة، وهو من جهة أخرى يقطع ذريعة اللجوء إلى قوانين وضعية، ويغلق باب الاجتراء على الشريعة الإسلامية، ويقيم البرهان على حيوية الفقه.

- المفتي بحكم بشريته معرَّض للخطأ في كل عصر ومصر، إلا أن الخطأ يتفاحش ويكبر في زماننا بشكل مضاعف؛ حيث تجتمع المؤثرات الفكرية والنفسية والاجتماعية، وتتعدد المحاذير السياسية والأمنية أمام مفتي الفضائيات خاصة.

- تعميم الفُتيا الفضائية بغير نظرٍ إلى ما ذُكِرَ من أسباب وعوامل تُفضِي إلى تغيُّر الفُتيا والأحكام الفقهية الاجتهادية مزلق خطير، فعلى المفتي في هذه القنوات أن يحذر هذه المزَلَّة، كما يحذر من مصطلح عولمة الفُتيا؛ فإنه لا يمكن قبوله على هذا النحو بإطلاق!

- إن الفتوى المباشرة قد أصبحت مكونًا مهمًّا من مكونات الإعلام الإسلامي في الإذاعة والتلفزة، والفضائيات والشبكة العنكبوتية على حد سواء، وهي بكل المقاييس بابٌ مهمّ من أبواب الدعوة والتعليم، ومصدر من مصادر التوجيه والتأثير العام.

- المفتي إما أن يكون مستقلاً بالفتيا، وهذا منصب المجتهد المطلق، وإما أن يكون غير مستقل بالفتيا وهو المجتهد في مذهب إمامه، أو مجتهدًا في نوع من العلم كالفرائض أو المعاملات، أو مجتهدًا في مسألة أو مسائل من العلم.



- علـى المفـتي المعاصر أن يعرف مراتب الفتيا في هـذا العصر، فأعلاها ما صدر بإجماع صحيح صريـح منعقـد، ثم ما كان جماعيًّا صادرًا عن مجامع فقهية دولية، ثم فتاوى اللجان العلمية، ثم الفتاوى الفردية، ولا شـك أنه كلما كثر عدد المفتين المشـتركين في فتيا كان ذلك أدعى للقبول والطمأنينة، وإن لم تكن متمحضة الصواب أو مختصة به، أو محتكرة له.

- المسـتفتي هـو كل مـن لم يبلغ درجـة المفتي فيما يسـأل عنه من الأحكام الشـرعية، ويجب الاستفتاء بشرطين: الأول أن يكون المستفتي غير مجتهد، والثاني أن يكون الحكم الشرعي قد وجب عليه معرفته، وهو يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.

- في الفتيـا التقليديـة لا يصعـب على العامـي أن يعرف الفقهـاء المعدودين، والعلماء المشـتهرين بالفتيا؛ حيث يظهر ذلك من أخذ الناس عنهم، وثناء العلماء عليهم، واسـتفاضة الخبر بعلمهم وفقههم.

- كثـيراً ما يلاحظ اليوم على أسـئلة السـائلين للمفتين في الشـبكة العنكبوتيـة والفضائيات البحث عن عِلِّيَّة حكم تعبُّدي كتسـبيح الطواف وعدد ركعات الصلوات، مما يُذَكِّر بالتي سـألت عن قضاء المرأة الصيام دون الصلاة، هذا فضلاً عن معارضة القرآن والسـنة بالرأي، والبحث عن المتشابه والسؤال عما شجر بين الصحابة ونحو ذلك.

- أرباب العمل الإعلامي ومعدو البرامج ومحررو الشئون الإسلامية في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية مدعوُّون لزيادة ثقافتهم الشرعية، وتنامي حسّهم الإسلامي فيما يقدمون من مواد وبرامج، لا سيما فيما يتعلق بالجوانب الإسلامية.

- الإشـراف على المفتين واختيار المتأهلين للفتيا الإعلامية المباشرة، ومنع الجاهلين والماجنين من التصدي لمنصب الإفتاء، والاحتساب في ذلك الأمر -مسئولية عظمى تُنَاط بهيئات العلماء ودور الإفتاء وكبار الفقهاء.

- يُقْـتَرح علـى القنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية إنشـاء مجلس أو هيئـة، أو لجنة للفتيا من تخصصات شـرعية مختلفة؛ من شـأنها ترشـيح المفتين في الفتيا المباشرة، وتحديد موضوعات برامـج الفتيا بشـكل متخصـص، ومراجعة وضبط مـا يصدر عن تلك المواقـع، ومراقبة أداء مقدمي البرامج ومعديها وإعانتهم ونصحهم.

- إن صناعـة الفتيـا المعاصرة أمرٌ تشـكِّله عناصر كثيرة، وتحفّ به متغيرات عديدة، وحسـن التخطيط لإدارته ومتابعة تنفيذه بشكل علمي وتقني يُنْهِض الأمة بأسرها.

- مـن الأهمية بمكان نشـر ثقافة الفتيا لدى المسـتفتي؛ وذلك من خـلال كتيبات وإصدارات، وبرامج فضائية ورسائل إلكترونية، تبين للمستفتي ما يجب عليه تجاه المفتي وكيف يختاره، وكيفيـة عـرض السـؤال، وماذا يعمل عنـد تعدد الأجوبة، وهـل له أن ينقل فتـوى المفتي إلى غيره، وهل له أن يعمل بها إذا تكررت الحادثة، وكيف يسـتفيد من مدونات الفتيا المطبوعة والإلكترونية؟ مع التنبيه على أخطاء المستفتين والحذر من الوقوع فيها.

الدور المعاصر للفتوى

د. محمد يسري: رئيس مركز البحوث وتطوير المناهج بالجامعة الأمريكية المفتوحة - القاهرة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين. وإمام المتقين وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، وبعد:

فإن الحديث عن الفتيا ودورها المعاصر قد غدا حديثًا مُلِحًّا، ذلك أن الفتيا أعمّ من أن تكون هدايةً لجاهل، أو تنويرًا لسائل، أو إعانةً لمكلف، أو استجلاءً لحكمٍ شرعيّ في أمرٍ عصريّ؛ إذ الفُتيا كل ذلك، وفوق ذلك هي إقامة لخليفة الله تعالى في أرضه على منهاج ربِّه.

ولئن كانت الحاجة قائمة إلى الفُتيا الراشدة في كل عصر مضى، فإن الحاجة إليها في عالم اليوم أشد، فقد تمخض الزمان عن نوازل لا عهد للسابقين بها، ووجدت وسائل للفتيا وطرائق معاصرة لإصدارها، وهذا كله يتطلب ضبطًا وإحكامًا يتناسب وأهمية الفتيا، علاوةً على ملاحظاتٍ كثيرة حول من يتصدى للفتيا من غير أهلها ممن لم يستجمع شرائطها.

كما أن بعض الفتاوى المعاصرة قد ضلّت طريقها، وانحرفت عن جادة الصواب، الأمر الذي ينتهي إلى التأكيد على أهمية طرح موضوع الفُتيا المعاصرة على مائدة البحث العلمي الجاد.

وضبطًا لمسيرة هذا البحث فإنه سوف ينتظم الوقفات التالية:

الوقفة الأولى: معنى الفُتيا وبيان منزلتها.

الوقفة الثانية: الفُتيا المعاصرة ملاحظات وتأملات.

الوقفة الثالثة: ضوابط الفُتيا المعاصرة.

الوقفة الرابعة: آفاق وطموحات.

الوقفة الأولى
معنى الفُتيا وبيان منزلتها

أولاً: معنى الفُتيا والمفتي والمستفتي:

أفتاه في الأمر إذا أبانه له، وأفتى العالم إذا بيَّن الحكم، وأفتى الرجلَ في مسألته إذا أجابه عنها قال تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٦]، والفُتيا والفتوى ما أفتى به الفقيه[1].

أما الفُتيا في اصطلاح الفقهاء والأصوليين فهي قاصرة على بيان الأحكام الشرعية سواء أكانت اعتقادية أم عملية.

ذلك أن الإفتاء عندهم هو «الإخبار بحكم الله تعالى عن دليل شرعي»[2].

والمفتي: هو المجيب عن السؤال لغةً، واصطلاحًا هو: الفقيه النظَّار، القادر على انتزاع الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس[3].

والمستفتي: هو الطالب للجواب عن السؤال، والاستفتاء: هو طلب العلم بالسؤال عما أشكل[4].

ثانيًا: فضل الفُتيا وبيان منزلتها:

الفُتيا أمر تولاه الله بنفسه، وقام به الأنبياء عليهم السلام، ثم العلماء من بعدهم فهي توقيعٌ عن ربِّ العالمين، ولا شكَّ أن أهل الإفتاء قد رفع الله قدرهم، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي الصحيح، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[5].

فصار القول على الله بغير علم أعظم المحرمات الأربعة، المذكورة في الآية، والتي لا تُباح بحال.

ولا أظلم يوم القيامة من هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

وقد جعل المُفتُون من الصحابة فمن سار على دربهم قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦]، نصب أعينهم، فعصمهم من الزيغ ووقاهم من الزيادة والنقصان.

الفُتيا تتأثر وتؤثر بشكل أو بآخر بسمات هذا العصر وملامحه، وكما تلحظ إيجابيات متنوعة، ترصد سلبيات عديدة.

وعلى هذا النهج سار التابعون والأئمة الأربعة المرضيون، وأتباعهم الصالحون.

الوقفة الثانية
الفتيا المعاصرة ملاحظات وتأملات

الحديث عن الفتيا المعاصرة الآن حتمًا سيشد إلى ملامح هذا العصر الذي تميز بثورة هائلة في عالم الاتصالات والمعلومات.

والفُتيا تتأثر وتؤثر بشكل أو بآخر بسمات هذا العصر وملامحه، وكما تلحظ إيجابيات متنوعة، ترصد سلبيات عديدة.

وهذه جملة ملاحظات وتأملات حول الفُتيا المعاصرة في وسائل تبليغها، وموضوعاتها، وطريق جوابها، ومدى أهلية القائمين عليها:

أولاً: وسائل تبليغ الفُتيا والتعبير عنها:

اتخذ التعبير الشرعي عن الفُتيا أشكالاً متنوعة، وهي طرائق قديمة حديثة في نفس الوقت تعتمد القول أو الفعل، أو الكتابة، أو الإشارة، أو الإقرار.

وإذا كانت الفُتيا بالقول هي الطريقة المثلى في

(١) لسان العرب، لابن منظور (١٠/١٨٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/٤١١).

(٢) صفة الفتوى والمستفتي، لابن حمدان الحنبلي، ط١ المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١٤٠٦هـ)، (ص٥٤).

(٣) فتاوى ابن رشد (٣/١٤٩٧).

(٤) صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لابن حمدان (ص٨٦).

(٥) أخرجه: البخاري، كتاب العلم، باب «من يرد الله به خيرًا»، (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب «النهي عن المسألة»، (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

إجابة السائل؛ فإن هذا لم يمنع من ممارسة طرائق أخرى.

فالإجابة بالفعل من المفتي تتضمن معنى الإجابة مضافًا إليها توضيحًا عمليًّا للسائل.

وقد يُؤْثِر المفتي الفعل دون غيره للتعليم والإفهام، ولتحصل القدوة كما قال صلى الله عليه وسلم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[٦].

وفي المسائل التي قد يكون الجواب بنعم، أو لا، يُكتفى أحيانًا بالإشارة المفهمة.

ولما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الفتن في آخر الزمان قال: «يُقْبَضُ العلمُ، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج، فقيل يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: وما الهرج؟ فقال: هكذا بيده، فحرفها كأنه يريد القتل»[٧].

كما جاء في الحديث قد تختار هذه الوسيلة لخصوصية المستفتي؛ كأن يكون أصمّ أو لخصوصية حال المفتي.

وقد يُفعل الفعل بحضرته -صلى الله عليه وسلم- فيُقِرّه، أو يبلغه فيسكت عليه فيكون دليلاً شرعيًّا[٨]، وكذلك ورثته من العلماء والمنتصبين للفُتيا[٩].

وأخيرًا فإن أنفع وسائل الفُتيا للأمة وأدومها وأطولها أثرًا هي الكتابة، وتتميز بدقة ضبطها وحفظ قيودها، وإمكان العودة إليها، ولو مع طول العهد، وكذلك لا يتمكن المستفتي أن يحرِّف فيها لحاجة في نفسه، وقد عُني الفقهاء والأصوليون قديمًا بضبط هذه الوسيلة؛ بحيث لا يتمكن من التلاعب في رقعتها، فلا يُزَاد على سؤالها، ولا يمكن أن يُضاف إليها بعد تحريرها، مع الحرص على إعادة السؤال في جوابها ونحو ذلك[١٠].

كان هذا عرضًا لوسائل التعبير عن جواب السائل، ولا تعدو الطرائق المعاصرة هذه الأنواع الخمسة، إلا أن الجديد في هذا السياق العصري هو استعمال وسائل الاتصالات الحديثة في إيصال السؤال والجواب مثل الهاتف، والمذياع والتلفاز، والناسوخ، والمواقع على الشبكة العنكبوتية، والبريد الإلكتروني والقنوات الفضائية، إضافة إلى الصحف اليومية والمجلات الدورية، والكتب ونحوها.

وهنا عدة ملاحظات وتأملات

أولاً: الإقبال الشديد على السؤال والاستفتاء:

وهذا يعكس -أول ما يعكس- يقظة في المجتمعات المسلمة اليوم، ومحاولة جادة للفهم وعناية بالعلم، وهذه إيجابية مرصودة بلا شك.

ولعل من أسباب هذه الظاهرة أن طوائف من مسلمي الغرب والمقيمين فيه زاد ارتباطهم بإسلامهم، ونما شغفهم بتعلم أحكام الإسلام، ومن جهة أخرى فإن كثيرين من غير المسلمين في بلاد الغرب والعرب معًا -ولا سيما بعد سبتمبر ٢٠٠١م- بدوا ملحين في التعرف على الإسلام من خلال أهله، ونظرًا لما تتيحه وسائل الاتصال الحديثة من مزايا فقد لجأ الكثيرون إليها.

ومما يجدر ذكره أن قنوات إسلامية فضائية أصبحت تبث برامجها بلغات أجنبية، وتتلقى أسئلة وتجيب عنها باللغات ذاتها في سبق إسلامي مبارك، ومن ذلك قناة «الهدى» الإسلامية.

ومن أسباب هذا الإقبال الهائل ما تمتعت به وسائل الفُتيا المعاصرة من إيجابيات كثيرة على مستوى الفُتيا والمفتي والمستفتي معًا، وفيما يلي تنويه بأهم تلك المزايا:

بالنسبة للفُتيا:

١- فقد ساهمت تلك الوسائل المعاصرة في القيام

(٦) أخرجه: البخاري، كتاب الأذان، باب «الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة..»، (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٧) أخرجه: البخاري، كتاب العلم، باب «من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس»، (٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) الموافقات، للشاطبي (٤/٢٥١).

(٩) الإفتاء عند الأصوليين، محمد أكرم (٢٣٥)، الضوابط الشرعية للإفتاء، عبد الحي عزب (٣٢).

(١٠) المجموع، للنووي (١/٤٨)، صفة الفتوى لابن حمدان (ص٦٠).

بمهمة البلاغ العام بمختلف الأحكام، سواء عن طريق برامج التعليم والدعوة، أو برامج التثقيف أو الترويح المنضبط.

٢- إن سهولة حفظ واسترجاع تلك البرامج الفضائية، والصفحات الإلكترونية ساعد بشكل مباشر على نشر الفتاوى، وتعظيم الإفادة منها.

٣- دعمت الفُتيا بمعلومات استشارية مهمة في مختلف التخصصات العلمية، وأعانت على الاستفادة من العلوم الاجتماعية في الفُتيا.

٤- وفَّرت فرصة لإعادة الترابط وتقوية الوشائج وتلاقي القرائح لإنضاج الفُتيا لا سيما ما يتصل بالشأن العام من مسائل وأحكام.

٥- وقد أدت تلك الوسائل الحديثة خدمات جليلة في مجال ميكنة دور الإفتاء الرسمية وتطويرها، فعلى سبيل المثال فإن دار الإفتاء المصرية يقوم بين جنباتها مشروع قوي يدخل بالفتوى الشرعية إلى عصر النهضة المعلوماتية، بحيث يبدأ تطوير وسائل الاتصال بين مركز المعلومات بدار الإفتاء والمستفتين على الصعيدين الدولي والمحلي، ومرورًا بتأهيل الباحثين وأمناء الفُتيا على استخدام أدوات تقنية المعلومات، وانتهاءً بالإفادة من الشبكة العنكبوتية في تلقي الأسئلة والإجابة عنها من خلال موقعها الإلكتروني، ومن ثم حفظها على وسائط إلكترونية وترجمتها باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية[11].

بالنسبة للمفتي:

١- فقد أفاد المُفتُون من سهولة استرجاع فتاواهم وفتاوى غيرهم، ومن إمكانية مراجعة ومطالعة ذلك بشكل سريع، وهو أمر يعين على تقليل التعصب، وتقدير رأي المخالف بالاطلاع على حجته.

٢- تتيح وسيلة الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) التمهل في الفُتيا والتأني في إصدارها، بل وتصحيح الخطأ إذا وقع.

٣- بعض هذه الوسائل الحديثة قد عرَّفت بعدد من المتأهلين للفُتيا ممن لم يكن يعرفهم الناس من قبل.

٤- ولا شك أنها اختصرت الزمن فيما يتعلق بنشر فتاوى كبار المفتين، الأمر الذي انْتُفِعَ به كثيرًا.

٥- أفادت هذه التقنيات الحديثة في تكميل صورة الواقع وتوضيحه في المسائل المعروضة؛ حيث تعتبر الشبكة العنكبوتية والفضائيات مصدرًا ثريًا للمعلومات، وهو ما يفيد المفتي في ضبط الفتوى.

بالنسبة للمستفتي:

١- الفتاوى من خلال الشبكة العنكبوتية -خاصة- وفرت للمستفتي مكتبة للفتوى بشكل ميسر، بل أصبحت مرجعية للجاليات المسلمة في بلاد غير المسلمين، كما أنها تميزت بالخصوصية أو الشخصية فيما يرسله المستفتي إلى المفتي وفيما يجيبه عليه، مع إمكانية مراجعة المفتي في فتواه، وتوضيح أبعاد المسألة، علاوة على أن تلك الفتاوى تُعطَى بالمجان.

٢- الفتاوى المباشرة عبر القنوات الفضائية تتميز بسرعة إيصال السؤال والجواب، كما أنها تكفي المستفتي عناء الانتظار وعناء الانتقال إلى مكان المفتي، وهذا موافق لطبيعة هذا العصر ولداعي العجلة عند الإنسان.

٣- المستفتي يختار الشيخ الذي يطمئن إلى فتواه، ومع أن الفتيا مباشرة إلا أنه لا يواجه المفتي مواجهة مباشرة، وهذا قد يتفادى معه المستفتي حرجًا معينًا.

ثانيًا: ملاحظات حول موضوعات الفتاوى المعاصرة وطريقة الإجابة عنها:

هذا الزمان كغيره من سالف الأزمان؛ للإنسان فيه أسئلة تتعلق بثوابت لا تقبل تغييرًا ولا اجتهادًا في تحصيل أحكامها؛ لأنها منصوصة، وإنما ينحصر عمل المفتي المجتهد في فهم نصوصها وتفسيرها، ومقارنتها بغيرها من النصوص فحسب، ولا يجوز تجاوز أحكامها أو تغييرها أو تعطيلها،

(١١) موقع جامعة العلوم الإسلامية بماليزيا، معهد إدارة الفتوى والبحوث Infad.Kuim.edu.my.

وإلا لأدى ذلك إلى نسخ الدين أو الانسلاخ من الإيمان، ومن ذلك عامة مسائل الاعتقاد، وأصول أحكام العبادات والمعاملات، والأحوال الشخصية والأخلاق، وأما فروع ذلك كله فمحل اجتهاد غالبًا، والنصوص التي تتعلق بمصالح دنيوية متغيرة، ومرتهنة بوجود أسباب وعلل معينة تتحقق أحكامها بتحققها وتزول بزوالها، والاجتهاد حين يفرز أحكامًا مستنبطة جديدة؛ فإنها لا تلغي الأحكام الأولى ولا تنسخها، فإذا كان إعطاء المؤلفة قلوبهم من الزكاة نهائيًا لا يقبل نسخًا ولا إلغاءً، فإن هذا لم يمنع الفاروق عمر أن يجتهد في التوقف عن إعطائهم لما أعز الله دولة الإسلام وقويت أركانها، فإذا جدَّ بالمسلمين ما يدعو إلى إعماله من جديد فإن الحكم سيتعلق بعلّته ويدور معها ولا بد.

النصوص التي تتعلق بمصالح دنيوية متغيرة، ومرتهنة بوجود أسباب وعلل معينة تتحقق أحكامها بتحققها وتزول بزوالها.

إلا أن جانبًا كبيرًا من أسئلة الناس اليوم قد تلبَّس بلباس هذا العصر الذي تأجَّجت بين جنباته تيارات متدافعة، واشتعلت في ربوعه حروب ونزاعات سياسية وعسكرية، مع ثورة تقنية هائلة، فإذا أضيف إلى ذلك ضعف عام بأهل الإسلام، وتسلط أعدائه عليه بصنوف الكيد، فإن هذا بأسره سيولد نوازل لا عهد للأمة بها، إلا أن تجتمع جهودٌ، وتحصَّل آلات، ويُستعان أولاً وآخرًا بتقوى الله تعالى.

وهذا ما يتعذر استيفاؤه في رد عابر أو فتوى عجلى، كما هو الحال في كثير من الفتاوى المباشرة في الحوادث والمستجدات المعاصرة.

ومما لا شك فيه أن العناية بمتغيرات العصر، وإبداء القول الشرعي في حديث مخترعاته، لما يسهم في إعادة الثقة إلى نفوس متذبذبة، وتقوية الإيمان في قلوب ضعيفة، وهو من جهة أخرى يقطع ذريعة اللجوء إلى قوانين وضعية، ويغلق باب الاجتراء على الشريعة الإسلامية، ويقيم البرهان على حيوية الفقه.

وبكل حال فإن الفتيا المعاصرة لها مصادرها الكثيرة والمتنوعة، ومنها ما تقل عليه الملاحظات جدًا، ومنها ما تكاد تأتي الملاحظات على مشروعية اعتماده مصدرًا صحيحًا للفتيا، وفيما يلي ذكر مصادر الفتيا المعاصرة:

أولاً: كتب النوازل:

وهي نوعان: كتب قديمة، وذلك ككتب الفتاوى والسؤالات، والأقضية والوقائع، ونحوها في المذاهب الأربعة أو فقه الأئمة المجتهدين.

وأما في الحديثة فتشمل الرسائل الجامعية في مجالات الشريعة الإسلامية، والبحوث المحكمة في المجلات والدوريات العلمية، سواء الصادرة عن المجامع الفقهية، أو الجامعات والكليات الشرعية، أو المجلات الشرعية الصادرة عن هيئات مستقلة.

ثانيًا: التوصيات والدراسات الصادرة عن المؤتمرات والندوات الخاصة ببعض النوازل، وذلك مثل:

١- الندوات والحلقات العلمية التي يقيمها البنك الإسلامي للتنمية في مجالات الاقتصاد الإسلامي والتنمية بجدة.

٢- ندوات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، في مجالات النوازل والمسائل الطبية المعاصرة.

ثالثًا: القرارات والبيانات والفتاوى الصادرة عن المجامع الفقهية واللجان والهيئات العلمية، وذلك مثل:

١- مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بالقاهرة.

٢- المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

٣- مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي.



وهـذه الأنواع الثلاثة السـابقة يغلـب عليها صفة الجماعيـة في الفُتيـا، وسـواء أكانـت قـرارات مجمعيـة تتسـم بالضبـط والإحـكام، أو كانت فتـاوى جماعية تصـدر عن لجان الفُتيا، ويشـارك فيها عدد من الفقهاء، أو بحوثًا محكمة في رسائل جامعية، أو مجلات ودوريات محكمة -فإنها تبعث علـى الاطمئنـان، وتدعـو إلى القبـول والاعتماد- غالبًا-؛ وذلك أكثـر من الفتاوى الفردية والبحوث الشخصية.

كما تجـدر ملاحظـة وقوع بعض هـذه المجامع تحـت ضغوط متنوعـة، دولية أو محلية، سياسـية أو إعلاميـة أو غير ذلك، مما يجعـل الفُتيا الفردية أكثر تحررًا وأبعد عن الضغوط الخارجية.

رابعًا: كتب فتاوى المعاصرين الفردية:

وذلك وسـواء أكانت لمجموعة مـن العلماء كلٌّ أفتى على حدة، أو لمُفْتٍ دون سـواه، وذلك بشـرط كونهـا مكتوبة ومحـرَّرَة من قِبَل الشـيخ المفتي، أو راجعها قبـل طبعها، وهي دون الفتاوى المجمعية غالبًا، ومن تلك الكتب:

١-فتاوى الشـيخ محمد بن إبراهيم، مفتي الديار السعودية الأسبق.

٢-فتاوى الشـيخ محمود شـلتوت، مفـتي الديار المصرية وشيخ الأزهر الأسبق.

خامسًا: فتاوى الشبكة العنكبوتية:

وتمثلها مواقع عديدة منها:

١- موقع إسلام أون لاين:	www.islamonline.net
٢ -موقع الإسلام سؤال وجواب:	www.islamqa.com
٣- موقع الإسلام اليوم:	www.islamtoday.com
٤- موقع الفتوى:	www.fatwanet.net
٥- موقع جامع الفقه الإسلامي:	www.faqh.al-islam.com
٦- موقع المسلم:	www.almoslim.net
٧- موقع الشبكة الإسلامية:	www.Islamweb.com

- كما يمكن الإفادة أيضًا من برامج الحاسب الآلي؛ حيـث صدرت بعض الأقراص المدمجة التي تحتوي على جمع من الكتب والأبحاث والفتاوى المعاصرة.

وقد وقفت في طريق هذه الوسـيلة عقبات كثيرة ولُوحِظَتْ سلبيات عديدة منها:

١- عرض المسـتفتي سؤاله على عدد من المفتين، وتحصيـل إجابات متعـددة للسـؤال الواحد، حتى يصل المستفتي إلى جواب يريده بعينه!

٢- اسـتقلال المسـتفتي بأخذ الفتاوى من خزانة الفُتيـا بالمواقـع، دون مراعاتـه لخصوصيـة الفُتيا بالنظر لظروفه ومكانه وزمانه، الأمر الذي يسبب خللاً في الفتيا.

٣- عـلاوة على أن عدم مباشـرة السـائل للمفتي المسـئول قد يُوقِع في سـوء فهـم، أو لبس في إدراك مراد السـائل، فتأتي الفُتيا غير مطابقة للسؤال أو غير دقيقة في مضمونها.

٤- وقـد أتـاح هـذا اللون من الاسـتفتاء السـهل السـريع غير المباشر سـلبيةَ السـؤال عما لا ينفع، وفـرض كثير مـن المسـائل الصعبة ممـا لم يقع ويُستبعد وقوعه، مما يدخل تحت مسمى الأغاليط، والتي يُنهَى عنها شرعًا.

٥- وربما وُجِدَ شـيء مـن العجلة عند المفتي على الشـبكة، وضعف في تصور المسـألة؛ لعدم وضوح السؤال أو نقص التفاصيل، مما قد يستدعي فرض حالات متعددة والإجابة عنها ضمن السؤال مما قد يُوقِع في حيْرة السائل بدلاً من إعانته!

سادسًـا: الفتـاوى المباشـرة عـبر القنـوات الفضائية والتلفاز والإذاعات، سواء أكانت على الهواء مباشرة أم كانت مسجلة:

وهذه الوسـائط شديدة النفع شـديدة الخطر في آنٍ واحـد، وحيث اختار المفـتي أن يخرج على هذه الوسائل الإعلامية عميقة التأثير، سريعة الانتشار؛ فإن عليه أن يحسن الإفادة منها، ليتجنب الوقوع في عثرات كثيرة.

ومما لا تخطئه العين من مزالق الفُتيا المباشرة وسلبيات الإفتاء الفضائي ما يلي:

١- كثرة الخطأ وتعاظمه: المفتي بحكم بشريته معرَّض للخطأ في كل عصر ومصر، إلا أن الخطأ يتفاحش ويكبر في زماننا بشكل مضاعف؛ حيث تجتمع المؤثرات الفكرية والنفسية والاجتماعية، وتتعدد المحاذير السياسية والأمنية أمام مفتي الفضائيات خاصة.

ولا شك أن دائرة الخطأ تتسع ولا تتحصر، لا سيما في الفضائيات والتلفاز؛ مما لا يسهل معه تدارك الخطأ إن وقع، وهو واقع لا محالة.

وكثيرًا ما يأتي الخطأ من تساهل الفتيا، وعدم التثبت فيها، وربما أتى من عدم فهم السؤال على وجهه، وقد يتطرق الخلل من جهة اختلاف أحوال الناس وأعرافهم، وضعف الإحاطة بلغاتهم ومقصود كلامهم، وقد يخطئ المفتي لسوء قصد من يستفتي، وقديمًا قيل: «المفتي أسير المستفتي»، وربما كان الخطأ من اختصار في السؤال أو الجواب، أو غير ذلك من الأسباب.

٢- تعميم الفتيا: وهو أمر غير مقبول أبدًا؛ فإن الفتيا قبل الفعل قد تختلف عنها بعد الفعل، وما عمت به البلوى يخالف في الحكم ما يقع نزرًا يسيرًا، والأحكام التي تبنى على المصلحة تنتفي بانتفائها، والذرائع المُفْضِية إلى الحرام؛ كما يجب سدها فقد يجب فتحها وتُندَب وتُبَاح، والأحكام المنوطة بالأعراف والعادات تتغير بتغيُّرها، ولا يعتبر التغير إلا إذا اطَّرَد العرف وغلبت العادة، واختلاف الديار وتقسيمها إلى أنواع له مدخل في تغير الفُتيا في المسائل الاجتهادية، واختلاف المقاصد للمكلفين سبب يورث اختلاف المجتهدين، وتقدُّم العلوم والتقنية له مدخل في ترجيح بعض مسائل الخلاف بين المتقدمين، وتغيُّر الأعيان واستحالتها بشكل كامل يؤثر في الأحكام المتعلقة بأعيانها.

وعليه فإن تعميم الفُتيا الفضائية -بغير نظرٍ إلى ما ذُكِرَ من أسباب وعوامل تُفضي إلى تغير الفُتيا والأحكام الفقهية الاجتهادية- مزلق خطير، فعلى المفتي في هذه القنوات أن يحذر هذه المَزَلَّة، كما يحذر من مصطلح عولمة الفُتيا فإنه لا يمكن قبوله على هذا النحو بإطلاق!

٣- تضارب الفُتيا: وهذا يشتت المستفتين ويحيِّرهم، ويُضعِف ثقتهم بأهل العلم، ويُوغِر الصدور في كثير من الأحيان، ويفتح باب التشهي واتباع الهوى عند ضِعَاف الإيمان، ويتيح للمضلين من أهواء البدع -والأهواء فتنة للناس- التشغيبَ على الفتاوى الصحيحة بحجة الخلاف، وأن الخلاف سائغٌ كله، وهذا يُحيل خلاف التضاد إلى تنوع، ويحوِّل ما هو قطعي نصي أو إجماعي من المسائل الفقهية أو العلمية إلى ظنيات قابلة للاجتهاد والأخذ والرد.

٤- استغلال بعض المستفتين استتار أشخاصهم؛ ليعمدوا إلى طرح ما يُعنت المفتي أو يُحرجه، أو يصنِّفه، أو يثير فتنةً نائمة، أو يبحث عن إجابة لسؤال؛ طلبًا لجائزة أو ليوفر على نفسه عناء بحث علمي يقدمه، ونحو ذلك مما يخالف أدب المستفتي.

٥- اختيار المفتين قد يقع على أسس غير منهجية سليمة، كأن يُستضاف المعروف بتساهل، أو اشتُهِرَ بمنحًى غير مرضيّ في قضايا معينة ليُسْأَل فيها، أو على أساس الشهرة في تخصص لا يَمُتّ إلى الفقه والشريعة بصلة.

٦- ضعف مقدمي البرامج من الناحية الشرعية، الأمر الذي يلقي بظلال سلبية، حيث لا يكون المقدِّم قادرًا على تلخيص الجواب لسائله، أو إعادة صياغته بعبارة تسهل على مستمعه من غير إخلال بمضمونه، أو تنبيه المفتي إلى موضع غفل عنه، أو فائدة يحسن التنبيه إليها، أو يستوضحه إذا كان الجواب غامضًا أو مبهمًا.

وعليه فينبغي أن يكون المقدم مختارًا بعناية، وأن يكون من طلبة العلم وأهل الفهم، وسرعة البديهة والقدرة على حسن الإدارة والتصرف في العبارة.

٧- الوقــوع في مصيدة البحــث عن الإثارة، وهذا منــزَع غريب يتنافى وقصد نفع الخلق وهدايتهم إلى الطريق الحق، وقد تلجأ إليه قنوات فضائية تبحث عنه؛ لأنه من مقومات العمل الإعلامي؛ بغض النظر عن الحكم الشرعي، وهذا من زَيْف هذه القنوات والوقوع فيه وقوع في شِرَاك تافهة، وفي نفس الوقت قــد تضرب الفتــاوى ببعضها طلبًا للإثــارة لا غيرُ، ويُســتفَز المفتي إلى الكلام فيما هو حسَّاس مثير، ولو كان غير مفيد أو نافع.

٨- الإيجاز المُخِلّ في جواب الفُتيا، وعدم التفهم لما يُلْقى؛ رغبة في إجابة أكبر عدد، أو لضيق الوقت، وهو كما يسبِّب ضعفَ التصور الصحيح للمسألة، يُوقع المستفتي في حيرة، أو في خطأ؛ بسبب الإيجاز الــذي اقترب من الإلغــاز، أو يذهــب ببركة الفتيا وشفائها لغلَّة السائل.

٩- تصدُّر غــير المتأهلين، ومما يحمل على ذلك: عدمُ الرقابة الشرعية على تلك المحطات الفضائية، والرغبــةُ في الإجابــة عن الأســئلة المتدفقة من كل حدب وصوب، وربما التنافس مع القنوات الأخرى، وقد تدخل اعتبارات ماليــة أو مادية!! وتزداد البلية بتصدِّي أنصاف المتعلمين للنوازل المستجدة والمسائل الدقيقــة، مــع تحرجهم من قول: «لا أعلم»؛ خشــية سقوط جاههم.

إن الفتــوى المباشــرة قد غدت مكونًــا مهمًّا من مكونــات الإعلام الإســلامي في الإذاعــة والتلفزة والفضائيــات والشــبكة العنكبوتيــة علــى حــد ســواء، وهــي بكل المقاييــس باب مهم مــن أبواب الدعــوة والتعليــم، ومصــدر مــن مصــادر التوجيه والتأثير العام.

وهذه الفتيا المباشــرة شــأنها شــأن الفتيا في كل عصــر ومصر، يمكن أن توظَّــف توظيفًا صحيحًا فتخــدم قضايــا الأمــة، ومــن المفتــين اليــوم مــن يســتعمل الفتيا المعاصرة لإنهاض الأمة في قضاياها المصيرية، كما في حكم الصلح الدائم مع اليهود، وكما في فتــاوى العمليات الاستشــهادية على رُبَى فلسطين المحتلة، ومقاطعة السلع الواردة من الدول المحاربة للإســلام وأهله، والتي لا تتصرر الأمة من مقاطعتها، ونحو ذلك من الفتاوى التي تستبين معها ســبيلُ المخالفين، كما في فتاوى الهيئات الشرعية في القادينيين والبهائيين وغيرهم.

إلا أنــه وفي الجهــة الأخرى تُســتعمل الفتوى ضد الأمــة، حين يُفتَــى بمنع مواجهــة المحتل في الأرض المباركة في فلسطين؛ بحجة عدم وجود إمام، وكذا في العراق وغيرها، أو الإفتاء بحِلّ الفوائد البنكية بعد صدور ما يشبه الإجماع على حرمتها.

الوقفة الثالثة
ضوابط الفُتيا المعاصرة

حتــى تؤتــي الفتيا المباشــرة والمعاصــرة أُكُلها؛ فهذه جملة ضوابط تتعين رعايتها والالتفات إليها، ويلزم كل طرف من أطراف الفتيا الالتزام بها والحرص عليها:

أولاً: الضوابط المتعلقة بالمفتي:

كما أن فيئة الأمة إلى مفتيها يضبط مرجعيتها، ويجنبهــا المتالــف، ويقيهــا المعاطب؛ فإنــه من جهة أخرى يشدّ ظهور العلماء ويقوّي قلوب الفقهاء.

ومــا يقال عن أثــر الفتيا على المفــتي الفرد يقال أيضًــا في حق المجامع الفقهيــة واللجان البحثية، لا سيما إذا استقلت عن ركاب الهيمنة والسيطرة.

وبناءً على ما ســبق فلا بد أن يأخذ المفتي نفســه بجملة أمور، قبل الشروع في الفتيا عامة، والمباشرة خاصة، ومنها:

١- النية الصالحة:

فيجب أن ينوي بفتياه بيان أحكام الله ابتغاء مرضاة الله، وامتثال أمر الله، ووفاءً بعهده وميثاقه الذي أخذه علــى أهــل العلــم، واقتفاء أثــر النبي -صلــى الله عليه وســلم- وأصحابــه في الفتيــا، وأن يبرأ مــن آفات طلب إعجاب الناس بكلامه، ونحو ذلك من الآفات.

٢- استجماع ضوابط الفتيا المباشرة:

إن خروج المفتي في وســائل الإعــلام للإجابة على

الفتيا بشكل مباشر، كما يحقق إيجابيات عدة تكتنفه مخاطر كثيرة، كما سبق بيانه، وقد رجَّح كثير من أهل العلم جواز الخروج بضوابط ذُكِرَ بعضها، ويأتي ذكر بقيتها، ومنع طائفة قليلة الخروج مطلقًا، وقيَّدت أخرى الظهور الإعلامي للمفتي بنقاء تلك الوسائل المعاصرة من فضائيات وغيرها من المخالفات الشرعية، وهذا أمر اجتهادي لا يُنكَر فيه على من اختار قولاً بدليله الراجح لديه.

ومع ترجيح الظهور الإعلامي للمفتين؛ فلا مناص من رعاية الضوابط المرجحة للجواز، وإلا كان على المفتي تبعة هذا الظهور غير المنضبط!

٣- عدم تجاوز المفتي موقعه العلمي في الفتيا:

المفتي إما أن يكون مستقلاً بالفتيا، وهذا منصب المجتهد المطلق، وإما أن يكون غير مستقل بالفتيا، وهو المجتهد في مذهب إمامه، أو مجتهدًا في نوع من العلم كالفرائض أو المعاملات، أو مجتهدًا في مسألة أو مسائل من العلم.

فإذا تجاوز مجتهدُ المسألةِ إلى رتبة المجتهد المستقل أفسد في دين الله، وكان آثمًا مسئولاً عن فُتْيَاه، ووجب الأخذ على يديه.

فإذا كان مفتي الفضائيات لم يبلغ رتبة الاجتهاد المطلق أو دونها، وإنما هو بين أن ينقل فتاوى أهل العلم، أو يجتهد في مسائل محددة، فإن عليه أن يتقيد بما حصَّل آلته، واكتملت فيه دُرْبَته.

٤- على المفتي القاصر أن يحدد نطاق الفتيا:

ذلك أن مفتي المسألة ونحوه لا تكتمل عُدَّته؛ لكي يجيب على الفتاوى المباشرة، والتي تعرض عرضًا عامًّا سريعًا، وتتنوع نطاقاتها فمن العبادات إلى السياسة الشرعية، ومن المسائل المعتادة إلى النوازل المستجدّة، فإذا كانت تبث بثًّا هوائيًّا مباشرًا فقد وجب ألا يتصدى لها -والحال هذه- إلا مَن اتصف بفقه النفس وقوة الحافظة، وسرعة البديهة، وكمال الاستحضار للأدلة والأقوال، وهذا لا يكاد يتأتى إلا لمن طالت في الإفتاء خبرته، وكان عليمًا بأسئلة الناس ومداخلهم، خبيرًا بما تعمّ به البلوى وغيره، فالصواب الذي لا ينبغي أن يُحَادَ عنه أن يحدِّد المفتي القاصر موضوع فتاويه المباشرة قبل أن يخرج، أو تعدّ لها الأسئلة سلفًا قبل أن يجلس.

إذا تجاوز مجتهدُ المسألة إلى رتبة المجتهد المستقل أفسد في دين الله، وكان آثمًا مسئولاً عن فتياه، ووجب الأخذ على يديه.

٥- العناية بضوابط ما قبل الفتيا:

لا يجيب إلا على ما ظهرت مصلحة الإجابة عنه، مما ينفع الناس علمه، ويحتاجون إليه في دينهم، ويصلح به أمر دنياهم، أما الأسئلة الجدلية أو الفرضية بعيدة الوقوع، أو التي يُرَاد بها إعنات المسئول، أو التعالم والتفاصح، أو نحو ذلك من المقاصد المذمومة، فلا ينبغي أن يتعرض لها ولا أن ينشغل بها.

كما أن عليه تجنب الإجابة عن أسئلة صعبة الفهم بعيدة عن عقل مستمعيه، لا سيما إن كان في القنوات الفضائية التي تبث بثًّا مباشرًا، وما يصلح في قاعة الدرس قد لا يصلح للبث.

ويلزم المفتيَ أن يفهم ما يُلْقَى إليه من الأسئلة فهمًا دقيقًا، وأن يتثبت ولا يعجل؛ فإن العجلة من الشيطان، وأن يجرد نفسه من هواها.

وعليه أن يلجأ إلى الله، وأن ينبعث من قلبه صدق الافتقار إلى مُلْهِم الصواب ومعلِّم الخير، وإن اشتبه عليه أمر بادر بالتوبة والاستغفار والأذكار، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئه.

٦- العناية بضوابط استنباط الفتيا وتحريرها:

وهذا يبدأ من أن يسلك سلك الوسطية في منهج استنباط الأحكام، فلا يسلك مسالك أهل

التشديد الغالي ولا أهل التفريط الجافي.

وإن كان للمفتي أن يأخذ نفسه بالعزائم وما هو الأورع، إلا أنه حين يفتي غيره يلاحظ الوسط المناسب لجمهور الناس.

وليحذر المجاملة في الفتيا ومجارات السائل أو الواقع، كما يحذر تتبُّع الحِيَل المحرمة أو المكروهة، والتساهل في طلب الرخَص.

وأن يحسن صياغة الجواب بما يزيل الإشكال، وإن كان في المسألة تفصيل لم يترك الجواب حتى يفصِّله تفصيلاً، وعليه أن يتجنب وحشي اللغة وصعب الألفاظ، والمصطلحات التخصصية مما قد لا يناسب المجالس العامة.

وعليه أن يرفق بالسائل، ويحتسب في ذلك الأجر، وعليه أن يعتبر نفسه مفتيًا ومعلمًا ومصلحًا وطبيبًا ومرشدًا في وقتٍ واحد، وهذا يقتضي أنه يبسط الإجابة حينًا، وأن يشرحها مُمَثِّلاً لها حينًا أخرى.

كما أن عليه أن يُعْنَى بذِكْر دليله؛ ليتربى الناس على حسن الصلة بكتاب الله وسنة نبيه، ويطمئن السائل إلى مأخذه من كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-.

وعليه أن يترك الجواب أحيانًا؛ إما لعدم علمه بالمسألة، أو لحاجته إلى مزيد مراجعة ومشاورة، أو لما قد يترتب على الجواب من مفاسد تربو على مصالحه، وقد سُئِل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحج: «أكلَّ عام يا رسول الله، صلى الله عليه وسلم» فلم يرد على السائل مرتين[١٢].

وعليه أن يتحول في الجواب إلى ما هو أنفع للسائل، وقد سألوا في القرآن عن أمرين فجاء الجواب في غير موضع السؤال، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩].

وكل ذلك يراعي فيه حال مستفتيه، وما يناسبه ويكفيه، ولربما تفاوت الجواب بذلك، كما سُئل النبي -صلى الله عليه وسلم- الوصية من بعض أصحابه، فأجاب كلاً بما يناسبه ويُصلحه، وسُئل عن أفضل الأعمال، فقيَّد ذلك الجواب بحال المستفتي، وما يقدر عليه ويلزمه.

وعليه أن يُعْنَى بالبدائل المباحة ما استطاع، ففي ذلك عون للسائل على سلوك الطريق الحلال، وذلك أن القرآن الكريم لما نهاهم عن قولة: ﴿ رَٰعِنَا ﴾ علَّمهم وأرشدهم ما يؤدي معناها من غير محذور فقال: ﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ وفي الحديث: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[١٣].

وعليه أن يمهد للحكم الذي يستغربه الناس بما يسوِّغه في الفهم، ويعين على قبوله من مقدمات وممهدات، ومن فوائد وثمرات.

وما كان من المسائل متعلقًا بأعراف وأحوال متغيرة بتغير الزمان أو المكان؛ فليستفصل من السائل عن أعراف أهل بلده وحاله، ولا شك أن الأحكام الاجتهادية تتغير بتغيُّر تلك الأحوال، فلكل زمان حكم، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم[١٤].

وتغيُّر الفتيا مقصور على أهلها الثقات الربانيين الذين يخشون الله، وينصحون لعباده، وليس لأهل الأهواء والمبطلين في ذلك مدخل.

وعليه في الجواب عن المسائل الاجتهادية ألا يجزم بأن هذا هو حكم الله تعالى، فإنه لا يدري أيصيب حكم الله أو لا، وقد نهى صلى الله عليه وسلم أميره بُرَيْدَة أن يُنْزِل عدوَّه إذا حاصرهم على حكم الله، فقال له: «فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك»[١٥].

---

(١٢) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب «فرض الحج مرة في العمر»، (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٣) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز» (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٤) إعلام الموقعين، لابن القيم (٢٠٥/٤).

(١٥) أخرجه: مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «تأمير الإمام الأمراء على البعوث..»، (١٧٣١) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

وعليه أن يلتزم الشروط المقررة لاختيار أحد الأقوال في المسألة، وذلك بأن يَتَّبِعَ القولَ لدليله، ولا يختار بالهوى أو التشهي، وأن يجتهد وسعه ويستفرغ جهده، وألا يتبع أهواء الناس.

وعلى المفتي أن يراعي اعتبار مآلات الفتيا في جميع ما يُسأل عنه من الشأن الخاص والعام، وقد سئل ابن عباس تارة عمن قتل نفسًا هل له من توبة فقال: لا، إلى النار، وسئل أخرى فأجاب بالإيجاب، فإذا الأول لم يقتل، والثاني قد فعل!

وعلى المفتي في الجواب أن يسعى لجمع الكلمة ورأب الصدع، ومنع الخصام؛ إذ هو من مقاصد التشريع لا سيما في المعاملات.

وعليه أن يعلِّم أدب الخلاف لمستمعيه وسائليه بالقدوة الحسنة والاعتدال، وتجنُّب الدخول في معارك مع أمثاله من المفتين، وألا تستفزه المؤثرات الإعلامية، أو يستدرجه بعض مقدمي البرامج، أو يستثيره بعض السائلين أو المعلقين على كلامه، وليحذر الإثارة لمجرد الإثارة، وإنما الإثارة للإفادة، والإثارة للإثراء، ولا يعني تركه الإنكار على المخالف أن يترك بيان الراجح من الأقوال بدليله.

وعلى المفتي أن يسعى من خلال فتواه أن يحقق عبودية الخلق للحق، فالاجتهاد في إدراك الأحكام وتبليغها محكوم بمبدأ العبودية لله، ودرء كل تعارض موهوم بين العقل والنقل.

وعلى المفتي المعاصر أن يعرف مراتب الفتيا في هذا العصر، فأعلاها ما صدر بإجماع صحيح صريح منعقد، ثم ما كان جماعيًّا صادرًا عن مجامع فقهية دولية، ثم فتاوى اللجان العلمية ثم الفتاوى الفردية، ولا شك أنه كلما كثر عدد المفتين المشتركين في فتيا كان ذلك أدعى للقبول والطمأنينة، وإن لم تكن متمحضة الصواب أو مختصة به، أو محتكرة له، وهي بطبيعة الحال لا تعتبر إجماعًا، والفتاوى الفردية قد تكون أحظى بالصواب أحيانًا، وقد ترجح في زمان أو مكان أو في أحوال معينة، وهي فتاوى أبعد عن الضغوط الخارجية، وربما كانت، أعمق نظرًا، كما وأن الفتيا سواء كانت فردية أم جماعية لا تصلح أن يُستَنَد إليها ويُحتَج بها دون ما سواها؛ لما تقرر من إمكان تغيُّر الفتيا في المسائل الاجتهادية باختلاف الأعراف والأحوال التي ارتبطت بها تلك الفتيا.

لذا فإن على المفتي أن يراعي التطور الذي ينشأ في مسألة بعينها؛ بسبب تغير الزمان أو المكان أو الأعراف، فلا بد للمفتي من أن ينص على الصورة الواقعة ويستوعب أحوالها، ولا يغفل عن واقعها وما يلابسها، ولا يحيد عن ذلك، وإلا كان مُلَبِّسًا أو غافلاً لا تبرأ ذمته بالحكم عليها من حيث الأصل[16].

وعلى المفتي أن يُعْنَى بالتأصيل مع التفصيل، وقد كانت همة أكابر العلماء إلى العناية بالتأصيل معروفة.

وعليه أيضًا أن يجتنب التعميم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا سيما فيما يتعدد استعماله بين مباح ومحرم، أو تتنوع أصنافه بين جائز وممنوع، وهكذا.

وعلى المفتي في الفضائيات وغيرها إذا سُئِلَ عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، وأن يسكت عما لا يعلم.

وعلى المفتي أن يراعي أن الفتاوى القائمة على أوضاع استثنائية، أو في ضرورة معينة يجب أن تنضبط بالتالي:

١- الفتاوى العامة للأمة المبنية على الضرورات يجب أن تُسنَد إلى المجامع الفقهية، وألا ينفرد بها آحاد المفتين، إلا أن تكون الضرورة مما لا يُختلف فيها.

٢- وأن يُستعان في تقدير الضرورة والحاجة التي تنزل منزلتها في الأمور العلمية أو العملية المتخصصة بأهل الاختصاص؛ تمهيدًا لإفادة المفتين منها في استنباط الحكم الشرعي.

٣- ألا تُعَمَّم الفتوى الخاصة المبنية على أساس الضرورة على جميع الأحوال والأزمان والأشخاص.

٤- كما لا يجوز القياس على فتوى الضرورة؛ لأنها على خلاف الأصل، ولاختلاف حيثيات الفتوى المبنية عليها من جهة لأخرى.

(١٦) فقه النوازل، للجيزاني (١/ ٧٠-٧٤).

٥- مع التأكيد على أن فتوى الضرورة حالة استثنائية تنتهي بمجرد انتهاء موجبها، ووجوب السعي لإيجاد بديل عنها قدر المستطاع[١٧].

- وعلى المفتي ألا يتقاضى أجرًا على الفتيا من أعيان من يفتيهم؛ لأن الفتيا تبليغ عن الله، فلا تجوز المعاوضة عليها، ويجوز له أن يأخذ من بيت مال المسلمين إذا كان محتاجًا بغير خلاف، وجرى الخلاف إذا لم يكن محتاجًا.

ثانيًا: الضوابط بالنسبة للمستفتي:

المستفتي هو كل مَن لم يبلغ درجة المفتي فيما يسأل عنه من الأحكام الشرعية، ويجب الاستفتاء بشرطين: الأول أن يكون المستفتي غير مجتهد، والثاني أن يكون الحكم الشرعي قد وجب عليه معرفته، وهو يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، قال تعالى:﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]، والمستفتي تتعلق به أحكام، وتلزمه آداب عليه أن يرعاها بشكل عام، ولخصوص الفتاوى المعاصرة آداب ينبغي حفظها، ومن ذلك:

أن يسأل أهل العلم المعروفين؛ لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]، ومتى نزلت بالمستفتي نازلة؛ فإن عليه أن يذهب إلى الشيخ ليُفْتِيَهُ، فإن لم يجد أو لم يكن ببلده لزمه الرحيلُ إليه، وإن بعُدَت داره، وقد رحل غير واحد من السلف في مسألة[١٨].

ولا شك أن هذا الإلزام لم يعد قائمًا في عالم اليوم؛ لتوفر وسائل الاتصال الحديثة.

أن يتحرى بسؤاله الأغزر علمًا والأكثر ديانةً؛ إذ ليس كل من ادعى علمًا أحرزه.

وفي الفتيا التقليدية لا يصعب على العامي أن يعرف الفقهاء المعدودين، والعلماء المشتهرين بالفتيا؛ حيث يظهر ذلك من أخذ الناس عنهم، وثناء العلماء عليهم، واستفاضة الخبر بعلمهم وفقههم.

(١٧) البيان الختامي لمؤتمر منهجية الإفتاء في عالم مفتوح، منتدى الأصلية على الشبكة العنكبوتية في ٢٠٠٧/١٢/١٧م.

(١٨) صحيح الفقيه، الخطيب البغدادي (٩٤/١).

وأما في القنوات الفضائية اليوم فقد يجلس المتأهل للفتيا وغيره، ويتصدى للإجابة الصالح لها وضده، ولذا فإن الواجب على المستفتي ألا يسأل إلا مَن عُرف بين الناس واشتُهِرَ قوله، وعُلِم دينه وورعه، وأُشير إليه بمقام العلم.

أن يُحسن عرض سؤاله، مبيِّنًا ملابساته، موضِّحًا كل ما يتعلق به؛ حتى يستبين المفتي الواقع بتمامه، ولا يحاول أن يعمِّي على المفتي، أو أن ينحرف بالكلام إلى جهة تُنْتِج له مطلوبه، وهذا لا يُتوصل إليه إلا بتقوى الله تعالى، والخروج من التبعة بين يديه غدًا في القيامة، قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

أن يسأل المفتي عما يعرض له من شئون دينه؛ مما ينفعه في حياته وآخرته، وأما ما لا نفع فيه فعليه أن يمتنع منه، ولا يجب على العالم أن يجيبه، وقد غضب النبي -صلى الله عليه وسلم- من أسئلة لا نفع فيها كقول عبد الله ابن حذافة: «من أبي»؟[١٩].

وقال عليه الصلاة والسلام «ذروني ما تركتكم»[٢٠].

وكثيرًا ما يلاحظ اليوم على أسئلة السائلين للمفتين في الشبكة العنكبوتية والفضائيات البحث عن عِلِّيَّة حكم تعبدي كتسبيح الطواف، وعدد ركعات الصلوات، مما يُذَكِّر بالتي سألت عن قضاء المرأة الصيام دون الصلاة، هذا فضلاً عن معارضة القرآن والسنة بالرأي، والبحث عن المتشابه، والسؤال عما شجر بين الصحابة ونحو ذلك.

أن يتفهم الفتيا بكل قيودها، فلا يخطف الجواب خطفًا كما هو مشاهَد، بل يتأمل ويتأنى في هذه الكلمات التي تُلْقى عليه، وهل تنطبق على حاله أم إن فيها ما يستدعي المراجعة، أو ما يتطلب التقييد أو التفصيل، أو التخصيص ونحو ذلك، مما لا تبرأ الذمة إلا بضبطه.

(١٩) أخرجه: البخاري، كتاب العلم، باب «الغضب في الموعظة..»، (٩٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب «توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه..»، (٢٣٦٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢٠) أخرجه: مسلم، كتاب الحج، باب «فرض الحج مرة في العمر»، (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

العامي لا يصح له مذهب، ولا يلزمه أن ينتسب إلى مذهب؛ لأنه لا يعرف كلام أهل المذاهب، ولا يدرك مصطلحاتهم، فيجب عليه أن يسأل أحد المفتين المستجمعين لشرائط الإفتاء في زمانه ومكانه.

إذا اختلف المفتون على السائل في الفُتيا، وجب عليه أن يعمل بما غلب على ظنه أنه شرع الله تعالى، سواء غلب ذلك على ظنه بواسطة كثرة المفتين بأحد الأقوال، أو بأفضلية القائلين به، أو بالأدلة الشرعية[21]. فيعمل كما يعمل عند اختلاف الطريقين أو الطبيبين أو المُشِيرين[22].

إذا عمل العامي في مسألة بما أفتاه مجتهد؛ فإنه يلزم العاميَ العملُ بهذه الفتوى والبقاء عليه، وليس له الرجوع عن فتواه إلى فتوى غيره في هذه المسألة، ونُقِلَ الإجماعُ على ذلك، إلا إذا عَلِمَ مخالفتها للأدلة الشرعية.

أما إذا لم يعمل العامي بفتوى المجتهد فلا يلزمه العمل بفتواه، إلا إذا ظن أنها حكم الله في المسألة، فيجب عليه العمل بهذه الفتوى[23]. وكذلك يجب على السائل العمل بقول مفتيه إذا لم يجد سواه، أو أفتاه بالمجمع عليه؛ لعدم جواز مخالفة الإجماع، أو يكون مفتيه هو الأعلم والأوفق.

يجب على السائل العمل بقول مفتيه إذا لم يجد سواه، أو أفتاه بالمجمع عليه لعدم جواز مخالفة الإجماع، أو يكون مفتيه هو الأعلم والأوفق

عليه أن يعلم خطأ هؤلاء الذين يأخذون الفتيا يدورون بها على مفتي الفضائيات والشبكة العنكبوتية، فلا يخرجون إلا بالحيرة غالبًا؛ لأن مسائل الاجتهاد قل أن يتفق فيها العلماء.

يجوز للعامي أن ينقل الفتيا إذا كان ضابطًا لها، وليس له أن يفتي مطلقًا، ويكون هذا من النصح، لا من الجواب عن السؤال، فيكون بمثابة من يعرف طريقًا يهدي غيره إليه، أو من يعرف القبلة فيرشد غيره إلى جهتها[24].

ثالثًا: الضوابط المتعلقة بإدارة الفتيا المعاصرة وتقنياتها:

وهذه الضوابط تتعلق بتنظيم الإفادة من الوسائل التقنية المعاصرة، وتكثير الإيجابيات والمصالح المترتبة على استعمالها في تبليغ الفتيا، كما نعني بتقليل تلك السلبيات والمفاسد التي تصاحبها، وذلك من خلال جملة التوصيات والضوابط التالية:

١- الاهتمام مع الحرص التام على الدقة في اختيار القنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية التي يتصدى فيها المفتون للفتيا بشكل مباشر؛ بحيث يتعامل المفتون مع أكثرها انضباطًا وتقيدًا بالضوابط الشرعية.

٢- على المفتي أن يختار الوقت المناسب للفتيا التي تبث على الهواء مباشرة، مع الحرص على التحكم ببداية البرنامج وخاتمته ألا تتضمن محرَّمًا من معازفٍ أو لهوٍ باطل، مع مواصلة النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل تلك المواقع الإعلامية.

٣- أهل اليسار والصلاح مطالبون بإيجاد البدائل النقية والقدوة الصالحة في تلك الوسائل التقنية المعاصرة، حتى لا يتحرج المفتون من ظهور إعلامي مشوب، وليتجنبوا القدح في أعراضهم.

٤- أرباب العمل الإعلامي ومعدو البرامج ومحررو الشئون الإسلامية في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية مدعوُّون لزيادة ثقافتهم الشرعية، وتنامي حسّهم الإسلامي فيما يقدمون من مواد برامج، لا سيما ما يتعلق بالجوانب الإسلامية.

٥- على القنوات الفضائية ومعدّي برامج الفتيا بها ومقدميها أن يستعينوا بالثقات الكبار من أهل العلم، وأن يغلقوا الباب دون غير المتأهلين، حفظًا للدين، ومنعًا للعبث بالفتيا.

٦- الإشراف على المفتين، واختيار المتأهلين للفتيا الإعلامية المباشرة، ومنع الجاهلين والماجنين من التصدي لمنصب الإفتاء، والاحتساب في ذلك الأمر

---

(٢١) أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح (١٤٦-١٤٨)، الفتوى في الإسلام للقاسمي (١٠٥-١٠٦).

(٢٢) إعلام الموقعين (٤/٢٣٣).

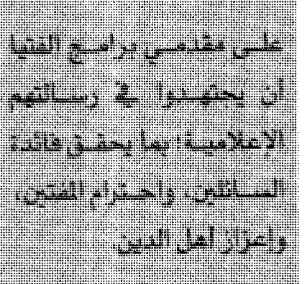
(٢٣) القواعد الأصولية والفقهية المتعلقة بالمسلم غير المجتهد د. مسعد بن ناصر الشتري (ص٢٤).

(٢٤) الضوابط الشرعية للإفتا، د. عبد الحي عزب (ص٣٣٨).

-مسئولية عظمى تُناط بهيئات العلماء ودور الإفتاء وكبار الفقهاء.

٧- غياب دور أولياء الأمر عن تنظيم عمل الفتيا ورعاية شئون المفتين له آثاره السلبية، والعمل على تسييس الفتيا وتوظيفها لمصالح خاصة، والتسلط على الفقهاء المفتين له آثاره السلبية أيضًا، والتوفيق في عمل الأول واجتناب الثاني.

٨- على مقدمي برامج الفتيا أن يجتهدوا في رسالتهم الإعلامية بما يحقق فائدة السائلين واحترام المفتين، وإعزاز أهل الدين، وذلك بحفظ أدب مجالس العلم، وترك الإثارة غير المفيدة، وعدم ضرب رءوس المفتين وكلامهم بعضه ببعض.



٩- يُقْتَرَح على القنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية إنشاء مجلس أو هيئة، أو لجنة للفتيا من تخصصات شرعية مختلفة، من شأنها ترشيح المفتين في الفتيا المباشرة، وتحديد موضوعات برامج الفتيا بشكل متخصص، ومراجعة وضبط ما يصدر عن تلك المواقع، ومراقبة أداء مقدمي البرامج ومعديها وإعانتهم ونصحهم.

١٠- يطلب من الفقهاء والعلماء أن يُعْنَوْا بوضع معايير وضوابط متخصصة لإدارة الفتيا على المواقع الإلكترونية والقنوات الفضائية؛ للإفتاء الجماعي فيما يتعلق بالنوازل المستجدة وفقه الأقليات الإسلامية.

الوقفة الرابعة
الفتيا آفاق وطموحاتٌ

إن صناعة الفتيا المعاصرة أمرٌ تشكِّله عناصر كثيرة، وتَحُفّ به متغيرات عديدة، وحسن التخطيط لإدارته ومتابعة تنفيذه بشكل علمي وتقني يُنْهِض الأمة بأسرها.

وهذا العمل الجليل يجب أن يبدأ من تأهيل المفتي أولاً؛ لأنه قطب رحى هذا الأمر، وهو تأهيل بلا شك متعدد الجوانب، وهو أيضًا يمر ببناء الآليات القويمة لإخراج الفتيا المعاصرة، ولا يُغفل الإفادة القصوى من الوسائل المعاصرة لتبليغ الفتيا والتعبير عنها.

وهذه آفاق يتعين ارتيادها؛ لتصبح الفتيا في تجلياتها المعاصرة واجهة حضارية للأمة الإسلامية، وسببًا لتحقيق الوحدة والألفة بين مختلف فئاتها، ومن ثم القضاء على فوضى الإفتاء.

أولاً: تأهيل المفتين:

يبدأ تأهيل المفتين من إحداث مادة لتدريس أصول الفتيا وضوابطها لطلبة الكليات والمعاهد الشرعية على حد سواء.

كما يُقْتَرَح أن توضع دبلومة تخصصية لطلبة الدراسات العليا في أقسام الفقه وأصوله، والسياسة الشرعية والقضاء، من كليات الشريعة والدراسات الإسلامية.

وعلى وزارات الأوقاف والشئون الإسلامية ودور الإفتاء عقد دورات تدريبية إلزامية لأئمة المساجد ودعاتها؛ تمنحهم تأهيلاً ملائمًا للقيام بواجب الرد على أسئلة المصلين، وتمكِّنهم من بحث تلك الأسئلة والتوجيه المناسب بشأنها.

كما يُطْلَب إمداد أولئك الدعاة بمدوَّنات الفتيا المعاصرة الصادرة عن كبار أهل العلم في بلادهم، وهيئات الإفتاء والمجامع الفقهيه الدولية، وحثّ المفتين والمشرفين على فتاوى الشبكة العنكبوتية والفضائيات أن يتقيدوا في فتاويهم بقرارات المجامع الفقهية والمرجعيات الشرعية المعتمدة.

ومن الأهمية بمكان تدريب المفتين على خصوصيات الخطاب بالفتيا خطابًا عامًّا.

ثانيًا: توعية المستفتي:

من الأهمية بمكان نشر ثقافة الفتيا لدى المستفتي، وذلك من خلال كتيبات وإصدارات وبرامج فضائية ورسائل إلكترونية؛ تبيِّن للمستفتي ما يجب عليه تجاه المفتي وكيف يختاره، وكيفية عرض السؤال، وماذا يعمل عند تعدد الأجوبة، وهل له أن ينقل فتوى المفتي إلى غيره، وهل له أن يعمل بها إذا تكررت الحادثة، وكيف يستفيد من مدونات الفتيا المطبوعة

والإلكترونية؟ مع التنبيه على أخطاء المستفتين والحذر من الوقوع فيها.

ثالثاً: آليات الإفتاء ومرجعياته:

يجب على جهات الفتيا ومرجعياتها أن تسعى للاضطلاع بنشر وتوظيف بحوثها وفتاويها بشكل إعلامي موسع، لا سيما في النوازل والملمّات العامة.

يُطْلَب من المجامع الفقهية الدولية المعاصرة تكوين مجلس مشترك لبحث الرأي الشرعي في النوازل، وما يتعلق بفقه الأقليات المسلمة بما يدعم الفتيا ويقوِّي الثقة فيها، ويمنح قراراتها مزيدًا من الالتزام والاحترام.

تكوين مجالس للفتيا عن طريق جمعيات علمية مستقلة، من شأنه أن يحرِّر الفتيا من الضغوط، ويزيد من قوة المؤسسات الرسمية واستقلالها.

تمسّ الحاجة إلى قناةٍ فضائية متخصصة في الفتيا، تطلقها وتشارك في إنشائها المجامع الفقهية ودور الإفتاء الرسمية ومؤسسات الفتيا المستقلّة، وبإدارة إعلامية إسلامية واعية، وبدعم من لجانٍ استشارية وخبراء متخصصين في مختلف الجوانب العلمية والعملية.

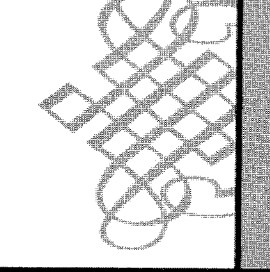
تنسيق الجهود لإصدار موسوعة شاملة ومرتبة للفتيا المعاصرة، تُنْشَر بمختلف الوسائل التقنية، وبمشاركة هيئات الفتيا ومرجعياتها.

إخراج تقنين شرعي لما لا يسع المفتي مخالفتُه من أصول الفتيا وضوابطها، بما يراعي خصوصيات أهل الإسلام في الواقع المعاصر، وبما يحقق مصلحة اجتماع الكلمة والتئام الصف.

عقد مؤتمرات وندوات علمية لتأهيل الإعلاميين شرعيًّا، وإمدادهم بما يحتاجون إليه من الثقافة الشرعية ومعايير، ومنهجية الفتيا وآدابها من خلال الفضائيات وغيرها[٢٥].

---

(٢٥) الفتوى أهميتها -ضوابطها- آثارها، د. محمد يسري، (ص٧١٩-٧٢١).



معلومات إضافية

من يملك حق الفُتيا

للفتيا فضلها العظيم، وأثرها البالغ على العلماء والفقهاء، فهي تُقَلِّدهم الأمانة، وتضعهم من الأمة موضع الصدارة، وهو بلا شك تشريف يقابله تكليف، بل جملة تكاليف! وتنشأ عنه مسئوليات جسيمة، وأعباء ثقيلة، لا يعين عليها إلا اللجأ إلى الله بالافتقار، ثم التأهل بأهليةٍ خاصة يتمتع بها من يتصدى لهذه المهمة.

ويمكن تقسيم الشروط الواجب توافرها في المفتي إلى قسمين[1]:

القسم الأول: شروط تتعلق بشخصية المفتي:

وهي خمسة شروط: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والعدالة، وفقه النفس.

فأما الثلاثة الأولى فظاهرة، وأما العدالة فالمراد بها استقامة الدين والمروءة، فإن العدل هو مَن تكون أحواله الحسنة هي الغالبة فيه، ولا يصدر عنه ما يُعتبر قادحًا في عدالته إلا على وجه النُّدْرة أو الغفلة؛ مع الخلوص من الإصرار على المعصية[2].

وأما فقه النفس أو جودة القريحة فمعناه: أن يكون شديد الفهم لمقاصد الكلام، قال النووي: ويشترط في المفتي التيقظ وقوة الضبط، فلا يقبل ممن تغلب عليه الغفلة والسهو[3].

القسم الثاني: شروط تتعلق بالإمكانيات العلمية للمفتي:

وهذه الشروط هي شروط الاجتهاد؛ لأن المفتي هو المجتهد.

قال ابن الهمام[4]: قد استقر رأي الأصوليين على أن المفتي هو المجتهد، فالاجتهاد من شروط المفتي عند الأئمة الثلاثة، وهو عند الحنفية شرط أولوية لا شرط صحة تسهيلاً على الناس[5]، وهو بلا شك مما يلاءم هذا الزمان وحال أهله!

شروط الاجتهاد:

اشترط العلماء للمجتهد المطلق أن يكون محيطًا بمدارك الشريعة فاهمًا لمقاصدها؛ وأما تفصيل العلوم التي لا بد منها للمجتهد، فالذي اتفق العلماء عليه منها إجمالاً ما يلي:



(١) الضوابط التي تحكم فتوى المفتي وقضاء القاضي، للشحات إبراهيم، (رسالة دكتوراه) بكلية الشريعة جامعة الأزهر (ص٢١).

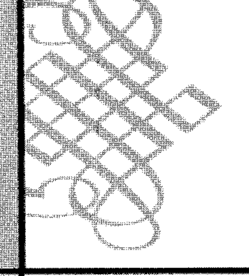
(٢) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان (ص١٥٣).

(٣) روضة الطالبين، للنووي (٤/ ١١٨).

(٤) فتح القدير، لابن الهمام (٧/ ٢٥٦).

(٥) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، لعبد الرحمن بن محمد شيخي زاده (٢/ ٧٤).

(٦) اللمع، للشيرازي، (ص٧٠).



١- كتاب الله:

يقول أبو إسحق الشيرازي: «ينبغي أن يكون المفتي عارفًا بطرق الأحكام، وهي الكتاب، والذي يجب أن يعرف من ذلك ما يتعلق بذكر الأحكام والحلال والحرام، دون ما فيه من القصص والأمثال والمواعظ والأخبار»[٦].

يقول الشافعي: لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله، إلا رجلاً عارفًا بكتاب الله، بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكِّيه ومَدَنِّيه، وما أُريد به، وفيم أُنزل[٧].

ولم يشترط العلماء في المجتهد أن يحفظ آيات الأحكام عن ظهر قلبه، وإنما يكفي معرفة مواضعها من المصحف؛ بحيث يمكنه الرجوع إليها بيسر وسهولة، وإن كان حافظًا لها فهو أكمل[٨].

٢- السنة:

يُشترَط للمجتهد أن يعرف أحاديث الأحكام، ويميز الصحيح المعمول به من الضعيف المردود.

والمهم أن يعرف من الأحاديث ما يتعلق بالأحكام، ولا يلزم حفظها عن ظهر قلب، يكفي أن يكون ممارسًا لها، عارفًا بمظانها متونًا وشروحًا، خبيرًا بنقدها، تعديلاً وتجريحًا، قادرًا على مراجعتها عند الحاجة إلى الفتوى، ومهما قدر على الحفظ فهو أحسن وأكمل[٩].

٣- اللغة العربية:

من شروط الاجتهاد العلم باللغة العربية، وأساليبها وتراكيبها، وطرائق أهلها في التعبير عن مرادهم.

ولا يشترط التعمق في غرائب اللغة، ولا التبحر في النحو حتى يبلغ مبلغ سيبويه والخليل؛ بل يشترط حصوله على مقدار يمكِّنه من معرفة معاني الألفاظ والتراكيب، ووجوه الدلالات المختلفة من الألفاظ والمعاني[١٠].

٤- أصول الفقه:

ومما يشترط للمجتهد العلم بأصول الفقه، بأن يكون عالماً بما يشترط في الأدلة ووجوه دلالتها، وبكيفية اقتباس الأحكام منها، ونحو ذلك مما يستفاد من علم أصول الفقه[١١].

ومن أهم أبواب أصول الفقه التي يجب على المجتهد العلم بها: القياس[١٢].

(٧) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (٣/١٦٥).

(٨) المستصفى، للغزالي (ص٣٤٢).

(٩) الفتوى بين الانضباط والتسيب، للقرضاوي (٣٢).

(١٠) الإفتاء عند الأصوليين، لمحمد أكرم (ص٨٨،)، وأصول الفتوى، د. علي عباس (ص٢٧)

(١١) أدب الفتوى، لابن الصلاح، مرجع سابق (ص٣٦).

(١٢) صحيح الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي بتحقيق عادل العزازي (ص٣٩٠).

(١٣) المستصفى، للغزالي (ص٣٤٣).

٥- مسائل الإجماع:

اشترط الجمهور للمجتهد أن يعلم مواقع الإجماع؛ لئلا يخرج عنه في فُتياه.

أما بالنسبة للقدر الذي يجب معرفته في مسائل الإجماع:

يبينه الغزالي بقوله: «كل مسألة يفتي فيها فينبغي أن يعلم أن فتواه ليست مخالفة للإجماع، إما بأن يعلم أنه موافق مذهبًا من مذاهب العلماء أيهم كان، أو يعلم أن هذه واقعة متولدة في عصر لم يكن لأهل الإجماع فيها خوض، فهذا القدر فيه كفاية»(١٣).

والظاهر أنه لا بد من معرفته بجملة من الفروع الفقهية لتحصل له الدُّرْبَة والمَلَكَة.

شروط الاجتهاد الجزئي:

أما المجتهد في فرع معين أو باب من أبواب الفقه أو مسألة من المسائل.

«وأما الاجتهاد في بعض المسائل فيكفي فيه أن يكون عارفًا بما يتعلق بتلك المسألة، وما لا بد منه فيها، ولا يضره في ذلك جهله بما لا تعلق له بها بباقي المسائل الفقهية»(١٤).

أقسام المجتهدين

والاجتهاد ليس على درجة واحدة، وإنما قسّمه العلماء مراتب، هي كالتالي:

١- المجتهد المطلق:

أو المفتي المطلق، وهو المستقلّ الذي يتأدى به فرض الكفاية، والمجتهد المستقل: هو الذي يستقل بإدراك الأحكام الشرعية من الأدلة الشرعية من غير تقليد وتقيد بمذهب أحد(١٥).

٢- المجتهد في مذهب معين:

ولهذا المجتهد أربع حالات، ولكل حالة حكمها:

الحالة الأولى: أن يتبع إمام مذهبه في مناهج البحث والاستدلال والاستنباط، ولكن لا يقلده فيما وصل إليه هذا الإمام باجتهاده من أحكام تفصيلية.

الحالة الثانية: أن يكون مجتهدًا في مذهب إمامه مستقلاً بتقريره بالدليل، ولكن لا يخرج عن أصول إمامه وقواعده، مع قدرته على التخريج والاستنباط وإلحاق الفروع بالأصول التي قررها إمامه.

الحالة الثالثة: أن لا يصل المجتهد إلى مرتبة أصحاب الحالة الثانية، وإنما يقف عند رتبة أصحاب

(١٤) الإحكام للآمدي (١٦٤/٤).

(١٥) أدب الفتوى، لابن الصلاح، مرجع سابق (ص٣٧).



الوجوه والتخريج في المذهب، مع حفظه لفقه مذهب إمامه ومعرفته بأدلته، وقدرته على تقرير أقواله ونصرتها والاستدلال لها، كما أنه قادر على الترجيح بين أقوال إمامه المذكورة في المذهب.

الحالة الرابعة: أن يكون قادرًا على فهم فقه مذهبه مع حفظه لهذا الفقه أو لأكثره، وفهمه لضوابطه وتخريجات أصحابه واستطاعته الرجوع إلى مصادر هذا المذهب.

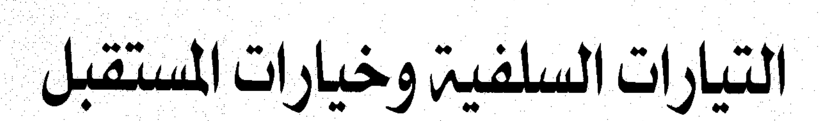
٣- المجتهد في نوع من العلم:

وقد مثلوا لهذا النوع بقولهم: من عرف القياس وشروطه فله أن يفتي في مسائل القياس، وكذلك من عرف الفرائض والمواريث وأصولها وقواعدها فله أن يفتي فيها.

٤- المجتهد في مسألة أو مسائل معينة:

وهو من كان مجتهدًا في مسألة أو مسائل معينة من الفقه فله أن يفتي فيها دون غيرها.





التيارات السلفية وخيارات المستقبل

أ. أحمد فهمي

(باحث سياسي)

ملخص البحث

تعانــي التيــارات الســلفية في الوقت الحالي من حصار مزدوج، بعدما صارت هدفًـا للعالم الغربي، وفي الوقت نفســه تواجه قيودًا من داخلها تتمثل في الخلافات البينية المتفاقمة، وحالات التشـظي والانقســام، وعجزها عن تشكيل جبهة موحدة في مواجهة الهجمات الخارجية.

عمل الغرب على تحويل التيارات السـلفية إلى عدو يحظى بأولوية المواجهة، خاصة أنه يعتبرها المزود البشــري للحــركات الجهادية، وهو التصــور النابع من افتقاد التحليلات الأمريكية للمعايــير الدقيقة التي تمكنها من التفريــق بــين مختلف التيارات، بجانب دور الشــيعة والطرق الصوفية في ترســيخ العلاقة الوهميــة بين التيارات السلفية والجهادية أو تنظيم القاعدة تحديدًا.

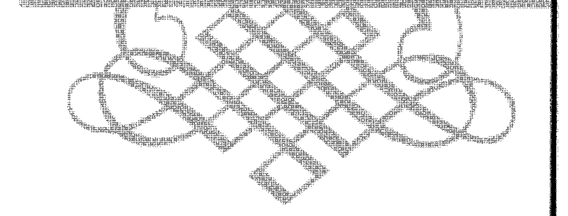
كما يعتبر الغرب أن الشمولية الدينية ومستوى الثبات الذي تُبديه التيارات السلفية في التمسك بأصول الدين هــو مصدر خطر بالنســبة للرؤية الغربية؛ نظرًا لصعوبة احتواء هذه التيــارات كمنهج، وأيضًا صعوبة اندماجها في فئات أو شــرائح تحمل أفكارًا مخالفة لمبادئ الإســلام، إضافة إلى ذلك فإن قابلية التيارات الســلفية العالية للتواصل مع الجماهير والرواج الكبير الذي يحظى به الدعاة السلفيون في الفترة الحالية في المجتمعات الإسلامية كان أحد أسباب الاستهداف الغربي.

من ناحية أخرى، فإن جزءًا كبيرًا من طاقة العمل لدى طائفة من التيارات السلفية ينصرف في التعامل مع الإشكالات الداخلية، والخلافات البينية. ما يمثل قيدًا داخليًّا يعوقها عن ممارسة دورها المنوط بها في الأمة.

وإذا كانــت الســلفية في بداياتهــا الأولى في التاريخ المعاصــر حركات تغييرية إصلاحيــة، تهدف إلى الرجوع بالمجتمع إلى الإسلام الحنيف، من خلال عمل علمي ودعوي جديين وشاملين، فإن العودة بهذه التيارات السلفية إلى ماضيها الأول هي عودة إلى الأصول، والســلفية الدعوية ممثَّلة في بعض فصائلها تســير على ذات النهج لتصل القديم بجديده، وإن المخالفين لها مطالبون بالدليل على انحرافهم عن نهج مؤسسي التيارات السلفية الأوائل.

ولكن هذا لا يمنع من وجود جوانب من الخلل في أداء جماعات السلفية الدعوية، تحتاج إلى تغيير أو تجديد، بما يتناســب مع مســتجدات الواقع، وأهمها تقوية البنائين الفكري والتنظيمي، والبحث عن أطر عملية تجمع التجمعات السلفية الدعوية في سياق واحد ومتقارب.





أفكار و مقتطفات

- التيارات السلفية تتفق من حيث ظروف نشأتها، ومن حيث التناقض الغريب بين انتشارها الواسع جغرافيًا، وضعف تماسكها التنظيمي، فالسلفيون موجودون تقريبًا في كل دولة وكل مدينة، إلا أن أتباعهم مع ذلك قليلو العدد نسبيًا مشتتون مقارنة بالجماعات الإسلامية السياسية، ولا تشذ عن هذه القاعدة إلا دولة أو دولتان تتمتع فيهما التيارات السلفية بالأغلبية وسط العمل الإسلامي، وبشيء من التماسك والقوة.

- يستخدم الغربيون عادة منهجًا إسقاطيًا في التعامل مع القوى الممثلة للإسلام، وقبل عدة قرون عندما كان الخطر الإسلامي متمثلاً في العثمانيين الأتراك يدق أبواب أوروبا الغربية، كانت مبادئ الإسلام وأصوله ومصادره وتعاليمه تُذكر في سياق عنصري منسوبة إلى الأتراك.

- يرجع الخلط بين السلفية العلمية أو الدعوية وبين التيارات الجهادية إلى افتراض مسبق بأن التيار الجهادي هو مرحلة متطورة للتيارات السلفية، وبالتالي تصبح كل جماعة سلفية مشروعًا جهاديًا محتملاً إذا توفرت الظروف الملائمة، وحتى قبل أن تتوفر الظروف فإن التيارات السلفية في التحليل الأمريكي تقدم دعمًا بشريًا غير محدود للتيارات الجهادية.

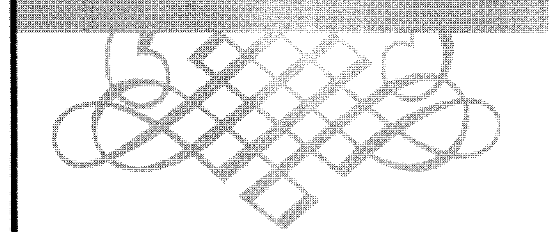
- القول بأن أتباع الجماعات السلفية يشكلون داعمًا بشريًا أساسيًا لجماعات الجهاد، هو ادعاء غير صحيح، بل إن الواقع الإحصائي يقدم لنا إثباتًا غاية في الأهمية، إذ بينما يتعلق الادعاء بحدوث انتقالات فردية بين الجماعات السلفية والجماعات الجهادية، فإن هناك حالات متكررة تنتقل فيها جماعات جهادية بأسرها إلى صف التيارات السلفية، كما هو الحال مع جماعتي الجهاد والجماعة الإسلامية في مصر.

- هناك فئات أخرى بخلاف المحللين الغربيين يعملون على ترسيخ هذه العلاقة الوهمية بين التيارات السلفية والجهادية، أو تنظيم القاعدة على وجه التحديد، وهم: الشيعة، والطرق الصوفية.

- استطاعت الدعوة السلفية أن تخترق حتى أكثر الدول العربية تطرفًا في علمانيتها- تونس-، وبرز ما أصبح يعرف في تعبير بعض الإسلاميين بـ «الظاهرة السلفية الجديدة»، وهو ما دفع بأحد قياديي حركة النهضة -محمد بن سالم- إلى مهاجمة هذا النجاح السلفي، فاعتبر أنه تنامى بسبب «إغلاق المساجد أمام الدعاة الحقيقيين وأمام المشايخ الحقيقيين».

- ينصرف جزء كبير من طاقة العمل لدى طائفة من التيارات السلفية في التعامل مع الإشكالات الداخلية، والخلافات البينية، وفي بعض الحالات تتفرغ جماعات بأسرها لمهاجمة وانتقاد جماعات سلفية أخرى.

- في قضية الانتماء ظلت التيارات السلفية ردحًا من الزمن تتميز بسهولة الانتماء إليها، لا توجد إجراءات أو ترتيبات، فقط المطلوب هو الالتزام بالكتاب والسنة وتعظيم الأوامر والنواهي، وبخلاف بعض الأوامر الشرعية، فإن أغلب التزام المرء يكون بينه وبين ربه، هكذا يصير المرء سلفيًا.



- كثير من التيارات السلفية سلكت نهجًا تغييريًّا متطورًا؛ سعيًا لبذل جهد أكبر في إصلاح المجتمعات التي تنتمي إليها، ولكن تعاني كثير منها مما يمكن تسميته «انعكاسات النشأة السلفية»، ويُقصد بها بعض الصفات والسمات التي تعوق عملية التطور داخل التيار السلفي، وتجعل من عملية التجديد مخاطرة غير مأمونة العواقب.

- لا شك أن العناية الفائقة من قبل التيارات السلفية بالعلوم الشرعية تدريسًا وتعليمًا وتأليفًا عقودًا طويلة أفرزت علماء ومتخصصين في الدراسات الشرعية، لكن كان المتوقع أن تُخرِّج هذه النشاطات العلمية المكثفة أجيالاً من العلماء - القادة- المؤهلين لقيادة الأمة وتوجيهها، ولكن بدلاً من ذلك أصبحت التيارات السلفية في كثير من الدول الإسلامية تعاني هي نفسها من أزمة مرجعية علمية، ويفتقد كثير منها إلى علماء بارزين يقودون الحركة أو التيار ويشرفون على عملية التعلم والتعليم بداخله.

- قضية تكفير الأنظمة في الدول العلمانية، مسألة خلافية داخل التيارات السلفية، إلا أنها تأخذ في مناحي الخلاف أكبر من حجمها الطبيعي؛ إذ تتفق أغلب التيارات السلفية على التعاطي مع الدولة وأجهزتها من الناحية العملية في العموم، حتى من قِبَل من يكفِّرونها.

- لم تكن السلفية في بداياتها الأولى في التاريخ المعاصر، سلفية ساكنة، أو مجرد حركة علمية تتركز في المساجد، وينحصر جلّ نشاطها في الدروس والخطب، بل كانت حركات تغييرية إصلاحية تهدف إلى الرجوع بالمجتمع إلى الإسلام الحنيف من خلال عمل علمي ودعوي جديين وشاملين، لذا فإن العودة بهذه التيارات السلفية إلى ماضيها الأول هي عودة إلى الأصول.

- إن تاريخ السلفية القديم مشرف، ويحمل قدرًا كبيرًا من الإنجازات على مستوى الأمة الإسلامية، والذي نعتقده أن السلفية الدعوية ممثلة في بعض فصائلها تسير على ذات النهج لتصل القديم بجديده، وإن المخالفين لها مطالبون بالدليل على انحرافهم عن نهج مؤسسي التيارات السلفية الأوائل.

- تحمل التيارات السلفية والإسلامية عمومًا في الدول العلمانية حلم إقامة الدولة الإسلامية، إلا أن التجارب الماضية تكشف عن كون هذا الحلم أو الهدف عسير المنال، ويحتاج إلى مراحل متتالية من الجهد والعمل المتواصل؛ ولأن الهدف هو المعيار الأول لقياس أداء الجماعة والتيار، فإن التمسك به في الفترة الحالية لن يسفر إلا عن مزيد من الإحباط والتخبط، لذا فمن المقترح أن يرفع في هذه المرحلة هدف آخر، هو: أسلمة المجتمع، أي السعي لإعادة جميع جوانب الحياة والأنشطة الاجتماعية إلى جادة الإسلام.

- تحتاج السلفية الدعوية إلى إعادة تطوير وتجديد، بما يتناسب مع مستجدات الواقع، وهذا لن يتأتى إلا بقدرة الحركة على استيعاب الطاقات الفكرية بداخلها، والسماح بقدر من تبادل الآراء والنقاش حول القضايا المحورية، والحذر من تقديس وتكديس المتغيرات والأشخاص وتحويلها إلى ثوابت راسخة.

التيارات السلفية وخيارات المستقبل

أ. أحمد فهمي : باحث سياسي

مقدمة:

تتفق التيارات السلفية في مختلف الدول الإسلامية على سمات عامة أساسية، تجعلها صالحة لتكون موضوعًا بحثيًا بنفس القدر من العمومية.

هناك تشابه كبير بين مختلف التيارات السلفية من الناحيتين العلمية والعملية، فعلى الجانب العلمي، تتفق هذه التيارات على مصادر التلقي من الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، كما تتفق في الإطار العام للمنهج السلفي، سواء في جانبه العقدي أو الفقهي أو الدعوي.

ومن الناحية العملية فإن التيارات السلفية تتفق من حيث ظروف نشأتها، ومن حيث التناقض الغريب بين انتشارها الواسع جغرافيًا، وضعف تماسكها التنظيمي، فالسلفيون موجودون تقريبًا في كل دولة وكل مدينة، إلا أن أتباعهم مع ذلك قليلو العدد نسبيًا مشتتون مقارنة بالجماعات الإسلامية السياسية، ولا تشذ عن هذه القاعدة إلا دولة أو دولتان تتمتع فيهما التيارات السلفية بالأغلبية وسط العمل الإسلامي، وبشيء من التماسك والقوة.

كذلك تتفق التيارات السلفية في توصيف المخالفين، وفي محاربتها للبدع والفرق الضالة، كما تتشابه في مواجهتها لذات التحديات والإشكالات الداخلية والخارجية، وهو ما يجعل تناول هذه التحديات، بصفة عامة، مع إسقاط نتائج البحث على غالبية هذه التيارات أمرًا مقبولاً من الناحية العلمية، مع الإقرار بوجود بعض التفاوت الناجم عن خصوصية التجربة في كل بلد على حدة.

الأنماط الثلاثة:

التيارات السلفية من حيث المنشأ يمكن تقسيمها إلى عدة مدارس، أبرزها: مدرسة الشام، ومدرسة المغرب العربي، ومدرسة الدعوة في الجزيرة العربية، التي يركز خصومها على تخصيصها بمسمى الوهابية.

والأخيرة هي أبرزها وأكثرها انتشارًا وتأثيرًا؛ بحيث إن وصف «الوهابية» أصبح يُستخدَم على نطاق واسع لتوصيف التيارات السلفية، وقد اتسع نطاق هذا الاستخدام مؤخرًا لأهداف معروفة.

وفي العقود الأخيرة بدأت التيارات السلفية تنقسم بدورها وفق معايير أخرى، وبحسب اختلاف النظر إلى المجتمع وتكوين رؤى مختلفة للإصلاح والتغيير، ويمكن أن نلحظ في هذا الصدد ثلاثة أنماط من التيارات

السلفية: السلفية العلمية- السلفية الدعوية- السلفية الجهادية.

السلفية العلمية تتبنى خيار نشر العلم الشرعي، ومحاربة البدع، وتنقية الإسلام من الشوائب، أما السلفية الدعوية[1] فهي تزيد على ذلك تبني منهج دعوي تغييري، يسعى إلى إصلاح المجتمع، والعودة به إلى حياض الإسلام، وتتبع في ذلك أساليب ووسائل مختلفة من بينها: التربية، والعمل الجماعي، وقد يصل الأمر ببعضها إلى تكوين أحزاب سياسية، والمشاركة في الانتخابات النيابية مثل السلفية في الكويت والبحرين.

أما السلفية الجهادية، فلم يطلق عليها هذا الاسم إلا في الأعوام الأخيرة، فهي رغم منشأها السلفي إلا أنها تتبنى منهجًا مختلفًا في الإصلاح والتغيير، يختلف عن بقية التيارات السلفية، لذلك ظل التقسيم المنهجي لفصائل العمل الإسلامي في أغلب الدراسات متمثلاً في ثلاثة أقسام: السلفية - السياسية - الجهادية.

ويرجع السبب في تعميم هذا المصطلح «السلفية الجهادية» إلى الرغبة في خلط الفروق بين التيارين، وتحميل المسئولية عن أعمال الجهاديين إلى عموم السلفيين، ومن ثم توحد التصنيف وأساليب المواجهة.

وسوف نقتصر في هذا البحث على النمطين الأولين من التيارات السلفية.

التيارات السلفية بين قيدين:

تعاني التيارات السلفية في الوقت الحالي من حصار مزدوج، إذ قذفت بها تطورات الأحداث منذ العام ٢٠٠١م إلى الواجهة، فصارت هدفًا معتبرًا، سواء من قبل العالم الغربي أو من بعض الطوائف داخل العالم الإسلامي، في نفس الوقت تواجه التيارات السلفية قيودًا من داخلها تتمثل في الخلافات البينية المتفاقمة، وحالات التشظي والانقسام والانفصال المتواصلة، وعجز التيارات السلفية في عمومها عن تشكيل جبهة موحدة في مواجهة الهجمات الخارجية التي تتعرض لها.

(١) يعتمد بعض الباحثين تعريفات مغايرة نسبيًا لأنماط السلفية، ولكن هذا هو التعريف المعتمد في هذه الدراسة.

وباختصار فإن خيارات السلفيين في المرحلة المقبلة تتحدد حسب قدرتهم على التعامل مع هذين القيدين الداخلي والخارجي، وبقدر ما تتمكن هذه التيارات من تحرير نفسها من القيود، بقدر ما تحفظ وجودها أولاً، ثم تحقق أهدافها ثانيًا.

القيد الأول - الخارجي:

يذكر مستشار الأمن القومي السابق زبجنيو بريجنسكي، والذي يعد حاليًا من المنظِّرين البارزين للحقبة الأمريكية العالمية، أن الرئيس الأمريكي أعلن أن «رسالة أمريكا التاريخية ورسالته، هي حفز تحوُّل لا يقل عن تغيير ثقافة العالم الإسلامي وسياسته»[2].

يستخدم الغربيون عادة منهجًا إسقاطيًّا في التعامل مع القوى الممثلة للإسلام، وقبل عدة قرون عندما كان الخطر الإسلامي، متمثلاً في العثمانيين الأتراك، يدقّ أبواب أوروبا الغربية، كانت مبادئ الإسلام وأصوله ومصادره وتعاليمه تُذكر في سياق عنصري منسوبة إلى الأتراك، فأُولى ترجمات القرآن إلى اللغة الألمانية أسماها المترجم «قرآن الأتراك: دين وخرافات»، أما الترجمة الثانية، فقد أسماها مترجمها «كتاب الأحكام التركي الكامل أو قرآن محمد»، وعندما استخدم الشاعر والفيلسوف الألماني المعروف ترجمة للقرآن في أعماله الشعرية، كان عنوان الترجمة «كتاب الأتراك المقدس»[3].

الآن تم استبدال الأتراك بالوهابية والسلفية، وصارت مفاهيم الإسلام وأصوله تذكر منسوبة إليهما، وتركزت الانعكاسات المعاصرة للذاكرة الجمعية الغربية بخصوص الإسلام في هذه التيارات تحديدًا، فصارت الوهابية مرادف للفاشية والنازية والإرهاب.

لم يتوقف المنهج الإسقاطي عند حدود التيارات السلفية، بل تمدد ليشمل بُعدًا مكانيًّا اعتبر هو مصدر الخطر الوهابي تحديدًا، أي: السعودية.

(٢) زبجنيو بريجنسكي، كتاب: الفرصة الثانية .. ثلاثة رؤساء وأزمة القوة العظمى الأمريكية، ص٩.

(٣) مراد هوفمان، كتاب الإسلام في الألفية الثالثة، ديانة في صعود.

نشر كورتين وينزر المبعوث الخاص إلى الشرق الأوسط، من قِبَل الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان، دراسة تحليلية العام الماضي تحت عنوان «السعودية والوهابية وانتشار الفاشية»(٤)، وبذل وينزر جهدًا كبيرًا في وصل الخطوط بين الإرهاب والوهابية والسعودية، فحذَّر من جهود نشر الوهابية في عدد من بلدان جنوب شرق آسيا، وإفريقيا والدول الغربية من خلال بناء المساجد والمدارس الدينية والمشروعات الخيرية، واستقطاب الشباب العاطل والمهاجرين في هذه البلدان، وتقول هذه الدراسة: إن خريجي المدارس الوهابية كانوا وراء الأعمال «الإرهابية» مثل تفجيرات لندن في يوليو ٢٠٠٥م، واغتيال الفنان تيودور فان جوخ الهولندي عام ٢٠٠٤م.

ونسب وينزر إلى أحد المتخصصين «اليكسي اليكسيف» ادعاءه أثناء جلسة الاستماع أمام لجنة العدل التابعة لمجلس الشيوخ في ٢٦ يونيو ٢٠٠٣م، بأن «السعودية أنفقت ٨٧ مليار دولار خلال العقدين الماضيين لنشر الوهابية في العالم»، وأنه يعتقد أن مستوى التمويل قد ارتفع في العامين الماضيين نظرًا لارتفاع أسعار النفط، ثم يستخدم وينزر منهج المقارنة لبيان مستوى الخطر «الوهابي» فيقول: إن ما أنفقه الحزب الشيوعي السوفييتي لنشر أيديولوجيته في العالم بين ١٩٢١ و١٩٩١م لم يتجاوز الـ ٧ مليارات دولار، وإذا كانت الشيوعية قد بلغت هذا المستوى من الانتشار في العالم بمبلغ كهذا، فإن إنفاق السعودية ٨٧ مليار دولار - لو صح - لكان كفيلاً بجعل العالم كله وهابيًا!

تعاني التحليلات الأمريكية للتيارات الإسلامية عمومًا من افتقار المعايير الدقيقة التي يمكن بها التفريق بين مختلف التيارات.

في أوروبا لم يختلف الوضع، فقد استخدمت إسقاطات تربط بين الوهابية والسعودية والإسلام بطريقة فجة، على سبيل المثال نشرت مجلة دير شبيجل الألمانية البارزة عام ١٩٩٨م ملحقًا خاصًا تحت عنوان «الإسلام اللغز»، وحمل الغلاف صورة امرأة مسلمة حواجبها على شكل سيوف تتوسط شعار عَلَم السعودية.(٥)

ونشرت مجلة Bunte الألمانية أيضًا موضوعًا عام ١٩٩٨م تساءل فيه كاتبه «هل انتقل الخطر الآن من موسكو إلى مكة؟».(٦)

ويمكن ملاحظة ثلاثة أسباب رئيسة تفسر التركيز الغربي على التيارات السلفية، وتحويلها إلى عدو يحظى بأولوية المواجهة.

أولاً: تصنيف التيارات السلفية بأنها مزوِّد بشري للحركات الجهادية:

تعاني التحليلات الأمريكية للتيارات الإسلامية عمومًا من الافتقار للمعايير الدقيقة التي يمكن بها التفريق بين مختلف التيارات، ولذلك يحدث خلط واضح -قد يكون مقصودًا في بعض الأحيان- في التقويم، ومن ثم اقتراح وسائل التعامل.

نشر معهد السلام الدولي في واشنطن دراسة تحت عنوان «السياسة الخارجية الأمريكية والتجديد الإسلامي» أعدها الدكتور عبد السلام مغراوي مدير مبادرة العالم الإسلامي في المعهد، حيث قال: «نجد تعريفات خاطئة بواشنطن لمصطلحات مثل «سلفي» و«جهادي» أو «متطرف»؛ حيث إن السياسة الأمريكية تنظر إلى غالبية التيارات الإسلامية من خلال عدسة التدين الراديكالي، دون اعتبار التفاوت الشاسع بين مبادئ وأهداف التنظيمات الإسلامية المختلفة، ودون تقدير الميول الإصلاحية المعتدلة التي تتبناها العديد من هذه التنظيمات في نفس الوقت»(٧).

هذا الخلط يتم استغلاله لتمرير تفسيرات ورؤى

---

(٤) مراد هوفمان، كتاب: الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود، ص ٩٠ مقال: السعودية والوهابية وانتشار الفاشية، موقع الحرية http://www.alhuriya.net، وقد نشرت الدراسة في دورية ميدل إيست مونيتور MidEast Monitor عدد يونيو/يوليو ٢٠٠٧م.

(٥) مراد هوفمان .. مرجع سابق ص ١٠٧.

(٦) السابق ص ٩٨.

(٧) مقال: هل تدعم أمريكا تجديد الإسلام؟ هشام سلام، موقع بلاغ، وانظر موقع صحيفة المؤتمر العراقية ٢٠٠٧/٧/٢٩م.

معينــة متعلقــة بالتيارات الســلفية، فنجــد متخصصًا مثل وينزر يقول في دراسـته السـابقة: «إن التلاقح بين الوهابيــة المحافظة اجتماعيًّا وثقافيًّا بالقطبية «سـيد قطب» السياسـية الراديكالية أنتج الإسلام السياسي الوهابي، الذي بدوره أنتج تنظيم القاعدة»[٨] وهكذا، وانطلاقًــا من هذا المنهج المغلــوط تم الوصل بجرة قلم بين ثلاثة تيارات إسلامية دفعة واحدة.

يرجـع الخلط بـين السـلفية العلميـة أو الدعوية وبين التيــارات الجهاديــة إلى افــتراض مسبق بــأن التيــار الجهــادي هــو مرحلــة متطــورة للتيــارات الســلفية، وبالتالــي تصبح كل جماعة سـلفية مشـروعًا جهاديًّا محتمــلاً إذا توفرت الظروف الملائمــة، وحتى قبل أن تتوفــر الظــروف فــإن التيــارات الســلفية في التحليل الأمريكــي تقدم دعمًا بشــريًّا غير محــدود للتيارات الجهادية.

هــذه الإشــكالية تحتاج إلى إعادة تفكيــك وبناء من جديــد، فعلــى الرغم من أن الأنمــاط الثلاثة للتيارات الجهادية تبدو وكأنها مراحل متدرجة من الأسفل إلى الأعلى، أو من حيث مسـتوى الحراك داخل المجتمع، إلا أن ذلك لا يعني أبدًا أن كلاً من النمطين الأخيرين نتج عن تحول وتغير في النمط الذي قبله.

قــد يصح ذلك في مرحلة أولية من النشــأة، وفي نطاق فردي لا جماعــي، ولكن بعد مرور مدة زمنيــة قصيرة يصبح لكل تيار روافده المباشــرة من المجتمع، ولا يحتاج إلى الاعتماد المباشر على التيارات الأخرى.

ويؤكــد هــذا التحليــل أن العلاقــات البينية بــين الأنماط الثلاثــة مــن التيارات الســلفية ليســت إيجابيــة بإطــلاق، بــل تحمل كمًّا هائلاً من التشاحن والانتقادات التي تصل إلى حد التبديع.

أيضًــا لو اعتمدنــا التصنيف الأمني للتيارات الســلفية في بعــض الــدول العربيــة ذات التوجــه العلمانــي مثل مصر على ســبيل المثال، ســنجد أن الأجهزة الأمنية لا تتعامل مع التيارات السـلفية بوصفها سـلفية جهادية، أو منبعًا للسـلفية الجهادية، بــل تفرق بينهما تمامًا في المنشأ والفكر والأتباع، نعم قد تحدث تحولات فردية في بعــض التجمعــات، ولكن لم تتعــرض الجماعات السـلفية يومًا لمواجهة أمنية؛ لأنها تحولت إلى السـلفية الجهادية، وحتى في مطلع التسعينيات عندما احتدمت المواجهات بين السلطات والجماعة الإسلامية، وطالت الاعتقــالات أعدادًا كبيرة من الســلفيين، كان ذلك بســبب اتباع أجهــزة الأمن منهجًا حصريًّــا في التعامل مع كل من يتصل بعناصر الجماعة الإسلامية، وليس بالضرورة أنه صار منتميًا إليهم.

فضــلاً عــن أن الجماعــات الســلفية نفســها؛ نتيجــة الضغوط وتصاعد ردود الأفعال، طوَّرت بصورة تلقائية بنيــة علمية فكريــة خاصة، تعالج قضيــة التحولات بين الســلفية والجهادية؛ بحيث تدعم ثبات أتباعها في إطارها العلمي والعملي، وبرزت السلفية الدعوية على وجه الخصوص في هذا الجانب.

ومع اتســاع تأثير الإنترنت وتميــز الجماعات الجهادية في هــذا المجال، فقد اتســعت بصــورة ملحوظة نطاق الشــرائح المجتمعيــة التي يوجِّــه الجهاديــون خطابهم إليهــا مــن أجل جذب المزيــد من الأتباع، ولا شــك أن الشخص غير المنطلق من خلفيات أو جماعــات ســابقة -ســلفية أو غيرهــا- ســيكون أســهل في التعامل معه وتطويره وترقيته.

مــع اتســاع تأثير الإنترنــت وتميــز الجماعات الجهادية في هذا المجال، فقد اتسـعت بصورة ملحوظة نطاق الشــرائح المجتمعية التي يوجه الجهاديون خطابهم إليها من أجل جذب المزيد من الأتباع.

غاية الــكلام أن القول بأن أتباع الجماعــات الســلفية يشــكلون داعمًا بشريًّا أساسـيًّا لجماعات الجهاد، هو ادعــاء غير صحيح، بــل إن الواقع الإحصائي يقدم لنا إثباتًــا غاية في الأهميــة؛ إذ بينما يتعلــق الادعاء بحدوث انتقــالات فردية بين الجماعات الســلفية والجماعــات الجهاديــة، فإن هنــاك حالات متكــررة تنتقــل فيها جماعــات جهادية بأســرها إلى

(٨) مقال: السعودية والوهابية وانتشار الفاشية. سابق..

صف التيارات السلفية، كما هو الحال مع جماعتي الجهاد والجماعة الإسلامية في مصر.

ولو اعتمدنا مقاربة تاريخية تبحث في نشأة التيارات الجهادية، سنكتشف حقائق مماثلة، فتيار الجهاد بدأ في مصر منبثقًا عن جماعة الإخوان المسلمين أثناء محنة الخمسينيات والستينيات، ولم تكن له علاقة بالسلفيين، وفي تونس، يقول نوفل المعاوي الناشط السابق في حركة النهضة الإسلامية السياسية: «والمفارقة التونسية هي أنه لم تُسجل في تونس أبدًا حادثة عنف واحدة، أو كُشف تنظيم مسلح ذو توجه سلفي، في حين اتُّهِمَت حركة النهضة مرارًا بممارسة العنف أو التخطيط لذلك، ولعل من أمثلة ذلك محاولة انقلاب ٨ نوفمبر١٩٨٧م، التي نسبت إلى الجناح المسلح للحركة، وحادثة باب سويقة الشهيرة في تونس ربيع ١٩٩١م، التي كانت قاصمة الظهر، وتسببت في انقسام الحركة وخروج أعداد واسعة من صفوفها».(٩)

هناك فئات أخرى بخلاف المحللين الغربيين يعملون على ترسيخ هذه العلاقة الوهمية بين التيارات السلفية والجهادية، أو تنظيم القاعدة على وجه التحديد، وهم: الشيعة، والطرق الصوفية.

إذ يبذل الناشطون في كلا الفريقين جهودًا جبَّارة للتسلل إلى جهات ومراكز صنع القرار والرأي العام في العالم الغربي، والتواصل معها؛ من أجل إبراز التيارات السلفية -الموصومة بالإرهاب- مقرونة بدولة محددة هي السعودية.

ونلحظ في هذا السياق نوعًا من الغزل المباشر والصريح بين فئات من المحللين والباحثين الغربيين وبين مثقفي الشيعة، ونعرض شاهدًا على ذلك؛ إذ كتب وينزر في دراسته: «قام محاربو الوهابية «السعودية» في عام ١٨٠١م بغزو ما يُعرف اليوم بالعراق؛ حيث اجتاحوا مدينة كربلاء المقدسة لدى الشيعة، ونهبوها وقتلوا ٤٠٠٠ من أبنائها. وبعد السيطرة على مكة والمدينة في العشرينيات من القرن الماضي، قاموا بتدمير الأضرحة مثل مقبرة جنات البقيع التي دُمِّرَتْ في عام ١٩٢٥م، وكانت تحوي رفات أربعة من أئمة الشيعة الاثني عشرية»(١٠).

ويقول كاتب عراقي شيعي عازفًا نفس اللحن: «فما الفرق بين غزوة السلفية الوهابية على الولايات المتحدة، والتي سموها بغزوة منهاتن، وكان المنفذون جلّهم من السعوديين الوهابيين المنتمين لتنظيم القاعدة، والتي راح ضحيتها آلاف من الأبرياء، وبين غزوة البقيع التي قادها الوهابيون السعوديون، ودمروا خلالها كل القبور، وخاصة قبور أئمة الشيعة الأربعة»(١١).

أما الصوفية فيكفي أن كثيرًا منهم كانوا صفًّا واحدًا مع الاستعمار، ويثبت الأكاديمي البارز إرنست غيلنر هذه الحقيقة في المغرب العربي، فيقول: «وجد الأولياء «الصوفية» أنفسهم عمومًا في جانب الفرنسيين .. والتفسير المقدم هو أن الوطنيين كانوا قد شكَّلوا الحركة الإصلاحية السلفية، بينما دعم الفرنسيون المتصوفة والأولياء؛ إذ كانوا غالبًا يعملون عَبْرَهم»(١٢).

مما يؤسف له انضمام بعض الحركات الإسلامية السياسية المضطهدة إلى الجانب الغربي، والمشاركة في الهجمة الغربية على التيارات السلفية في سياق الربط بين السلفية والإرهاب، يحكي نوفل المعاوي عن دكتور عبد المجيد النجار أحد قياديي حركة النهضة أنه: «فاجأ المراقبين بهجمته على التيار السلفي دون تحفظ .. ليقول عن هؤلاء الشباب السلفيين بأنهم يأخذون أفكارهم من خارج تونس، من الخليج ومن غير الخليج»، واتهم المعاوي حركة النهضة بأنها «وجدت في الحرب العالمية ضد الإسلام -تحت عنوان محاربة الوهابية والسلفية والإرهاب...- فرصتها لركوب الموجة، وإقناع الحكومات الغربية باعتدالها وتميزها، وأهليتها لخوض الحرب بالنيابة، وأن تغييبها عن الساحة التونسية تسبب في انتشار

(٩) نوفل المعاوي كاتب تونسي، مقال: حركة النهضة التونسية: الهجمة على التيار السلفي، هل هي عرض لحرب بالوكالة؟! (٢/٢)، ٢٠٠٦/١/١٨م، مجلة العصر.

(١٠) مرجع سابق.

(١١) أسعد راشد، مقال: قبور البقيع المهدمة وصمة عار في جبين الوهابية، موقع شبكة النبأ، ٢٠٠٥/١١/١١م.

(١٢) إرنست غيلنر، كتاب: مجتمع مسلم، ص ٢٧٩.

السلفية التي تفزع منها الحكومات الغربية».[١٣]

إن الحالة الوحيدة التي يمكن أن تتحول فيها حركات سلفية على نطاق واسع إلى ممارسة العمل الجهادي، هو وقوع البلد الذي تعيش فيه تحت نير الاحتلال، كما يحدث في العراق.

ثانيًا: مستوى الثبات الذي تبديه في التمسك بأصول الدين مع الحفاظ على نقاء التلقي:

وهو ما يعبر عنه وينزر في دراسته بـ «الشمولية الدينية السنية»، وهو ينسب هذا المصطلح إلى جيمس وولسي المدير السابق للسي آي آيه في وصفه محاولات الحركات «الراديكالية» بسط سيطرتها على دقائق الأمور الحياتية للمسلمين[١٤].

هذه الشمولية الدينية تمثل مصدر خطر بالنسبة للرؤية الغربية؛ لصعوبة احتوائها كمنهج -بخلاف الأفراد-، وصعوبة اندماجها في فئات أو شرائح تحمل أفكارًا مخالفة لمبادئ الإسلام أيضًا.

كما أن هذه الشمولية تسعى لوضع كل القضايا والمواقف والأشخاص تحت مجهر الشريعة الدقيق، وهذا لا يتناسب مع المصالح الأمريكية التي تحتاج إلى منهج فضفاض يسع كل شيء وكل شخص، ولعل التصريح الشهير للمفتي السوري الشيخ أحمد حسون يعطي تصورًا دقيقًا عن النمط الذي يتناسب مع الرؤية الغربية، حيث قال الشيخ في تصريح أثناء زيارته لألمانيا، ونشرته وسائل الإعلام هناك: «أنا مسلم في عقيدتي، عربي في لغتي، إنساني في عالميتي، سني في اقتدائي، شيعي في ولائي، سلفي في جذوري، صوفي في حبي ونقائي»[١٥].

ثالثًا: قابليتها العالية للتواصل مع الجماهير إذا توفر لها الخطاب المتجدد والوسائل الإعلامية:

الالتزام السلفي هو التزام فطري بالإسلام، أيّ مسلم في أي بقعة من الأرض عندما يقرأ القرآن وكتب التفسير، ويطلع على الأحاديث النبوية، ثم يبدأ في اتباعها يتحول تلقائيًا إلى المنهج السلفي.

بنفس البساطة يحظى الدعاة السلفيون، في الفترة الحالية، برواج كبير في المجتمعات الإسلامية، فقد تبين أن التزام الدعاة السلفيين بالسمت الإسلامي العام يقربهم من الجماهير، بخلاف ما كان متوقعًا، كانت الإشكالية في التواصل مع الجماهير ليست في عصرنة الزي أو المظهر العام، بل في عصرنة الأسلوب والخطاب والمنبر، وهذا ما حدث مع عدد من الدعاة السلفيين الذين استطاعوا كسر الحواجز والوصول إلى الجماهير بسهولة من خلال وسائل الإعلام، مكتسبين في نفس الوقت الثقة والاحترام الناتجين عن الالتزام بالسمت الإسلامي.

استطاعت الدعوة السلفية أن تخترق حتى أكثر الدول العربية تطرفًا في علمانيتها «تونس»، وبرز ما أصبح يُعرَف في تعبير بعض الإسلاميين بـ «الظاهرة السلفية الجديدة»، وهو ما دفع بأحد قياديي حركة النهضة -محمد بن سالم- إلى مهاجمة هذا النجاح السلفي، فاعتبر أنه تنامى بسبب «إغلاق المساجد أمام الدعاة الحقيقيين وأمام المشايخ الحقيقيين»[١٦].

والحال هكذا، يثور التساؤل حول مستوى الإدراك النخبوي والقاعدي لخطورة وأبعاد الاستهداف الغربي.

في هذا المجال يمكن التمييز بين ثلاثة مستويات من الإدراك:

- الإدراك العام لوجود الخطر من خلال تداول معلومات عامة مدعمة بنصوص الكتاب والسنة.
- الإدراك الواسع لتفصيلات المخططات والاستراتيجيات الغربية في مواجهة المد السلفي.
- الإدراك العملي للمخططات الغربية، والمتمثل في اتخاذ إجراءات واقعية لرصد التطورات في هذه القضية وطرح رؤية شاملة للمواجهة.

(١٣) نوفل المعاوي- مرجع سابق.

(١٤) مقال: السعودية والوهابية وانتشار الفاشية. سابق.

(١٥) حوار مع الشيخ أحمد حسون، العربية نت ٨/١١/٢٠٠٧م.

(١٦) نوفل المعاوي- مرجع سابق.

مـن خـلال التأمل في واقـع التيارات السـلفية يمكن ملاحظة أن الأغلبية تراوح بين المستوى الأول والثاني، مع انتشـار ظاهـرة «فوضـى التحذير»، والـتي تتبنى شـعار «منذر القوم» دون أن تحمل اسـتيعابًا حقيقيًّا لما يحدث أو قدرة على المواجهة.

إنه نوع من التحذير الارتيابي الذي ينطلق من الشـعور بالخطر، وليس مـن إدراكه، لذلك غالبًا ما نجد في الخطاب السـلفي أن صيحـات التحذير والنفير يعقبها اسـتدعاء مباشـر للنصوص التي تتحدث عن النصر، وإبطال كيد الأعداء، دون أن تتكون لدى المخاطبين رؤية واضحة عما يحدث أو سيحدث.

خطـورة «فوضى التحذيـر» هذه أنها يمكـن أن تُنتج أثـرًا عكسـيًّا، وذلـك عندمـا يسـتمع الـرأي العام السـلفي إلى هذه التحذيرات، بينما يعاين واقعًا هادئًا ومناخًـا دعويًّـا إيجابيًّـا، فـلا يسـتطيع أن يجمع بين توازنات المرحلة وبين ما يسـمعه من تحذيرات، فيحيل الأمر إلى المبالغة أو يعتمد الأسـلوب الشـائع في اعتبار أن: الخطر يحيق بغيرنا ولن يصل إلينا.

القيد الثاني – الداخلي:

ينصرف جزء كبير من طاقة العمل لدى طائفة من التيارات السلفية في التعامل مع الإشكالات الداخليـة، والخلافات البينيـة، وفي بعـض الحالات تتفرغ جماعات بأسرها لمهاجمة وانتقاد جماعات سلفية أخرى.

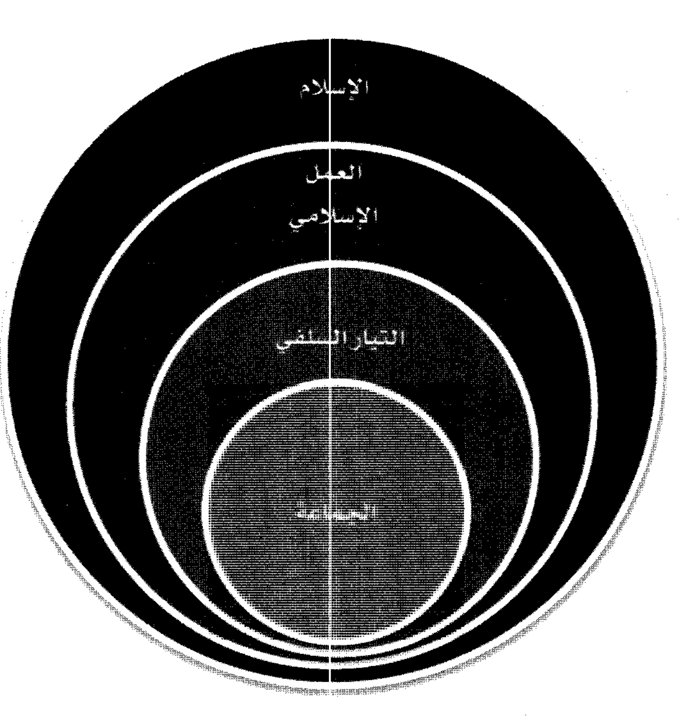
في هـذا الجـزء نعـالج بعـض القضايـا الـتي تمثل قيـدًا داخليًّا يعوق التيـارات السـلفية عن ممارسـة دورها المنوط بها في الأمة.

أولاً: دوائر الانتماء

يُظْهِر الرسم التالى دوائر الانتماء الطبيعية لأي شخص ينتمي إلى التيارات السلفية، فأولاً هناك دائرة الإسلام العامة، والتي تسع الجميع، ثم دائرة العمل الإسلامي، ومنها تتفرع التيارات السلفية، ثم يأتي الانتماء الأخير الضيق إلى جماعة سلفية معينة.

وبينما ينتهي الشخص بانتمائه إلى جماعة، فإن المعيار الذي يجب اتباعه في تصنيف الأشخاص والتعامل معهم لا بد أن يبدأ بالدائرة الأولى الأوسـع، دائرة الإسلام، فهـي الأصل ومنها تتفرع بقية الدوائر، ويحدث الخلل عندمـا يصبح الانتماء إلى الدائرة الأضيق هو الأصل، عندهـا تنقلب المفاهيم، ويصبـح الضيق حكمًا على الواسع فالأوسع.

في قضيـة الانتمـاء ظلت التيـارات السـلفية ردحًا من الزمن تتميز بسـهولة الانتماء إليها، لا توجد إجراءات أو ترتيبـات، فقـط المطلـوب هـو الالتـزام بالكتاب والسـنة وتعظيـم الأوامـر والنواهي، وبخـلاف بعض الأوامر الشـرعية فـإن أغلب التزام المـرء يكون بينه وبين ربه، هـكذا يصير المرء سلفيًّا.



كان هـذا في الماضـي، عندمـا كـان الالتـزام يعتمد بالدرجة الأولى على قـوة الإرادة لـدى المريد، بخلاف الجماعـات غير السـلفية الـتي يحتـاج الالتزام إليها إلى ترتيبات ومراحل أكثر تعقيدًا.

المشـكلة الآن أنـه مـع تنامـي الخلافـات بـين الجماعـات السـلفية، واتسـاع نطاقها لتشـمل قضايـا واقعيـة، فـإن الانتمـاء إلى جماعـة سـلفية معينـة لم يعـد سهلاً، أصبحت هناك قوائم من قضايا عقدية وفقهية

يجب على المنتمي إلى إحدى الجماعات أن يتعلمها ليُقبل انتماؤه، وفي كثير من الأحيان تتراجع القضايا العلمية الشرعية الأساسية التي يجب أن يتعلمها المسلم، وتحتل مكانها قضايا أخرى خلافية، أصبحت عنوانًا لتميز جماعة سلفية عن أخرى، قضايا مثل: ما رأيك في الحاكمية؟ ماذا تقول في الرئيس؟ ما حكمك على سيد قطب؟ ما هو رأيك في الإخوان؟ هل يكفر المسلم بترك جنس العمل أم لا يكفر ؟ إلخ ..

نشأت عن هذه المشكلة سلبية أخرى، وهي أن الجهد العلمي المطلوب بذله مع الأتباع الجدد أصبح مضاعفًا، وبالتالي أصبحت بعض الجماعات السلفية تبحث عن أتباع لديهم جاهزية مسبقة، أي أتباع الجماعات الأخرى، وهنا برزت ما يمكن أن نسميها «ظاهرة الانتشار العرضي»، أي انتشار الجماعات السلفية دون أن يترتب على ذلك أي تأثير في المجتمع، فقط تحولات داخلية لا تحدث فارقًا أو إنجازًا دعويًا يُذكر.

المؤسف أن هذه القضايا العلمية محل الخلاف بين الجماعات السلفية هي في غالبيتها مجرد انعكاس لخلافات أخرى حركية أو أمنية أو حتى شخصية- على الزعامة والتصدر كمثال- بحيث يمكن افتراض أن هذه الخلافات الأصلية لو لم توجد، لكان ممكنًا تجاوز كثير من الخلافات العلمية المشار إلى بعضها.

هذه الوضعية البائسة جعلت الخلاف علامة مسجلة لبعض التيارات السلفية، وكما يقول مراد هوفمان: «وهذا الاختلاف والتشرذم أصبح علامة مسجلة للمسلمين، حتى في أوروبا والولايات المتحدة، فأصبحت مهمة أعداء الإسلام يسيرة جدًا»[17].

مع ذلك يمكن القول: إن بعض جماعات السلفية الدعوية تمتلك أُسُسًا فكرية وتنظيمية تجعل أتباعها أكثر حصانة وثباتًا في انتماءاتهم من جهة، كما تجعلها منصرفة إلى أهداف أكثر سموًا من انتقاد الجماعات الأخرى والطعن فيها.

ثانيًا: انعكاسات النشأة الأولى:

كثير من التيارات السلفية سلكت نهجًا تغييريًا متطورًا؛ سعيًا لبذل جهد أكبر في إصلاح المجتمعات التي تنتمي إليها، ولكن تعاني كثير منها مما يمكن تسميته «انعكاسات النشأة السلفية»، ويُقصد بها بعض الصفات والسمات التي تعوق عملية التطور داخل التيار السلفي، وتجعل من عملية التجديد مخاطرة غير مأمونة العواقب.

من هذه السمات الذاتية: أي تَمحوُر الشخص حول نفسه، وطموحه الشخصي، حتى عندما يفكر في قضايا الدعوة فإن تفكيره يبدأ من حيث هو كشخص، وليس انطلاقًا من الجماعة التي ينتمي إليها..

ومنها: ضعف الأطر الفكرية والتنظيمية: والتي تفسح للذاتية مجالاً رحبًا، وعندما تتعدد الذوات المتنامية داخل الجماعة فإنها تصطرع مع نفسها، وتنشغل عن دعوتها بحل إشكالاتها الداخلية، أيضًا فإن ضعف الأطر يُضعف الانتماء إلى التيار أو الجماعة، فتسهل عملية التحولات والانتقالات البينية، ويصبح الأتباع عرضة لأي أفكار خارجية بدون حصانة.

ومنها: نمط الشيخ والأتباع: والذي يبقى مسيطرًا على الثقافة التنظيمية للتيار، ويجعل من العسير القبول بقيادة جماعية، أو قيادة متغيرة، كما أنه يرهن ثبات الأتباع بصلتهم المباشرة بالشيخ أو الزعيم، فإذا ضعفت هذه الصلة يحدث التفرق.

هذه الانعكاسات السلبية تجعل تحول بعض التجمعات السلفية إلى ممارسة العمل الجماعي عملاً بالغ الصعوبة، ويحتاج إلى عناية فائقة وتدرج وحكمة وخبرة عالية.

ثالثًا: الثوابت والمتغيرات:

من أبرز إيجابيات التيارات السلفية قوة تمسكها بالثوابت، مهما تزايدت الضغوط، لكن هذه الإيجابية أفرزت - عند كثيرين منهم - بعض السلبيات، منها: التوسع في توصيف الثوابت، بحيث تضمنت القائمة

(١٧) مراد هوفمان – مرجع سابق.

عددًا من القضايا الاجتهادية المنهجية والدعوية.

والأصل أن مسيرة الدعوة من خلال جماعة أو تيار لها مراحل متعددة، فهناك مرحلة التأسيس، ثم مرحلة الانتشار واختبار الأفكار والمعطيات، ثم مرحلة التدعيم والتثبيت، ثم مرحلة الحصاد، وقد تمر الجماعات بهذه المراحل كلها أو بعضها أو غيرها، ولكن المهم هنا أنه منذ مرحلة التأسيس، تحتاج الجماعة في كل مرحلة تالية إلى مراجعة اجتهادتها ومتغيراتها، ومن ثم وتجديدها أو استبدالها، لكن بتأثير صفة التمسك -الحميدة-؛ ونتيجة للخلط بين ثوابت المنهج والدين، وبين ثوابت المرحلة التي تتغير مع تغيرها، فإنه ينشأ داخل الجماعة تياران متناقضان، الأول يَعَضّ بالنواجذ على ما يعتبره من ثوابت المنهج، والثاني، يطالب بالتجديد وتطوير ما كان مؤقتًا متغيرًا بطبيعته، مثل: الموقف من بعض الجماعات أو الشخصيات، أساليب الدعوة والعمل الاجتهادية، بعض أشكال العمل التنظيمي والجماعي، أسلوب التعامل مع الخصوم والأعداء، مفردات الخطاب الدعوي.. إلخ.

هذا التناقض يمكن أن يتطور ليصل مستوى الانشقاق أو الانفصال في بعض الأحيان، وبذلك يُقضى على الجماعة الأصلية أن تظل تراوح في مكانها لا تفارق مرحلتها الأولى أبدًا؛ لأنها باتت تعتبرها من الثوابت.

من توابع هذه الأزمة، أن الحركة تفقد مع مرور الوقت الكفاءات الفكرية والدعوية التي تمتلك القدرة على التجديد والنهوض بالعمل الدعوي، فتصبح فترة بقاء هؤلاء داخل إطار التيار قصيرة نسبيًا، ومن ثم يفسح المجال لأشخاص آخرين، هم أقل كفاءة وقدرة على إدارة العمل الدعوي.

رابعًا: تداخل المنهج الدعوي مع الفتاوى الشرعية:

يجب التفرقة بين المنهج الدعوي وبين الفتاوى الشرعية، فلا يسوغ تجميع بعض الفتاوى الشرعية وتنسيقها في باقة واحدة، ثم إضافتها إلى المنهج ليصبح أسيرًا لاجتهادات بعض الأشخاص، الذين ربما يتغير مكانهم ومكانتهم في الدعوة أو التيار، وربما يغيرون هم أنفسهم من اجتهاداتهم، بينما يظل المنهج أسير فتاواهم القديمة.

يجب أن يظل المنهج منهجًا، والفتوى كما هي، من سمات المنهج أنه لا يتغير بل يبقى ثابتًا مستقرًا، أما الفتوى فالتغير أمر وارد بحقها مع تغير الظروف والأحوال.

بعض الجماعات تتبع أسلوبًا انتقائيًّا في تجميع بعض الفتاوى أو إصدارها، وفي نهاية الأمر تتحول هذه الفتاوى إلى منهج دعوي يعبر عن القناعات الشخصية للشيخ الزعيم الذي أصدرها أو انتقاها، أكثر مما يعبر عن منهج حقيقي واضح ومتكامل.

ولذلك نجد أن كثيرًا من التيارات السلفية بدأت مسيرتها متقيدة بمرجعيات علمية بارزة، ومنطلقة من اجتهاداتها، ولكن مع مرور الوقت وتراكم الفتاوى الانتقائية لم يعد ممكنًا التقيد بمرجعية العلماء، وتحول زعيم الحركة ليصبح مرشدًا ومفتيًا ومجتهدًا لها.

خامسًا: أزمة القيادة الدعوية والعلمية:

تعتبر التيارات السلفية - بسبب الاختصاص- مَعِين العلوم الشرعية في الأمة، والحافظ الأول لشرائع الإسلام.

ولا شك أن العناية الفائقة من قبل التيارات السلفية بالعلوم الشرعية تدريسًا وتعليمًا وتأليفًا عقودًا طويلة، أفرزت علماء ومتخصصين في الدراسات الشرعية، لكن كان المتوقع أن تُخرِّج هذه النشاطات العلمية المكثفة أجيالاً من العلماء - القادة — المؤهلين لقيادة الأمة وتوجيهها، ولكن بدلاً من ذلك أصبحت التيارات السلفية في كثير من الدول الإسلامية تعاني هي نفسها من أزمة مرجعية علمية، ويفتقد كثير منها إلى علماء بارزين يقودون الحركة أو التيار، ويشرفون على عملية التعلم والتعليم بداخله.

وحتى الكفاءات العلمية الموجودة في بعض الحركات لم تستطع أن تطور خطابًا عامًّا يتلاءم مع حاجة المجتمع، بل ظلت قابعة في إطار جماعتها مكتفية

قانعـة بأتباعها، عاجزة عن الوصول إلى الناس فضلاً عن قيادتهم.

سادسًا: بين المثالية والدَّخَن:

من أقوال السـلف: «من طلب أخًـا بلا عيب، صار بلا أخٍ»، وكذلـك، فإنه من طلب جماعة بلا عيب، صار بـلا جماعة، ومن طلب تيـارًا أو تجمعًا بلا عيب صار لوحـده، وهـذا من العيـب في حد ذاتـه، والمطلوب أن ننمـي فقـه التعامل مـع الدَّخَن في مناهـج الجماعات والتيارات، وفي أفكارها وأدائها وخطابها، وأن نفرق بين الرفـض الذاتي للدخن، وبين القبول العام لمن يقع في هـذا الدخـن، وأن نفـرق بين تقويـم الجماعة ذات الدخن كتجربة، وبين تقويمها لأجل إصلاحها، وقبل هذا كله يجب أن نطرح على أنفسنا تساؤلاً مهمًّا: ما هـو الدخن الذي وقعنا فيه؟ فلا يُعقل أن يطال الدخن كل أحد إلا نحن؟

إن مـن ضرورات المرحلة أن نضـع الأخطاء في إطارها العلمـي المتـوازن، وأن يديـر السـلفيون حـوارا جادا ومنصفا، يجمع ولا يفرق.

خيارات المستقبل:

لا يمكـن- بـإذن الله – أن تنجـح محاصـرة التيـارات السـلفية إلى درجة القضـاء عليها أو تصفيتها، لسـبب بسـيط، وهو طبيعة نشأتها، فإلى الآن لا يستطيع أحد أن يحصر نشـأة التيارات السـلفية في شـخص معين أو رمـز محدد، يمكن أن تنشـأ السـلفية في أي بقعة من الأرض، وعلـى يد أي شـخص على النحو الذي ذكرناه سابقًا.

ما سـوى ذلك يبقى أمـام التيارات السـلفية أربعة مسـارات، يمكن أن تسلك أي جماعة أي مسار منها كليًّـا أو جزئيًّا، ويمكن تسـمية هذه المسارات على النحو التالي:

التنظيم - الجهاد - الدولة - المستقبل السلفية الدعوية.

أولاً: التنظيم:

هنـاك قناعـات متفاوتة بشـأن قضية ممارسـة العمل الجماعي داخـل التيارات السـلفية، بعض الجماعات ترفض ذلـك تمامًـا، والنتيجة الطبيعية هـي التشـتت والفردية، ولكن بالنسبة لجماعات السلفية الدعوية، فقـد قطعـت شـوطًا لا بأس في هـذا المسـار، لكن المشكلة أن الثقافة السـلفية التنظيمية تعاني - أحيانًا كثـيرة - من قِصَر النَّفَس، فقـد أدرك الملل بعضًا من المنظِّرين والدعاة من أعباء العمل الجماعي وتداعياته، فنشأت دعوة معاكسـة تطالب بتحول الجماعات إلى تيار من جديد، أي إلى العمل الدعوي السائب.

هذه الدعوة رغم بريقها إلا أنها تعتبر تطورًا إلى الخلف، فلن يلبث هـؤلاء أن تتراكم عليهم الأعمال والأعباء في ظل الأوضاع السائبة، لينادوا مرة أخرى -هم أو تلامذتهم من بعدهم- بضرورة ممارسة العمل الجماعي.
المهم أن مسـار «التنظيم» سـوف تتوزع عليـه التيارات السلفية في كلا اتجاهيه.

هـذا مع الإقرار بأن العمل الجماعي لا يخلو بدوره من سلبيات، لذلك فالتوسط هدف منشود، والأمور تقدَّر بقدرهـا، وما يصلـح في بلد قد لا يصلح في غيره، وما يصلح لجماعة قد لا يصلح لغيرها.

ثانيًا: مسار الجهاد:

سـبق أن تناولنـا هـذا المسـار، والمحصلـة أن غالبيـة التيـارات السـلفية ترفـض ممارسـة العمـل الجهادي داخل الدول التي تعيش فيها، كما يتحفـظ كثـير منهـا على إرسـال الأتباع إلى مناطق الجهاد الساخنة، وتقـر غالبيـة هـذه الحـركات في نفس الوقت بضرورة الجهاد في حال تعرضـت دولهـم للغـزو والاحتلال، كمـا تقـر بضـرورة الدعـم المادي والمعنـوي للحـركات الجهاديـة المتزنـة في الـدول الإسـلامية المحتلة، ومـا يحدث من تطـوع للجهاد في بعـض الدول مثل العـراق، فهي حالات فردية لم تصل إلى الدعوة الرسمية.

> إن السلفيين مدعوون إلى ممارسة التفكير كجماعات وليس كأفراد داخل جماعات

في نفس الوقت فإن السلفيين مدعوون إلى ممارسة التفكير كجماعات، وليس كأفراد داخل جماعات، هناك فرق كبير بين التفكير الجماعي والتفكير الفردي، عندما ينتمي الشخص إلى جماعة أو تيار معين، فأول ما عليه فهمه أن هذا الانتماء يجعل مصلحة التيار مقدمة على مصالحه وعلى رغباته، وأن أفعاله ستلحق عواقبها بالجماعة التي ينتسب إليها، وقد يصدر عن شخص واحد تصرف مغامر يوقع الحركة بأسرها في أزمة شاقة.

لن ترسخ هذه الثقافة الجماعية إلا بترسيخ البناءين: الفكري والتنظيمي داخل التيارات السلفية.

أما بالنسبة لتيارات السلفية الجهادية، فإن المشاهد تحول عدد منها إلى السلفية الدعوية أو العلمية، والمتوقع أن تستمر هذه التحولات في الفترة القادمة، وإن كان شكل العلاقة بين المتحولين الجدد والجماعات الأخرى لا يزال يكتنفه الغموض، وإن كانت الاحتكاكات داخل المعتقلات في بعض الدول، خاصة في شمال إفريقيا، أتاحت تبادل الخبرات والأفكار بين هؤلاء المتحولين وبعض الرموز السلفية، هذا التبادل الفكري يُتوقع أن يكون له تأثير على أداء الجماعات السلفية في المرحلة القادمة، أقله في مجال تدعيم الأسس الفكرية والتنظيمية، كما يُنتظر أن يُكسب التيارات السلفية مرونة وحنكة متزايدة في التعامل مع خصومها الطبيعيين.

ثالثًا: الدولة:

قضية تكفير الأنظمة في الدول العلمانية، مسألة خلافية داخل التيارات السلفية، إلا أنها تأخذ في مناحي الخلاف أكبر من حجمها الطبيعي؛ إذ تتفق أغلب التيارات السلفية على التعاطي مع الدولة وأجهزتها من الناحية العملية في العموم، حتى مِن قِبَل مَن يكفرونها.

وداخل هذه الدول العلمانية تتوزع تيارات وتجمعات سلفية في المسافة بين تكفير الأنظمة العلمانية وبين موالاتها، وهذا الانتشار الخطي يرفع من احتمالات حدوث تحولات وانتقالات على هذا المسار في كلا الاتجاهين، لكن المؤشرات الحالية ترجِّح توجه عدد كبير من التجمعات السلفية في اتجاه التصالح مع الدولة.

ويدعم هذا التوجه أنه في كثير من هذه الدول ذات الطابع العلماني، تبرز الحاجة إلى وجود التيارات السلفية كمُكَوِّن رئيس في معادلات التوازن داخل التيارات الإسلامية عمومًا، ولذلك نجد في بلدٍ ما تضييقًا وحصارًا لجماعة الإخوان المسلمين، بينما يُفسح المجال لرموز سلفية كي تخاطب المجتمع بحرية عن طريق الإعلام.

والخطورة هنا أن معادلات التوازن هذه عرضة للتغير تحت أي ظرف أو حدث مفاجئ، كما أن التيارات السلفية في أغلب الدول العلمانية غالبًا ما يكون مستوى انتشارها وتماسكها محدودًا من الناحيتين العددية والتنظيمية، ما يجعلها أكثر قابلية للاحتواء أو تقليص النشاط؛ إذ تصبح ممارسة الضغوط في هذه الحالة ذات تأثير واضح.

لعل من أبرز نتائج هذه الضغوط بروز شريحة السلفيين المستقلين، وبعضهم طلب الاستقلال للتخفف من أعباء وعواقب العمل الجماعي، وبعضهم عجزت جماعته عن استيعاب طاقاته الفكرية والحركية فآثر العمل مستقلاً.

في جميع الأحوال، فإن شريحة المستقلين السلفيين، وإن كانت تحمل بعض الإيجابيات بلا شك، إلا أنها تساهم بصورة غير مباشرة في تعميق الخلاف؛ نتيجة تزايد عدد الذين يحملون باقات خاصة من الأفكار والمواقف والتقويمات والآراء حول كل شيء يتعلق بالعمل الإسلامي، مما يعني مزيدًا من التشظي والفسيفسائية.

رابعًا: المستقبل للسلفية الدعوية:

لم تكن السلفية في بداياتها الأولى في التاريخ المعاصر سلفية ساكنة، أو مجرد حركة علمية تتركز في المساجد، وينحصر جلّ نشاطها في الدروس والخطب، بل كانت حركات تغييرية إصلاحية تهدف إلى الرجوع بالمجتمع إلى الإسلام الحنيف من

خلال عمل علمي ودعوي جديين وشاملين؛ لذا فإن العودة بهذه التيارات السلفية إلى ماضيها الأول هي عودة إلى الأصول، والركون بهذه الحركة التغييرية في نطاقات محدودة هو خروج عن الأصل، وإذا كانت السلفية في محورها الرئيس هي دعوة للعودة إلى الأصول، فيمكن أن نعتبر السلفية الدعوية بهذا المفهوم: دعوة سلفية مزدوجة.

قدمت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مثالاً حيًّا على ذلك، فهي لم تكن أبدًا مجرد دعوة علمية ساكنة، وفي المغرب العربي حدث الشيء نفسه، يقول عبد الإله بلقزيز: «لم يكن مستغربًا أن تصبح السلفية هي أيديولوجيا الحركة الوطنية، كما في حالة المغرب العربي إبان حقبة الاحتلال الاستعماري... خرجت الحركة الوطنية المغربية من رحم الحركة السلفية، وبتأثير رموزها الكبار، كما خرجت الحركة الوطنية الجزائرية من رحم سلفية عبد الحميد بن باديس وجمعية علماء المسلمين».(18)

بل إن التيارات السلفية سيطرت تقريبًا على مجريات الأحداث سنوات طويلة في عدد من الدول العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتبادلت التأثيرات فيما بينها، يقول بلقزيز: «الحقيقة تقتضينا القول المنصِف: أن الإصلاحية الإسلامية في القرن التاسع عشر، ما أحرزت ذلك الذي أحرزته من نجاح في هذا الباب؛ إلا على قاعدة تراث السلفيات الطرفية السابقة لها، التي انبعثت في نجد والسودان وليبيا منذ القرن الثامن عشر، فأعطت حركات الوهابية والمهدية والسنوسية بوصفها حركات سلفية توحيدية، انصرفت إلى مقاومة البدع، وإلى إعادة تثبيت فكرة التوحيد الإسلامية في مقابل هيمنة الطقوس الوثنية».(19)

> التيارات السلفية سيطرت تقريبًا على مجريات الأحداث سنوات طويلة في عدد من الدول العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتبادلت التأثيرات فيما بينها.

إن تاريخ السلفية القديم مشرِّف، ويحمل قدرًا كبيرًا من الإنجازات على مستوى الأمة الإسلامية، والذي نعتقده أن السلفية الدعوية ممثلة في بعض فصائلها تسير على ذات النهج لتصل القديم بجديده، وإن المخالفين لها مطالبون بالدليل على انحرافهم عن نهج مؤسسي التيارات السلفية الأوائل.

من خلال هذه الحقيقة، وما سبق عرضه تبرز النتائج التالية:

١- فيما يتعلق بالعلاقة بين الاتجاهات السلفية الثلاثة (الدعوية، والعلمية، والجهادية المنضبطة) من الواضح أنه يوجد فرق كبير بين ما يجب أن يكون، وما هو كائن بالفعل.

٢- السلفية الدعوية تعدّ بمثابة النهج الوسط بين مختلف التيارات السلفية، وهي أقدرها -بإذن الله- على البقاء والتكيف والمواجهة.

٣- مشكلة بعض تيارات السلفية العلمية أنها في حال لم تتطور إلى السلفية الدعوية فهي مهددة بالانزلاق إلى احتمالات متعددة: منها الجمود وتضاؤل الأثر الجماهيري، ومنها تحولها إلى مسوغ ومبرر لإضعاف النهج السلفي بصفة عامة، ومنها تحولها إلى مسلك المهادنة على طول الخط، ومنها تحول بعض أبنائها إلى السلفية الجهادية، وفي بعض الحالات فإن هذا التيار سيُبقي السلفية الدعوية خصمًا تجب مواجهته.

٤- أثبتت تجارب السلفية الجهادية في الفترة الأخيرة أن هناك جوانب كثيرة من الخطأ والتجاوز الشرعي والسياسي طالت العمل الجهادي، وعندما يبحث هذا التيار عن مرفأ يُؤَمِّن له العودة السالمة إلى بر الأمان السلفي فلن يجد خيرًا من السلفية الدعوية.

٥- السلفية الدعوية هي نمط تجديدي يتجاوز عقبة الجمود ويقف في وجه عقبة التميع، كما أنها من ناحية أخرى تتجاوز عقبة القعود دون أن تتورط في ممارسات مشتبهة شرعًا، ولذلك فهي تكتسب،

---

(١٨) عبد الإله بلقزيز، كتاب: الإسلام والسياسة، دور الحركة الإسلامية في صوغ المجال السياسي... ص ١٨٠.

(١٩) المرجع السابق ص ١٨١.

بوضعهـا المتوازن قدرة أكبر على البقاء والانتشـار والتأثير، دون أن تُتَّهَم بمهادنة أو تهور.

هــذه النتائـج الإيجابيـة لا تمنع من وجـود جوانب من الخلـل في أداء جماعات السـلفية الدعوية، وفي الجزء الأخير من الدراسـة نعرض لأهـم الجوانب التي تحتاج إلى تغيير أو تجديد.

أولاً: الأسلمة وليس إقامة الدولة:

تحمل التيارات السـلفية والإسـلامية عمومًا في الدول العلمانية حلم إقامة الدولة الإسلامية، إلا أن التجارب الماضية تكشف عن كون هذا الحلم أو الهدف عسير المنـال، ويحتاج إلى مراحل متتالية مـن الجهد والعمل المتواصـل؛ ولأن الهـدف هـو المعيـار الأول لقياس أداء الجماعـة والتيار، فإن التمسـك بـه في الفترة الحالية لـن يسـفر إلا عن مزيد مـن الإحبـاط والتخبط، لذا فمــن المقترح أن يرفـع في هذه المرحلة هدف آخر، هو: أسلمة المجتمع، أي السعي لإعادة جميع جوانب الحياة والأنشطة الاجتماعية إلى جادة الإسلام.

هــذا الهدف يتميـز بكونه قابـلاً للتقسـيم والقياس والتنفيـذ في التوِّ واللحظة؛ إذ كل عمـل مهما كان بسـيطًا يمكـن أن يُـدْرَج بسـهولة في خانـة أسـلمة المجتمع، بذلك يمكن قياس وتقويم العمل من ناحية، ومــن ناحيـة أخرى يمكن اسـتغلال جميـع الطاقات داخل الجماعة دون هدر شيء منها.

ثانيًا: التجديد الذاتي:

تحتاج السـلفية الدعوية إلى إعادة تطوير وتجديد، بما يتناسب مع مستجدات الواقع، وهذا لن يتأتى إلا بقدرة الحركة على اسـتيعاب الطاقات الفكرية بداخلها، والسـماح بقدر من تبادل الآراء والنقاش حول القضايا المحوريـة، والحذر مـن تقديس وتكديـس المتغيرات والأشخاص وتحويلها إلى ثوابت راسخة.

ثالثًا: تقوية البنائين الفكري والتنظيمي:

لا تزال هناك حاجـة لتقوية هذين البنائين؛ للتغلب على ارتبـاط التجمعات السـلفية بالأشـخاص والرموز فوق المسـتوى المقبول، وخاصة بالنسـبة للتجمعات المتحولة عـن السـلفية العلمية؛ حيـث لا يزال بعضهـا يعاني من ضعف البنائين الفكري والجماعي، بما يسمح ـ أحيانًا ـ لشـخصية الرمز الآسِـرَة أن تفرض سيطرتها وتطرح علامات غموض حول مستقبل الحركة بعد غيابه.

رابعًا: أطر عامة لجماعات السلفية الدعوية:

يجب البحث عن أطر عملية تجمع التجمعات السـلفية الدعويـة في سـياق واحد ومتقـارب، وقد يكون ذلك عن طريق تنفيذ مشـروعات دعوية مشـتركة شريطة أن تكـون مؤقتة وليسـت مسـتمرة، حتـى لا تتحول هذه المشـروعات بدورهـا إلى مواطن خلاف لا اتفاق، ويمكـن أيضًا العمل على نشر وترسيخ ثقافة التعاون، والتنسيق بين التجمعات الدعوية من خلال نشر أدبيات تتناول هذه القضية بصور متعددة.

ويلاحـظ هنـا أن اقتراحات إنشـاء هيئـة أو رابطة أو منظمـة تجمـع الرمـوز السـلفية الدعويـة تصبح غير ذي تأثـير بخلاف معناها اللغـوي، طالما ظل القائمون عليها أو مؤسسوها ينتمون إلى جماعة أو تيار ما، فلا يمكن تجاوز العوائق الراسخة بين التجمعات السلفية ما بين يوم وليلة أو بإجراء سريع.

إن الأمـر يحتاج إلى اسـتراتيجية متكاملـة متدرجة، تبدأ بنشـر ثقافة التعاون والتنسيق، وتثني بإقامة تلك المشروعات المشتركة، وإن انتهى الأمر بتكوين هيئة تجمـع أهـل الحل والعقـد في التيارات السـلفية داخل كل بلد، لكان ذلك إنجازًا عظيمًا.

خامسًا: تعميق التواصل مع الجماعات الإسلامية السياسية:

الأصـل أن كلا التياريـن السـلفي والسياسـي ينتمي إلى دائـرة العمـل الإسـلامي، وبذلـك يصطفـان في نفـس الخندق في مواجهة نفـس الأعداء، فلا يُعقل أن يُسـتَدرج أيّ منهما لمواجهـات جانبية، فضلاً عن ترك التعاون والتنسيق فيما بينهما.

والمطلـوب مـن التيـارات السـلفية الدعويـة أن تعمـق تواصلهـا مع هذه الجماعـات؛ لأن هذا الوجود المزدوج

لهما يحقق نوعًا من التوازن الذي يشتت الجهود الغربية في احتواء العمل الإسلامي، يقول عبد السلام مغراوي في دراسته السابق الإشارة إليها: «.. فكيف يمكن للولايات المتحدة أن تدعم العناصر الإسلامية المعتدلة ضد التيار السلفي، عندما يكون كل تنظيم سياسي إسلامي، سواء متطرف أم معتدل تحت رقابة شرسة ومقيدة من الحكومات العربية المحلية، ومن جانب الحكومة الأمريكية في بعض الأحيان؟».[٢٠]

وعندما تنزلق بعض التيارات إلى مواجهة تيار إسلامي آخر، تكون الخسائر كبيرة على الجانبين، يقول نوفل المعاوي عن حركة النهضة: «أطلقت الجماعة العنان لتهجمات نارية على التيار السلفي المتنامي في تونس، والذي صُوِّر في شكل غول متنامٍ يأكل الأخضر واليابس، أو بتعبير أحد المواقع الإلكترونية المقربة من نهضة المهجر: ينتشر كالنار في الهشيم»[٢١]

وأسرف بعض قادة النهضة في مهاجمة السلفيين، حتى بدا وكأنه يعاني من حالة غَيْرَة من هذا التيار، يقول محمد بن سالم عضو المكتب السياسي للحركة: «ويحدث اليوم في تونس أن من ترتدي الخمار مقموعة ممنوعة، أما التي ترتدي النقاب فمسموح لها بالدخول والخروج بدون مشاكل، حتى تعطي الصورة الكريهة للإسلام وللإسلاميين بشكل عام».[٢٢]

سادسًا: تدوين المنهج الدعوي:

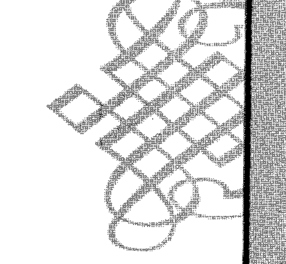
تعاني التيارات السلفية الدعوية عمومًا من اعتمادها على انتقاءات منشورة للتعبير عن منهجها، وتفتقر إلى مدونات منسوبة إليها مباشرة، تعبر بوضوح عن هذا المنهج، كما أنها تفتقر إلى الإصدارات التي تتناول التجارب التاريخية لها في العقود الماضية، مثل المذكرات أو كتب التأريخ للدعوة، وهذه الأدبيات مطلوبة، ولا يمكن الاستغناء عنها؛ لترسيخ المنهج وتثبيت الأتباع.

---

(٢٠) هل تدعم أمريكا تجديد الإسلام؟ مرجع سابق.

(٢١) نوفل المعاوي- مرجع سابق.

(٢٢) السابق.



معلومات إضافية

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥- ١٢٠٦هـ = ١٧٠٣- ١٧٩٢م)

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، شيخ الدعوة التجديدية السلفية الذي تنسب إليه (الوهابية)، بشبه الجزيرة العربية.

مولده ونشأته:

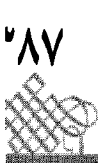
ولد في «العيينة» - بنجد سنة ١١١٥ هـ/١٧٠٣م، ونشأ في بيئة علم وصلاح واستقامة، فكان أبوه وجده وكثيرون من أفراد أسرته من العلماء والوجهاء، ولهم باعٌ في الفتيا والقضاء والتدريس، مما ساعد هذا الناشئ على استغلال مواهبه الفذة، وتوجيهها على منهج شرعي متين وأصيل وفي جو علمي مأمون. ولم يدخل الكتاتيب بل درس على والده القرآن واللغة، واستظهر كثيرًا من الأحاديث. حتى بات وهو دون العشرين عالمًا مقصودًا .

دعوته:

رحل الشيخ محمد إلى الحجاز والبصرة، ثم زار مكة، فأدّى فيها فريضة الحج، ثم قصد المدينة، وهناك لازم، فترة، العالم ابن سيف، ثم استقر بنجد في «حريملاء»؛ حيث كان والده قاضيها - ومنها انتقل إلى مسقط رأسه «العيينة» داعيًا إلى مذهب السلف - مدرسة أهل الحديث - مركّزًا دعوته على تطهير عقيدة التوحيد مما شابها من تصورات وبدع وأوهام.

وبعد حقبة التعاون مع أمير «العيينة» - عثمان بن حمد بن معمر - تخلى الأمير عن دعوة الشيخ، فغادرها إلى «الدرعية»؛ حيث تحالف مع أميرها محمد بن سعود، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الدعوة السلفية مذهب الدولة السعودية، فوضع الأمير محمد بن سعود قوة إمارته في خدمة الدعوة، وخاض المعارك ضد القبائل الرافضة لها.

وكان ابن عبد الوهاب رجل الدعوة، بل وفي طليعة جيش الإمارة، التي اتسعت حدودها فشملت الجزيرة، وأجزاء من اليمن ومكة والمدينة والحجاز.



ولقد استمر أمراء آل سعود - عبد العزيز بن محمد، وسعود بن عبد العزيز - في دعم الشيخ ابن عبد الوهاب، والعمل على نشر دعوته.

آراؤه واتجاهاته:

يُعَدّ محمد بن عبد الوهاب أهمّ من انتقل بالتجديد الإسلامي، في العصر الحديث، من إطار التجديد الفردي والمشروع الفكري إلى إطار «الدعوة» التي اتخذت لها دولة تحميها وتقاتل في سبيل نشرها، الأمر الذي جعل لدعوته التأثير والاستمرارية ما لم تحظ بهما دعوات تجديدية أخرى.

ولقد كان تجديد الشيخ ابن عبد الوهاب واجتهاده اختيارًا في إطار المذهب الحنبلي، واستدعاء لنصوص ومقولات أعلامه، وخاصة مؤسس المذهب الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ =٧٨٠ - ٨٥٥م)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ = ١٢٦٣ -١٣٢٨م). وكان اجتهاد اختيارات في إطار المذهب، استدعى النصوص والمقولات التي تنقي عقيدة التوحيد مما ران عليها وشابها من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، على النحو الذي ناسب بيئة نجد ومشكلاتها في ذلك التاريخ.

وليس لمحمد بن عبد الوهاب دعوة خاصة، بل هي دعوة الإسلام الحق، ومنهجه هو منهج الإسلام. يقول: «إني - ولله الحمد - متبع ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين به هو مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة».

مؤلفاته:

ترك الشيخ محمد بن عبد الوهاب العديد من الكتب والرسائل التي عالج فيها المشكلات التي اهتمت بها دعوته التجديدية الإصلاحية، منها:

(كتاب التوحيد) و(كشف الشبهات) و(تفسير سورة الفاتحة) و(أصول الإيمان) و(تفسير شهادة أن لا إله إلا الله) و(معرفة العبد ربه ودينه ونبيه) و(المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية) ـ وفيها أكثر من مائة مسألة ـ و(فضل الإسلام) و(نصيحة المسلمين) و(معنى الكلمة الطيبة) و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(مجموعة خطب) و(مفيد المستفيد) و(رسالة في أن التقليد جائز لا واجب) و(كتاب الكبائر). وحتى عناوين هذه الرسائل تُفصِح عن مضامينها، التي ركزت على تنقية عقيدة التوحيد، والعودة فيها إلى التصور الإسلامي النقي، الذي رسَّخته المدرسة السلفية في تراث الإسلام.

وفاته:

توفي ابن عبد الوهاب إثر مرض في آخر يوم في ذي العقدة ١٢٠٦ هجرية الموافق ٢٩ حزيران ١٧٩٢ ميلادية.

المصادر:

، «د.محمد أمين فرشوخ، موسوعة «عباقرة الإسلام في العلم والفكر والأدب والقيادة

دار الفكر العربي للطباعة والنشر، الجزء الأول، ٦٩٩١م.

د. محمد عمارة، موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، وزارة الأوقاف المصرية ـ

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٤١٨هـ - ٢٠٠٧م.

د. ناصر عبد الكريم العقل، إسلامية لا وهابية، وهو ملخص عن كتاب بعنوان (دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب - حقيقتها ورد الشبهات حولها) مقدم إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.



(الوهابية):

إطلاق اسم (الوهابية) على الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب انطلق أولاً من الخصوم، وكانوا يطلقونه على سبيل التنفير واللمز والتعيير، ويزعمون أنه مذهب مبتدع في الإسلام أو مذهب خامس.

ولم يكن استعمال (الوهابية) مرضيًا ولا شائعًا عند أصحاب هذه الحركة وأتباعهم، ولا عند سائر السلفيين أهل السنة والجماعة، وكان كثير من المنصفين من غيرهم والمحايدين يتفادى إطلاق هذه التسمية عليهم؛ لأنهم يعلمون أن وصفهم بالوهابية كان في ابتدائه وصفًا عدوانيًا إنما يقصد به التشويه والتنفير وحجب الحقيقة عن الآخرين، والحيلولة بين هذه الدعوة المباركة وبين بقية المسلمين من العوام والجهلة وأتباع الفرق والطرق، بل وتضليل العلماء والمفكرين الذين لم يعرفوا حقيقة هذه الدعوة وواقعها.

ولقد صار لقب (الوهابية) وتسمية الحركة الإصلاحية السلفية الحديثة به هو السائد لدى الآخرين من الخصوم وبعض الأتباع والمؤيدين المحايدين (تنزلاً). وهو الوصف الرائج عند الكثيرين من الكتّاب والمفكرين والمؤرخين والساسة، والمؤسسات العلمية، ووسائل الإعلام إلى يومنا هذا.

أما أتباع هذه الحركة فهم لا يرون صواب هذه التسمية (الوهابية)، ولا ما انطوت عليه من مغالطات وأوهام، لاعتبارات مقنعة كثيرة؛ شرعية وعلمية ومنهجية وموضوعية وواقعية، أهمها أنها دعوة تمثل تمامًا الإسلام الحق الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- ومنهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن سلك سبيل الهدى، وإذن فحصرها تحت مسمى غير الإسلام والسنة خطأ فادح وبدعة محدثة ومردودة.

(الوهابية) من مفهوم غربي:

الوهابية عند السياسيين والكتاب الغربيين هي وصف لكل آخذ لدين الإسلام مأخذ الجد؛ حتى لو كان الآخذ إنسانًا لم يقرأ للشيخ ابن عبد الوهاب حرفًا واحدًا، ولم يتسمَّ باسمه ولا كان موافقًا له في بعض ما قال؛ بل إنها وصف لكل من يأخذ بجد بعض ما أجمع عليه المسلمون حتى لو كان ممارسًا لبعض البدع، أو مؤمنًا ببعض الخرافات.

والوهابية عند هؤلاء مرادفة للأصولية التي هي الإيمان بأن القرآن كله كلام الله تعالى، وأن الالتزام به واجب على كل مسلم. الوهابي هو المسلم الذي يواظب على الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدي الزكاة، ويحج إن استطاع إلى بيت الله الحرام. إنه المسلم الذي لا يشرب خمرًا ولا يتناول ربًا، ولا يرى اختلاط الرجال بالنساء، ولا يؤمن بقيم الحضارة الغربية المخالفة للإسلام. المسلم الوهابي هو الذي يرى أن دينه هو الحق وأنه يحثه على دعوة الناس إلى الإسلام. الوهابي باختصار هو كل مسلم يحاول الالتزام بتعاليم دينه حتى لو كان يعيش في البلاد الغربية.



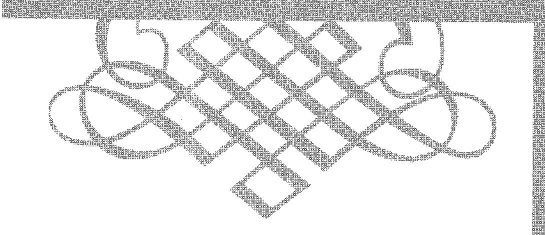
المصادر:

د. ناصر عبد الكريم العقل، إسلامية لا وهابية، مرجع سابق

د. جعفر شيخ إدريس، المفهوم الغربي للوهابية، مجلة البيان، العدد ١٩١، رجب ١٤٢٤هـ

الباب الخامس

دراسات عامة



الوجود الإسلامي في أوروبا وإشكالية الاندماج

د. هيثم الحداد

(المدير العام للمؤسسة الإسلامية للبحوث والتطوير - لندن)

ملخص البحث

أصبح الوجود الإسلامي في أوروبا جزءًا من الواقع الذي يعيشه كلٌّ من العالم الإسلامي والغربي، واحتل هذا الوجود قائمة الصدارة في اهتمامات كثير من المفكرين المسلمين وغير المسلمين في آنٍ واحدٍ، حتى أضحى مؤثرًا في علاقة الجانبين من أطراف عدة، أهمها: موقف المسلم من الحياة الغربية، بعدما أصبح جزءًا من منظومتها الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، فهل يندمج المسلم في تلك المنظومة، أم يعيش في عزلة شعورية وواقعية عنها؟ أم يندمج فيها إلى درجة الذوبان والانصهار؟

هناك اتجاهان رئيسان مختلفان للنظرة الأوروبية تجاه الوجود الإسلامي في أوروبا، أولهما: الاتجاه الذي يذهب إلى التفسير التصادمي؛ إذ لا يقبل أصحابه إلا بقَارَّة ذات هوية نصرانية عِلْمَانِيَّة، ويحاولون صهر المسلمين في بوتقة القِيَم والنُّظُم الغربية.

أما الاتجاه الثاني فيرى أن ثمة صراع حقيقي يدور بين شريحة استئصالية وأخرى لا تمانع من القبول بوجود المسلمين بثقافتهم رغم أنها تكره الإسلام والمسلمين.

وقضية الاندماج قضية محورية في الوجود الإسلامي في أوروبا منذ زمن بعيد، ولكنها لم تتخذ هذا الوهج الإعلامي، والبعد السياسي إلا بعد أحداث سبتمبر ثم أحداث مدريد، وأنفاق لندن، وبرزت معها العديد من المشكلات الخطيرة خاصة الخطر الفكري، الذي يتجاوز الانبهار بالحضارة الغربية إلى خطر عَقَدي يطال أجيال الدعاة، وربما العلماء.

ولا شك أن القضية الأساس التي لا بد أن تشغل بالنا، هي مستقبل الوجود الإسلامي في الغرب، فغياب الدراسات الإسلامية المتكاملة بشأنها، وسيطرة الخطاب الانهزامي الاستجدائي على الخطاب الإسلامي حول هذه القضية، جعل المسلمين في الغرب تحت رحى ثَالُوث مُدَمِّر، يتمثل في خطر الاندماج والذوبان، وخطر الانعزال والانغلاق، وخطر استعداء الغرب والبدء في الصدام من الداخل، ودون إذن الأمة.

لذا لا بد من وضع رؤية استراتيجية للإسلام والمسلمين في الغرب تراعي عدم وجود خلافة إسلامية، ووجود خلل كبير في ميزان تكافُؤ القُوى بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، إضافة إلى حقيقة أن هناك صعودًا ونموًّا إسلاميًّا في توازٍ مع هبوطٍ وانحسار غربي، الأمر الذي لو استمر فإنه يؤذن بسيطرة إسلامية على تلك القارة بصورة سِلْمِيَّة.





أفكار و مقتطفات

- الوجود الإسلامي في أوروبا أصبح جزءًا من الواقع الذي يعيشه كُلٌّ من العالم الإسلامي والغربي، والتي تشكل العلاقة بينهما محور الصراع الذي سيطر الاهتمام به على العالم كله، الأمر الذي أكسب هذا الوجود زخمًا فرض به نفسه على مجريات الأحداث.

- يوجد تناغم كبير بين الشرائح السياسية الحاكمة في أوروبا، بل ربما وأمريكا وكأنما تصدر عن رأي واحدٍ ليس في السياسة فقط، بل حتى في الدوافع وراء تلك المواقف السياسية، لا سيما فيما يتعلق بنظرتهم ومواقفهم تجاه الإسلام والمسلمين.

- من العوامل الرئيسة المهمة التي تشكل نظرة أوروبا للمسلمين، أن الظاهرة الإسلامية الأوروبية في ازديادٍ وتنام في الكمِّ والكيف، وزعماء أوروبا يدركون ذلك جليًا، وأن المسلمين تغلغلوا في جوانب الحياةً المتعددة الأمر الذي يجعل استئصالهم عمليةً باهظةَ التكاليف.

- الغرب يرى أن ثَمَّةَ تنام غير مسبوق للقوى الإسلامية في العالم الإسلامي، لا سيما صعود النجم الإسلامي في تركيا العلمانية المتاخِمَة للحدود الأوروبية، في الوقت الذي يقرأ الغرب فيه بأمِّ عينيه ازدياد التقارير التي تشير إلى إمكانية أُفُول النجم الأمريكي - السند القوي للقارَّة العجوز- ، في الوقت الذي تزداد المؤشرات على ازدياد القوة الصينية.

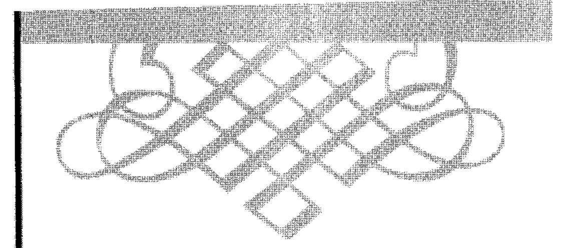
- مهما قيل عن استقلال الإعلام عن السياسة فإن الذي يقضي في أوروبا مدة من الوقت يشعر بأن ذلك الانفصال أسير السياسات العليا للدولة، فهناك حرية واسعة يتحرك فيها الإعلام، إلا أن تلك الحرية لا يمكن أن تتجاوز الخطوطَ الحمراء، التي توضع مقاييسها في أرْوِقَة السياسة ودهاليزها الخفية.

- الإعلام الغربي الذي غالبًا ما تسيطر عليه القوى الصهيونية يعمد -كما هو معروف- إلى تصوير الإسلام على أنه خطر مُخِيف يهدد الهَوِيَّة الأوروبية.

- ما من أقلية مسلمة تعيش في إحدى هذه البلاد إلا وتوجد لديها بعض هذه المشكلات، لكن السؤال الذي يحتاج إلى إجابة دقيقة يمكن من خلالها تقييم ظاهرة الاندماج السلبي تقييمًا دقيقًا، هو ما هو حجم هذه الظواهر، ثم ما عُمْق دلالة هذه الظواهر؟

- أظهر استطلاع أجراه مركز آي سي إم بالتعاون مع صحيفة الجارديان البريطانية على عَيِّنَة تتكون من ٥٠٠ بريطاني أن الغالبية العظمى تريد أن ترى القانون الإسلامي المدني معمولاً به في ضمن النظام القضائي البريطاني، و٦١٪ من المسلمين يرغبون في وجود محاكم إسلامية تعمل بالشريعة، لكن ما لم تتعارض الحدود الشرعية مع النظام البريطاني.

- من أخطر المشكلات التي تواجه المسلمين في البلاد الغربية، هي الخطر الفكري، ولا يقتصر الخطر الفكري الذي نعنيه هنا على الخطر التقليدي المتمثل بالانبهار بالحضارة الغربية من قِبَل أجيال المسلمين غير المتمسكين بشرع الله تبارك وتعالى، بل يتجاوزه إلى خطر عَقَدي يطال أجيال الدعاة، وربما العلماء، الذين يُفْتَرض فيهم أن يكونوا أبعد الناس عن تلك الشبهات، أصبحوا عُرْضَة لتبني بعض الأفكار الغربية صراحة، أو في أقل الأحوال متأثرين بها في مناهج النظر والاستدلال.



- إن القضية الأساس التي لا بد أن تشغل بَالَنَا ونحن نتحدث عن العلاقة بين الإسلام والغرب، هي مستقبل الوجود الإسلامي في الغرب، وعلى المسلمين الذين يعيشون هناك أن يسألوا أنفسهم بكل صراحة: ماذا نريد كأمة مسلمة تعيش في أحضان أمم كافرة؟ ما هو التغيير الذي نطمح إليه؟ ما هو النظام -غير الإسلامي- الأفضل الذي يمكن أن نعيش في ظله؟ هل يمكن أن يكون للمسلمين وجود حقيقي في تلك القارَّة النصرانية العِلْمَانية؟ ما هو شكل العلاقة بين الطرفين في ظل العلاقة العالمية بين الإسلام والكفر؟

- لقد كثر المنادون بما يعرف بالإسلام الأوروبي من المسلمين، وتفاوت أصحاب هذه الدعاوى من مُصَرِّح بها، ومُلَمِّح لها، ولعل أهم محور يتمحور حوله أصحاب هذا الاتجاه هو خصوصية الوضع الأوروبي عن غيره من البلاد الإسلامية، وبالتالي فلا بد أولًا من تنقية الممارسة الإسلامية، بل وربما الفقه الإسلامي، من ما هو «إسلامي» وما هو «ثقافي» أو «بيئي»، ولا بد كذلك من إيجاد فقهٍ جديدٍ يناسب هذه المتغيرات.

- إن استشراف مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب، وواقع الأقليات في الغرب يكون متأثرًا، في كثير من الأحيان، بقوة الآلة الإعلامية الغربية التي تصل إلينا مُصَوِّرَة الإسلام على أنه الخطر القادم الذي يهدد أوروبا، الأمر الذي يشحن المسلم بموجات من غضب عارم يشغله عن تصور واقع الصراع بين الإسلام والكفر بكل أقطابه الغربية، والشرقية.

- يتوجب على المسلمين في الغرب تجنب الصِّدَام المُسَلَّح مع حكوماتهم وأنظمتهم، وربما يتعين عليهم أن يُطَمْئِنُوا تلك الحكومات أنهم لا يرغبون في هذا الصِّدَام المُسَلَّح أبدًا.

- من أهم ما يتوجب على المسلمين العمل من أجل اكتسابه قضيتان: الأولى: إدخال أو إدماج قانون الأحوال الشخصية الإسلامي في النُّظُم القضائية الغربية، والثانية: تعديل بعض الأنظمة التعليمية من أجل حفظ الهَوِيَّة الإسلامية أثناء العملية التعليمية وبشكلٍ رسميٍّ.

- على المسلمين في الغرب الاهتمام بدراسة العلوم الإنسانية، وعلى رأسها علوم القانون والسياسة؛ إذ هي الأدوات التي تعينهم على تلمُّس المنافذ التي تهيئ لهم الأوضاع القانونية المناسبة لهم.

- يجب العمل على أن يكون للمسلمين مؤسسات اقتصادية مستقلة وضخمة، لضمان مزيد من الاستقلال الاقتصادي وربما المعنوي عن اقتصاد الدولة، الأمر الذي من شأنه أن يعزز التحرر ولو بصورة بسيطة من الهيمنة الاقتصادية من قِبَل الدولة.

- شاع الآن مصطلح الاندماج الإيجابي بين كثير من المسلمين لا سيما الذين يعيشون في بريطانيا، إلا أن واقع هؤلاء المنادين به يحصر الإسلام في جوانب معينة، تتجاوز قليلًا ما حصرها به المُرْجِئَة، وقد تكون خطوة للوصول إلى حالة من الإرْجَاء تُضَاهِي الإرْجَاء المَسْطُور في كُتُب العَقِيدة، وقد يصح لنا أن نسمي هذا الاندماج «باندماج المُرْجِئَة».

الوجود الإسلامي في أوروبا وإشكالية الاندماج

د. هيثم الحداد : المدير العام للمؤسسة الإسلامية للبحوث والتطوير - لندن

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وبعد، فإن الوجود الإسلامي في أوروبا أصبح جزءًا من الواقع الذي يعيشه كلٌ من العالم الإسلامي والغربي، والتي تشكِّل العلاقة بينهما محور الصراع الذي سيطر الاهتمام به على العالم كله، الأمر الذي أكسب هذا الوجود زخمًا فرض به نفسه على مجريات الأحداث، وتبعًا لذلك احتل هذا الوجود قائمة الصدارة في اهتمامات كثير من المفكرين المسلمين وغير المسلمين في آنٍ واحدٍ، حتى أضحى مؤثرًا في علاقة الجانبين ببعض من أطرافٍ عدة.

وإن من أهم أطراف تلك العلاقة؛ أعني العلاقة بين الإسلام والغرب، تلك التي تتحدث عن موقف المسلم من الحياة الغربية، سيما أنه أصبح جزءًا من منظومتها الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، فهل يندمج المسلم في تلك المنظومة، أم يعيش في عُزلة شعورية وواقعية - إلى حدٍّ ما - عنها؟ أم يندمج فيها إلى درجة الذوبان والانصهار، كما هو الحال في كثير من أبناء المسلمين في الغرب من أبناء الجيل الثاني، والثالث؟

هذه الورقة، تتلمس جوانب القضية آملة في نقل صورة حقيقية للواقع الإسلامي الأوروبي من هذه الناحية، ومن ثَمَّ جاهدة في وضع مقترحات عملية لترشيد ذلك الوجود.

الوجود الإسلامي في الغرب، لمحة مُوجزة عن تاريخٍ ليس بالطويل:

يبلغ عدد المسلمين في دول الاتحاد الأوروبي الخمس والعشرين ما بين خمسة عشر وعشرين مليون مسلم بحسب التقديرات الرسمية، إلا أن عدة تقديرات غير رسمية تؤكد أن العدد يصل إلى ثلاثين مليونًا، ومهما يكن من أمر فإنهم يشكلون أكبر أتباع ديانة بعد النصرانية في أوروبا، وعددهم مرشح لأن يصل إلى الضعف في حدود عام ٢٠٢٥م؛ بسبب ازدياد الهجرة، ونسبة المواليد المرتفعة عند المسلمين، ثم دخول أعداد كبيرة من الأوروبيين في الإسلام؛ حيث إنه أسرع الديانات انتشارًا، والمسلمون في أوروبا ينحدرون من أصولٍ وعِرْقِيَّات متنوعة، ولذلك فإن ثَمَّةَ تنوع عِرقي ولُغَوي واسع للمسلمين في الرقعة الأوروبية.

والمسلمون في الغرب قسمان: مهاجرون أو أبناؤهم، ومسلمون من أهل البلاد الأصليين كما هو الحال في البوسنة والهرسك، وألبانيا، وكوسوفو وصربيا وأوكرانيا وغيرها، أما المسلمون الأصليون في بلاد

أوروبا الغربية فلا توجد دراسات ديموغرافية دقيقة عنهم تُوضِّح نِسْبتهم في تلك البلاد.

وقد بدأ الوجود الرئيسي والفعلي للمسلمين في معظم الدول الأوروبية إثر الهجرات الكبيرة والواسعة للقارة الأوروبية؛ للمساهمة في إعادة ما انهدم منها خلال الحرب العالمية الثانية، وبالذات بين الأعوام ١٩٥٠م و ١٩٦٠ ميلاديًّا، ثم تتابعت الهجرات ولكن بأعداد أقل، ثم جاءت أحداث الخليج العربي التي تزامنت مع أحداث الصومال ونهاية الحرب الأهلية في لبنان، في نهاية وأوائل العقد الأخير من القرن الماضي؛ لتحرك موجات جديدة من هجرة شعوب جديدة كالأكراد، والعرب الفلسطينيين، والصوماليين، لتشهد بلادٌ أوروبية أخرى مثل: النمسا، والسويد، والنرويج، والدانمارك وجودًا إسلاميًّا من ثقافة جديدة وبشكل مُكَثَّف.

بدأ الوجود الرئيسي والفعلي للمسلمين في معظم الدول الأوروبية إثر الهجرات الكبيرة والواسعة للقارة الأوربية للمساهمة في إعادة ما انهدم منها خلال الحرب العالمية الثانية.

أما الاعتراف بالإسلام فإنه لم يتخذ شكلاً رسميًّا إلا في وقت متأخر نسبيًّا في بلاد ثلاثة هي: أسبانيا، وبلجيكيا، والنمسا، وهذا الاعتراف مع أنه رسميٌّ وعلى المستوى الحكومي إلا أن آثاره القانونية والفعلية وفوائده لصالح الوجود الإسلامي في تلك البلاد محدودة جدًّا.

وتختلف أنظمة البلاد الغربية فيما يتعلق بنُظُمها الدستورية، أو طبيعة نُظُمها الحاكمة التي يمكن أن تكفل حقوقًا أوسعَ للمسلمين.

الاندماج: ماذا يقصدون به، وماذا نقصد به نحن؟

قبل أن نشرع في الحديث عن الاندماج كظاهرة إيجابية أو سلبية، لا بد لنا من تحديد المعنى المقصود بهذا المصطلح، والمُتَتَبِّع لما كُتب نحو هذا المصطلح سواء باللغة العربية أو باللغة الإنجليزية يلحظ تباينًا كبيرًا في تعريف المراد به، وإن كان ثَمَّة شبه اتفاق على المدلول اللغوي المجرد له، هذا وإن كان هذا التباين قد ساهم وبقوة في تبايُن آراء الناس تِجَاهه، إلا أن كُلاً من مدلولاته كان موضعَ خلافٍ في كل دائرة من دوائر الاهتمام به.

مُصطلح الاندماج، بين المدلول اللُّغوي والواقعي:

بعض القواميس الغربية الحديثة كلاروس الفرنسي وفان دال الهولندي وأكسفورد الإنجليزي وغيرها، تلتقي في تحديدها لمصطلح (Integration) حول ما معناه: الدُّخول في وِحْدة أو في الكل، والتجانُس مع مُكونات تلك الوحدة أو ذلك الكُل. فإن جُملة من المعاجم العربية القديمة تكاد لا تخرج عن ذلك الخط الدِّلَاليّ؛ حيث تشرح أغلبها مادة (دَمَجَ) التي تشتق منها مفردة الاندماج، وأحيانا صيغة (انْدَمَجَ) بـ: دَخَلَ في الشيء، ومنها ما يزيد على ذلك الشرح عبارة: واسْتَحْكَمَ فيه، كما جاء في لسان العَرب والمحِيط.

استنادًا إلى هذا التحديد اللُّغوي لمفردة الاندماج أو جِذْرها (دَمَجَ)، سواء في المعاجم الغربية أم العربية، (نجد) أن الدِّلالة اللُّغوية لهذه المفردة تكاد تتوحد توحدًا كاملاً، رغم اختلاف القواميس التي وردت فيها، من حيث الزمانُ والسياقُ واللغةُ والثقافةُ، وهذا يعني أن ترجمتها كانت في مَحَلها، وأن استعمالها يظل صحيحا عندما يقترن الأمر بالشِّق اللُّغوي، ولا يَشِذُّ إلا عندما يخالطه ما هو أيديولوجيّ وثقافيّ.

الاندماج: نَظْرة غربية، الشَّرِيحة السياسية الحَاكِمة:

ما من شك أنه يوجد تناغمٌ كبيرٌ بين الشرائح السياسية الحاكمة في أوروبا، بل ربما وأمريكا، وكأنما تصدر عن رأيٍ واحدٍ ليس في السياسة فقط، بل حتى في الدوافع وراء تلك المواقف السياسية، لا سيما فيما يتعلق بنَظْرتهم ومَواقِفهم تِجَاه الإسلام والمسلمين، وبكل حالٍ، فإن هناك اتجاهين رئيسين مختلفين فيما يتعلق بفهم النظرة الأوروبية تِجَاه العلاقة مع العالم الإسلامي عامة،

والوُجُـود الإسـلاميّ في أوروبـا خاصـة، ثـم طبيعة العلاقـة الحاليـة والمستقبلية بين الطرفـين: أوروبا حكومات وشـعوب، والأقلية المسلمة التي تعيش بين جَنبـتي تلك القـارة. وكلا الاتجاهين يُعَـبّر عن رُؤْية مُبَاينِة للأخرى، **أولهما** ذلك الاتجاه الذي يذهب إلى التفسـير التصادمي من قِبَل المسـيطرين على مقاليد الأمور وزعماء أوروبا؛ إذ لا يقبلون إلا بقارة ذات هوية نَصْرانيـة عِلْمانية، وعليـه فإنهم ينظرون إلى الوجود الإسـلامي كتحدٍّ يُهدِّد هذه الهَوِيَّة، ومن ثَمَّ يتوجب عليهم اتخـاذ السياسـات الكفيلـة بالمحافظة على تلك الهوية وحمايتها مـن ذلك التهديد، وتَحْييد هذا الخطر بشَتَّى السُّبُل.

وعليه فإن الاندماج لدى هذه الشريحة بحَسب أصحاب هذا الاتجاه ما هو إلا الرغبة في «صَهْر المسلمين في بَوْتَقَة القِيَم والنُّظُم الغربية؛ حتى لا يُمَثِّل المُسلِم عُنْصُرًا ناشزًا عن تلك القِيَم التي تَرسُم صورة أوروبا النصرانية أو العلمانية، فضلاً أن يُتْرك حتى يُشكِّل خطرًا حقيقيًا على تلك الهَوِيَّة»، وبحَسب أصحاب هذا الاتجاه من هذه الشريحة من الإسلاميين فإن ساسة أوروبا يعتبرون الإسلام ثقافةً متكاملةً، ومع ذلك فإنها ثقافة دَخِيلة تُزَاحِم الثقافة الأصلية، وعليه فإن القِنَاع المُتَسامِح للوجه الأوروبي يتلاشى بسرعة ليبرز الوجه الكالح والحقيقي لهذه الشريحة، والتي لا ترى إلا قارة أو «أمة» نصرانية، عِلْمانية، مُتَحَلِّلة.

أما الاتجاه الثاني: فإنه ذلك الذي يرى أن ثَمَّةَ صراع حقيقي يدور بين شريحتين رئيسيتين في أوروبا: شريحة (استئصالية) تَحْمِل نَفْس الأفكار والأُطْرُوحات السابق ذِكْرهَا، ثم شريحة أخرى ترى إلى حَدّ كبيرٍ عزلَ أو تفريغَ التعريف الحقيقيِّ لأوروبا من البُعْد الثقافي والديني لها؛ ولذا فإن هذه الشريحة -وإن كانت تكره الإسلام والمسلمين- إلا أنها لا تُمَانِع من القبول بوجودهم بثقافتهم -إلى حد كبير- ، وهذا كما قلنا ليس حُبًّا أو رغبةً في الإسلام، وإنما نَتَجَ ذلك عن استجابة لعاملين رئيسين: أولهما: هو الخلاف الحقيقي بين الأوروبيين أنفسهم في تعريف أوروبا وهويتها أصْلاً، والثاني: أن الوجود الإسلامي أصبح واقعًا حقيقيًا لا يمكن تجاوُزه، وأن جميعَ الرغبات في تغيير الإسلام والمسلمين باءت بالفشل فلا مَنَاصَ من التعامل معهم، وتجنُّب الصدام الذي من شأنه إيقاع الخسائر الفادحة لدى جميع الأطراف.

وبحَسب هذه الاتجاه فإن تعريف الاندماج أوروبيًّا مُتَأَرْجح بين كِفَّتَيْ الصراع؛ ولذا فإنه تارة ما يميل إلى كِفَّةِ التيار الاسْتِئْصَالي، وتارةً أخرى يميل إلى تيار التَّعَايُش.

وهنا لا بد لنا من التذكير بجملة من المُسَلَّمَات أو العوامل التي يتعين علينا -ونحن نتعامل مع القضايا المتعلقة بعلاقة الغرب بالإسلام- أن نجعلها مرتكزًا في فَهْمِنا للماضي، واستشرافنا للمُسْتَقْبَل.

منها: أنه يجب علينا أن لا نُهْمِل أيًّا من القراءتين، لا سيما أنه ليس لدينا ما يقطع بِصِحَّة إحداهما، ومما يجدُر التأكيدُ عليه أننا وإن رجحنا القراءة الثانية فإنه يجب علينا أن نُسَلِّم بأن الغرب، وإن تَطَاحَنَت في داخله تلك الاتجاهاتُ المختلفةُ، إلا أنه لا يمكن له إلا أن يقف موقفًا معاديًا للإسلام والمسلمين مهما بلغ الأمر، فإن هذا قَدَرٌ كَوْنيٌّ، قال الله جل وعلا: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة :١٢٠]، وقال ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩]، ثم إن الغرب يرى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يحمل ثقافةً مُنَافِسَةً يمكن أن تتفوق يومًا ما على الحضارة الأوروبية.

ويجب علينا أن نتذكر كذلك أن حالة الضعف المادي التي يعيشها العالم الإسلامي هذه الأيام، تُحَتِّمُ عليه، وإن ترجح لدى عددٍ كبيرٍ من مُفَكِّرِيهِ وقادَتِهِ صحةُ الاتجاه الأول في قراءة هذا الواقع -النظرة الاسْتِئْصَالِيَّة- إلا أن تلك الحالة تُوجِبُ أن تكون ردةُ الفعل هادئةً وواعيةً من أجل تحجيم النظرة الغربية الاستئصالية، وربما امْتِصَاص فِعْلِها العنيف،أو على الأقل عدم إثارَتهَا، وعلى المسلمين أن يتصرفوا وكأنما يقرؤون الأحداثَ بمنظارِ أصحاب الاتجاه الثاني، اتجاه الرغبة في التَّعَايُش؛ وذلك حتى يتمكن

المسلمون -وهم في هذه الحالة من التَّشَرْذُم والضَّعْفِ المادي- من تَجَنُّب رُدُود الأفعال غير الناضجة، ومن ثَمَّ استبدالها بوضع دراساتٍ موضوعية ومُتَحَرِّرَة من الظلال السلبية لتلك النظرة الاسْتِئْصَالِيَّة؛ حتى يتسنى للمسلمين النهوض، ومن ثَمَّ القُدْرَة على مُوَاجَهَة شامِلَة مع أيّ تهديد يُهَدِّد وُجُودَهُم.

ثَمَّة عوامل مُهِمَّة تؤكد على ضرورة التعاطي مع النظرة الأوروبية للمسلمين في أوروبا بهذه الروح، منها: أن أوروبا العجوز أضحت تخشى من خطر الشيخوخة، وأنها لا ترى حَلاً لهذا الخطر إلا في اللجوء إلى الاستمرار في قبول العمالة الوافدة بصرف النظر عن خَلْفِيَّتِها العِرْقِية أو الدِّينِيَّة، وأنها شعرت بأن دُوَل الاتحاد الأوروبي الشرقية عاجزةٌ عن الوفاء بهذه المتطلبات الضخمة التي قَدَّرَهَا البعض بحاجة أوروبا إلى أكثر من ٥٠ مليون يد عاملة في العام ٢٠٥٠م.

ومن العوامل الرئيسة المُهِمَّة التي تُشَكِّل نظرةَ أوروبا للمسلمين: أن الظاهرة الإسلامية الأوروبية في ازديادٍ وتنام في الكَمِّ والكَيْف، وزعماء أوروبا يدركون ذلكَ جَليًّا، وأن المسلمين تغلغلوا في جوانب الحياة، المتعددة، الأمر الذي يجعل استئصالهم عملية باهِظَة التكاليف.

ومن العوامل التي يجب علينا أن نتذكرها عند الرغبة في الخُلُوص إلى قراءة واعية للواقع الأوروبي: أن الغَرْب يعلم أن بعض المحاولات الاسْتِئْصَالِيَّة العنيفة، مثل حوادث التطهير العِرْقيّ في البوسنة والهرسك، باءت بالفشل على الرغم من الأعداد الهائلة التي قُتِلَت من المسلمين.

وكذلك فإن الغرب يرى أن ثَمَّةَ تَنَام غير مسبُوق للقُوى الإسلامية في العالم الإسلامي، لا سيما صعود النجم الإسلامي في تركيا العِلْمَانِيَّة المُتَاخِمَة للحدود الأوروبية، في الوقت الذي يقرأ الغرب فيه بأُمِّ عينيه ازديادَ التقارير التي تشير إلى إمكانية أُفُول النجم الأمريكي -السند القوي للقارة العجوز- ، في الوقت الذي تزداد المؤشرات على ازدياد القوة الصينية، وربما اتساع رُقْعَتها، وإن كانت حتى الآن لا تطمح في امتدادٍ أو غزوٍ ثقافيٍّ من جهة، ثم مؤشرات أخرى مشابهة تعكس حُلْمَ أو بعبارةٍ أدق رغبة روسيا الصادقة -القوة العظمى السابقة- في العودة إلى سَالِف مَجْدِهَا الغَابِر.

كل هذه العوامل وغيرها مع وجود عددٍ من العقلاء الفاعلين في الشأن الأوروبي، يُمَهِّد لقبول الاتجاه الثاني في تفسير علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، أو على الأقل فإنه يجب أن يُمَهِّد الرغبةَ لدى مُفَكِّري المسلمين، وقادتهم في توجيه الأحداث في صَالِحِه.

الاندماج نظرة الإعلام، بجميع فصائله:

مهما قيل عن استقلال الإعلام عن السياسة فإن الذي يقضي في أوروبا مدةً من الوقت يشعر بأن ذلك الانفصالَ أسيرُ السياسات العُلْيا للدولة، فهناك حريةٌ واسعةٌ يتحرك فيها الإعلام، إلا أن تلك الحرية لا يمكن أن تتجاوز الخطوطَ الحمراءَ، التي تُوضَع مقاييسها في أَرْوِقَة السياسة ودَهَالِيزِهَا الخَفِيَّة.

ولهذا فإننا نرى أن السياسةَ والإعلامَ في الدول الغربية ما هُمَا إلا وجهان لعُمْلَةٍ واحدةٍ فيما يتعلق بالمصالح العُلْيا للدولة بحَسب رؤية النُّخْبة الحاكمة حقيقة، لا سيما فيما يتعلق بالعلاقة مع الإسلام والمسلمين، سواء في الغَرب أو في خارجه.

وبنظرةٍ سريعةٍ إلى أيّ حادثة من الحوادث المتعلقة بهَوِيَّة أوروبا، ودور المسلمين في تشكيل تلك الهوية، نجد أن الإعلام يكشف عن وَجْهه الحقيقيّ تِجَاه قضية الاندماج، فالإعلامُ الغربي الذي غالبًا ما تُسَيْطِر عليه القُوى الصهيونية يَعْمَد -كما هو معروفٌ- إلى تصوير الإسلام على أنه خطر مُخِيف يُهَدِّد الهَوِيَّة الأوروبية، كما ذكرنا سابقًا، وبالتالي فإنه يتحدث عن رغبةٍ في اندماج يحمل في طَيَّاته صَهْر القِيَم الإسلامية في بَوْتَقَة القِيَم الغربية، وهذه الآلة الإعلامية الفَتَّاكَة تُحَاوِل وضعَ رؤية للوضع الذي يجب أن يكون عليه المسلمون في أوروبا، فحادثةُ الرُّسُوم القَذِرة المُعْتَدِيَة على مَقَام رسول الله صلى الله عليه وسلم -مثلاً - تَرْجَمَت هذا المقصدَ ترجمةً حقيقيةً، فصحيفة France Soir (الفرنسية) التي كانت من أوائل الصُّحف التي أعادت نشرَ الرُّسُوم الدانماركية المُسِيئة للرسول، قالت بكل صراحة: بأن سببَ نَشْر هذه الرُّسُوم هو إرسال رسالة واضحة

للمسلمين بأنه لا مَكان للعقائد الدينية Religious Dogma في أوروبا النَّصْرانية(١).

تأريخ إشكالية الاندماج، إلْمَاحة عُجلى:

قد يظن بعض المتابعين للشأن الإسلامي الأوروبي أن قضية الاندماج وَلِيدَة أحداث سبتمبر، وما يُعْرَف بالحرب على الإرهاب، لكنها في الحقيقة قضية محورية في الوجود الإسلامي في أوروبا قبل ذلك بكثير، (لكن) أيًا من القضايا الإسلامية في أوروبا لم تتخذ هذا الوهج الإعلامي، ولم تتخذ ذلك البُعْد السياسيّ إلا بعد أحداث سبتمبر، ثم أحداث مدريد، وأنفاق لندن.

هذا وقد تركزت محاورُ علاقة المسلمين بغيرهم في أوروبا حول قضايا على رأسها: اللحم الحلال، ثم وجود العدد الأدنى من المساجد، وبعض قضايا التعليم، والزواج، والمقابر.

هذه الطبيعة في العلاقة بين الجانبين جعلت بعض الباحثين غير المسلمين يرى أن أوروبا كانت تميل إلى التَّسَاهُل، وليس مجرد التَّسَامُح، مع هذا الوجود الإسلامي دون إدراكٍ لِمَا قد يُمَثِّله ذلك الوُجُود من تَحَدٍّ للهوية الأوروبية في المستقبل(٢)، ومهما يكن من أمرٍ فإن تلك الأحداث أعني: أحداثَ نيويورك، ومدريدَ، ولندن، أوْجَدَت نَقْلة نَوْعِيّة كبيرةً في نَوْعِيّة العَلاقة بين الجانبين، ثم طبيعة التحدي الذي يواجهه المسلمون هناك؛ ليشمل قضايا مثل: المُوَاطَنة، والاندماج والإسلام الأوروبي ومواطن الاتحاد والاختلاف بين القِيَم الأوروبية والإسلامية، ومستقبل الإسلام في تلك القارّة، هذه التحديات المُتغَيِّرة، والمُتَسارِعَة أقْحَمَت كلَّ شأنٍ إسلاميٍّ مَهْمَا صَغُرَ في الشأن السياسي والاجتماعيِ الأوروبي، بل وجعلته في قائمة اهتماماته.

المسلمون والاندماج:

ويَتَحَتَّم علينا إذا ما أردنا تحليلاً عميقًا لهذه (القضية) الإشكالية، أن نفصل بين أمرين اثنين، أولهما: التنظير الفكري وربما الفلسفي لهذه القضية، وثانيهما: الواقع الفِعْليّ للمسلمين من خلال هذه القضية.

أما واقع اندماج المسلمين في أوروبا، فإنه واقعٌ مزعجٌ، لكن بَشَائر الأمل التي تشع من خلال مظاهر بدأت تُزَاحم هذا الواقع المزعج ومظاهر الاندماج السلبي(٣)، وخلاصة الأمر أن ثمَّةَ مظاهر إيجابية، ومظاهر سلبية عن ظاهرة الاندماج بمعناها السلبي المتمثل في ذَوَبان هَوِيّة المسلم في البَوْتَقة الأوروبية، فأما المظاهر السلبية التي تعكس ذلك الواقع المزعج والمُخِيف للاندماج السلبي فلها صورٌ متعددةٌ (لكنها) مُتَفَاوِتَة بشكل شَاسِع بحَسَب طبيعة البلاد الأوروبية؛ ففي بلد مثل سويسرا والتي بدأ الإسلام فيها بالانتشار بشكلٍ واضح منذ ثلاثين سنة، ويبلغ عدد المسلمين طبقًا للتعدادُ السكاني سنة ٢٠٠٠م نحو ٣٠٠ ألف مسلم، فقد (كشف استطلاعٌ أجْرَته الجريدة الأسبوعية السويسرية L'Hebdo في ٩ ديسمبر ٢٠٠٤م شمل ٦٠٧ مسلمين مقيمين في شتى ضواحي سويسرا: «أن تَدَيُّنَ المسلمين في سويسرا تَغَيَّر نتيجة وُجُودهم في الغرب مما أدى إلى اهتزاز أُسُس الإسلام، واكتشفت الجريدة أن مسلمي سويسرا تأثروا بالعِلْمَانية، ولكن هذا التأثير لم يُغَيِّر في الحس الديني نفسه، فنلاحظ أن ١٧٪ فقط من العَيِّنَة يعتبرون أنفسهم مسلمين بلا ممارسة دينية، و٦٠٪ يُصَنِّفون أنفسهم من بين المسلمين المُتَدَيِّنين»(٤)، بل إن الأمر وصل إلى أكثرَ من ذلك؛ إذ تجاوزه إلى تَحَلُّلٍ من أحكام الشريعة، كما تقول عائشة بابيوي وهي باحثة مغربية مقيمة في سويسرا (الشيء الذي تغير هو المبادئ الإسلامية التي تَفَكَّكَت نتيجة اندماج المسلم داخل المجتمع السويسري، ومما لا شك فيه أن أغلبية العَقْلِيّة الصَّامِتَة المُسْلِمَة تتغير تدريجيًا في اتجاه ريح المجتمعات المادية. ومن أغرب المُؤَشِّرَات التي أوضحت لجريدة ليبدو مدى رغبة اندماج مُسْلِمِي سويسرا داخل مجتمعهم هو استعداد الآباء لتزويج بناتهن من غير المسلمين، فـ٧٧,٣٪ من العَيِّنَة لا تجد مشكلةً في زواج مُسْلِمَة بغير مُسْلِم! و ١٠,٩٪ فقط يرفضون بشكلٍ مُطْلَق هذه الفكرة التي تُخَالِف بالفعل الفِقْهَ الإسلاميّ.

---

(١) انظر موقع البي بي سي تاريخ ٢٠٠٧/١١/٧م.
http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/europe/4670370.stm

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب الباحثة Jytte Klausen التحدي الإسلامي: The Islamic Challenge، وهي باحثة أكاديمية عملت كمحاضرة في بعض الجامعات الدانماركية، متخصصة في الإسلام في الغرب، كتبت كتبًا كثيرة على الإسلام لا تخلو من تحامل واضح.

(٣) انظر ما سنذكره عن الاندماج الإيجابي في آخر هذه الورقة.

(٤) انظر مقال عائشة بابيوي المنشور في إسلام أون لاين في ٢٠٠٥/٣/٢٠م.
http://www.islamonline.net/arabic/arts/2005/03/article13.shtm

كما أنه مع هذا الانفتاح الكبير على المجتمع السويسري وُجد أن ٦٩,١٪ منهم ليس لديهم أدنى مشكلة في دُخُول المرأة المسلمة بلا مَحْرَم مكان رقص، و٧٤,٦٪ لا يرفضون فِكْرَة حَمَّام السِّباحة المُخْتلط و٨٠,٦٪ لا يعترضون على تواجُد المرأة المُسْلِمة في المَقْهى، مقابل ٤,٣٪ من العَيِّنَة يرفضون هذه الفكرة. وفي نفس السِّيَاق تَبَيَّنَ أن ٦٥,٢ ٪ من مُسْلِمِي سويسرا يَعْتَبِرون احترامَ القانون السويسري أهمَّ من احترام الشريعة الإسلامية. وعلى صعيدِ الحِجَاب وُجد أن ٣٥٪ ضدَّ ارتداء الحِجَاب و٢٠,٥٪ من العَيِّنَة فقط يَقْبَلون ارتداءَه في سويسرا.

وما يُثِير الدَّهْشَة قبُول الأغلبية الساحقة لمبدأ الرِّدَّة عن الإسلام؛ حيثُ وافق ٦٨,٨٪ من العَيِّنَة على فِكرة الرِّدَّة، وتَبَنِّي المبدأَ العامَّ لحقوق الإنسان الخاص بالحرية الدينية. ويمتد الأمر إلى أن ٦١,١٪ يقبَلُون طَرْد الأئمة الأجانب الذين يقولون بحقِّ الزوج في تأْنِيب زَوْجَتِه (يعني الضَّرْب)، و٥١٪ مع فِكْرة طَرْد المُدَرِّسِين الذين يُحَلِّلُون عُقُوبة الرَّجْم).(٥)

هذا، ويمكننا أن نقول بكل ثقة: إنه ما مِن أقلية مُسْلِمة تعيش في إحدى هذه البلاد إلا وتُوجَد لديها بعض هذه المشكلات، لكن السؤال الذي يحتاج إلى إجابةٍ دقيقةٍ يمكن من خلالها تَقْيِيم ظاهرة الاندماج السلبي تقييمًا دقيقًا، هو ما هو حجم هذه الظواهر، ثم ما عُمْق دلالة هذه الظواهر؟ فإذا كان المسلمون الذين يعيشون في البلاد العربية الإسلامية يُعَانُون هُمْ أيضًا من بعض هذه الظواهر، فكيف بأولئك المسلمين الذين يعيشون بين ظَهْرَاني الكفار، وهذا معيارٌ هامٌّ يجب اصطحابُه يوم أن نذكر الشواهد التي تعكس حالة الاندماج السلبي التي تعيشه الجاليات المسلمة في الغرب؟(٦)

(٥) انظر المقال المشار إليها آنفًا.

(٦) المسلمون في الغرب بين الاندماج والاستقلالية د. يحي أبو زكريا
http://qawim.net/index.php?option=com_content&task=view&id=123&Itemid=58

وفي بلاد أخرى كبريطانيا، فإننا لا نستبعد أن نجد هذه المظاهر، لكن المظاهر الإيجابية تكاد تكون هي الغالبة، فالمسلمون هناك وإن لم يلتزموا بجُلِّ أحكام الإسلام الظاهرة إلا أنهم ما زالوا يشعرون بالانتماء القوي لهذا الدين، بل ورغبتهم في التحاكم إلى الشريعة، هذا وقد أظهر استطلاعٌ أجراه مركز آي سي إم بالتعاون مع صحيفة الجارديان البريطانية على عَيِّنَة تتكون من ٥٠٠ بريطاني أن الغالبية العظمى تريد أن ترى القانون الإسلاميَّ المَدَنيَّ معمولاً به في ضمن النظام القضائي البريطاني، و٦١٪ من المسلمين يرغبون في وُجُود مَحَاكِم إسلامية تعمل بالشريعة، لكن ما لم تتعارض الحدود الشرعية مع النظام البريطاني.(٧)

في بريطانيا وبالتحديد في لندن ينتشر النقاب الإسلامي في عدة مناطق حتى إنه أصبح أمرًا مقبولاً إلى درجة كبيرة في مناطق يسكنها عدد كبير من المسلمين

وفي بريطانيا وبالتحديد في لندن ينتشر النِّقَاب الإسلامي في عِدَّة مناطق حتى إنه أصبح أمرًا مقبولاً إلى درجةٍ كبيرةٍ في مناطق يسكنها عددٌ كبيرٌ من المسلمين، ولا زال القانون البريطاني يسمح للمُنْتَقِبات بقيادة السيارة، ومن الطريف في الأمر أن أحد مراكز اختبار القيادة في تلك المناطق -وهي مراكز تُشْرِف عليها الدولة- ذكر في مُلْصَقِه الإرشادي أنه يسمح للمُنْتَقِبات باصطحاب شخصٍ ثالثٍ معهم في سيارة الاختبار !!

هذا وقد انْتَزَع المسلمون في أحد أكبر مساجد العاصمة البريطانية والمُلاصِق للمنطقة الرئيسية في العاصمة تصريحًا برفع أذان بعض الصلوات في مكبرات الصوت، وقد منحت السلطات في بعض المدن الأخرى تصريحات مشابهة.

ومن المظاهر الإيجابية كذلك أن التقارير تكاد تُجْمِع على أن المساجد في أنحاء أوروبا في ازديادٍ مستمرٍّ، ففي ألمانيا مثلاً يرغب المسلمون الذين

(٧) http://www.guardian.co.uk/islam/story/0,15568,1362591,00.html#article_continue .

يملكون حاليًا ١٥٩ مسجدًا إلى زيادة هذا العدد بما يتجاوز الضِّعْف خلال الأشهُر والأعوام المُقبِلة.

الاندماج «الفكري»، الصورة الخطيرة من الاندماج:

ومن أخطر المشكلات التي تواجه المسلمين في البلاد الغربية، هي الخطر الفكري، ولا يقتصر الخطر الفكري الذي نعنيه هنا على الخطر التقليدي المتمثل بالانبهار بالحضارة الغربية من قِبَل أجْيَال المسلمين غير المتمسكين بشَرْع الله تبارك وتعالى، بل يتجاوزه إلى خَطَر عَقَدِيٍّ يَطَال أجيال الدُّعَاة، وربما العلماء، الذين يُفْتَرض فيهم أن يكونوا أبْعَدَ الناس عن تلك الشُّبُهات، أصبحوا عُرْضَة لتَبَنِّي بعض الأفكار الغربية صراحةً، أو في أقل الأحوال مُتَأَثِّرين بها في مناهج النَّظَر والاستدلال.

ومن الظواهر التي بدأت تتسع بشكل يدعو إلى القلق ظاهرة اعتماد القِيَم الغربية أساسًا في الصحة والفساد في كل ما يتعلق بأمر العقيدة والشريعة، نعم قد تكون دوافع هذا المَنْحَى مجرد مواقف سياسية لاحتواء مَوْجَات الغَضَب العارمة ضد المسلمين، إلا أنها أصبحت، ومع خوف الكثير من الدُّعَاة من التصريح بالحق، خطابًا فكريًّا عقديًّا، ويزداد الأمر خطورة يوم أن نعرف أنهم لا يدركون عُمْق ذلك التأثير على مناهجهم، فيستميتون في الدفاع عن بعض الآراء الفقهية الشَّاذّة، أو في نَقْد بعض الآراء الفقهية المُعْتَبَرة من أجل أنها لا تتفق مثلاً مع أبسط حقوق الإنسان، أو المساواة بين الجنسين، أو نحو ذلك.

هذه الأمثلة لا أشك أنها غَدَتْ معروفة لدى الجميع، وما التعاطف الواسع نوعًا ما التي لَقِيَتها دعوة طارق رمضان المُفَكِّر الإسلامي المُقِيم في أوروبا بتعليق الحدود الشرعية إلا مُؤَشِّر واضح على هذا الاندماج الفكري الخطير، والذي تزداد رُقْعَته كل يوم، ليس في الغرب وبسبب الغرب، ولكن في الشرق وبسبب الشرق أيضًا؛ إذ إنه مما يُؤْسَف له أن بعض أهل العلم والدعوة في المشرق العربي أخذوا في تَبَنِّي مثل هذه الأُطْرُوحَات وبشكلٍ علنيٍّ، وما تَبَنِّي بعض الدُّعَاة في العالم الإسلامي الدِّفَاع عن حرية الدين، ونقد حَدّ الرِّدَّة، إلا أكبر دليل على أن الخطر غير مُقْتَصر، أو نابع من الغرب، بل إنه على العكس من ذلك يمكن أن يقال: إن الخَلَل نَاتِج من الشرق الإسلامي نفسه، وتَفَشِّي العَصْرَانِية بين دُعَاته وأبنائه.

الاندماج، غياب البديل بغياب الرؤية:

لا شك أن القضية الأساس التي لا بد أن تشغل بَالَنا ونحن نتحدث عن العَلاقة بين الإسلام والغرب، هي مستقبل الوجود الإسلامي في الغرب، وعلى المسلمين الذين يعيشون هناك أن يسألوا أنفسهم بكل صراحةٍ: ماذا نريد كأمة مسلمة تعيش في أحضان أُمَمٍ كافرةٍ؟ ما هو التغيير الذي نطمح إليه؟ ما هو النظامُ -غير الإسلامي- الأفضل الذي يمكن أن نعيش في ظِلِّه؟ هليمكن أن يكون للمسلمين وجودٌ حقيقيٌّ في تلك القارَّة النصرانية العِلْمَانِيّة؟ ما هو شكل العلاقة بين الطرفين في ظل العلاقة العالمية بين الإسلام والكفر؟

وهنا وبعبارة أخرى يرد علينا محوران مهمان يكتنفهما مستقبل الوجود الإسلامي في الغرب، أما الأول: فهو محور المستقبل القَدَرِي الكوني، وأما الثاني: فهو محور المستقبل الشرعي، ومع أهمية هذه القضية، ودورها المِحْوَرِي في كل ما يتعلق بهذا الوجود الإسلامي، إلا أنني لم أر أنها نالت حظًّا معقولاً من البحث والدراسة، لا سيما على الصعيد الإسلامي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الذي وجدته من خلال متابعةٍ شِبْه دائمةٍ لكثير من المؤتمرات التي عُقِدَت في الغرب خلال الأعوام ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠١م وحتى عام ١٤٢٨هـ الموافق ٢٠٠٧م أن الخطاب الإسلامي في جميع القضايا ولا سيما في هذه القضية

الاندماج والذوبان.
مخاطر تهدد مستقبل المسلمين في الغرب
استعداء الغرب وبدء صدام من الداخل.
الانعزال والانغلاق.

الحَسَّاسَة -أعني العلاقة بين الإسلام والغرب- يميل إلى الاعتذار، ويجاهد بكل قوة من أجل إظهار المسلمين بمظهر حسن؛ حتى لو أدى ذلك للتنازُل عن بعض المُقَرَّرات الشرعية، أو لَيِّ أعناق النصوص، كما يغلب عليه المَنْحَى الاستجدائِيّ الاسْتِعطَائِي في على الظاهرة الإسلامية المُتَنَامِيَة، وتَنْسى هذه المؤتمرات في خِضَمّ هذا الزخم تناوُل مُستقبل الإسلام في الغرب من ناحية قَدَرِيّة كَوْنِيّة، ومن ناحية شَرْعِيّة، ومن ثَمَّ إيجاد الحلول الشرعية المُتَّفِقَة مع الأقدار الكَوْنِيّة، والقَابِلَة للتطْبيق.

إن غياب هذه الدراسات المتكاملة من جهة، وسيطرةَ الخطاب الانهزامي الاسْتِجْدَائي على الخطاب الإسلامي حول هذه القضية حتى الآن، من جهة أخرى أَسْلَمَ المسلمين في الغرب لرَحَى ثَالُوثٍ مُدَمِّر، كل زاوية من زواياه أشدّ فتكًا من أختها؛ حيثُ خطر الاندماج والذَّوَبان مُتَرَبِّص في إحدى هذه الزوايا، وخطر الانْعِزَال والانْغِلَاق في زاويةٍ أخرى، مع ثَالِثَة الأَثَافِي المُتَمَثِّلَة في خطر اسْتِعْدَاء الغرب، والبدء في الصِّدَام من الداخل، ودون إِذْن الأُمَّة.

لقد كثر المنادون بما يعرف بالإسلام الأوروبي من المسلمين، وتفاوت أصحاب هذه الدعاوى من مُصرِّح بها، ومُلمِّح لها، ولعل أهم محور يَتَمَحْور حوله أصحاب هذا الاتجاه هو خصوصية الوضع الأوروبي عن غيره من البلاد الإسلامية، وبالتالي فلا بد أولاً من تنقية الممارسة الإسلامية، بل وربما الفِقْه الإسلامي من ما هو «إسلامي» وما هو «ثقافي» أو «بيئي»، ولا بد كذلك من إيجاد فقهٍ جديدٍ يناسب هذه المتغيرات، وإنه مما يُؤسَف له أننا نجد كثيرًا من الدُّعاة أصحاب النوايا الحَسَنة، يتناغمون مع هذا الطَّرْح، وإن كانوا يُصَرِّحون بأن الإسلام هو الإسلام، لا يوجد إسلامٌ أوروبيٌّ، ولا شرقيٌّ، ولا أمريكيٌّ إلا أنهم ومع ذلك كله، لا يمانعون في استقطاب أصحاب هذا الاتجاه، ولا في تَبَنِّي بعض أُطْرُوحَاته، بل وإنهم كذلك ينادون بمثل ما ينادي، وإن كان الدافع الدنيوي والنية الباعثة مختلفة، وإن نظرة سريعة لإصدارات وخطاب المجلس الأوروبي للإفتاء يلحظ عُمْق هذا التأثير.[٨]

أما من ناحية الزاوية الأخرى لهذا المُثَلَّث المُحْدِق خطرًا بالوجود الإسلامي في أوروبا فتتمثل في الاتجاه الصِّدَامي، وهو المُتَعَارف عليه تقليديًّا بالسلفية الجهادية، هذا التيار بفكره الصِّدَامي أفرز أنواعًا من المخاطر قد لا يدركها أصحابه، فمنها: أنه سَهَّلَ وُجُود أرض خِصْبة لأصحاب الاتجاه العصراني بجميع أطيافه، كما أوجد مبررات لأكثر الحكومات الغربية لِسَنِّ قوانين في ظاهرها تقصد الحَدّ من هذا الاتجاه، إلا أنها تحمل في طَيَّاتها تحجيم النشاط الإسلامي بوجهٍ عامٍّ، أو أنها في أحسن الأحوال تُعِيق المَدَّ الإسلاميَّ الذي بدأ في اجتياح الغرب.

ولذلك فإن هذه الأجواء المشحونة بالعَدَاء ضد المسلمين من ناحيةٍ، وهذه القوانين التي تُسَنُّ للحَدِّ من حَرَكَتِهم من ناحيةٍ أخرى، ثم طبيعة كثير من هؤلاء المسلمين المُشَار إليهم، سواء طبيعة تَنْشِئَتِهم العَقَدِيّة، أو طبيعتهم الشخصية، أَجْبَرَ رُؤَى المسلمين الاستراتيجية على التراجع والرِّضَى، بل البحث عن أقل الخسائر، كل ذلك دون أن يفكر في ما هو أبعد من ذلك، وبالتالي فقد وَجَدَ الاندماج والذوبان طريقًا سهلاً للسيطرة على هذه الرُّؤَى، ولذلك فإنك قلَّمَا تجد من الجمعيات الإسلامية وقادة المسلمين من يُطالِب، أو يسعى لاعتراف تلك الحكومات الرسمي بالدين الإسلامي كدينٍ ثانٍ للدولة، على غِرَار أسبانيا، وبلجيكا، والنمسا، ومن آثار ذلك أنك قَلَّمَا تجد من يُطَالب بإيجاد المؤسسات الرسمية الحكومية التي تقدم خِدْمَات للمسلمين كمسلمين مُواطِنِين، أو بإيجاد القوانين التي من شأنها مراعاة خُصُوصيات المسلمين كمسلمين كما هي الحال في بعض المؤسسات أو القطاعات أو القوانين التي تُرَاعي خُصُوصيةَ أتباع بعض الديانات الأُخرى كاليهودية، والسيخية والهندوسية، في حدود الأُطُر العِلْمَانِيّة التي تَدَّعِيها الدُّوَل.

أما خطر الانعزال والانغلاق فهو وإن كان أقل الثلاثة خطرًا، إلا أنه خطرٌ لا بد من لَفْت الأنظار

(٨) انظر المجموعة الأولى والثانية من فتاوى المجمع، ويمكن الاطلاع على نسخة إلكترونية من المجموعتين من خلال موقع المجمع، فانظر مثلاً إلى فتوى المجمع المشهورة في تهنئة النصارى بأعيادهم، وكذلك القيام للعلم، وكذلك الخدمة العسكرية.

إليه وإلى آثاره السلبية، والتي من أهمها عدم قيام المسلمين بواجب الدعوة إلى الله جل وعلا، ثم إنه من شأنه أن يُعَزِّز الصورة السلبية التي يحاول الإعلامُ رَسْمهَا عن المسلمين، كما أنه لا يُلَبي رغبات الأجيال الصاعدة التي تُعْتَبَر أوروبية في كثيرٍ من طبائعها، وأهم من ذلك لُغَتهَا، الأمر الذي أدى إلى وجود فَجْوَة متصاعدة بين تلك الأجيال الناشئة وبين الأجيال الأولى، والتي من أهم ما يُعيقهَا عن الاندماج المنضبط، أو لِنَقُلْ القيام بواجبها الشرعي هو العائق اللُّغَوي، فالأجيالُ المُهَاجِرَة الأولى في بريطانيا تَنْحدِر من أصول آسيوية، ولا زالت تُصِرّ مثلاً على استخدام اللغة الأردوية لغة أمّ لخطاب جماهير المساجد، وكذلك الحال بالنسبة للغة العربية، أو الدارجة بين مغاربة هولندا، واللغة التركية بين مُسْلِمِي تركيا الذين يشكلون غالب المسلمين هناك.

هذا من ناحية التأثير السلبي لهذا الاتجاه على المسلمين، أما عن تأثيره على غير المسلمين فحَدِّث ولا حَرَج؛ حيث ازدادت قَنَاعَة كثير من الكفار بأن الإسلام دينٌ مُنْطَوٍ على نفسه، دين غير حَيَوِيّ وغير قادر على صناعة حياة حديثة بكل متطلباتها، وَرَسَّخ هذا في أذهان الكثير منهم ضرورةَ التزام النَّهْج العِلْمَانيّ في الحياة، فتلك الصورة النَّمَطِيّة عن الدين المسيحي ورجال الكنيسة، ها هي تتكرر لَدَى المسلمين، كما زادت قناعتهم بأن الدين ليس له أيّ مِسَاحة في عصر ما بعد الحَدَاثَة.

ويمكننا أن نختم خطر هذا الانعزال على حياة الأجيال القادمة من المسلمين وغيرهم بظاهرة قَبُول شَرَائِح كثيرة من الأجيال القادمة بأفكار خطيرة دون سَبْرِ أغْوَارهَا، مثل الاندماج السلبي موضوع البحث، والإسلام الأوروبي، وقناعة حتى بعض الاتجاهات السَّلَفِيّة بضرورة التجديد ليس في الخطاب فقط، بل وحتى في المُحْتَوى، وتراهم في تَسْويغهم لذلك يَتَتَرَّسُون بكثيرٍ من الممارسَات الخاطِئَة التي يُمارسها الجيلُ الأولُ.

إن المُتَأَمِّل في أسباب هذه المخاطر يجد أن ثَمَّةَ سبب آخر رئيس يقف خلفها، ويجعلها تنمو ليكون لها هذا التأثير، ألا وهو انعدام التأصيل الشريعي، -والذي لا بد أن يكون واقعيًّا حتى يكون شرعيًّا- لما يمكن أن نطلق عليه القَدَر الكَوْنِيّ لمستقبل الوجود الإسلامي في أوروبا من جهةٍ، والقَدَر الشرعيّ للوجود الإسلامي في أوروبا من جهةٍ أخرى، وهو ما سنتحدث عنه في الصفحات التالية.

القَدَر الكَوْنِيّ والشرعي لمستقبل الوجود الإسلامي في أوروبا:

ماذا نقصد بالقَدَر الكَوْنِي لمستقبل الوجود الإسلامي في أوروبا؟ نقصد به ماذا أراد الله -جل وعلا- أن يكون بين المسلمين وبين الغرب النصراني بعد بَعْثَة النبي -صلى الله عليه وسلم- وقبل قِيام الساعة.

هذا سؤالٌ ضخمٌ تحتاج الإجابة عليه لاستقراء النصوص القرآنية والنبوية التي تتحدث عن أحداث قيام الساعة أولاً، واستقراء تلك النصوص التي تتحدث عن العلاقة بين الإسلام والكفر ثانيًا، وتستقرئ حال الأنبياء مع أقوامهم، وكيف انتهت دعوات الأنبياء، لا سيما أُولُو العزم منهم ثالثًا، ثم تستشرِف التاريخ لتتلمس منه طبيعةَ العلاقة بين الإسلام والنصرانية، أو حتى بين الإسلام والكفر بصُوَرِه المختلفة لا سيما العِلْمَانية اللادِينِيَّة منها.

إن استشرافَ مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب، وواقع الأقليات في الغرب يكون متأثرًا في كثيرٍ من الأحيان بقُوَّة الآلة الإعلامية الغربية التي تصل إلينا مُصَوِّرَة الإسلام على أنه الخَطَر القادم الذي يُهَدِّد أوروبا، الأمر الذي يَشْحن المُسلم بمَوْجَات من غَضبٍ عارمٍ يشغله عن تَصَوُّر واقع الصراع بين الإسلام والكُفر بكل أقطابه الغربية، والشرقية.

إن الكشف عن القَدَر الشرعي في هذه القضية، يحتم علينا الإجابة عن تساؤلات عدةٍ، تدور حول سؤالين رئيسين:

أولاً: الغاية أعني: ما هو هدف المسلمين الأعلى في هذه الحياة؟

ثانيًا: الوسيلة كيف أُمِرُوا أن يحققوا هذا الهدف؟

إن الإجابة على السؤال الأول قد تبدو أوضح من الشمس، ولكن دعونا نستقرئ بعض الإجابات المُقَدَّمَة من الاتجاهات الإسلامية لا سيما تلك العاملة في الغرب دون التَّعَرُّض لأسمائها:

١- دعوة الناس لتوحيد الله.

٢- فرض حكم الله في الأرض.
٣- تعريف -مُجَرَّد تعريف الناس بالله، وبالإسلام، وترك الاختيار لديهم، دون ترغيب أو ترهيب.

هذا، وكل إجابة من هذه الإجابات تحمل في طَيَّاتها كمًّا كبيرًا من الأسئلة التي لم أرَ مَنْ أجاب عليها في ضَوْء الواقع الغربي، خذ مثلاً دعوة الناس لتوحيد الله، هل تتضمن هذه بيان حقيقة التوحيد فقط، أم تتضمن كذلك الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة على من أَعْرَض عن التوحيد، ثم هل تتضمن ذِكْر التوحيد كمجرد عقيدة صحيحة، أم ذِكْره على أنه هو العقيدة الوحيدة الصحيحة، ثم هل نَجمع مع هذا بيان بُطْلان عقائد الآخرين، أم نكتفي ببيان الحق مع السكوت عن بيان بُطْلان الباطل وفَسَاده؟

قد يستغرب القارئ المسلم الذي يعيش في البلاد الإسلامية هذه الأسئلة، لكنها أسئلة مُلِحَّة وحَرِجَة للدوائر الإسلامية التي تعيش في الغرب، وبناء عليها تتباين الاتجاهاتُ الإسلامية في تحديد علاقة المسلمين الذين يعيشون في الغرب مع دولهم الذين أصبحوا جزءًا من واقعها الاجتماعي والسياسي، وبالتالي نظرتهم تجاه القضية موضوع هذه الورقة -أعني الاندماجَ-.

أما السؤال الثاني: إقامة حكم الله في الأرض، فإنه كذلك يُثِير أسئلة متعددة كُلّ واحد منها أكثر تعقيدًا من صاحبه، فبعد أن نتفق على أن إعلاء دين الله هو الهدف الأسمى لكل المسلمين أفرادًا وجماعات، لا بد لنا من تحديد آليات تطبيقه، كيف نقوم بذلك، هل الجهاد المُسَلَّح هو الحل، أم هو الجهاد السياسي، أم طريق التربية والتصفية، أم الدعوة السرية، أم التغيير من الداخل، أم ماذا؟

إن كل واحد من هذه الأسئلة يتطلب إجابات تُلْقي بظلال ثقيلة جدًّا على قضية الاندماج سلبًا أو إيجابًا مهما كانت طبيعتها.

إن غياب التأصيل الشرعي لهذه القضايا، وكذا انزواء كثير من العلماء، وقادة الفكر والدعاة بعيدًا عن مجابهة هذه الأسئلة، فضلاً عن تَصَدِّي بعضهم لتقديم أَدَبِيَّات تحمل مشاريع رُؤى تعالج هذه القضايا، كل ذلك ساهم ويساهم في تعميق الفَجْوة في العلاقة بين الإسلام والغرب، وزيادة الضباب المحيط برُؤى المسلمين واستراتيجياتهم -سواء من يعيشون في الغرب، أو غيرهم- ومن ثَمَّ ظُهور أيديولوجيات غريبة، وشَاذَّة.

نحو رُؤْيَة للمسلمين في الغرب:

ثَمَّة عوامل رئيسة يجب الاعتماد عليها عند الرغبة في وضع أيّ رؤية لأيِّ عملٍ إسلاميٍّ استراتيجي، في أيِّ مكانٍ كان:

١- عدم وجود الخلافة الإسلامية، ونَخُص بالذات غياب الشخصية المعنوية التي تمثل المسلمين، وهذا الغياب له تأثيران أساسيان:

الأول: فقدان الوحدة الإسلامية المطلوبة لنجاح أيّ عمل كبير وعلى مستوى الأمة، فهذا غِيَاب للعمل بما أمر الله به، بل وجعله من مُقَوِّمات النجاح ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣] ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال:٤٦].

الثاني: وجود فراغ قانوني للشخصية التي يمكن أن تتخذ قرارًا يعبر عن إرادة المسلمين، وقد أجمع العلماء أنه لا يجوز لآحاد المسلمين أن يَفْتَئِت على المسلمين.

٢- وجود خلل كبير في ميزان تكافؤ القُوى بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، فحتى لو اتحد المسلمون في العصر الحاضر فإنهم لا يشكلون مُجْتَمِعِينَ قُوَّة عسكرية مُنَافِسَة للقوى الغربية مُجْتَمِعَة؛ ولذلك وحتى يتهيأ للمسلمين هذان الأمران، لا بد أن يصيغ المسلمون رُؤَاهم الآنية في ظل هذا الواقع، هذا وثَمَّة عوامل أخرى مُؤَثِّرة عند وضع أيّ رؤية استراتيجية للمسلمين في الغرب، أهمها: أن لدينا صعودًا ونموًّا إسلاميًّا في تواز مع هبوطٍ وانْحِسارٍ غربيٍّ، الأمر الذي لو استمر فإنه يُؤْذِن بسيطرة إسلامية على تلك القارَّة بصورة سِلْمِيّة،[٩] لكن يبقى السؤال الأخطر والأهم، هل سيقبل الغرب بهذا المستقبل؟ لدينا إجابتان مُحْتَمَلتان:

١- أن الغرب سيقبل بهذا، لا راغبًا فيه، بل راغمًا إليه؛ إذ سيفلت زمام الأمور من يده، فدولة

(٩) وهو ما تتحدث عنه كثير من التقارير والكتب التي لا تخفى على أي متابع للشأن الإسلامي الأوروبي.

مثل الدانمارك ربما لا يتجاوز عددُ سكانها الستة ملايين، تفيد كثيرٌ من التقارير أن شعبها الأصلي سيختفي من الوجود بحلول عام ٢٠٥٠م، وسيكون سُكانها إما من أبناء المهاجرين الخُلَّص، أو من أبناء زيجات مختلطة بين مهاجرين وأهل البلاد الأصليين، فكيف لها والحال هذه أن تضع حدًّا لهذا؟ وقُلْ مثل ذلك في بلادٍ أخرى.

٢- أن الغرب لن يقبل بهذه المُعادلة أعني: نماء المَدّ الإسلامي في مقابل انْحِسَار الحالة الغربية، وبالتالي فإنه سيأتي يومًا من الأيام ليضع حدًّا لهذا، ولو اضطره الأمر للقيام بعمليات تطهير عِرْقِي على مستوى كبيرٍ جدًّا، وبمُبَارَكة رسْمِيَّة من الحكومة.

وكما قدمنا في صدر هذه الورقة، أننا يمكن أن نقرأ الواقع قراءتين مختلفتين لنخلص إلى هاتين النتيجتين، وقدمنا أيضًا أنه لا يجوز لنا ونحن نتلمس خيوطًا متناثرة هنا وهناك تساهم في وضع رُؤية استراتيجية للوضع الإسلامي أن نقتصر على قراءة واحدة، بل لا بد لأيّ خُطة استراتيجية أن تأخذ بالاعتبار إمكانية أيٍّ من القراءتين للواقع، وبناء على ذلك فإني أضع بين يدي طَلَبة العلم، والدعاة، والعلماء، هذه المعالمَ مُسَاهِمة في وضع رؤية استراتيجية للإسلام والمسلمين في الغرب:

١- يتوجب على المسلمين في الغرب تجنُّب الصِّدَام المُسَلَّح مع حكوماتهم وأنظمتهم، وربما يتعين عليهم أن يُطَمْئِنُوا تلك الحكومات أنهم لا يرغبون في هذا الصِّدَام المُسَلَّح أبدًا.

٢- يتوجب على المسلمين في الغرب العمل من أجل حفظ حقوقهم بشكلٍ دستوريٍّ، لا بمجرد شكلٍ عشوائيٍّ أو مؤسسيٍّ، أو فرديٍّ، يعني أن ينص الدستور على ما من شأنه حِفْظ حقوق الأقليات الدينية بما فيها الإسلامية.

٣- وهذا الحفظ لا يَتَأَتَّى الآن إلا بأن يعمل المسلمون لتثبيت مبدأ «التعددية» أو Pluralism، والذي يمكن أن يأخذ صورًا متقدمة أشبه ما تكون بالكونفدرالية، كما تسعى إليه بعض المنظمات في أسبانيا، أو صورًا بدائية متمثلة في التعددية الثقافية Multiculturalism، وهذا طريقٌ طويلٌ لكنه يبدأ بأن يكتسب المسلمون شيئًا فشيئًا مزيدًا من الحقوق التي يمكن أن تكون سندًا قانونيًّا لمزيدٍ من الحقوق الأخرى والأكبر، وهكذا، ومن أهم ما يتوجب على المسلمين العمل من أجل اكتسابه قضيتان:

الأولى: إدخال أو إدماج قانون الأحوال الشخصية الإسلامي في النُّظُم القضائية الغربية.

والثانية: تعديل بعض الأنظمة التعليمية من أجل حفظ الهَوِيَّة الإسلامية أثناء العملية التعليمية وبشكلٍ رسميٍّ.

٤- يجبُ على المسلمين العمل بكل قوة على حفظ هَوِيَّتهم من الذوبان، ونحن وإن كنا نُوقِن بأن الهَوِيَّة الإسلامية في الغرب وفي هذه الأيام لن تذوب، لكن التأكيد على هذه القضية يُحَتِّم علينا مزيدًا من الالتفات إليها والعمل من أجلها، بصورة تسرع من عملية التقدم الإسلامي، والتراجع الغربي.

٥- يجب على المسلمين في الغرب الاهتمام بدراسة العلوم الإنسانية، وعلى رأسها علوم القانون والسياسة؛ إذ هي الأدوات التي تُعِينهم على تَلَمُّس المنافذ التي تُهَيِّئ لهم الأوضاع القانونية المُنَاسِبة لهم.

٦- أما بالنسبة للمشاركة السياسية فهذا موضوعٌ يحتاج إلى أبحاث مستقلة، تتناول النواحي الشرعية، لكن على الأقل يجب أن لا يكون المسلمون بعيدين كُلّ البُعْد عن الحِرَاك السياسي في بلادهم، ليس فقط للتأثير على الساسة، بل من أجلِ مَزيد من الفَهْم للعبة السياسية، ومن ثَمَّ معرفة طُرُق المشارَكَة الفَاعِلَة فيها.

٧- يجب تشجيع المسلمين على مَزِيدٍ من الإنجاب، وأن لا تَنْطَلي عليهم محاولاتُ دُوَلِهم الرامية إلى إخراج المرأة من بيتها، ومن ثَمَّ عدم رَغبتها ورغبة زوجها في مزيدٍ من الأطفال.

٨- يجب العمل على أن يكون للمسلمين مُؤَسَّسَات اقتصادية مستقلة وضَخْمة؛ لضمان مزيدٍ من الاستقلال الاقتصادي وربما المعنوي عن اقتصاد الدولة، الأمر الذي من شأنه أن يُعَزِّز التَّحَرُّر ولو بصورةٍ بسيطةٍ من الهَيْمَنة الاقتصادية من قِبَل الدولة.

٩- وفي السياق نفسه يجب على المسلمين أن يشرعوا في بناء مؤسساتهم الإعلامية، والتي تتمتع بقدرٍ كبيرٍ من المِصْدَاقية الإعلامية العامة، ثم المِصْدَاقية الإسلامية أمَامَ القَارئ، أو المُسْتمِع، أو المُشَاهِد المُسْلِم.

نحو خُطًى عمليةٍ لترشيد الواقع الإسلامي في الغرب:

إن أهم ما تَصْبُو إليه هذه الورقة تقديم بعض المقترحات العملية لترشيد الوجود الإسلامي في الغرب، بصرف النَّظر عن المُصطلح الأنسب له، وهنا لا بد من التنبيه أننا في كثير من الأحيان ننطلق من استشرافنا للمستقبل من قراءتنا الخاصة للواقع، والتي لا يمكن الجزم بها، بل والخاضعة للتغيُّر بسبب تغيُّر الظروف المحيطة، وهي أكثر من أن تُحْصى، وعليه فإن عملية لاستشراف المستقبل عليها أن تأخذ في حسبانها تعدد القراءات للواقع، مع احتمالية تغيُّر الجميع لأقدار يُقدِّرها العليم الحكيم.

وتتبعًا لهذا النهج، وتلمسًا لمستقبل مُتَّسق مع مكانة هذه الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] أضع هذه الخُطَى، لعلها تكون بداية لعملٍ جَمعي جادٍّ.

أولاً: لا بد من قيام العلماء والدعاة وأهل الفكر ومراكز الدراسات الاستراتيجية بتناول مستقبل العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب من خلال بحوث ودراسات جادَّة، وأنبه هنا إلى أن هذه البحوث لا بد أن تكون مشتركة بين مسلمين في العالم الإسلامي ومسلمين يعيشون في الغرب، وحَبَّذا لو كانوا مسلمين من أصول غربية بَحْتَة، لا سيما في محاورَ مُشَابِهَةٍ لما يلي:

١- تأصيل رؤية استراتيجية بمعالم واضحة للمسلمين الذين يعيشون في الغرب، وإيجاد صيغة شرعية للتعايُش بينهم وبين الدُّوَل التي يعيشون فيها.
٢- بحث قضية الاندماج من ناحية فِقْهِيَّة أُصُولية، وتحديد ضوابط هذا المصطلح بدقة ومن جميع النواحي، وقد شاع الآن مصطلح الاندماج الإيجابي بين كثير من المسلمين لا سيما الذين يعيشون في بريطانيا، إلا أن واقع هؤلاء المنادين به يَحْصُر الإسلام في جوانبَ مُعَيَّنَة، تتجاوز قليلاً ما حصرها به المُرْجِئَة، وقد تكون خُطْوَة للوصول إلى حالة من الإِرْجَاء تُضَاهي الإرْجَاء المَسْطُور في كُتُب العَقيدة، وقد يَصِحّ لنا أن نسمي هذا الاندماج «باندماج المُرْجِئَة».
٣- تأصيل حقيقة الوَلاء والبَرَاء وتطبيقه من قِبَل المسلمين الذين يعيشون كأقليات عَدَدِيَّة في الدُّوَل الكافرة، لا سيما الدُّوَل موضوع البحث، أعني الغرب، مع عدم إهمال دُوَل أخرى كالهند وروسيا...
٤- بحث موضوع المُوَاطَنَة، وكيفية موازنة المسلم في البلاد الغربية بين انتمائه الإسلامي، وما يترتب على انتمائه السياسي لأحد تلك البلاد الأوروبية.
٥- تأصيل المَنْهَج النبوي في التغيير سواء في المرحلة المَكِّيَّة، أو في المرحلة المَدَنِيَّة، وتطبيق ذلك على الحَالَة الإسلامية في الغرب.
٦- تأصيل العلاقة بين أهل البِدَع وأهل السُّنَّة في ظل واقع الضَّعْف الذي يعيشه أهل السُّنَّة في بلاد الغرب
٧- مقاصد الشريعة الإسلامية بين الغُلُوّ والتَّفْريط، بين المُغَالِين فيها والمُغْفِلين لها، وتأثير ذلك على واقع المسلمين في الغرب.
٨- التركيز على الفكر الغربي دراسة ونقدًا، ونشر تلك الدراسات والنقد على أوسع نطاق مُمْكِنٍ.

ثانيًا: لا بد من القيام بخُطَّة جَرِيئَة لإعداد قيادات إسلامية في العالم الغربي، تبدأ هذه الخُطَّة بوضع تَصَوُّر لمَعَالم تلك الشخصيات، ثم اختيار بعض الشخصيات الشَّابَّة، ثم ابْتِعَاثهَا إلى الجامعات العربية التي يمكن أن تُسَاهِم مَنَاهِجُها وطبيعتها في بناء تلك الشخصيات، مع الحِرْص على أن يَظَلّ هؤلاء الطَّلَبَة على صِلَة ببُلدانهم الأصلية، والذهاب إليها مرة في كل سنة على الأقلّ، وبعد التَّخرُّج القيام بإرسال هؤلاء الطلاب إلى بلادهم الأصلية، وكَفَالتهم لتحضير درجات عِلْمِيّة عالية، ثم كفالتهم ليعملوا دُعَاة مُتَفَرِّغين.

ثالثًا: تأسيس مراكز بحثية إسلامية للقيام بالأبحاث المُشَار إليها سابقًا.

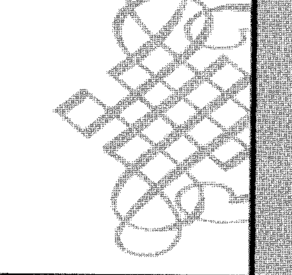
رابعًا: نشر الأبحاث المُشَار إليها سابقًا على أوسَع نِطَاق باللغات الحَيَّة الأوروبية لا سيما في بُؤَر الحِرَاك الفكري كبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وأسبانيا.

خامسًا: تشجيع أيّ اتجاه يُكَرِّس مبدأ التَّعدُّديّة الثقافية في أوروبا.

سادسًا: بَذْل الأموال لمن يملك قلمًا سَيَّالاً من أبناء تلك البلاد لنُصْرَة قضايا المسلمين.

سابعًا: بناء جُسُور التواصُل بين المسلمين الذين يعيشون في الغرب وبين المسلمين الذين يعيشون في البلاد العربية.

هذا ما تَيَسَّر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.



معلومات إضافية
المسلمون في أوروبا

تاريخ الوجود الإسلامي في أوروبا

أ- أوروبا الغربية:

يُرجع البعض تاريخ هجرة المسلمين إلى أوروبا إلى قرونٍ خَلَت، غير أنه يمكن القول بأن جذور الهجرة الحديثة المُعْتَبَرة التي هي أساس الوجود الإسلامي الحاضر في أوروبا الغربية يمكن إرجاع بداياتها إلى منتصف القرن التاسع عشر، عندما وقعت بعض البلدان العربية والإسلامية ضمن دائرة الاستعمار الأوروبي.

بدأت الهِجْرَات الأُولى في ذلك التاريخ بشكلٍ بسيطٍ ومُتَقطِّع، وكانت إما للخدمة في جيوش الاحتلال، أو للعمل في المصانع الأوروبية، وربما القليل منهم تَطَلُّعًا لعَالَمٍ أفضل، وبقي اتساع الهجرة ونموها محدودًا حتى بلغ عشرات الآلاف مع نهاية الحرب العالمية الأولى.

أما الهجرات الكبرى في العصر الحديث فكانت بُعَيْدَ الحرب العالمية الثانية، خاصة مع حاجة أوروبا إلى الأيدي العاملة لسَدِّ النقص الشديد الذي خَلَّفَه مقتلُ ما يزيد على ستين مليونًا من البَشَر في تلك الحرب.

أبرز عمليات الهجرة الكثيفة كانت إلى:

- **فرنسا:** من أبناء الشمال الإفريقي، والإفريقي العربي على وجه التحديد، وكذلك من المستعمرات الفرنسية في إفريقيا السوداء.

- **بريطانيا:** من أبناء شبه القارَّة الهندية (الهند - باكستان - بنجلاديش - كشمير)، وأعداد من أبناء جنوب الجزيرة العربية، وعلى الأخص اليمن الجنوبي وعمان؛ إضافة إلى أعداد أخرى، ولكنها أقل من بقية المستعمرات.

- **ألمانيا:** من الأتراك الذين كانت لهم علاقات مميزة بألمانيا حتى قبل الحرب العالمية الأولى.

كما هاجرت أعداد أقل إلى دول أوروبا الغربية الأخرى (إيطاليا - هولندا - بلجيكا - أسبانيا..)، ومن بلدان عربية وإسلامية بخلاف التي سبق ذِكْرها.



كان الهدف الأساسي لهؤلاء المهاجرين في بداية الأمر العمل لفترات مؤقتة؛ لتحسين أوضاعهم المعيشية، ثم الرجوع إلى الوطن الأصلي، ثم تطورت تلك الهجرات لتشمل أعدادًا كبيرة من الطلبة الدارسين من معظم الأقطار العربية والإسلامية، إضافة إلى أعداد غير قليلة من القدرات والكفاءات العلمية التي غادرت البلاد هربًا من الأوضاع السياسية المتقلِّبة والمتوترة التي سادت جُلّ البلاد العربية والإسلامية منذ بداية الستينيات وحتى يومنا هذا.

كما ساهمت حرب الخليج الأولى والثانية والحروب الأهلية في الصومال، والحرب في البوسنة والهرسك

والأوضاع المتردِّيَة في العراق في هجرة أعداد كبيرة أخرى إلى أوروبا الغربية، وبالذات إلى بريطانيا ودول إسكندنافية، ودول البنلكس (هولندا - بلجيكا) وسويسرا، إضافة إلى الدول الأوروبية المذكورة أعلاه. ومع تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية في البلدان العربية والإسلامية زهدت الغالبية العظمى من العرب والمسلمين في أوروبا في الرجوع إلى بلدانهم، وآثرت الاستقرار، خاصة بعد التئام شمل العائلات، ومن ثم نشوء أجيال جديدة ولدت وترعرعت، وتشربت ثقافة المجتمع الأوروبي، وعليه فقد استقرت الغالبية العظمى من أبناء المسلمين، بل اتسع وجودها ليشمل معظم الدول الأوروبية إن لم يكن جميعها، حتى لم تعد هناك مدينة كبيرة ولا صغيرة لا تضم أعدادًا من المهاجرين الجُدُد.

ب - أوروبا الشرقية ودول البلقان

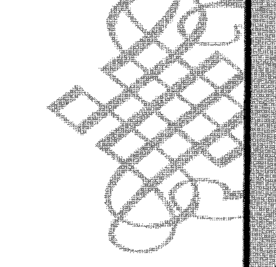
الغالبية الساحقة من المسلمين في أوروبا الشرقية والبلقان هم أبناء البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام منذ قرون طويلة ترجع إلى ما قبل دخول الأتراك العثمانيين، وإن كانت الغالبية منهم قد استقر بها المُقَام مع وجود العثمانيين لمدة تزيد على ٥ قرون في جُلّ بلدان أوروبا الشرقية والبلقان، ولقد واجه هؤلاء المسلمون ظروفًا بالغة الصعوبة خلال الحروب المتواصلة بين العثمانيين وأوروبا وروسيا، وكذلك بعد انحسار قوة الدولة العثمانية. ولقد بلغت تلك الظروف مداها بعد دخول دول أوروبا الشرقية والبلقان تحت الحكم الشيوعي، وهو ما أجبر بعضهم على الهجرة إلى البلاد الإسلامية وتركيا على وجه التحديد، وربما إلى بعض بلدان أوروبا الغربية، هذا إضافة إلى ما يمكن اعتباره نوعًا من الإبادة الجماعية التي حلت ببعض مسلمي الاتحاد السوفييتي سابقًا.

كما كانت هناك هجرات للعرب والمسلمين خلال العقود الماضية، وبعد الحرب العالمية الثانية على وجه التحديد إلى الاتحاد السوفييتي سابقًا؛ من خلال العديد من الطلبة الدارسين، وازدادت إلى جُلّ دول أوروبا الشرقية خلال العقود الثلاثة الماضية، ونتيجة لنفس ظروف البلاد العربية والإسلامية الاقتصادية والسياسية، التي ذكرنا، استقر عدد غير قليل من هؤلاء في تلك البلدان، خاصة أولئك الذين تزوجوا من تلك البلاد، إضافة إلى أعداد كبيرة من ذوي الاتجاهات اليسارية الذين لم يجدوا في ظروف بلادهم الأصلية مناسبة للرجوع.

أعداد المسلمين في أوروبا

ليست هناك إحصاءات دقيقة ومُفَصَّلة حول أعداد المسلمين في أوروبا لأسباب عديدة، منها: أن الإحصاءات الرسمية في دول أوروبا لا تحدد هوية الشخص الدينية. وعليه فإن الأرقام التالية هي أرقام تقريبية وضعت من خلال الوقوف على إحصاءاتٍ بعضها لمؤسسات رسمية أو شبه رسمية، وأخرى لبعض المؤسسات الإسلامية. ولا شك أن التباين ليس بسيطًا بين تلك الإحصاءات، غير أنه يمكنني القول من خلال إطلالة واسعة على تلك الإحصاءات، ومن خلال الوقوف على أوضاع المسلمين في جُلّ دول أوروبا ومعايشة تطوُّر نُمُوّ أعدادهم خلال السنوات العشرين الماضية إن الأعداد المذكورة تُقَارِب الواقع، إن شاء اللّه.





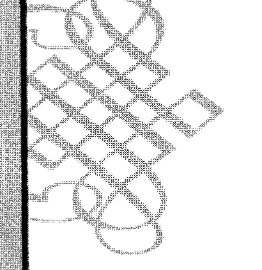
المسلمون في أوروبا الغربية

اسم البلد	عدد سكان البلد	عدد المسلمين
فرنسا	٥٦,٥٧٦,٠٠٠	٥,٥٠٠,٠٠٠
ألمانيا	٧٩,١١٣,٠٠٠	٣,٢٠٠,٠٠٠
بريطانيا	٥٧,٢٣٦,٠٠٠	١,٧٠٠,٠٠٠
إيطاليا	٥٧,٧٣٩,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠
هولندا	١٤,٨٠٥,٠٠٠	٩٠٠,٠٠٠
بلجيكا	٩,٩٢٨,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
السويد	٨,٥٢٦,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠
سويسرا	٦,٧٩٦,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠
أسبانيا	٣٨,٨٦٩,٠٠٠	٣٨٠,٠٠٠
النمسا	٧,٦٢٤,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠
اليونان	١٠,١٤٠,٠٠٠	٧٠٠,٠٠٠
الدانمارك	٥,١٣٠,٠٠٠	١٢٠,٠٠٠
فنلندا	٤,٩٧٤,٠٠٠	٤٠,٠٠٠
المجموع	٣٥٧,٤٥٦,٠٠٠	١٥,٨٤٠,٠٠٠

المسلمون في أوروبا الشرقية والبلقان

اسم البلد	عدد سكان البلد	عدد المسلمين
روسيا الاتحادية	١٤٧,٣٨٦,٠٠٠	٢١,٠٠٠,٠٠٠
أوكرانيا	٥١,٧٠٤,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
رومانيا	٢٣,١٥٢,٠٠٠	٠,١٢٠,٠٠٠
بلغاريا	٨,٩٧٦,٠٠٠	٢,٦٠٠,٠٠٠
بولندا	٣٧,٩٣٢,٠٠٠	٠,٠٢٠,٠٠٠
المجر	١٠,٥٩٠,٠٠٠	٠,٠٨٠,٠٠٠
روسيا البيضاء	١٠,٢٠٠,٠٠٠	٠,٠٨٠,٠٠٠
ملدوفيا	٤,٣٤١,٠٠٠	٠,٠٢٥,٠٠٠
دول البلطيق	٧,٧٠٠,٠٠٠	٠,٠٣٥,٠٠٠
ألبانيا	٣,٢٠٠,٠٠٠	٢,٤٠٠,٠٠٠
البوسنة	٤,٤٧٩,٠٠٠	٢,٢٠٠,٠٠٠
كوسوفا	٢,٢٨٣,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
مقدونيا	٢,١١١,٠٠٠	٠,٥٠٠,٠٠٠
كرواتيا	٤,٦٨٣,٠٠٠	٠,٤٠٠,٠٠٠
سلوفينيا	١,٩٤٨,٠٠٠	٠,٢٥٠,٠٠٠
صربيا	٩,٨٣٠,٠٠٠	٠,٨٠٠,٠٠٠
المجموع	٣٣٠,٥١٥,٠٠٠	٣٤,٦١٨,٠٠٠





شرائح الجالية المسلمة في أوروبا الغربية

يمكن تقسيم الجالية المسلمة في أوروبا اليوم إلى أربع شرائح.

أ - الشريحة الأولى: شريحة العُمَّال

ب - الشريحة الثانية: شريحة الكفاءات العلمية والاقتصادية والطلبة الدارسين

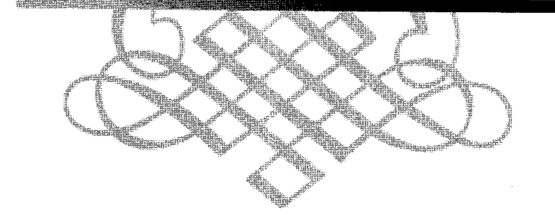
ج - الشريحة الثالثة: شريحة الأجيال الجديدة

هـ - الشريحة الرابعة: المسلمون من أصل أوروبي

المصدر:

د. أحمد الراوي، المسلمون في أوروبا... الواقع والمستقبل، مجلة العالمية (الصادرة عن الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية)، العدد (١٦٧)، صفر ١٤٢٥ هـ - أبريل ٢٠٠٤ م.





الفوارق الدينية في الغرب والعلاقة مع العالم الإسلامي

أ. عامر عبد المنعم

(مدير تحرير سلسلة «رؤى معاصرة»)

ملخص البحث

تعد الخريطة الدينية في الغرب عاملاً رئيسيًا لتفسير ما نراه من سياسات الغرب تجاه العالم الإسلامي، وبدون فهم تكوينات المسيحية الغربية لا يمكن فهم منطلقات السياسة الغربية واستراتيجياتها، فالغرب ليس كيانًا عقائديًا واحدًا، بل انعكس التثليث في النصرانية الغربية على الأرض لتتحول إلى ثلاثة مذاهب رئيسية، بينهم خلافات ضاربة في عمق التاريخ.

تأثير الدين على التوجهات السياسية الغربية يختلف من مذهب لآخر. كما تختلف حالة التدين في الكيانات الثلاثة؛ وفقًا لتصور كل مذهب، ومن الأمور المثيرة للتساؤل أن النصرانية التي تنتشر في «العالم الثالث» تتراجع في أرضها، خاصة في الغرب الكاثوليكي والبروتستانتي، فيما تشير المعلومات والتقارير إلى أن الإسلام هو الأسرع انتشارًا في الغرب.

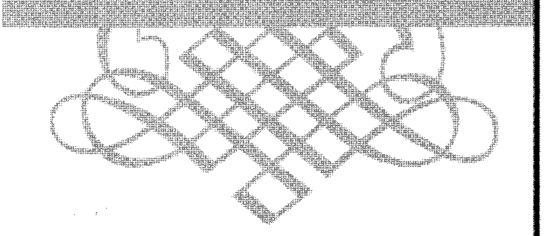
وإذا كان التنافس الداخلي بين المذاهب النصرانية لاستقطاب الأتباع لم يتوقف؛ فإن عمليات تنصير الأمم الأخرى، وخاصة الإسلامية، استمرت بدورها، ولكن بتفاوت بين المذاهب الثلاثة؛ فالتبشير البروتستانتي الآن متزايد، ويستغل التفوق الأمريكي كغطاء، في حين يتواصل التبشير الكاثوليكي، بينما يضعف التبشير الأرثوذكسي عالميًا بسبب ضعف وغياب النفوذ وينشط محليًا.

وتتباين مواقف الكيانات الثلاثة تجاه الإسلام، كما تتفاوت منطلقاتها العقدية والتاريخية في كراهيتها وعدائها للإسلام.

وكما يختلف الدور الذي يلعبه الدين في صياغة السياسة الخارجية الغربية؛ فإن الخلاف واضح بين الكيانات الثلاثة في تحركهم على مستوى العالم، ولكن المسيحية الغربية بكل مذاهبها لديها الرغبة في العدوان وحب الغزو، لذلك تعد الصليبية المعاصرة أخطر هجمة يواجهها الإسلام عبر تاريخه، خاصة مع غياب الحكم الإسلامي القادر على رد العدوان، ومع التطور الهائل في أسلحة التدمير التي تمتلكها الصليبية اليوم.

ومن الضروري أن يعمل المسلمون على الاستفادة من الخلافات المذهبية الغربية في المواجهة الحالية مع الحلف الأنجلوساكسوني، والسعي لإنهاء هيمنته على العالم الإسلامي، وذلك من أجل بناء النهضة الإسلامية المستقلة وغيرها من التحركات الواعية التي تخدم الأمة الإسلامية.





أفكار و مقتطفات

- بدون فهم تكوينات المسيحية الغربية لا يمكن فهم منطلقات السياسة الغربية واستراتيجياتها، وهذا يؤدي بدوره إلى عدم القدرة على وضع استراتيجيات للمواجهة قائمة على أسس علمية وواقعية صحيحة.

- استمرت الهيمنة البابوية على أوروبا بضعة قرون إلى أن حدث الصدع والانشقاق مع ظهور البروتستانتية في القرن السادس عشر، فانقسمت أوروبا الغربية إلى كاثوليك وبروتستانت. وبسبب الخلافات بين روما الكاثوليكية وبيزنطة الأرثوذكسية سقطت القسطنطينية، وفتحت أمام المسلمين؛ حيث رفض الغرب التابع للبابوية أي مساعدة لإخوانهم البيزنطيين.

- لم تتفق المذاهب النصرانية في العالم حتى الآن على طبيعة الإله الذي يعبدون. هل هو لاهوت أم ناسوت؟ أم الاثنين معًا؟، وهل المشيئة لاهوتية أم ناسوتية؟ أم الاثنين معًا؟ - تعالى الله عما يقولون-، وحول هذه الأسئلة عُقدت مجامع ومؤتمرات، ووقعت خلافات وخصومات، وأزهقت أرواح في صدامات ومحارق تمتلئ بها كتب التاريخ الأوروبي.

- في دول المحور البروتستانتي الأنجلوساكسوني بريطانيا وأمريكا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا تعتبر اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية، وحيثما توجد الإنجليزية تجد المذهب البروتستانتي هو الغالب على مسيحيي هذا البلد.

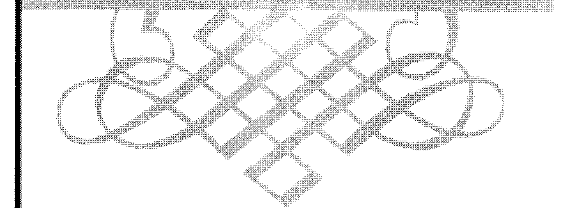
- تبدو روسيا وكأنها حامية الأرثوذكس؛ إذ رغم الشيوعية فإن موسكو ترى نفسها روما الثالثة، فنراها تتحرك بقوة دفاعًا عن القضايا الأرثوذكسية فتقف بجانب اليونان والصرب، سواء على الأرض أو في المحافل الدولية.

- الأرثوذكس هم أشد النصارى تدينًا، وهم أكثر المذاهب المسيحية ارتباطًا بالكنائس. ويتمسك الأرثوذكس بكنائسهم بشكل لافت، بخلاف المسيحيين في الدول الكاثوليكية والبروتستانتية، فالتدين في هذه الدول ضعيف ولم تعد الكنائس يزورها أحد.

- الإسلام هو الدين الأسرع انتشارًا في الغرب. ورغم الإجراءات التي اتخذتها الدول الغربية والمواقف العنصرية ضد المسلمين، فإن الإسلام ينتشر.

- تشير الإحصاءات إلى أن نسبة اعتناق البروتستانتية من داخل نصارى العالم مرتفعة، في حين تتراجع بالنسبة للكاثوليك، وتتراوح بين الضعف والثبات بالنسبة للأرثوذكس. وهذا الصعود البروتستانتي متوقع استمراره؛ نظرًا لاستمرار هيمنة الولايات المتحدة وقوة اقتصادها الذي يضخ المزيد لصالح الإرساليات الإنجيلية.

- حقق الكاثوليك انتشارًا واسعًا في إفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا، مستغلين الحملات الاستعمارية والانتشار الأوروبي في احتلال العالم؛ و أدخلت البابوية الكثير من شعوب البلاد المستعمرة في المسيحية، واستخدمت الوسائل التبشيرية في تنصير أمم عديدة مستغلة الفقر والحاجة.



- الملاحظ أن العدد الضخم للمسيحيين في العالم معظمه خارج أوروبا والغرب، وهذا الرقم الكبير الذي يفوق المليارين معظمه في المناطق التي احتلها الغرب، ونهبها ونصَّر شعوبها بالضغط والإكراه.

- الدول الكاثوليكية تعادي الإسلام، وتعمل على تقويضه، ويبدو هذا في معاداة كل ما يتعلق بالإسلام في السياسة والمجتمع، خارجيًّا وداخليًّا، ويقود الفاتيكان حملةً لإخراج المسلمين من دينهم وتنصيرهم؛ لفرض السلطة البابوية على العالم.

- منذ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية لم يعد للفاتيكان سلطة سياسية على الحكام، ولكن ليس معنى هذا اختفاء دوره تمامًا، فدوره الروحي قائم وبقوة، ولكن دوره السياسي انتُزِع منه ليبقى في أيدي المَلَكِيَّات والحكومات التي تختارها الشعوب.

- تتسم الكاثوليكية بعدم التسامح في تعاملها مع المخالفين، وتمتلئ كتب التاريخ بالممارسات الوحشية للكنيسة، سواء في حروبها الصليبية التي لم تكن ضد المسلمين فقط، وإنما ضد كل المخالفين من المذاهب النصرانية الأخرى، وهي التي ابتدعت حرق البشر أحياء، وتقطيع أعضائهم فيما عُرف بالقضاء على ما يسمى «الهرطقة».

- المسيحية الغربية بكل مذاهبها لديها الرغبة في العدوان وحب الغزو، لكن هذه الرغبة تعتمد على القوة العسكرية والسياسية المتاحة. فالطبيعة المحبة للعدوان غريزة متأصلة في العقلية الغربية، متوارثة منذ الإغريق، مرورًا بالرومان، وزادت بشاعة مع الحضارة الأوروبية الحديثة. لكن الرغبة في الغزو مرتبطة بالقدرة، والمذهب المسيحي المهيمن على الغرب.

- لم تتوقف الحروب الصليبية، ولكنها تأخذ أشكالاً جديدة، وتستخدم وسائل غير تقليدية. ولم تعد الحرب أو القوة العسكرية هي الأسلوب الوحيد للتعامل مع الإسلام والمسلمين، وإنما تعددت الوسائل التي تصبّ لتحقيق هدف خصوم الأمة في منع استعادة الأمة الإسلامية لقوتها، وإجهاض أي نمو أو بروز لقوة إسلامية تسعى للاستقلال عن الهيمنة الغربية وإقامة دولة إسلامية قوية.

- تختار الصليبية المعاصرة شعارات إنسانية لإضفاء مشروعية على خططها للهيمنة على الدول الإسلامية، مثل حقوق الإنسان وتحرير المرأة ونشر الديمقراطية. وترصد الميزانيات للإنفاق على بناء شبكات تتبنى التفسير الصليبي لهذه القضايا. مع استبعاد القرآن والسنة كمرجعية للمسلمين، وإحلال مواثيق الأمم المتحدة واتفاقات جنيف وغيرها بدلاً منهما.

- يجب استغلال حالة الفراغ الديني في الغرب، بتوصيل الرسالة الإسلامية إلى الشعوب. هذا يفيد في تثقيف الغربيين بحقيقة الإسلام وتبديد الأكاذيب التي تم غرسها في التربة الأوروبية لتشويه المسلمين، كما أن الدعوة هي أكثر الأساليب تأثيرًا في الرد على روح الصراع الغربية.

الفوارق الدينية في الغرب والعلاقة مع العالم الإسلامي

أ. عامر عبد المنعم : مدير تحرير سلسلة «رؤى معاصرة»

مقدمة:

لا يمكن بناء علاقة سليمة مع الدول الغربية تحقق مصالح الأمة بدون دراسة علمية وواقعية للغرب. وبسبب غياب مثل هذه الدراسات لا يستطيع المسلمون وضع استراتيجية ناجحة للتعامل مع هذا الكيان الذي يعادي الأمة في مجمله. ولهذا السبب لا تؤتي الجهود المتناثرة للنهضة في العالم الإسلامي ثمارها؛ إذ يتم إجهاضها أولاً بأول.

إن أي جهد لاستكشاف الغرب يُقابَل بجهد مضادّ خارجيًّا وداخليًّا يُفْشله، للإبقاء على صورة الغرب الإيجابية، وإبعاد الأنظار عن التناقضات داخله، وإعطاء صورة مغايرة للواقع على الأرض.

يعمل خصوم الأمة على استمرار جهلنا بحقيقة الخصم؛ لأن العلم يعني تلمس الطرق لإنهاء الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي.

تعد الخريطة الدينية في الغرب من القضايا المهمة التي تحتاج إلى دراسة ومتابعة؛ لكونها من العوامل الرئيسية التي تفسِّر ما نراه من سياسات الغرب تجاه العالم الإسلامي. بدون فهم تكوينات المسيحية الغربية لا يمكن فهم منطلقات السياسة الغربية واستراتيجياتها، وهذا يؤدي بدوره إلى عدم القدرة على وضع استراتيجيات للمواجهة قائمة على أسس علمية وواقعية صحيحة.

إن المسيحية الغربية ليست شيئًا واحدًا. ولا يتبع الغرب كنيسة واحدة، ولا ينخرط الغربيون في مذهب واحد. بل إن المذاهب تختلف بقدر اختلاف اللغات داخل الكيان الغربي. ما يفرق بين أتباع هذه المذاهب أكثر مما يجمعها. وتنعكس هذه الخلافات على صعيد العلاقات البينية وفي علاقات الدول الغربية بالخارج.

بالقدر الذي تقف فيه التقسيمات المذهبية الغربية وراء التحالفات الاستراتيجية الغربية؛ فإن الخلافات الدينية تسببت في صراعات وحروب دامية بين الغربيين أنفسهم، راح فيها الملايين عبر قرون، ولا زالت الخلافات المذهبية تقف وراء التناقضات والصراعات داخل بعض هذه البلدان.

يدور هذا البحث حول المذاهب المسيحية في الغرب، وتأثير الدين على التوجهات السياسية، ولا يتطرق إلى المذاهب المسيحية في باقي العالم؛ سواء في العالم الإسلامي، أو في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا.

إن المسيحية الغربية تختلف عن المسيحية في باقي العالم؛ إذ إن الحضارة الغربية القائمة على حب الصراع ونفي الآخر هي التي أثَّرت في المسيحية وليس العكس، وأنتجت منها ديانة محاربة تُضْفِي مشروعية على العنف والعدوان. ونود أن نلفت الانتباه إلى أن الاستنتاجات التي يصل إليها البحث في تناوله للدين في الغرب

لا تعني أنها مطلقة، وإنما هي رصد للاتجاه السائد دون نفي وجود استثناءات.

١- الخريطة المذهبية للنصرانية الغربية:

الغرب ليس كيانًا عقائديًا واحدًا. لقد انعكس التثليث في

جدول رقم (١)

مقارنة عامة بين العناصر الرئيسية للتدين الغربي

	البروتستانت	الكاثوليك	الأرثوذكس
السمة العامة	نفعية	سلطوية	عقدية
مناطق التركز	أمريكا وأوروبا الغربية وأستراليا	فرنسا، إيطاليا، أسبانيا وجنوب شرق أوروبا	روسيا، اليونان، صربيا والبلقان
النسبة لسكان العالم	٪٥,٨	٪١٧,٣٣	٪٣,٤٢
اللغة	الإنجليزية	مختلفة	مختلفة
نوع الملتزمين سياسيًا	نخبة	مفكرون \ أكاديميون	شعوب
الموقف من الإسلام	حادّ \ نخبوي	حاقد \ شعبي	عدائي محليًا \ عقدي
طبيعة الخصومة مع الإسلام	مصلحية \ هيمنة	تنافس حول السيادة على العالم	المعتقدات \ الحقوق المحلية
الالتزام الديني	ضعيف	مظهري	قوي
نسبة الارتداد عن الدين	متوسطة	متوسطة	قليلة
التحول لدين آخر	مرتفع	متوسط	ضعيف
نسبة الانتشار بين المذاهب النصرانية الأخرى	سريعة	سالبة	ضعيفة
نسبة الانتشار عالميًا (التبشير)	متزايدة	متوسطة	التركيز محليًا
تأثير الدين على العمل السياسي	متزايد	مستمر	محلي
التأثير الديني على السياسة الخارجية	قوي	ضعيف	قوي \ قضايا الأرثوذكس
التحرك العالمي	استمرار الهيمنة البروتستانتية	التنصير ونشر الكاثوليكية	الحفاظ على الوجود وحماية المصالح
الرغبة في الغزو العسكري	قوية	تاريخية	ضعيفة دوليًا وقائمة إقليميًا

إعداد المركز العربي للدراسات الإنسانية - الباحث

النصرانية الغربية على الأرض لتتحول إلى ثلاثة مذاهب رئيسية. أدى هذا الانقسام إلى الخلافات والانشقاقات بين الغربيين عبر العصور، وساهم في تغيير الحدود الجغرافية، وإنشاء التكوينات السياسية التي أسفرت في النهاية عن شكل الغرب المعاصر.

منذ اعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين للنصرانية في بداية القرن الرابع الميلادي لم تستقر النصرانية على مذهب واحد، لقد اختفت مذاهب وبرزت أخرى؛ وفقًا لمعتقدات كل إمبراطور. في البداية كانت الأريوسية هي المذهب الأكثر انتشارًا، وهذا المذهب. كان يرفض تأليه المسيح، ولكن بعد المجمع المسكوني الأول في ٢٠ مايو ٣٢٥م الذي عقده الإمبراطور لتوحيد عقيدة الإمبراطورية حُورِبَ هذا المذهب وقُضِيَ عليه في أوروبا، وبقي في الشام وشمال إفريقيا وفي شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس)، و«شن الإمبراطور الأرثوذكسي ثيودوسيوس الأول حملة عنيفة سنة ٣٨٣ وسنة ٣٨٤ للقضاء على معاقل الأريوسية في النصف الشرقي من الإمبراطورية»[١].

وقد أرجع بعض المؤرخين دخول الإسلام إلى الشام وشمال إفريقيا والأندلس إلى تقبل الأريوسيين بما هو أقرب لمعتقدهم. لقد «كانت النتيجة أن رحبت الكنائس الشرقية المخالفة بالفاتحين المسلمين الذين طرقوا بلادهم»[٢].

عندما فقد آخر إمبراطور روماني سلطته عام ٤٧٦م انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين: الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية، هذه الأخيرة استولى عليها رؤساء القبائل الجرمانية، وتقسمت إلى ممالك صغيرة، بينما بقيت الإمبراطورية الشرقية فيما يعرف بالإمبراطورية البيزنطية حتى عام ١٤٥٣م، حينما استولى العثمانيون على عاصمتها القسطنطينية (إسطنبول).

من المهم معرفة أنه «حين اعتنق قسطنطين المسيحية لم يكن هناك أكثر من ١٠٪ من سكان نصف الإمبراطورية الغربي يدينون بالمسيحية، وبسبب الارستقراطية الرومانية الوثنية، أُرغم قسطنطين على بناء العاصمة المسيحية الجديدة التي عرفت باسم القسطنطينية في سنة ٣٣٠م»[٣].

كانت الكاثوليكية هي ديانة الإمبراطورية، وكانت القيادة الكنسية تخضع للإمبراطور، وعندما انقسمت انقسمت معها الكنيسة إلى شرقية أرثوذكسية وغربية كاثويكية. وبينما ظلت الكنيسة الشرقية خاضعة للإمبراطور البيزنطي قويت الكنيسة الرومانية اللاتينية، وبدأت شيئًا فشيئًا تهيمن على مقاليد الأمور في الجزء الغربي من أوروبا.

«بطلوع شمس العقد الرابع من القرن الخامس لم يكن للإمبراطور الروماني في الغرب أي نفوذ خارج إيطاليا، وبدأت الممالك الجرمانية تظهر في غرب أوروبا. وفي العقد السابع من القرن الخامس، لم يعد يوجد في إيطاليا حاكم يحمل لقب الإمبراطور الروماني»[٤].

ومع ضعف الأباطرة وعجزهم عن التصدي لهجمات القبائل الجرمانية انتزعت الكنيسة القيادة في العصور الوسطى، وجمعت بين السلطة السياسية والسلطة الدينية. و«اعتبرت نفسها بذلك المهيمنة على العالم كله، والسلطة الوحيدة المخوَّلة بتقديم مفهومها الوحيد عن الإيمان لجميع البشر»[٥].

واستمرت الهيمنة البابوية على أوروبا بضعة قرون إلى أن حدث الصدع والانشقاق مع ظهور البروتستانتية في القرن السادس عشر، فانقسمت أوروبا الغربية إلى كاثوليك وبروتستانت. وبسبب الخلافات بين روما الكاثوليكية وبيزنطة الأرثوذكسية سقطت القسطنطينية، وفتحت أمام المسلمين؛ حيث رفض الغرب التابع للبابوية أي مساعدة لإخوانهم البيزنطيين.

(١) نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط: قصة حضارة البداية والنهاية، الجزء الأول، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٧٧.
(٢) نورمان ف. كانتور، المرجع السابق، ص٧٨.
(٣) نفس المرجع.
(٤) نفس المرجع.
(٥) الإرهاب الغربي، روجيه جارودي، الجزء الأول، الشروق الدولية ٢٠٠٤، ص١١١.

رغم وجود مذاهب مسيحية كثيرة؛ فإننا نركِّز في هذا البحث على الفِرَق الثلاث التي تشكِّل المسيحية الغربية. الطائفة الأولى هم الكاثوليك الذين يخضعون لقيادة واحدة تتمثل في بابا الفاتيكان.

الطائفة الثانية: هم البروتستانت، وأهم ما يميزهم أنهم لا يخضعون إلى كنيسة واحدة وهم فِرَق وكنائس كثيرة ومتعددة.

الطائفة الثالثة: هم الأرثوذكس وهم وسط بين الطائفتين السابقتين. إذ لكل دولة كنيسة يخضع لها الأتباع حسب الجنسية.

يتركز الكاثوليك بشكل أساسي في جنوب وشرق أوروبا، وتعد فرنسا وإيطاليا وأسبانيا من قلاع الكاثوليكية في الغرب، وقد انتشرت الكاثوليكية بفعل الاستعمار والتبشير في أمريكا اللاتينية وإفريقيا جنوب الصحراء وآسيا.

يتركز البروتستانت في الجزء الغربي والشمالي من أوروبا، وفي أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا. بينما يتركز الوجود الأرثوذكسي في روسيا واليونان وصربيا.

إن الخلافات بين هذه المذاهب ضاربة في عمق التاريخ.

أهم هذه الخلافات ما يتعلق بطبيعة الإله، فلم تتفق المذاهب النصرانية في العالم حتى الآن على طبيعة الإله الذي يعبدون. هل هو لاهوت أم ناسوت؟ أم الاثنين معًا؟، وهل المشيئة لاهوتية أم ناسوتية؟ أم الاثنين معًا؟ - تعالى الله عما يقولون-، وحول هذه الأسئلة عُقدت مجامع ومؤتمرات، ووقعت خلافات وخصومات، وأُزهقت أرواح في صدامات ومحارق تمتلئ بها كتب التاريخ الأوروبي.

ومن باب العلم بالشيء يمكن تلخيص أهم هذه الخلافات على النحو التالي:

يعتقد الكاثوليك أن للمسيح طبيعتين، ومشيئتين، وأن الروح القدس منبثق من الأب والابن.

ويعتقد الروم الأرثوذكس (القسطنطينية واليونان، وروسيا) أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وأن الروح القدس منبثق من الأب فقط.

يعتقد البروتستانت بالطبيعتين والمشيئتين، وبأن الروح القدس منبثق من الأب والابن، مثل الكاثوليك، ولكن يختلفون عنهم في أنهم يرفضون سلطة البابا، ويرفضون الاعتراف على يد الكاهن، وأن مجرد الإيمان بالمسيح يكفي لتكفير خطاياهم، وأمور أخرى تصبّ في مجملها في عدم وجود وسيط بينهم وبين الرب.

النسبة لسكان العالم:

تشير الإحصاءات[٦] إلى أن نسبة الذين يعتنقون المسيحية ٣٣،٣٪ من سكان العالم، أي بما يزيد عن المليارى نسمة. منهم ١٧،٣٣٪ كاثوليك (حوالي ١،١٣ مليار نسمة)، ويعتنق ٥،٨٪ من سكان العالم المذهب البروتستانتي (حوالي ٣٧٨ مليون نسمة)، ويعتنق المذهب الأرثوذكسي ٣،٤٢٪ من سكان العالم (حوالي ٢٢٣ مليون نسمة).

رسم يوضح نسبة المذاهب لإجمالي المسيحيين في العالم



كاثوليك: ١،١٣ مليار نسمة.
بروتستانت: ٣٧٨ مليون نسمة.
أرثوذكس: ٢٢٣ مليون نسمة.
مذاهب أخرى: ٣٦٩ مليون نسمة.

(٦) الكتاب السنوي للمخابرات الأمريكية ٢٠٠٧م fact book .

إن إعادة قراءة هذه الأرقام يعطي دلالات مهمة تفيد عند دراسة خريطة الأديان في العالم. من المعروف أن المسيحية الغربية تختلف عن المسيحية في دول العالم الثالث. والعِرْق الغربي يختلف عن باقي الأعراق حتى المنتمين لمذهب واحد. من هنا فإن القول بأن ثلث سكان العالم مسيحيون وتابعون للغرب لا يمكن التسليم به.

إن مجموع سكان الغرب الذي يشمل أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا بما فيه من ديانات أخرى يبلغ أقل من ١٤٪ من سكان العالم.

الذي يزيد حصة المسيحية في مجموع سكان العالم هو ضم معتنقي النصرانية في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا، ومن المعروف أن مواقف الشعوب في هذه الدول ليست مؤيدة للغرب. من ضمن قائمة أكبر ١٠ دول بها مسيحيون في العالم، من حيث عدد السكان، توجد دول لا تنتمي للغرب ولا تحسب عليه مثل البرازيل (١٩٠ مليون نسمة، ٨٨٪ منهم مسيحيون) والمكسيك (١٠٨ مليون، منهم ٨٥٪ مسيحيون) والفلبين (٩١ مليون، منهم ٩٢٪ مسيحيون)، ودولتان معاديتان للغرب هما الصين (١,٣ مليار نسمة، منهم ٣٪ مسيحيون) وروسيا (١٤١ مليون، منهم ١٥: ٢٠٪ مسيحيون أرثوذكس والباقي أقليات مختلفة).

اللغة:

تلعب اللغة دورًا كبيرًا في العلاقة بين الشعوب، وتقوم بدور فعَّال في تقوية الروابط والتواصل، وإذا ارتبطت اللغة بالعقيدة الدينية فإنها تعمل كآلية على نشر هذه العقيدة، هذا يحدث مع المذهب البروتستانتي دونًا عن باقي المذاهب النصرانية. فالظاهرة اللافتة للنظر أن معظم الذين يعتنقون البروتستانتية يتحدثون الإنجليزية، حتى «كان الاقتناع بأن الحضارة الإنجليزية تسمو فوق أية حضارة أخرى مرتبطًا بشكل وثيق مع فكرة أن الإنجليز هم شعب الله المختار، ففي الشئون الدولية كان لهذا جانبان، فقد كانت حالة من يتحدى الرب يتحدى إنجلترا، أو حالة من يتحدى إنجلترا إنما يتحدى الرب».[٧]

ففي دول المحور البروتستانتي الأنجلو ساكسوني بريطانيا وأمريكا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا تعتبر اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية، وحيثما توجد الإنجليزية تجد المذهب البروتستانتي هو الغالب على مسيحيي هذا البلد. كل الدول التي استعمرتها بريطانيا وتتحدث الإنجليزية -كلغة رسمية- يغلب على المسيحيين بها المذهب البروتستانتي، ولم يحدث تغير رغم حملات التبشير الكاثوليكي. هذا موجود في جنوب إفريقيا، وغانا وغيرها.

بالنسبة للكتلة الكاثوليكية لا توجد لغة موحدة، وإنما لكل دولة اللغة الخاصة بها. ولم تستطع البابوية أن تفرض اللغة الإيطالية على باقي الكاثوليك. ونفس الحال مع معتنقي الأرثوذكسية؛ إذ لا تجمعهم لغة واحدة، ولكل دولة لغتها الرسمية الخاصة بها.

ثانيا: التأثير الديني على التوجهات السياسية:

يختلف تأثير الدين على التوجهات السياسية من مذهب لآخر. يبدو التأثير الديني في الدول البروتستانتية على النُّخَب دون الشعوب. ويتجلى هذا في المواقف السياسية الداخلية والخارجية، وإذا أخذنا الولايات المتحدة نموذجًا سنجد أن الدين يلعب دورًا محوريًّا في تشكيل الحياة السياسية، وهو حاضر في المعارك الانتخابية، ويتصدر المتديِّنون المشهد السياسي. وسنلمس أيضًا أن القضايا الاجتماعية التي تستقطب اهتمام الجمهور هي القضايا ذات البعد الديني مثل الإجهاض، وتدريس الدين في المدارس، والدعم الحكومي للجمعيات الدينية، وتدريس نظرية داروين.

وفي الجانب الكاثوليكي فإن الالتزام الديني يبدو واضحًا لدى المفكرين والأكاديميين والقادة السياسيين، ويكاد يختفي عند الشعوب. ويسيطر التعصب على قطاعات واسعة من المفكرين والأكاديميين والقادة السياسيين. فهم الذي يُظهرون

(٧) الشعب المختار، الأسطورة التي شكلت إنجلترا وأمريكا، الشروق الدولية، ٢٠٠٣م، ص ٢٥.

المواقف العدائية تجاه الإسلام، والتعصب هنا له بُعْد ثقافي وتاريخي وعقدي وغير مرتبط بالتدين الشخصي لأي منهم، كما أن الدين لا يظهر في الحياة السياسية والمعارك الانتخابية.

ونقرر ملاحظة مهمة، وهي أن إيطاليا وأسبانيا على وجه الخصوص يبدو فيهما التعصب، ربما أكثر من باقي الدول الكاثوليكية، إيطاليا لكونها مقرًّا للفاتيكان وأسبانيا بسبب العداء التاريخي والحروب التي دارت في الأندلس.

أما في الكتلة الأرثوذكسية فإن الالتزام الديني يأخذ بعدًا شعبيًّا. ويتراجع دوره نخبويًّا ويغيب عن القيادة السياسية، وهذا التدين الشعبي هو الذي دفع حكومات هذه الدول حتى وهي شيوعية إلى التحرك والدفاع عن قضايا مرتبطة بالوجود الأرثوذكسي، خاصة في البلقان. وتبدو روسيا وكأنها حامية الأرثوذكس؛ إذ رغم الشيوعية فإن موسكو ترى نفسها روما الثالثة، فنراها تتحرك بقوة دفاعًا عن القضايا الأرثوذكسية، فتقف بجانب اليونان والصرب سواء على الأرض أو في المحافل الدولية.

حالة التدين:

تصوُّر الغربيين للدين يختلف عن تصور المسلمين، ونفس الأمر بالنسبة للتدين الشخصي. عدم تبين نقاط الاختلاف يجعل البعض يفهم أشياء على غير حقيقتها، وبالتالي يصل إلى استنتاجات لا تكون دقيقة. وأيضًا لا يمكن أن ننظر إلى صورة الدين والتدين على أنها صورة واحدة في الغرب. فالصورة في أوروبا تختلف عنها في أمريكا، وصورة الكاثوليك في أوروبا تختلف عن الكاثوليك في أمريكا. يختلف الموقف من الدين عند السياسيين في أوروبا عنه عند السياسيين في أمريكا. وحالة الارتداد عن المسيحية في أوروبا تختلف عنها في أمريكا.

تختلف حالة التدين في الكيانات الثلاثة وفقًا لتصور كل مذهب. ويمكن القول: إن الأرثوذكس هم أشد النصارى تدينًا، وهم أكثر المذاهب المسيحية ارتباطًا بالكنائس. ويتمسك الأرثوذكس بكنائسهم بشكل لافت، بخلاف المسيحيين في الدول الكاثوليكية والبروتستانتية، فالتدين في هذه الدول ضعيف، ولم تعد الكنائس يزورها أحد.

إن ظاهرة بيع الكنائس لا نراها في الدول الأرثوذكسية، ولكنها موجودة ويُعلن عنها دومًا في الدول الكاثوليكية والبروتستانتية؛ حيث تتحول إلى متاحف ومتاجر ومساجد في بعض الأحيان.

إن «أكثر من ١٦٠٠ كنيسة، أي ١٠٪ من مجموع الكنائس في بريطانيا صُنِّفَتْ رسميًّا على أنها زائدة عن الحاجة.. في ألمانيا من المقرر إقفال أو إعادة استعمال نحو ١٠٠ كنيسة لأغراض أخرى. إن عددًا كبيرًا تحول إلى مقاهٍ أو قاعات حفلات موسيقية، أو مستودعات أو شقق فخمة.. ثمة مدرسة سيرك في كنيسة القديس بولص السابقة في بريستول في إنجلترا. وقد غنت مادونا في باراديسو، وهي كنيسة قديمة تم تحويلها إلى نادٍ ليليّ في أمستردام. وفي روما يطيب لرواد المطاعم تناول العشاء في ساكرو إي بروفانو، وهو مطعم شعبي في وسط المدينة داخل كنيسة، كما أُعيد ترميم كنيسة القديسة مريم المتداعية في دبلن لتصبح مطعمًا فاخرًا».(٨)

لكن لا يمكن رصد التدين في هذه البلاد وفق مقاييسنا نحن المسلمين. أي بالتردد على الكنائس مثلاً، أو بأداء الشعائر، وإن كان هذا مهمًّا؛ لأن فكرة الدين في الغرب مختلفة؛ إذ إن الدين الغربي تم تبسيطه إلى درجة رفعت عنه التكاليف.

على سبيل المثال فإن فكرة الخلاص لم تعد تعني في البروتستانتية أكثر من حب المسيح. والبروتستانت يعتقدون أن «التبرير بالإيمان وليس بالأعمال» أي أن الخلاص يتم بمجرد الإيمان بيسوع، ولا يوجد أي تكاليف. ونظرية مارتن لوثر عن «الخلاص بالإيمان لا بالأعمال الصالحات قد قَوَّضَت دعائم سلطة رجال الكهنوت»(٩) الذين كانوا يتربحون من كونهم وسطاء للمغفرة وتكفير الخطايا.

من هنا فإن الشخص يمكن أن يفعل كل الموبقات،

(٨) دور جديد للكنائس، نيوزويك الطبعة العربية، ٢٧ فبراير ٢٠٠٧

(٩) ويل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد السادس، ص ٣١١

ويكون متدينًا؛ لأن المسيح كفّر عنه الخطايا كما يعتقدون. بل إن مارتن لوثر يرى إنه «عندما يغوينا الشيطان بإلحاح مزعج، فقد يكون من الحكمة أن نستسلم لإرائه ونقترف ذنبًا أو اثنين.. ولا بد للمرء أن يقترف أحيانًا ذنبًا؛ كراهية واحتقارًا للشيطان حتى لا يعطيه الفرصة لكي يجعله يشعر بتأنيب الضمير على أشياء لا تستحق الذكر».(١٠)

نسبة الارتداد عن الدين:

من الأمور المثيرة للتساؤل أن النصرانية التي تنتشر فيما يطلق عليه «العالم الثالث» تتراجع في أرضها، خاصة في الغرب الكاثوليكي والبروتستانتي. مع ثباتها في الدول الأرثوذكسية. تشير الأرقام إلى أن الكاثوليكية تعاني من انفضاض قطاعات من أتباعها في أوروبا وارتدادهم عنها. يخرج الأوروبيون الكاثوليك عن المسيحية بنِسَب مرتفعة. في الغرب البروتستانتي تقل النسبة إلى حدٍّ ما لكنها متزايدة، السمة الغالبة للمرتدين عن المسيحية في أوروبا أنهم يظلون بلا دين، بينما ينضم المرتدون عن المسيحية في أمريكا إلى الجماعات الروحية وإلى الإسلام.

فيما يلي نسبة المرتدين عن المسيحية(١١) من دول مختلفة من الكتلتين الكاثوليكية والبروتستانتية تشير إلى أن ترك المسيحية والعيش بلا دين باتت ظاهرة متزايدة:

كندا	١٦٪
فنلندا	١٣,٥٪
فرنسا	٤٪
ألمانيا	٢٨,٣٪
أيرلندا	٣,٥٪
هولندا	٤١٪
بريطانيا	٢٣,١٪
أمريكا	١٠٪
أستراليا	١٥,٣٪

وهذه الأرقام رسمية، وهي تقل عن الأرقام الحقيقية التي تكشفها بحوث ودراسات ميدانية. إذ تشير الدراسات إلى أن «الذين خرجوا من المسيحية في فرنسا حتى ١٩٩٨م ويعيشون بلا ديانة يتجاوزون نصف الفرنسيين»(١٢). وتصل النسبة إلى ٩٠٪ من الهولنديين. وفي أمريكا فإن «الظاهرة في الازدياد، ففي عام ١٩٥٧م كانت ٢,٦٪ وفي عام ١٩٩٤م نمت النسبة إلى ٩,٢٪ من السكان»(١٣) أي أن نسبة الـ ١٠٪ كانت منذ عقد من الزمان. وهكذا يمكن القياس على ذلك في باقي الدول.

لكن الوضع في الدول الأرثوذكسية يختلف. الارتداد موجود ولكنه قليل. فإذا استبعدنا روسيا؛ بسبب عدم وجود دراسات عن الديانات بها لأسباب سياسية، وأخذنا صربيا واليونان كنموذجين نجد أن الإحصاءات تشير إلى تدني هذه النسبة. ففي صربيا (١٠ ملايين، منهم ٢,٦٪ فقط تشمل من لا يعرف لهم دين)، وفي اليونان (١٠,٧ مليون منهم ٩٨٪ أرثوذكس، ١,٣٪ مسلمون، و٠,٠٧٪ فقط للآخرين).

التحول لدين آخر:

تشير المعلومات والتقارير إلى أن الإسلام هو الدين الأسرع انتشارًا في الغرب. ورغم الإجراءات التي اتخذتها الدول الغربية والمواقف العنصرية ضد المسلمين فإن الإسلام ينتشر. لكن من الملاحظ أن الأمريكيين يعتنقون الإسلام أكثر من الأوروبيين، ربما لكون المذهب البروتستانتي أقرب إلى الإسلام من الكاثوليكية والأرثوذكسية، فهو يرفض وجود واسطة بين الإنسان والرب، ويرفض إعطاء الكنائس ورجال الدين أي سلطة متعلقة بالغفران.

وربما كان انتشار الإسلام وتراجع الكاثوليكية في القارة الأوروبية هو السبب الذي دفع البابا بندكت السادس عشر إلى أن يبدأ بالتحريض ضد الإسلام والنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- في محاضرته الشهيرة في ألمانيا لإثارة العداوات التاريخية، وتحريض الغربيين. فالبابا استشهد بمناظرة بين

(١٠) المرجع السابق، ص ٣١٠

(١١) الكتاب السنوي للمخابرات الأمريكية ٢٠٠٧م fact book .

(١٢) لوموند ديبلوماتيك الطبعة العربية، عدد سبتمبر ٢٠٠١م.

(١٣) مايكل كوربت وجوليا كوربت، الدين والسياسة في الولايات المتحدة، الجزء الثاني، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢م، ص٦٥.

إمبراطور بيزنطي ومسلم فارسي، رغم ما بين روما وبيزنطة من عداء، وما صدر من حرمان لأسقف القسطنطينية.

نسبة الانتشار بين المذاهب النصرانية الأخرى:

من الملاحظ أن التنافس الداخلي بين المذاهب النصرانية لاستقطاب الأتباع لم يتوقف. قام بذلك الكاثوليك مثلهم مثل الأرثوذكس وأيضًا البروتستانت. وكان التفوق يعود إلى القدرة العسكرية في البداية، ثم انتقل إلى أساليب أخرى بعد أن أنهكت الحروب كل الأطراف.

لقد «أقدم الأباطرة الرومان المسيحيون على إيقاع الأذى، وإنزال الاضطهاد العنيف بالمسيحيين الذين يخالفونهم المذهب. وشهدت الإمبراطورية من فنون التعذيب وقساوته في عصرها المسيحي مع المسيحيين، ما لم تعرفه في عصرها الوثني، ليس فقط من جانب النظام السياسي تجاه الناس، بل من جانب رجال الدين الذين يساندهم هذا النظام لمصلحته السياسية، ويساندونه هم لمصالحهم الدنيوية، وإعلاء شأن مذهبهم، ضد إخوانهم الذين يعارضونهم الرأي».[١٤]

استغل الكاثوليك الحروب الصليبية لكَثْلَكَة شعوب أوروبية لم تكن اعتنقت النصرانية، وانخرط الأوروبيون في حروب لعشرات السنين بين الكاثوليك والبروتستانت، أشهرها حرب الثلاثين عامًا. ولازلنا نرى حتى اليوم بقايا هذه الحروب في الصدام في أيرلندا الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت.

استغل الكاثوليك الحروب الصليبية لنشر الكاثوليكية، واستطاعوا أن يضموا موارنة لبنان إلى البابوية، رغم خلافهم في قضية المشيئة الواحدة، ولازالوا مرتبطين بالفاتيكان حتى اليوم (يرى المارون أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة).

استغل الكاثوليك الحروب الصليبية لكثلكة شعوب أوروبية لم تكن اعتنقت النصرانية.

الوضع الآن تغير؛ إذ تدور المنافسة بطرق عديدة وبوسائل سلمية، لكن ما يلفت الانتباه أن الإرساليات البروتستانتية، خاصة مع هيمنة المذهب سياسيًا على الغرب، استطاعت أن تقتطع من الكعكة الكاثوليكية، وتستقطب الكثير من الكاثوليك، خاصة في أمريكا اللاتينية التي كانت تحت سيطرة كاملة للفاتيكان. وتشير الإحصاءات إلى أن نسبة اعتناق البروتستانتية من داخل نصارى العالم مرتفعة، في حين تتراجع بالنسبة للكاثوليك، وتتراوح بين الضعف والثبات بالنسبة للأرثوذكس. وهذا الصعود البروتستاتي متوقع استمراره؛ نظرًا لاستمرار هيمنة الولايات المتحدة وقوة اقتصادها الذي يضخ المزيد لصالح الإرساليات الإنجيلية.

في أول زيارة له إلى بلد أمريكي لاتيني منذ توليه البابوية في أبريل ٢٠٠٥م عبَّر البابا بندكت السادس عشر عن قلقه من انخفاض عدد أعضاء الكنيسة الكاثوليكية في المنطقة بشكل كبير، وحسب دراسة جديدة يتبع ٦٤٪ من البرازيليين حاليًا الكنيسة الكاثوليكية، مما يعني انخفاضًا بنسبة ١٠٪، وذلك بالتوازي مع ارتفاع ملحوظ في عدد أتباع الكنائس الإنجيلية. وقال بندكت: إن «تحول الكاثوليكيين إلى الكنائس الإنجيلية أكبر هاجس لنا، وعلينا إيجاد حل مناسب»[١٥] .

نسبة الانتشار عالميًا (التبشير):

حقق الكاثوليك انتشارًا واسعًا في إفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا مستغلين الحملات الاستعمارية والانتشار الأوروبي في احتلال العالم؛ ولأن الدول الأوروبية الكاثوليكية كانت هي الأكثر عددًا وانتشارًا؛ فقد أدخلت البابوية الكثير من شعوب البلاد المستعمرة في المسيحية، واستخدمت الوسائل التبشيرية في تنصير أمم عديدة مستغلة الفقر والحاجة. وبسبب التنافس مع البروتستانت «كسبت

(١٤) د. رأفت عبد الحميد، الإمبراطورية البيزنطية: العقيدة والسياسة، الجزء الأول، دار قباء، ط١ عام ٢٠٠٠م القاهرة، ص ٥٠.

(١٥) الموقع العربي لـ BBC على الإنترنت في ١٠ مايو ٢٠٠٧م تحت عنوان البابا يحثّ البرازيل على نبذ الإجهاض.

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الأنصار في العالم الجديد أكثر مما سلبهم منها الإصلاح الديني في العالم القديم»[١٦].

لكن لم ينجح التبشير في قلب العالم الإسلامي، وعجزت الدول الاستعمارية عن تنصير المسلمين، رغم استمرار احتلال الدول الإسلامية فترات طويلة، وهذا ما دفع التبشير إلى البحث عن نقاط الضعف والمناطق الرخوة لتنصير أهلها. فالملاحظ أن العدد الضخم للمسيحيين في العالم معظمه خارج أوروبا والغرب، وهذا الرقم الكبير معظمه في المناطق التي احتلها الغرب، ونهبها ونصّر شعوبها بالضغط والإكراه.

لكن التبشير البروتستانتي الآن متزايد، ويستغل التفوق الأمريكي كغطاء لنشر المذهب البروتستانتي في العالم، في حين يتواصل التبشير الكاثوليكي، بينما التبشير الأرثوذكسي يركز على العمل محليًّا.

الموقف من الإسلام:

تتباين مواقف الكيانات الثلاثة تجاه الإسلام، ففي الدول البروتستانتية يتسم الموقف بأنه حادّ ومن النخبة دون الشعوب، فالنخبة تناصب الإسلام العداء، وتتوالى التصريحات المعادية للإسلام، وأصبح من المعتاد بروز مواقف معادية لتشويه المسلمين. ويبدو هذا في تصريحات الدعاة التلفزيونيين مثل بات روبرتسون وجيري فالويل، وسياسيين مثل جون أشكروفت وغيره من المحافظين الجدد. وتأييد هذه النُّخَب للحرب ضد الإسلام واضح، بل إنهم يحرضون على المزيد. لكن في المقابل فإن الشعوب لا تتخذ ذات الموقف؛ إذ يغلب عليها التسامح مع الإسلام خاصة المحلي، بل إن عدم وجود التأييد الشعبي المعادي للإسلام كثيرًا ما يدفع من يسيئون للمسلمين – خاصة في وسائل الإعلام- إلى التراجع، والاعتذار في بعض الأحيان.

الوضع في الدول الكاثوليكية الأوروبية يختلف؛ إذ إن الموقف من الإسلام شعبي حاقد، وهذا ناتج عن الميراث التاريخي والثقافي الناتج عن الحروب الصليبية، والصدامات مع العثمانيين، والحروب في الأندلس، مع الشحن الثقافي ضد الإسلام منذ العصور الوسطى.

إن محاربة الإسلام رسميًّا وبتضافر جماعي، بدأت مع الحروب الصليبية التي شنَّها البابا أوروبان الثاني، اليهودي الأصل، الذي أعلن قيامها باسم الرب في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥م. كانت الحروب الصليبية «محاولة من جانب البابا في صراعه مع الإمبراطورية ليمنح نفسه سلطانًا على شعوب أوروبا وقادتها، من ملوك وأباطرة وأكليروس؛ ليعيد للعالم المسيحي وحدته.. وتحويل الوطن العربي إلى وطن أوروبي، فيما وراء البحار، والعرب إلى لاتين كاثوليك، وذلك عن طريق السيف»[١٧].

ولم تتوقف محاولات البابوية عن «محاربة الإسلام منذ ذلك الوقت، وإن اختلفت المسميات وتنوعت الأساليب، إلى أن كان المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٥م، فقد أسفر هذا المجمع عن قرارين أساسيين لا سابقة لهما في التاريخ فيما يتعلق بالديانات غير المسيحية، وهما تبرئة اليهود من دم المسيح، وإقرار مبدأ التحاور مع الإسلام لاقتلاعه»[١٨].

كل هذا جعل الوعي الشعبي مشحونًا بالعداء تجاه الإسلام. يضاف إلى هذا طبيعة العقلية الغربية المحبة للصراع والكارهة للآخر؛ التي تجعل الشخص الغربي في عداء مع من حوله. وهذا العداء الشعبي للإسلام هو الذي يدفع قادة الغرب إلى اتخاذ مواقف عدائية على أرضية ثابتة من التأييد الشعبي تبعث على الاطمئنان.

بالنسبة للدول الأرثوذكسية فإن العداء للإسلام يتخذ موقفًا شعبيًّا، وقد أدى هذا العداء المتعصب في تواريخ سابقة إلى احتلال أراضي المسلمين في آسيا الوسطى والقوقاز. لكن مع الخلافات المذهبية مع الكاثوليك والبروتستانت وسعيهما لمنع استعادة

(١٦) ويل ديورانت، مرجع سابق، ص ٢٣١.

(١٧) د. زينب عبد العزيز، الفاتيكان والإسلام، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، ص١٣.

(١٨) المرجع السابق، ص١٤.

الأرثوذكسية لقوتها السابقة يدفع دولة مثل روسيا إلى مد جسور التعاون مع المسلمين لتقوية موقفها أمام خصومها. ورغم بعض الاشتباكات العسكرية مع الإسلام (الشيشان، وأفغانستان سابقًا)؛ فإن الروس ليس لديهم تطلعات معادية للدول الإسلامية في الوقت الراهن.

طبيعة الخصومة مع الإسلام:

تتسم كراهية البروتستانت للإسلام بأنها مرتبطة بالمصالح وحبّ الهيمنة، فالدول البروتستانتية قد تدخل في صداقات مع المسلمين من أجل مصالحها مثل السعودية، وتخوض حروبًا ضد أخرى (أفغانستان والعراق) من أجل استمرار الهيمنة على العالم، حتى في مواقفها مع الإسلاميين الذين يرفعون الشعارات الإسلامية؛ فإن دولاً مثل أمريكا وبريطانيا لا تتعامل مع الإسلاميين بنمط واحد من التعامل، فهي تحارب الإسلاميين الذين يريدون إقامة دولة إسلامية حقيقية تعيد للإسلام دوره كقائد للأمة، وتتعاون مع الإسلاميين الذين يحقِّقون مصالحها، ولا يعادون هيمنتها خارجيًّا وداخليًّا.

في المقابل فإن الدول الكاثوليكية تعادي الإسلام وتعمل على تقويضه، ويبدو هذا في معاداة كل ما يتعلق بالإسلام في السياسة والمجتمع، خارجيًّا وداخليًّا، ويقود الفاتيكان حملةً لإخراج المسلمين من دينهم وتنصيرهم لفرض السلطة البابوية على العالم.

أما الأرثوذكس فهم الأكثر عداءً للإسلام، وتنبع هذه الكراهية من منطلقات عقدية، لكن هذا العداء والتعصب الأرثوذكسي موجه أساسًا إلى الإسلام المحلي، ويبدو هذا الموقف المتعصب تجاه الجمهوريات الإسلامية التي تقع داخل روسيا مثل الشيشان والقوقاز والقرم؛ إذ يرفض الروس إعطاء مسلمي هذه البلاد استقلالهم، ويتحملون الاستنزاف الاقتصادي الضخم، ويتحملون الخسائر الجسيمة في الأرواح، دون التفريط في هذه البلاد.

ثالثًا: التأثير الديني على السياسة الخارجية:

في الدول البروتستانتية يلعب الدين دورًا محوريًّا في صياغة السياسة الخارجية؛ بسبب الارتباط والتداخل بين الدين والسياسة، عندما استقل الملك هنري الثامن عن البابوية بين عامي ١٥٢٩ و١٥٣٦م، وعيَّن نفسه رئيسًا للكنيسة الإنجليزية، وحتى اليوم في بريطانيا يعتبر الملك أو الملكة هو رئيس الكنيسة الإنجليكانية، وفي أمريكا لا توجد كنيسة تقود البروتستانت دينيًّا، وإنما ساسة متدينون، ورجال دين يعملون بالسياسة. فالظاهرة اللافتة أن «الكاثوليكية تصنع المسيحي، بينما بحسب البروتستانتية فإن المسيحيين هم الذين يصنعون الكنيسة»[١٩]. وهؤلاء المتدينون لهم أجندة دينية ينفِّذونها. وهذه النزعة الدينية في الدول البروتستانتية كان لها أكبر الأثر على قضايا المسلمين، إذ إن وعد بلفور عندما كانت بريطانيا قائدة هذا التكتل نتج عنه إعطاء فلسطين إلى اليهود. كما أن نقل الهيمنة من بريطانيا إلى الولايات المتحدة ترتب عليه استمرار وقوع معظم العالم الإسلامي في القبضة الاستعمارية البروتستانتية.

الوضع في الدول الكاثوليكية مختلف، فمنذ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية لم يعد للفاتيكان سلطة سياسية على الحكام. ولكن ليس معنى هذا اختفاء دوره تمامًا، فدوره الروحي قائم وبقوة، ولكن دوره السياسي انتُزع منه؛ ليبقى في أيدي المَلَكِيَّات والحكومات التي تختارها الشعوب. ولأن العلمانية غالبة على الشعوب الأوروبية؛ فإن الدين لا يظهر بشكل جلي كما هو في السياسة الخارجية للبروتستانت.

وإذا انتقلنا إلى الدول الأرثوذكسية فسنجد أن وجود الدين في السياسة الخارجية انتقائي. يكاد يكون قاصرًا على التكاتف للدفاع عن مصالح الأرثوذكسية؛ ونظرًا لأن النُّخَب والقيادات السياسية المتأثرة بالشيوعية لا تنطلق من الدين؛ فإن هذا التعصب الشعبي لا يظهر في السياسة الخارجية لهذه الدول.

---

(١٩) أندرو مولر، مختصر تاريخ الكنيسة، ط٤، مكتبة الإخوة، ٢٠٠٣م، ص ٤٦٦.

إذا جاز لنا أن نختار سمة يتميز بها السياسيون البروتستانت؛ فإننا يمكن أن نقول: إنهم نفعيون، يبحثون عن مصالحهم. لقد ارتبطت البروتستانتية في نشأتها بالأمراء والملوك أكثر من ارتباطها بالعامة. بدأت بالإقطاعيين والأمراء الذين طمعوا في أملاك الكنائس الكاثوليكية وثروات رجال الدين. «إن لوثر قد وجد معضديه وأعوانه بين أفراد الطبقات العليا بصفة خاصة، وقد اعترف بالأمراء كممثلين للشعب، ومنذ ذلك الوقت صار نفوذ الدولة أحد العناصر الرئيسية في تكوين الكنائس الإنجيلية»[٢٠].

اعتنق الأمراء البروتستانتية «وهم لا يتطلعون إلا إلى وضع الأملاك بين أيديهم وتحت ستار الإنجيل كانت نية الأمراء متجهة إلى سلب الكنائس فحسب.. واستطاعوا أن يستولوا على ممتلكات الكنيسة، وتقاسموها فيما بينهم»[٢١]. لقد «كانت الكنيسة الألمانية أغنى الكنائس في العالم المسيحي، ويقدر البعض أن ما يقارب من ثلث الأراضي في البلاد كانت بين أيدي الكنيسة»[٢٢].

لقد استمر الارتباط بين الأمراء والإقطاعيين والنخب الحاكمة بالمذهب البروتستانتي إلى الآن، وإليه يرجع علو الأثرياء وسيطرة الرأسمالية المتغولة في أمريكا والغرب.

فالدين مرتبط برأس المال. بل إن الرأسمالية الجشعة تستمد مشروعيتها من المذهب البروتستانتي وملتصقة به. تأتي النظريات التي تقف وراء تحكم رأس المال والشركات العابرة للجنسيات من المعسكر البروتستانتي. وهذا المعسكر هو الذي يعمل على عبادة رأس المال. وتبدو النفعية في أوضح صورها في المجتمع الأمريكي القائم على امتصاص خيرات العالم، ومن قبله كانت بريطانيا إلى أن غابت عنها الشمس. فالبحث عن الثروات ومصادرتها له الأولوية ومقدمًا على نشر العقيدة.

(٢٠) المرجع السابق، ص ٤٦٩.

(٢١) ويل ديورانت، مرجع سابق، ص ٣٦١ وص ٣٦٢.

(٢٢) مرجع سابق، ص ٣٦١ وص ٢٧٧.

كان هذا سلوك البريطانيين ومن بعدهم الأمريكيون. وهذا بخلاف الكاثوليكية في زمن ازدهارها وعلوها السياسي. إذ سعت البابوية لنشر سلطتها عبر الحروب، وكانت العقيدة هي محور اهتمامها، وأساس منطلقاتها، فكانت حروبها دينية في الأساس، وكان الصليب هو شعارها إلى أن تراجعت مكانة البابوية، وخسرت سلطانها السياسي.

لكن استغلال الدين من قِبَل الكاثوليكية كان يخفي وراءه الأطماع السلطوية للبابا؛ لفرض هيمنته في إطار طموحات حكم العالم وفقًا لتأويلات نابعة من «الكتاب المقدس»؛ باعتبار أن بطرس كان خليفة يسوع لحكم العالم، وأن البابا خلف بطرس في رئاسة كنيسته التي بنيت في الفاتيكان وهو الأجدر بحكم العالم.

وإذا كانت النفعية هي التي تحرِّك البروتستانت، والسلطوية هي التي تحرِّك الفاتيكان؛ فإن الأرثوذكس يدورون حول القضايا العقدية، فالدولة البيزنطية كانت متمحورة حول عقيدتها حتى سقطت القسطنطينية، وبقي الأرثوذكس ينطلقون من منطلقات عقدية حتى الآن. فروسيا دخلت حرب القرم بدوافع عقدية ضد الدولة العثمانية، «وكانت المسألة الرئيسية هي الرغبة الروسية في أن تصبح حامية الحقوق للمسيحيين الأرثوذكس، من رعايا الدولة العثمانية (المسلمة). وكان هذا يعني أن روسيا ستكون القوة المهيمنة في الأراضي المقدسة»[٢٣]، وهذا الأمر دفع الأوروبيين الكاثوليك والبروتستانت للتحالف مع العثمانيين ضد الروس، فوقفت بريطانيا وفرنسا مع المسلمين بدوافع عقدية أيضًا.

وبنفس المنطلقات أشعل الصربُ حربَ البلقان مع انهيار يوغسلافيا، ووقفت ضد استقلال البلاد الإسلامية مثل البوسنة وكوسوفا. وبذات المنطلقات ساندت روسيا، ولا زالت تساند، صربيا في مواجهة الغرب الكاثوليكي والبروتستانتي.

٢٣- الشعب المختار، الأسطورة التي شكَّلت إنجلترا وأمريكا، « الشروق الدولية، ٢٠٠٣م، ص٢٥.

تأثير الدين على العمل السياسي:

في العصور الوسطى عندما كانت الكنيسة الكاثوليكية تجمع بين السلطتين: الدينية والزمنية، كان رجال الدين هم رجال السياسة، ولكن مع تحجيم دور الكنيسة السياسي بعد الفضائح والانحرافات التي ارتبطت برجال الدين تصدَّر العلمانيون العملَ السياسي، وتم إبعاد الدين إلى حدٍّ ما عن التأثير المباشر. فلا يظهر الدين كمحرِّك للأحزاب السياسية في الدول الأوروبية الكاثوليكية، كما لا يظهر الدين بوضوح في المعارك الانتخابية، والقضايا السياسية، وإن كانت الهوية الكاثوليكية حاكمة.

على العكس من ذلك نجد أن الدين عنصر أساسي في العمل السياسي في الدول البروتستانتية، فهو حاضر وبقوة، ونرى هذا بوضوح في الولايات المتحدة. نراه في المعارك الانتخابية بين الحزبين الأمريكيين: الجمهوري والديمقراطي؛ حيث تتضمن البرامجُ المواقفَ تجاه قضايا دينية.

في الدول الأرثوذكسية لا يظهر الدين في العمل السياسي، ولا توجد أحزاب دينية، وهذا النهج ربما منذ أيام الإمبراطورية؛ إذ كان الأباطرة يحرصون على تحجيم الكنيسة، والتقليل من قدر رجال الدين؛ للانفراد بالسلطة، وفرض الهيمنة الكاملة. وكان غياب الدين في الحياة السياسية سببًا في ظهور الشيوعية كحركة نضالية تسعى لتحقيق الاشتراكية في روسيا ودول الكتلة الشرقية، ومع أن الشيوعية ساهمت في تحجيم الدين في دولة مثل روسيا وأوربا الشرقية فإن الدين يظهر بنسب متفاوتة في العمل السياسي المحلي ويزيد تأثيره في دول أخرى مثل صربيا واليونان.

التحرك العالمي:

يوجد خلاف واضح بين الكيانات الثلاث في تحركهم على مستوى العالم. ما يهم الدول البروتستانتية هو استمرار الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية على العالم، أكثر من اهتمامهم باعتناق الشعوب الأخرى للمسيحية.

رغم أن التبشير البروتستانتي يعمل بقوة، فإنه متروك للجماعات التبشيرية وليس للتحرك السياسي، وليس معنى هذا عدم وجود تنسيق بين القرار السياسي والمبشرين، فالتنسيق موجود، وبسببه لم تعلن بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، رغم انحياز العثمانيين إلى الألمان، حتى لا يتعرض المبشرون الإنجليكان لعمليات انتقامية.

فالتحرك البروتستانتي يعمل على استمرار الهيمنة على العالم، وهو يستخدم كل الوسائل لتحقيق هذه الغاية، فهو تحرك عنيف يستخدم الجيوش، وكل ما يملك من أسلحة لفرض هيمنته، ولم يتورع العسكريون البروتستانت في استخدام أشد الأسلحة فتكًا لاستمرار قيادتهم للغرب والعالم، وهم الذين استخدموا القنبلة النووية في الحرب العالمية الثانية ضد اليابان.

بالنسبة للكاثوليكية فالأمر يختلف الآن عن السابق. تتسم الكاثوليكية بعدم التسامح في تعاملها مع المخالفين، وتمتلئ كتب التاريخ بالممارسات الوحشية للكنيسة، سواء في حروبها الصليبية التي لم تكن ضد المسلمين فقط، وإنما ضد كل المخالفين من المذاهب النصرانية الأخرى، وهي التي ابتدعت حرق البشر أحياء، وتقطيع أعضائهم فيما عُرف بالقضاء على ما يسمي «الهرطقة». لكن هذه الدموية التي شهدتها العصور الوسطى انتهت بانتزاع السلطة السياسية من الكنيسة وعزل رجال الدين، وإبعادهم عن السلطة الزمنية. وبسبب هذا الفصل بين الدين والدولة تراجع الدور الكاثوليكي على الساحة العالمية قليلاً، لكنه مستمر في العمل ضد الصعود الإسلامي. ورغم أن أوروبا الآن لا تشكل تهديدًا عسكريًّا، كما كان في الماضي، فإن السياسيين الأوروبيين يساهمون في الحروب مع المحور الأنجلوساكسوني البروتستانتي. ويتكامل مع الدور السياسي النشاط التبشيري الواسع للفاتيكان؛ حيث يعمل من أجل كَثْلَكَة العالم كطريق لفرض السلطة البابوية.

هذا النشاط المحموم من البروتستانت والكاثوليك

يقابله تحرك من نوع آخر بالنسبة للدول الأرثوذكسية، فالتكتل الأول والثاني يتحالفان دومًا ضد الثالث لأسباب مذهبية، وكلاهما يعمل على تحجيم الأرثوذكس. تسعى الكاثوليكية منذ زمن للهيمنة على الكنيسة الأرثوذكسية، وكل جولات الحوار التي دارت بين الجانبين كان الغرض منها تذويب الكنيسة الأرثوذكسية، وضمها تحت قيادة الفاتيكان. ويزيد البروتستانت على ذلك أن لديهم تأويلات من الكتاب المقدس – الخاصة بسفر الرؤيا- ترى أن الشيوعيين الروس هم العدو، وأنهم سيتحالفون مع العرب في معارك نهاية الزمان.

الرغبة في الغزو العسكري:

المسيحية الغربية بكل مذاهبها لديها الرغبة في العدوان وحبّ الغزو، لكن هذه الرغبة تعتمد على القوة العسكرية والسياسية المتاحة. فالطبيعة المحبة للعدوان غريزة متأصلة في العقلية الغربية، متوارثة منذ الإغريق، مرورًا بالرومان، وزادت بشاعة مع الحضارة الأوروبية الحديثة. لكن الرغبة في الغزو مرتبطة بالقدرة، والمذهب المسيحي المهيمن على الغرب.

عندما كانت البابوية مسيطرة في القرون الوسطى، وكان البابا هو صاحب القرار الديني والسياسي غزا الصليبيون العالم الإسلامي، ولم تتوقف الرغبة في الغزو عند بيت المقدس، وإنما توجهت الحملات الصليبية إلى شمال إفريقيا والأندلس، بل وامتدت إلى المخالفين للكاثوليكية، «وفي القرن الثالث عشر كانت الحملات الصليبية توجَّه ضد أعداء البابوية في أوروبا بمعدل يفوق معدل توجيهها ضد المسلمين»[٢٤]، فاجتاح الصليبيون إخوانهم في الديانة المخالفين في المذهب، فاحتل الكاثوليك القسطنطينية، وأذاقوا أهلها الأرثوذكس الويلات، وارتكبوا فيها من المذابح ما لا يقل عما فعلوه مع المسلمين. «كان ذلك في الحملة الصليبية الرابعة التي دعا إليها البابا إينوقنتيوس الثالث في ١٢٠٢، وأسفرت الحملة عن تخريب وتدمير عاصمة الدولة البيزنطية»[٢٥].

ومع الانشقاق الكبير ضعفت الكاثوليكية وبرزت البروتستانتية كقوة مهيمنة على الغرب، ومع صعود بريطانيا تفوق الإنجيليكان الجدد على أسلافهم، واحتلوا معظم العالم تحت اسم الاستعمار، وعندما ضعفت الإمبراطورية البريطانية عقب الحرب العالمية الثانية سلمت التركة لصنوها في المذهب الولايات المتحدة؛ لتستمر الهيمنة على العالم حتى الآن.

وذات الرغبة عند الأرثوذكس، فالإمبراطورية البيزنطية احتلت الشام وشمال إفريقيا ردحًا من الزمان، حتى جاء المسلمون وفتحوا هذه البلاد، وخلصوها من ظلم الرومان، ثم أسقطوا هذه الإمبراطورية على يد محمد الفاتح في عام ١٤٥٣م. وعندما قويت شوكة الروس غزوا الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، واحتلوا الكثير من الأراضي الإسلامية، وضموها بالقوة في فترات ضعف المسلمين. ورغم تفكك الاتحاد السوفييتي لا زالت بعض الجمهوريات الإسلامية خاضعة بالقوة للحكم الروسي حتى الآن.

في القرن الثالث عشر كانت الحملات الصليبية توجه ضد أعداء البابوية في أوروبا بمعدل يفوق معدل توجيهها ضد المسلمين

لكن مع تغير الأوضاع الاستراتيجية وتبدُّل موازين القوة داخل المعسكر الغربي، فإن المحور الأنجلوساكسوني البروتستانتي يشكل خطرًا بسبب ارتباط التفسيرات الدينية بما يُعرف بحروب نهاية الزمان، فالعقيدة البروتستانتية مرتبطة بفلسطين والمنطقة العربية، إذ يعتقدون أن المسيح سيعود إلى القدس بعد حروب يموت فيها الملايين، وترتفع فيها الدماء إلى رقاب الخيل. ومن هنا تأتي الرغبة المحمومة لتصنيع أسلحة التدمير، وسيطرة المجمع الصناعي العسكري على القرار الأمريكي.

(٢٤) نورمان ف. كانتور، مرجع سابق ص ٤١٩.

(٢٥) ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org.

٤- خطورة الصليبية المعاصرة:

تعد الصليبية المعاصرة أخطر هجمة يواجهها الإسلام عبر تاريخه، وهذا يرجع إلى سببين، الأول: غياب الحكم الإسلامي القادر على رد العدوان.

الثاني: التطور الهائل في أسلحة التدمير التي تمتلكها الصليبية اليوم، فالصليبية المعاصرة صليبية محاربة حتى النخاع، متسلحة بأسلحة تدمير غير مسبوقة. وهذا التفوق العسكري والقدرة المتفوقة في التدمير جعل الغرب يسيطر على البحار والمحيطات، وعلى الجو أيضًا من خلال سلاح الجو المتطور، وترتب على هذا استمرار الهيمنة على العالم الإسلامي.

بجانب القوة العسكرية تتخفى الصليبية المعاصرة وراء شعارات متلونة، ولا يستخدم صليبيو اليوم ذات الشعارات القديمة المباشرة، خاصة في عصر الإنترنت والطفرة في تكنولوجيا الاتصالات.

كانت الصليبية في الماضي تظهر في شكل حروب يشنها الغربيون تحت راية الصليب، وكان تحركهم الأساس عسكري الطابع. وفي المقابل كانت الدولة الإسلامية لها حدود وجيوش، وكان الكيان الإسلامي حصينًا ليس للغربيين قدرة على اختراقه.

اليوم تغير الحال، انهارت الدولة الإسلامية الواحدة التي تحكم وتحمي العالم الإسلامي، وترتب على ذلك اجتياح الغربيين للأراضي الإسلامية، واستباحة كل شيء فيها وإضعاف مناعتها.

ومنذ ضعف وسقوط الخلافة الإسلامية تم تقسيم الأمة إلى دويلات قُطْرِيّة منفصلة عن بعضها ومرتبطة بشبكة من القيود التي تمنعها من الانعتاق من الهيمنة الغربية. لم تتوقف الحروب الصليبية، ولكنها تأخذ أشكالاً جديدة، وتستخدم وسائل غير تقليدية. ولم تعد الحرب أو القوة العسكرية هي الأسلوب الوحيد للتعامل مع الإسلام والمسلمين، وإنما تعددت الوسائل التي تصبّ لتحقيق هدف خصوم الأمة في منع استعادة الأمة الإسلامية لقوتها، وإجهاض أي نمو، أو بروز لقوة إسلامية تسعى للاستقلال عن الهيمنة الغربية، وإقامة دولة إسلامية قوية.

تنعكس الخلافات الكثيرة بين المذاهب النصرانية الغربية على سياسات الدول الغربية في تعاملها مع الدول الإسلامية. هناك تباين في المواقف، فالدول البروتستانتية تختلف عن الدول الكاثوليكية، والاثنان تختلفان عن الدول الأرثوذكسية، لكن درجة الاختلاف تزيد وتنقص حسب مصالح هذه الدول. قد تجتمع في قضية وتتفرق في قضايا.

إذا حاولنا تقدير درجة التهديد التي تشكلها هذه التكتلات الثلاث، يمكننا أن نقول: إن الدول البروتستانتية -خاصة المحور الأنجلوساكسوني- تشكل تهديدًا خطيرًا، فهذا المحور الذي تقوده أمريكا بعد بريطانيا يهيمن على العالم منذ ثلاثة قرون، وهو الذي يقف أمام استعادة المسلمين لاستقلالهم.

تأتي خطورة هذا المحور من أن الدين يشكل أحد أهم نقاط الانطلاق عند قادته السياسيين. ولا يوجد انفصال بين الدين والدولة، فالتداخل بينهما واضح.

يأتي بعد ذلك بمسافة الدول الكاثوليكية التي تخضع مذهبيًّا لقيادة الفاتيكان، في مقدمة هذه الدول فرنسا وأسبانيا وإيطاليا. وهذه الدول لا تشكل تهديدًا عسكريًّا للعالم الإسلامي في الوقت الحالي بالقدر الذي يشكِّله المحور الأنجلوساكسوني؛ إذ إن الحروب الصليبية التي قادتها البابوية انتهت بنقل المكانة الروحية من القدس إلى مدينة الفاتيكان، وتحويل الحج من كنيسة القيامة في بيت لحم إلى كنيسة القديس بطرس التي نقل إليها ما يسمى «زخائر القديسين»، التي تم الاستيلاء عليها من القدس ومن القسطنطينية إبَّان الحروب الصليبية ضد المسلمين وضد الإمبراطورية البيزنطية.

كان لإضفاء البابوية صفة «كنيسة الرب» على كنيسة القديس بطرس أثره في تحويل أنظار الكاثوليك في العالم عن الشرق، وجعل قبلتهم إلى الفاتيكان. لكن مع تراجع الخطر العسكري للكاثوليك؛ فإن حملات التنصير التي يقودها الفاتيكان تشكل خطرًا على المدى البعيد.

أما بالنسبة للكتلة الأرثوذكسية الشرقية المتمركزة في روسيا والبلقان واليونان؛ فإن هذه الدول لا تمتلك القدرة أو الرغبة في العدوان الخارجي علي الدول الإسلامية الأخرى، بل يدفعها الخلاف المذهبي والفكري مع المعسكر الغربي إلى الانفتاح على الدول الإسلامية لتحقيق مصالحها. ومثال روسيا يعبر عن هذه الحالة؛ إذ كانت في عهد الشيوعية ثم بعد انهيار الاتحاد السوفييتي تختلف في تعاملها مع الدول الإسلامية عن المعسكر الغربي.

لكن ومع الخلافات بين كيانات الغرب الثلاثة؛ فإن الكاثوليك والبروتستانت - على وجه خاص- يتحدون في المعركة ضد الإسلام منذ الحملات الاستعمارية وحتي اليوم. وتبدو خلافاتهم في التفاصيل وفي الوسائل.

يشارك معظم دول الغرب الكاثوليكي في حروب أمريكا الأخيرة. ورغم تباين الحماس بشأن العمليات العسكرية ضد المسلمين؛ فإن الغرب يتحد في المواجهة مع الإسلام في ساحات أخرى، عبر اتفاقات مؤثرة مثل مواجهة ما يسمي بـ «الارهاب»، وفي المنظمات الدولية كالأمم المتحدة وغيرها، خاصة عند التصويت في قضايا المسلمين.

بوجه عام تختار الصليبية المعاصرة شعارات إنسانية لإضفاء مشروعية على خططها للهيمنة على الدول الإسلامية، مثل حقوق الإنسان وتحرير المرأة ونشر الديمقراطية. وترصد الميزانيات للإنفاق على بناء شبكات تتبنى التفسير الصليبي لهذه القضايا. مع استبعاد القرآن والسنة كمرجعية للمسلمين، وإحلال مواثيق الأمم المتحدة واتفاقات جنيف وغيرها بدلاً منهما.

وتتخفى الأنشطة الصليبية أحيانًا وراء كيانات ومنظمات إغاثية وذات طابع إنساني لتنشط في الدول الإسلامية، وهي كقرون الاستشعار للحكومات الصليبية، بعضها للتنصير وبعضها لتحقيق أهداف أخرى مثل التجسس ودراسة المجتمعات، وبعضها يغيِّر جلده وقت الحرب، كما فعلت منظمة فرسان مالطا، التي تنشط في الدول الإسلامية تحت واجهة العمل الخيري، وتبين أنها وراء إرسال المتطوعين الصليبيين من أنحاء العالم للقتال بجانب الاحتلال الأمريكي ضد المسلمين في العراق.

خامسًا: كيف يستفيد المسلمون من الخلافات المذهبية الغربية؟

١- عدم التعامل مع الغرب على أنه كيان واحد:

من المهم الاستفادة من الخلافات والتناقضات بين الكيانات الغربية، وتلمُّس المساحات التي يمكن استغلالها لتعظيم مصالح الإسلام بأقل تكلفة ممكنة. على سبيل المثال يجب استغلال المواجهة بين الغرب وروسيا والدول المتحالفة معها، خاصة في مجال التكنولوجيا والتسليح.

٢- تنشيط عمليات الدعوة في الغرب:

يعد الغرب بيئة خصبة للدعوة الإسلامية، وبه مساحات كبيرة يمكن استغلالها؛ حيث تهيمن القيم المادية والعلمانية على المجتمعات الغربية، وتوجد قطاعات كبيرة بلا دين، لكن هذه المجتمعات تحتاج إلى أساليب دعوية غير تقليدية. هذا الأمر يفرض على المنظمات الدعوية أن تعمل بوعي وبدراسة لهذه المجتمعات، وتبتكر وسائل دعوية جديدة وعدم الاكتفاء بالطرق التقليدية.

يجب استغلال حالة الفراغ الديني في الغرب، بتوصيل الرسالة الإسلامية إلى الشعوب. هذا يفيد في تثقيف الغربيين بحقيقة الإسلام، وتبديد الأكاذيب التي تم غرسها في التربة الأوروبية لتشويه المسلمين، كما أن الدعوة هي أكثر الأساليب تأثيرًا في الرد على روح الصراع الغربية.

٣- عدم المبالغة في قوة الفاتيكان:

الخريطة المذهبية للدين والتطورات السياسية في الغرب لا تعكس قوة الفاتيكان، كما يتصور البعض في العالم الإسلامي. ومن هنا فإن المبالغة في قوة الفاتيكان، والسعي لاسترضائه من الظواهر

اللافتة والمثيرة للاندهاش حول دوافع التحركات المنادية بالحوار.

٤- قطع الطريق على تواصل النصرانية الغربية مع الأقليات النصرانية في العالم الإسلامي:

تسعى المسيحية الغربية دومًا للهيمنة على الكنائس في العالم الإسلامي، ونجحت في بعض البلدان في ضم قطاعات من نصارى المشرق إليها من خلال حملات التبشير الكاثوليكي والبروتستانتي. إن من مصلحة الأمة أن لا يحدث تقارب بين الأقليات المسيحية في الدول الإسلامية والنصارى في الغرب؛ لمنع التأثير في اتجاهين. الأول: فقدان الاستقلال والانتماء للكنائس الغربية. الثاني: استخدام الأقليات لأجندات خارجية غربية لصالح الصليبية العالمية.

٥- مواجهة الحلف الأنجلوساكسوني وإنهاء هيمنته على العالم الإسلامي:

يجب التصدي لعداء المحور البروتستانتي الأنجلوساكسوني بما يقابله، وليس بالارتماء في أحضانه والاستسلام له. من مصلحة الأمة إنهاء العلاقات «الاستراتيجية» مع هذا المحور، والابتعاد عن هيمنته بشتى الوسائل.

٦- الانعتاق من العلاقة مع الغرب وبناء النهضة الإسلامية المستقلة:

عندما نقول: إن الغرب ليس كيانًا واحدًا؛ فإن هذا لا يعني أن نظل رهينة للغربيين أبد الدهر، وإنما نريد تحسين عملية إدارة العلاقة. إن التحرك المطلوب كاستراتيجية لكل المسلمين هو إنهاء الهيمنة الغربية أيًّا كان نوعها، والتخلص من الاحتلال الغربي بكل ألوانه ومذاهبه، العنيف والناعم. والعمل على بناء قوتنا الذاتية، وتوسيع المساحات المحررة وتقاربها إلى أن تحدث لحظة الالتحام والنهوض.

معلومات إضافية

الأرثوذكس

التعريف:

هي أحد الكنائس الرئيسية الثلاث في النصرانية، وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية الغربية بشكل نهائي عام ١٠٥٤م، وتمثَّلت في عدة كنائس مستقلة لا تعترف بسيادة بابا روما عليها، ويجمعهم الإيمان بأن الروح القدس منبثقة عن الأب وحده، وعلى خلاف بينهم في طبيعة المسيح، وتُدعى أرثوذكسية بمعنى مستقيمة المعتقد، مقابل الكنائس الأخرى، ويتركَّز أتباعها في المشرق؛ ولذا يطلق عليها الكنيسة الشرقية.

التأسيس:

في نهاية القرن التاسع الميلادي، وبالتحديد بعد انقضاء مجمع القسطنطينية الخامس عام ٨٧٩م أصبح يمثل الأرثوذكسية كنيستان رئيسيتان:

- الكنيسة الأرثوذكسية المصرية أو القبطية، والمعروفة باسم الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية أو كنيسة الإسكندرية، التي تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وتضم كنائس الحبشة والسودان، ويوافقها على ذلك كنائس الأرمن واليعقوبية.
- الكنيسة الأرثوذكسية أو كنيسة القسطنطينية، والمعروفة باسم كنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقية، تخالف الكنيسة المصرية في طبيعة المسيح، بينما توافق الكنيسة الكاثوليكية الغربية بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، ويجمعها مع الكنيسة المصرية الإيمان بانبثاق الروح القدس عن الأب وحده، وتضم كنائس أورشليم واليونان وروسيا وأوروبا الشرقية.

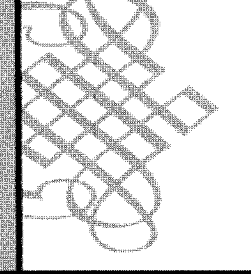
الجذور الفكرية والعقائدية:

- الكتاب المقدس بالإضافة إلى المجامع المسكونية حتى مجمع كليدونية ٤٥١م بالنسبة للكنيسة المصرية، ومجمع القسطنطينية بالنسبة للكنائس الأرثوذكسية الأخرى.
- الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والفلسفة الغنوصية.
- الحضارات القديمة: المصرية، اليونانية، الهندية.



الانتشار ومواقع النفوذ:

- تنتشر الكنائس الأرثوذكسية اليونانية في الدول التالية: تركيا، اليونان، روسيا، ودول البلقان، وجزر البحر الأبيض، والمجر ورومانيا، وتشرف كنيسة أنطاكية على بيت المقدس، كما أن لطور سيناء في مصر كنيسة مستقلة تشرف على دير سانت كاترين ومطرانها هو رئيس الدير.



الكاثوليك:

التعريف:

أكبر الكنائس النصرانية في العالم، وتدعي أنها أم الكنائس ومعلمتهن، يزعم أن مؤسسها بطرس الرسول، وتتمثل في عدة كنائس تتبع كنيسة روما، وتعترف بسيادة بابا روما عليها، وسميت بالكنيسة الغربية أو اللاتينية لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني خاصة، وتؤمن بإله واحد مثلث الأقانيم: الأب، الابن، الروح القدس، وتؤمن بأن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد: إحداهما لاهوتية، والأخرى ناسوتية.

التأسيس:

- يدعي أصحابها بأن القديس بطرس ت٦٢م هو المؤسس الأول لكنيستها على حسب ما أشار إليه القديس سيبريان ٢٤٨ – ٢٥٨م مع أن مصادر التاريخ الكنسي تشير إلى أن لكل من بولس وبطرس دوره في وجودها.
- أول من استعمل لفظ كاثوليك للدعوة لتأييد الكنيسة، مقابل حركات الخروج على مفاهيمها وعقائدها -الهرطقة-، أسقُف أنطاكية القديس أغناطيوس الأنطاكي في القرن الثاني الميلادي.
- منذ أن أسس قسطنطين مدينة القسطنطينية روما الجديدة، وبنى فيها كنيستها أياصوفيا وجعلها تلي كنيسة روما في المكانة، قام التنافس بين الكنيستين في السيطرة على العالم المسيحي، الذي استمر إلى أن تم الانفصال الإداري بينهما عام ٨٦٩م بعد مجمع القسطنطينية.

الجذور الفكرية والعقدية:

- نصوص الكتاب المقدس، بالإضافة إلى المجامع المسكونية والإقليمية أو المحلية التي أيدت عقيدة الكنيسة.
- الديانات الوثنية: المجوسية، البوذية، الرومانية، المصرية القديمة.
- الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، الفلسفة الغنوصية.

الانتشار ومواقع النفوذ:

- تنتشر في أوروبا: إيطاليا، فرنسا، لتوانيا، بولندا، سلوفاكيا، المجر، كرواتيا، بلجيكا، أسبانيا، البرتغال، أيرلندا، كندا الفرنسية، أمريكا اللاتينية، الفلبين، وجنوب شرق آسيا. وهناك أقليات في الولايات المتحدة الأمريكية، وهولندا، وألمانيا، وبعض دول إفريقيا.

البروتستانت:

التعريف:

فرقة من النصرانية احتجوا على الكنيسة الغربية باسم الإنجيل والعقل، وتسمى كنيستهم بالبروتستانتية؛

حيث يعترضون (Protest) على كل أمر يخالف الكتاب وخلاص أنفسهم، وتسمى بالإنجيلية أيضًا؛ حيث يتبعون الإنجيل دون سواه، ويعتقدون أن لكل قادر الحق في فهمه، فالكل متساوون ومسئولون أمامه.

التأسيس:

الكنيسة البروتستانتية حركة إصلاحية بدأت في الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر متأثرة بدعوات الإصلاح السابقة لها، ومن ثَمَّ تحولت من حركة إصلاحية داخل الكنيسة إلى حركة عقائدية مستقلة ومناهضة لها.

نتيجةً للحرية الفردية في فهم وتفسير الكتاب المقدس لكل فرد من المؤمنين بالمذهب البروتستانتي انقسمت الحركة البروتستانتية إلى كنائس عديدة، وطوائف مختلفة.

ومن أهم الكنائس البروتستانتية:

الكنيسة اللوثرية: وقد بدأ إطلاق هذه التسمية على المؤمنين بأفكار معتقدات مارتن لوثر في القرن السادس عشر.

الكنائس المصلحة: وإن كان يُقصد بها بوجه عام جميع الكنائس البروتستانتية؛ إلا أنه من الناحية التاريخية تقتصر على الكنائس البروتستانتية التي يرتكز أصلها على عقائد كلفن، وعلى أساس النظام الكنسي المشيخي الذي تركِّز فيه السلطات على سلسلة مجالس من الشيوخ العلمانيين ورجال الأكليروس.

الكنائس الأسقفية: تطلق الكنيسة الأسقفية عند الإطلاق على الكنيسة الإنجليزية، ويتبعها في أمريكا عدد من الكنائس الأسقفية، وتتبع هذه الكنائس النظام الأسقفي على أنه نظام إلهي خلافًا لسائر الفرق البروتستانتية.

البروتستانتية والصهيونية المسيحية:

كان لليهود المهاجرين من أسبانيا إلى أوروبا، وبخاصة فرنسا وهولندا، أثرهم البالغ في تسرب الأفكار اليهودية إلى النصرانية من خلال حركة الإصلاح، وبخاصة الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار، وأنهم الأمة المفضلة، كذلك أحقيتهم في ميراث الأرض المباركة.

كانت هزيمة القوات الكاثوليكية وقيام جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتية الكالفينية عام ١٦٠٩م بمثابة انطلاقة للحركة الصهيونية المسيحية في أوروبا.

انتقلت الصهيونية المسيحية إلى أمريكا من خلال الهجرات المبكرة لأنصارها نتيجة للاضطهاد الكاثوليكي، وقد استطاعت تأسيس عدة كنائس هناك من أشهرها الكنيسة المورمونية، ويعتبر سايسروس سكلوفليد ١٨٤٣م الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحية في أمريكا.



لعبت تلك الكنائس دورًا هامًّا في تمكين اليهود من احتلال فلسطين، واستمرار دعم الحكومات الأمريكية لهم -إلا ما ندر- من خلال العديد من اللجان والمنظمات والأحزاب التي أنشئت من أجل ذلك.

وفي العصر الحديث تعتبر الطائفة التدبيرية التي يصل عدد أتباعها لعشرات الملايين والمعروفة باسم الأنجلوساكسون، البروتستانت البيض من أكثر الطوائف مغالاة في تأييد الصهيونية، وفي التأثير على السياسة الأمريكية في العصر الحاضر.

الجذور الفكرية والعقائدية:

- نصوص الكتاب المقدس، وبخاصة نصوص العهد القديم.
- الديانات الوثنية.
- الفلسفة الأفلاطونية الحديثة.
- الأفكار والمبادئ الصهيونية والتلمودية.
- يعتقد بعض الباحثين أن الإصلاحات التي نادت بها حركة الإصلاح، ونتج عنها البروتستانتية قد تأثرت بالإسلام.

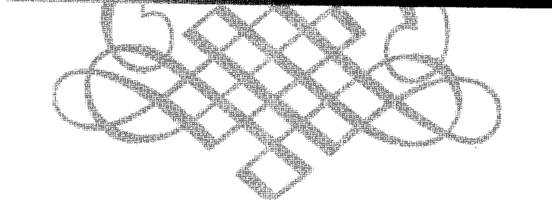
الانتشار ومواقع النفوذ:

تنتشر الكنائس البروتستانتية في: ألمانيا، هولندا، بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، أستراليا، نيوزيلندا، سويسرا، الدانمارك، وتوجد أقليات بروتستانتية في باقي الدول الأخرى.

المصدر:

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.





أهداف وسياسات الإعلام الأجنبي باللغة العربية

أ. عاطف الجولاني

(رئيس تحرير صحيفة السبيل الأردنية)

ملخص البحث

برز الإعلام الأجنبي الموجه والناطق بالعربية، كظاهرة مهمة في المنطقة العربية خلال السنوات الأخيرة، فقد أدرك الغرب أهمية الإعلام، ودوره المؤثر في نشر أفكاره، وترويج سياساته؛ لذا اهتم منذ وقت طويل بالدعاية الإعلامية الموجهة، ورأى فيها سلاحًا أهم وأقوى تأثيرًا من فعل الجيوش.

كانت البداية بالإذاعات الموجهة، ثم اتجه القائمون على الإعلام الأجنبي الموجه للإعلام الفضائي، وتوالدت القنوات الفضائية بصورة سريعة، ولجأ القائمون على هذه المؤسسات إلى أسلوب دعائي جديد غير مباشر وأكثر ذكاء، يتسلل تسللاً، لتسويق نفسه.

تزامن انتشار ظاهرة الفضائيات الأجنبية الموجهة، والناطقة بالعربية، مع أحداث سياسية وتطورات مهمة متعلقة بالمنطقة مثل أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، وإعلان الحرب الأمريكية على الإرهاب، وغزو العراق وأفغانستان، وما رافقهما من جرائم وحشية وفضائح مخزية، أجّجت الكراهية والغضب ضد واشنطن، ما جعل الغرب يدرك خطورة انعكاسات اتساع الفجوة بينه وبين شعوب المنطقة، فوجد في فضاء البث، المفتوح على مصراعيه في المنطقة العربية، فرصة سانحة للوصول مباشرة إلى المواطن العربي ومخاطبته بلغته.

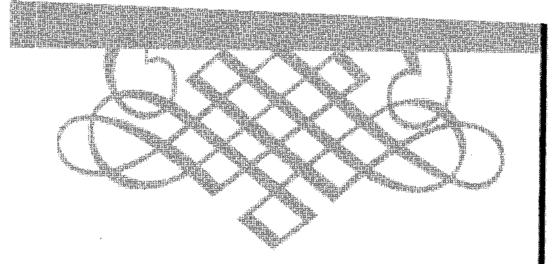
ويروِّج القائمون على هذه المؤسسات الإعلامية الموجهة أهدافًا معلنة تحجب وراءها أجندات خفية، تحمل ثلاث مجموعات من الأهداف غير المعلنة، وهي: أهداف سياسية، وأهداف فكرية وثقافية واجتماعية، وأهداف تنافسية.

وثمة رأيين متقابلين حول خطورة هذه المؤسسات الإعلامية، فبينما يرى فريق أن هناك الكثير من التضخيم والمبالغة غير المبررة في الخوف والقلق، يؤكد الفريق الآخر على خطر هذه المؤسسات، ويرى أن الجهود المبذولة لمواجهة أخطارها وتأثيراتها السلبية ما تزال ضعيفة ودون المستوى المطلوب.

ويعتقد كثيرون أن المؤسسات الإعلامية الأجنبية الناطقة بالعربية، وبخاصة الأمريكية والإسرائيلية، كان محكومًا عليها بالفشل من اللحظة الأولى؛ لأنها كانت تروّج بضاعة غير قابلة للتسويق في العالم العربي.

ولعب عدد من التحديات مثل: السياسات الغربية العدائية، ووعي المواطن العربي بأهداف المؤسسات الإعلامية الموجهة، دورًا في فشل بعض المؤسسات الإعلامية الناطقة بالعربية خلال الفترة الماضية، وتواضع النتائج التي حققها البعض الآخر. ويرجَّح أن تستمر هذه التحديات كتحديات مستقبلية، تحكم مسار تلك المؤسسات، وتحدد مدى نجاحها أو فشلها.





أفكار و مقتطفات

- أدرك الغرب في وقت مبكر أهمية الإعلام، ودوره المؤثر في نشر أفكاره وترويج سياساته في مناطق نفوذه السياسي والثقافي. وهو حين أنهى استعماره واحتلاله المباشر للدول العربية، كان يبحث باستمرار عن أدوات ووسائل جديدة لمواصلة غزوه للعالم العربي والإسلامي، ولاستعمار العقل العربي واختراقه بكل الوسائل الممكنة. لذا فقد اهتم منذ وقت طويل بالدعاية الإعلامية الموجهة، ورأى فيها سلاحًا لا يقل تأثيرًا عن فعل الجيوش، إن لم يكن أهم وأقوى.

- وجدت الإدارة الأمريكية والحكومات الغربية، في فضاء البثّ، المفتوح على مصراعيه في المنطقة العربية، فرصة سانحة للوصول مباشرة إلى المواطن العربي ومخاطبته بلغته. فكان الاهتمام الملحوظ بإنشاء فضائيات غربية موجَّهة للمنطقة وناطقة بالعربية.

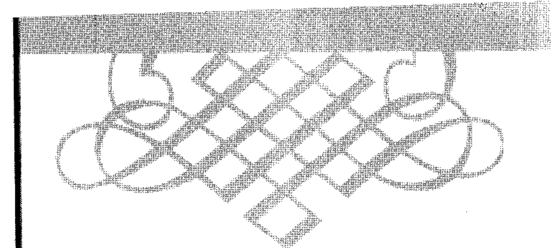
- المؤسسات الإعلامية الأجنبية الموجهة، والناطقة بالعربية مؤسسات غير ربحية، تكاد تخلو من الإعلانات، وتتلقى دعمها وتمويلها بصورة كاملة من حكوماتها، التي تتولى الإشراف على إدارتها ومتابعتها، بصورة مباشرة عبر وزارات الخارجية، أو غير مباشرة من خلال إشراف مؤسسات تابعة للبرلمانات عليها.

- جاء انتشار الإعلام الأجنبي الموجه متزامنًا مع مشروع العولمة (globalization)، الذي قام أساسًا على تحطيم الحواجز والحدود الجغرافية والسياسية. وقد شكّلت وسائل الإعلام العابرة للحدود والقارات أحد أهم دعائم العولمة، وأداة مهمة من أدوات نجاحها في الاختراق الفكري والسياسي والثقافي والاجتماعي.

- ثمة من يرى في اتساع ظاهرة الإعلام الأجنبي المعرّب شكلاً من أشكال التغريب و«الأمركة»، والغزو الثقافي والسياسي المبرمج، ومحاولة لإحداث تغيير جوهري في العقلية العربية، من أجل فرض مزيد من الهيمنة على المنطقة العربية ومقدراتها، والتأثير في الوعي والعقل العربي.

- تمكنت بعض الفضائيات العربية الإخبارية بالفعل من سحب البساط من تحت أقدام مؤسسات إعلامية غربية عريقة مثل الـ(CNN) و الـ(BBC)، من خلال اعتماد معايير إعلامية مهنية احترافية، تقوم على أسس النزاهة والحياد والموضوعية، وفسح المجال أمام وجهات النظر المختلفة. وهي معايير تبجَّح بها الإعلام الغربي طويلاً، وروّجها كمبررات لتفوقه على الإعلام العربي الرسمي أحادي النظرة.

- بدأ اهتمام الكيان الصهيوني بالإعلام الموجه للعالم العربي في وقت مبكر. فقد أفردت إذاعة منظمة (الهاغاناة) الإرهابية، التي شكّلت الذراع العسكري للحركة الصهيونية، منذ بداية الأربعينيات فترة من بثها للغة العربية. وكان الهدف في حينه بث رسائل دعاية تثير الرعب في نفوس الفلسطينيين كجزء من الحرب النفسية الهادفة إلى دفع الفلسطينيين لترك أرضهم والهجرة منها.



- يُنظَر إلى سفير (إسرائيل) السابق في مصر (موشي ساسون) على أنه صاحب فكرة الفضائية الناطقة بالعربية؛ حيث كان اقترح إنشاء فضائية تقدم (إسرائيل) على «صورتها الحقيقية، وليس على الصورة المغلوطة التي تصورها القنوات العربية». ولم يتردد رئيس الوزراء الإسرائيلي في حينه (آرئيل شارون) في الموافقة على الفكرة.

- الفضائية الإسرائيلية التي انطلقت بآمال عريضة، وبسقف توقعات مرتفع، سرعان ما تعثرت ولفظت أنفاسها قبل أن تنهي عامين من عمرها القصير. ففي بداية شهر سبتمبر/أيلول ٢٠٠٣م اتخذت سلطة البث الإسرائيلية قرارًا بإغلاق الفضائية، بعد ما اتضح ضعفها وهزالها، وتبين عجزها عن مواجهة الفضائيات العربية، وعن الوصول إلى قلب المواطن الفلسطيني والعربي وإلى عقله ووعيه.

- يبدو أن سباق الفضائيات المعرّبة لن يتوقف عند حدود الفضائيات السابقة التي يُضاف لها العديد من الإذاعات الأجنبية الموجهة والناطقة بالعربية. فهيئة الإذاعة البريطانية الـ(BBC) أعدت العُدة لإطلاق فضائية باللغة العربية، والدانمارك تفكر هي الأخرى بإطلاق برامج تلفزيونية وإذاعية باللغة العربية موجهة للمنطقة، و«الحبل على الجرار» كما يقولون.

- المؤسسات الإعلامية الغربية الموجهة تتمتع بإمكانات ضخمة، ومصادر تمويل كبيرة، وقدرات دعائية هائلة، وخطاب إعلامي ذكي غير مباشر يتسلل خلسة، ولا يميط اللثام عن أهدافه الحقيقية و«أجنداته» الخفية.

- بعض المحذرين من أخطار الإعلام الأجنبي الناطق بالعربية، لم يكتفوا بإطلاق صيحات التحذير من الخطر القادم، وفضّلوا اتخاذ خطوة عملية لمواجهة ما اعتبروه خطرًا داهمًا. فقد أصدرت مؤسسات شعبية عربية دعوات لمقاطعة فضائية (الحرة) الأمريكية عند انطلاقتها.

- التنبه للمضامين السياسية والثقافية والاجتماعية السلبية في المؤسسات الإعلامية الموجهة، دفع العديد من المؤسسات في العالم العربي، ومن بينها الفضائيات العربية، للاهتمام بالرد على الشبهات ومحاولات التشويه.

- الغزو الإعلامي المعرّب شجع على التفكير بالردّ بالمثل، وعلى الانتقال من مربع الدفاع إلى الهجوم، وعلى عدم الاكتفاء بالصراخ والعويل والتحذير من الأخطار. وتولدت قناعة بضرورة إنشاء فضائيات عربية باللغات العالمية؛ تخترق الفضاء الغربي وتخاطبه بلغته.

- قناة (الحرّة)، التي رأى فيها كثيرون خطرًا داهمًا، فشلت حتى اللحظة في تحقيق أهدافها المعلنة أو الخفية، وقدمّت مستوى إعلاميًا رديئًا وبائسًا بكل المقاييس. فلا هي نجحت في أن تكون قناة أمريكية ناجحة مثل الـ(CNN)، ولا استطاعت تقديم إعلام عربي ناجح ومقنع، ولم تستطع منافسة القنوات الإخبارية العربية.

- إن تقييمًا موضوعيًا لأداء المؤسسات الإعلامية الغربية الناطقة بالعربية خلال السنوات الماضية، يقود إلى استنتاج أن معظمها أخفق في تحقيق طموحاته، وأن صعوبات كبيرة تحول دون تجاوزه للتحديات سالفة الذكر. لكن ذلك لا ينبغي أن يكون دافعًا للمبالغة بالاطمئنان، وإلى عدم التنبه للانعكاسات السلبية لتلك المؤسسات.

أهداف وسياسات الإعلام الأجنبي باللغة العربية

أ. عاطف الجولاني : رئيس تحرير صحيفة السبيل الأردنية

مقدمة:

برز الإعلام الأجنبي الموجه والناطق بالعربية، كواحدة من الظواهر المهمة التي شهدتها المنطقة العربية خلال السنوات الأخيرة، والتي تستحق الدراسة والرصد، والوقوف على أبعادها واستشراف مستقبلها. فقد ازدحم الفضاء العربي بالعديد من الفضائيات والإذاعات الأجنبية المموّلة من حكومات رسمية سعت لتوصيل رسالتها إلى المواطن العربي، مستفيدة من الإمكانات الكبيرة التي أتاحتها ثورة الاتصال وتقنياته المتطورة.

- فما هي الدوافع وراء بروز هذه الظاهرة وتناميها في الآونة الأخيرة؟
- ما هي أهدافها المعلنة، و«أجنداتها» الخفية؟
- وما أخطارها على المجتمعات العربية، وهل تأثيراتها سلبية بالمطلق، أم أن لها تأثيرات إيجابية؟
- أيّ مستقبل ينتظر الإعلام الأجنبي الموجّه والناطق بالعربية، وهل الطريق أمامه ممهدة وسالكة لتحقيق «أجنداته» المستترة وأهدافه المعلنة، أم أنه يواجه تحديات تعوق تقدمه، وتحدّ من قدرته على النجاح؟

مدخل:

أدرك الغرب في وقت مبكر أهمية الإعلام، ودوره المؤثر في نشر أفكاره، وترويج سياساته في مناطق نفوذه السياسي والثقافي. وهو حين أنهى استعماره واحتلاله المباشر للدول العربية، كان يبحث باستمرار عن أدوات ووسائل جديدة لمواصلة غزوه للعالم العربي والإسلامي، ولاستعمار العقل العربي واختراقه بكل الوسائل الممكنة. لذا فقد اهتم منذ وقت طويل بالدعاية الإعلامية الموجهة، ورأى فيها سلاحًا لا يقل تأثيرًا عن فعل الجيوش، إن لم يكن أهم وأقوى.

كانت البداية بالإذاعات الموجهة التي تمتعت بالقدرة على تجاوز الحواجز، واختراق الحدود، والوصول عبر الأثير إلى المستمع العربي، دونما حاجة لاستئذان. فكانت هيئة الإذاعة البريطانية الـ(BBC) أول إذاعة أجنبية مموّلة رسميًا تطلق بثها باللغة العربية عام ١٩٣٨م، وكان هدفها الرئيس في حينه الرد على الدعاية النازية والفاشية الموجهة للمنطقة العربية، وهو ما أكده (غيمون ماكلالين) رئيس القسم العربي في الـ(BBC)، الذي اعترف بأن الحكومة البريطانية طلبت من الـ(BBC) بدء البث باللغة العربية؛ بسبب خوفها من تأثير البرامج الألمانية والإيطالية على العالم العربي، وبخاصة الدول الخاضعة للانتداب

البريطاني كمصر والعراق وفلسطين. وبعد الـ(BBC) ظهرت العديد من الإذاعات الموجهة التي بث برامجها للمنطقة بلغتها العربية، ومن أهمها (صوت أمريكا) و (مونت كارلو) و (صوت فرنسا). ومع ظهور الفضائيات وانتشار الأطباق اللاقطة؛ ولكون التلفاز الوسيلة الإعلامية الشعبية الأهم، والأوسع انتشارًا، والأكثر تأثيرًا، وجد القائمون على الإعلام الأجنبي الموجه ضالتهم في الإعلام الفضائي، القادر هو الآخر على تجاوز حواجز الجغرافيا وقيود السياسية، وعلى دخول كل بيت في المنطقة العربية، والوصول إلى قلب المشاهد وعقله. وقد شكّلت الفضائيات الأجنبية الموجهة امتدادًا طبيعيًا للإذاعات الموجهة التي استمر معظمها بالعمل، جنبًا إلى جنب مع القنوات الفضائية التي توالدت بصورة سريعة، الواحدة تلو الأخرى.

ولعل مما يجدر الالتفات إليه عند دراسة الظاهرة، أن القائمين على كثير من تلك المؤسسات الإعلامية الموجهة تخلّوْا عن الأسلوب الدعائي المباشر لترويج مواقف دولهم وسياساتها، وهو الأسلوب الذي كانت اشتهرت به الإذاعات الموجهة في الحقبة السابقة، ليحل محله أسلوب جديد غير مباشر وأكثر ذكاء، يتسلل تسللاً، ويسوّق نفسه من خلال ترويج جملة من القيم والمعايير الإعلامية، كالموضوعية والمهنية والحيادية.

الأسباب والدوافع .. لماذا الآن؟

لدى رصد الظروف والأجواء التي نمت في ظلها ظاهرة الفضائيات الأجنبية الموجهة، والناطقة بالعربية، يلاحظ أن انتشارها تزامن مع جملة من الأحداث السياسية الكبيرة والتطورات المهمة المتعلقة بالمنطقة:

- فقد كشفت أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م عن مشاعر غضب وكراهية واسعة تجتاح العالم العربي والإسلامي إزاء السياسات والممارسات الغربية عمومًا، والأمريكية على وجه الخصوص تجاه المنطقة؛ بسبب إصرار الغرب على فرض هيمنته على الدول العربية والإسلامية، ووقوفه الدائم ضد القضايا العربية، وانحيازه الأعمى لصالح الأطراف المعادية للأمة.
- وكان للحرب الشاملة التي أعلنتها الولايات المتحدة على «الإرهاب» عقب أحداث ١١ سبتمبر، والتي استهدفت الأمة العربية والإسلامية بصورة خاصة، دور مهم في إلحاق المزيد من الضرر بصورة الولايات المتحدة والدول الغربية التي تحالفت معها؛ حيث ازداد شعور الشعوب العربية والإسلامية بالاستهداف الغربي للأمة دون سواها.

جاء الغزو الأمريكي لأفغانستان في العام ٢٠٠١م، واحتلالها من قبل القوات الأمريكية والحليفة؛ ليفاقم من مشاعر الاحتقان في العالم العربي ضد السياسات الغربية

- وجاء الغزو الأمريكي لأفغانستان في العام ٢٠٠١م، واحتلالها من قبل القوات الأمريكية والحليفة، ليفاقم من مشاعر الاحتقان في العالم العربي ضد السياسات الغربية.
- على أن العدوان العسكري على العراق عام ٢٠٠٣م، واحتلاله وتدمير مقدراته، وما رافق ذلك من جرائم وحشية بحق الشعب العراقي، أشعل مشاعر كراهية وغضب عارم في المنطقة العربية ضد الولايات المتحدة والغرب، وبصورة غير مسبوقة.
- وفيما بعد الاحتلال، تهاوت الحجج والذرائع التي ساقتها الولايات المتحدة لتبرير غزوها للعراق واحتلالها له، وثبت بشكل قاطع كذب ادعاءاتها بوجود أسلحة دمار شامل على أراضيه، ما دفع الإدارة الأمريكية للبحث عن ذرائع ومبررات جديدة للعدوان. فراحت تسوّق مسوغات أخلاقية جديدة، تارة عبر الادعاء برغبتها في جلب الحرية للشعب العراقي، وأخرى بالسعي لنشر الإصلاح والديمقراطية في المنطقة، وتقديم العراق كنموذج ديمقراطي إصلاحي للحكم الرشيد يمكن تعميمه في «الشرق الأوسط الكبير»!!
- وضاعفت الفضائح الأمريكية المخزية التي يندى لها الجبين، في سجون (أبو غريب) و(غوانتانامو)

والسجون الأمريكية السرّية، التي جرى الكشف عنها في أكثر من دولة، من مشاعر العداء والغضب ضد الولايات المتحدة التي رفعت لواء حقوق الإنسان، ثم امتهنتها بصورة بشعة في العراق وأفغانستان.

لكل ما سبق، أدركت الولايات المتحدة وبقية الدول الغربية الانعكاسات الخطيرة التي يمكن أن تترتب على الفجوة الآخذة بالاتساع بينها وبين شعوب المنطقة، التي لم تعد تُخفي مشاعر غضبها وكراهيتها وعدائها تجاه كل ما هو أمريكي وغربي. والأخطر من ذلك أن هذه المشاعر بدأت تُترجم في بعض الأحيان إلى ردود فعل مادية قوية، الأمر الذي نبّه الدول الغربية لخطورة استمرار حالة الاحتقان والغضب في الشارع العربي والإسلامي تجاه السياسات الغربية، وأقنعها بضرورة القيام بخطوات لمعالجة الأزمة القائمة وللحدّ من أخطارها.

وقد وجدت الإدارة الأمريكية والحكومات الغربية، في فضاء البث، المفتوح على مصراعيه في المنطقة العربية، فرصة سانحة للوصول مباشرة إلى المواطن العربي ومخاطبته بلغته. فكان الاهتمام الملحوظ بإنشاء فضائيات غربية موجهة للمنطقة وناطقة بالعربية.

أهداف معلنة .. و«أجندات» خفية:

المؤسسات الإعلامية الأجنبية الموجهة، والناطقة بالعربية، مؤسسات غير ربحية، تكاد تخلو من الإعلانات، وتتلقى دعمها وتمويلها بصورة كاملة من حكوماتها، التي تتولى الإشراف على إدارتها ومتابعتها، بصورة مباشرة عبر وزارات الخارجية، أو غير مباشرة من خلال إشراف مؤسسات تابعة للبرلمانات عليها.

وعلى الرغم من الاعتماد الكامل لهذه المؤسسات على تمويل حكوماتها، فإن القائمين عليها يروّجون استقلالية مؤسساتهم، وعدم خضوعها لتوجيهات الحكومات و«أجنداتها»، وهو ما لا يمكن أخذه على محمل الجد. فتلك الحكومات لا تنفق مئات الملايين من الدولارات من أجل عيون المهنية والموضوعية والأهداف النبيلة البريئة، فهي ليست جمعيات خيرية للبرّ والإحسان والتقوى، ومحرك الحكومات على الدوام البحث عن مصالحها، وهي لو لم تجد لتلك المؤسسات الإعلامية الموجهة جدوى سياسية وثقافية، لما كانت أقدمت على إنشائها ابتداء، لا أدلّ على ذلك من أن بعض تلك المؤسسات تم غلقها وإيقافها حين فشلت في تحقيق الأهداف المرسومة لها.

الأهداف المعلنة:

ويأتي في مقدمة الأهداف التي يسوّقها القائمون على المؤسسات الإعلامية الموجهة والناطقة بالعربية:

- إتاحة الفرصة أمام المواطن العربي لمعرفة ما يحدث في العالم، وبخاصة داخل الدولة المالكة للمؤسسة الإعلامية.
- تحقيق التواصل مع المواطن العربي، وتعميق التفاهم مع شعوب المنطقة.
- مد جسور الحوار مع العالم العربي، من أجل تحقيق تفاهم أكبر بين الحضارات والثقافات، بديلاً عن الصدام والمواجهة الحضارية.
- محاربة الاستبداد السياسي، ودعم الديمقراطية وجهود الإصلاح في العالم العربي.
- تقديم وجهة نظر الدولة الداعمة للمؤسسة الإعلامية إزاء القضايا المختلفة، وشرح سياساتها، وتوضيح مواقفها.

الأهداف غير المعلنة:

وتمثّل الأهداف الحقيقية وراء إطلاق المؤسسات الإعلامية الموجهة. وفي العادة يتجنب القائمون على تلك المؤسسات الكشف عن «أجنداتهم» الخفية، لكن ذلك لا يمنع حصول بعض سقطات اللسان التي تكشف المستور. ويمكن الحديث عن ثلاث مجموعات من الأهداف غير المعلنة، تسعى الدول المموّلة للمؤسسات الإعلامية الناطقة بالعربية لتحقيقها:

أهداف سياسية:

يأتي في مقدمة هذه الأهداف السياسية غير المعلنة:

١- التأثير في الرأي العام العربي، وتشكيل القناعات بما يخدم توجهات الدولة المموّلة.

٢- تجميل وتحسين صورة الدولة الداعمة، والدفاع عن سياساتها، وتسويق مواقفها.

٣- التأثير في السياسات الخارجية للدول العربية بما يتفق مع رغبات الدولة المموّلة، من خلال ممارسة ضغوط إعلامية، أو تشكيل رأي عام ضاغط داخل الدول العربية المستهدفة، عبر حملات إعلامية مكثفة ومبرمجة.

٤- تعزيز النفوذ السياسي في المنطقة العربية. ففيما تبحث دول، كألمانيا، عن موطئ قدم في المنطقة، وتسعى دول أخرى، كالولايات المتحدة، لتعزيز نفوذها القائم، فإن دولة كروسيا تسعى لاستعادة نفوذ غابر في المنطقة تمتع به الاتحاد السوفييتي فيما مضى. وقد أشار المحلل السياسي الروسي (اليكسي ماكاركين) إلى أن روسيا تسعى من خلال فضائيتها الموجهة إلى «بناء منظومة نفوذ في المنطقة العربية».

أهداف فكرية وثقافية واجتماعية:

جاء انتشار الإعلام الأجنبي الموجه متزامنًا مع مشروع العولمة (globalization) الذي قام أساسًا على تحطيم الحواجز والحدود الجغرافية والسياسية. وقد شكّلت وسائل الإعلام العابرة للحدود والقارات أحد أهم دعائم العولمة، وأداة مهمة من أدوات نجاحها في الاختراق الفكري والسياسي والثقافي والاجتماعي.

والمتابع يلحظ بوضوح أن كل فضائية، أو إذاعة موجهة، تعكس ثقافة بلدها وقيم شعبها، وتسعى لتصديرها وترويجها خارج الحدود. وثمة من يرى في اتساع ظاهرة الإعلام الأجنبي المعرّب شكلاً من أشكال التغريب و«الأمركة»، والغزو الثقافي والسياسي المبرمج، ومحاولة لإحداث تغيير جوهري في العقلية العربية، من أجل فرض مزيد من الهيمنة على المنطقة العربية ومقدراتها، والتأثير في الوعي والعقل العربي.

ويجري العمل على تحقيق ذلك في اتجاهين:

الاتجاه الأول: ترويج الثقافة والعادات ونمط الحياة الأمريكي والغربي في العالم العربي، وإعطاء صورة وردية عن الأوضاع في أمريكا والغرب، تجعل منه حلمًا ونموذجًا ومثالاً يحتذى للشباب العربي الطامح للانطلاق والباحث عن الحرية.

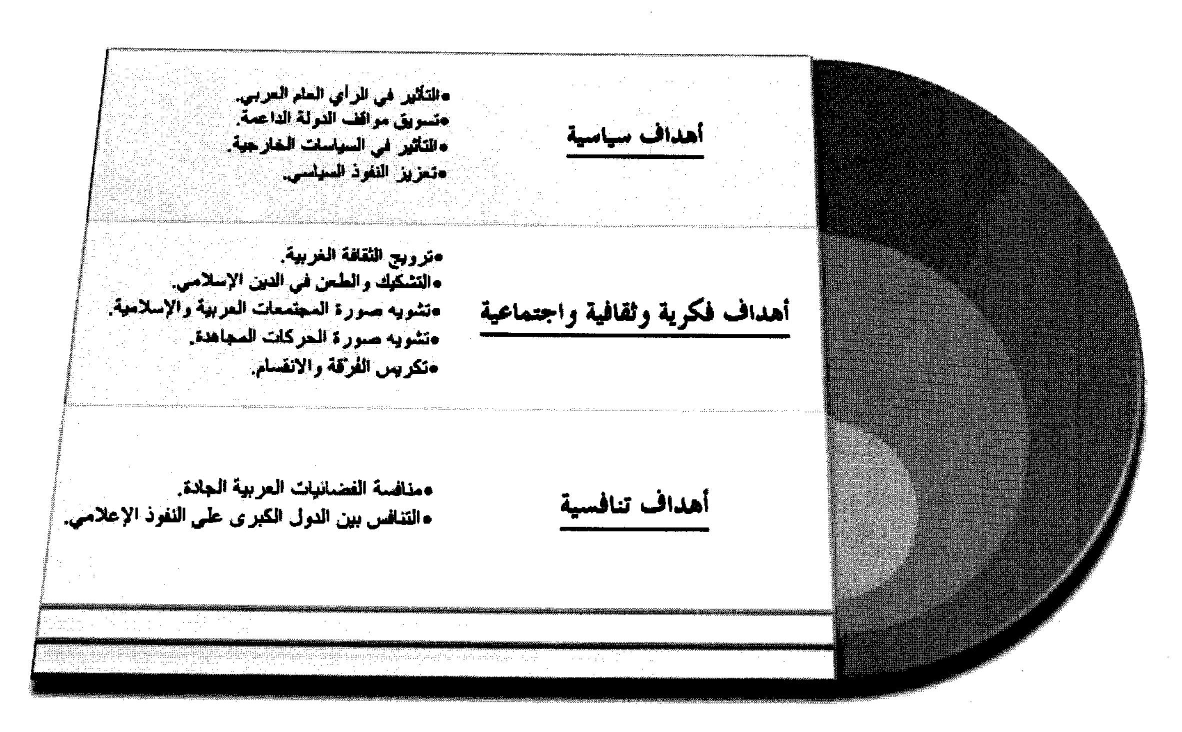
والاتجاه الثاني: إثارة الجدل واللغط حول كثير من القضايا الفكرية والثقافية والاجتماعية في العالم العربي، والتشكيك في الدين الإسلامي، والطعن فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ويرى أستاذ العلوم السياسية الدكتور محمد المسفر أن الفضائيات الأجنبية الناطقة بالعربية تشكل «جزءًا من حرب طويلة ضد الأمة العربية والإسلامية وهويتها، تواصلت على مدى قرون، واتخذت أشكالاً مختلفة عبر التاريخ». ويشير إلى أن الهدف من تلك الفضائيات «دخول البيت العربي، واستهداف النواة الأساسية للهوية العربية والإسلامية المتمثلة في خلية العائلة، بهدف إعادة صياغة العقل العربي من الأساس، لتمهيد الأرضية الثقافية للقوى المتصارعة في المنطقة».

ويلمس المتابع لبعض الفضائيات الأجنبية الناطقة بالعربية سعيًا حثيثًا لتحقيق جملة من الأهداف الخبيثة من قبيل:

- تشويه صورة المجتمعات العربية والإسلامية، ووصمها بالتخلف والرجعية والجهل، عبر التركيز على بعض النماذج السلبية، وإثارة قضايا حساسة كوضع المرأة، وتعدد الزوجات، ونظام العقوبات في الإسلام، بصورة مشبوهة ومغرضة.
- تشويه صورة الحركات المجاهدة، واتهامها بالإرهاب والدموية. وكذلك تشويه صورة الحركات الإسلامية، واتهامها بالتطرف والتكفير والتخوين، ووضع جميع الحركات في سلة واحدة.

الأهداف الخفية للمؤسسات الإعلامية الأجنبية الموجهة والناطقة باللغة العربية



- تكريس حالة الفرقة والانقسام في المجتمعات العربية والإسلامية، عبر التحريض وإثارة قضايا الأقليات، وإذكاء روح العنصرية والطائفية، والتعامل مع المجتمعات العربية والإسلامية كمجتمعات فسيفسائية متناحرة عرقيًّا وطائفيًّا، في الوقت الذي يتم فيه تقديم قضايا الأقليات والتباينات العِرْقية والطائفية في المجتمعات الغربية على أنها شكل من أشكال التنوع الثقافي الإيجابي.

أهداف تنافسية:

وتأتي في سياقين:

- **الأول**: منافسة الفضائيات العربية الجادة التي نجحت بإحراج الإعلام الغربي؛ عبر تغطياتها القوية للقضايا المهمة، بخاصة في فلسطين والعراق وأفغانستان. وتنتقد الحكومات الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة، ما تعتبره حملات تشويه ودعاية سلبية مبرمجة تبثها وتوجهها ضدها بعض الفضائيات العربية. وقد صرح رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب الأمريكي (هنري هايد) بأن الشبكة الإعلامية الجديدة التي أطلقتها الولايات المتحدة باللغة العربية، والتي ضمت فضائية (الحرّة) و(راديو سوا) ومجلة (هاي) الشبابية، «ستساهم في مواجهة الإعلام المضلل، والدعاية التي تؤجج المشاعر المعادية لأمريكا في منطقة الشرق الأوسط».

وقد تمكنت بعض الفضائيات العربية الإخبارية بالفعل من سحب البساط من تحت أقدام مؤسسات إعلامية غربية عريقة، مثل الـ(CNN) و الـ(BBC)؛ من خلال اعتماد معايير إعلامية مهنية احترافية، تقوم على أسس النزاهة والحياد والموضوعية، وفسح المجال أمام وجهات النظر المختلفة. وهي معايير تبجَّح بها الإعلام الغربي طويلاً، وروّجها كمبررات لتفوقه على الإعلام العربي الرسمي أحادي النظرة.

ولم يقتصر تطور الفضائيات العربية الإخبارية على اعتماد معايير إعلامية متقدمة، فقد نجحت كذلك في تطوير إمكاناتها التقنية والفنية، ما زاد من قدرتها على جذب المشاهد، واستقطابه لمشاهدتها. كما توسعت في التغطية المباشرة للأحداث لحظة وقوعها، بكفاءة عالية وعبر شبكة واسعة من

المراسلين.

- **الثاني**: التنافس المحموم بين الدول الكبرى على النفوذ الإعلامي في المنطقة العربية، ورغبة كل دولة غربية بمنافسة الدول الأخرى على الوصول إلى عقل المواطن العربي وقلبه، والتأثير في ميوله وقناعاته. وقد شكّل انطلاق فضائية (الحرّة) الأمريكية استفزازًا لدول مثل روسيا وفرنسا وألمانيا كي تدخل حلبة المنافسة، حيث لم ترغب بترك الفضاء العربي حكرًا على المؤسسات الإعلامية الأمريكية.

الفرنسي «آلان دو بوزيلهاك» الذي تولى إدارة الفضائية الفرنسية «فرانس ٢٤»، أشار صراحة إلى الأهداف التنافسية بين الدول الكبرى على النفوذ الإعلامي في المنطقة، وبرَّر إطلاق قناة فرنسية دولية تبث باللغة العربية بكون محطات التلفزة الأنجلوسكسونية، وبخاصة الـ(CNN) والـ(BBC)، تهيمنان على صناعة الرأي العام في العالم. يضيف بوزيلهاك: «نسمع ونشاهد التحليلات الإخبارية الأمريكية والبريطانية، والرؤية العربية تُبثّ على نطاق واسع عن طريق القسم الإنجليزي لمحطة الجزيرة، وها هي فرنسا الآن تقدم رؤيتها للعالم أيضًا. يجب أن تصبح (فرانس ٢٤) واحدة من الأصوات التي تشكّل الرأي العام وتصنع الرؤى».

نماذج من الإعلام الأجنبي المعرّب:

قناة الحرّة (ALHURRA) الأمريكية:

ثمة من يرى أن إنشاء (الحرّة) جاء كرد فعل أمريكي على الدور الذي لعبته فضائية الجزيرة؛ التي لم تُخْفِ الإدارة الأمريكية استياءها من مواقفها وسياساتها الإعلامية. فيما رأى آخرون أن (الحرّة) كانت محاولة أمريكية لاستنساخ نسخة عربية من الـ(CNN)؛ من أجل تسويق سياسات الولايات المتحدة في المنطقة.

وكانت (الحرّة) أكثر وسيلة إعلامية لفتت الانتباه، ووجهت الأنظار إلى الإعلام الأجنبي الرسمي الناطق بالعربية. وربما شكّلت انطلاقتها -التي أثارت لغطًا كبيرًا وجدلاً واسعًا- بداية الاهتمام العربي بظاهرة الإعلام الأجنبي المعرّب. وأسهم في زيادة المخاوف والهواجس في العالم العربي من انطلاقتها، مبالغة القناة في رفع سقف توقعاتها بالنجاح؛ نظرًا لما تتمتع به من إمكانات مالية وتقنية هائلة، وما روّجته من شعارات براقة خشي البعض أن تنجح في خداع المواطن العربي والتسلل إلى عقله وقلبه.

(الحرّة) قدّمت نفسها عبر موقعها الإلكتروني كقناة «تسعى لتقديم أخبار دقيقة ومتوازنة وشاملة»، وشدّدت على أن هدفها «توسيع آفاق مشاهديها ليتمكنوا من تكوين آراء واتخاذ قرارات مبنية على معلومات صحيحة». مضيفة أنها «قناة تلفزيونية غير تجارية ناطقة باللغة العربية، ومكرسة بصفة رئيسية لتقديم الأخبار والمعلومات وتغطية الأحداث في الشرق الأوسط والعالم».

(نورمان باتيرز) رئيس إدارة الشرق الأوسط في مجلس أمناء الإذاعات الدولية، الذي يشرف على (الحرّة) أظهر كثيرًا من الثقة بالنجاح لدى انطلاقة القناة، وقال: إنها «ستقدم آفاقًا جديدة للمشاهدين في الشرق الوسط، ونعتقد أنها ستُوجِد درجة كبرى من الفهم الحضاري والاحترام». وبلهجة لا تخلو من الغرور قال: «إن جزءًا مهمًّا من رسالتنا هو أن نكون مثالاً للصحافة الحرّة على الطريقة الأمريكية، وأن نكون مميزين مثل عمود نور في سوق إعلامي تهمين عليه الإثارة والتشويق».

وبذات الغرور تحدث مدير الأخبار في (الحرّة) موفق حرب: «نحن نعمل لنصنع معايير ذهبية يعجز عنها الآخرون، أحسن تقنيات، وأفضل المهنيين، والبرامج المبتكرة، والخلفيات التي تخطف الأبصار»، مروّجًا أن شعار (الحرّة) سيكون «الحرية والديمقراطية»، ليعلن بعد ذلك بكثير من الصلف والتحدي لوسائل الإعلام العربية: «نحن قادمون».

وقد جاء انطلاق القناة ضمن مساعي الإدارة الأمريكية لترويج مبادرتها لإقامة مشروع «شرق أوسطي ديمقراطي كبير» في المنطقة، وهو المشروع الذي أطلقته عقب احتلالها للعراق. وتُولي القناة

اهتمامًا كبيرًا في تغطياتها الإخبارية للقضايا موضع الاهتمام الأمريكي في المنطقة، بخاصة العراق وأفغانستان وشئون ما يسمى بـ «الإرهاب».

بدأت الحرّة بثها في ١٤ فبراير (شباط) ٢٠٠٤م من مقرها الرئيس في مقاطعة سبرنغفيلد من ضواحي ولاية فيرجينيا، على بعد ٢٠ دقيقة من وسط العاصمة الأمريكية واشنطن، مقر السياسة والدبلوماسية الأمريكية. واعتبرت أكبر مشروع إعلامي أمريكي موجه للمنطقة العربية، بل إن صحيفة الحياة اللندنية اعتبرتها أكبر مشروع إعلامي سياسي غربي طموح موجَّه للعرب منذ تدشين القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية (B.B.C) عام ١٩٣٨م، وإذاعة صوت أمريكا بالعربية عام ١٩٤٢م.

وتخضع قناة الحرّة في تمويلها للكونجرس الأمريكي، الذي يتولى الإشراف عليها عبر مجلس أمناء الإذاعات الأمريكية The Broadcasting Board of Governors (BBG)، والذي يتألف من تسعة أعضاء، أربعة منهم جمهوريون، وأربعة ديمقراطيون، إضافة لوزير الخارجية بحكم موقعه الرسمي. وقد خصص الكونجرس لـ(الحرّة) ميزانية بلغت ٦٢ مليون دولار في عامها الأول، وتم تجهيزها بمعدات وتجهيزات متطورة، وبفريق عمل ضخم ضم نحو مائتين من الصحفيين والإعلاميين العرب تم استقطاب معظمهم من مؤسسات إعلامية أخرى.

وواجهت (الحرّة)، منذ اللحظة الأولى، شكوكًا من المواطن العربي بنزاهتها وموضوعيتها، واستقلاليتها عن السياسة الأمريكية. مدير أخبار القناة قال: إنها «لن تكون امتدادًا للسياسة الأمريكية في المنطقة، ولن تخضع لوزارة الخارجية أو الإدارة الأمريكية»، مؤكدًا أنها «ستكون حيادية تمامًا، ولن تنحاز لأي جانب»، إلا أن هذه التأكيدات تبخّرت تمامًا، وذهبت أدراج الرياح حين جاءت برامج القناة فيما بعد لتخالف ما ذهب إليه مدير أخبارها.

الشكوك التي حامت حول (الحرّة) فرضت على القناة تحديًا آخر أثّر في مستواها وقدرتها على المنافسة الإعلامية، ويتعلق بمدى استعداد الإعلاميين العرب للعمل في قناة صنّفت في العالم العربي كقناة مشبوهة. وقد أظهرت دراسة أجريت في مصر أن أكثر من ٨٥ بالمائة من الإعلاميين المستطلَعين يرفضون العمل في قناة (الحرّة) التي رأى معظمهم أنها منحازة وغير محايدة.

راديو سوا (RADIO SAWA) الأمريكي:

اعتبر (راديو سوا) امتدادًا و«وريثًا شرعيًّا» لإذاعة (صوت أمريكا) التي أطلقت عام ١٩٤٢م، وبدأت منذ العام ١٩٥٠م بتقديم خدمة إخبارية باللغة العربية. وقد عملت (صوت أمريكا) كناطق رسمي باسم الفرع التنفيذي المسئول عن السياسة الأمريكية الخارجية، الذي هو جزء من وكالة الاستعلامات الأمريكية، التي أُوكل إليها مهمة الدفاع عن سياسات الولايات المتحدة الأمريكية، وشرحها وتبريرها، وتقديم صورة إيجابية عن المجتمع الأمريكي. وقد ظل تأثير إذاعة (صوت أمريكا)، التي كانت تقدم خدماتها بـ٣٤ لغة، منها العربية، محدودًا في العالم العربي.

يتبع (راديو سوا) هو الآخر لمكتب خدمات الإذاعة الدولية الأمريكية، الذي يشرف عليه ويموّله مجلس أمناء الإذاعات الدولية. وتراوحت ميزانيته السنوية بين ٢٢ و ٣٥ مليون دولار. وبخلاف (صوت أمريكا)، التي كانت تبثّ لساعات محدودة باللغة العربية، فإن (راديو سوا) الذي بدأ بثه في ٢٣ مارس (آذار) ٢٠٠٢م، يبث برامجه باللغة العربية على مدار الساعة.

وفيما كان اهتمام إذاعة (صوت أمريكا) ينصبّ على النُّخَب السياسية والثقافية في العالم العربي، وبالتالي اهتمت كثيرًا بالبرامج الإخبارية والتحليلية والثقافية، فإن حصة الأخبار والمعلومات في (راديو سوا) لا تتعدى الـ٢٠٪ من فترات بثه، فيما يذهب باقي الوقت للأغاني ولموسيقى البوب؛ حيث يستهدف (سوا) فئة الشباب العربي، ويركز عليهم بصورة خاصة، ما رأى فيه البعض تغيرًا في الاستراتيجية الإعلامية الأمريكية من حيث طبيعة الشريحة المستهدَفة.

وفضلاً عن البث الإذاعي، فإن (راديو سوا) يبث برامجه على عدة أقمار صناعية (النايل سات، والعرب سات، والأوروبي). وفي تسويقه لنفسه قال في موقعه الإلكتروني على الإنترنت: إنه يسعى إلى «التواصل الفعَّال مع الشباب العربي في منطقة الشرق الأوسط، عن طريق تزويدهم بآخر الأخبار والمعلومات والمواد الترفيهية التي تبث عبر محطات الـ(FM) والموجات المتوسطة المنتشرة في جميع أرجاء المنطقة».

ويعتمد (راديو سوا) الإيقاع السريع الذي يناسب الشباب، ويكرر مذيعوه ومذيعاته بين البرامج والفقرات، عدة شعارات من قبيل: «ابق على اتصال مع العالم»، و«استمعوا لنا ونحن نستمع إليكم»، و«أجمل الأغاني وآخر الأخبار من المحيط إلى الخليج». غير أن أشهر تلك الشعارات وأكثرها تداولاً في المحطة: «سوا سوا .. إذاعة عالهوا». وتستخدم الإذاعة في برامجها عدة لهجات عربية محلية؛ من أجل جذب عدد أكبر من الشباب العرب في الأقطار المختلفة؛ حيث تستخدم لهجات مصرية وخليجية وعراقية، وسودانية ولهجات أهل الشام، إضافة إلى اللغة العربية الفصحى.

مجلة هاي (HI) الأمريكية:

بعد أربعة أشهر من احتلال القوات الأمريكية للعراق، أُطلقت (هاي) في شهر يوليو (تموز) ٢٠٠٣م كمجلة شهرية ناطقة باللغة العربية، وتهتم بالشباب العربي من عمر ١٨ – ٣٥ سنة. وفي ١٦ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٤م أطلقت (هاي) موقعًا إلكترونيًا على شبكة الإنترنت، يضم نسخة إنجليزية للمقالات والموضوعات التي تحويها المجلة، في محاولة لتعميم الاستفادة منها في الوصول إلى الشباب في مختلف دول العالم الناطقة بالإنجليزية.

ووفقًا لما جاء في موقعها الإلكتروني، زعمت المجلة أنها تركِّز على المصالح والاهتمامات المشتركة بين الشباب في الولايات المتحدة وخارجها، على أمل أن تتمكن من مد الجسور من أجل تحقيق تفاهم أعظم بين الثقافات والحضارات. وادعى القائمون على المجلة أنها تهدف إلى «تعزيز وفهم القيم الأمريكية، وتوفير معلومات عن الثقافة الأمريكية ليست متاحة في الشرق الأوسط». غير أن مضمون المجلة كان يكشف بجلاء عن هدفها غير المعلن، وهو تجميل صورة الولايات المتحدة في العالم العربي، وتسويق مواقفها وسياساتها وثقافتها، والتأثير في الرأي العام العربي، ولا سيما شريحة الشباب التي أعلنت منذ اللحظة الأولى أنهم موضع اهتمامها واستهدافها.

مكتب الإعلام الخارجي في وزارة الخارجية الأمريكية المسئول عن ترويج الثقافة الأمريكية هو الذي وقف وراء إصدار (هاي)، التي بلغت ميزانيتها السنوية نحو خمسة ملايين دولار. لكن المجلة الشبابية التي يعني اسمها بالعربية (مرحبًا)، لم تعمّر طويلاً، وتقرر وقف نسختها المطبوعة في ديسمبر (كانون أول) ٢٠٠٥م؛ حيث كانت تطبع قبل وقفها ٥٥ ألف نسخة، تقوم بتوزيعها في ١٨ بلدًا عربيًا، غير أن المجلة لم تنجح في بيع أكثر من ٢٥٠٠ نسخة من العدد الواحد، فيما اضطرت لتوزيع أكثر من ٩٥٪ من أعدادها بصورة مجانية.

الفضائية الإسرائيلية:

بدأ اهتمام الكيان الصهيوني بالإعلام الموجه للعالم العربي في وقت مبكر. فقد أفردت إذاعة منظمة (الهاغاناة) الإرهابية -التي شكّلت الذراع العسكري للحركة الصهيونية منذ بداية الأربعينيات- فترة من بثها للغة العربية. وكان الهدف في حينه بث رسائل دعاية تثير الرعب في نفوس الفلسطينيين؛ كجزء من الحرب النفسية الهادفة إلى دفع الفلسطينيين لترك أرضهم والهجرة منها. نفس الأمر فعلته المنظمات الصهيونية الإرهابية الأخرى في ذلك الوقت مثل (ليحي) و(إيتسل)، عبر إذاعاتها التي كانت تخصص وقتًا من بثها للحرب النفسية باللغة العربية.

وعقب قيام الكيان الصهيوني أوْلى اهتمامًا كبيرًا بالإعلام الموجه للعرب؛ حيث دأبت إذاعة (صوت إسرائيل) على تخصيص عدة ساعات للبث باللغة العربية. وعقب عدوان عام ١٩٦٧م؛ ازداد عدد

ساعات بثها بالعربية ليصل إلى ١٤ ساعة، فيما تبث الآن لمدة ١٨ ساعة يوميًا.

التلفزيون الإسرائيلي هو الآخر أولى اهتمامًا كبيرًا بالدعاية والحرب النفسية في صفوف العرب ومنذ وقت مبكر، حيث خصص عدة ساعات للبث باللغة العربية منذ العام ١٩٦٨م، وحتى العام ٢٠٠٢م، وبمعدل ٢٠ ساعة أسبوعيًا، لتتجه الأنظار بعد ذلك إلى الفضائية الإسرائيلية التي خصصت بالكامل للخدمة باللغة العربية؛ حيث انطلقت بالفعل مطلع العام ٢٠٠٢م برأس مال قيمته عشرون مليون دولار، وبميزانية سنوية بلغت ستة ملايين دولار، ووصل عدد ساعات بثها على القمر الإسرائيلي عاموس إلى ١٢ ساعة متواصلة يوميًا.

كان واضحًا منذ البداية أن الفضائية الإسرائيلية لن تستطيع الاستفادة من أي كوادر إعلامية عربية من خارج حدود فلسطين المحتلة، فاعتمدت بصورة كبيرة على إعلاميين وفنيين متعاونين معها من الدروز والبدو، كما استفادت من مجموعة إعلاميين لبنانيين كانوا يعملون في وسائل الإعلام التابعة لميليشيات أنطوان لحد العميلة، واضطروا للهرب من جنوب لبنان عقب انسحاب القوات الإسرائيلية وانهيار تلك الميليشيات عام ٢٠٠٠م. غير أن المهام الأساسية والحساسة في الفضائية والمتعلقة بتحرير الأخبار وإعداد البرامج السياسية أُوكِلَتْ إلى إعلاميين يهود ناطقين بالعربية من مواليد مصر والعراق والمغرب، وتمت العناية بهم منذ وقت مبكر من قبل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية.

ويُنْظَر إلى سفير (إسرائيل) السابق في مصر (موشي ساسون) على أنه صاحب فكرة الفضائية الناطقة بالعربية؛ حيث كان اقترح إنشاء فضائية تقدم (إسرائيل) على صورتها الحقيقية، وليس على الصورة المغلوطة التي تصوِّرها القنوات العربية. ولم يتردد رئيس الوزراء الإسرائيلي في حينه (آرئيل شارون) في الموافقة على الفكرة.

تتبع وسائل الإعلام الإسرائيلية الناطقة بالعربية في إدارتها لدائرة المخابرات في مكتب رئيس الوزراء، الذي تتبع له كافة الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية. ولم يكن ثمة خلاف بين حزبي الليكود والعمل على أهمية هذه الفضائية الموجهة للعرب، وكان قرار إنشائها ثمرة تعاون مشترك بين شارون ووزير خارجيته آنذاك (شمعون بيريز)، حيث رأى كلا الحزبين في مثل هذه الفضائية سلاحًا فاعلاً لمواجهة ما اعتُبر «تشويهًا لصورة إسرائيل في الفضائيات العربية»، ولا سيما أن التفكير بإنشاء الفضائية جاء متزامنًا مع انتفاضة الأقصى التي حظيت بمتابعة حثيثة، وتغطية موسعة، وتعاطف كبير من الفضائيات العربية، ما أسهم في فضح الجرائم الإسرائيلية، وألحق مزيدًا من الضرر بصورة الكيان الصهيوني.

> تتبع وسائل الإعلام الإسرائيلية الناطقة بالعربية في إدارتها لدائرة المخابرات في مكتب رئيس الوزراء، الذي تتبع له كافة الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية.

الوزير الإسرائيلي (رعنان كوهين) الذي كان مسؤولاً في حينه عن سلطة البث الإسرائيلية، أعلن بوضوح أن الهدف من وراء إنشاء الفضائية الإسرائيلية استخدامها «سلاحًا مضادًا للدعاية المسمومة التي تطوقنا». وحتى حين حاولت المتحدثة باسم سلطة البث الإسرائيلية (شولاميت جولان) ترويج أهداف نبيلة للفضائية من قبيل «تعريف العالم العربي بالشعب الإسرائيلي، وبفلسطينيي الـ٤٨ مجتمعًا وسياسة وتكنولوجيًا»، فإنها لم تستطع تجاهل الإشارة إلى الهدف الحقيقي للفضائية؛ حيث أكدت أنها سعت لتفنيد «الدعاية العربية المغرضة عن المجتمع الإسرائيلي».

الفضائية الإسرائيلية التي انطلقت بآمال عريضة، وبسقف توقعات مرتفع، سرعان ما تعثرت، ولفظت أنفاسها قبل أن تنهي عامين من عمرها القصير. ففي بداية شهر سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٣م اتخذت سلطة البث الإسرائيلية قرارًا بإغلاق الفضائية بعدما اتضح ضعفها وهزالها، وتبين عجزها عن مواجهة الفضائيات العربية، وعن الوصول إلى قلب المواطن الفلسطيني والعربي، وإلى عقله ووعيه.

روسيا اليوم (Russia Today):

هي جزء من مشروع إعلامي روسي طموح، ومن شبكة قنوات تلفزيونية روسية دولية تشرف حاليًا على ثلاث فضائيات، واحدة تبث باللغة الإنجليزية، وأخرى بالعربية، وثالثة بالروسية، وتطمح الشبكة بإطلاق فضائية تبث بالأسبانية في وقت قريب.

انطلقت (روسيا اليوم) الناطقة بالعربية في شهر مايو (آيار) ٢٠٠٧م، وتعد من أحدث الفضائيات الرسمية الموجّهة والناطقة بالعربية. ميزانية السنة الأولى لـ (روسيا اليوم) بالعربية تبلغ ٣٥ مليون دولار، فيما تبلغ ميزانية الفضائية الناطقة بالإنجليزية ٣٠ مليونًا. وتموّل الخارجية الروسية فضائية (روسيا اليوم) عبر وكالة نوفوستي التي تملك الجزء الأكبر من أسهم الفضائية العربية.

القائمون على (روسيا اليوم) يقولون: إنها تأتي في إطار مشروع تلفزيوني روسي يهدف إلى التوجه للعالم برؤية روسية معاصرة. وبحسب المدير العام للفضائية العربية سيرغي فرولوف فإنها تسعى إلى إطلاع المشاهد العربي على العالم وقضاياه بعيون روسية، لكن دون ابتعاد عن الموضوعية.

رئيس تحرير الأخبار في الفضائية الروسية (يفغيني سيدوروف) أشار إلى أن (روسيا اليوم) ستعمل على إبلاغ المشاهدين العرب بما يحدث في روسيا، ونقل وجهات نظر روسيا تجاه القضايا إليهم، وأكد أن الفضائية، وإن كانت ممولة من الحكومة الروسية، فإنها لن تكون بوق دعاية للكرملين، ويؤكد أن لدى إدارة الفضائية من الاستقلالية والإرادة ما يكفي لمواجهة أي ضغوط، مشدِّدًا على أن هدف (روسيا اليوم) ملء الفراغ الإعلامي الروسي في المنطقة العربية «بمهنية وموضوعية؛ عبر نقل صورة حقيقية عما يجري في روسيا».

وهو ما اعترض عليه الإعلامي السوري والمدير السابق لمكتب قناة الجزيرة في موسكو أكرم خزام الذي كان عُيّن مشرفًا عامًّا للقسم العربي في (روسيا اليوم)، قبل أن يقدم استقالته التي برَّرها بأنه «بدا لبعضهم أني مستقل أكثر من اللازم». ويؤكد ذلك المحلل السياسي الروسي (أليكسي ماكاركين) الذي قال: إن (روسيا اليوم) «قناة تخضع لسيطرة الدولة، وتنقل موقف الدولة مباشرة»، وأشار إلى أن لروسيا مصالحها التي تسعى لتحقيقها في المنطقة.

الفضائية الفرنسية (FRANCE 24):

انطلقت فضائية (فرنسا ٢٤) في شهر ديسمبر (كانون أول) ٢٠٠٦م كأول فضائية فرنسية دولية متعددة اللغات. فكانت البداية باللغة الإنجليزية كمرحلة أولى، ثم انتقلت إلى البث باللغة العربية في شهر أبريل (نيسان) ٢٠٠٧م، ولمدة أربع ساعات يوميًا، فيما تخطط للبث باللغة الأسبانية في مرحلة لاحقة. وتتولى الحكومة الفرنسية تمويل (فرانس ٢٤) التي بلغت ميزانيتها للعام الأول نحو ٨٢ مليون يورو.

يقول القائمون على فضائية (فرانس ٢٤): إنها حققت نجاحات مهمة رغم عمرها القصير نسبيًا، ويقدرون عدد مشاهديها بنحو عشرة ملايين مشاهد، فيما يقولون: إن عدد زوار موقعها الإلكتروني خلال الشهور الثلاثة الأولى من انطلاقتها وصل إلى نحو خمسة ملايين زائر، ويفسرون هذا الإقبال برغبة المشاهدين في المنطقة العربية بالاطلاع على وجهة نظر غير وجهة النظر الأنجلوسكسونية، ولعل هذا يوضح بجلاء واحدًا من الأهداف الحقيقية للفضائية الفرنسية، من حيث رغبة فرنسا بالبحث عن مناطق نفوذ جديدة، ومنافسة النفوذ السياسي والثقافي الأنجلوسكسوني في المنطقة. فالفضائية الفرنسية الدولية كانت طموحًا خاصًّا للرئيس الفرنسي السابق (جاك شيراك) الذي يُنظر إليه على أنه صاحب الفكرة والمبادرة؛ حيث أكَّد في العام ٢٠٠٢م على ضرورة إنشاء فضائية دولية تُسمع صوتَ فرنسا للعالم، وتقدّم الأحداث العالمية من منظور فرنسي.

وعلى الرغم من تمويل الحكومة الفرنسية للفضائية، وتصريح القائمين عليها صراحة بأنها خطوة فرنسية للمنافسة، وتوسيع مساحات النفوذ، فإن ذلك لم يمنع إدارتها من ترويج أنها ستعالج القضايا بصورة مهنية

ومستقلة تمامًا، كما صرح (دو بوزيلهاك) الذي يتولى إدارة الفضائية، والذي قال: إن الحكومة الفرنسية لن يكون لها نفوذ، أو تأثير على ما تبثه القناة «فنحن مستقلون عن أي حزب سياسي مهما كان، وعن أي حكومة، وعن أي لوبي، وهذا ضروري من أجل جعل (فرنسا ٢٤) محل ثقة جمهورها».

الفضائية الألمانية دوتشيه فيليه (DEUTSCHE WELLE):

بدأت فضائية صوت ألمانيا الحرّ منذ شهر أغسطس (آب) ٢٠٠٢م البث باللغة العربية لمدة ثلاث ساعات يوميًّا. وكانت القناة التلفزيونية الأوروبية الأولى التي تبث نشرات إخبارية باللغة العربية، ويقدمها مذيعون عرب. وتبث «دوتشيه فيليه» برامجها من برلين باللغات الألمانية والإنجليزية والأسبانية والعربية ولغتي الداري والبشتو الأفغانيتين.

وفي شهر أبريل (نيسان) ٢٠٠٧م قررت (دوتشيه فيليه) رفع ساعات بثها بالعربية من ثلاث ساعات إلى ثماني ساعات، وبحسب المخطط الجديد للمحطة يتوقع أن يرتفع عدد ساعات البث ابتداء من ديسمبر (كانون أول) ٢٠٠٧م ليصل إلى اثنتي عشرة ساعة يوميًّا، تتخللها نشرات أخبار باللغة العربية وباللغة الإنجليزية، بحيث يصبح عدد النشرات التي تبث باللغة العربية ست نشرات.

وحسب القائمين عليها، تسعى الفضائية الألمانية من خلال تمديد فترة بثها، إلى «تكثيف التغطية الإخبارية، وتعزيز الحوار مع العالم العربي، بجانب تكثيف مناقشة التطورات الاجتماعية في البلدان العربية، وتعميق الحوار مع أولئك الذين أبدوا اهتمامًا بألمانيا وأوروبا، بهدف التعرف على القيم المشتركة والمختلفة كذلك». وحسب رأي المدير العام لمؤسسة دويتشه فيليه الإعلامية (إيريك بيترمان)؛ فإن بث الفضائية بالعربية يشكل فرصة «للتعرف على وجهات النظر الألمانية والأوروبية»، لكنه يشير بوضوح إلى أحد الأهداف الحقيقية للفضائية: «نريد أن نقوّي مركزنا في العالم العربي كصوت ألماني من أوروبا، وعلاوة على ذلك يريد تليفزيون (DW) أن يساهم بقسط في الحوار مع العالم الإسلامي».

نائب رئيس القسم العربي في الفضائية الألمانية محمد إبراهيم يرى أن اللغة العربية كانت غائبة عن التلفزيون الألماني، وأن «فتح القنوات مع العالم العربي أظهر مخزونًا مهمًّا يمكن البناء عليه؛ كون ألمانيا كانت بعيدة تمامًا عن هذه البقعة من العالم».

وتشرف على الفضائية هيئة أمناء «الدوتشيه فيليه»، وهي مؤلفة من ممثلين عن الحكومة والأحزاب السياسية، والمنظمات النقابية والمنظمات الكنسية. أما تمويلها فيعتمد على وزارة الخارجية الألمانية. لكن رئيس القسم العربي في الفضائية مصطفى السعيد ينفي وجود أي تدخل للوزارة في توجيهها، مشيرًا إلى أنها لا تبث داخل ألمانيا، وأن الهدف الأساسي من ذلك ضمان ألا يكون هناك تأثير مباشر على المواطنين الألمان، لكنه لا ينفي خضوع الفضائية للخلفيات والاستحقاقات التاريخية، ولعقدة الذنب التي تحملها ألمانيا تجاه اليهود عن الحقبة النازية؛ حيث يؤكد أن كل ما يفهم منه أنه «مُعادٍ للسامية» يتم استبعاده، ويضيف: «أصبح الألمان اليوم محرجين بعملية النقد التي توجه إلى إسرائيل».

أبرز ما في ساعات البث الثمانية لفضائية (دوتشيه فيليه) تقديم نشرات إخبارية كل ساعة، إضافة إلى برامج تتناول أبرز المستجدات السياسة والاقتصادية، والثقافية والاجتماعية والرياضية. ولعل المأخذ الرئيس عليها أنها بقيت أسيرة دور المترجَم إلى العربية. فمع أن الموظفين في القسم العربي للفضائية ينتمون إلى جنسيات عربية مختلفة، إلا أن هذا التنوع في الخلفيات لا يعكس نفسه في برامج الفضائية؛ لكون الجزء الأكبر من العمل يقتصر على ترجمة ما يعده القسم الألماني.

فضائيات على الطريق:

ويبدو أن سباق الفضائيات المعرّبة لن يتوقف عند حدود الفضائيات السابقة، التي يضاف لها العديد من الإذاعات الأجنبية الموجهة والناطقة بالعربية.

فهيئة الإذاعة البريطانية الـ(BBC) أعدت العُدة لإطلاق فضائية باللغة العربية، والدانمارك تفكر هي الأخرى بإطلاق برامج تلفزيونية وإذاعية باللغة العربية موجهة للمنطقة، و«الحبل على الجرار» كما يقولون.

التأثيرات والأخطار .. هل ثمة مبرر للخوف؟

إلى أي حدّ تشكل المؤسسات الإعلامية الأجنبية، الناطقة بالعربية، خطرًا على المواطن العربي ينبغي التنبه له والعمل على مواجهته؟ ثمة وجهتي نظر وخلاف بين فريقين إزاء ذلك:

فثمة فريق يرى أن هناك الكثير من التضخيم والمبالغة غير المبررة في الخوف والقلق، ويبرر وجهة نظره بالعديد من المسوغات من أهمها:

١- أن المتلقي العربي للفضائيات والإذاعات الغربية الناطقة بالعربية، بات أكثر ذكاءً ووعيًا في التعاطي مع الدعاية الإعلامية الموجهة. وأن مهمة وسائل الإعلام الأجنبية في كسب قلب المواطن العربي وعقله لم تعد سهلة كما يظن البعض.

٢- قياس تأثير هذه المؤسسات الإعلامية، ورصد مدى نجاحها وحجم متابعتها في العالم العربي، يكشف عن إخفاق معظمها في تحقيق أهدافه المرسومة، ما اضطر بعضها للتوقف.

٣- المؤسسات الإعلامية العربية الجادّة باتت تملك قدرة كبيرة على منافسة الإعلام الغربي الموجه، وعلى الحدّ من فاعليته وتأثيره، وعلى تحصين المواطن العربي من سلبياته.

٤- السياسات العدائية والممارسات الاستفزازية للدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة و(إسرائيل)، تثير غضب المواطن العربي، وتضع حواجز نفسية عميقة أمام تأثره بدعاية مؤسساتها الإعلامية الموجهة.

٥- الفضائيات والإذاعات الأجنبية الموجهة لا تستطيع كسب معركة المصداقية والموضوعية؛ بسبب خضوعها لـ«أجندات» حكوماتها المموّلة التي تميل في بعض الأحيان للتركيز على الأهداف الدعائية المباشرة، وتضحي بالمعايير المهنية.

٦- ثمة فضائيات عربية تمارس سياسة التغريب والإفساد الأخلاقي؛ كمحطات (الفيديو كليب) والرقص والغناء، ربما تكون أكثر خطرًا على ثقافة العرب وقيمهم وأخلاقهم من الفضائيات الأجنبية الناطقة بالعربية.

ثمة فريق في المقابل يؤكد على خطر المؤسسات الإعلامية الناطقة بالعربية، ويرى أن الجهود المبذولة لمواجهة أخطارها وتأثيراتها السلبية ما تزال ضعيفة، ودون المستوى المطلوب. ويسوّغ هذا الفريق وجهة نظره بالعديد من المبررات، منها:

١- أن المبالغة في الرهان على وعي المواطن العربي وإدراكه لمرامي تلك المؤسسات الموجهة وأهدافها، ينطوي على قدر من الخطورة. فليس كل العرب على درجة واحدة من الوعي والحصانة، وبعض الشرائح يمكن أن تنخدع وتتأثر بالرسالة الإعلامية الموجهة.

المبالغة في الرهان على وعي المواطن العربي وإدراكه لمرامي تلك المؤسسات الموجهة وأهدافها ينطوي على قدر من الخطورة.

٢- الذين يقللون من خطورة التأثيرات السلبية للإعلام الناطق بالعربية يحصرون اهتمامهم في الجانب السياسي والإخباري، الذي قد يكون المواطن العربي محصنًا إزاءه بعض الشيء بفعل السياسات الغربية العدائية تجاه الأمة، لكن الأمر يختلف بخصوص ما يتعلق بالجانب الثقافي والأخلاقي والاجتماعي، الذي يجري تمريره عبر برامج خفيفة؛ كالموسيقى والأغاني وبرامج الموضة والبرامج الثقافية.

٣- المؤسسات الإعلامية الغربية الموجهة تتمتع بإمكانات ضخمة، ومصادر تمويل كبيرة، وقدرات دعائية هائلة، وخطاب إعلامي ذكي غير مباشر يتسلل خلسة، ولا يميط اللثام عن أهدافه الحقيقية، و«أجنداته» الخفية.

٤- كثير من المؤسسات الإعلامية الموجهة تركز اهتمامها على فئة الشباب العربي. ومردُّ ذلك أن هذه الشريحة تشكل النسبة الأكبر من السكان في العالم العربي؛ حيث تعد المجتمعات العربية مجتمعات فَتِيَّة مقارنة ببقية المجتمعات العالمية. يُضاف إلى ذلك اعتقاد تلك المؤسسات الموجهة بأن شريحة الشباب العربي التي دون العشرين أقل حصانة، ويسهل التأثير في قناعاتها وتوجهاتها، مقارنة بالفئات العمرية الأكبر سنًّا والأكثر وعيًا، والتي شكلت قناعاتها، وبات من الصعب التأثير فيها. يضاف إلى ذلك ميل الشباب للانطلاق، وتوقهم للحرية والانفلات من القيود الموروثة، ورغبتهم الجامحة للتعرف على كل ما هو جديد. وبحسب الإحصائيات فإن نصف عدد سكان العالم العربي هم دون العشرين.

بعض المحذرين من أخطار الإعلام الأجنبي الناطق بالعربية، لم يكتفوا بإطلاق صيحات التحذير من الخطر القادم، وفضلوا اتخاذ خطوة عملية لمواجهة ما اعتبروه خطرًا داهمًا. فقد أصدرت مؤسسات شعبية عربية دعوات لمقاطعة فضائية (الحرة) الأمريكية عند انطلاقتها. بل إن النقابات المهنية الأردنية لم تتوقف عند حدود الدعوة لمقاطعة (الحرة)، وأصدرت قرارًا يحظر على أعضائها التعاطي بأي شكل مع القناة، سواء كان ذلك بإجراء المقابلات أو الإدلاء بالتصريحات.

وعند النظر في حجج الفريقين، يتضح أن كليهما ينطويان على مبررات معتبرة. وربما احتاج الأمر مقاربة أكثر توازنًا، لا تضخّم خطر الظاهرة وتهوّل من أمرها، لدرجة تظهرنا عاجزين عن مواجهتها والتعامل معها. وفي نفس الوقت لا تهوّن من شأنها وتقلل من أخطارها، فتدفع إلى إهمالها والتعامل معها بسلبية تحول دون مواجهة تأثيراتها السلبية.

سادسًا: هل ثمة إيجابيات للظاهرة؟

يمكن الإشارة إلى عدد من الجوانب الإيجابية لظاهرة الغزو الإعلامي الأجنبي التي نشطت في السنوات الأخيرة:

- فالأحداث السياسية الكبيرة والتغييرات التي حصلت في المنطقة، اضطرت العالم لأن يولي اهتمامًا أكبر بالمنطقة العربية؛ ولأن يسعى لمخاطبتها بلغتها، وهو ما يرى فيه البعض مؤشرًا إلى زيادة أهمية المنطقة في المنظور العالمي، ويعتقد أن هذا الاهتمام لا يأتي كله في السياق السلبي، ويمكن استثماره بصورة إيجابية لخدمة القضايا العربية والدولية.
- تنامي المؤسسات الإعلامية الأجنبية الموجهة، استفز الفضائيات العربية، وشكل تحديًا مهمًّا لها من أجل تطوير أدائها والارتقاء بمستواها، حتى تكون قادرة على مواجهة الغزو الإعلامي القادم عبر الحدود، لينافسها بلغتها، وفي ساحتها، وعلى جمهورها.
- كما أن التنبه للمضامين السياسية والثقافية والاجتماعية السلبية في المؤسسات الإعلامية الموجهة، دفع العديد من المؤسسات في العالم العربي، ومن بينها الفضائيات العربية، للاهتمام بالرد على الشبهات ومحاولات التشويه.
- الغزو الإعلامي المعرّب شجّع على التفكير بالرد بالمثل، وعلى الانتقال من مربع الدفاع إلى الهجوم، وعلى عدم الاكتفاء بالصراخ والعويل والتحذير من الأخطار. وتولدت قناعة بضرورة إنشاء فضائيات عربية باللغات العالمية تخترق الفضاء الغربي وتخاطبه بلغته. وتشكّل فضائية الجزيرة الدولية الناطقة بالإنجليزية باكورة الهجوم المضاد. وتجدر الإشارة إلى أن دعوات أطلقت منذ وقت مبكر، وحتى قبل تنامي ظاهرة الإعلام الأجنبي المعرّب، لإنشاء فضائيات عربية تخاطب الغربيين بلغاتهم، لكن المحاولات التي قامت بها بعض الجهات، ومنها جامعة الدول العربية، اصطدمت بعقبات سياسية ومالية أدّت إلى إجهاضها قبل أن تولد.
- إضافة لما سبق، فإن الفضائيات الغربية الناطقة بالعربية تتيح للمشاهد العربي، الذي يمتلك الوعي والحصانة من التأثر بمضامينها السلبية، فرصة الاطلاع على وجهات نظر دول مهمة وصاحبة تأثير في القرار السياسي الدولي وفي قضايا المنطقة.

التحديات والمستقبل

واقع بائس:

كثيرون يعتقدون أن المؤسسات الإعلامية الأجنبية الناطقة بالعربية، وبخاصة الأمريكية والإسرائيلية، كان محكومًا عليها بالفشل من اللحظة الأولى؛ لأنها كانت تروّج بضاعة غير قابلة للتسويق في العالم العربي.

وليست هناك حاجة لتأكيد فشل الفضائية الإسرائيلية الناطقة بالعربية. فإغلاقها وتوقفها السريع عن البث، شكّل اعترافًا صريحًا بإخفاقها في تحقيق أهدافها المرسومة. وبحسب الصحفية الإسرائيلية المعروفة (سمدار بيري)، فإن الفضائية كانت تتصدى لمهمة صعبة اعتبرتها مستحيلة. واعترفت بيري بأن الإسرائيليين خسروا كثيرًا في مجال الدعاية والعلاقات العامة، وفي لغة التخاطب مع العالم العربي؛ بسبب ممارسات الجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين.

الإعلام الأمريكي الموجه باللغة العربية، فشل هو الآخر فشلاً ذريعًا، وبسرعة ربما فاجأت أشد المراهنين على عدم نجاحه. وتطرح كثير من التساؤلات حاليًا في أوساط الإدارة الأمريكية حول مدى نجاح وسائل الإعلام الأمريكية الناطقة بالعربية في تحقيق أهدافها. وعقب إغلاق مجلة (هاي) الشبابية، بدأت وزارة الخارجية عملية إعادة تقييم شاملة لأداء فضائية (الحرّة) و (راديو سوا)، ولا سيما أن استطلاعات الرأي كشفت عن أن (الحرّة) من القنوات الأقل مشاهدة في العالم العربي.

قناة (الحرّة) التي رأى فيها كثيرون خطرًا داهمًا، فشلت حتى اللحظة في تحقيق أهدافها المعلنة أو الخفية، وقدمّت مستوى إعلاميًّا رديئًا وبائسًا بكل المقاييس. فلا هي نجحت في أن تكون قناة أمريكية ناجحة مثل الـ(CNN)، ولا استطاعت تقديم إعلام عربي ناجح ومقنع، ولم تستطع منافسة القنوات الإخبارية العربية. وقد ذهب أحد الإعلاميين العرب إلى وصف (الحرّة) بأنها كانت «خطيئة واشنطن».

فشل (الحرّة) لم يكن مستغربًا، فقد ووُجهت منذ البداية بشكوك كبيرة في العالم العربي حول حقيقة أهدافها، ولم ير فيها الكثيرون سوى بوق دعاية لتسويق سياسات الإدارة الأمريكية، والدفاع عن مواقفها المعادية للعرب والمسلمين. فضلاً عن ذلك، فإن (الحرّة) تعرضت لرقابة صارمة من الإدارة الأمريكية ومن الكونجرس، بصورة أثرت في مصداقيتها.

فقناة (الحرّة) لم تكن حرّة أو مستقلة، ودشّنت انطلاقتها بإجراء مقابلة مع الرئيس الأمريكي جورج بوش. على الرغم من ذلك، تعرضت لحملة انتقادات قاسية وصلت حدّ المطالبة بإغلاقها؛ بسبب نقلها خطابًا لزعيم حزب الله حسن نصر الله، وبثها تصريحات لرئيس الوزراء الفلسطيني إسماعيل هنية. فقد كان ذلك كافيًا لتوجيه كثير من التقريع واللوم للقائمين على الفضائية، ولاتهامهم بتحويلها إلى منبر للإرهابيين، الذين يحضّون على كراهية (إسرائيل) والولايات المتحدة. ووصل الأمر بالكونجرس الأمريكي لأن يعقد جلسة استماع لتقييم أداء (الحرّة)، ولقياس مدى نجاح المساعي الأمريكية لكسب التأييد الشعبي في العالم العربي.

وخلال الجلسة انتقد العديد من أعضاء مجلس النواب «التغطية الودية لمتطرفين من القاعدة وحماس وجماعات إرهابية أخرى». وتساءل السيناتور غاري أكرمان: «كيف هيمن الإرهابيون على القناة، أليس هناك رقابة؟». وهو ما دفع المسئول التنفيذي للقناة للقول: «إن المفارقة تكمن في أن الحكومة تسعى لترويج القيم الأمريكية، مثل الديمقراطية وحرية الصحافة، وتحاول في نفس الوقت فرض رقابة على ما تبثه القناة». وقد اضطرت الانتقادات اللاذعة التي تعرضت لها (الحرّة) مديرها لاري ريجيستر لتقديم استقالته في نهاية المطاف.

(راديو سوا) هو الآخر تعرض لانتقادات مشابهة. وفي تقرير أعده المفتش العام في وزارة الخارجية الأمريكية حول أداء الإذاعة، خلص إلى أنها فشلت في تحقيق الهدف من وراء إطلاقها. وقال التقرير: إن

الإذاعة ظلت مشغولة بكسب المستمعين من خلال الموسيقى، وإنها لم تحقق كل المتطلبات المتضمنة في ميثاق إذاعة (صوت أمريكا)، ولم تتمكن من التعبير عن سياسات الولايات المتحدة بشكل واضح وفعال، وفشلت كأداة في الدبلوماسية العامة. وشكّك التقرير في مصداقية الدراسات التي قدمها مجلس إدارة الإذاعة إلى الكونجرس، والتي تحدثت عن نجاحات حققتها، وقال: إن (راديو سوا) فشل في قياس مدى تأثيره في أذهان متابعي برامجه.

أما مجلة (هاي) الشبابية فقد كان فشلها مدويًّا؛ حيث أعلن المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية (شون ماكورماك) أن تعليق صدورها جاء لعدم وضوح مدى الإقبال على قراءتها، وكي يتسنى إجراء مراجعة لمعرفة مدى نجاحها في الوصول إلى جمهورها المستهدف. وقال ماكورماك: إن المراجعة جاءت بقرار من المستشارة الرئاسية لشؤون الدبلوماسية في وزارة الخارجية التي قال: إنها «أرادت التراجع خطوة إلى الوراء، وإلقاء نظرة متفحصة لمعرفة إذا ما كنا في الواقع قادرين على الوصول إلى جمهورنا المستهدف والتأثير فيه من خلال هذه الوسيلة».

وبعد أن كانت الخارجية الأمريكية أعلنت عقب وقف النسخة المطبوعة للمجلة عن استمرار موقعها الإلكتروني بالعمل، عادت في وقت لاحق لتغلقه هو الآخر بصورة نهائية. وفي رسالة موجهة لقرائه قال موقع المجلة الإلكتروني: «يؤسفنا أن نعلن لقرائنا الأفاضل أنه تقرر إغلاق هذا الموقع نهائيًّا، ونحب أن نغتنم الفرصة لنشكر جميع قرائنا وكتّابنا على مشاركتهم ومتابعتهم لهذا الموقع، الذي نرجو أن يكون قد ساهم في التواصل الثقافي والإعلامي من خلال ما طرحه من قضايا وخبرات وفوائد عملية خلال السنوات الثلاث الماضية».

وتحديات مستقبلية:

يمكن الإشارة إلى جملة من التحديات، أثرت في أداء المؤسسات الإعلامية الناطقة بالعربية خلال الفترة الماضية، ولعبت دورًا في فشل بعضها، وتواضع النتائج التي حققها البعض الآخر. ويرجّح أن تستمر هذه التحديات كتحديات مستقبلية، تحكم مسار تلك المؤسسات، وتحدد مدى نجاحها أو فشلها.

ومن أهم هذه التحديات:

١- سياسات الدول الداعمة لتلك المؤسسات. ففي حال استمرت السياسات الغربية في مواقفها العدائية من القضايا العربية والإسلامية، فإن مصير مؤسساتها الإعلامية الموجهة سيكون محكومًا عليه بالفشل، ولن يكتب لها تحقيق قدر كبير من النجاح.

٢- وعي المواطن العربي بمرامي و«أجندات» المؤسسات الإعلامية الناطقة بالعربية. فكلما ازداد وعيه بطبيعة الأهداف التي تقف وراء إطلاقها، تقلصت قدرتها على التسلل إلى عقله وقلبه.

٣- القدرة على استقطاب طاقات إعلامية عربية مميزة. وهو ما فشلت به معظم تلك المؤسسات حتى اللحظة.

٤- البعد عن الأسلوب الدعائي المباشر، وإظهار قدر مقنع من الاستقلالية عن توجهات حكوماتها المولة. وهو ما يبدو مستبعدًا حتى اللحظة في ظل إصرار الحكومات على جني مكاسب سريعة من وراء تلك المؤسسات باهظة التكلفة.

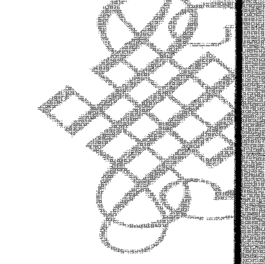
٥- القدرة على منافسة الفضائيات العربية التي لا تتوانى عن تطوير قدراتها، وعن الاستفادة من كل ما هو جديد في مجال تقنيات الاتصال.

إن تقييمًا موضوعيًّا لأداء المؤسسات الإعلامية الغربية الناطقة بالعربية خلال السنوات الماضية، يقود إلى استنتاج أن معظمها أخفق في تحقيق طموحاته، وأن صعوبات كبيرة تحول دون تجاوزه للتحديات سالفة الذكر.

لكن ذلك لا ينبغي أن يكون دافعًا للمبالغة بالاطمئنان، وإلى عدم التنبه للانعكاسات السلبية لتلك المؤسسات.

وينبغي إدراك أن بعض تلك المؤسسات يمتلك نفَسًا طويلاً، وقدرة على الصبر والتحمل على أمل تحقيق بعض الاختراقات، وهو ما يستدعي التنبه والحذر.





معلومات إضافية

الإذاعات الموجهة

نشأة الإذاعات الموجهة:

يُؤَرخ لأول برامج موجهة للخارج بفترة الحرب من عام ١٩١٤ -١٩١٨م، وكان الثوريون في روسيا هم أول من استخدم الإذاعة الدولية لعرض سياستهم؛ لممارسة الضغط على الألمان أثناء المفاوضات الخاصة باتفاقية سنة ١٩١٨م.

ويُعد لينين من أوائل الذين فهموا أهمية حيازة الإذاعة، وكان ذلك عام ١٩٢١م عندما أشرف على إنشاء محطة موسكو، وكانت إذاعات موسكو الإنجليزية في العشرينيات من القرن الماضي تفزع الإنجليز، وأدى هذا إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والاتحاد السوفييتي ١٩٢٧م.

واستخدم الألمان الإذاعات بشكل موسع في الحرب النفسية، وقد أدركوا أهميتها في سنة ١٩١٥م، فبادرت ألمانيا ببث نشرات أخبار يومية خاصة بالعمليات الحربية من خلال البريد اللاسلكي، وأقاموا محطة إذاعة ناون NAUON .

وامتد بث الإذاعات الألمانية الموجهة عام ١٩٣٥م إلى جنوب آسيا وأمريكا الوسطى بعد أن كان مُرَكزًا على جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا.

وفي مقابل هذا أقام الإنجليز محطة كاليه Calais على الساحل الجنوبي لبريطانيا موجهة لألمانيا.

واتبع اليابانيون الأسلوب ذاته في عام ١٩٤٢م، وكانت الإذاعة اليابانية تذيع أسماء الضحايا والأسرى والجرحى الأمريكيين.

واهتمت إيطاليا الفاشية بالإذاعة الموجهة، وبثت إرسالها إلى الأمريكيين والعالم العربي وإثيوبيا، وافتتحت إذاعتها العربية من محطة باري، وردت بريطانيا بإنشاء إذاعة في دافنتري، وكانت أول إذاعة أجنبية توجهها بريطانيا إلى الخارج. ثم أنشأت بريطانيا هيئة الإذاعة البريطانية في عام ١٩٢٢م تبث برامجها إلى معظم دول العالم.

أمريكا والإذاعات الموجهة:

ولم يتأخر الأمريكيون في الدخول إلى عالم الإذاعات الموجهة، وقد كانت الإذاعات الأمريكية تُبَث من نيويورك وسان فرانسيسكو، ثم أنشئت أول محطة إذاعية أمريكية في مدينة لندن American Broadcasting Station In Europe (A.B.S.E). وفي نهاية الأمر أنشئ مجلس للحرب النفسية أُلحق بالقيادة العليا للحلفاء برئاسة أيزنهاور تمهيدًا لغزو ألمانيا وإيطاليا، ولكن المجهود الأمريكي زادت حدته فيما بعد عند إنشاء راديو أوروبا الحرة.

وكانت البداية مع المحطات الموجهة إلى قواعد الجيش الأمريكي بغرض الترفيه عن الجنود الأمريكيين الموجودين في أوروبا.



وتزامنت هذه الجهود الأمريكية مع مطالبة أصوات عدة بأهمية الإذاعة الدولية، وكان سفير أمريكا في كوستاريكا يشتكي منذ عام ١٩٣٤م من عدم كفاية الأخبار التي تتعلق بأمريكا على الموجات القصيرة، وتمنى وجود وسيلة لبث إذاعة الأخبار.

ولم تبدأ أمريكا برامجها إلا في سنة ١٩٣٧م، وكانت موجهة بشكل مكثف إلى أمريكا اللاتينية.

ولم تتأخر أمريكا في الدخول إلى المعركة الإذاعية، فحتى سنة ١٩٤١م كانت الإذاعات الأمريكية توجه برامجها نحو أمريكا الجنوبية.

وبدأ صوت أمريكا البث في ١٩٤٢م ببرنامج باللغة الألمانية، وكان يبث بين لندن ونيويورك عبر خط تليفوني يمر بالأطلنطي.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية خُصصت برامج أمريكا الموجهة للخارج للعمل الثقافي، وأنشأت السلطات الأمريكية إدارة خاصة للإشراف على البرامج الموجهة.

وفي عام ١٩٤٨م وافق الكونجرس على تشريع خاص بإنشاء خدمة رسمية للإعلام عبر البحار تضم إليها صوت أمريكا.

وفي أغسطس ١٩٤٨م بدأ صوت أمريكا في بث برامجه بعشر لغات جديدة: العربية والفارسية والتركية، والنرويجية والسويدية، والفنلندية والهولندية والبرتغالية، والأوكرانية والدانمركية.

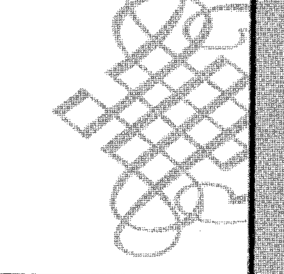
وكان هذا التسابق يستغل الإذاعة لأعمال الدعاية والحرب النفسية، على النحو الذي فعله الاتحاد السوفييتي وألمانيا وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان.

الإذاعات الأجنبية الموجهة في العالم العربي:

حين نتأمل البث الإذاعي - لأنه الأسبق تاريخيًا- نجد أن هناك ارتباطًا كبيرًا بين الدول التي تبث ومقدار حظها وحراكها السياسي والعسكري، ولعل هذا يفسر كيف أن «إذاعة باري» الإيطالية العربية كانت الأسبق، فقد بدأت بثها الموجه إلى العرب عام ١٩٣٥م كمقدمة للاستراتيجية العسكرية لإيطاليا «موسولني»، التي بدأت تتوسع في شمال وشرق إفريقيا. وهذه الخطوة الإيطالية حفزت المستعمر البريطاني إلى إطلاق القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية ١٩٣٨م، وكان العربيان عيسى خليل صباغ، ومنير شما صوت بريطانيا إلى العالم العربي.

وشهد العام نفسه انطلاقة إذاعة برلين العربية، وقد أطلقت دول أخرى (فرنسا وروسيا) في نفس الفترة برامج وإذاعات باللغة العربية ضمن نشاطات تسخين الأجواء للحرب الغربية الثانية.

واليوم نجد أن الأثير والفضاء العربي محمَّل بالرسائل الإعلامية الدولية التي تحاول أن تستقطب اهتمام الجمهور العربي.



الإعلام الأجنبي واستهداف الجمهور العربي:

يتكشف لكل مراقب للمشهد الإعلامي أن الجمهور العربي مستهدف من قِبل وسائل أجنبية (غربية على وجه الخصوص) تصدر طبعات، أو تبث برامج إذاعية وتلفزيونية بلغته العربية. ويمكن هنا التفريق بين ثلاثة أصناف رئيسة:

الأول: وسائل مموَّلة بشكل مباشر من حكومات دول كبرى مثل قناة الحرة، وإذاعات سوا الأمريكية، وإذاعات فرنسا وكندا، ومحطة BBC البريطانية.

الثاني: وسائل إعلام ترتبط بشكل مباشر وغير مباشر بالمنظومة السياسية والاقتصادية العسكرية الغربية، ويكثر هذا الصنف في الوسائل المطبوعة مثل مجلة (فوربز) (ونيوزويك) (وفورين افايرز).

الثالث: ما يمكن تسميته بوسائل الإعلام الدينية (التنصيرية) التي تبثها الفاتيكان وبعض الإرساليات والمنظمات الكنسية في المنطقة والعالم. ومع ظهور شبكة الإنترنت باتت اللغة العربية حاضرة في كثير من مواقع الحكومات والمنظمات الدولية، بل وتوسع الأمر إلى حد بث إذاعات باللغة العربية عبر هذه الشبكة العنكبوتية موجهة للناطقين باللغة العربية.

المصادر:

عائض بن مرزوق الحربي، الإعلام الأمريكي والهيمنة الدولية ..قناة الحرة.. أنموذجًا،

مجلة المعرفة، العدد ١٢٨ - ذو القعدة ١٤٢٦هـ.

د. فايز بن عبدالله الشهري، المعاناة أكبر من الإعلام العربي،

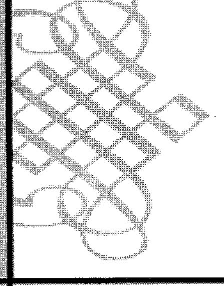
مجلة المعرفة، العدد ١٢٨ - ذو القعدة ١٤٢٦هـ.

فضائية الجزيرة الإنجليزية.. باكورة الهجوم المضاد:

على عكس اتجاه الغرب إلى غزو سماء الإعلام العربي عبر القنوات الموجهة الناطقة باللغة العربية، فإنه لا يمكن القول بوجود إعلام عربي موجه للخارج، ما عدا محاولات فردية من قنوات تلفزيونية وإذاعية وصحف ومجلات، أعاقها صغرها ومحدودية وصولها، وسوء التنظيم أو التمويل فالقنوات العربية الناطقة بالإنجليزية لا تتجاوز ٤ قنوات، كما لا توجد قنوات عربية ناطقة بالفرنسية أو الأسبانية أو الصينية، كونها أكثر لغات العالم انتشارًا.

وتُعد قناة الجزيرة الإنجليزية التي أطلقتها شبكة الجزيرة في ١٥ نوفمبر ٢٠٠٦م هي أبرز هذه القنوات، خاصة أنها تقدم نفسها على أنها صوت الجنوب بشكل عام في مواجهة الشمال، وعلى ذلك يمكن من خلال تقييم أدائها، ومدى نجاحها في تحقيق أهدافها، قياس مستوى الإعلام العربي الموجه الذي لا يزال في طور التكوين.

وقناة الجزيرة الإنجليزية هي قناة إخبارية على مدار اليوم ناطقة بالإنجليزية، تهدف لتغطية الأحداث



في الشرق الأوسط والعالم باللغة الأكثر انتشارًا حاليًا. كان من المقرر أن تبدأ البث في يونيو ٢٠٠٦م لكن البث تأخر حتى ١٥ نوفمبر ٢٠٠٦م.

غيرت القناة اسمها من الجزيرة الدولية إلى الجزيرة الإنجليزية قبل يوم واحد من بدء البث.

تعتبر الجزيرة الإنجليزية أول قناة دولية إخبارية ناطقة بالإنجليزية مركزها الرئيسي في الشرق الأوسط، وتحاول إيجاد تواصل بين هذه المنطقة وأكثر من مليار ناطق بالإنجليزية حول العالم .

تاريخ الجزيرة السابق، والتي بدأت البث منذ عام ١٩٩٦م، والثورة التي أحدثتها في العالم العربي، ثم تغطيتها لبعض الحروب والأحداث الساخنة مثل: غزو العراق، وغزو أفغانستان؛ إضافة لبثها أشرطة لأسامة بن لادن، وقصف مكتبيها في بغداد وكابول، كل هذا جعل القناة ذات شهرة اختُلف في تقييمها في العالم الغربي، فقد اعتبرها البعض قناة إخبارية عربية رائدة في نقل الخبر، ومنافسة لقنوات مثل (سي إن إن) و(بي بي سي)، لذلك هناك ترقب إعلامي لطبيعة البث وطريقة العمل التي ستقوم بها قناة الجزيرة الإنجليزية .

تمتلك الجزيرة الإنجليزية أكثر من ١٨ مكتبًا خاصًا بها حول العالم. وتستفيد القناة من مكاتب الجزيرة العربية مما يرفع عدد مكاتبها إلى ستين مكتبًا. يتركز بثّ الجزيرة الإنجليزية على أربعة مكاتب رئيسية تتعاقب في البث على مدار اليوم (بديلاً عن الطريقة التقليدية في اعتماد مركز بث وحيد)، والمكاتب الأربعة تقع في كوالالامبور، الدوحة، لندن، واشنطن.

أشهر الشخصيات التي تعمل في المحطة:

- سير «ديفيد فروست».
- «ريز خان» الصحفي السابق في شبكتي «سي إن إن» و «بي بي سي».
- المحلل العسكري «جوش رشينغ»، الكابتن السابق في سلاح المارينز الذي خدم كضابط اتصال للشئون العامة في مقر القيادة المركزية الأمريكية في قطر عند بداية غزو العراق.
- هذا بالإضافة إلى بعض الوجوه العربية.

أهم البرامج التي تقدمها القناة

People & Power (الناس والسُلطة)

Inside Iraq (داخل العراق)

Witness (الشاهد)

One on One (واحد على واحد)

Riz Khan٤٨

Frost over the World

The Fabulous Picture Show

Listening Post

استقلالية القناة:

تعرف قناة الجزيرة الإنجليزية نفسها على أنها «القناة المرجع» لأحداث الشرق الأوسط، محاولة إحداث توازن مع تدفق المعلومات النمطي الراهن عن طريق تقديم التقارير من العالم النامي إلى الغرب، ومن النصف الجنوبي من الكرة الأرضية إلى شمالها، كما أنها تقوم بتغطية الأحداث من جوانب وزوايا جديدة ومتعددة، وتعمل أيضًا على إظهار الملامح الثقافية والاقتصادية والسياسية للمنطقة مع احترامها للثقافات الأخرى، مما يساعد على سد الفجوة بين الجنوب والشمال.

وفي تصريحات لمدير شبكة الجزيرة «وضاح خنفر» أكد أن القناة الجديدة ليست ترجمة لنظيرتها العربية، بل تحظى باستقلالية تامة في تناول الأخبار وإعداد البرامج، وهي تهدف للوصول إلى ثمانين مليون مشاهد.

وهو ما أكده «نايجل بارسونز» مدير قناة الجزيرة الدولية الذي قال: «لسنا نسخة من قناة الجزيرة، ولكننا نبني على تراث قناة الجزيرة التي حققت -كما لاحظ الجميع- نجاحًا كبيرًا في الشرق الأوسط؛ لما تمثله من حرية التعبير، ولأسلوبها الخاص في التغطيات الإخبارية الشجاعة، وإننا نريد البناء على كل هذا، ونقل هذه التجربة الصحفية إلى العالم كله؛ ليستفيد الآخرون من تدفق المعلومات الصادرة عن قناة الجزيرة في السنوات الماضية».

وتتلقى القناة تمويلها من الحكومة القطرية، والتي ساعدت في تمويل قناة الجزيرة الأصلية باللغة العربية، أما القناة الإنجليزية، وطبقًا لبعض الروايات الغربية، فقد خصص أمير قطر أكثر من مليار دولار لها.

ثقة ومصداقية:

حظيت «الجزيرة الإنجليزية» منذ انطلاقها بالمصداقية في العديد من دول العالم، فعلى سبيل المثال جاءت نتائج الدراسة التي أجراها معهد «ميديا تينور» الإعلامي الألماني المستقل: أن قناة الجزيرة الدولية شكّلت أحد أهم مصادر الأخبار التي اعتمدت عليها أكبر ٣٩ وسيلة إعلام ألمانية في العام الماضي، حيث جاءت في المركز الثاني بعد صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية.

وأشارت الدراسة إلى أن القناة ورد ذكرها في هذه الوسائل الإعلامية الألمانية ٣٠٧ مرات، في حين ورد ذكر شبكة CNN الأمريكية ٢٠٧ مرات فقط، وأضافت أن اقتباس الإعلام الألماني من الجزيرة الدولية ناتج من الموقع المتفرد للقناة وسط خطوط تدفق الأخبار في الشرق الأوسط وتغطيتها للمراكز الساخنة في هذه المنطقة.

صعوبات وعقبات:

وعلى العكس واجهت «الجزيرة الإنجليزية» عددًا من الصعوبات في الانتشار في الولايات المتحدة الأمريكية، التي شعرت بخطورة ما تقدمه الجزيرة من فضح لجرائم الاحتلال الأمريكي والإسرائيلي، رفضت جميع الشركات الأمريكية التي تقدم خدمة البث التلفزيوني عن طريق الكابلات، التعامل مع المحطة، باستثناء شركتي «باكي كيبل سيستمز» و«فيرمونت».

ورغم مرور فترة ليست بالقصيرة على انطلاقها لازالت القناة تبث إلى الآن في الولايات المتحدة من خلال شبكة الإنترنت، في مسعى للوصول إلى المشاهدين الأمريكيين.

وصعوبة الوصول إلى الجمهور الأمريكي يمثل أهم التحديات التي تواجهها القناة في مسعاها لتقديم تنوع في تغطيتها الإخبارية في أمريكا؛ حيث تواجه المحطة أجواء مشحونة بالشكوك والريبة والعداء للمحطة وطاقمها.

وكان وزير الدفاع الأمريكي السابق دونالد رامسفيلد قد اتهم الجزيرة بنشر ما أسماها «أكاذيب شريرة» في تغطيتها للحرب في العراق وأفغانستان، وقد شعر المسئولون الأمريكيون بالغضب من مشاهد قتلى القوات الأمريكية، وتغطية الجزيرة التي لا تتوقف حول تأثير الحروب على المدنيين.

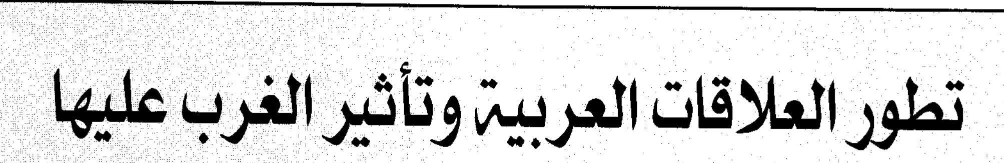
المصادر:

- موقع «الجزيرة نت» الإلكتروني.

- هبة المنسي، الجزيرة الدولية.. هل تنجح في إيصال صوت الجنوب للشمال، مجلة «الوطن العربي»، العدد ١٥٩٤، ١٩/٩/ ٢٠٠٧م.

- موقع الموسوعة الحرة على الإنترنت «ويكيبيديا».





تطور العلاقات العربية وتأثير الغرب عليها

أ. أمير سعيد

(كاتب وباحث سياسي مصري)

ملخص البحث

علـى مـدى ١٤ قرنًا كان العالم العربي مجتمعًا واحدًا، تمتزج فيه كل أنواع المعاملات والعلاقات الشـعبية، مـن ثقافـة واقتصاد ووحدة شـعورية، ولم يكن يعرف تلك الحدود الذي عبثًا قيـل: إنها كانت لتحديثه؛ فإذا هي تعود به القهقرى.

في عهـود الحداثة كانت سـايكس- بيكو، ثم الاسـتقلال الشـكلي، وزرع «إسـرائيل»، ثم الاسـتقطاب القطبي، ثم مشاريع التقسيم الجديدة، بجناحيها الأمريكي والأوروبي.

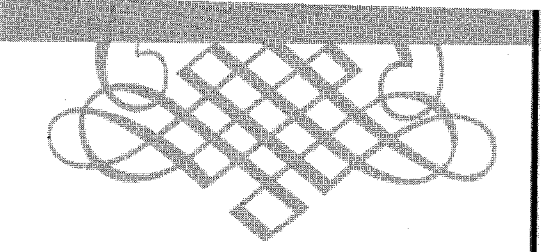
في أوائل التسعينيات انطلق مشروع «بيريز» باسم الشرق الأوسط الجديد؛ حيث ظلت ضبابية مصطلح «الشرق الأوسـط»، وسـيولته حصان طروادة الجديد، لمحو الإسلامية، ثم العربية، وصولاً إلى ألحان نشاز، كالشرق أوسطية والأورومتوسطية، والمتوسطية والشمال إفريقية، والمغاربية الأوروبية، وبانطلاق المشروع «الإسرائيلي»، توالت المشـاريع، فطوَّره الأمريكيون من أقلام رصاص سـايكس- بيكو إلى الرصاص الحي الذي كتب به مُنَظِّر العسـكرية الأمريكية رالف بيتر «حدود الدم»، فكان مشـروع «الشرق الأوسط الكبير»، الذي تمتد حدوده ليلامس المشـرق والمغرب!! حيث الرغبة في تركيع العالم العربي، وحيث لا تصدير آمن إلا عبر كويز وغيرها، وأما الاستيراد فتحميه الجات، وآليات الهيمنة الغربية التي تغتصب ولا تمنح.

وحيـث يمضي المشـروع قُدُمًا؛ متعثـرًا بفعل المقاومة العراقية والفلسـطينية ومعوقات المشـروع الأمريكي في لبنان، تختزله كونداليزا رايس إلى «الشرق الأوسط الجديد» إبان حرب يوليو ٢٠٠٦م.

وإذ تفيق أوروبا متأخرة في أوسـلو، لدى شـعورها بأنها مثَّلت «التيس المسـتعار» في حرب الكويت، وطرحت مشـروعها للأورومتوسـطية الذي اصطدم بصخرة الولايات المتحدة، ورغبة الدول العربية المسـتقلة في توحيد الجهة التابعة، ثم أرادها ساركوزي فرنسية لا أوروبية، فجال في بلاد العرب «يبشر» بالمتوسطية، أو «مشروع سـاركوزي».. كان العرب في كل هذا حقلاً للتجارب الاسـتعمارية، وتخلق لديه شعور بالتوحد مع خاطفيه، وهو المرض الذي سيطر على الجسد العربي لعقود ماضيات.

وفي ضـوء الـتردي في العلاقات البينيـة العربية يُتوقع أن تأخذ النخبة الاقتصادية والثقافية، الحريصة على شـعوبها ومواطنيها، بزمام المبادرة في التصدي للمشروعات الغربية، سواء منها ما يتعلق بالجانب الاقتصادي أو السياسي.





أفكار ومقتطفات

- تتجاذب المنطقة العربية عدة مشاريع، وجملة من المحددات، غلّت أيدي الدول العربية عن تحقيق التكامل والوحدة العربية، وصارت المشاريع الخارجية جاذبًا خارج القطب العربي، بما يمكن فهمه من خلال مشروعين مختلفين لهما امتدادهما في سياق السيطرة الخارجية.

- كان الاستعمار راغبًا في انفكاك العرب عن الجامعة الإسلامية، التي كانت تركيا رامزة لها، حتى نهاية القرن التاسع عشر، غير أنه سرعان ما انقلب على فكرة الوحدة العربية، التي كان على الغرب أن يبحث فيما بعد عن بدائل لها، فكانا مشروعي احتواء جديدين.

- والفكرة الأساسية في المشاريع الغربية عمومًا أنها تسعى إلى ربط العالم العربي بدول خارجية، سواء أكانت استعمارية كليًّا أم مساهمة بشكل ما في النمط الاستعماري، وتمرير العلاقات العربية- العربية عبر البوابات الغربية.

- يعد مشروع الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، الذي بدأ التمهيد له عبر زيارات متعددة لدول عربية مغاربية، مثل الجزائر والمغرب، وريثًا غامضًا لمشروع الأورومتوسطية، الذي مُنيَ بالفشل في ذكراه العاشرة، عندما عصفت الخلافات به مع اجتماع برشلونة عام ٢٠٠٥م.

- المشاريع الأمريكية والأوروبية لم تكن إلا وراثة لإرادة استعمارية غربية، في تأطير علاقاته بالدول العربية، داخل سياج من الهيمنة، والانفراد بالدول العربية، وإدخالها في أحلاف واتحادات لا تكون فيها الرقم الفاعل.

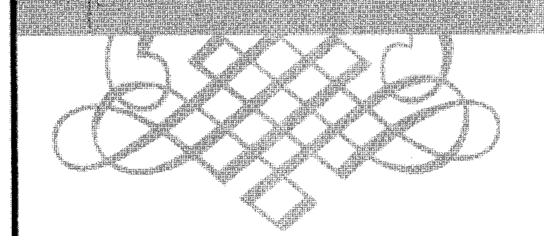
- أسفر الوجود الأمريكي الكثيف في العراق عن وقوع دول خليجية صغيرة في فلك التأثير الأمريكي، وحرمها من التلاقي مع جيرانها العرب، بشكل يخرج عن حدود ما ترسمه الولايات المتحدة الأمريكية للمنطقة.

- يجعل المشروع الشرق أوسطي «إسرائيل» قطب التأثير، والقيادة في العالم العربي، ويُنهي المشروع العربي برمته، ويقضي على القضية الفلسطينية عبر تسوية مجحفة ظلت متعثرة حتى الآن.

- تُسلم المشروعات الأوروبية قياد الدول العربية إلى أوروبا في المشروع الأورومتوسطي، والفرنسي في مشروع ساركوزي، وعليه؛ فإن العلاقات البينية العربية ستكون رهينة -بأكثر من وضعها الحالي- لإملاءات السياسة الأوروبية (أو الفرنسية).

- لا تعبر العلاقات العربية عن الطموح الذي ترجوه منها الشعوب العربية التواقة إلى شكل من العلاقات، يتجاوز الخلافات السياسية، والمعوقات الاقتصادية، والعراقيل الثقافية.

- متوسط حصة التجارة البينية العربية خلال السنوات العشر الماضيات لم يتجاوز ٨,٩٪ من حجم تجارتها الداخلية البينية، وهي نسبة تعبر عن أن التعامل الخارجي العربي طاغٍ على الحالة الاقتصادية العربية، ويجسِّد حالة فقدان البوصلة، فيما يخص صناعات كثيرة وزراعات لا يتم تشجيعها في الداخل العربي.



- يبلغ العجز الزراعي في العالم العربي ما يكاد يقارب حجم التجارة البينية العربية؛ إذ بلغ في العام ٢٠٠٢م نحـو ٢١,٣ مليار دولار، بصادرات زراعيـة خارجية بلغت ٧ مليارات دولار، وواردات بلغت ٢٨,٣ مليار دولار.

- في حـين تبـذل الدول الاسـتعمارية جهـودًا هائلة من أجل ضمـان تبعية معظم الـدول العربية لها؛ فإنها تضن في المقابل بإيلاء جهود التنمية في تلك البلدان حيزًا من اهتماماتها، ومن اسـتثماراتها النافعة، وتحرص في المقابل على تسييس تعاملها الاستثماري والتجاري مع الدول العربية.

- في ضوء التردي في العلاقات البينية العربية يُتَوقَّع أن تأخذ النخبة الاقتصادية والثقافية، الحريصة على شـعوبها ومواطنيهـا، بزمام المبادرة في التصدي للمشـروعات الغربية، سـواء منها ما يتعلق بالجانب الاقتصادي، أو السياسـي الناشئ عن رغبة الدول الاستعمارية في التفكيك والتقسيم، واتخاذها خطوات عملية في هذا الخصوص.

تطور العلاقات العربية وتأثير الغرب عليها

أ. أمير سعيد : كاتب وباحث سياسي مصري

تمهيد:

من شأن دراسةٍ تدور حول العلاقات العربية البينية ألا تجرِّد هذه العلاقات من شبكة الارتباطات والمصالح الدولية والإقليمية، وتداخلاتها المتعارضة مع خصوصيتها في كثير من الأحيان، والمتوافقة في أحيان أخرى نادرة حين تُفضي استراتيجيات الخارج ومصالحه مع بعض ما يدعم هذه العلاقات.

وإذ يصعب الفصل كثيرًا بين ما تقود إليه العولمة من مباعدة للأهداف الوحدوية العربية، وما تُسهم في تحقق بعضها، من حيث تريد أو لا تريد؛ فإن من اللائق بدايةً فضّ الاشتباك الدائر حول ما يمكن البناء عليه في العلاقات العربية البينية، وما ينبغي إزالته من معوقات حائلة دون حدوث تكتل عربيٍّ ما.

ومن نافلة القول، أن الدراسة محض وريقات تتناول حالة، ولا تقدم بديلاً عن مسألة التكتل الإسلامي بحدوده الشاسعة، وإمكاناته الهائلة، ومن قبل، بقِيَمه الجامعة الموحدة، وإلا دارت في سياقٍ سلبي، أو أخطأت فهم الواقع السياسي وتشعباته.

وهناك تياران نخبويان يتعاملان مع تلك الحالة العربية بشيء من الإجحاف، فلدى فريق قناعاته بأن العلاقات العربية- العربية لا تمر إلا عبر البوابة الغربية، وعليه؛ فإن أي دارسة تُعْنَى بقضية تنميتها، مستقلة، هي نوع من التفاؤل المفرط، أو لربما المخزي، في نظرهم، وفي مقابله يغوص فريق، قد يكون رسميًّا أو غير رسمي، في أحلام الوحدة الغائبة التي تقضي معطياتها المنظورة إلى درب من دروب اللاواقعية الاستراتيجية.

وترجو هذه المساهمة أن تتناول الخط العملي الأكثر قربًا من الإيجابية، وهو ما يتسق مع رغبة بنيوية؛ تستثمر ما هو متاح من العلاقات العربية البينية، على تنوعها في أصعدتها المختلفة، سياسية واقتصادية وثقافية، وفي طبقاتها الرسمية والنخبوية والشعبية.

المحددات والمشاريع التي تحكم العلاقات البينية العربية:

تتجاذب المنطقة العربية عدة مشاريع، وجملة من المحددات، غلّت أيدي الدول العربية عن تحقيق التكامل والوحدة العربية، وصارت المشاريع الخارجية جاذبًا خارج القطب العربي بما يمكن فهمه من خلال مشروعين مختلفين، لهما امتدادهما في سياق السيطرة الخارجية.

في البداية من المهم أن نلفت إلى أن الفكرة «العربية» ذاتها لم تكن مشروعًا إقليميًّا داخليًّا؛ إذ صدر مرارًا عن جهات استعمارية[1] قبل تشكيل الجامعة العربية؛ فلقد «نشأت فكرة الرابطة العربية في خطط نابليون بونابرت ونابليون الثالث، وفي فكر غوستاف لوبون، وأرنست رينان، ثم كان بعث القوميتين الألمانية على يد بسمارك، والإيطالية على يد جاريبالدي؛ باعثًا لها في مخيلة الأقليات المسيحية في الشام للخلاص من «تعسف» الإمبراطورية العثمانية. وهكذا كانت في البدء تحمل تصورًا علمانيًّا»[2].

ولقد كانت هذه الفكرة العربية مذ نشأت على يد تيارين: أحدهما كان أقرب إلى الخلافة والدين بصفة خاصة، واعتبر أن الوحدة العربية هي الأصل في ظل كونها دار الخلافة ونواتها، لا أن تكون كيانًا مُنْبَتًّا يعادي بقية دول «الشرق»، وبرز من بينهم رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبده، أما التيار الثاني فكان ليبراليًّا، ومنه الأديب طه حسين، الذي أنشأ معهد الدراسات العربية في مدريد؛ إيمانًا بجاذبية البحر المتوسط عن النزوع شرقًا، مثلما كان تصور التيار الأول.

وسيمتد عمر العروبة قرنًا منذ هذه الدعوة المتوسطية إلى أن ترى المنطقة العربية مشاريع استلهمت الفكرة من لدن الأولين، وتحديدًا زمن بونابرت ثم إيدن الوزير البريطاني، الذي التقط الفكرة القومية أوائل القرن الفائت.

وقد بلغت الحمية للقومية العربية ذروتها مع اشتعال الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين ١٩١٦- ١٩١٨م، بمساعدة واضحة من بريطانيا، يقول «الكاتب البريطاني بيتر مانسفيلد: إنه في القاهرة تم التخطيط «للثورة العربية الكبرى»، التي قادها الشريف حسين، أمير مكة عام ١٩١٦م.

ومن القاهرة، كانت تأتيه الإمدادات، والمراسلات مع كبار المسئولين البريطانيين، وعلى رأسهم وزير الخارجية مكماهون، وضابط اتصال المخابرات البريطانية تي. أي، لورانس»[3].

وفي عام ١٩٤٣م صرح إيدن في مجلس العموم البريطاني بأن الحكومة البريطانية «تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب ترمي إلى تحقيق وحدتهم الاقتصادية والثقافية والسياسية»، وقد كان هذا التصريح مُعَبِّدًا لطريق فكرة القومية العربية وجامعتها.

وبعد أن تشكلت الجامعة بعد ذلك بعامين، بدأت طريقًا لم تكمله في الوحدة السياسية والاقتصادية والثقافية.

كان الاستعمار راغبًا في انفكاك العرب عن الجامعة الإسلامية التي كانت تركيا رامزة لها، حتى نهاية القرن التاسع عشر، غير أنه سرعان ما انقلب على فكرة الوحدة العربية، التي كان على الغرب أن يبحث فيما بعد عن بدائل لها، فكانا مشروعي احتواء جديدين.

وبين لحظة إنشاء الجامعة العربية، وفكرة الوحدة العربية، وقيام المشروعات الغربية الجديدة في التعامل مع العالم العربي، ثمة ما يمكن أن تتم دراسته عبر بحث تاريخي ليس هذا مقامه، أو سياسي يبحث في المراحل السياسية والتأثيرات الخارجية، والحروب التي اشتعلت في الداخل العربي وخارجه، وأفرزت هذين المشروعين في النهاية، وليس المقام يتسع لذلك أيضًا، بيد أننا مَعْنِيُّون بالأصالة، وبشكل محدد في سياق مشروعات الهيمنة والتدخل المؤثرة على نسيج العلاقات العربية- العربية في اللحظة الآنية، وهنا سيكون من الواجب دراسة مشروعي الهيمنة الرئيسيين من الغرب على العالم العربي، وهما مشروع الشرق الأوسط الكبير (الأمريكي- «الإسرائيلي»)، والمشروع المتوسطي (ساركوزي).

والفكرة الأساسية، في المشاريع الغربية عمومًا،

(١) سنستخدم هذا المصطلح بمعناه المتعارف عليه، رغم التحفظ المبدئي عليه كدلالة لغوية.

(٢) أمين المهدي، جامعة الدول العربية... تاريخ من التجمّل، صحيفة الحياة ٢٠٠٤/٨/١٧م، مع ملاحظة أن «التعسف» المذكور ربما كان مبالغًا به نوعًا ما، وحيث تقود معطيات أخرى إلى أن أهدافًا أخرى قد حرّكت المسألة العربية في الشام تحديدًا.

(٣) الثورة العربية الكبرى، موسوعة مقاتل من الصحراء السعودية على شبكة الإنترنت.

أنها تسعى إلى ربط العالم العربي بدول خارجية، سواء أكانت استعمارية كليًا، أم مساهمة بشكلٍ ما في النمط الاستعماري، وتمرير العلاقات العربية-العربية عبر البوابات الغربية، وبالتالي، فالمشاريع الغربية هي بالأصل هادفة إلى تحديد أُطر العلاقات البينية العربية من جهة، والإفادة من كل ما يتوافر عليه العالم العربي من ثروات من جهة ثانية، والحيولة بينه وبين تملُّك أدوات القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية.

ومن هنا فقد مرت أولى مراحل تحديد هذه العلاقة البينية عبر بوابة سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا -بموافقة روسية- على اقتسام بلاد العراق وبلاد الشام، ووقعت عام ١٩١٦م. وتوالت مشاريع التقسيم والتفكيك بعدها إلى أن أضحت بين كل دولة عربية وجيرانها مشكلة حدودية تمسّ جوانب تتعلق بالأمن القومي والاقتصاد والأعراق.. إلخ، وترتب على ذلك صعوبة الفكاك من التأثير الغربي بعد إقرارها بشكل عملي.

مشروع الشرق الأوسط الكبير بجذوره «الإسرائيلية»:

حاليًا، نتيجة تحول القطب الاستعماري من أوروبا إلى الولايات المتحدة؛ فقد انتقل ثقل التأثير باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية، التي بالأساس ظلت تعتمد على «إسرائيل» كقطب إقليمي، يفصل الجانب الآسيوي العربي عن الجانب الإفريقي، ومن ثم برز مشروع «إسرائيلي»- أمريكي، يُنسب بالأساس إلى السياسي الصهيوني المخضرم (الرئيس الحالي لـ «إسرائيل») شيمون بيريز أطلقه في العام ١٩٩٣م، من خلال كتاب «نظام الشرق الأوسط الجديد»، والذي بلور فيه فكرته الداعية إلى دمج جميع دول المنطقة في سوق مشتركة بقيادة «إسرائيلية»، وفي حين لم يكشف خلال كتابه عن نيته إطاحة المنظومة العربية كجامعة وكحافظة بشكل صريح، فلقد كان أكثر جرأة حين صرح بـ «نحن (إسرائيل) لن نصبح عربًا، ولكن الجامعة يمكن أن تصبح شرق أوسطية، بعد أن أصبحت الجامعة العربية جزءًا من الماضي»[٤]، وقد مضى المشروع قُدمًا من خلال سلسلة من الاتفاقات كأوسلو ووادي عربة ومؤتمرات القمم الاقتصادية في الدار البيضاء، وعمان والقاهرة، والدوحة، والتي رنا من خلالها المشروع إلى تبعية الدول المزمع ضمها للشرق الأوسط الجديد، وفق منظور التخصص الصناعي والزراعي والثقافي، والذي يؤول في مجمله إلى قيادة «إسرائيل»، وقد كان مفهومًا حينها أن بيريز يدعو إلى التخلي عن أطماع «إسرائيل الكبرى» الجغرافية ليحل محلها «إسرائيل العظمى» الاقتصادية.

المشروع فشل مع اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م غير أنه لم يمت!

في العام التالي، وفي أعقاب أحداث ١١ سبتمبر بدأت إرهاصات المشروع القادم، الذي يعد امتدادًا لمشروع بيريز غير أنه يخالفه في جملة من الأمور:

الأولى: أن مشروع بيريز كان اقتصاديًا، ثقافيًا، سياسيًا، ولم يكن عسكريًا، على نقيض مشروع الشرق الأوسط الكبير، جاء ليتحدث عن حدود وأنظمة جديدة، ظهرت عمليًا عبر غزو العراق وأفغانستان والصومال، ونظريًا بدراسة لرالف بيترز تحدث فيها عن تقسيم إيران، والعراق والسعودية، والإمارات، وأفغانستان وباكستان، وإعادة تشكيل المنطقة..إلخ، كتب فيها «تعد أكثر الحدود الدولية تحكمية وتشوُّهًا في العالم هي تلك القائمة في إفريقيا، وفي الشرق الأوسط؛ فالحدود «الظالمة» في الشرق الأوسط تسبب من الأزمات ما يفوق قدرة المنطقة على احتمالها».[٥]

إن كُتِبَ لهذا المشروع أن يقوم -على هذا النحو المأمول في الدراسة- فإنه كان سيقلب العلاقات العربية- العربية رأسًا على عقب، على أن عدم

(٤) مقابلة في فصلية الشرق الأوسط، مارس ١٩٩٥م.

(٥) رالف بيترز نائب رئيس هيئة الأركان للاستخبارات العسكرية الأمريكية، في وزارة الدفاع سابقًا، والذي يكتب حاليًا للمجلة العسكرية الأمريكية المتخصصة «أرمد فورسز جورنال»، وقد نشر دراسته الخطيرة بعنوان «حدود الدم.. نحو نظرة أفضل للشرق الأوسط»، نُشرت في خريف العام ٢٠٠٦م، وفي صلبها تصورات لتغيير خريطة المنطقة العربية، ضمن حدود الشرق الأوسط الكبير المائعة، والدراسة نشرتها فصلية استراتيجيات المصرية في صيف ٢٠٠٧م، انظر الخريطة.

تنفيذها حرفيًّا في الواقع لم ينف أن خطوات اتُّبِعَت لتغيير نمط المنطقة، وخريطتها السياسية، في العراق وأفغانستان والصومال بالقوة، وفي المغرب العربي عبر الدبلوماسية والإغراءات، وفي السودان ولبنان وليبيا عبر الضغوط، وفي سائر الدول العربية بألوان مختلفة من التغيير، ما بدَّل شكل الخريطة؛ تأثرًا بهذا المشروع الذي تمكن -عبر ضغوط- من تمزيق اللُّحْمة الفلسطينية، وتغيير تركيبة التحالفات والتوافقات في المنطقة العربية.

الثاني: أن مشروع بيريز لم يكن بهذا الشمول الذي يتوافر عليه مشروع الشرق الأوسط الكبير، الذي أعلن عنه على إثر صدور تقرير التنمية البشرية العربية ٢٠٠٣م في تعريف الشرق الأوسط.

الثالث: أن مشروع بيريز كان قائمًا على مبدأ التكامل، وإن كان ظالمًا بطبيعة الحال، عبر تسليم قياد المنطقة لـ «دولة» بلا جذور فيه، فيما لم يكن الآخر كذلك.

لكن القاسم المشترك في المشروعين هو أنهما يؤديان إلى ارتهان الواقع العربي برمته، وعلى كافة أصعدته لمنفذي المشروع ومنظِّريه، وبالتالي فساد العلاقات البينية.

وقد تحول مشروع الشرق الأوسط الكبير إلى «الجديد» على لسان وزيرة الخارجية الأمريكية، إبَّان حرب لبنان ٢٠٠٦م بعد صعوبات واجهت الولايات المتحدة الأمريكية.

مشروع ساركوزي وجذوره الأورومتوسطية:

يعد مشروع الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، الذي بدأ التمهيد له عبر زيارات متعددة لدول عربية مغاربية مثل الجزائر والمغرب، وريثًا غامضًا لمشروع الأورومتوسطية الذي مُنيَ بالفشل في ذكراه العاشرة، عندما عصفت الخلافات به مع اجتماع برشلونة عام ٢٠٠٥م.

وقد شرع ساركوزي في الحديث عن مشروعه من مدينة طنجة المغربية عندما دعا رؤساء دول وحكومات ضفتي المتوسط إلى اجتماع، يُعقد في يونيو ٢٠٠٨م في فرنسا، لوضع أسس اتحاد سياسي واقتصادي وثقافي متوسطي «على قدم المساواة».

وللمشروع مرام تؤثر كليًّا على العلاقات العربية-العربية؛ فهو ينقل الثقل الإقليمي إلى فرنسا، ويجعل قضية الفقر والتنمية المتوسطية، ومحاربة «الإرهاب»، أولوية لدى دول المتوسط، ويسعى إلى تنظيم الهجرة العربية المتوسطية إلى أوروبا المتوسطية، بقصرها على ما يُفَرِّغ الدول العربية المتوسطية من الكفاءات الفنية لِمَدّ الاقتصاد الأوروبي بالبارزين في المجالات التقنية والفنية.

ويُجْمِل أحمد الشيمي محددات وأهداف مشروع ساركوزي فيما يلي:

١- كبْح جماح الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا؛ لكونها «بؤرة كل المخاطر من إرهاب، وصراع ديني طائفي».
٢- تعزيز الموقع الإستراتيجي الفرنسي، خاصة بعد انحساره في الآونة الأخيرة؛ أوروبيًّا وإفريقيًّا؛ بسبب المد الأمريكي والصيني في منطقة شمال إفريقيا (وسائر إفريقيا).
٣- التطبيع العربي مع «إسرائيل»: (وفقًا لطبيعة المشروع الجغرافية سيُفضي إلى أن يكون) التطبيع العربي «الإسرائيلي» شرطًا أساسيًّا للانضمام إلى الاتحاد.(٦)

وقد سعى مشروع ساركوزي إلى وراثة مشروع الأورومتوسطية، الذي فشل حتى الآن في أن يكون جامعًا للمنطقة، لكنه على الصعيد الثنائي بين أوروبا والدول العربية لم ينته بعدُ، ولقد ظل فاعلاً حتى الآن في الجانبين الاقتصادي والثقافي، وإن مُنيَ بفشل كبير في طموحه السياسي، الحقيقي لا المعلن، وإلا فالمعلن بَيِّن الفشل حتى لأصحابه، يقول فرانك بياشيري: «ومما يبدو الآن أن كلا من الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة الأمريكية قد

---

(٦) أحمد حسين الشيمي، الباحث في الشئون الاقتصادية، مشروع ساركوزي المتوسطي.. لمصلحة من؟ موقع إسلام أون لاين، ٢٢/١٢/٢٠٠٧م.

حصلا على نتائج مخالفة لأهدافهم المعلنة لتوجيه العالم العربي نحو الديمقراطية؛ فالاتحاد الأوروبي يساند بعض الحكام المستبدين، لا لشيء إلا لحماية حدوده، وبذلك يمنع أي تقدم ملحوظ لتحقيق الديمقراطية».[(٧)]

ولقد حمل إخفاق الأورومتوسطية أسباب فشله، وهو تحديها المشروع الأمريكي بعد خيبة أملها من تركة حرب الكويت، ولقد كان الصدام مؤسسًا على عدة معطيات:

فالدول المستهدفة بالمشروع في معظمها تدور في فلك الولايات المتحدة الأمريكية الأكثر قوة وتأثيرًا.

والدول العربية لم تنظر إلى المشروع الأورومتوسطي كمنقذ، بل كمنافس استعماري أقل قوة اقتصادية وعسكرية.

والولايات المتحدة ذاتها عملت على إفشال هذا المشروع عبر ضغوطها التي مارستها على الدول المتوسطية.

وأوروبا كانت أمام استحقاق جديد، وهو استيعاب الدول المنضمة حديثًا إلى الاتحاد الأوروبي، فقد بدأ المشروع ودول أوروبا ١٢ دولة، وانتهى نسبيًّا وأوروبا ٢٥ دولة، وستصل إلى ٣٥ دولة قريبًا.

في أعقاب حرب العراق تزايد التدخل الأمريكي في المنطقة، وتفقد أوروبا ما تبقى من مستعمراتها السابقة، لاسيما في المغرب والجزائر ولبنان.

خضعت أوروبا لمتغيرين سلبيين رئيسين حدًّا من نفوذها السياسي: أولهما نجاح الولايات المتحدة في أعقاب حرب العراق في تشطير أوروبا إلى «أوروبا القديمة» (ألمانيا، وفرنسا) و«الحديثة» (أسبانيا، وإيطاليا والبرتغال)؛ حيث تناغمت الثانية سياسيًّا مع استراتيجية الولايات المتحدة إلى أن تمكنت المقاومة العراقية من كسر هذه المعادلة، ومن ثَم رحيل قوات «أوروبا الحديثة» من العراق، لكن من دون أن تتمكن هذه الدول من تغيير خريطة الدول الكبرى داخل أوروبا. وثانيهما تولي اليمينيين ساركوزي (فرنسا) وميركل (ألمانيا) الحكم في بلديهما، واتخاذهما خطًّا أقرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية منه إلى أوروبا.

على أن المشاريع الأمريكية والأوروبية لم تكن إلا وراثة لإرادة استعمارية غربية في تأطير علاقاته بالدول العربية، داخل سياج من الهيمنة، والانفراد بالدول العربية، وإدخالها في أحلاف واتحادات لا تكون فيها الرقم الفاعل، كان أبرزها اتفاق سايكس بيكو، وتفاهمات الدول الاستعمارية السابقة حول مناطق النفوذ داخل الدول العربية، ما جعل هذه الدول ترتبط «سُرِّيًّا» بالدول الاستعمارية، التي لم تزل حتى الآن تتمتع بنفوذ هائل على مستعمراتها السابقة، إلى الحد الذي جعل فرنسا حاضرة بقوة في المشاورات والمباحثات التوافقية لاختيار رئيس لبنان، كما لم يكن التمثيل الفرنسي القوي في قوات «حفظ السلام» بالجنوب اللبناني، في أعقاب حرب لبنان ٢٠٠٦م، إلا تجسيدًا لهذا الامتداد الاستعماري السابق، كما لم يكن الوجود البريطاني في الجنوب العراقي بعيدًا عن هذا المعنى، ولا ارتكان فرنسا-ساركوزي على بدء «التبشير» بمشروعها لدول المتوسط من داخل الدول المغاربية التي لها علاقات استعمارية سابقة معها بعيدًا أيضًا.

تأثير المشاريع الغربية، والعلاقات الغربية العربية على العلاقات العربية البينية:

تكمن خطورة المشاريع الغربية الراهنة، فيما نراه، من أن التأثيرات الاستراتيجية لكل مشروع باتت محددًا لأطر التعامل العربي- العربي، من خلال بعض النتائج المترتبة عليه فيما يلي:

يمكن تلمس أهداب التغيير الناشئ عن تنفيذ بعض خطوات في اتجاه مشروع الشرق الأوسط الكبير في النماذج التالية:

- أسفر الوجود الأمريكي الكثيف في العراق عن وقوع دول خليجية صغيرة في فلك التأثير

---

(٧) فرانك بيانشيري، الديمقراطية في العالم العربي: والفشل المزدوج لاستراتيجية الاتحاد الأوروبي، واستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية، مجلة ملتقى الشباب الأورومتوسطي، عدد يوليو ٢٠٠٥م.

الأمريكي، وحرمها من التلاقي مع جيرانها العرب؛ بشكل يخرج عن حدود ما ترسمه الولايات المتحدة الأمريكية للمنطقة.

- أرغم الاحتلال الأمريكي في العراق سوريا على مزيد من التقارب والتحالف الاستراتيجي الوثيق مع إيران، ما باعدها -لفترة- عن جيرانها من الدول الخليجية ومصر؛ فالوجود الغربي على تُخُوم سوريا حداها إلى أن تبتعد كثيرًا عن محيطها العربي، وتقترب أكثر من قوة تبدَّت لديها كقوة إقليمية صاعدة، قادرة على الوقوف بوجه الولايات المتحدة، لو رغبت في ذلك.
- عند ممارسة الضغوط بقوة على النظام الليبي، سرعان ما تأثرت العلاقتين السعودية- الليبية، والمصرية- الليبية؛ نتيجة الانفراجة الحادثة في قضية لوكيربي في العام ١٩٨٨م، ما دعا ليبيا إلى البعد عن «العروبة»، وإبداء قائد ثورتها انفتاحًا أكبر على الغرب، ثم انفتاحه على إفريقيا، وإدارته ظهره للعرب وجامعتهم، إلى حد الرغبة في الخلاص من عضويتها.
- أَغَلَّ المشروع الأمريكي، والارتباطات الوثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية، أيدي دول عربية لها مصالح إضافية في الصومال عن مد يد العون له، ولنظامه الوليد في أعقاب حرب أهلية طاحنة، حتى غدت الصومال مسرحًا للصراعات الداخلية من جديد؛ إثر سقوط نظام المحاكم، كما منع الدول العربية من حل مشكلتي غزة الاقتصادية، ودارفور القَبَلِيَّة والحزبية عن طريق الدعم المالي والتنموي.

يجعل المشروع الشرق أوسطي «إسرائيل» قطب التأثير، والقيادة في العالم العربي، وينهي المشروع العربي برُمَّته، ويقضي على القضية الفلسطينية عبر تسوية مجحفة ظلت متعثرة لحد الآن.

أما المشاريع الأوروبية فسماتها التأثيرية البارزة على المنظومة العربية تكمن فيما يلي:

تجزيء العالم العربي إلى متوسطي، وغيرمتوسطي، (هذا مع العلم أن أوروبا لا ترنو من وراء المشاريع السالفة الذكر إلى إدارة ظهرها للخليج والمشرق العربي عمومًا، بل إنها تتعامل مع العالم العربي بشكل بالغ الخطورة، فهي تحرص على تجزئته إلى مناطق، ثم دول، وتعامل كافة الدول عبر آليات محددة تحول دون التواصل العربي- العربي). وهذه عملية تفكيك ظالمة؛ إذ كيف يُفصل السودان عن مصر بموجب هذا المشروع، والسعودية عن مصر أيضًا بما لعلاقات هذه الدول من ترابط أكبر بكثير من الرابطة المتوسطية أو الشمالية - الجنوبية.

- تمرير التطبيع مع «إسرائيل» عبر البوابة المتوسطية، وإدماجها ضمن منظومة الدول المطلة على البحر المتوسط؛ حتى قبل أي تسوية رمزية للقضية الفلسطينية، وهو ما يجعل الدول العربية المطلة على البحر المتوسط تقدم تنازلاً مجانيًّا لـ «إسرائيل» وأوروبا، دون ما يدعو إليه، وبالتالي فإن هذه المشاريع ستؤثر سلبيًّا على السياسة العربية التي ستنقسم بطبيعة الحال حيال إدماج «إسرائيل» في أحلاف واتحادات اقتصادية وأمنية، تستبعد -على الأقل- دولاً أخرى لم تبلغ الحماسة ذاتها في التطبيع مع «إسرائيل».
- تُسلم المشروعات الأوروبية قياد الدول العربية إلى أوروبا في المشروع الأورومتوسطي، والفرنسي في مشروع ساركوزي، وعليه؛ فإن العلاقات البينية العربية ستكون رهينة -بأكثر من وضعها الحالي- لإملاءات السياسة الأوروبية (أو الفرنسية)، وغني عن البيان أن كلا الفريقين بحاجة إلى التعامل مع بلدان متنافرة نوعًا ما من التعامل مع وحدة عربية متوسطية تكون نواة لمشروع عربي موحد جادّ، ولذا، فستظل أوروبا حريصة على بقاء مشاكل عربية من دون حلٍّ، كمشكلة الصحراء الغربية بين الجزائر والمغرب.

- فصل الشمال العربي المسلم عن الجنوب المسلم الإفريقي، وإبعاد العالم العربي عن التأثير، أو الإفادة بالعلاقة التاريخية والدينية والسياسية مع دولٍ مثل: تشاد ومالي، والسنغال وغيرها، علاوة على دول القرن الإفريقي العربية وغير العربية.

العلاقات البينية العربية:

لا تعبر العلاقات العربية عن الطموح الذي ترجوه



منها الشعوب العربية، التواقة إلى شكل من العلاقات يتجاوز الخلافات السياسية، والمعوقات الاقتصادية، والعراقيل الثقافية.

ويُلاحَظ أن العلاقات السياسية تأثرت بالتدخل الخارجي في الشئون العربية؛ حيث أسهم الاحتلال الأمريكي للعراق في تأثر العلاقة السورية اللبنانية، وتعزيز التحالف السوري الإيراني على حساب العلاقات مع الخليج العربي ومصر، والتقارب مع ليبيا، وقد لُوحظ أن التغير في الموقف الأمريكي، خصوصًا من بعض الدول العربية قد أحدث تغيرًا مباشرًا في العلاقات البينية العربية، ويُذْكَر على سبيل المثال القمة المفاجئة التي جمعت بين الملك الأردني عبد الله والرئيس السوري بشار الأسد في ٢٠٠٧/١١/١٨م، بعد أن كان الأول قد تحدث عن «هلال شيعي» ممتد من إيران إلى لبنان عابرًا سوريا، والتي ترجمت فيما بعد إلى توقيع ١٢ اتفاقية ومذكرة تفاهم لتعزيز التعاون الثنائي في المجالات الاقتصادية والزراعية، والثقافية والمياه، والطاقة الكهربائية بين البلدين(٨).

العلاقات البينية العربية كانت، دومًا، هدفًا للخارج، ومرآة للتغيير على الساحة الدولية

وقد عبَّرت عن انفراجة نسبية في العلاقات الأمريكية- الإيرانية، والشيء ذاته يمكن تلمُّسه مع حضور الرئيس الإيراني أحمدي نجاد القمة الخليجية التي أقيمت في ٢٠٠٧/١٢/٤م، ما أسفر عن تحسن نسبي في علاقات بينية خليجية؛ لأسباب خارجية، وتأثرت أوضاع العمالة المصرية في ليبيا بعد الانفراجة التي حدثت في العلاقات الليبية الأمريكية.

والعلاقات البينية العربية كانت، دومًا، هدفًا للخارج، ومرآة للتغيير على الساحة الدولية؛ ففي أثناء الحرب الباردة كانت المنطقة العربية ساحة للاستقطاب الأمريكي والسوفييتي؛ (كلّ على حدة)، و«في حرب الخليج الثانية، انقسم الوطن العربي بشكل حاد إلى حكومات مساندة وحكومات ضد، واستمر العداء بين الفُرَقَاء بقسوة حتى وقت متأخر، دون أن يتنازل أحد من أطراف الخلاف بالصفح والتسامح. وللأسف فإن الحالات التي تم فيها ترميم الجسور، حدثت بفعل ضغوطات خارجية، قادتها في الغالب الولايات المتحدة الأمريكية، وليس بمبادرات عربية ذاتية»(٩).

وغني عن البيان أن التدهور الذي اعترى العلاقات البينية العربية، على إثر توقيع معاهدة كامب ديفيد بين مصر و«إسرائيل»، قد تم لملمته، على الرغم من عدم تراجع مصر عن الاتفاقية، وقد وقف النظام العربي عاجزًا عن الوفاء باتفاقية الدفاع المشترك، المبرمة بين الدول العربية، فيما كان العراق يُحْتَل في العام ٢٠٠٣م، كما امتد عجزه ليمنع تقسيمه، أو لتقليص النفوذ الأمريكي والإيراني، والتركي، والصهيوني في العراق.

والعجز ذاته اعترى العالم العربي؛ فوقف خلو اليدين إزاء أزمة غزة والضفة، ففشل في تقديم مساعدات إلا بشكل هزيل، أو حل الأزمة السياسية الداخلية بين الفُرَقَاء الفلسطينيين، برغم جهود الوساطة السعودية والمصرية، والشيء ذاته يُقَال عن لبنان، الذي عانى أزمة داخلية خانقة، ولم يستطع الوسطاء العرب إيجاد نمط من العلاقة السورية اللبنانية يمكنها أن تحدث توافقًا داخليًا وعربيًا، وخلاصة القول أن النظام العربي قد فشل في الوفاء بمسئولياته إزاء العراق وفلسطين ولبنان.

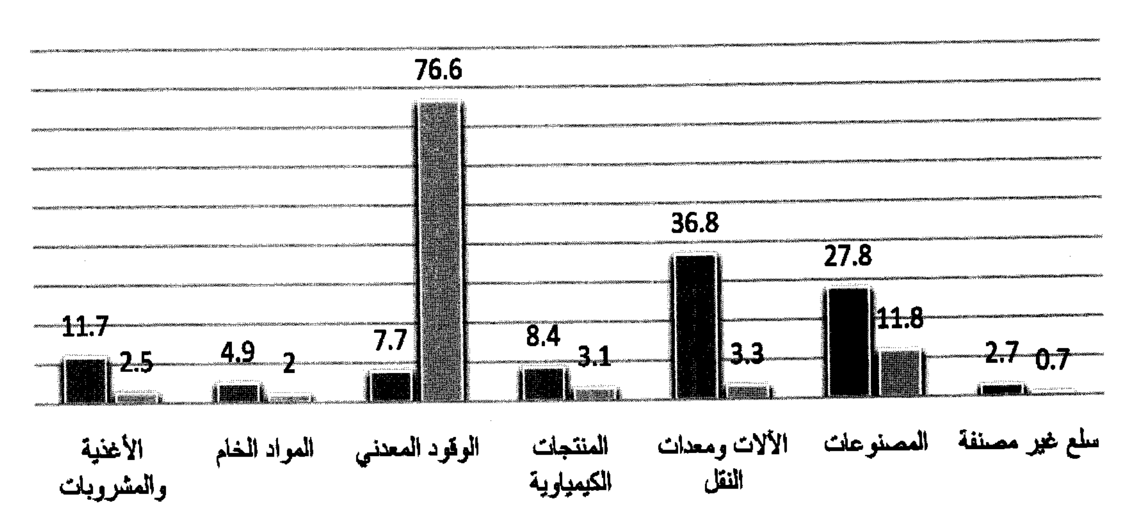
وعلى الصعيد الاقتصادي تبرز جملة من المعطيات التي تشي بحقائق يمكننا أن نخلص إليها كالتالي:

١- يُعتبر العالم العربي ثالث كتلة سكانية في العالم، بعد الصين والهند (٣٠٣ مليون)، ويتوافر على مساحة هائلة تمثل ما نسبته ١٠,٢٪، لكنه مع ذلك لا يمثل في صادراته إلى العالم سوى ما

(٨) وكالة الأنباء السورية ٢٠٠٧/١٢/٢٩م.

(٩) د يوسف مكي، نحو صياغة منهجية للعلاقات العربية، موقع التجديد العربي.

الهيكل السلعي للتجارة الخارجية العربية لعام 2006
(نسبة مئوية)

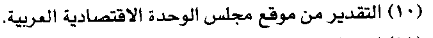


نسبته ٤,١ ٪ فقط[١٠]، وهي نسبة ضئيلة جدًّا؛ مقارنة بما يتوافر لدى الدول العربية من ثروات نفطية، تمثل الجزء الأكبر من الناتج المحلي الإجمالي للعالم العربي، والذي يبلغ ٧٢٢,٩ مليار دولار.

٢- متوسط حصة التجارة البينية العربية خلال السنوات العشر الماضيات لم يتجاوز ٨,٩٪ من حجم تجارتها الداخلية البينية[١١]، وهي نسبة تعبِّر عن أن التعامل الخارجي العربي طاغٍ على الحالة الاقتصادية العربية، ويجسِّد حالة فقدان البوصلة، فيما يخص صناعات كثيرة، وزراعات لا يتم تشجيعها في الداخل العربي، وهذا له أسبابه الداخلية المتمثلة في قلة الوعي بأهمية تحقيق الاكتفاء الذاتي، والتكامل داخل المنظومة العربية؛ لأسباب قِيَمِيّة واستراتيجية، وله أسبابه الخارجية المتمثلة في رغبة «الشريك» الخارجي في الحفاظ على مصالحه الاقتصادية، المتعارضة مع المصلحة العربية في هذا الخصوص.

٣- تُعد نسبة الوقود المصدَّرة للخارج، هي أعلى النسب في الهيكل السلعي للتجارة الخارجية، وتتجاوز ٧٦٪ من الهيكل السلعي، وهذا يشي بأن الدول العربية ما زالت دائرة في فلك إنتاج المواد الخام، من دون تفعيل لدور التصنيع، الذي تتوافر مقوماته داخل حيز الوطن العربي[١٢].

٤- يبلغ العجز الزراعي في العالم العربي ما يكاد يقارب حجم التجارة البينية العربية، إذ بلغ في العام ٢٠٠٢م نحو ٢١,٣ مليار دولار، بصادرات زراعية خارجية بلغت ٧ مليارات دولار، وواردات بلغت ٢٨,٣ مليار دولار [١٣]، ورغم وجود معوقات كثيرة مثل: قلة مقدار العائد المادي من الاستثمار الزراعي، ووجود وسطاء بين صغار المزارعين (الذين يمثلون ٨٠٪ من حجم الاستثمار الزراعي في العالم العربي وفقًا للتقرير ذاته)[١٤]، إلا أن غياب الإرادة الجماعية العربية الرسمية في تقليل حجم الضرائب على المزارعين، وتقديم تسهيلات مكافئة للتسهيلات الاستثمارية في المجال السياحي على سبيل المثال، ومن قبل عدم



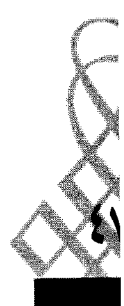
(١٠) التقدير من موقع مجلس الوحدة الاقتصادية العربية.

(١١) إحصائية صادرة عن المعهد العربي للتخطيط.

(١٢) الهيكل السلعي.

(١٣) موقع مجلس الوحدة الاقتصادية العربية.

(١٤) تقرير استراتيجية التنمية العربية الزراعية المستدامة للعقدين القادمين الصادر عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية للعقدين القادمين صـ١٥، وانظر هيكل الواردات السلعية الزراعية.



التعامل مع الأمن الزراعي كقضية أمن قومي، أو كقضية مرشحة لأن تفجّر صراعات على الغذاء قادمة، مثلما تكهّن التقرير، قد أفضى إلى عجز كبير كهذا.

٥- التجارة العربية البينية العربية غير البترولية تمثل نحو ٣٠٪ من التجارة العربية الكلية [١٥]، والمواد المصنعة التي تستحوذ على ٦٧٪ من مجموع الواردات العربية، هي تقريبًا النسبة نفسها التي تحتلها منتجات الطاقة في الصادرات. ويساهم تبادل النفط بالمواد المصنّعة (عمليًا) بين الغرب وآسيا، والدول العربية، ما يقلص التجارة البينية العربية.[١٦]

٦ - المستثمر العربي هو أكبر مستثمر في الدول العربية، بِغَضّ النظر عن ماهية الاستثمار داخل الحيز العربي.

٧ - الدول العربية توفر أكبر سوق للعمالة العربية المهاجرة.[١٧]

٨ - تقرير منظمة العمل الدولية في عام ٢٠٠٣م ذكر أن متوسط نسبة البطالة في العالم وصل إلى ٦,٢٪، بينما بلغت النسبة في العالم العربي في العام نفسه ١٢,٢٪، وتتزايد سنويًا بمعدل ٣٪.

وما يجعل هذه القضية من أكبر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية، هو أن ٦٠٪ تقريبًا من سكانها هم دون سن الـ٢٥، وقد وصفت منظمة العمل العربية في تقرير نشر في شهر مارس ٢٠٠٥م- الوضع الحالي للبطالة في الدول العربية بـ «الأسوأ بين جميع مناطق العالم دون منازع». ويجب على الاقتصادات العربية ضخ نحو ٧٠ مليار دولار(....) حتى تتمكن من التغلب على هذه المشكلة الخطيرة

٩ - تُقدَّر الأراضي السودانية الصالحة للزراعة بحوالي ٢٠٠ مليون فدان، يُستغل منها حوالي ١٥٪، أي حوالي ٣٠ مليون فدان، كما يمثّل تنوع المناخ والتربة فرصةً جيدة لمجالات عديدة في الإنتاج الزراعي والحيواني، في مختلف مواسم السنة.

ويمتلك السودان أكثر من ١٣٠ مليون رأس من الثروة الحيوانية [١٨]، وتُقدَّر نسبة الإنفاق الحكومي عليها ١٠٪ فقط منه، بما لا يفي سوى بـ ٣٪ من احتياجات هذا القطاع.

١٠- بين ١٩٨٠ و١٩٩٨م ارتفعت التجارة الخارجية العالمية (الصادرات والواردات السلعية) من ٣٨٠٢ مليار دولار إلى ١٠٦٣٥ مليارًا، أي بنسبة ١٨٠٪، في حين هبطت التجارة الخارجية العربية خلال الفترة نفسها من ٣٤٧ مليار دولار، إلى ٢٩٠ مليارًا، أي بنسبة سالبة قدرها ١٦٪. وانخفضت أهمية الواردات العربية من ٥,٨٪ إلى ٢,٧٪ من الواردات العالمية. حدث هذا التباطؤ رغم تحرير التجارة العالمية من القيود الكمية والرسوم الجمركية، ورغم الاتفاقات التفضيلية التي عقدت في التسعينيات.[١٩]

١١- من بين نسبة الـ٩٪ للاستثمارات الأوروبية الخارجية، لم تحظ دول جنوب المتوسط إلا بـ١٪ فقط .. واستأثرت «إسرائيل» وحدها بـ٤,٥٪ من نسبة الـ١٪، وإجمالي ما حصلت عليه دول جنوب المتوسط من إعانات وتسهيلات يوازي إجمالي ما حصلت عليه دولة واحدة في شرق أوروبا (بولندا)[٢٠]، وفي السياق ذاته قدِّرت الاستثمارات الأجنبية المباشرة في العالم في عام ١٩٩٨م بحوالي ٤٤٠ مليار دولار؛ خُصِّص منها ١٦٢ مليار دولار للبلدان النامية. وبلغت حصة العالم العربي منها ٣,١ مليارات دولار، أي ٠,٧٪ من الاستثمارات في العالم.[٢١]

ملاحظات ختامية:

يظهر من خلال المعطيات السابقة، خلال الدراسة،

(١٥) معوقات منطقة التجارة العربية الكبرى، وسبل الحد منها، موقع مجلس الوحدة الاقتصادية العربية، ٣١/٨/٢٠٠٥م.

(١٦) الباحث الاقتصادي د. صباح نعوش، تحرير التجارة العربية البينية، موقع الجزيرة.

(١٧) معوقات منطقة التجارة العربية الكبرى، وسبل الحد منها، موقع مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ٣١/٠٨/٢٠٠٥م.

(١٩) موقع جمهورية السودان، المجلس الوطني.

(٢٠) الباحث الاقتصادي، د. صباح نعوش، تحرير التجارة العربية البينية، موقع الجزيرة.

(٢١) د.سعيد اللاوندي، إعلان وفاة عملية برشلونة الأوروأوسطية، إسلام أون لاين، ٣/١٢/٢٠٠٥م.

(٢٣) الباحث الاقتصادي د. صباح نعوش، تحرير التجارة العربية البينية، موقع الجزيرة.

أن ثمة جهد خارجي فاعل أدّى إلى هشاشة الوضع الداخلي على صُعُدِه المختلفة، ومن ثَم يمكن الخلوص إلى تلك الملاحظات، التي يمكن أن تساهم في تقوية العلاقات البينية العربية:

كما تقدم في بداية الدراسة؛ فإن الفعل الرسمي العربي متخلف عن طموحات الشعوب العربية، وثمة إرادة خارجية تبدو نافذة في هذا الخصوص، وهناك تفسير له وجاهته، لدى كثير من المعنيين بدراسة الحالة العربية؛ يُفضي لدى بعض الخبراء إلى صعوبة تقوية العلاقات العربية-العربية في المرحلة الراهنة، إلا أنه قد يكون من المناسب أن يقال في هذا الصدد: إن التعويل على الجانب الرسمي، ربما كان منطقًا ضعيفًا للنخبة العربية الواعية، ومن ثم، تتجلى بعض الحلول الطموحة الناجزة وغير الشاملة بطبيعة الحال، ولا هي منتهى الطموح، وإنما قد تجسر الهوة، وترتق الرقع.

عند رصْد حجم الاستثمارات الخارجية العربية خارج العالم العربي، والتي لم يتم تقديرها على نحو دقيق حتى الآن، فقد قدّرت المؤسسة العربية لضمان الاستثمار في الكويت، في تقرير لها أواخر عام ٢٠٠٤م، حجم الثروات العربية في الخارج بنحو ١,٤ تريليون دولار، بينما قدر د. أحمد جويلي الأمين العام لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية، حجم الأموال العربية في الخارج بنحو (٢٤٠٠) مليار دولار[٢٣]... يتبين أن حجم الاستثمار، قياسًا إلى السوق الاستثمارية الواعدة في دول عربية ناهضة (السودان نموذجًا)، محبطٌ للغاية، مع الإقرار بأن جهود إعادة تلك الأموال دون المستوى، وكمؤشر آخر، يُلحظ أن حجم التبادل التجاري مع الصين مثلاً قد بلغ نحو ١٠٠ مليار دولار، ومع الولايات المتحدة بلغ نحو ٣٤ مليار دولار، وكلاهما بالطبع يفوق حجم التجارة البينية العربية.

تبدو من المعطيات السابقة أنه، في حين تبذل الدول الاستعمارية جهودًا هائلة من أجل ضمان تبعية معظم الدول العربية لها؛ فإنها تضنّ في المقابل بإيلاء جهود التنمية في تلك البلدان حيزًا من اهتماماتها، ومن استثماراتها النافعة، وتحرص في المقابل على تسييس تعاملها الاستثماري والتجاري مع الدول العربية؛ حيث أرغمت مصر، نتيجة التردي الشديد في قطاع المنسوجات، ونتيجة لضغوط مُورِست عليها على القبول بأول اتفاقية لها مع الكيان الصهيوني منذ عام ١٩٧٩م، وهي اتفاقية صيغت بحنكة لغزو السوق العربي عبر المنتجات «الإسرائيلية» عبر مصر، (شأنها كالمنطقة الصناعية بشمال عمّان بالأردن، التي يتسرب المنتج «الإسرائيلي» من خلالها، وتقوم بالدور ذاته)، ولتجعل «إسرائيل» معبر التعامل التصديري إلى الولايات المتحدة، وتخترق «تطبيعيًا» قناعات نحو مليون عامل يعملون في قطاع المنسوجات، في حين يصل إجمالي حجمها - بحسب شبكة بي بي سي الإخبارية - ١٧٢ مليون دولار، وتساهم بنحو ٣٠٪ من الصادرات المصرية، وترنو الاتفاقية إلى إقامة منطقة تجارة حرة بين الولايات المتحدة ومصر. يُذكر أن حجم التجارة المتبادل بين البلدين قد وصل إلى ٥ مليارات دولار عام ٢٠٠٤م.

عطفًا على ما تقدم، يتجلى المشهد الاقتصادي الأحادي الفائدة، الذي ينتهجه الغرب حيال العالم العربي؛ فهو يشاطر العالم العربي ثرواته (عبر شركات استخراج النفط، ثم يحظى بجُلّ استثماراته من عائدات ثرواته)، ثم يمنع العالم العربي من الاستثمار الجاد -عبر آليات نذكرها لاحقًا-، ويترك الباب مشرعًا أمام الاستثمار السياحي، والفضاء الإعلامي، والاتصالات، ويَغُلّ أيدي رجال الأعمال العرب، والدول العربية عن الاستثمار الجاد، ثم يحدد طرائق قنوات الاستثمار عبر مشاريع الاحتواء، والاستعمار الاقتصادي والثقافي، وفي الأخير يقنن التجارة الخارجية عبر اتفاقية الجات، ويحرر وارداته إلى العالم العربي، غير أنه يضع بعض الضوابط الإضافية للاستثمار معه، كما في نموذج الكويز.

وردت دلائل عديدة على نجاح الغرب في منع زراعة القمح وغيره في أكثر من بلد عربي، وإفشاله لمشروعات طموحة تتبنى مشروعات جادة، ومنها

(٢٣) مجلة المجتمع، سبتمبر ٢٠٠٦م.

الحالة المصرية التي أبدل الاستثمار الزراعي والحيواني والصناعي، عبر شركات توظيف الأموال الناجحة، باستثمارات سياحية وإعلامية وخدماتية (اتصالات)، عبر مجموعة من رجال الأعمال المرتبطين بالغرب، كما أن التربة الناجحة في الاستثمار يُحَال بينها والاستثمار الطموح والمفيد، ويجسِّد ذلك السودان، كمثال لما يحول الغرب دون تحوله إلى دولة جاذبة للاستثمار والعمالة، باضطراد التصعيد ضده مع نموه الاقتصادي(٢٣)، إلا أنه كما يبدو في الأفق السياسي يبدو مقبلاً على مزيد من التحرش الدولي به، لا سيما بعد اكتشاف آبار نفطية ذات احتياطيات مشجعة لديه.

على الرغم من وجود تناقضات عديدة بين المشروعين الأمريكي والأوروبي؛ فإن العرب -كأضعف الإيمان- لم يفيدوا من هذا التناقض، ففي حين أعلنت دول الخليج العربي الست في ختام قمتها الـ٢٨ في العاصمة القطرية الدوحة قيام السوق الخليجية المشتركة؛ اعتبارًا من الأول من يناير ٢٠٠٨م، فإنه قد يكون من غير الراجح في الوقت الراهن التعامل مع مسألة العملة الموحدة على أنها قَدَر قادم لا محالة، وكذلك مسألة ربط العملة المحلية بالدولار. لكن على أية حال، تبقى بعض الأمور مشجعة في مناخ الاستثمار العربي؛ حيث ستوفر السوق الخليجية المشتركة -بحسب الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي عبد الرحمن العطية- لمواطني دول الخليج الست مزاولة جميع الأنشطة الاستثمارية والخدمية.(٢٤)

في ضوء التردي في العلاقات البينية العربية يُتوقع أن تأخذ النخبة الاقتصادية والثقافية الحريصة على شعوبها ومواطنيها بزمام المبادرة في التصدي للمشروعات الغربية، سواء منها ما يتعلق بالجانب الاقتصادي، أو السياسي الناشئ عن رغبة الدول الاستعمارية في التفكيك والتقسيم، واتخاذها خطوات عملية في هذا الخصوص، كتشجيع القَبَلِيَّة، وإثارة قضايا الأقليات والطائفية، والمشكلات الدينية، من أجل «تفكيك الأمة العربية إلى قبائل وإثنيات، ولا أدل على ذلك من التوصية التي أقرها الكونجرس الأمريكي عام ١٩٨٣م؛ بضرورة تحويل كل قبيلة في شبه الجزيرة العربية إلى دولة!»(٢٥)، وقد يحدث تغير ناجم عن التفكير في إطلاق مفاعيل الاقتصاد الشعبي، باتجاه يرفع الحرج عن المواقف الرسمية العربية، ويؤدي إلى نتائج قد تكون بحد أدنى، لكنه مقبول في ظرف دولي وإقليمي دقيق.

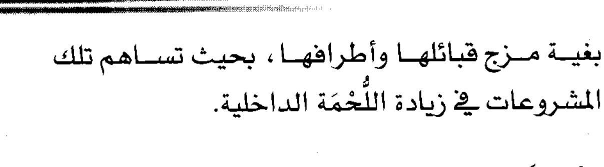
قد يكون من اللائق انتباه النظام العربي بأكثر من حالته الراهنة إلى مخاطر التسخين القبلي والطائفي، فالواجب مناهضة ذلك حكوميًّا وشعبيًّا، ومحاذير انفجار القنابل الديموجرافية في بعض الدول العربية التي يشكِّل مواطنوها أقلية مرشحة للتناقص أكثر في أوطانها!

وقد يكون عليها تقليص المشكلة عبر الاعتماد أكثر على العامل العربي، والمسلم؛ حصرًا لمشكلات بدت جلية في أفق السياسة القادمة، وقد يكون من الواجب عليها السعي خلف إعادة ما يمكن إعادته من الأموال العربية المهاجرة غير المسيسة؛ عبر تشجيع مناخ الاستثمار، والتوعية بمخاطر هجرة الأموال، وقد يكون من المتحتم عليها أن تسعى وراء تشييد البنية الأساسية المشجعة للاستثمار، والتي يعمل الاستعمار دومًا على محاربتها، كمثل مناهضة مشاريع طرق، مثل الطريق ما بين مصر والسودان، أو جسر يربط مصر بالسعودية، أو خطوط سكك حديدية في بلدان العالم العربي الشاسعة؛ خصوصًا

(٢٤) رغم أن السودان قد خطا حثيثًا في مساع استثمارية، إلا أنه جُوبِهَ بحزمة من الإجراءات التصعيدية من الغرب في دارفور والجنوب السوداني وحتى الشرق، وتمت إثارة القلاقل مترافقة مع لقاءات مع قادة التمرد جرت في دول غربية عديدة، ورغم أن السودان سار إلى حدٍّ ما نحو الطريق الصحيح؛ فاستثماريًّا للدلالة على ذلك، فإنه وفقًا للمعطيات التالية المشجعة بعض الشيء على محاولة عربية جادة يلاحظ أنه قد شهدت الفترة من ٩٨ – ٢٠٠٦م نموًا متزايدًا للقطيع القومي؛ حيث قفزت أعداد القطيع من ١١٦ مليون رأس في عام ١٩٩٨م إلى أكثر من ١٣٧ مليون رأس في عام ٢٠٠٦م منها ٤٠,٩ مليون رأس من الأبقار و٥٠,٣ مليون رأس من الضأن ٤٢,٧ مليون رأس من الماعز و٤,٧ مليون رأس من الإبل. يراجع موقع وزارة الثروة الحيوانية السودانية.

(٢٥) موقع الجزيرة. نت ٢٠٠٧/١٢/٤م.

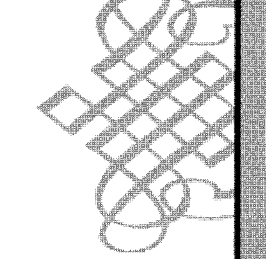
(٢٦) محاضرة د.سهيل عروسي، الشرق الأوسط مفهوم استعماري متجدد، محاضرة ألقيت في مديرية الثقافة في حلب بتاريخ ٢٠٠٧/١/٣٠م.



بغيـة مـزج قبائلهـا وأطرافهـا، بحيث تسـاهم تلك المشروعات في زيادة اللُّحْمَة الداخلية.

وأخيرًا:

يبقـى أن يقال: إن اسـتعراض المشـكلات العربية قد يكون خطوة بسـيطة ومألوفة في حلها، واليأس عائـق في الطريـق مألـوف كذلك، غير أن مسـألة اللُّحْمة العربية ذاتها ليسـت رهينة بالمواقف الرسمية دومًـا، فهذه المنطقة ظلـت كيانًا واحدًا عصيًّا على التفكيك، وإن غدت المصاعب كثيرة ومتشابكة؛ ستبقى هناك ثغرة ينفذ منها المصلحون، والعجز فعل سلبي يسير، لكنه مدمر، ولن يبقى في الغد مكان للعاجزين..



معلومات إضافية
اتفاقية الكويز (QIZ)

الكويز (QIZ):

هي اختصار لعبارة Qualified Industrial Zones، أي المناطق الصناعية المؤهلة، وهي اتفاقية تجارية وُقِّعَت في القاهرة يوم ١٤ ديسمبر ٢٠٠٤م بين مصر و«إسرائيل» والولايات المتحدة الأمريكية.

تاريخ الكويز:

بدأ العمل بنظام المناطق الصناعية المؤهلة لأول مرة عام ١٩٩٦م، عندما أقر الكونجرس الأمريكي القانون رقم ٦٩٥٥، والذي يجيز منح إعفاء جمركي في الولايات المتحدة للسلع الصناعية التي يتم إنتاجها بين «إسرائيل» ومناطق صناعية مؤهلة، وعرضت الولايات المتحدة على مصر، والأردن، والسلطة الفلسطينية، الانضمام لهذه الاتفاقية، إلا أن مصر أرجأت الانضمام إليها، بينما وافقت الأردن والسلطة الفلسطينية.

وخلال اجتماع المجلس الرئاسي المصري الأمريكي عام ١٩٩٩م أبدت الولايات المتحدة رغبتها في أن تنضم مصر لاتفاقية الكويز، قبل أن تبدأ مفاوضات منطقة التجارة الحرة بين البلدين، ولكن مصر عارضت هذه الاتفاقية مرة أخرى.

وفي عام ٢٠٠٣م بدأت المرحلة الأخيرة من المفاوضات بشكل غير رسمي. وفي نوفمبر ٢٠٠٤م بدأ الحديث الرسمي عن الاتفاقية، أثناء زيارة وفد من وزارة التجارة والصناعة المصرية إلى الولايات المتحدة، وَوُقِّعت الاتفاقية يوم ١٤ ديسمبر ٢٠٠٤م، ودخلت حيز النفاذ خلال شهر فبراير ٢٠٠٥م.

المناطق الصناعية المؤهلة:

هي مناطق محددة جغرافيًا في مصر، تحددها الحكومة المصرية، وتوافق عليها الحكومة الأمريكية، وهي تكفل تمتع الصادرات المصرية من المنتجات الصناعية من هذه المناطق، بإعفاء كامل من الرسوم الجمركية عند نفاذها للمناطق الخاضعة للسلطات الجمركية الأمريكية، ذلك بشرط استيفاء هذه المنتجات لشرط المنشأ المصري، ولنسبة مُدْخَل الإنتاج الإسرائيلي؛ وفقًا لقواعد المنشأ الواردة في الاتفاقية.

وحتى الآن تم اختيار أربع مناطق، مؤهلة وفقًا لشروط الاتفاقية هي:

- القاهرة الكبرى، وتشمل: الجيزة، شبرا الخيمة، مدينة نصر، العاشر من رمضان، مدينة ١٥ مايو، مدينة بدر، مدينة السادس من أكتوبر، مدينة العبور، مدينة قليوب، والمنطقة الصناعية بجسر السويس.
- الإسكندرية، وتشمل: العامرية (برج العرب).
- منطقة قناة السويس، وتشمل مدن: بورسعيد، الإسماعيلية، والسويس.
- منطقة وسط الدلتا، وتشمل محافظات: الغربية، الدقهلية، المنوفية، ودمياط.

مع ترك المجال مفتوحًا أمام إدراج المزيد من المناطق الصناعية المؤهلة؛ بالإضافة إلى المناطق الأربع الحالية، ويتم ذلك بموافقة الولايات المتحدة.



ويبلغ عدد المصانع المؤهلة العاملة ضمن اتفاقية الكويز خلال الفترة من ١٩ نوفمبر ٢٠٠٧م إلى ١٨ فبراير ٢٠٠٨م -وفقًا للأرقام الرسمية المصرية- ٦٩٦ مصنعًا في المناطق الأربع السابقة.

شروط الإعفاء الجمركي:

لكي تكون منتجات تلك المناطق مؤهلة للحصول على الإعفاء من الرسوم الجمركية، عند تصديرها للولايات المتحدة، فإنه يُشترط ما يلي:

- أن تكون الشركات المنتجة للسلع المصدرة مدْرَجة في القوائم الخاصة بهذه المناطق.
- وأن تتوافر قواعد المنشأ المتفق عليها في السلع المصدرة؛ بحيث لا تقل نسبة إجمالي المُكوِّن المحلي عن ٣٥٪ على النحو التالي:

ألا يقل المُكوِّن المحلي لكل من الشركة المصرية، والشركة الإسرائيلية عن ١١,٧٪، ويمكن استخدام مكونات أمريكية المنشأ، بحيث لا تزيد هذه المكونات على ١٥٪ من قيمة السلعة.

يمكن استخدام مكونات من قطاع غزة والضفة الغربية.

لا يشترط التزام الشركة المصرية بالنسبة المحددة الخاصة بالمُكوِّن الإسرائيلي في كل شحنة مُصَدَّرَة للولايات المتحدة، ولكن يجب أن يستوفي إجمالي صادرات الشركة في المناطق الصناعية المؤهلة للولايات المتحدة هذه النسبة كل ثلاثة أشهر.

المنتجات المستفيدة من الاتفاقية:

كافة المنتجات المُصَنَّعَة بالمناطق الصناعية المؤهلة، ومنها على سبيل المثال الأثاث، مواد البناء، السلع الهندسية، السلع الغذائية، الجلود، المنتجات الكيماوية، المنسوجات والملابس الجاهزة وغيرها.

معارضة الاتفاقية:

يرى معارضو هذه الاتفاقية أن ما ستتمخض عنه، من تعاون اقتصادي وثيق مع «إسرائيل»، سيؤدي فيما بعد إلى تقليص الدور المصري المساند للقضية الفلسطينية، معتبرين أنها تسريع غير مبرر للتطبيع مع «إسرائيل»، كما أنها ستفتح الباب على مصراعيه أمام «إسرائيل» لاختراق الاقتصاد المصري والصناعة المصرية.

ويقول معارضون: إن الاتفاقية في حقيقتها تُعدّ تنفيذًا لمبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش لإقامة منطقة تجارة حرة أمريكية شرق أوسطية، وهذه المبادرة هي في حقيقتها، أيضًا، إحياءٌ لمبادرة شمعون بيريز لإقامة السوق الشرق أوسطية كبديل للجامعة العربية.

كما أن مناطق «الكويز» -وفقًا لوجهات النظر المعارضة- ستتحول إلى منصة انطلاق للمكونات الإسرائيلية ضمن السلع المصرية، نحو الأسواق العربية، فضلاً عن دخولها السوق المصرية، لاختراق المقاطعة العربية، وضمنها المقاطعة المصرية للسلع الإسرائيلية.



المصادر:

الموقع الرسمي للمناطق الصناعية المؤهلة في مصر:

http://www.qizegypt.gov.eg

الجزيرة نت، ملف اتفاقية الكويز:

719066F84033.htm-http://www.aljazeera.net/NR/exeres/7F9DD2CE-FFDA-4F58-A615